

معهد الشريعة

لدراسة علم التوحيد والعقيدة

معهد يعنى أصالة بدروس

الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

للتأسيس والبناء العقدي

تلخيص شرح كتاب التوحيد

كامل من الدرس

١-٨٥

الدرس الأول ١٧-١

المؤلِّف: الشيخ أبو على، محمد بنُ عبد الوهاب بنِ سليمان بن علي مشَرَّفي التميمي النجدي المولود في بلدة العُيَيْنة في نجد في وسط جزيرة العربية،سنة خمس عشرة مائة وألف من الهجرة والمتوفى سنة ستٍ و مائتين وألف للهجرة.وعاش مايزيدُ على إحدى وتسعين سنة.

وهذا الكتاب لا يتجاوزُ الآيات والأحاديث والآثار، وفيه ثمانينَ آية وفيه مائةٌ وواحدٌ وأربعين حديثاً وفيه ملةٌ من الآثار.

منهج الشيخ في انتقاء الأحايث: جميع الأحايث بين الصحيح وحسن وما يحتمل التحسين وحرص الا يورد حديثًا موضوعًا،حتي نقولات عن العلماء كانت يسيرة جدا.

المؤلَّف: كتبه المؤلف في بحرِ العشرينات من عمره في بصرة وختمه في نجد بحسب الأقوال,وفيه أنواع التوحيد الثلاثة وإن كان قد اقتضب في توحيدَي الربوبية والأسماء والصفات وأسهب في بيان توحيد الألوهية الذي هو كان المقصود الأهم في تأليفه لهذا الكتاب.

اختلف العلماء في عدد أبواب الكتاب ومع المقدمة سبعةٌ وستون باباً والأظهر والله أعلم أن المقدمة بابٌ لأنه عامله معاملة الأبواب وذكر مسائل في ختامه.

قال رحمه الله : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بدأ المؤلِّف كتابه بالبسملة وذكر ابن حجر في (الفتح) أن المصنفين قد استقر أمرهم على البداية في مصنفاتهم بالبسملة، كما في كتاب الله

وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام (الي هرقل عظيم الروم وفي صلح الحديبية).

وكذلك أصحابه من بعده، فأبوبكر كما في البخاري حينما بعث كتاب الصدقات إلى البحرين بدأه ب(بسم الله الرحمن الرحيم)

بل إن هذه سنة الأنبياء فيما يظهر{إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

الباء: **هل هي للمصاحبة أو للاستعانة ؟ أو غيرذلك ؟**والأقرب والله أعلم أنها للاستعانة

والمقدر في الباء هل هو اسمٌ أو فعل؟ وإذا كان فعلا فما هو؟

والأقرب والله أعلمأنه: يُقَدَّرُ فِعلاً خاصا مُتأخرا،

أمَّا (**فِعْلا**) فلأنه الأصل في العمل

و(**متأخِّرا**) للتبرُّكِ بذكر اسم الله ﷻ

و(**خاصا**) يعني: بحسب مايقتضيه الحال

حينما يكتب الأنسان فإنه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم .

والتقدير: أنني أستعينُ باسم الله وأتبرك بسم الله في كتابتي وكذلك إذا قالها قبل أن يقرأوهذا أحسن مِن أن يُقال:إنه يَفتتح او يَبتدأ بذكر اسم الله

ذكر شيخ الإسلام:أن التقدير بالفعل اولى من التقدير بالابتداء حتى يكون الأنسان متعينًا بالله في كل الفعل.

لم يذكر المقدمة من الحمدلله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ مقتديًا بأئمة الحديث المتقدمين، كمالك في موطئه والبخاري في صحيحه،وعبدالرزاق في مصنفه،وأحمد في مسنده غيرهم غيرهم من أهل العلم وقد يُقال إنه رأى أن المقصود هو التبرك بذكرالله وقد حصل بالبسملة وإن كان في بعض نُسخ كتاب التوحيد الثابتة ورد الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ

كتاب التوحيد:

كتاب: مصدرُ كَتَبَ يَكْتُبُ، وهذه المادة تدور على معنى الجمع، يقولون : تَكَتَّبَ بنو فلان إذا اجتمعوا.

ومن ذلك الكتابة: لأن فيها جمعاً بين الحروف والكلمات وهي على وزن "فعال" بمعنى "مفعول" أي كتاب بمعنى مكتوب وسمي كذلك لأنه قد جُمِعَ فيه الكلام أوالأسطر أو الحروف فهو كتاب في التوحيد، مضاف ومضاف إليه.

الأعراب الأقرب لكلمة (كتاب):

أنه: **خبر لمبتدأ محذوف،والتقدير**: هذا كتاب التوحيد، فهو كتاب في شأن التوحيد وفي موضوع التوحيد

(**التوحيد**) **في اللغة** :فإنه مصدر وَحَدَ يُوَحِّد، في اللغة، تدور على معنى الانفراد،

فالتوحيد في اللغة: جَعْلُ الشيء واحداً، أو الحكم على الشيء بأنه واحد،

والتوحيد في الشرع: هو إفراد الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

عَبّرَشيخ الإسلام في الجزء الثالث من (الفتاوى) أنَّه لا يَشْرَكَهُ أحدٌ في شيء من خصائصه.

والتوحيد قد دل استقراءُ الكتاب والسنة على أنه ينقسم إلى قسمين

١. توحيد المعرفة والإثبات أو (توحيد العلمي)

٢. توحيد القصد والطلب أو (توحيد العملي)

١.توحيد الربوبية

٣.توحيد الألوهية (العبادة)

٣.توحيد الأسماء والصفات

هذا التقسيم مستفاد من استقراء كلام الله ورسوله ﷺ ، وبالتالي فإن من قسم هذا التقسيم ما أتى بشيء جديد

وكلمة **(التوحيد)** كلمة مأثورة قد جاءت في كلام النبي ﷺ وكلام أصحابه، وليست كلمة مخترعة كما يظنه بعض الجهال

ومن ذلك ما خرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث عمرو بن العاص،أن النبيﷺ قال له:(**أَمَّا أَبُوكَ، فَلَوْ كَانَ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ، فَصُمْتَ وَتَصَدَّقْتَ عَنْهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ**)

كذلك ما أخرج الترمذي بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قَالَ: (**يُعَذَّبُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي النَّارِ حَتَّى يَكُونُوا فِيهَا حُمَمًا،ثُمَّ تُدْرِكُهُمُ الرَّحْمَةُ فَيُخْرَجُونَ وَيُطْرَحُونَ عَلَى أَبْوَابِ الجَنَّةِ ،فَيَرُشُ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الجَنَّةِ الْمَاءَ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الغُثَاءُ فِي حِمَالَةِ السَّيْلِ**)

فالشاهد أن النبي ﷺ قال:**(أهل التوحيد)** كذلك ما ثبت عند ابن ماجة و صحيح مسلم وغيره.

موضوع الكتاب: ذكر المؤلف في مقدمة الآيات الخمس والحديث والأثر

وبأن أن يخبرنا أن موضوع كتابه هو: بيانُ التوحيد وبيانُ أهميته،هذا هو الذي يدور عليه هذا الكتاب.

(كتابُ التوحيد، وقولِ الله تعالى): **ولك أن تقول**: (وقولُ لله تعالى)، وهذا مُطّردٌ في الكتاب كلِّه، إما أن تعطفَ على كلمة التوحيد، أو تستأنف فترفع.

الدرس الثاني – ١٨ وقولِ الله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّالِيَعْبُدُونِ} (الذاريات:٥٦)

هذه آية عظيمة وأصل في باب الاعتقاد،

الآية تدل على الحكمة التي خلق الله خلق الجن والإنس: هي عبادته ﷻ، والعبادة لا تكون عبادة صحيحة إلا بالتوحيد.

العلاقة بين التوحيد والعبادة: التوحيد والعبادة الصحيحة أمران مترادفان

النوع العبادة مأمورها: الله جَلَّ وَعَلَا أمرالعباد لابعبادةٍ مطلقة، إنما بعبادةٍ مقيّدة

وهي ما كانت خالصة لله: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾الزمر ٢ ،﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر ٣.

(**ما**) و (**إلا**) **تفيد الحصر**، فهذه هي الحكمة التي خلق الله الجن والإنس لأجلها لا غير.

والآية تدل كما هو بَيّنٌ على أنَّ الجن مكلّفون. ولا يَلْزَمُ من كَوْنِهِمْ مكلَّفين أن يكونوا مساوين للإنس في تفاصيل التكليف، وذلك لأنهم يختلفون عن الإنس في الحقيقة والكيفية، ولكن يثابون أو يعاقبون

فأما إثابتهم على التوحيد والطاعة؛ وبدلالة القرآن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاجَانٌّ﴾

أماعقوبتهم المؤبّدة في النار بالكفر أو توعّدُهم على معاصيهم التي هي دون الكفر بالعقاب.

النوع الام في قوله تعالي (لِيَعْبُدُونِ) **عند أهل السنة هي:** لام التعليل، أو لام الحكمة، أو لام كي،

وكل قد عبر به أهل العلم والمعنى واحد.

فالمقصود: أن ما دخلت (**اللام**) عليه هو (**الحكمة والغاية**)، أوكما يعبرون أنه:(**العلة الغائية من الخلق**)

وفي هذا إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله وفي أوامره وفي قضائه وأن الله يخلق لحكمة يحبها ، ويأمر لحكمة يحبها ، ويقضي لحكمة يحبها ﷻ

خطأ الأول عند أهل البدع من المتكلمين:

هذه الآية وأمثالها اللام فيها عندهم هي: (**لام العاقبة**) أو(**لام الصيرورة**)

يعني: أنَّها التي إذا دخلت على الفعل بيّنَتْ أنه هو الذي يكون إليه المال ، وهو الذي تكون إليه العاقبة

(خطأهم في هذا القول: أن لام العاقبة لا ترد ولاتجوز في الأفعال المضافة إلي الله).

ولا شك أن هذا باطل ليس بصحيح،

بل الذي حققه شيخ الإسلام ونقل هذا عنه ابن القيم في البدائع ،لا يجوز أن يقال: إن **(اللام)** في أفعال الله إذا أضيفت إليها أنها تكون (لام العاقبة) أو (لام الصيرورة)، وذلك لأنَّ (لام العاقبة) إنما تأتي في كلام من يجهل العاقبة أو لا يستطيعُ دَفْعَها، أما من هو على كل شيء قدير بكل شيء عليم فإنه لا يُقال في كلامه أو فيما يُضاف إلي. فمثلاً في قوله تعالى:﴿**فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا**﴾ هم ما فعلوا هذا لأجل أن يكون لهم عدوا وحَزَنا، إنما كان عاقبة الأم أنْ كان لهم عدوا وحزناً ،وذلك لجهلهم، وإلا إنما التقطوه لأجل أن ينتفعوا به، فهم جَهِلوا العاقبة، أوأن تكون العاقبة معلومةً لكنهم لا يستطيعون دفعها. ﴿﴾

الخطأ الثاني عند المتكلمين: عرفت العبادة هاهنا بأنها: الخضوع لأمر الله القَدَرِي،

وهذا لا شك أنه باطل، فلم يأتِ دليل في الكتاب والسنة على هذا ولو كان ذلك كذلك لصح أن يُقال: **إنَّ كفر الكافر عبادة،** لأنَّ الكافر خاضع لقَدَرِ الله جَلَّ وَعَلَا، أيستطيع أحد أن يَخْرُجَ عما يشاء الله ويقدره؟

التعريف الصحيح للعبادة: العبادة التذلُّلُ لله جَلَّ وَعَلَا بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبّةً وتعظيمًا.

تعريف الآخر للعبادة: إن هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة

والفرق بين التعريفين :أنَّ الأول : عَرَّفَ التعبُّد، **والثاني:** عرف المتَعَبَّدَ به.

شرط العمل حتى يكون عبادة: كل ما جمع هذين الوصفين ودل الدليل عليهما فإنه عبادة:

-أن يكون محبوبا الله .

-وأن يكون مشروعًا مرضياً لعباده

وإذا كان عبادة كان خالص حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

تفسير كلمة: (لِيَعْبُدُونِ):

➢ فسر به البخاري رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه عند تفسير سورة الذاريات بمني **يوحّدون؛**

وهذا أيضًا مروي عن الكلبي وقاله غير واحد من علماء ولا شك إنَّه معنىً صحيح

➢ **وقال بعض أهل العلم** ﴿**إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ إلا لآمُرَهم وأنهاهم،

والمراد: إلا لآمرهم وأنهاهم فيطيعوني (لالمجرد الأمر والنهي)

➢**قال بعضهم : إنَّ هذه الآية خاصة بالمؤمنين؛**

يعني: وما خلقت الجن والأنس إلا لِيَعْبُدَني أهل السعادة وأهل التوفيق

✿ لا ينبغي أن يُسْتَشْكَلَ فيقال كيف يخلق الله الخلق لحكمة ثم لا تقع من جميع مَنْ خَلَقَ

هذه الآية فيها بيان مراد الله التشريعي لا مراد الله الكوني،

الآية أفصحت عن أنَّ الذي أراده منهم شرعًا هو أن يعبدوه ﷻ،

أمَّا كَوْنُهُمْ يفعلون هذا مردُّهُ إلى إرادة كونية له ﷻ، وهذا ليس له علاقة بالآية.

وبناءً على هذا: قد يريد الله **شرعًا** ما لايقع, لأنه لم يُرِدْهُ **كونًا**، وقد يقع بإرادته الكونية ما لايريد شرعًا.

إرادة شرعية المراد فيها: محبوب لله تعالى،وقد يقع وقد لا يقع بحسب ما تقتضيه حكمة الله جَلَّ وَعَلَا.

إرادة الكونية مُتَعَلَّقُهُ: هو كل ما شاء ﷻ وقوعَه، ولارادَّ لحكمه جَلَّ وعَلاَ

إذن الفرق بينهما: الشرعية محبوب وقوعها،وقد تقع أولاتقع، والكونية يقع ما تعلقت به ولا تلازم بينها وبين المحبة.

كل ما شاءه الله كونًا، فإن وجودَهُ أحب إلي الله من عدمه، ولأجل هذا شاءه، فإذا شاء وجود الكفر أو المعاصي أو وجود ابليس،فإن هذا راجعٌ إلي أنَّه يترتب علي وجود هذه المبغوضات لله شيءٌ يحبُّهُ الله سبحانه وتعالي و لأجل هذا أوجده،

لما وُجِدَ إبليس وُجدَتِ التوبة،والله يحبها ويحب أهلها (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) البقرة ٢٢٢

لما وُجد إبليس وجد الشيء الذي يقتضي مغفرة الله وهو الذنوب، والله يحب أنْ تظهرآثار أسمائه وصفاته ﷻ

﴿وَقَوْلِهِ: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل:٣٦)

الآية الأولى التي بَيّنَتْ الحكمة من خلق الخلق،

أردفها بآية بيّنَتِ الحكمة من بعثة الرسل، وكلتا الآيتين تدلان على معنى مقارب وهو الدعوة إلي التوحيد

✿ الحكمة من بعث الرسل:

فبعث الله الأنبياء والرسل لدعوة الناس إلى التوحيد، وإقامة الحُجَّةِ عليهم، وبيان حق الله على العباد.

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا)؛ **البعث جاء في كتاب الله على ضربين:**

الضرب الأول: **البعث الكوني؛** ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾.
فهذا البعث لا يلزم أن يكون لنبي أو صالح أو حتى مكلف.

والضرب الثاني: **البعث الشرعي**
بعث الله الرسلَ إلى الأُمم لبيان حقه سبحانه، عليهم، وتعريف الأمم ما يحبه ﷻ وما يُبغضه، ولأجل بيان عاقبة استجابتهم أو إعراضهم عن الدعوة؛ فبينوا لهم أن من استجاب فماله إلى رحمة الله ، ومن أعرض فإن ماله إلى عذابه وغضبه.

(الأمة): **الجيل من الناس** ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.
(أن): **الأقرب هاهنا أنها تفسيرية**، وضابط: أنها هي التي سُبِقَتْ بمعنى القول لا لفظه،
ومعنى ذلك: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا أرسل الرسل وبَعَثَهُمْ إلى الأمم لأجل أن يخبروهم ويأمروهم أن يعبدوا الله وأن يجتنبوا الطاغوت.

حقيقة التوحيد: من عبد الله واجتنب الطاغوت فهذا هو الذي أتي بالتوحيد
﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾
العروة الوثقى: هي لا إله إلا الله، وهي مفتاح التوحيد.

(**الطاغوت**): **لغةً**: على وزن فَعلوت وهو من صيغ المبالغة، من الطغيان،
الطغيان: مجاوزة الحد،﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ﴾

وأكثر تفاسير السلف لكلمة «الطاغوت» هي : أنه الشيطان،
ومن ذلك ما علق البخاري عن عمرَ رضي الله عنه أَنَّه قال : الطاغوت: الشيطان.

من العلماء من فسر أيضًا الطاغوت بأنه: (**الأصنام**) أو (**السبيل**) هذا كل من التفسير بالمثال وليس حدا جامعا مانعا.

وأقرب ما يُقال في تفسير (**الطاغوت**) ما ذكره ابن القيم رحمه الله في أوائل (إعلام الموقعين)

أنَّ الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبوده أو متبوع أو مُطاع.

العبدُ له حَدٌّ معين لايجوز ان يُرفع فوقه، فمتي تُوُجِّهَ إليه بالعبادة يكون طاغوتا لعابده، كذلك إذا تجاوز به العبد **حد المتبوع من العلماء**

أوالمطاع من الأمراء إلى الحد الذي يكون لله ﷻ أن يطاع في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله.

(**وَاجْتَنِبُوا**):ولم يَقُلْ: اتركوا؛ **فإنَّ الاجتناب ترك وزيادة**، ففيه معنى القصد، وفيه معنى المباعدة، وفيه معنى اجتناب الأسباب الموصلة إلى هذا المتروك، كأنه يقول: كونوا في جانب وعبادة الطاغوت في جانب آخر،

الآية دلت على أن حقيقة التوحيد ما جمع النفي والإثبات،

أن اعْبُدُوا اللَّهَ: هوالإثبات العبادة لله وحده

وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ: هو النفي العبادة عن ما كل سوي الله ﷻ

ولا توحيد إلا باجتماعهما لأن الإثبات وحده لايمنع الشركة والنفي المجرد عدم لا مدح فيه.

النظر إلى الطاغوت يكون من جهتين: من جهة عابده، ومن جهة من عُبِد.

أما من جهة عابده: يُقال في حق كل من عَبَدَ غير الله جَلَّ وَعَلَا إنه عَبَدَ الطاغوت

من جهة من عُبِد مع الله ﷻ: لايَخلو الأمرُ من ثلاث أحوال:

الأولى: أن يكون لا إرادة له؛ كأن يكون قى عُبِد صنم، أو حجر، أو شجر، فأنه يقال هذا الصنم طاغوت.

الثانية: أن يكون له إرادة وهو راضٍ بعبادته مع الله؛ فهذا يقال في حقه إنه طاغوت؛ إذا دعا أحدٌ إلى عبادته نفسه؛ أو حتي عُبِدَ فريضيَ بذلك ووافق فإنه يكون طاغوتا.

الثالثة: وهي ما إذا كان ذا إرادة ولكنه كاره لأن يكون معبودا مع الله ﷻ فإنه لا يقال في حقه إنه طاغوت؛ مثل عيسى عليه السلام وعلي وفاطمة والحسين وكثير من الصالحين.

وَقَوْلِهِ :﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء ٢٣)

إحدى الآيات العظيمة المحكمة التي تضمنَتْ وصايا عُظمى يحتاجها كل مسلم،

وافتُتِحَتْ هذه الوصايا بالتوحيد، ثم ثَنَّى الله ﷻ بوصايا أخرى بَلَغَتْ سبع عشرة وصية اختُتِمَتْ بالتوحيد أيضًا ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾

يدلك على أنَّ التوحيد هو أول الأمر وآخره، وأنه ظاهره وباطنه، وأنه القضية الأهم

(قَضَى رَبُّكَ):

- فَسَّرَ هذه الكلمة كثير من السلف **بمعنى**: **وصى**، وهكذا جاءت في قراءة أُبي وابن مسعود.
- وذهب بعض الصحابة ومَنْ بعدَهُمْ من السلف إلى معنى: وأَمَرَ وأوجب. والمعنايان متقاربان.

وفيه تأكيد علي أنّ التوحيد العبادة هو النفي والإثبات:﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾

وقوله :﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئا﴾ (النساء:٣٦)

هذه الآية: مفتتح الحقوق العشرة عند العلماء **والحق الأول والأعظم، هو حق الله جَلَّ وَعَلَا:**

- وهو أن يُعبد وحده لا شريك له، وأن تُجْتَنَبَ عبادة ما سواه.
- فيه التأكيد على أن التوحيد هو الجمع بين النفي والإثبات.
- فيه بيانٌ أن الشرك مبغوضٌ لله منهيٌ عنه مهما دَقَّ (كبيره وصغيره و جليِّهِ و خفيّه)

ما هو الوجه العموم في قوله تعالى، ﴿وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا﴾؟

شَيْئا: نكرة في سياق النهي فتعُمُّ، لايجوز أن يُشْرَكَ مع الله شيء البتة، وأنَّ الشرك كله مبغوض لله منهي عنه مهما دَقَّ كبيره وصغيره، جليه وخفيه

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات (الأنعام ١٥١)

هذه الآية دليل على التوحيد؛ وذلك لأنَّ النهي عن الشرك يستدعي التوحيد بالاقتضاء كما يقول أهل لعلم، يعني إن اجتنابَ عبادة غير الله دون عبادتِهِ سبحانه لا ينفع صاحبه شيئا.

يعني لا يمكن ان يكون هناك إنسان ليس بموحدٍ ولا مشرك، لابد أن يكون أحد رجلين

هذه الآية وما بعدها آيات عظمى تمسي: (آياتِ الوصايا العشر) افتتحها الله سبحانه بالتوحيد والأمر به والنهي عن ضده،وقد يقال اختتمها بذلك أيضا.

لأنه قال في ختامها ﴿وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوه وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾

ومعلومٌ أن صراط الله المستقيم السبيل الذي دعت إليه الأنبياء هو توحيد الله ﷻ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه(مَنْ أرَادَ أنْ يَنْظُرَ إلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلي قوله:﴿وَأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾الآية

هذا الأثر أخرجه الترمذي وقال: **(حسن غريب)**، وحسنه طائفة من أهل العلم، وضعفه طائفة.

أورده المؤلف بلفظ مُقارب للفظ الترمذي (من سرَّهُ أن ينظر إلى صحيفة محمد ﷺ التي عليها خاتَمُه)،

ولك أن تقول: (خاتِمُه) ، يجوز: «خاتِم» و «خاتَم».

(فليقرأ هذه الآيات)؛ يدل على أنها آياتٌ عظيمة مشتملةٌ علي حقوقٍ واجبة علي جميع العباد وهذه الآيات مُحكمةٌ لم تُنسخ وأنها من آخر ما نزل.

المؤلف رحمه الله استنبط من هذا الباب فوائد ومسائل بَلَغَتْ أربعًا وعشرين فائده ومسائل.

(وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺقَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِي ﷺ عَلَى حِمَارٍ،فَقَال لِي: يَا مُعَاذُ؛أتَدرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِعَلَى اللهِ؟ قُلتُ:اللهُ وَرَسُولُهُ أعلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ:أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَحَقُّ العِبَادِعَلَى اللهِ أنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلوا) اخرجاه في صحيحين.

الحديث فيه بيان حقيقة التوحيد من كلام النبي ﷺ ، وهو،أن يُعْبَدَ الله ولا يُشرك به شيء، وأن هذا من الحقوق التي يستحقها الله على عباده، بل هوأعظم حق له جَلَّ وَعَلَا على العباد.

الرديف: هو الراكب خلف الراكب.

- وفيه جواز الإرداف على الدابة
- وفيه،تواضع النبي ﷺ ؛ حيث كان يركب حمارًا.
- وفيه أيضًا: تسمية الدواب، فإنه جاء في الصحيح تسمية هذا الحمار بـ «**عفير**»، وذكر علماء السيرة أن هذا الحمار أهداه له «**الْمُقَوْقِسُ**» عظيم مصر
- وهذا أسلوب بليغ في التعليم؛ وهو استثارة ذهن المتلقي وجَلْبُ انتباهه لما يُلقى إليه من خلال إرسال هذا السؤال إليه فأجابه معاذ بتواضع وأدب بِرَدِّ العلم في ذلك إلى الله ورسوله ﷺ الذي يوحى إليه

جوابَ هذا السؤال العظيم الذي هو من أهم المهمات في حياة كل إنسان،لابد أن يعرفه الجواب

(حَقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا) هذا هو التوحيد النفي والإثبات.

استحقاق الله ﷻ لهذا الحق على عباده من ثلاث أوجه.

➢ **أولا**: بمقتضى كونه ربَّهم وسيّدَهُم وخالقَهم، وكلُّ العقول مُجمعةٌ علي هذا.

➢ **ثانيا**: لأنَّه المنْعِمُ المتفضّل عليهم، وشكر المنعم مما أجمع العقلاء على حُسْنِه.

➢ **ثالثا**: وهي من جهة أنَّ هذا ما تقتضيه ذاته وصفاته ونعوتُ جلاله وجماله

حق العباد على الله: إنَّ للعباد على الله حقًّا بمقتضى هذا الحديث وأمثاله من الأدلة، ولكنه حقٌّ تفضُّلٍ من الله ﷻ، **يعني**: حق أحقَّهُ الله على نفسه،لا أنَّ العباد هم الذين استحقوا على ربهم أو أوجبوا على ربهم حقا، العباد أذل وأحقر من ذلك، والله أجل وأعظم من ذلك

وهذا التأصيل مرجعه عند أهل السنة والجماعة إلى ثلاثة أصول

الأول: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا كَتَبَ على نفسه إثابة الطائعين ومغفرة ذنوب التائبين وما إلى ذلك، قال تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فهذا شيء كَتَبَهُ الله على نفسه،لا أنَّ العباد كتبوا عليه شيئا.

الثاني : أنَّ الله وعد عباده المطيعين بالإثابة، والمستغفرين والتائبين بالمغفرة،﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾آل عمران ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾الروم ﴿وَعْدَالصِدْقِ الَّذي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾الأحقاف.

الثالث:حرم الله على نفسه الظلم:﴿إِنَّ اللهَ لَايَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾يونس﴿إِنَّ اللهَ لايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾نساء

(لاتبشرهم فيتكلوا): لم يرضَ النبيُ ﷺ أن يُبشر الناس،

لأن من الناس من قد لا يحمل هذا الحديث وأمثاله على مَحَملِيه فيعقون في الخطأ

طلب معاذٌ من النبي ﷺ أن يُبشِّرَ الناس وهذ يدلك على أن من محاسن الأخلاق التي كا عليها الصالحون

قد وضع في بعض شروح كتاب التوحيد، أن معاذًا حدث بهذا قبل ان يموت تأثُّمً، والذي يبدوا والله اعلم ان هذا ليس بصواب وأنه قد حَصَلَ خلطٌ بين حديثَيْن.

الدرس الثالث – ٤٠ ٢ ـ باب فضل التوحيد، وما يُكَفِّرُ مِن الذُّنُوبِ

بعد أن بين المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في الباب السابق حقيقة التوحيد وأهميته، عَطَفَ عليه هذا الباب، ببيان فضل التوحيد؛ فإنَّ النفوس كأنها قد تشوَّفَتْ بعد أن عَرَفَت التوحيد إلى معرفة فضله،وأيضًا حتى تَنْبَعِثَ الهمة وتَعْظُمَ الرغبة في الاهتمام بما

(الباب):عند أهل التأليف والتصنيف: هو القسم من الكتاب، والذي يحتوي غالبًا على مسائل من جنس واحد.

و(الباب) في اللغة: هو ما يوصِل إلى المقصود؛

وجه العلاقة بين المعنى اللغوي و الاصطلاحي: فإنَّ أبواب الكتب موصلةٌ إلى فهم المراد.

باب فضل التوحيد: يعني هذا باب لبيان فضل التوحيد، وجاء في نسخة عند حفيد المؤلف الشيخ عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد»: **(باب بيان فضل التوحيد)**

(وما يُكفر من الذنوب): الأقرب أنَّ **(ما)** هاهنا مصدرية؛

يعني: باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب؛ أراد الشيخ أن يبين أن هذا التوحيد له فضائل وأنَّه يكفر الذنوب، وهوعطف خاص على العام ، فبعض فضائل التوحيد تكفيرُه الذنوب.

ﷻ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُوَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

ذكر المؤلف في هذا الباب آيةً واحدة ، هي هذه الآية التي بين أيدينا

فسر النبي ﷺ **الظلم** هاهنا بـ: **(الشرك)**،

ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود، أنَّ هذه الآية لما نَزَلَتْ شَقَّ الأمر على أصحاب النبي ﷺ فجاءوا إلى ﷺ وقالوا: (أَيُّنا لم يظلم نفسه؟) فقال النبي ﷺ: **إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ**: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ﴾.

فالنبي ﷺ بيَّن في هذا الحديث **أن الظلم هو** : الشرك.

والظلم في اللغة: هو وضع الشيء في غير موضعه؛

والشرك بالله ﷻ **أعظم الظلم**؛ وذلك لأنه، أعني المشرك وَضَعَ العبادة في غير موضعها؛ فالعبادة حق الله، وموضعها الصحيح أن تكون مُتَقَرَّبا بها إلى الله ﷻ

الظلمُ يُطْلَقُ على جنس المعاصي سواء كانت من الصغائر أو من الكبائر أو من الشرك، وذلك أنَّ معصية الله ﷻ وضعٌ للعبد ولعمله ولقوله ولعقله في غير موضعه، وإذا كان ذلك كذلك؛ كان هذا ظلمًا.

وتنبه هاهنا إلى أنَّ النبي ﷺ أراد أن يُبيِّن لأصحابه أنَّ الشرك بالله ﷻ هو الذي يُذهب الأمن، ويمنع الأمن والاهتداء، وليس أنَّ مَنْ لم يشرك ووقع في المعاصي يكون له كمال الاهتداء والأمن، ليس هذا المراد، **إنَّما أراد النبي ﷺ أن يبين أنَّ كلَّ من كان مؤمنًا بريئًا من الشرك الأكبر فإنَّ له حظا من الاهتداء والأمن.**

القاعدة المهمة وهي قاعدة مطردة: أنَّ الأمن والاهتداء المطلق يعني الكامل يكون حظَّ مَنْ معه الإيمان المطلق يعني الكامل.

وأما مَنْ كان معه مطلق الإيمان يعني أصل الإيمان فإنه يكون له مطلق الأمن والاهتداء، يعني له حظ وله نصيب بحسب ما معه من هذا الإيمان، وأنه لا يفوته الأمن والاهتداء **بالكلية**، ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا**﴾ [الأنعام١٨٢]

الأمن يكون حاصلا في الدنيا ويكون حاصلا في الآخرة.

أما الأمن في الدنيا: فإنه يكون بأنواع الأمن، وحصول الطمأنينة في النفوس، وهذا يقع بفضل الله للنفوس التي اطمأنت إلى ربها وخالقها وأقبلت عليه وقَصَدَتْهُ بالعبادة والتذلل.

الأمن في الآخرة: ﴿**وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾(سبأ: ٣٧)، ﴿**وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾ [النمل: ٨٩]

وكذلك الاهتداء،

أما في الدنيا: فلا شك أن من ثواب الإيمان والطاعة والإقبال على الله ﷻ، أن يهدي الله ﷻ هؤلاء المؤمنين إلى الصراط المستقيم

وفي الآخرة : يهديهم الله ﷻ إلى الجنة، وهذه ثمرة الاهتداء في الدنيا:

﴿**يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ [يونس:٩]

۞ (وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ شَهِدَ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» أَخْرَجَاهُ).

مضمون الحديث في باب التوحيد: هو أن من شهد الشهادتين وأقر بعيسى والبعث و الجنة و النار،أدخله الله عليه ما كان من العمل،

القاعدة: أنَّ الوعد الذي جاء في فضائل التوحيد ولا إله إلا الله وعد مشروط بشروط ومقيد بقيود؛ فَمَنْ أتى بهذه الشروط وهذه القيود حصل له هذا الفضل الذي جاء في هذه الأحاديث.

النصوص التي جاء فيها أنَّ من قال: (لا إله إلا الله دخل الجنة)، مقيدة بتحقيق أصل التوحيد وكماله الواجب.

۞ وهذا التقييد في النصوص مستفاد من الأدلة الصحيحة، وهي على ضربين:

❖**الضرب الأول:** النصوص التي جاء فيها قيود **في** قول (لا إله إلا الله).

وإن شئت فقل: نصوص فيها شروط باطنة.

والدليل: حديث عتبان ﷺأن النبي ﷺ قال:**(فإنَّ الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي)**

والقيد: (يبتغي بذلك وجه الله) .

❖**الضرب الثاني:** النصوص التي جاء فيها قيود **مع** قول (لاإله إلاالله)

وإن شئت فقل: نصوص فيها شروط ظاهرة.

الدليل: .ما ثبت في الصحيحين مِنْ أنَّ أعرابيا أمسك بخِطام دابة النبي ﷺ وسأله عن عمل يدخله الجنة، فأجاب النبي ﷺ بقوله:**(تعبد الله ولا تشرك به شيئًا)** هذا هو التوحيد، هذا هو مضمون (لا إله إلا الله)، ثم قال: **(وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم)**. إذا تلاحظ أن هناك قيودًا مع قول (لا إله إلا الله) لابد من تحصيلها؛

إذا النصوص في فضل (لا إله إلا الله ينبغي أن تُحْمَلَ على هذه السبيل، وهي أنها نصوص مطلقة، ولها قيود؛ قيود في قولها، وقيود مع قولها، وبالتالي يستقيم فهم الإنسان لهذه النصوص، ويكون متوسّطًا بين طَرَفَيْ أهل الوعيد وأهل الإرجاء.

وإن كنت طالبا للعلم حريصًا على الفائدة؛ فأوصيك بمراجعة موضع في تحقيق هذا المقام، لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «تفسير آياتٍ أشكلت»، فهذا من أحسن المواضع التي وقفْتُ عليها

(مَنْ شَهِدَ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّه): الشهادة: هو قول وإخبار عن علم ويقين،

لا تكون الشهادة، شهادةً دون قول، ولا تكون الشهادة شهادةً مع جهل، و مع شك وارتياب.

إذا يكون الإنسان شاهدًا بأن لا إله إلا الله إذا تكلم بها عن علم ويقين؛ يعلم المعنى ويستيقن به.

وهذا الحديث أيضًا، يمكن أن يُقال إنه من النصوص المقيدة؛ فإن الشهادة لابد فيها من يقين.

ومن لوازم اليقين: أن يكون هناك أثر في العمل (يستلزم العمل)، بخلاف القول المجرد الذي لا يثمر اثرًا.

العلاقة الإيمان بالعمل في الحديث: العمل دليل على صدق الإيمان ومن ثمراته،الامتثال والطاعة

(مَنْ شَهِدَ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا الله): (أن) هنا هي المخففة من الثقيلة، تكتب ولا تنطق، من الخطإِ أن تقول (أشهد **أنَّ** لا إله إلا الله)، قد تسمع هذا من بعض الناس في الأذان وغيره، وهذا غَلَط ،

الصواب أن تُقال هكذا: (أشهد أن لَّا إله إلا الله) **تكتب ولا تنطق.**

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: تلحظ أنَّ النبي ﷺ أَكَّد معنى لا إله إلا الله بقوله: **(وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)،**

(وَحْدَهُ): هذا تأكيد للإثبات (الوحدانية)، تأكيد لقوله: (إلا الله)،

و(لَاشَرِيكَ له):تأكيد للنفي ،تأكيد لقوله:(لا إله)

قال أهل العلم:(تأكيد بعد تأكيد؛ تنبيه على مقام التوحيد)

(وأن محمدًا عبده ورسوله)؛ محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي رسولُ الله ﷺ

لماذا قال في الحديث (وان محمدا عبده ورسوله)؟ لبيان كمال حال النبي ﷺ في العبودية والرسالة وردا على الغلو و الجفاء.

➢ **معنى شهادتك أن محمدا رسول الله ﷺ.**

لا يكون الإنسان مؤمنا موحدا، إلا إذا شَهِدَ له ﷺبالرسالة ،أنه رسول من عند الله جَلَّ وَعَلَا،وأنه خاتم الأنبياءوالمرسلين، وأن رسالته عامة للثقلين.

➢ **ولازم شهادتك أن محمدا رسول الله ﷺ:**

طاعته فيما أمر،وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر،وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

هذه الشهادة قرينة شهادة التوحيد لله؛

فلا يكون الإنسان موحدا إلا إذا شهد الشهادتين ووحد التوحيدين:

التوحيد الله بالعبادة، والتوحيد لرسوله ﷺ بالاتباع.

ومتى أتى الإنسان بواحدة من هاتين الشهادتين ما انتفع، إلا بضم الأخرى إليها.

النبي ﷺ جَمَعَ الله له كمال أكمل وصفين في البشر؛ ألا وهو: أنه عبد الله ورسوله ﷺ

وفي هذا الحديث ردٌّ على طَرَفَي الضلال:على أهل الغُلُو الذين فرَّطوا و وعلى أهل الجفاء الذين أفرطوا.

فقوله ﷺ :**(وأن محمدًا عبده)**: رد على أهل الغلو الذين ﷺ مِنْ مقام العبودية إلى مقام الإلهية، بل إنَّ منهم من رفعه إلى مقام الربوبية، وهذا لا شك أنه غاية في الضلال وإنه يكون مُكذِّبًا لقول النبي ﷺ إنه عبد الله.

وقوله ﷺ: **(ورسولُه)** ردُّ على أهل الجفاء، وهم الذين كذبوا بنبوة النبي ﷺ ورسالته،أو قصروا في اتباعه.

(وأن عيسى عبدُ اللهِ ورسولُهُ)

عيسى عليه السلام أحدُ أولي العزم من الرسل الذين هم أفضل الأنبياء والمرسلين، وهم الذين جَمَعَهُمُ الله عز وجل في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى: ١٣] ، فهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الرسل، وأعظمهم منزلة ومكانة هو نبينا محمد ﷺ

(وأن عيسى عبد الله ورسوله) هذا أيضًا فيه رد على طَرَفَ الضلال في شأن عيسى عليه السلام

في قوله (عبد الله): على الذين رفعوه إلى أن يكون إلها، أو ابنا للإله، أو واحدًا من ثلاثة.

ورد في قوله (ورسوله): على الذين طعنوا في نبوته ورسالته، أو قدحوا فيه؛ كاليهود حينما وضعواعليه من ألقاب السوء، كزعمهم إنه ابن زانية وحاشاه عليه الصلاة والسلام.

(وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛) معنى قوله: (وكلمته) أي: أنه كان بكلمة الله

كما بين هذاالإمام أحمد رحمه الله في كتابه **(الرد على الجهمية)**، وغيره من المتقدمين كقتادة، أو ممن بعدهم كالدارمي في **(نَقْضِه على بِشْر)**،

وتَسَلْسَلَ هذا في كلام أهل العلم **أنَّ معنى قوله: (وكلمته):** أنه بالكلمة كان، لا أنه هو الكلمة؛

أي: أنَّ الله خَلَقَهُ بقول **(كُنْ)**: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران ٥٩. ولم يُخْلَقُ بالسبب المعتاد في خلق بني آدم، بتوسطِ سبب، وهوالتقاء الوالدين،

وكذلك آدم عليه السلام خَلَقَهُ الله عز وجل بقوله، **كُنْ**

(وروح منه): أي: أنه مخلوق بالروح التي خَلَقَها الله سبحانه وتعالى .

فالروح في قوله: (منه) يعني: الروح المخلوقة التي خُلِقَتْ من الله عز وجل.

فقوله: (منه) هاهنا (من) لابتداء الغاية، وذلك له نظائر في النصوص،فهذه الروح من الله كانت خَلْقًا وإيجادًا، وجبريل عليه السلام نَفَخَ في جيب مريم هذه الروح التي خَلَقَها الله تعالى

قال أهل العلم: الله خَلَقَ بـ **(بكُنْ)**، وجبريل نَفَخَ في **(الروح)**،

والنصارى ضَلُّوا هاهنا حيثُ زعموا أنَّ صفةً من الله عز وجل وهي الروح – قد حلَّتْ في عيسى عليه السلام فكان اللاهوت في الناسوت، أو أن جزءً من الإلهية في عيسى عليه السلام، ولا شك أنَّ هذا من الضلال البين، فإن إضافة الروح هاهنا:. **إضافة مخلوق إلى خالقه** ، الشأن فيها كالشأن **(في ناقة الله)** و **(بيت الله)** وأمثالها مما جاء في النصوص.

والقاعدة: أنَّ الإضافة إلى الله جَلَّ وَعَلَا جاءت على قسمين :

- ❖القسم الأول: إضافة صفة إلى موصوف.
- ❖القسم الثاني: إضافة مخلوق إلى خالقه.

فرق شاسع بين أن تقول: (علم الله)، فهذه إضافة صفة إلى موصوف؛ لأنَّ العلم صفة، لا تقوم الصفة بنفسها، بل لابد أن تقوم بذات،

وحينما تقول: (بيت الله) هذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لأنَّ هذا المخلوق قائم بنفسه.

(الروح): مخلوق كائن قائم بنفسه، وإن كان يَحُلُّ في غيره، لكنه مخلوق مستقل، فإضافته إلى الله جَلَّ وَعَلَا من إضافة المخلوق إلى خالقه.

(وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ)، الجنة والنار: هما الداران اللتان جعلهما الله ﷻ محلا لثوابه؛ وهذه الجنة، أو محلا لعقابه؛ وهذه النار. فالمؤمنون يعتقدون أنهما حق، وذلك يتضمن أنهما داران مخلوقتان موجودتان الآن، وأنهما باقيتان لا تَفْنَيان وما فيهما، وأنَّ الله جَلَّ وَعَلَا قد أعد فيهما شيئًا عظيمًا لا يحيط به فكر الإنسان، ففي ذلك مما أعد الله ﷻ من أصناف النعيم في الجنة أو أصناف العذاب في الناروهذا مما يَجِبُ أن يعتقده المسلم؛ أن الجنة حق وأنَّ النار حق

(أَدْخَلَهُ الله)

إعراب (أدخله): جواب الشرط، والشرط: (مَنْ شَهِدَ).

وهذه هي الجائزة التي وعد الله ﷻ مَنْ حقق هذه المذكورات في هذا الحديث

ما معني (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)؟ يعني: على أي عمل كان يلاقي فيه ربَّه جَلَّ وَعَلَا فإنه سيكون من أهل الجنة (إما دخول أولي أومألي بحسب حال من مات على التوحيد)

(أدخله الله الجنَّة) ؛هذا النص وأمثاله محمول عند أهل العلم على أحد وجهين بحَسَبِ حال العامل :

- **أدخله الله الجنة» ابتداء.**
- **أو أدخله الله الجنة» مآلاً.**

سيدخل الجنة قطعًا، تحقيقا لوعد الله ﷻ، هذا مما لا يقبل الشك؛ ولكن لابد الدخول مختلف؛ قد يكون **الدخول المطلق، وقد يكون مطلق الدخول؛**

قد يكون الدخول أول وَهْلَةٍ: مباشرة من الحشر، من عرصات القيامة وإلى الجنة، دون المرور على النار،هذا شأن كُمَّل المؤمنين، هذا شأن الذين حققوا أصل التوحيد وحققوا كماله الواجب، ومن باب أولى الذين حققوا كماله المستحب.

وأما الدخول المالي؛ وما عبرنا عنه بمطلق الدخول، فإنه يكون لمن مات على التوحيد وأتى بكبائر لم يَغْفِرُها الله ﷻ له؛ فإن هذا سيدخل الجنة قطعًا، ولكن بعد أن يدخل النار دخولا مؤقتاً ، يعني في مدة يشاءها الله سبحانه وهو العليم بها.

مع ملاحظة أنَّ أهل الكبائر الذين ماتوا مُصِرِّينَ على الكبائر، قد يكونون من أهل الصنف الأول ممن يدخلون الجنة دخولاً أوليا،لأن عندنا هاهنا أصلاً آخر وهو أن كل الوعيد الذي جاء في حق العصاة فهو مقيد بقوله تعالى(**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**) [النساء: ٤٨] .

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: (فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ).

كلُّ هؤلاء الأربعة الذين افتتح المؤلف كتابه بذكرهم **بَدْرِيُّون**، مرمعنا ابن مسعود، ثم معاذ، ثم عُبادة، ثم عتبان، وكلُّهم بَدْرِيَّون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين .

(فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ): هذا الحديث خرجه الإمام البخاري في صحيحه من حديث الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عتبان بن مالك. وجاء في موضع عند مسلم من حديث أنس رَضِ اللَّهُ عَنْهُ عن عتبان. وجاء في مسند الإمام أحمد بإسناد فيه بعض

وفيه بيان فضل التوحيد، وأن من فضائل التوحيد أنَّه يُحَرِّمُ صاحبه على النار نسأل الله من فضله ، وهذا التحريم أمر قطعي؛ لأنَّه وَعْدُ الله، والله لا يُخْلِفُ وعده.

ولكن الجمع بين النصوص يدل على أنَّ هذا التحريم ينقسم إلى قسمين :

- **قد يكون التحريم: تحريم الدخول.**
- **وقد يكون التحريم: تحريم الخلود.**

من المؤمنين مَنْ يَحْرُمُ عليه دخولها أصلا، لا يدخلها البتة؛ وهؤلاء الذين حققوا كمال التوحيد الواجب، وأولى منهم من حقق التوحيد المستحب، هؤلاءليسوا معصومين هم بشر، وكل ابن آدم خطاء؛ لكن ذنوبهم إما أن تكون صغائر، وإما أن تَزِلُّ بِهِمُ القَدَم فيقعوا في كبيرة لكنهم يبادرون إلى التوبة، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف : ٢٠١]، ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾ **ماذا يكون منهم** ؟﴿**ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أما الذين يَحْرُم عليهم الخلود فيها؛ فهؤلاء الذين معهم أصل التوحيد، لكنهم من العصاة أهل الكبائر، والشأن فيهم كالشأن فيمن ذَكَرْنا قبل قليل فهؤلاء يَصْدُقُ عليهم قول النبي ﷺ : **(فَإِنَّ الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)** لا شك أنهم قالوها وحَصَلَ لهم حَقٌّ من ابتغاء ذلك لوجه الله ﷻ، لكن ما حصل لهم كمال الابتغاء، فحصل منهم التقصير بترك الواجبات، أو فعل الكبائرأوالإصرارعلى الصغائر . فهؤلاء يَدْخُلون النار دخولاً مؤقتا، مدةً يشاءها الله، ثم يخرجون إما بسبب شفاعة أو بمَحْض رحمة أرحم الراحمين ﷻ،

ما نوع التحريم على النارالمذكور في حديث عِتبان؟ هو تحريم دخول وتحريم خلود

قال رحم الله : (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ ﵁ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ موسى عليه السلام: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرْكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، قَالَ : كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هٰذَا، قَالَ: يَا مُوسَى؛ لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ).

هذا الحديث فيه بحث من جهة إسناده؛ خرجَهُ كما ابن حبان والحاكم ، بل خرجه النسائي في الكبرى وغيرهم من أهل العلم، **لكن الإسناد فيه بحث** ، فإنه جاء من طريق **(دراج – أبي السمح –عن أبي الهيثم،)** وهذه الرواية فيها ضعف، بل وقعت فيها مناكير، وإن كان قد صحح هذا الحديث طائفة من أهل العلم كابن حِبَّان والحاكم، وكذلك الحافظ ابن حجر في الجزء الحادي عشر من «فتح الباري».

وهذا المعنى هذا الحديث جاء في حديث عند الإمام أحمد بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولكن السياق مختلف، والأمر في كلام بين نوح ﵇ وابنِهِ. وكذلك جاء عند ابن أبي شيبة بإسناد صحيح ، معنى هذا الحديث من قول كعبِ الأحبار رحمه الله.

الشاهد: أنَّ معنى هذا الحديث لا شك في صحته، وهو عِظَمُ وفَضْلُ التوحيد ودالة على هذا التوحيد وهي **(لا إله إلا الله)،** وأنَّ زِنَتَها وقَدْرَهَا أعظم من السماوات والأرض

موسى ﵇ أحد أولي العزم من الرسل ؛ سَأَلَ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَن يَعلِّمَهُ شَيئًا يدعوه ويذكره به؛ كون (لا إله إلا الله) ذكرًا هذا شيء واضح، وكونها دعاء هذا شيء صحيح أيضًا؛ وذلك أنَّ هذا الذكر وأعلاه قول (لا إله إلا الله)

دعاء بلسان الحال ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: دعاء المسألة؛

هذا هو السؤال والطلب، الدعاء المعروف (اللهم إني أسألك)، (يا الله)، (يا رب).

القسم الثاني: دعاء العبادة؛ وهو كل أنواع العبادة، فإنها طلب من الله ﷻ بلسان الحال، طلب من الله أن يعفو، وأن يغفر، وأن يُدْخِلَ الجنة بسبب هذا العمل.

النفوس مجبولةٌ على حبِّ أن تتميَّزَ فقال: **(كل عبادك يقولون لا إله إلا الله)** ؛ ليس هذا انتقاصا من قَدْرِ هذه الكلمة العظيمة، لكنه طلب للاختصاص، أن يَخُصَّهُ اللهُ ﷻ بشيء.

فبينَ ﷻ في هذا الحديث أنَّ (لا إله إلا الله) لها شأن عظيم ، حتى وإن كانت كلمة عامة يقولها المؤمنون جميعًا إلا أن الشأن فيها عظيم،حتى لو كانت السماوات والأرض هذه المخلوقات العظيمة الكبيرة في كفة من كِفَّتَيْ ميزان،وهذه الكلمة الطيبة في الكفّة، فإنَّ (لا إله إلا الله) أثقل،
(لمالت بهنَّ لا إله إلا الله، يعني: ترجَّحَت ،**(والحديث فيه أثبات الميزان وهو ميزان حقيقي)**

وهنا اختلف أهل العلم في هذا الحديث إن صح عن النبي ﷺ

- أكان مراد النبي ﷺ أن يُمَثَّلَ ويُبَيِّنَ أنه لو قُدّر أن جُسِّد أو صُوِّرَ فضل (لا إله إلا الله) بحيث يكون في كفة، والسماوات والأرض وُضِعَتْ في كِفَّة ميزان ، فإن (لا إله إلا الله) ثِقَلُها ومكانتها وثوابها أعظم من ثقل السماوات والأرض؟

- أو أن مراد النبي ﷺ : أن (لا إله إلا الله) في كفة الميزان الأُخْرَوِيَّ الذي يَضَعُهُ الله جَلَّ وَعَلَا يوم القيامة؟ أنّ وزن هذه الكلمة في الميزان الأخروي أثقل من السماوات والأرض؟

الحديث محتمل للأمرين، والمؤلّف رَحِمَهُ اللهُ كأنه يميل إلى الثاني؛ فإنه ذكر في مسائل الكتاب أن الميزان له كفتان، وكأنه يشير بذلك إلى أن الميزان الأخروي له كفتان،وهذا الأمر ثابت ولا شك فيه، كما يدل عليه حديث البطاقة،

﴾ وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

هذا الحديث ذكر المؤلف أنه حسّنه، وإن كانت النسخة المطبوعة ليس فيها هذا التحسين، إنما قال الترمذي رحمه الله عن هذا الحديث: (إنه غريب من هذا الوجه، ولكن الحديث حسن، إسناده لا بأس به) وقال ابن رجب عن إسناده: (إنه لا بأس به)، وصححه ابن القيم وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في موضع في «صحيح الترمذي»، وحسنه في «السلسة الصحيحة فهو حديث ثابت إن شاء الله.

(لو أتيتني بقراب الأرض خطايا): هذا فيه تمثيل لكثرة الذنوب التي لو لقيَ الإنسان ربَّهُ بها يعني: توفّي مُصِرّاً عليها ، لم يَتُبْ إلى الله جَلَّ وَعَلَا منها ولكن كان موحدًا لله جَلَّ وَعَلا مع اجتنابه للشرك.ويدل هذا على عظيم شأن التوحيد، وأنه أعظم سبب لمغفرة الذنوب

(قراب الأرض) يعني :ما يقارب ملأها

ماهو شرط المغفرة في الحديث؟ أن يلقي الله لا يشرك به شيئا

ما معني: (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا)؟ أي لا شركًا أكبر ولا أصغر.

قال ابن القيم رحمه الله : «إن التوحيد الذي هو توحيد» ،ليس التوحيد الذي لا يتجاوز الشفتين، ولا يصل إلى سُوَيْداء القلب، ولا يكون له أثر على الجوارح ! إنما هذا التوحيد الضعيف أثره ضعيف، لكن التوحيد الذي هو توحيد تكفيره للذنوب أعظم من تكفير التوبة للذنوب؛ لأنَّ (حسنة التوحيد أعظم من حسنة التوبة)

وهذا الحديث ينبغي فَهْمُهُ على الوجه الصحيح:

فإنَّ كَوْنَ الإنسان يأتي بمثل هذه الذنوب العظيمة البالغة التي تبلغ هذا القَدْر الذي هو كقَدْرِ السماوات والأرض، يتأتّى لمن كان مُدْمِنًا على هذه الذنوب والمعاصي وهؤلاء هم الذين يدخلون النار من عُصاة الموحدين هؤلاء اجتنبوا الشرك الأكبر، ولكنهم وقعوا في ذنوب ومعاصي وأطراف من الشرك الأصغر.

وبناءً على ذلك؛ فالجمع بين النصوص؛ كهذا الحديث الذي بين أيدينا، وتلك التي تدل على أن عصاةً أَتَوْا بـ (لا إله إلا الله) نص النبي ﷺ على أنهم من أهل التوحيد ومع ذلك دخلوا النار بسبب ذنوب ومعاص وقعوا فيها،

فالجمع بين النصوص إذا أن يقال: إنّ هذا الذي يغفر الله ﷻ له إذا أتى بالمعاصي

- إما أن يكون لا تقع منه المعاصي إلا على نُدْرَة؛ يقع منه صغائر، وهي مُكَفِّرَةٌ باجتناب الكبائر.
- أو يقع منه كبائر يبادر بالتوبة منها، وبالتالي فإنها لا تؤثر فيه.
- أو أن هذا الإنسان وإن أتى بهذه الذنوب العظيمة ولكنه يُوفَّقُ إلى تجديد التوحيد، بمعنى: أرأيت إنسانًا أتى بذنوب عظيمة وكثيرة جدًا، ولكنه رُزِقَ التوبة إلى الله ﷻ قبل وفاته، مات على توبة من هذه الذنوب؛ ما حكم تلك السيئات؟ **مغفورة، قال** ﷺ: **«التائب من الذنب كَمَنْ لا ذَنْبَ له»**.

إذا هذا الإنسان لو ما أتى بالتوبة لكنَّه جَدَّدَ التوحيد أتى بـ (لا إله إلا الله) بصدق ويقين وإخلاص تأثير التوحيد في مغفرة تلك الذنوب أعظم من تأثير التوبة، فهذا هو الذي يقتضيه الجمع بين النصوص التي جاءت عن النبي ﷺ في هذا الشأن. والناس في هذا لا شك أنهم متفاوتون تفاوتا عظيمًا
كما قال ابن القيم أنَّ (لا إله إلا الله في النفوس متفاوتة،من الناس من تكون (لا إله إلا الله) في نفسه ميتة، ومنهم من تكون، في نفسه مريضة، ومنهم من تكون في نفسه نائمة، إذا أوقظت تيقظت، ومنهم من تكون في قلبه متيقظة، قائمة بمصالح الروح والبدن، فهي في النفس بمنزلة الروح؛ فروح ميتة، وروح ضعيفة، وروح نشيطة. هكذا الناس يتفاوتون في (لا إله إلا الله)؛ في تحقيق شروطها، في الإتيان بقيودها، في مجانبة نواقضها، في الابتعاد عن القوادح فيها، وبالتالي فإنَّ لهم درجات بحسب أعمالهم، ولهم ثواب بحسب ما قدموا .

فائدة ذكرها المؤلف رحمه الله في المسائل وهي أنه يستفاد من هذا الباب وما جاء فيه:
إثبات الصفات الله جَلَّ وَعَلَا خلافًا للأشعرية)، وجاء في نسخة (خلافًا للمعطلة)؛ وذلك أن فيها إثبات الوجه الله جَلَّ وَعَلَا، يبتغي بذلك وجه الله ، وفيها أيضًا إثبات الكلام والقول لله؛ أهل السنة والجماعة يثبتون الله الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة دون تحريف ودون تعطيل، ودون تكييف ودون تمثيل.

الدرس الرابع –٦٩ ٣– بابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

بعد أن بيَّنَ المؤلف رحمه الله شيئا من فضل التوحيد عقد هذا الباب ليبين لنا أن كمال فضل التوحيد إنَّما يكون بكمال تحقيقه.

تعريف تحقيق التوحيد: هو أن يبلغ الإنسان بالتوحيد الغاية والمنتهى.حقَّقَ الشيءَ: إذا بَلَغَ غايَتَهُ، فتحقيق التوحيد: بلوغ غايته.

(مَنْ أتى بتحقيق التوحيد أكملُ مِمَّنْ وَحَدَ اللهَ ﷻ).

هناك توحيد: يأتي به كل مسلم، مَنْ أتى بأصل الدين فهذا هو الموحد،

لكن تحقيق التوحيد: هو بلوغ الغاية فيه، وذلك بتصفيته وتكميله.

وتحقيق التوحيد على درجتين:

- **الأولى:** تحقيق التوحيد الواجب.
- **الثانية:** تحقيق التوحيد المستحب.

أما تحقيق التوحيد الواجب فيكون:

- **بفعل ما أمر الله ﷻ به:**﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾الكهف ١١٠، هذا هو التوحيد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[فصلت: ٦ يستلزم توحيده الاستقامة على شرع الله ﷻ يعني تحقيق توحيد الواجب
- **و يكون بتصفيته، وتكميله.**

أما تصفيته: فتكون باجتناب ثلاثة أمور:

الأول: الشرك الأصغر. **الثاني:** البدعة. **الثالث:** الإصرار على المعصية.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه التبيان: (الهدى التام يتضمن توحيدَ المطلوب، وتوحيدَ الطلب، وتوحيدَ الطريق الموصلة) الأول يقدح فيه (الشرك)، والثاني يقدح فيه: (المعصية)، والثالث يقدح فيه: (البدعة)، والشيطان إنما يَنْصِبُ شِراكَهُ من خلال هذه الأمور الثلاثة.

- أولاً: **الشرك الأصغر:** ولا نقول هاهنا: الشرك الأكبر، لأنَّ الشرك الأكبر مُنافٍ لأصل التوحيد، ونحن نتحدث عن درجة أعلى، وهي تحقيق كمال التوحيد الواجب.

الشرك الأصغر، أكبر وأعظم قادح في تحقيق التوحيد الواجب، والشرك الأصغر بَحْرُ لا ساحل له، وهو أمر مَخُوف، حتى إنَّ النبي ﷺ خافه على أصحابه ﷺ وهم قِمَمُ أهل التوحيد، ففي حديث محمود بن لبيد عند أحمد وغيره بإسناد صحيح قال ﷺ:«**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، فالشرك الأصغر أمرُ مَخُوفٌ،

صور الشرك الأصغر لا تكاد تخرج عن أمرين:

الأول: **صَرْفُ نوعِ طاعة لغير الله جَلَّ وَعَلَا** ؛ كقَصْدٍ مثل الرياء، أو محبّة أو خوف أو توكُل أو ما شاكل ذلك.

والثاني: **نقص في اعتقاد تفرُّدِ الله ﷻ بالنفع والضر**؛ وهذا ما يرجع إليه ما يتعلق بالتمائم والرقي الممنوعة وما إلى ذلك.

أما القادح الثاني: **فإنه البدعة**؛ والبدعة كما قال أهل العلم يُنبوع شر،ودهليز الكفر، وسبيلُ ظلمات، وفي حَشْوِها من السموم المضعفة للإيمان والتوحيد شيء كثير.

البدعة أمرها عظيم؛ لأنه يجتمع فيها أمور:

أولاً: **أن في البدعة مُشاقةً الله ورسوله ﷺ**،

فالله عزوجل يقول: ﴿**وَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأعراف: ١٥٨]،﴿**فَاتَّبِعُونِي** ﴾ [آل عمران:٣١] والنبي ﷺ يقول:(**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**)، ويقول: (**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**) فجاء المبتدع وخالف كل ذلك، وانتهج غير نهج النبي ﷺ

ثانيا:**البدعة اتباع للهوى.**

والله تعالى يقول:﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾[القصص: ٥٠
صاحب البدعة متبع هواه ولا بُدَّ، قال تعالى ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾[القصص
لايمكن أن يكون الإنسان إلا أحد رجلين: إما مُتَّبِعاً للنبي ﷺ ، فَإِنْ لم يَكُنْ؛ فإنه مُتَّبع لهواه ولابد.

ثالثا: **أنَّ المبتدع نَزَّلَ نفسه منزلة المستدرك على الشريعة، أو الْمُتَّهِم للنبيﷺ بعدم البلاغ المبين.**

كُلُّ مبتدع لسان حاله يقول: الشريعة ناقصة فأنا أُكمِلُها، أو هي كاملة لكنَّ النبيَّ ﷺ مَا بَلَغَ البلاغ المبين ولا أتى بهذا الأمر الذي جِئْتُ به وهو من الشريعة.

قال ابن القيم رحمه الله: كُلُّ مبتدع فإنه مُنتَقِصٌ للنبي ﷺ، وَإِنْ ظَنَّ أنه يُعَظمُه) **قال الإمام مالك رحمه الله:**(من ابتدع بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمد صَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خان الرسالة) فإن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾[المائدة:3] فما لم يكن بالأمس دينا لا يكون اليوم دينا. ولذا البدعة قادح في توحيد ربنا جَلَّ وَعَلَا والاستجابة لأمره باتباع نَهْجِهِ ونَهْجِ نبيه ﷺ ، كما أنه قادح في توحيد الاتباع ﷺ.

➢ الثالث: **المعصية.**

فإنَّ البَلِيَّةَ بها عظيمة ،وما أكثر الغفلة عن أثرها على التوحيد.المعصية تجمع أموراً:

✹ أولاً: **فيها تقديم طاعة النفس والشيطان على طاعة الرحمن:**

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يس: ٦٠].

✹ وثانيا: **المعصية تَدُلُّ على نَقْصٍ في الخوف من الله جَلَّ وَعَلَا،**

وإلا لو كَملَ الخوف من الله ﷻ لَمَا عصى العاصي، والخوف من الله من التوحيد.

✹ ثالثا: **وهو أنَّ المعصية قد يكون مُصاحِباً لها نقصٌ في تصديق وَعيدِ الله جَلَّ وَعَلَا** ، وإلا فلو كَمُلَ التصديقُ بوعيد الله سبحانه على هذه المعاصي وآثارها لكان هذا حاجزاً بين الإنسان واجتراح محارم الله جَلَّ وَعَلَا.

✹رابعا: **أن المعصية في الغالب يشوبها شيء من التعلق بغير الله، والتفاتِ القلب لغير الله، ومحبّة لغير الله،** وهذا كله مما يُضْعِفُ توحيد العبد، ولكن ذلك لا يعني خروج الإنسان من الإسلام؛ وذلك لأن محبة الله أعظم ، بخلاف حال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. لكنَّ المخُوفَ وَالْمَخْشِيَّ هنا إنما هو أن يتدرَّجَ الإنسان من صغير إلى كبير، حتى ربما أَخْرَجَتْهُ المعصية من صغيرةٍ إلى كبيرة، وربما أَوْقَعَتْهُ في الكفر بالله ﷻ، ولأجل هذا خافَ السلفُ رَحِمَهُمُ اللهُ من المعاصي ووصفوها بأنها: (بريد الكفر).

↙ أما تكمليه: **بالإتيان بالواجبات:** ذكرها حفيد المؤلف في حاشيته الملقبة بـ «قرة عيون الموحدين».

تحقيق توحيد المستحب:

ثَمَّةَ درجة أرفع وأسمى، والواصل إليها عزيزٌ، أفراد من الكُمَّل،من المخلصين.

حقيقة هذه الدرجة انجذاب الروح إلى الله جَلَّ وَعَلَا ؛ بحيث يكون الله سبحانه في القلب أعظم من كُلِّ شيء، فلا تنبعث الجوارح إلا وفق ما يحبه الله. **وأعظم الناس تحقيقا لهذا التوحيد**: الأنبياء والمرسلون.

ويكون بتكميله و تصفيته

➡ **بتكميله: بفعل المستحبات،بعد الواجبات**

➡ **بتصفيته:بالكف عن الأمور الأربعة :**

➢ **الأمرالأول: المكروهات**: وهي ما نهى عنه الشارع نهياً غير جازم، .

➢ **الأمر الثاني: الْمُشْتَبِهات**؛ وهي التي ليست بحرام بين ولا بحلالٍ بيِّن،

قال النبي ﷺ: إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ.

➢ **الأمر الثالث: فإنه فضول المباحات** وضابطه هو كل مباح لا ينفع في الدار الآخرة، بمعنى: أنه كُلُّ مباح لا يُستعان به على الطاعة

القاعدة : كلُّ مباح لا يُستعان به على الطاعة فعَدَمُه خير من وجوده.

لا شك أنَّ عدم هذه الأمور خير للإنسان، لأنَّ أقل ما فيها أنها مُشْغِلَةٌ، وكان يمكن أن يُسْتَثْمَرَ هذا الوقت الذي ضاع فيها فيما يُقَرِّبُ إلى الله جَلَّ وَعَلَا،وهذا لا يعني أنهم يتركون المباح جملة، كلا ، إنما هم يأخذون المباح على أنه أباحه الله،

ويستلِذّون بهذه المباحات أيضا، ولكن بأمرين:

١. بكونها مُقَرِّبَةً إلى الله ﷻ بحيثُ يمكن أن يُستعان بها على طاعة الله .

٢. وأيضا: بوجود النية الصالحة، فإنهم يتناولونها على نية أنها تعين على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا ، كما قال معاذ كما في الصحيحين: **(أما أنا فأحتسب نومتي كما أحتسب قَوْمتي)**، فلا يوجد في حق هؤلاء مباح

مستوي الطرفين؛ الأكل والشرب، والشراب الحلو، والحديثُ الشَّيقُ مع صديق وزوجة وولد، كل ذلك ينوون فيه أنهم يُرَوِّحُونَ النفوس لأجل أن تستعد بعد ذلك لطاعة الله ﷻ .

➢ **الأمر الرابع** : **أنهم يتنزهون عن سؤال المخلوقين؛**

يَسْتَغْنون بالله عن خَلْقِهِ، عندهم من التعظيم لله والذُّلِّ له ما يجعلُهُمْ يَأْنفون من أن يُرِيقُوا وجوهَهُمْ أو يَذِلُّون لأحدٍ من المخلوقين، فلا يسألون إلا الله، مهما استطاعوا ومهما أمكنهم

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عوف بن مالك ﷺ ذَكَر أن النبي ﷺ بايعهم وكانوا رهطا ، وكان فيما بايعهم : **(ألا يسألوا الناس شيئا).**

ومَنْ وفَقَهُ الله ﷻ إلى ذلك فليُبْشِرُ بكُلِّ خير؛فإن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب

والمؤلف أورد هذا الحديث وفيه ما يدل علي كمال التوحيد الواجب،

وذلك في قوله: **(لا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون).**

وأيضاً ما يدل على تحقيقهم التوحيد المستحب، وذلك في قوله: **(لا يكتوون،ولايسترقون).**

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)؛ أي: ولا عذاب

والحديث جاء فيه تارةً : يدخلون الجنة **بغير حساب**، وجاء تارةً ،**بغير حساب ولا عذاب.**

(وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠]

هذه الآية دليل من القرآن على تحقيق إبراهيم عليه السلام للتوحيد

- ومن ترك الشرك فإنه يكون بسبيل إلى تحقيق التوحيد كإبراهيم عليه السلام ،
- فحري بالمسلم أن يقتدي به ، **(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾** [النحل : ١٢٣]،
- وأن يتبعه: **﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾** [آل عمران :

وأن يجعله أسوة له :**﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾** [الممتحنة: ٤] .

قال جَلَّ وَعَلَا: (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، حُذِفَتِ النون هاهنا

والأصل: (ولم يكن من المشركين)، وذكر علماء اللغة أنَّ النون فيها شَبَهٌ من حرف العلة فناسب أن تُحذَفَ بـ (لم) ، وذكروا أسباباً لشبهها بحرف العلة، قالوا: خِفَّتُها، أو الغنة التي فيها، أو كثرة ورودها على الألسنة، إلى غير ذلك مما ذكروا.

الشاهد أن النون إذا كانت ساكنة في مثل هذا السياق فإنها تُحْذَف، أما إذا كانت متحركة فإنها لا تُحذف، ولذلك في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة١] تلاحظ أنَّ النون ما حذفت؛ لأنها متحركة ليست ساكنة.

قال جَلَّ وَعَلا عن إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ؛ لم يكن من المشركين في كُلِّ شيء، كان مجانباً لهم بكل أحواله؛ بقلبه، بلسانه، بجوارحه،وببدنه.ولا شك هذا واضح عن حال إبراهيم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٩] ؛

ما هي صفة التي وصف الله به أهل الإيمان بها في الآية؟ أنهم بربهم لا يشركون البتتة،

وصف الله أهل الإيمان بصفات في سورة المؤمنون منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون : ٥٩) .

وإيراد المؤلف رحمه الله لهذه الآية بعد سابقتها من دِقَّةٍ فَهْمِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وذلك أنَّ الموحد مُطالَب باجتناب الشرك وأعماله و أقواله وعقائده ومشابهته وبراءة منه ومن أهل الشرك،

فلابد من أن يحقق الإنسان الأمرين لتحقيق التوحيد:

الأمرالأول: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . **الأمرالثاني:** ﴿بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ .

قال رحمه الله : (وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي أَنْقَضَّ البَارِحَةَ ؟ ، فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ:أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ؛ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ ؟ ، قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟، قُلْتُ : حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ ، قَالَ : وَمَا حَدَّثَكُمْ؟، قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ ابْنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»،

قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ؛ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ : ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ : سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ»).

هذا الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما،هذا الحديث يرويه والسياق الذي ساقه المؤلف هو سياق الإمام مسلم رحمه الله ، لكن مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ سيأتي التنبيه عليها.

والإمام مسلم أخرج هذا الحديث من طريق سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما،

وحصين الصحيح أنه من التابعين، متوفى سنة ست وثلاثين ومائة كان جالسا عند سعيد بن جبير، وهو من سادات التابعين، وهو مِنْ أَثْبَتِ أصحاب ابن عباس رضي الله عنه، قَتَلَهُ الحجاج سنة خمس وتسعين رحمه الله.

قال سعيد رَحِمَهُ اللهُ: «أَيُّكُمْ رأى الكوكب الذي انْقَضَ البارحة؟»؛

وهذا فيه: أنَّ السلف كان لهم عناية بالتأمل في ملكوت الله جَلَّ وَعَلَا وفيما في السماء من الآيات والعِظات التي تُكْسِبُ الإيمان، والله جَلَّ وَعَلَا وَصَفَ المتقين المؤمنين بأنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض.

«ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ»؛ الأمرُ حَصَلَ في الليل، وربما كان في وقت متأخر، وحصين يقول : أنا رأيته، ثم خَشِيَ أَنْ يُظَنَّ فيه أنه كان يقوم الليل، فلعظيم إخلاصهِ وحُبِّهِ أن لا يُحْمَدَ بما لم يفعل.

وهذا يفيد الإخلاص العظيم الذي كان عليه السلف الصالح رحمهم الله،

هذه كلمةٌ عظيمةٌ يَحْسُنُ بطالب العلم أنيستحضرها دائما «أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ».

وَلَكِنِّي لُدِغْتُ:**هذا هو السبب** الذي جعلني أستيقظ في هذه الساعة من الليل؛ لُدِغَ من عقرب أونحوه.

«قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ ؟ قُلْتُ: أَرْتَقَيْتُ»؛

والذي في صحيح مسلم: «**استرقيت**»، وهذا هو المناسب لإيراد الحديث

و(**الألف والسين والتاء**) للطلب، يعني: سألت أحداً أن يَرْقِيني،

ما هي الرقية؟ هي القراءة على المريض، سيأتي الكلام فيها في باب خاص إن شاء الله،

الشاهد أنه طَلَبَ مَنْ يَرْقيه بسبب هذه اللَّدْغَةِ أو هذا السم الذي أصابه.

«قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟» هذا فيه: السؤال عن الحُجَّةِ، والمطالبة بالدليل.

وهكذا كان السلف في كل خطوة، وكُلِّ حَرَكَةٍ وسَكَنَةٍ ، كانوا يحرصون على أن لا يفعلوا إلا بدليل، وهذا هو الفارق بين أهل الاتباع وغيرهم،

قال بعض السلف: (إن استطعت ألا تَحُكَ رأسَكَ إلَّا بِأَثر فافعل) في كُلِّ أمورك احرص على أن تكون ناهجاً وفق حجة ودليل صحيح.

قُلْتُ: حَدِيثُ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ ابْنِ الحُصَيْبِ، أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ):

يقول: عندي دليل وعندي حجة على ما فعلت، وهو أنني طلبت من يرقيني،

والشعبي من سادات التابعين رحمه الله: حدَّث حُصَيْنا بكلامٍ سَمِعَهُ من بريدة بنِ الحُصَيْب الصحابي رضي الله عنه.

وهو أن بريدة قال: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»، وهذا الكلام رُوِيَ مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله في محله من الباب الذي عقده المؤلف رحمه الله للرقية.

والمعنى في هذا الحديث باختصارهو(أو الفائدة من إيراد سعيد بن جبير حديث بريدة): أنه لا رُقْيَةَ أنفع من الرُّقيَةِ في شأن العين،وفي شأن الحُمَة.

والحُمَةُ هي:

- ذوات السموم؛ كالحية والعقرب.
- أو السم الذي يخرج من هذه الدواب.
- أوالإبرة التي تصيب.
- أو الحرارة والحمى التي تَنالَ مَنْ أُصِيبَ بهذا السم.

فأحسن ما يكون في العلاج هو الرقية.

«قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ»:

هذه قاعدة حسنة:(قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) وذلك يفيد أن من اجتهد في الوصول إلى الحق وعَمِلَ بدليل فإنه لا تَثريب عليه ، وذلك أَنه هذا مَبْلَغُ اجتهاده وهذه طاقتُهُ ، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسْعَهَا، فهو عَمِلَ وفق دليلٍ بَلَغَهُ.

وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاس: (ولكن) هنا سعيدٌ أراد أنْ يبين لحصين أن ثمة درجةً أرفع ، وأن هناك حالةً أولى مِمَّا فَعَلْتَ؛ وهي أنك طَلَبْتَ مَنْ يَرْقيك، أنك استرقَيت، وذلك ماحدث سعيدًا وأصحابَهُ ابن عباس

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ والنبيَ ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد)

وجاء عند الترمذي أنَّ ذلك ليلةَ أُسْرِيَ به ﷺ **(إسراء ومعراج)** عُرِضَ عليه الأمم ، فكان فيما رأى ﷺ

(النبيَّ ومَعَهُ الرهط). يعني جماعة عشرة فما دون أو أقل،

وهذا نستفيد منه فائدتين :

➢ **الفائدة الأولى:** أنَّ النبيَّ مُرسل كالرسول، والنبي مبعوث كالرسول، فمن هذه الجهة لا فرق بين النبي والرسول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

وذلك يدل على أن النبي مُرسَل وأنه مُطالَب ومأمور بالدعوة وقد يُستجاب له وقد لا يستجاب له وقد يكون الحال أن الاستجابة كبيرة كما في شأن موسى عليه السلام وكذلك نبينا ﷺ – وقد لا تكون الاستجابة كبيرة، حتى إنه قد يأتي النبي ومعه الرجل ومعه الرجلان أو ليس معه أحد البتة.

➢ **الفائدة الثانية**: أنَّ على الدعاة إلى الله جَلَّ وَعَلَا أَنْ لا يغتروا بالكثرةولايزهدوا في القلة ، بل هَمُّهُ أن يؤدي الواجب، وأما النتائج فأمرها إلى الله.

(إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ)

(سواد) ي**عني**: **أشخاص كُثر**، رآهم النبي ﷺ وجاء في الصحيح أنَّهم سَدُّوا الأفق، أو قال: سوادُ سَدَّ الأُفُق»، يعني: سواد كثير، فظنَّ النبي ﷺ أَنَّ هؤلاء أُمَّتُهُ.

وكيف يظن ذلك ﷺ وهو يعلم سِمَتَهُمْ وعلامَتُهُمْ وأنهم يأتون غُرّاً مُحَجَّلين يوم القيامة؟

أجاب أهل العلم ومنهم الحافظ ابن حجر رحمه الله أن ذلك لأنه كان قد رآهم عن بُعد، أما إذا قَرُبُوا منه فإنه سوف يعلمهم، أو يعرفهم بسيماهم

فقيل له : هؤلاء قوم موسى عليه السلام؛ وهذا يدلك على فضيلة قوم موسى عليه السلام ، وأنه قد استجاب قبل أن ينحرف بنو إسرائيل ،واتبعوا هذا النبي الكريم ﷺ

(فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ) نَظَرَ ﷺ وإذا بسواد عظيم، وهذا السواد أعظم من الأول ، وقد جاء في رواية عند البخاري لهذا الحديث أنه قيل له

(انظر هاهنا، فرأى سواداً عظيم، ثم قيل له.انظر هكذا وانظر هكذا، فكان يرى سواداً عظيماً)،

هذا على أن أمة محمد ﷺ أَعظمُ من أمة موسى عليه السلام.أشار إليه المؤلف قوله في المسائل :

ما هوالفضل في أمة محمد ﷺ كما يظهر في الحديث؟ الفضل في الكمية والكيفية.

- **أما في الكميَّةِ** : فإن عدد المستجيبين للنبي ﷺ لا شك أنه أعظم.
- **وأما في الكيفية** : فِلأَنَّ في هؤلاء المؤمنين به ﷺ مَنْ هو على درجة عالية في التوحيد، حتى إن منهم هؤلاء السبعون ألفا وهم قد حققوا كمال التوحيد الواجب والمستحب.

(وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ) هذا العدد لا شك أنه مقصود ،وأنهم سبعون ألفاً كما قال النبي ﷺ،إذ كلامه حق وصدق ولا ينطق عن الهوى ﷺ

والعدد جاء في النصوص في هذا المقام على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: أنهم سبعون ألفا فقط يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وجاء في الصحيحين **«إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر، سبعون ألفا آخِذٌ بعضُهم بيد بعض، لا يُحاسبون، لا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حتى يدخل آخرُهم»،**

الضرب الثاني: تفضَّلَ الله ﷻ بزيادة هذا العدد، ففي مسند الإمام أحمد بسند جيد أنَّ النبي ﷺ وَصَفَهُمْ بأنهم سبعون ألفا ومع كل ألف سبعون ألفا، فيكون العدد قرابة الخمسة ملايين،وهذا فضل عظيم

الضرب الثالث: جاء فيه تَفَضّلَ الله ﷻ بزيادةٍ أكثر؛ وذلك ما عند الترمذي بإسناد لا بأس به أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّهم سبعون ألفا ألف سبعون ألفا وثلاثُ حَثَياتٍ مِنْ حَثَيات ربنا، وفضل الله عظيم.

(ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وِلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ)؛ هذا يدلُّكُ على حرص أصحاب النبي ﷺ على إشغال مجالسهم بما ينفع، ما كانت مجالسهم في قيل وقال، وفي كلام قليل الفائدة أوعديم الفائدة.

النبي ﷺ أخبرهم بأن هناك سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم قامَ وَلَمْ يُبَيّنْ ﷺ ما صفتهم وما السبب الذي لأجله كانوا كذلك. تَشَوَّفَتْ نفوس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى معرفة مَنْ هؤلاء، فتكلموا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛

وهذا يدلك على أنه يجوز الكلام بالاجتهاد لِمَنْ كان أهلاً له.

منهم من قال:(لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ)، لعلهم نحن معشرالصحابة، نحن صَحِبْنا النبي ﷺ،وآمَنَّا بِهِ لَمَّا كَفَرَ الناس به،وجاهدنا معه ونَصَرْنا النبيَّ ﷺ فلعلنا،نحن

وقال بعضهم (لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا»، وذكروا أشياء) لعلهم من أبنائنا الذين ولدوا في الإسلام، أما نحن فقد أشركنا بالله جَلَّ وَعَلَا ثم أسلمنا.

(فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَايَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) خرج النبي ﷺ عليهم فسألَهُمْ عن الحديث الذي كانوا يتحدثونه فأخبروه، فجاء الجواب الناجع والعلم الصحيح من لدن رسول الله ﷺ

(هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون). **موصوفون بأربع صفات**.

التنبيه أنَّ هذا اللفظ الذي ذكره المؤلف، هو لفظ (مسلم من طريق هشيم عن حصين، عن سعيد، عن ابن عباس)،

ولكن الذي في مسلم ليس فيه : (هم الذين لا يسترقون)، إنما فيه: (هم الذين لا يرقون)،

وذلك دليل على أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ رأى أَنَّ هذا اللَّفْظَ معلول.

وحفيد المؤلف الشيخ سليمان رحمه الله اعتذرله بأنه لما رأى هذا اللفظ معلولاً اختار لفظا واردا في (صحيح البخاري)، وفي (صحيح مسلم) أيضاً لكن من طريق أخرى، فأتى بهذا اللفظ ، وإلا هذا السياق الذي ذكره المؤلف رحمه الله عن مسلم ليس فيه هذا اللفظ ، إنما فيه:(أنهم لايرقون) كما أنه أسقط في هذه الرواية الاكتِواء (لايكتوون)، فَجَعَلَ فيه (لايرقون وأسقط فيه لايكتوون)

ذكرَجَمْعُ من المحققين ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ ناصر الألباني رحمة الله على الجميع،أنَّ هذا اللفظ (لايرقون) **معلول**، وأنه شاذ، وأنه خطأ من الراوي ، ولم يقل النبي ﷺ وأنه مردود من جهة الرواية ، وأيضاً من جهة المعنى.

أما من جهة الصناعة الحديثية :

أولا : أنَّ هذا اللفظ لا يصح؛ لم يذكره إلا **سعيد بن منصور** من رواة الحديث وهو شاذ ولايصح

وثانيا: أنه تابَعَ حُصَيْنًا في رواية هذا الحديث أربعة أو أكثر،وكُلُّهُمْ لم يذكراللفظ (لايرقون).

ثالثًا : أنَّ هذا الحديث جاء في الصحيحين من رواية غير ابن عباس وفيه

(أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)، ليس فيه (**لا يرقون**)، كما أنه جاء عند أحمد والبخاري في الأدب المفرد) وغيرهم.

إذا وَجَدْتَ في الإسناد عبيد الله هذا، عن علي بن يزيد عن القاسم أبي عبد الرحمن فاعلم أن هذا الإسناد ضعيف جداً ، حتى قال ابن حبان: (إذا رأيت هؤلاء في إسناد فاعلم أنَّ هذا الحديث مما عَمِلَتْهُ أيديهم)، هذا يدلك على أنه ضعيف جداً.

والصواب الذي لا شك فيه هو لفظ (لا يسترقون)،

أما من جهة المعنى : فإنَّ هذا الحديث مخالف لأحاديث كثيرة عن النبي ﷺ فإنه قد رَقَى، وقد رُقِي، وقد أَذِنَ فِي الرُّقْيَةِ ﷺ وقال في شَأْنِها (مَن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل).

ما هو الفرق بين الراقي والمسترقي في الحديث؟

الراقي: متوكل على الله، محسن الظن بالله، تالٍ لكتاب الله، فلماذا يكون هناك ذم له من جهة أنه يفوته هذا الفضل.

أما الْمُسْتَرْقِي: فإنه وَقَعَ منه طَرَفٌ من الذل لغير الله حينما يطلب من غير الله، وربما يقع في نفسه شيء من الالتفات لغير الله.

ما معنى لا يسترقون؟ لا يطلبون الرقية من غيرهم، ومادة (استفعل) موضوعة غالبا على معنى الطلب والاستدعاء، هذا هو الغالب في استعمال هذا البناء (استفعل)، أو كما يقولون: الألف، والسين، والتاء : للطلب. ، وبالتالي لا يتحدّث هذا الحديث عن الرقية، وأن يرقي الإنسان، وإنما أن يسترقي الإنسان.

الدرس الخامس ـ ٩٤ باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب (المجلس الثاني)

«الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

الصفة الأولى: **هي ترك الاستقراء**، (أن يسترق الإنسانُ لنفسه).

لا يتحدثُ هذا الحديث عن الرقية، وأن يرقي الإنسان، **وإنما يسترق الإنسان**، وبين الكلمتين فرق،

عندنا في هذا الباب أحوالٌ أربع:

أولًا: أن يرقي الإنسانٌ نفسه. **ثانيًا**: أن يرقي الإنسانُ غيره.

ثالثًا: أن يسترق الإنسانٌ لغيره. **رابعًا**: أن يسترق الإنسانُ لنفسه.**(موضع الحديث)**

في الجملة رقية الإنسان نفسه أو غيره تنقسم إلى قسمين من حيث الحكم:

- **القسم الأول**: الرقية المشروعة.
- **والقسم الثاني**: الرقية الممنوعة.

والرقية الممنوعة: قد تكون شركاً الأكبر، وقد تكون شركاً الأصغر؛ التفصيل يأتي في محله.

ما هي الرقية المشروعة؟ هي أن يقرأ الإنسان على نفسه أو على غيره بآيات القرآن أو أدعية النبي ﷺ أو أي دعاء لله جل وعلا يذكر فيه أسماء الله، وصفاته؛

- **أولا**: **أن يقرأ الإنسان على نفسه** هذا أمرٌ حسنٌ مشروع وكان النبي ﷺ يرقي نفسه كما في الصحيحين **«أن النبي ﷺ كان إذا أشتكى رقى نفسه، ونفس ﷺ»**.

- **ثانيا**: **أن يرقي الإنسان غيرهُ** وهذا أيضاً مشروع، ففي هذا الحديث أنه ﷺ لما مرض كانت عائشة رضي الله عنها تقرأ عليه ثم تمسح عليه بيده ﷺ رجاء بركتها كذلك ثبت في صحيح مسلم **«أن النبي ﷺ مرض فجاءه جبريل عليه السلام فقال: محمد يا اشتكيت؟ قال النبي ﷺ: نعم فقال جبريل عليه السلام: بسم الله أرقيك من كل شيءٍ يؤذيك من عيني من كل ذي عينٍ أو نفسِ حاسد بسم الله أرقيك الله يشفيك»** وفي مسلم قال: **«من أستطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

فضل رقية الإنسان لنفسه ولغيره: رقية الإنسان لنفسه توكلٌ على الله واعتمادٍ عليه وحسن ظن بالله، وتحقيقٌ للتوحيد ورقية الإنسان لغيره فيها من تحقيق التوحيد، وأيضاً إحسانٌ إلى المسلم، وبذل معروفُ له؛

➢ **ثالثا**: **أن يسترقي الإنسانُ لغيره** يعني: يطلب أن يرقي غيرَه، ، وهذا أيضاً أمرٌ جائزٌ بل حسن، في الصحيحين «**أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سَفْعَةً يعني: يظهرُ في وجهها تغير في اللون يدل على علة بها، فقال النبي ﷺ: استرقوا لها فإن بها نظرة**» قال استرقوا لها؛ يعني: اطلبوا لها من يرقيها فإن بها النظرة يعني: بها عين.

ما معنى سَفْعَةً في الحديث ؟ هي تغيُّر في اللون لعلة

وفي مسلم «**أن النبي ﷺ رأى ضعفًا في أبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال لأمهم أسماء بنت عميس رضي الله عنها قال: ما بال بني أخي ضارعين؟ يعني: فيهم نحف وفيهم ضعف، فقالت رضي الله عنها إن العين تُسرع إليهم. فأمرها النبي ﷺ أن تسترقي لهم**» يعني أن تطلب من يرقيهم .

➢**رابعا**: **وهو أن يسترقي الإنسان لنفسه**، **وهذا هو الذي مُدِح هؤلاء السبعين ألف بتركه** قال ﷺ : «**هم الذين لا يسترقون**» **يعني**: لا يطلبون من يرقيهم، بل يرقون أنفسهم،

✪ **هل قبول الرقية من الغير يُعد استرقاءً ؟ لا** فإن قبلوا الرقية دون الطلب لم يُعدَّ ذلك استرقاء وهذا قد حصل من النبي ﷺ قبل أن يرقيه جبريل عليه السلام وقبل أن ترقيه عائشة رضي الله عنها ولكن لم يكن هذا عن طلب،فبحثنا هو في الطلب.

قال بعض أهل العلم: : إن الرقية التي مُدِح هؤلاء بتركها هي رقيةٌ ممنوعة،أي التي فيها استغاثة لغيرالله أوذكر لأسماء الشياطين، أوباعتقاد نفعها بذاتها.

هذ الجواب فيه نظر:الذي يظهره الله تعالى أعلم أن هذا التوجيه فيه نظر فإن ترك الرقية الممنوعة أمرٌ هو من شأن المسلمين جميعًا إلا من ضعف إيمانه، وتوحيده؛ والحديث يدل على أن هؤلاء السبعين ألفًا لهم ميزة على غيرهم وأن لهم خاصية دلت على عظيم إيمانهم، وعظيم توحيدهم، وأنهم من المحققين للتوحيد فكيف يقال بعد ذلك أنهم إنما مُدحوا على ترك الإشراك بالله سبحانه وتعالى بل الظاهر أنهم تركوا على شيءٍ أرفع وأعظم من ذلك يعني أنهم تركوا شيء يتنافى مع كمال التوكل، وليس مع أصل التوكل.

ويدل على هذا أيضاً أسلوب سعيد بن جبير رحمه الله مع حصين بن عبد الرحمن

فأولًا:لا يظن أن حصينًا قد ارتقى رقيةً شركية حتى يقال أن سعيدًا رضي الله عنه ورحمه، قد استدرك عليه، حصينٌ تابعيٌ جليل ولا يظن به أنه استرقى رقية شركية، هذا بعيد،

ثانيا: أنه لو فعل لم يكن سعيدٌ رحمه الله ليتلطف معه في الكلام بهذا الأسلوب فيقول له: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس ....، بل كان ينكر عليه ذلك بوضوح، لكن أسلوب سعيد يدل على أنه أراد أن يرشده إلى ما هو أكمل ،فدل هذا على أن حصينا لم يكن قد وقع في رقية شركية.

ما وجه تميُّز السبعين ألفًا ؟ مُدِحوا على ترك ما يتنافى مع كمال التوكُّل لا أصله.

۞ في الاسترقاء يعني في طلب الرقية من الغير أمورًا:

أولًا: أن في الاسترقاء ذلاً لمخلوق وهؤلاء أهل توحيدٍ عظيم لا يذلون لا غير ﷻ.

ثانيًا: أن طلب الرقية من الغير لا يخلوا غالبًا من نوع التفاتٍ للقلب لغير الله جل وعلا،

ثالثا: وهو أن الاسترقاء فيه في الغالب سؤالٌ لمخلوق بلا حاجة والنبي ﷺ حث على ترك سؤال الناس.

لماذا لو رقى نفسه كان هذا أقرب للاستجابة ؟ لأن الغالب أن المصاب يكون صادقًا في الرقية ويكون فيه من الاضطرار ما ليس في الراقي غير المصاب:﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾النمل

ثبت في الصحيحين أمر رسول الله ﷺ كما جاءت الرواية: «**أمرني رسول الله ﷺ أن استرقي من العين**»، وفي رواية مسلم: «**أن النبي ﷺ أمرني أن استرقي من العين**».

إذن هذا أمرٌ من النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها أن تسترقي فهل كان النبي ﷺ آمرًا لها بشيءٍ يؤدي إلى تفوتيها هذه الفرصة العظيمة وهي أن تكون من السبعين؟

إذن كيف نوفق بين هذا الحديث وبين حديث لا يسترقون؟

التوجيهات المحتملة لهذا الحديث :

أولًا:أن قولها «**أمرني أن استرقي من العين**» المراد بهذا الاسترقاء: ليس الرقية التي هي القراءة.

إنما المراد: طلب الاغتسال ثم مداواة من أصيب بالعين برسالة العائم كما ث

ثانيا: أن هذا الحديث مختص بالعين فيكون ترك الاسترقاء عامة في كل الأمراض ويكون الاسترقاء من العين خاصًا لدلالة عائشة رضي الله عنها.

ثالثًا:إن قولهﷺ لعائشة أن تسترقي **يعني لغيرها لا لنفسها** ولكن هذا التوجيه بعيدٌ عن ظاهر الحديث.

رابعًا: أن يقال إن النبي ﷺ إنما كان ذلك منه قبل أن يأتيه الوحي من الله جل وعلا بفضل هؤلاء السبعين ألفًا وهذا أيضاً ليس بوجيه لأن معرفة المتقدمة من المتأخر ليس متيسر.

خامسًا: يمكن أن يقال إن الاسترقاء هنا هو طلب الرقية **لا طلب الراقي**، يعني كأن النبي ﷺ أمرها في حال الإصابة بالعين أن تطلب علاج ذلك بالرقية وليس أن تطلب غيرها أن يرقيها، إنما كأنه يقول عليكِ بالرقية. الرقية هي الدواء الناجع لمرض العين.

سادسا: إن الرقية من الغير إذا تعينت بمعني أنه لا يُمكن أو تعذَّر أو تعسَّر أن يرقي الإنسان نفسه؛ وهذا قد يحصل فإن من الناس من تصبح القراءة عليه أمرٌ صعبًا،فيطلب الإنسان من غيره ان يَرْقيهُ ويشترط في هذا أن لا يكون قد ألتفت بقلبه إلى المخلوق، إنما هو معتمدا اعتماد كليًا على الله ﷻ.

ما الموقف العملي تجاه طلب الرقية؟ المقام مقام احتياط وعلى المسلم أن يتحفظ من طلب الرقية من الغير حتى لا يفوته هذا الفضل العظيم.

الصفة الثانية: قال ﷺ : **«ولا يكتوون»**،

الكي هو: أن تحمى حديدة بالنار ثم توضع على العضو العليل فيكون الشفاء بإذن الله،

أهل الطب في الغالب يستعملون الكي في حالتين:

أولًا: **في حَسْمِ نزيف**، يعني أن يكون هناك عِرقٌ جُرحَ والدمُ يَنْزِفُ فإن الكي ينفع في حسم هذا النزيف

ثانيا: **أن يكون في الجسم أخلاطٌ باردة**، مواد ضارة باردة، فإذا استعمل الإنسان الكي فإن هذه الأخلاط تذهبُ ويشفى الإنسانُ بإذن الله ﷻ؛

«لا يكتوون». **هل المراد أن يطلبون الكي من غيرهم أو أنهم في أنفسهم لا يستعملون الكي؟** ذهب بعض العلماء ومنهم حفيد المؤلف في (التيسير)، إلى ألا يكتوون **أي** لا يطلبون غيرهم أن يكويهم فيكون على نسق لا يسترقون،

وهذا فيه نظر، وأن الاكتواء شيء والاستكواء شيءٌ أخر،

اكتوى في لسان العرب أستعمل الكي،

واستكوى طلب من غيره أن يكويه، وهذا الذي يظهر –والله تعالى أعلم– أن الذي جاء نفيه في هذا الحديث هو عدم الكي مطلقًا، وليس خصوص أن يطلب الإنسانُ من غيره أن يكويه.

ما هي أنماط الأحاديث الواردة في الكي؟

أولًا: فعله ﷺ فإن النبي ﷺ حصل منه أن كوى غيره، من ذلك أنه كوى عبد الله بن حراب الأنصاري ﵁ لما أصيب يوم الأحزاب و، كذلك كوى النبي ﷺ سعد بن معاذ وغيره

ثانيًا: النبي ﷺ لا يحب الاكتواء كما في الصحيحين «**وأنا لا أحب أن اكتوي**».

ثالثًا: كراهته ﷺ للكي ومن ذلك قوله ﷺ «**وأنا أكره أن اكتوي**».

رابعًا: نهيه ﷺ عن الكي قال ﷺ: «**وإني أنهى أمتي عن الكي**».

خامسًا: وصفه ﷺ من اكتوى بالبراءة من التوكل قال ﷺ:**من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل**.

سادسًا: مدح النبي ﷺ من ترك الاكتواء وهذا كما في هذا الحديث الذي بين أيدينا.

كيف يُجمع بين هذه الأحاديث؟

أولًا: كون النبي ﷺ فعل ذلك أو أقره دليل على أن الأصل في الكي الجواز

ثانيا: وكونه ﷺ لايحبه أو أنه يكره فهذا يدل على أن تركه أفضل وعلى أنه مكروه وليس بمحرم

ثالثا:وكونه ﷺ ينهى عن هذا له حالٌ مخصوصة، وكذل كونه ﷺ يصف مَنِ اكتوى من البراءة من التوكل وهذا له توجيه خاص سيأتي

رابعا: وما مدحُهُ ﷺ بترك الاكتواء،فهذا في حالِ عدمِ الاضطرار كما سيأتي

ما الحالات الثلاث للكي حسب الحكم الشرعي ؟

← أولًا: **أن يكون محرمًا** ويدل على هذا الحكم نهيه ﷺ عن الكي، وكذلك وصفه من اكتوى بأنه قد برئ من التوكل وهذا محمولٌ على حالتين:

الأولى: من اكتوى قبل أن يَمْرَضَ، قبل أن يكون هناك مرض، قبل أن يكون هناك سببٌ يقتضي الكي كما كان شأن أهل الجاهلية.

الثانية: أن يكون على مايكون عليه اعتقاد أهل الجاهلية في الكي، وأن الكي يحسن الداء بطبعه لابإذن الله جل وعلا.

← ثانيًا: **أن يكون مكروهًا**، وذلك يكون بعد نزول البلاء ويكون الشفاء به مقرونًا لا متعينًا، ، وبالتالي يكون استعماله أمرًا مكروهًا، **ووجه ذلك**

أولا:ان الكي، أنه فيه إيلامٌ للنفس

ثانيا: فيه طرفٌ من التعذيب بالنار،

ثالثا: ربما يقع في النفس شيءٌ من تلك العقائد والأباطيل التي كانت في نفوس أهل الجاهلية بسببه.

وأمرٌ رابع: وهو أن الاكتواء قد يترتب عليه شيءٌ بعد حصوله، وهذا يحصل أحيانًا وهو أنه بعد استعمال الكي، يكون هناك شيءٌ من الآلام التي تطول، أو شيءٌ من القروح، أو شيءٌ من الانتفاخ في الجلد الذي يخرج صديدًا وما شابه ذلك،يعني قد يكون هناك آثارسيِّئَةٌ لهذا الكي، والأمرُ ليس متعينًا، وممكن أن يكون هناك أسباب للشفاء سواه، إذن في هذه الحالة يكون مكروه.

الحالة الثالثة: أن يكون الاكتواء جائزًا؛ وهذا في حال ما إذا أصيب الإنسان بمرض وتعين الكي سببًا للشفاء، في حالة الإصابة بالمرض وتعين الكي سببًا للشفاء، وهذا لو تأملته وجدته ظاهرًا في الأحاديث التي فيها كي النبي ﷺ، فهو مثلًا كوى سعد بن معاذ رضي الله عنه ،مِنْ جُرْحٍ يَنزِفُ منه كان في أَكْحَلِهِ،

وبناءً عليه فإننا نعود الآن لحديثنا الذي بين أيدينا على أي شيء ينزل قوله ﷺ: «لا يكتوون»؟

الجواب: يتعين على أنهم لا يكتوون في حال كون الكي مكروهًا، وهي الحال التي يصاب فيها الإنسان ولا يكون الكي متعينًا، يمكن أن يكون هناك أسباب أخرى للشفاء يمكن أن نستعمل أسبابًا أخرى للشفاء كعقاقير، أدوية، عسل، حجامة، إلى أخره، وليس يتعين أن يكون هاهنا العلاج بماذا؟ بالكي.

أما إذا تعين العلاج بالكي فالذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا الأمر جائز، وأنه أيضاً لا يضيع فرصة لحوق الإنسان بهذا الفضل العظيم، وهو أن يكون ممن يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب، هذا الذي يظهرُ والله تعالى أعلم.

الصفة الثالثة: «ولا يتطيرون»؛ التطير يعني التشاؤم، له باب خاص يأتي لاحقا.

الصفة الرابعة: «وعلى ربهم يتوكلون»؛ التوكل هو الصفة الجامعة لكل ما سبق.

ما هوتعريف التوكل؟ يجمعُ أمرين: بذل السبب، مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى،

أوحركة بلا سكون، وسكون بلا حركة، يعني أن يكون الإنسان منه حركة، واضطراب

ثم يكون منه سكون بلا اضطرابٍ ولا حركة وهو سكون القلب واعتماده على الله سبحانه وتعالى،

الخلاصة: أن النبي ﷺ مدح هؤلاء بأنهم جمعوا ما به تحقق فيهم كمال التوحيد الواجب وذلك في قوله: «**لا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**» وكمال التوحيد بمستحب في قوله:«**لا يسترقون، ولا يكتوون**».

الاسترقاء جائز مَن فَعَلَهُ، ما وقع في محرم،لكن تركه أفضل وهو دليلٌ على كمال التوحيد المستحب.

والكيُّ إذا ظُنَّ فيه الشفاء أمرٌ جائز، لكن تركه أفضل؛ وهذا الترك من تحقيق كمال التوحيد المستحب فجمع هؤلاء بين الأمرين حققوا كمال التوحيد بالواجب والمسحتب.

هل الحديث دليل على ترك الأساب أو التداوي؟ لا بل اتخاذ الأسباب أمرٌ كان يفعله سيد المتوكلين ﷺ والأحاديث في هذا متواترة وكثيرة والحديث خاصٌ بالإسترقاء والكي فقط.

ما هو أحوال التداوي؟ **قد يكون التداوي واجبًا** وذلك أذا كان تركه يؤدي إلى الهلاك،
الحالة الثانية: أن يكون التداوي مستحبًأ: من كان يظن أن استعماله لهذا الدواء أو هذا العقار أو هذا الشرب سبب للشفاء فإنه في هذه الحالة يكون ماذا؟ يكون أمرًا مستحبًا،

«فقام عكاشة بم محصن،فقال يا رسول الله أدعُ الله أن يجعلني منهم، فقال النبي ﷺ : أنت منهم »
عكاشة بن محصن رضي الله عنه، وهو صحابيٌ جليل من أفاضل الصحابة لأنه كان بدريًا،

ولاحظ أن الحديث يدل على جواز طلب الدعاء من الحي: سؤال النبي ﷺ أن يدعو الله جل وعلا، وهذا جائزٌ لا شك فيه في حياته ﷺ أما بعد موته فإن هذا لا شك أنه من الشرك بالله جل وعلا.

« ثم قام رجل آخر فقال:ادع الله ايجعلني منهم فاق:سبقك بها عكاشة». هنا قام صحابيٌ أخر وقال طالبًا المسألة نفسها والدعاء نفسه، أن يدعوا الله له أيضًا أن يكون منهم فقال النبي ﷺ هنا حَسَمَ النبي ﷺ الباب، والظاهر والله تعالى أعلم أن جوابه ﷺ هاهنا ليس لأن السائل لا يستحق ذلك، وإنما خشي النبي ﷺ أن يتسلسل الأمر فيسأل السؤال من ليس أهل له، فحسم الأمر بهذا الجواب الطيف, فكان فيه تحقيقٌ للمصلحة والمحافظة على شعور هذا الصحابي، وهذا من عظيم أدب النبي ﷺ ولطفه،
وكيف لا يكون كذلك والله جل وعلا قد وصفه بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم:4]

وفي هذا كما قال المؤلف رحمه الله في المسائل فيه استعمال المعايير.

الدرس الساس –١١٢ ٤ _ باب الخوف من الشرك

ما وجه المناسبة في ترتيب المؤلف للباب الرابع ؟ عقد هذا الباب ليبين أن من تحقيق التوحيد الخوف من الشرك، وأيضًا حتى يكون الموحد جامعًا بين الخوف والرجاء،

ماذا تُثمِرفضل التوحيد، وفضل تحقيقه في النفس؟ الرجاء لله ﷻ، وكان لابد أن يضم الموحد إلى ذلك خوفه من الله، وباجتماع الخوف والرجاء يصح سير العبد إلى الله جلَّ وعلا،

قال رحمه الله: (باب الخَوْفِ مِنَ الشَّرْكِ).

الخوف أسرع المطايا إلى الله جلَّ وعلا وهو مع المحبة والرجاء

والخوف: هو خاصية أهل التَذكُر: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى:10]، الخوف: ثمرة من ثمرات الهدايا، و﴿فِيْ نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِيْنَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُوْنَ﴾ الأعراف ١٥٤، وأهل العلم هم أهل الخوف والخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28]، الخوف من الله ثمرته عظيمة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46]، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:14]،

فالخوف من الله من أعظم الأعمال الصالحة، ومِن أنواعه:

➢ **أولًا: الخوف من الله ﷻ:**

وذلك أن من صفات الله ما يقتضي خوف العبد منه، فإن الله تعالى ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران:4]، بأسه شديد، وعذابه أليم ،قال تعالى عن الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:50] ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر:16]،

➢ **ثانيا: الخوف من عذاب الله:**

عذاب الله عظيم، وهو يورث في النفس دون شك الخوف منه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:14]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:57]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46]

➢ **ثالثا: الخوف من عدم قبول الحسنة**

قال جلَّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:60]، فسرها النبي ﷺ بالرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخشى ألا يقبل منه.

➢ **رابعًا: الخوف من إثم السيئة.**

وهذا موضوع عظيم، قال ابن مسعود ﷺ فيما خرج البخاري: «**إن المؤمن يرى ذنوبه كجبل فوق رأسه، يخاف أن يسقط عليه**»، **قال:** «**وأما المنافق: فإنه يرى ذنوبه كذباب مر بأنفه، فقال به هكذا**» حرك يده جهة أنفه، لا يعتبر ذلك شيئًا، ولا يلتفت إليه.

➢ **خامسًا: هو الخوف من الوقوع في السيئة مستقبلاً،**

الإنسان لا يدري ما الذي سيكون عليه مآله؟ وما الذي سيختم عليه به؟ ولذلك كان من أعظم ما خافه الصالحون، الخاتمة وأعظم ما يكون من ذلك، الخوف من الوقوع في الكفر والشرك والنفاق عياذًا بالله علق البخاري في صحيحه عن ابن أبي مليكة التابعي الجليل رحمة الله عليه قال: «**أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى النفاق على نفسه**»،

أخطر الأشياء على الإطلاق الشرك بالله ﷻ،

➜ **أولا: كونه أعظم الذنوب**، فيدل على هذا ما خرَّج الشيخان عن ابن مسعود ﷺ «**سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال ﷺ: أن تجعل لله ندًا، وهو خلقك**

وهذا الذنب أعظم الذنوب وذلك لأمور.

أولًا: أن حقيقته انتقاص الله جلَّ وعلا، المشرك منتقص لله جلَّ وعلا بشركه، وذلك لأنه تجرأ، فصرف خالص في حق الله لغيره، وأحمد بإسناد صحيح، وفيه أن الله أمر يحيي بن زكريا بخمس كلمات يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن،جاء في الحديث، قال: «**أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهبٍ أو ورق، وقال: هذا عملي وهذه داري، فاعمل وأدِّ إلي؛ فكان يعمل ويؤدي إلى غيره، فأيكم يحب من عبده ذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم، فلا تشركوا به شيئًا**

وثانيًا: الشرك أعظم معاندةٍ لله سبحانه،، الله خلقه لعبادته وتوحيده، فأتى المشرك بضد ذلك، وهذا معاندةٌ لله جلَّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، فاستحق المشرك أن يكون بغيضًا إلى الله جلَّ وعلا.

ثالثاً: الشرك أظلم الظلم

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]، وحق للشرك أن يكون كذلك، كيف لا يكون كذلك والمشرك قد سوى غير الله بالله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:97-98]، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1]. يعدلون: يعني يسوون غير الله بالله،أي ظلم أعظم من هذا الظلم

رابعاً: ضلالٌ محض، وذلك أن الشرك ذنبٌ لا يدعو إليه داعٍ ولا تحث إليه شهوة، إنما هو ضلالٌ محض، وإنما هو فسادٌ في القلب خالص.

ثانيا: أما كون عقوبته أعظم العقوبات فإن ذلك يظهر من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا الذنب لا يغفره الله البتة،

من مات على الشرك، فإن الله جلّ وعلا قد حكم، وهو الذي لا يرد القول لديه، أنه لا يغفر هذا الشرك أبداً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:48]، لو تاب الإنسان من الشرك، فإن الله يغفر له ذلك قال الله ﷻ في مخاطبة النصارى المشركين، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:74]، وقال جلَّ وعلا في المشركين ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:38]

أما إذا مات الإنسان على الشرك، فإنه لا أمل له في المغفرة، ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ [العنكبوت:23].

الوجه الثاني: أن الشرك بالله جلَّ وعلا مُحبِطٌ لجميع الأعمال الصالحة،

من مات مشركًا بالله فلا ينفعه شيء قدمه في دنياه عند الله البتة،﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88]،﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:65]،﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:23].

الوجه الثالث: أن الشرك يُحَرِّم دخول الجنة ويُخَلِد في النار،

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:72]،

ما السبيل إلى النجاة من الشرك.؟

أولًا أن تعرف ما هو الشرك؟ فتعرف أفراده وتعرف أصوله، وتعرف دقائقه.وهذا لا يكون ذإلا بالعلم، ثم العمل، ثم الخوف، ثم اللجوء إلى الله جلَّ وعلا.

ما أساس قيام التوحيد؟ أن تعلم التوحيد فتلتزمه، وأن تعلم الشرك فتجتنبه، أما إذا قصرت في واحدٍ منهما، فإنه سيدخل عليك من الخلل بحسب ذلك.

قال رحمه الله: "باب الخوف من الشرك"،

ما هو تعريف الشرك ؟الشرك تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه هذا هو الشرك،

وينقسم بحسب موضوعه: إلى شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية، وشرك في الأسماء والصفات.

كما أنه ينقسم بحسب حكمه: إلى شركٍ أكبر، وإلى شركٍ أصغر

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:48].

هذه الآية آية عظيمة وردت في سورة النساء مرتين:

قال أهل العلم: هي أحكم أية في الشرك، وأخوف أية في الشرك وأرجى أية في التوحيد.

- **أما كونها أحكم أية في الشرك:** فإنها بينت حكمًا فصلًا في شأن الشرك وأهله، وهو أن الله لا يغفر هذا الذنب، وصاحبه محكومٌ عليه بأن الله جل وعلا لا يغفر له
- **وهي أخوف أية في الشرك:** لأن الشرك ذنب لا يغفره الله، وإذا لم يغفر الله هذا الشرك، كانت الخسارة التامة على العبد، .
- **هي أنها أرجى أية للتوحيد:** وذلك أن الله جل وعلا أعطى فيها الرجاء لأهل التوحيد، وإن كانوا عصاةً وذلك في قوله: **﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء:48]

هل الشرك الأصغر داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:48]، **أم لا ؟**

القول الأول: إن الشرك لا يُغفر مطلقا لا كبيرًا ولا صغيرا واستدلوا على هذا

بهذه الآية فإن الله تعالى قال فيها: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾** [النساء:48]، قالوا: إن والفعل المضارع مؤولان بمصدر، يعني إن الله لا يغفر إشراكًا به، وإشراكًا هنا نكرةٌ في سياق نفي فتعم كل شرك، واستدلوا على هذا أيضا بالحديث **(ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار)**.ولاحظ أنه قالها هنا شيئًا. وهذا نكرة في سياق الشرط فتعمُ كل شرك.

هذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله والشيخ سليمان في (التيسير)،و الشيخ عبد الرحمن في (الفتح)، وكذلك غيرهم من أهل العلم

أما القول الثاني: **فهو أن الشرك الأصغر حكمه حكم الكبائر**، وبالتالي لايدخل في هذه الآية، قالوا الشرك الأصغر أشبه بالكبائر منه بالشرك الأكبر في أحكام الدنيا والآخرة،

أما في الدنيا: فإنه لا يُخرج من الملة،

وأما في الآخرة: فإنه لا يخلد في النار، ولا يحبط جميع الأعمال، فإنه يكون حكمه,حكم الكبائر.واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:48]، قالوا إن هذه النصوص الواردة في تحذير من الشرك، إنما تتعلق بالشرك الأكبر، فهذه الآية من جنس قول الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة:72].

بقي أن يقال العاصي الذي وقع في ما دون الشرك تحت مشيئة الله جل وعلا، هذا إنما هو بالنظر إلى كل عاصٍ من حيث ذاته، أما بالنظر إلى مجموعة العصاة،أنه لابد من دخول طائفةٌ من العصاة النار،

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35].

ما دلالة دعاء الخليل إبراهيم؟ يدل على أن الخوف من الشرك من مقامات الموحدين و أنه كلما عظم التوحيد عظم الخوف من الشرك.

وقال التابعي الجليل إبراهيم التيمي، «**ومن يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم**»

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ حريصٌ على أبنائه أن يسلموا من هذا البلاء. وليس كحال كثيرٍ من الناس، حرصهم على أبنائهم في أمور الدنيا، وهذا حسن لابأس به،ولكن الأهم إنما هوأن يكونوا مستقيمين على طاعة الله

تأمل في قوله: ﴿واجنبني﴾.عندنا تجنيب، وعندنا اجتناب،

أما التجنيب: فهو فعل الله. **وأما الاجتناب**: فهو فعل العبد، ولا يكون الثاني إلا إذا كان الأول،

قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35]، ثم علل ذلك عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:36]، يذكر عليه السلام سبب الخوف من الشرك، وهو أنه شيء خطير لأنه منتشر، وكلما كان الداء منتشرًا كلما كان أخطر؟ لأن الإصابة به الاحتمال بها أكبر،

لماذا المقام في هذا الزمان عظيم،؟ لكثرة الشبه التي تزيِّن الشرك وتقرِّبه إلى النفوس وصدق النبي ﷺ حينما قال: «**لا تقوم الساعة حتى تشرك قبائل من أمتي، أو قال حتى تعبد قبائل من أمتي الأصنام**»،

صدق النبي ﷺ حينما قال كما في مسلم : «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا**»، أو «**يمسي مؤمنا ويصبح كافرا**» مقام خطير،

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد يحدث أشكال في فهمه من جهة أنه قد يُشعِر بأن الشرك قد يغفر ومن عصاني فإنك غفور رحيم، كأنه يدعو الله بأنه يغفرله هذا الشرك وقد علمنا أن الله، لا يغفر أن يشرك به.

واختلف العلماء رحمهم الله في توجيه هذه الآية:

- **منهم من قال**: إن مغفرة الشرك كانت واقعة في الأمم السابقة، ولكن هذا لا شك أنه غلط، فالشرك لا يغفر في القديم ولا في الحديث، وكيف يُقال إنه لا يغفر لهذه الأمة التي هي خير الأمم وأفضلها عند الله، ويغفر لمن هو دونها، فهذا لا يمكن أن يقال به.
- **وقال منهم**:إنه قال هذا الدعاء عليه السلام قبل أن يعلم أن الشرك لا يغفر،وهذا أيضًا فيه من البعد ما فيه.
- **التوجيه الثالث قالوا**: إن قوله ومن عصاني ما دون الشرك، فإنك غفور رحيم.
- **والتوجيه الرابع**: وهو ومن عصاني، فأشرك ثم تاب فإنك غفور رحيم.

وقريب منه التوجيه الخامس: ومن عصاني فأشرك، فأرحمه يا الله بأن توفقه للتوحيد، ثم اغفر له شركه، إنك غفور رحيم.

هل استجيب لإبراهيم عليه السلام؟ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام؟

أما في حقه: فنعم قطعاً. **وأما في بنيه**: الذي يظهر والله أعلم أنه إن كان المراد ببنيه يعني من صلبه، فنعم ما أشركوا بالله بل جعلهم الله أنبياء ومرسلين، أما إن كان المراد بنيه وبنيهم: يعني ذريتهم القريبين فما بعد فاستجيب له في بعض، ولم يُستجب له في بعض كما قال جل وعلا ومن ذريتهما هو وإسحاق: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات:113]، والله أعلم.

في الحديث «أخوف ما أخاف الله عليكم الشرك الأصغر، فَسُئِل عنه. فقال: الرياء»

هذا حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه وهو حديث حسن، وفيه أن الشرك الأصغر أخوف ما خافه النبي ﷺ على أصحابه، وإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على الصحابة الذين هم أعظم الناس إيمانًا وتوحيدًا، فإن من بعدهم يخاف عليهم من الشرك الأصغر والأكبر،

الرياء وصفه النبي ﷺ بالشرك الأصغر، ووصفه بالشرك الخفي، ووصفه أيضا بشرك السرائر، وهذا يدلك على خطورته حتى خاف النبي ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم.

ما وجه كون الرياء مخوفًا ؟ لقربه من انفوس وتزيينه ودقائقه الخفية،وحب النفس للمدح والرفعة

ما هو الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر؟

أولاً:الشرك الأكبر: محبط لجميع الأعمال.وأما الشرك الأصغر:كالرياء فمحبط لما قارنه فقط من الأعمال.

وثانيا: أن الشرك الأكبر: يخلد صاحبه في النار، نسأل الله السلامة والعافية. والشرك الأصغرليس كذلك.

والأمر الثالث: أن الشرك الأكبر مُخرِجٌ من الملة، وأما الشرك الأصغر فلا يخرج من الملة.

رابعا: مبني على الخلاف في هل يغفر الشرك الأصغر أم لا؟ فإذا قلنا إنه يغفر أي أنه حكمه كالكبائر فيكون فرقاً رابعا، وإن قلنا إنه لا يغفر، فلا يكون هناك فرق بينه وبين الأكبر في هذا المقام والله أعلم.

عن ابني مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار» رواه البخاري.

فيه بَيَّنَ النبي ﷺ أن من مات وهو يدعو من دون الله ندًا يعني مثيلًا وشريكًا يدعوه كما يدعوا الله، فإنه يدخل النار ودخوله كما دلت الأدلة عليه دخول مؤبد لا شك في ذلك ولا ريب، وتتمة هذا الحديث، هي أن قال ابن مسعود رضي الله عنه: **«وأنا أقول من مات وهو لا يدعو من دون الله ندا دخل الجنة»**. فابشر يا أيها الموحد، واحذر يا أيها الموحد، إن مت وأنت لا تدعوا من دون الله أحدا،.

ولمسلم عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار».

الشاهد من الحديث هو في قوله ﷺ: **«ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار»** وهذا يؤيد ويؤكد الحديث السابق، من أن الشرك مقتضٍ لأعظم عقوبة، وبالتالي كان حريًا أن يُخاف من أهل التوحيد.

أما شطره الأول: فإن المراد أن من مات لا يشرك بالله شيئًا مع إتيانه بماذا؟ بالتوحيد وقلنا إن من مات موحدًا لا يشرك بالله شيئًا فهو من أهل الجنة قطعًا لرحمة الله سبحانه، ولكن قد يكون دخوله لها دخولًا أوليًا، وقد يكون دخولًا مآليًا، بحسب مشيئة الله سبحانه وتعالى.

الدرس السابع -١٣٨ ٥- باب الدعاء إلَى شَهادَةِ أَن لاَ إله إلا الله (المجلس الأول)

ما موضع هذا الباب في ترتيب أبواب الكتاب ؟

بعد أن بين ما هو التوحيد، وما فضله، وما فضل تحقيقه، وأهمية الخوف من ضده، استعدت النفوس للقيام بالواجب عليها تجاه هذا التوحيد، وهو الدعوة إليه،

الدعوة إلى التوحيد تجمع بين كونها أثر من آثار تحقيق التوحيد، وبين كونها دعوة شكر الله جل وعلا على هذه النعمة العظيمة.

أما كون تحقيق التوحيد مؤثرًا في النشاط والهمة في الدعوة إليه، ووجهه أن تحقيق التوحيد يقتضي اعتقاد المسلم أن الله جل وعلا أهلٌ أن يُوحد فلا يُشرك به، وأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يكفر، ولأجل هذا فإنه يعظم حق الله في نفسه، ويقتضي لنفسه وماله وكل ما يملك في سبيل أن يُوحد الله جل وعلا في أرضه، وما أحسن ما قال زهير بن نعيم رحمه الله «**وددت أن لحمي قُرض بالمقاريض، وأن الناس أطاعوا الله**»، ليس عنده مانع أن تُقطع أجزاءه وأوصاله إذا كان في ذلك أن يطيع الناس ربهم جل وعلا ولا يعصوه.

ثم إن الدعوة إلى التوحيد أيضًا من شكر الله جل وعلا على هذه النعمة وأي نعمة أعظم من نعمة التوحيد، الله جل وعلا يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:11]،

قال مجاهد رحمه الله في هذه الآية: أي بالنبوة، قال يعني بلغ ما أُرسلت به يا نبينا، فإن هذا أداء نعمة الله جل وعلا عليك، والخطاب موجه للنبي ﷺ، والحكم له ولأمته ﷺ، يقول جل وعلا: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:8].وهذا التوحيد أعظم معين، إذًا من كان مُوحدًا حقًّا وصدقًا، فإنه يسعى أن ينتشر التوحيد ويندحر ضده ، ألا وهو الشرك به وكذلك معصيته سبحانه وتعالى.

ما حكم الدعوة إلى الله ؟ هو من أعظم الواجبات، وتكرر في كتاب الله الأمر بها: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص:87]، وأنه فرض كفاية، يجب أن يكون في الأمة من ينهض بهذا الواجب،

ما أعظم موضوع تتعلق به الدعوة ؟ الدعوة إلى التوحيد،لأنها أصل وأساس دعوات الأنبياء جميعا، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36]، ونبينا محمد ﷺ أعظم الأنبياء والمرسلين قياما بهذا الواجب،ولذا كانت سبيله الدعوة إلى الله على بصيرة، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108].

ومن كان صادقًا في اتباع النبي ﷺ، فعليه أن يكون ملحاحا والمنهج سبيله

ما سبب تأكيد الدعوة إلى التوحيد في زمان الغربة؟ لعظيم الخلل في توحيد كثير من المسلمين، و وقوعهم في قوادح و نواقض التوحيد.

هل الدعوة إلى التوحيد تقتصر عل أصحاب الخلل فيه ؟ لا بل حتى الموحدون ينبغي أن يدعوا إلى التوحيد،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء:136]، وذلك لأنه من أسباب الثبات على التوحيد، الدعوة إليه والتذكير به.وهذا مسلك النبي ﷺجاء في الحديث «**بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا**»، وفي حديث آخر رواه مسلم: «**كنا مع النبي ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال ﷺ: ألا تبايعون رسول الله؟ وكانوا حدثاء عهدٍ ببيعة، فقالوا: قد بايعناك يا رسول الله، فكرر النبي ﷺ، فكرروا جوابهم، حتى بسطوا أيديهم، وقالوا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلى أي شيء نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ...**» إلى آخر الحديث.وجاء في الحديث :‹‹**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**››، يصبح مسلم لكنه شاهد أو يطالع مقطعًا أو يقرأ تغريدة، فيقع في قلبه شبهة لا تزول حتى ترديه –والعياذ بالله

ما الذي يجعل الدعوة إلى التوحيد في زماننا أعظم وأوجب؟ انتشار الشرك،والخلل في العقيده،وضعف الدعوة إليه،وكثرة من يدعو إلى ضده .

❁ خمس وصايا لداعي التوحيد:

أن تكون عليمًا، وأن تكون رحيمًا، وأن تكون حكيمًا، وأن تكون كريمًا، وأن تكون سليمًا.

➢ **أولًا**: **أن تكون عليمًا** عليك أولًا أن تعرف التوحيد، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، والله جل وعلا يقول: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:87]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ [الرعد:36]، ثم قال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ [الرعد:36].

فإذا كانت العلوم كلها شيئًا ،فإن علم التوحيد هو الأهم، وهو الأولى وهو الأعظم،

➢ **ثانيًا**: **أن تكون رحيمًا**، الرحمة أساس الدعوة ومنطلقها، تريد أن الناس يأتون آداب الله، تريد أن الناس تفوز برحمة الله، لما أعرضت قبيلة دوس أول مرة، كان دعاء النبي ﷺ الرحيم: قال: «**اللهم اهد دوسًا وائت بهم**». وقال ﷺ لمعاذ و ابوموسى «**بشرا ولا تنفرا**،الدعوة حرص واهتمام ورغبة بأن يهدي الله جل وعلا هذا المدعو، حتى ولو كان مخالفًا،أو كافرًا بالله،

۞ الأهم ما قرره أهل العلم من أن نظر المسلم إلى المخالفين يكون بعينين:

الأولى ينظر بها النظر الشرعي، فيعامل المخالف بما يستحق من محبة أو بغض أو هجر أو زجر، وذلك أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

الأخرى: ينظر بها النظر القدري، وبالتالي فإنه يرحمهم إذا رآهم

➢ **ثالثًا**: **أن يكون حكيمًا** ،أن يكون بأسلوب سهل محبب وأن تُفهم اللغة، وتُراعي أحوال المدعوين، وأعط كل واحد من هؤلاء ما يستحق من الأسلوب والكلام المناسب، احرص على أن تعلم الناس التوحيد بكل طريق من خلال القصص النبوي وقصص الأنبياء، من خلال السيرة، و آثار السلف، بكل سبيل، وثق أنك إذا كان أمر التوحيد يشغل بالك أنك ستوفق: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69]،

➢ **الأمر الرابع**: **أن تكون كريمًا**، وذلك أن الدعوة إنما ينهض بها رجال، يتحملون المسئولية ويعلمون عظمها، لأجل هذا فإنهم يسترخصون كل شيء في سبيل القيام بها، يبذلون أموالهم، يبذلون جهدهم ووقتهم، يبذلون كل شيء في سبيل الدعوة إلى التوحيد.

➤ الخامس: **تكون سليمًا، سليم القلب**: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:84]، هذا إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين، الذي أمرت يا باقتفاء سبيله، وذلك بأن تخلص القصد والنية لله جل وعلا، سبحان الله! كيف يجتمع أن تكون داعية للتوحيد وأنت واقع في الشرك،

إن كنت داعية للتوحيد، ابدأ بتصفية النية، تحسين القصد واحذر من الحسد، المقصود أن يهتدي الناس. دعاة التوحيد يجب أن تتوحد كلمتهم على كلمة التوحيد، أما أن يتفرقوا فإنهم ينبغي أن يعلموا أن تفرقهم يعني قوة أعدائهم وأن تنازعهم يعني ضعف دعوتهم.

وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:46]، لما بعث النبي ﷺ دعاة التوحيد إلى اليمن معاذًا وأبا موسى قال لهم: "تطاوعا ولا تختلفا"، الاختلاف شكل والتنازع وفساد ذات البين.

۞ الخلافات التي تقع بين أهل السنة والجماعة أتباع السلف ينبغي أن ينظر فيها إلى أمرين:

⬅ **أولًا**: هل هذا الذي اختلفوا عليه، يستحق أن يختلف عليه أم لا؟ لأن كثير من الخلافات مرجعها لا إلى خلاف في الحقيقة بل هو إلى حدود النفس، أو إلى إيغار الشرور في بعض الجهات الخارجية، أو قد تكون المسألة اجتهادية، فينبغي أن يعنف فيها على المخالف،

لابد من وزن المسألة الخلافية

أولًا بميزان الكتاب والسنة ومنهج السلف وكلام أهل العلم المرسخين.

ثم إذا تفتق إلى أن الخلاف كان في شيء خطأٍ بحت، فإنه ينبغي أن يعلم وهو

⬅ **الأمر الثاني**: كيف التعامل مع المخالف، التعامل مع المخالف ليس شيئًا واحدًا يطرد مع كل مخالف، من كان كذلك فإنه سيقع في خطأ عظيم، هذا الموضوع ينبغي أن يوزن بميزان العلم وميزان الحكمة، فليس كل خلاف يستدعي الهجر والزجر والتحذير والتنفير، مثال ينبغي أن يُنظر إليها بنظر آخر، ينبغي أن يُنظر إلى حجم المسألة، ولا إلى حجم الأثر المترتب عليها، وأيضًا إلى الزمان والمكان، ربما المسألة يشدد فيها النكير على شخص في بلد، أعلام السنة فيه ظاهرة فلا يشدد على بلد السنة فيه غريب.

كذلك ينظر فيها إلى الشخص نفسه، فهو ممن له قدم صدق في السنة أو من المعروفين في اتباع سبيل أهل البدعة من طرائق المتكلمين أو الخرافين، هذا أيضًا ينبغي أن ينظر فيه،

شتان بين سني أخطأ وبين مبتدع أخطا، فلا ينبغي أن يعامل هذا وهذا على حد السواء، فالسني سني، وإن أخطأ في شيء يسير، والمبتدع مبتدع وإن أصاب في شيء يسير، كما أن العالم عالم وإن جهل شيئًا يسير، كما أن الجاهل جاهل وإن علم شيئا يسير، أي ينبغي أن يلتفت إليه، ولذلك قد يقع بعض الناس من أهل العلم والفضل في خطأ عقدي، قد يقع في تأويل للصفة، هذا والله ليس أمرًا سهلًا، كيف لأهل العلم يحتملون لهذا العالم السني ولا يحتملون لأحد من أهل البدع؟

لذلك ابن خزيمة إمام الأئمة رحمه الله وقع في خطأ، وهو أنه أول حديث السورة، يقول أبو موسى المديني رحمه الله يقول: أخطأ ابن خزيمة في حديث السورة ولا يؤخذ ذلك منه ولا يطعن عليه به، ذكره شيخ الإسلام في بيان التأسيس، وهذا منهج منضبط متوسط،

من كان عالمًا من علماء أهل السنة ومعلوم تحريه في اتباع السنة، وأخطأ هذا الخطأ.

أولًا ينبغي ألا يؤخذ عليه، بل يقال فلان أخطأ ولا يتاب عليه، لكن أيضًا لا يكون سببًا في إسقاطه، لأن المسألة بينة بل تتعلق بصفة لله، ففي هذا المسلك ينبغي أن يلاحظه دعاة التوحيد وأن يترفقوا وأن يزنوا الأمور بميزان العلم وميزان الحكمة، وإذا جمعوا إلى ذلك أيضًا بقيمة لقيل أنهم إلى الحق: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:67].

لابد أن يستيقن الداعي بأنه على الحق، وأذا كنت على نهج الكتاب والسنة، فاعلم أن الله حق، وأن نبيه ﷺ حق، وأن دين الله حق: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:32]، إذًا أنت على الحق، تستيقن بهذا لأنك كلما كنت أكثر يقينا، وأبعد عن الريب والتردد، كلما كنت أثبت في الدعوة، وكلما كانت نتائج دعوتك أعظم أثرًا.

ثم أن تكون صبورًا، متحللًا، أصبر في سبيل الدعوة إلى الله ﷻ ولا تيأس إذا رأيت نشاط أعداء الله، ليكن هذا سبيلا في أن تنشط لا أن تيأس، تصبر وتحتمي وتترقب نصر الله ﷻ وفتحه، وحينئذ تثمر الدعوة، وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24].

الدرس الثامن – ١٥٧ ‏ ٥ – باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله (المجلس الثاني)

الدعاء والدعوة مصدران للفعل دعا، يدعو، والأصل في معني الدعاء والدعوة هو الطلب، والمؤلف رحمه الله اعتنى كثيرًا بهذا الباب حتى أنه كان أكثر الأبواب مسائل .

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108].فيها قولان:

أهي جملة؟ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

أو أن الآية جملتان؟ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، ثم تستأنف: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؟

القولان متلازمان، وإن كان القول الأول لا شك أنه أولى لأنه يجمع الأمرين

السبيل: هي الطريق، وسبيل النبي هو دعوة إلى الله على بصيرة

وكلمة السبيل تؤنث كما في هذه الآية وتُذّر كما في قوله جلّا وعلا: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:146]، وما قال لا يتخذوها سبيلا،

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ **ما هي هذه السبيل؟** جاء بيانها ، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾

الدعوة إلى الله نهج النبي ﷺ ولا شك أن هذا أعظم ما يكون من الأعمال:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:33]،

هذا نهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله. كلهم صاح في قومه:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون:32]،

وأكملهم وأعظمهم بذلًا في ذلك هو النبي الكريم محمد ﷺ منذ مفتتح الرسالة وإلى خاتمتها

﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، ذكر المفسرون في البصيرة أقوال،

خلاصة: البصيرة تعني العلم و اليقين و الثبات و الحجة

حرف الاستعلا (على) ها هنا: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ وهذا فيه إشارة إلى التمكن في هذه البصيرة وأن دعوة النبي ﷺ وكذا دعوة أصحابه وأتباعه دعوة قائمة على ساق العلم والحجة وأهلها فيها على يقين وثبات ورسوخ.إلى هذه الأزمان**«لا تزال طائفة من أمتي على الحق»**، طائفة واحدة

الأمة فيها طوائف، لكن طائفة واحدة فازت بأنها كانت على ما كان عليه النبي ﷺ الحق المحض،

(أل) للاستغراق فالحق المحض الذي جاء به النبي ﷺ هو الذي عليه أتباع النبي ﷺ

الآية جمعت بين شرطين قبول العمل: الإخلاص والمتابعة.

الأمر الأول: **الإخلاص** ففي قوله تعالى: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى نفسي، وهذا من الأمور العظيمة الأساسية في الدعوة التي ينبغي أن يلحظها الداعية بعين الرعاية والاهتمام،

ما علامة الإخلاص في الداعية ؟ وما علامة الخلل فيه ؟ من علاماته عدم التأثر بعدد الحاضرين وعدم الغضب إذا لم يُقبل قوله، فإن تاثر فإن ذلك علامة خلل في الإخلاص.

والأمر الثاني: **المتابعة**، وذلك ما دل عليه قوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾

ليست المسألة مطلقة دون أي زمام يدعو الإنسان كما يحلو له، كلا، الدعوة الحقة ينبغي أن يترسم فيها أهلها نهج النبي ﷺ ولو فعلوا ذلك لعمَّ الخير في العالم،

ما السبب الأكبر في وقوع الخلل في مناهج الدعوة ؟ هو التقصير في متابعة النبي ﷺ، والتقصير في الأسس والأولويات، وأول الأوليات هو توحيد الله جلّ وعلا، وهذا ما أعظم تقصير كثير من الدعاة فيه.

ثم قال تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

كيف دل قول:﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عل التوحيد؟ وما القبح في الشرك ؟ فيه تنزيه الله عن الشرك، فالتوحيد تنزيه ومن قُبح الشرك أن فيه مسبةً لله تعالى: نبه إليها المؤلف في المسائل

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾:**لست من المشركين في شيء البتة**، لا في حال ولا في قول ولا في فعل ولا في مخالطة ولا في تشبه لست من المشركين في شيء, وهذا هو حقيقة التوحيد أن يكو الإنسان نائيًا بنفسه عن الشرك وعن أهل الشرك،

قال رحمه الله: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوْهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ».وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ، فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلَمهُم أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِيْ

كُلِّ يَومٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُم أطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلَمْهُم أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم صَدَقَةً تُؤْخَذْ مِن أَغْنِيَائِهِم فتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم، فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وكَرَائِمَ أَمْوالِهِم، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لِيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»، أخرجاه.

بعث معاذاً وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن،بعثهما النبي ﷺ معلمين وولاة وقضاة.

لما بعث النبي ﷺ معاذ وهذه الوصية خص بها معاذ **«إنك تأت قومًا من أهل الكتاب»،**

- وهذا يدل على أن العالم عليه أن يبصر طالب العلم وينصحه ويوصيه عند الحاجة، ويكشف له الأشياء التي يحتاج إلى معرفتها،
- وفي هذا أيضا أهمية الدعوة إلى الله جل وعلا، وأن من سنة النبي ﷺ أن يبعث الدعاة إلى الآفاق، لا ينبغي أن يحصر الحق في مكان معين،
- **ولاحظ أن النبي ﷺ بعث فقهاء، علماء، سادة، وهما معاذ وأبا موسي رضي الله عنهما**، وهذا يدل على أن التصدر لمثل هذا الأمر العظيم ينبغي أن يكون لأهل العلم لا للجهال،

«إنك تأت قوماً من أهل الكتاب»، وفي رواية: **«إنك تأت قوماً أهل كتاب»**

وهذا فيه بيان أهمية العلم بحال المدعوين، وإن العلم في الدعوة يراد به أمران،

يراد به العلم بالشريعة ويراد به أيضا العلم بالمدعوين ومعرفة أحوالهم، النبي ﷺ كأنه يقول له انتبه هؤلاء ليسوا كالمشركين الأميين هؤلاء أهل كتب عندهم حجج وعندهم أدلة يدلون بها عندهم شبهات إذن خذ للأمر أهبته وأستعد لذلك. وهذا الذي ينبغي على الدعاة إلى الله .

ثم قال ﷺ: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه»**

- هذا فيه أن الدعوة فيها أولويات، فيها أهم وفيها المهم وفيها ما هو دون ذلك،
- وهذا فيه الدعوة أيضا بالتدريج، وأنه لا ينبغي على الداعية أن يقذف بالعلم كله في جلّسة واحدة، أو أن يرمي بالحق كله على الناس في مقامٍ واحد ولذلك قال **«فإن هم أطاعوك لذلك»**

وفي رواية **«فإن هم أطاعوا لك بذلك»**

لاحظ أن **(لك)** هنا مع **(أطاع)** تتعدى بنفسها ولكنها عديت هنا بـ **(اللام)** لأنها تدل على معنى الانقياد، وأنه أصبح عندهم مطاوعة ولين، أصبحوا منقادين لك، إذا آمنوا وسلموا إذن أنتقل معهم بعد إلى الأمر الثاني ثم الثالث وهكذا.

«فليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله» ولك أن تقول «فليكن أولَ ما تدعوهم إليه شهادةَ أن لا إله إلا الله» هذا اللفظ لا أعلمه في الصحيحين إنما الذي جاء في الصحيحين ثلاثة ألفاظ

الأولى: «فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله»،

والرواية الثانية: «فليكن أول ما تدعوهم إلى عبادة الله ﷻ»،

والرواية الثالثة: قال ﷺ «فأدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية «فأدعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله». وأكثر الروايات في كتب السنة هي الثالثة،

وهذا فيه أن السلف إما الصحابي أو التابعي أو من بعدهم عرفوا معنى التوحيد فعبروا عنه بمعنى.

ما أول ما أمر النبي ﷺ معاذ به؟ قال له: فليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله وفي رواية إلى أن يوحدوا الله.

ما دلالة الحديث على أن أول الواجبات هو التوحيد؟ لأن النبي ﷺ بدأ به قبل سائر الفروض وهو الذي عليه عمل الصحابة والسلف

«فإن هم أطاعوا أطاعوك لذلك أو قالوا أطاع لك بذلك فأعلمهم أن الله أفترض عليهم خمس صلوات»، وهذا يدلك على أن الواجب على المسلم هي الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وأن الوتر ليس بواجب على الصحيح لأن بعث معاذ ﷺ كان متأخرًا،

«فإن هم أطاعوك لذلك أو قال: فإن هم أطاعوك لك بذلك فأعلهم أن الله أفترض عليهم صدقة»

صدقة هنا: هي الزكاة

والصدقة تطلق في الشرع وفي لسان الفقهاء

على الواجبة يعني الزكاة

وعلى صدقة التطوع،

والوارد هنا هو الواجب يعني الزكاة على نحو قول الله جل وعلا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة:103]، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة:60]، هذه كلها الزكاة.

قال: «**تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»

وهذا يدل على أن الكافر لا يعطى من الزكاة، زكاة المال الواجبة لا يعطاها الكافر لهذا الحديث.

«**فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم**» يعني الأموال النفيسة عند أصحابها لا ينبغي عليك أن تأخذها في الزكاة، إلا إذا سمح صاحبها بها، إنما المطلوب أن يأخذ من أوسطها

قال: «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»، مقبولة لا ترد من الله ﷻ،

ما هوالسبب في اقتصار النبي ﷺ على الصلاة والزكاة دون الصوم والحج؟الأقرب والله أعلم جوابان

- إما أن يقال إن النبي ﷺ أقتصر على أعظم الواجبات وهو التوحيد ثم الصلاة ثم الزكاة، فهذه الثلاثة هي أعظم الواجبات
- **وقيل** إن بعثة معاذ ؓ كانت في شهر ربيع الأول وبينه وبين رمضان نحو خمسة أشهر، فلعله أراد النبي ﷺ أن يؤخره إلى الوقت الذي تكون نفوسهم قد أقبلت على الإسلام وحسن إسلامهم من باب التدرج في الدعوى والله تعالى أعلم.

وَلهما: عن سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلّا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها: فقال: أين على بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلّا واحدا خير لك من حمر النعم» قوله يدوكون أي: يخوضون

وهو أصح حديث أو من أصح الأحاديث في فضل علي ؓ وأرضاه،

«**لأعطين الراية غدا رجلّا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**».

الراية: هي العَلَم وذلك إذا كان منشورًا، العلم المنشور المفرود هذا يسمي (راية)، وكان من عادة العرب أن الراية تكون في الموضع الذي فيه القائد لأجلّ أن ينحاز الناس إليه، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يحمله غيره،

ويفرقون بين الراية واللواء،

اللواء هو: العلم الملوي، علم ولكنه ملوي مطوي،

أما الراية فمنشور، وكانت راية النبي ﷺ سوداء، وكان لواءه أبيض.

فيه إثبات المحبة من الطرفين: الله ﷻ يحب عباده وعباده يحبونه ولذلك كان أسمه الودود،

والودود على الصحيح: فعول بمعني فاعل، وفعول بمعني مفعول، وهو ودود بمعني واد، وودود بمعني مودود، وكلاهما حق. ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:54]،

وهذا على خلاف طريقة أهل البدع، منهم من أنكر المحبة من طرفيها، فالله عندهم ويا الله العجب من هذا القول الغريب العجيب الله عندهم لا يُحب، إنما تُحب الجنة، يُحب ما فيها من الحور العين وأنواع الملاذ، أما الله فلا يُحب، إذاً ما قيمة هذه العبادة محبة الله جلّ وعلا لب العبادة ورأسها والمحرك إليها، فأي عبادة هذه إذاً لم يكن هناك محبة لله جلّ وعلا.

«لأعطين الراية غدا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه» وهذا فيه علم من أعلام النبوة، وهذا الحديث فيه موطنان تدلان على ذلك:

أولًا: إخباره ﷺ أن الفتح سيكون غدًا وكان ما قال ﷺ.

ثانيًا: ما كان منه لعلي ﷺحينما دعا له وبصق في عينه فبرأته عينه، وذلك علم من أعلام النبوة

(فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها)

يدوكون: **وأصل الدوكة** في اللغة الاختلاف والخصوم، وهذا كناية عن أن الأمر كان شغلا شاغلًا كانوا يتحدثون ويخوضون فيه كثيراً في تلك الليلة،

«فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها»، حتى جاء عند البخاري أن عمر ﷺ قال: فتسورت للنبي ﷺ رفع نفسه من أجلّ ماذا؟ أن يراه النبي ﷺ، كذلك جاء عن بريده ﷺ قال: فتطاولت للنبي ﷺ حتى يراني لعلِ أكون أنا المقصود.

لماذا لم يُفتح على أبي بكر وعمر وأعطيت الراية لعلي؟ لأن الفتح كا مقدّرا له، فيه دلالة على الإيمان بالقدر

فقال النبي ﷺ: أين علي بن أبي طالب؟ فأخبروه أنه يشتكي عينيه، كان به الرمد،

الرمد: مرض معروف يصيب العين،

كان مصاب بشدة، وكان يتألم حتى أنه ما أستطاع أن يمشي وحده،

وفي هذا وقفة وهي أن الأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فكيف يملكون لغيرهم؟ هؤلاء الذين يدعون عليًا ﷺ ويدعون الحسن والحسين وفاطمة، ويدعون البدوي والعيدروس وغيرهم، ليتأملوا مثل هذا الحديث، علي ﷺ لو كان له من الأمر شيء لدفع عن نفسه،

الشاهد أن النبي ﷺ أرسل إليه فجاء يُقاد حتى وقف بين يدي النبي ﷺ فما كان منه ﷺ إلا أن فعل أمرين: دعا الله له، وبصق في عينيه وهذا فيه أمران:

⬅ **أولًا: أن النبي ﷺ كان مجاب الدعوة.**

⬅ **ثانيًا: أن النبي ﷺ كان مباركًا بركة ذاتية يتعدى أثره إلى الغير.**

ولكن النبي ﷺ إنما هو سبب البركة، لا أنه مانح البركة، فالبركة من الله،

يدل على هذا ما جاء في البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا في سفر فقل الماء، فاشتكوا إلى النبي ﷺ فقال: اطلبوا لي شيئا من إناء، فأتوا بإناء فيه شيء من ماء، فوضع يده فيه وقرأ ﷺ، يقول ابن مسعود: فلقد رأيت الماء يفور من بين أصابع النبي ﷺ، آية من آيات الله، ثم قال النبي ﷺ: **«هلموا إلى الطهور المبارك والبركة من الله»**،

❁ **هذه قاعدة مهمة لا يغفل عنها المسلم: «هلموا إلى الطهور المبارك والبركة من الله»** ليست مني،

هذا فيه تعويد الصحابة على تحقيق التوحيد، التعلق بالله لا بغيره.

«انفذ على رسلك» يعني على هُونك على تؤدى لا حاجة إلى الاستعجال،

«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم» حتى تنزل بساحتهم يعني حتى تصل إلى ما دون حصونهم،

والحصن: الذي بدأ به وفتح له ﷺ ثم توالي فتح بقية الحصون، لأن خيبر كان فيها حصون

«حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه»،

ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم أيضا بحق الله فيه وهو التوحيد، ومفتاح ذلك شهادة أن لا إله إلا الله، فطابق الحديث الترجمة، الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله،

«فوالله لأن يهدي الله بك رجلّا واحدا» ففيه فضل الدعوة إلى التوحيد،

الشاهد أن النبي ذكر بعض الفوائد مأخوذة من هذين حديثين:

- **من ذلك قبول خبر الواحد،**

وهذه فائدة نأخذها من هذا الحديث ومن الحديث الذي قبله أيضا، وأن خبر الواحد إذا صح فإنه يفيد العلم والعمل، لأن الحجة قد قامت على أهل اليمن وعلى أهل خيبر، بماذا؟ بخبر واحد،

يترتب عليه استباحة الدماء والأموال بل يترتب عليه السعادة أو الشقاء، لو رد أهل اليمن خبر معاذا ﵁ في مخلافه، أو خبر أبا موسى في مخلافه ثم ماتوا، ما مصيرهم؟ لا شك إنهم إلى النار خالدين مخلدين فيها

- **ثم فيه أيضا دليل على مذهب أهل السنة والجماعة من أن أول الواجبات هو توحيد الله**

وهو شهادة أن لا إله إلا الله، بخلاف مذاهب المتكلمين المبتدعة الذين قالوا إن أول واجب هو الشك، أو القصد إلى النظر

«ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلّا واحدا

واللام على كل حال موطئه للقسم «خير لك من حمر النعم»

هذا فيه أن الإسلام هداية الناس إليه أحب من قتالهم، بخلاف ما يروج الأعداء عنه، القتال في الإسلام ليس مقصودًا لذلك،

القتال في الإسلام مقصودًا لغيره، لما؟ لكي يهتدي الناس، لكي يكون الدين كله لله:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:193].

«ادعهم إلى الإسلام، فلأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»، يعني أحرص على هذا الفضل، وهذا لا يكون إلا بعناية وحرص واهتمام، فإن استجاب الناس إلى التوحيد فالحمد لله، ما الحاجة إلى قتلهم؟ ما جاء الإسلام بهذا، بل حتى لو لم يستجيبوا لكنهم قبلوا أن يكونوا تحت مظلة الإسلام ويدفعوا الجزية، فالإسلام يعصم دمائهم،

قال: **«فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدا خير لك من حمر النعم»**

فضيلة الدعوة إلى التوحيد وأن فوز الإنسان بهداية إنسان واحد خير له من أن يكون له هذا المال العظيم الذي هو ثمين ومحبوب إلى الناس.

حمر النعم يعني الإبل الحمراء، وهذه كانت أنفس أموال العرب وأحبها إليهم،

والنعم والأنعام بمعني واحد على الصحيح، قال بعضهم: النعم خاصة بالإبل

لكن الصحيح أن النعم تشمل الأصناف الثلاثة كما قال جل وعلا: ﴿**فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ**﴾ [المائدة:95]،

يدل هذا على أن من هدى الله -عَزَّ وَجَلَّ- على يديه أحدًا، والهداية هنا هي هداية التوفيق، أن يهدي الله الأمر إلى الله بك، أنت السبب رجل واحد خير لك من حمر النعم.

الدرس التاسع - ١٨١ ٦- بَابُ تفسيرُ التَّوحِيدِ وَشَهادَة أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ الله (المجلس الأول)

علق المؤلف هذا باب كأنّي به يريد أن يقول لابد أن تكون دعوة أهل التوحيد دعوةً فيها تفصيل، وفيها بيان، لتقوم الحجة على العباد، ودعوة المجملة في هذا المقام قليلة الفائدة.

"تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله" هذا العطف من باب عطف الدال على المدلول"،

فإن "لا إله إلا الله" لها مدلول هو التوحيد، والتوحيد له ما يدل عليه، وهو "لا إله إلا الله"، فإذا أردت أن تعرف التوحيد، فعليك أن تعرف ما يدل عليه، وهو "لا إله إلا الله".

تعريف التوحيد: إفراد الله جلَّ وعَلَا بما يختص به، يختص بالربوبية، ولألوهية، وأسمائه، وصفاته وضده الشِّرك. قد يكون في الربوبية، وقد يكون في الألوهية (يعني العبادة)، وقد يكون في الأسماء والصفات.

لا إله إلا الله" دَلَّ على أنواع التوحيد الثلاثة

- أما دلالتها على توحيد العبادة (يعني توحيد الألوهية): هي بدلالة المطابقة،

دلالة المُطابقة: هي دلالة اللفظ على كامل المعنى،

تعريف توحيد الألوهية: إفراد الله بالعبادة، والبراءة من عبادة كل ما سواه، فمجموع الأمرين نفهمه من "لا إله إلا الله" بدلالة المطابقة،

- وتدل "لا إله إلا الله" على توحيدي؛ الربوبية، والأسماء والصفات **بدلالة اللزوم**،

فإن المعبود الحق لابد أن يكون ربًا، والمعبود الحق لابد أن يكون كاملًا بأسمائه، وصفاته،

شهادة أن لا إله إلا الله:

الشهادة في اللغة: **إخبارٌ عن علمٍ**، ويقين،هذه أمورٌ ثلاثة لا تكون الشهادةُ شهادةً إلا بها

➢ أولًا: **من إخبار، لابد أن يُخبر الإنسان بلسانه عما يُكنه قلبه**، إذن، لا ينفع الإنسان أن يعتقد معنى "لا إله إلا الله" دون أن ينطق بلسانه مع قدرته على النطق.

➢ **ثانيًا: لابد أن يكون إخباره عن علمٍ بما يشهد به.**

وهذا الذي يعقل من كلمة الشهادة، أرأيت شاهدًا يشهد عن القاضي على شيءٍ يجهله؟ أتكون شهادته صحيحة؟

➢ **ثالثا: لابد أيضًا من يقين، لابد من قطع، لابد من ثبات،**

أما إذا قال "لا إله إلا الله" عالمِا بالمعنى؛ لكنه مُرتاب، أو شاك، أو متردد، فإنه ما أتى بالشهادة، فلابد إذن حينما

"شهادة أن لا إله إلا الله" هذه الكلمة العظيمة، وهي أحسن القول، وهي الحُسنى، وهي القول الثابت، هي التي خَلق الله الخَلْق من أجلها، وخَلق الجنة والنار لأجلها، وهي العاصمة للنفس، والمال،

"لا إله إلا الله" بها تؤخذ الصُحف بالأيْمَان، أو الشمائل، وبها تثقل الموازين، أوتخف، وهي التي أُسس من أجلها الملة، والتي من أجلها انقسم الناس إلى شقيٍ، أو سعيد، وإلى مُقربٍ، أو طريد،

"لا إله إلا الله" هي الدين؛ أوله، وآخره، وظاهره، وباطنه، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى الله إلا إذا تعلق بهذا السبب، "لا إله إلا الله" هي السبب، " هي مفتاح السعادة،وهي مفتاح دار السلام، وأسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ من جاء بها صدقًا من قلبه.

❁ **يجب على المسلم أن يعرف هذه الكلمة، وهذه المعرفة تتعلق بأربعةِ مباحث:**

أولا:معناها،

ثانيا: وأركانها،

ثالثا:وشروطها،

رابعا: ونواقضها.

أولا: معنى لا إله إلا الله

فهذه الكلمة كما ترى مُشتملةٌ على أربعة أشياء؛ لا، إله، إلا، الله.

لا إله إلا الله معناه شرعا: أنه "لا معبود حقٌ إلا الله"، بمعنى نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده.

من جهة اللغة والإعراب: (**لا**) هي نافية للجنس العاملة عمل(إنّ)تفيد التبرئة والنفي العام

(**إله**): **سمها منصوب ويعني معبودا،**

("**إلا**"): **أداة استثناء**

(**الله**): **الله بدل من الضمير المستكن في الخبر المحذوف.**

التقدير الصحيح للخبر هو (حقٌ أو بحقٍ)،

لا (موجود) ولا (لنا)، ما في ذلك من لوازم باطلة

كل معبودٍ يصح تسميته لغةً إلهًا ولكن قد يكون إلهًا بحق، وهذا لا يكون إلا في حق الله،

وقد يكون إلهًا بباطل: وهذا كل ما عُبِدَ سوى الله ، كالشجر والحجر وغيره.

و(لا إله إلا الله) جيء هنا بـ"لا"، و"إلا"، وهذا الأسلوب الذي فيه النفي، والإثبات

أبلغ أساليب الحصر، وذلك لإثبات العبادة لله وحده لا شريك له، ونفي العبادة عما سواه،

هنا نحتاج إلى أن نعرف الخبر لأننا قلنا إن "لا" متعمل عمل "إنَّ"، فلها اسمٌ، ولها خبر.

فما هو خبر "لا"؟ قال بعضهم: أنه اسم الجلالة "الله"، ولكن هذا غير صحيح، لأن "لا" إنما تعمل في نكرة، واسم الجلالة "الله" أعرف المعارف.

- واجتهد الناس في معرفة الخبر هاهنا، فمنهم من قدره بموجود، فقال: **"لا إله موجودٌ إلا الله"**، ولا شك أن هذا التقدير غير صحيح، **لأنه يترتب عليه أحد لازمين؛**

الأول: نفي حقيقةٍ لا تُجحد

وهي ألا يكون قد عُبد إلا الله، وهذا غير صحيح، ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:5]، فلا يصح أنه لم يُعبد إلا الله، بل عُبد غير الله، وإن كانت عبادة غير الله باطلة؛ لكنها موجودة، والآلهة موجودة.

الثاني: الوقوع في مذهب أهل الحلول الوحدة الوجود الذين يزعمون أن كل ما عُبد، فهو الله.

إنما هو صورة وتجسيد لحقيقة واحدة، فكل معبود هو في الحقيقة الله،

- بعضٌ قدره بـ**"لنا"**، "لا معبود لنا إلا الله"، وهذا أيضًا ليس بجيد لأنه قد يُفهم، قد يفهم أحدٌ أن الإله لنا هو الله، ويجوز أن يكون لغيرنا إلهٌ آخر.

إذن، الحق الذي لا شك فيه هو أن الخبر لـ (**لا**) هو (**حقٌ**) أو (**بحقٍ**)، لا معبود، أو "**لا إله حقٌ**"، ولك أن تُقدر بشبه جملة "لا معبود بحقٍ إلا الله"، وهذا ما دل عليه قول الله جلَّ وعَلَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:62]،

ثانيا: أركان "لا إله إلا الله"

لغة: هي من ماهية الشيء؛ كالأركان الطهارة

شرعا: النفي، والإثبات، نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، ولا توحيد إلا باجتماع الأمرين،لابد من نفي (التخلية)والإثبات (التحلية)

- **أما تجريدٌ فقط**، يدل عليه **"لا إله"**، فإن هذا ليس بشيء فضلًا عن أن يكون توحيدًا، لأنه عدم، والعدم ليس بشيء، فلو كرر الإنسان "لا إله" ألف مرة، هل يكون أتى بالتوحيد؟ لا
- **والتفريد وحده ليس توحيدًا**، لو قال الإنسان: "الله إله"، هل دخل في الإسلام؟ الجواب: لا، لأن الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، يمكن أن يُقال: "الله إله"، ويمكن أن يكون معه غيره.

يقول قائل: من أين لك أن هذا هو معنى "لا إله إلا الله"؟ "لا معبود حقٌ إلا الله" نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده؟ أين لك هذا المعنى؟

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:62]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف:26]،﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ **هذا "لا إله"**، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ **هذا "إلا الله"**،

في سنة النبي ﷺ «**بُني الإسلام على خمس**» ما هي؟ «**شهادة أن لا إله إلا الله**» إلى آخر الحديث، جاء في رواية عند مسلم: «**على أن يُعبد الله، ويُكفر بما دونه**».

هناك خطأً كبيرًا في فهم "لا إله إلا الله" راجعًا إلى الخطأ في فهم أمرين:

الأول: **الخطأ في تفسير كلمة "إله"**، كثيرٌ من الناس إذا قيل لهم: ما معنى "إله"؟ **قال**: **خالق**، وهذا في الحقيقة راجعٌ إلى معنى "رب"وإلى معاني الربوبية وليس إلى معنى "إله.

وبين الكلمتين بونٌ شاسع، **"رب"** على زِنةِ اسم الفاعل أصلها "رابٌ" وحُذفت الألف تخفيفًا، فصارت "رب"، وأما **"إله"** فعلى زِنَةِ اسم المفعول، فكيف نجعل اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، أو يكون اسم المفعول بمعنى اسم الفاعل؟!.

نتيجة هذا الخطأ: أدى إلى خطأٍ عظيم مع الأسف الشديد، ذلك أن هؤلاء ظنوا أن من اعتقد هذه العقيدة، فإنه لا يضره ما فعل إذا كان يعتقد أنه لا خالق إلا الله،ولو دعا غيرالله،ولو ذبح لغيرالله وغيره،لانه يكون في اعتقاده أتي بلا إله إلا الله.

ولو أن النبي ﷺ جاء إلى المشركين، وقال لهم: قولوا لا إله إلا الله، وإن لا إله إلا الله تعني أنه لا خالق إلا الله أكانوا يستكبرون؟ أكانوا يعادون؟ أكانوا يقاتلون؟ الجواب: لا، لأن هذه العقيدة كانوا يعتقدونها قبل بعثة النبي ﷺ، شاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:87]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:25]، ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:83-84].

ثانيًا: **في تقدير الخبر**، من زعم أن تقدير الخبر هو (موجود)، وليس (بحق)،وبالتالي، فإنهم، ما فهموا "لا إله إلا الله" فهمًا صحيحًا، فوقعوا في الخلل الذي يؤدي إليه من الازمين السابقين.

ما هو الفرق بين الركن والشرط؟ الركن من ماهية الشيء، والشرط لابد منه في الشيء؛ لكنه خارجٌ عن ماهيته، فالطهارة شرطٌ في الصلاة، ولكن حقي

ثالثا: **شروط "لا إله إلا"**: ويسميها أهل العلم قيودًا، أوشروطًا،أو حقوقًا ولها سبعة شروط:

ونظمها آخر: **علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُك محبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لها**

أولًا: **العلم**، لابد بأن يعلم بمعناها هذا أمرٌ واجب حتمي، قال جلَّ وعَلَا: ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ [هود:14]، يعني اعلموا أن لا إله إلا هو،: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [محمد:19]،
هذا قدرٌ واجب، ولا ينتفع بـ"لا إله إلا الله" إلا من علم هذا المعنى.

ولذا النبي ﷺ رتب في الحديث الصحيح دخول الجنة «**لمن قال لا إله إلا الله، وهو يعلم ذلك**»، من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة،

لابد من العلم، وإلا أصبح الإنسان متكلمًا بكلامٍ هو فيه كالهاذي، كالنائم الذي يتكلم في نومه، لأنه يتكلم بشيءٍ غير مفهوم كالهاذي الذي يقرأ كلامًا أعجميًا لا يُدرك له معنى،

ثانيًا: **اليقين**، لابد أن يكون مستيقنًا بالمعنى غير شاكٍ، ولا مُرتاب، وفي هذا يقول الله جلَّ وعَلَا: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [الحجرات:15]، قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «**فمن لقيت خلف هذا، أو وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله مُستيقنًا بها قلبه، فبشره بالجنة**».

نقضه:اليقين يقابل الشك، كحال طائفة من المنافقين:﴿**وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُون**﴾

ثالثًا: **الإخلاص**، ليس المقصود هنا أن يُخلص العبادة لله، فهذا ما دلت عليه "لا إله إلا الله" بدلالة التضمن؛ إنما المقصود أن يكون مُخلصًا في نُطقه لـ"لا إله إلا الله"، حينما يقول: "لا إله إلا الله"، يريد بها وجه الله، أما لو كان ينطق بها، وهو يريد شيئًا من الدنيا، فإنه لا ينتفع

نقضه: الإخلاص يقابله الشرك، فينتقض في حق من كان مشركا في قول "لا إله إلا الله"،

الرابع: **الصدق**، والصدق مواطأة اللسان للقلب، لابد أن يواطئ لسانه قلبه، ينطق بشيء مستقرٍ في قلبه، فلو أنه قال: "لا إله إلا الله" بلسانه، وقلبه مُكذبٌ بذلك" كحال المنافقين، ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾[المنافقون:1 مع كونهم كانوا يقولون "لا إله إلا الله"، وكانوا يقولون "محمدٌ رسول الله" ﷺ.

نقضه: الصدق، فإنه يقابل الكذب، وهذا ينتقض في حق المنافقين،لأنهم كانوا يقولون شيئا بلسانهم لا يواطئ قلوبهم.

إذن الإخلاص يُنافي حال المشركين والصدق واليقين يُنافي حال المنافقين.

الخامس، المحبة: لابد أن يحب "لا إله إلا الله"، وما دلت عليه "لا إله إلا الله"، ورأس ذلك، وأساسه محبة الله ﷻ، وهذا حال أهل الإيمان ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:165].

المحبة لها أصل،وفرع ،**الأصل**: هو محبة الله، **والفرع**: وهو محبة المؤمنين، وموالاتهم، ويلزم من هذه المحبة أيضًا بُغض المشركين، معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:4].

السادس: القبول : القبول يعني أن يتلقى الأخبار بالتصديق، ويتلقى الأحكام بالالتزام،

- **والإسلام إنما يحتوي على أخبار**، فمهما جاءه من أخبارٍ في كتاب الله، وسُنة رسول الله ﷺ تلقاها بالتصديق
- **وإما يحتوي على أحكام**، بمعنى يجب أن يعتقد أنه مُلزم، ومُخاطب، ومُطالب، وعليه أن يُذعن لأحكام الله جلَّ وعَلَا، بمعنى لو اعتقد أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ،وحُكمه، فإنه انتقض في حقه قول "لا إله إلا الله"، يجب أن يلتزم به بغض النظر عن الفعل،

الفعل شيء، والالتزام شيءٌ آخر.

الفعل محكوم بالاستطاعة، وقد يقصر الإنسان، فيكون عاصيًا،

أما الالتزام، فإنه لا يُسامح فيه الإنسان،(ناقض للشهادة) يجب أن يعتقد أنه مُخاطب، ومُلزم،

فلو قال مثلًا: الحج، حُكمٌ أوجبه الله، يقول: "أنا سأحج"، ويحج فعلًا، ويقول مع ذلك: "الحج ليس واجبًا علي، لست مُلزمًا الحج عليكم أنتم، أنا لا يلزمني أن أحج"، نقول: هذا انتقض في حقه شرط "لا إله إلا الله"، في حكم الله لو أنه اعتقد أنه ليس مُلزمًا بحكم الله، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:57]، وأنه يسعه أن يتحاكم إلى غير حكم الله، هذا نقضٌ منه لشرط القبول.

الفرق بين مسألتين:

بين قبول، والتزام،

وبين فعل، وعمل، (له أحكام؛ لكننا نتكلم في قضيةٍ عقدية وهي القبول والالتزام والإذعان والخضوع لحكم الله) إذن معنى القبول هنا يتلقى الأخبار بالتصديق، ويتلقى الأحكام بالالتزام.

السابع، الانقياد: هو أن يقوم بالفعل بما التزم به، وصدق به، وهذا هو المراد بقول الله -جلَّ وعَلَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:125]،

وهذا ينتقض في حق اثنين؛

الأول: من وقع في الشرك

إذا قال "لا إله إلا الله"، نقول: أنت قلت "لا إله إلا الله"؛ لكن انتقض عندك شرط، فـ"لا إله إلا الله" تعني أن تجعل العبادة لله -جلَّ وعَلَا- وحده، فلما جعلت مع الله غيره في العبادة، ما حصل منك انقياد، انتقضت في حقك، في حقك "لا إله إلا الله"،

ثانيًا: في حق من تولى عن طاعة الله، ورسوله ﷺ، ينتقض هذا الشرط.

الأول: عَبَد الله، وعَبَد غيره،

والثاني: ما عَبَد الله، وهذا حال المنافقين الذين قال الله في حقهم: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ قال الله: ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:47].

ما الفرق بين القبول، والانقياد؟

الجواب: القبول أصلٌ ثمرته الانقياد،

القبول: تصديق الأخبار والتزام الأحكام وهو أصل

الإنقياد: العمل الظاهر والقيام بالفعل وهو ثمرة القبول

الدرس العاشر – ٢٠٤ ٦– باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله (المجلس الثاني)

وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: 57].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: يستبين تفسيرها بذكر ما قبلها: بينه حفيد المؤلف، والحق أن وجه الدلالة يتبين من هذه الآية ومما قبلها أيضًا، **ومن وجهين:**

الوجه الأول: في الآية التي أوردها وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: 57] هذه الآية في قومٍ من الإنس كانوا يعبدون قومًا من الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس على عبادتهم،

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني الذين يدعونهم هؤلاء المشركون هم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله هم أنفسهم يدعون ويعبدون ، فكيف تعبدون من يعبد الله جل وعلا، فهذا قبيحٌ في العقل، لو كان هؤلاء معبدون حقا ما عبدوا غيرهم، فلما عبدوا غيرهم دل هذا على أنهم لا يستحقون العبادة.

أولا: ودل هذا على بيان التوحيد ببيان ضده، وهو حال المشركين، فإن حال المشركين أنهم يعبدون مع الله غيره، إذًا التوحيد هو أن يُعبد الله وحده.

ثانيا: هو في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الله جل وعلا وصف هؤلاء المؤمنين الذين عُبدوا مع الله تعالى هم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾،ما قال: (**يبتغون الوسيلة إلى ربهم**)، كما هو الأصل، لكنه قدم الجار والمجرور ليدل على أن العبادة وابتغاء الوسيلة لا يكون إلا لله وحده لا شريك له، فهذا يدل على حقيقة التوحيد، وأن التوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له.

الوجه الثاني: وهو الذي في الآية التي قبلها، فذلك لبيان التوحيد أيضًا من خلال معرفة ضده، قال جل وعلا: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 56]، وهذه الآية في كل معبودٍ سوى الله جل وعلا،كل معبود،كل أحد دون الله جل وعلا ،لا يملك كشف الضر بمعنى أنه لا يملك إزالته ومحوه، ولا يملك على الأقل أن يحوله من محلٍ إلى آخر، ومن شخصٍ إلى آخر.

وصدق الله إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 197]، لا يستطيعون أن ينصروكم بل هم أنفسهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، وهذا ينطبق على كل أحد حتى الأنبياء، والأولياء، و الملائكة، والجن، إذًا يتبين التوحيد من معرفة ضده، وهو عبادة غير الله:

التوحيد والشرك؛ ضدان لا يجتمعان، فمتى ما وجد التوحيد فإنه لا يكون الشرك.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: 57]، الوسيلة ذُكرت في القرآن في هذا الموضع في آية الإسراء، وفي آية المائدة أيضًا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35]،

والوسيلة في اللغة: بمعنى القربى.

يعني التقارب أو القربى، أو ما يكون به التقرب، هي التي يتوصل بها ويتقرب بها إلى الشيء، وهي أخص من الوسيلة، كما يقول الراغب في مفرداته أخص من الوسيلة لأنها تتضمن معنى الرغبة،

والله جل وعلا يُتقرب إليه، ويُتوصل إلى رحمته بطاعته ، ولا طاعة إلا بإتباع نبيه محمدٍ ﷺ.

إذًا تبين لنا أن الوسيلة في الآيتين **يعني الطاعة لله ﷻ**،

وذكر بعضهم أن الوسيلة هي الحاجة، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما

ويمكن أن يقال: إن الحاجة يمكن أن يعود معناها في حق الله ﷻ،

يعني في حق ابتغاء الوسيلة إلى الله- إلى معنى القربى، فإن طلب الحاجة يعني الدعاء والسؤال لله جل وعلا هو من جملة القرب التي يُتقرب بها إلى الله جل وعلا، فالدعاء هو العبادة، كما قال النبي ﷺ.

وبالتالي فإن الذي يروج له عُباد القبور من أن الوسيلة هي الشيخ أو الولي الذي يقربك إلى الله ﷻ،

والواقع أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد المشركين الأولين سواء بسواء، الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، إذًا من أبطل الباطل، بل من التلاعب بكتاب الله، أن تفسر الوسيلة لهذا التفسير، فهذا تفسيرٌ باطل محدث، بل هذه الوسيلة ،هي الكفر الأكبر المخرج من الملة.

الوسيلة والواسطة بين العبد وبين ربه نوعان: وسيلةٌ نفيها كفر، ووسيلةٌ إثباتها كفر.

- **أما الوسيلة التي نفيها كفر:** فهي وسيلةٌ وواسطة الرسول في تبليغ شرع الله جل وعلا،
- **النوع الثاني فإنها الواسطة التي إثباتها كفر:** وهي التي كان عليها المشركون قديمًا، وحديثًا، وهي اتخاذ معبودات يتقرب إليها الإنسان،إلى الله ، فهذا حقيقة ما عليه المشركون.

إذًا تنبه إلى هذه المسألة المهمة، وهي أن الوسيلة التي أمر الله جل وعلا بابتغائها، وهي التي كان يطلبها الصالحون من عباد الله، **هي طاعة الله ﷻ.**

بعض الناس حمل الوسيلة ها هنا على دعاء الله جل وعلا مع التوسل إليه بالجاه والحق والأنبياء والأولياء وكذلك الإقسام على الله، اللهم أقسم عليك بفلان إلا ما أعطيتني.

والصواب أن هذا معنٍى مُحدث ومبتدع، ولم يقله في هذه الآية أصحاب النبي ﷺ، ولا السلف الصالح،
والصواب أن هذا التوصل توصلٌ بدعي لا يجوز،
ليس شركًا بالله لكنه توصلٌ بدعي؛ لعدم الدليل الشرعي عليه،

۞ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 26-28].
هذه الآية من أعظم وأبين ما يفسر كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله،
﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: 26-27]، يعني إلا الذي خلقني، وهو الله سبحانه،
فهذه الآية جمعت ركني لا إله إلا الله النفي والإثبات:

- **أما النفي** فهو قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾فهذا يقابل في كلمة التوحيد (لا إله)،
- **الإثبات:** وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾فإنه يقابل في كلمة التوحيد (إلا الله)،

وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه: هي لا إله إلا الله، فلم يزل في عقبه وذريته من يقول: لا إله إلا الله، ومن يعمل بلا إله إلا الله،

وقد بيَّن الله تعالى هذا قد تكرر من إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: 75-77]،النفي والإثبات، البراءة والولاء، التخلية والتحلية،

﴿ وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: 31].

هذه الآية فيها بيانٌ لمعنى لا إله إلا الله من جهة بيان، أو معرفة ضدها

فإن من الشرك أن يتخذ الإنسان غير الله جل وعلا ربًا، ومن ذلك أن يطيعه في التحليل والتحريم مصدقًا معتقدا، فإن هذا هو الذي جاء في هذه الآية في حال أهل الكتاب،

﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ **يعني**: علماؤهم،

أحبار: جمع حَبر أو حِبر، يجوز فيها الفتح ويجوز فيها الكسر، الأحبار:هم العلماء، **والرهبان**: هم العُباد، اتخذوهم أربابًا من دون الله، قالوا لهم:إن هذا الأمر الحلال حرام، فاعتقدوه حرامًا، أو أن الأمر الحرام الذي حرمه الله جعلوه لهم حلالاً فاعتقدوا أنه حلال.

وبالتالي من التوحيد: أن يعتقد تحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم الله، فمن خلف في ذلك فإنه يكون قد اتخذ مع الله جل وعلا ربًا، وهذا هو الشرك الذي هو ضد التوحيد

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً﴾: ولم يقل هاهنا: آلهة، وكأن ذلك والله أعلم لأن شرك الطاعة إلى منافاة توحيد الربوبية أقرب منه إلى منافاة توحيد الألوهية، والله تعالى أعلم.

مسألة التحليل والتحريم تنقسم إلى حالتين:

➢ **الأولى**: أن يأمر عالمٌ أو عابد أو مقدم آخر بأن يعتقد الحرام حلالاً، يقول له: الخمر حلال، فيعتقد ذلك، ويصدق كلامه، وهو يعلم حكم الله، أو يحرم الحلال، يقول: الخبز حرام، يوافقه على ذلك فهذا لاشك أنه شركٌ بالله ﷻ، ويدخل في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

➢ **الحالة الثانية**: فهي أن يوافقه في العمل لا في الاعتقاد، بمعنى أن يأمره بفعلٍ محرم فيفعله، مع اعتقاده أنه محرم، هذا يرجع إلى باب المعاصي لا إلى باب الشرك الأكبر،

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

هذه الآية في سورة البقرة فيها بيان تفسير التوحيد من جهتين أيضًا:

أما الأولى: بمعرفة ضد التوحيد وهو الشرك، فمن أحب غير الله كحب الله فإنه يكون قد أشرك مع الله، وهذا ضد التوحيد،

وجهٌ ثانٍ في الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾

هذا هو التوحيد، أن يكون الله في قلبك أحب إليك من كل شيء، وما سوى الله فإنه يحب لأجل الله، أو بإذن الله.فمحبة الله فرضٌ من أفراض التوحيد به يتبين كيف يوحد الله، بأن يكون الله في قلب الإنسان أحب إليه من كل شيء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾

وفي الصحيح عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال:«مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وحِسَابُهُ عَلى اللهِ ﷻ»، وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

في صحيح مسلم وهو حديث أبي مالكٍ الأشجعي عن أبيه، هو تابعي ولم يروي عن أبيه إلا هو، أبوه طارق بن أشيم الأشجعي صاحبي رضي الله عنه، يروي عن النبي ﷺ أن: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله**».

هذا القيد المهم في قوله: «**وكفر بما يُعبد من دون الله**»،يقول: لا إله إلا الله مع كفره بما يُعبد من دون الله، هنا يكون مسلمًا، لأنه قال: «**حرم ماله ودمه**»، وهذا هو المسلم **وحسابه على الله**، لأن قاعدة الشريعة معاملة الناس بالظاهر، فمن كان قائلاً: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، فإنه يكون مسلمًا فيحرم ماله ودمه.

قد يقول قائل: قد مر بنا أن لا إله إلا الله ركنان: لا إله، وإلا الله، ولا إله إلا الله هذا ركن هو الكفر بما يُعبد من دون الله، فما وجه ذكره في الحديث مع أنه داخلٌ في الشطر الأول؟

«**وكفر بما يُعبد الله**» هذا من باب عطف الخاص على العام، وإلا فـ(كفر بما يُعبد من الله) هذه الجملة هي هي (لا إله)، ولكنه عطفها على لا إله إلا الله للتأكيد.

ذكر المؤلف في أخر مسألة في هذا الباب، قال: في قوله: «**وكفر بما يُعبد من دون الله**» مسألةٌ عظيمة، قال معنى كلامه فإن النبي ﷺ لم يجعل ماله ودمه حرامًا بمجرد قولها، ولا بمجرد معرفة عنها، ولا حتى بالإقرار بها، ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه إلا إذا أضاف إلى هذا الكفر بما يُعبد من دون الله.

ذكر إمام الدعوة في نواقض التوحيد، من لم يُكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحصح مذهبهم، من قال: إن اليهود والنصارى مؤمنون ناجون عند الله من أهل الجنة، فهذا لا شك أنه ما كفر ما يُعبد من دون الله،

ما الواجب على المسلم تجاه عبادة غير الله؟ أن يكفر بها، ويبغضها، وبغض أهلها

هل يكفي قول لا إلا إلا الله دون الكفر بالطاغوت؟ لا،لابد من الكفر بكل ما يُعبد من دون الله.

ما خلاصة تفسير التوحيد من آيات الباب؟ عبادة الله وحده لاشريك له،و الكفر بغيره،وتحقيق الولاء والبراء،وهذا هو معنى لا إله إلا الله

الدرس الحادي عشر-٢٢١ ٧- بَابُ مِنَ الشَّرْكِ لُبْسُ الحَلَقَةِ وَالخَيطِ وَنحَوِهِما لِرَفعِ البَلاءِ أَوْ دَفْعِهِ.

بابٌ من الشرك؛ من هنا تبعيضية؛ يعني من أفراد الشرك، ومن أنواع الشرك

(لُبْسُ الحلْقة)؛ **الحلقة**: هي ما استدار من المعدن، وغيره، ومنه يُقال للمجتمعين على ذكرٍ، ونحوه إنه في حلْقة، حلقة: بسكون اللام، ويجوز فتحها، حلْقة، وحلَقة.

(والخيط)، الخيط معروف، ومراد الشيخ رحمه الله اللُّبْسُ الخاص الذي هو على صفة معينة؛ وذلك بأن يكون بقصد رفع البلاء، أو دفعه، هذا هو محل بحثنا في هذا الباب، ليس اللبس المطلق؛ إنما هذا اللبس الذي اقترن باعتقاد، وقصد؛ ألا وهو رفع البلاء، أو دفع البلاء.

رفع البلاء يكوه بعد نزوله.   **وأما دفع البلاء** يكون قبل نزوله.

وما يلبسه المشركون، من هذه الأمور؛ إنما يتنوع أصلهم في ذلك إلى هذين الأمرين:

١-**قد يلبسون شيئًا، والقصد أن يكون سببًا في إزالة** مرض، أو سحر، أو عين، أو مس، أو ما شاكل ذلك بعد أن يُصاب الإنسان.

٢- **وقد يكون اللابس لذلك قصده ألا يُصاب**، هو سليم، ويريد ألا يُصاب بعين، أو لا يُصاب بمرض، أو لا يُصاب بسحر، أو ما شاكل ذلك،

أي شيء من هذا الباب يلبسه الإنسان بهذا القصد، إما لرفع البلاء، أو دفعه فإنه داخلٌ في هذا التبويب، كالعين الزرقاء، كف اليد، رأس الحمار،نعل ضغيرة،حدودة حصان، الخ

لاشك أن هذا اللبس من المحرمات و يتفاوت ذلك التحريم بحسب الحال.

- **قد يكون ذلك شركًا أصغر**: وذلك إذا اعتقد اللابس أن هذا الذي لبسه مجرد سبب، وإلا فإن الذي ينفع الله جل وعلا، هذا شركٌ أصغر،

وإن النصوص قد جاءت به، أعني بأنه شرك، مثلا**«إن الرقى، والتمائم والتولة شرك»**.

- **وقد يكون شركا أكبرا**: إذا عظم تعلق اللابس بما لبس حتى اعتقد الاستقلال بالتأثير في هذا الشيء الملبوس ، فإن من اعتقد أن غير الله ﷻ يملك نفعًا، وضرًا استقلالًا عن مشيئة الله، فهذا من المعلوم بالضرورة أنه شرك أكبر في باب الربوبية.

أما كون ذلك شركًا أصغر: فيرجع إلى ثلاثة أمور:

➢ أولًا: **من تعلق ذلك اعتقد سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا، ولا قدرًا،**

قاعدة: أن من اتخذ سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا، ولا قدرًا، فقد أشرك الشرك الأصغر.

الأسباب التي تؤدي إلى المقصود تنقسم: إلى أسباب شرعية، وإلى أسباب قدرية.

- **أما الأسباب الشرعية:** فهي التي دل الشرع على أنها نافعة، وذلك كالرقية
- **وقد يكون السبب سبب قدريًا:** بأن يجعل الله ﷻ في شيء إما أنه سبب موصل إلى شيء ما، مثال ذلك: شرب الماء سبب لحصول الري، أو الأكل سبب لدفع الجوع.

والمرجع، والضابط في كون هذا سبب قدرياً هو: التجربة الظاهرة، والتكرار، أو بشهادة أهل الخبرة أن هذا الأمر سبب في كذا، بشرط أن يعتقد الإنسان أنه سبب، والمعول، وتعليق القلب إنما هو على من بيده النفع والضر، وهو الله ﷻ.

وهذا السبب الشرعي أو القدري قد يكون هذا جائزًا، وقد مستحبًا، وقد يكون واجبًا بحسب أحوال المسائل.

➢ ثانيا: **الغالب أنه حصل في قلبه تعلق بوجه ما بهذه الخيوط**، ولم يعتمد بقلبه، ويتوكل بقلبه على الله،وهذا الالتفات،والتعلق،وحصول نوعٍ من التوكل لاشك أنه شعبة من شعب الشرك.

➢ ثالثا: **لبس مثل هذه الأمور وسيلة إلى الوقوع في الشرك الأكبر.**

قاعدة: أن وسائل الشرك الأكبر شرك أصغر.

وهذا أمر لا يجحد، ولا ينكر، فإنه يتدرج به الشيطان شيئًا فشيئًا حتى يصبح اعتماده، وتوكله بالكامل على هذا الشيء الذي علقه، والشيطان له خطوات، يمشي مع الإنسان في التلبيس والتسويل خطوةً خطوة، ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾[البقرة:208].

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر:38]، هذه الآية في بيان التوحيد، وتوضيح الشرك، وفيها أمران مهمان يدلان على بطلان الشرك،

الأول: ما أخبر الله جل وعلا عن المشركين في اعتقادهم في آلهتهم التي يعبدونها مع الله جل وعلا، وهي أنها لا تملك شيئًا لا خلقًا، ولا رزقًا، ولا تدبيرًا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ إذًا كانوا يعتقدون أن الله وحده هو الخالق،والرازق، والمدبر، ومع ذلك لم يكونوا بهذا الاعتقاد مسلمين، لأنهم أشركوا مع الله جل وعلا في العبادة، .

الثاني: هو في بيان أن هذه الآلهة التي تعلقوا بها آلهة لا تتصف بالكمال، بل تتصف بالنقص، وإذا كانت كذلك كان التعلق بها ضلالًا في العقل، كما كان ضلالًا في الشرع،

ويدخل في معناها رد ما عليه هؤلاء المتعلقين، أو المعلقين لهذه التمائم، إن الذي هم فيه ضلال، وباطل، وشعبة مما عليه أهل الشرك بالله جل وعلا.

وفي استدلال المؤلف بهذه الآية لطيفة؛ وهي أن الله جل وعلا نفى أن تكون الآلهة التي يتعلق بها المشركون نافعة لهم في جلب خير، أو دفع ضر، وفي هذه الآلهة صالحون، وملائكة، وجن، وأنبياء، فلا أن يكون هذا مدفوعًا، ومنفيًا عن جمادات لا تتحرك، ولا تعقل، ولا تصنع شيئًا كخيط، أو حلقة لا شك أن نفي ذلك عنها من باب أولى.

هذه الآية كما هو ظاهر من سياقها فيها بيان ضلال ما عليه المشركون الشرك الأكبر، فكيف يستدل المؤلف بها على ما الأصل فيه أنه شركٌ أصغر؟

أولا: أن تعليق هذه التمائم في بعض أحواله قد يكون شركًا أكبر.

وثانيًا: أن المؤلف رحمه الله جرى على **قاعدة السلف رحمهم الله**، فإنهم كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على رد ما هو من الشرك الأصغر

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فسره ابن عباس بأشياء هي من قبيل الشرك الأصغر،

فأهل العلم من السلف الصالح يستدلون بما هو نازل في الشرك الأكبر على رد الشرك الأصغر، فإنَّهُ إذا كان الشرك الأكبر مدفوعًا، فليكن الشرك الأصغر الذي هو دونه مدفوعًا من باب أولى، والله أعلم.

عن عمران بن حصين ﷺ: «إن النبي ﷺ رأى رجلًا في يده حلقة من صفر، فقال ما هذه، قال: من الواهنة، فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، رواه أحمد بسند لا بأس به.

هذا الحديث، فيه كلام من جهة ثبوته،ولكن له شواهد تدل على ثبوته،

«أن النبي ﷺ رأى على رجلٍ حلقة من صفر»،

رأى النبي ﷺ على هذا الرجل حلقةً من صفر يبدو والله أعلم أنه هذا المعدن المسمى بالنُّحاس، رأى عليه هذه الحلقة، **«فقال النبي ﷺ: ما هذا؟»**

وهل كان النبي ﷺ في هذا السؤال مستفسرًا، مستعلمًا، أو كان منكرًا؟ توجيهان

وجاء في رواية أحمد أن النبي ﷺ قال: **«ويحك ما هذا؟»** فهذا يرجح أنه استفهام إنكار، فبين الرجل، أو عمران سبب هذا اللبس، وأنه من الواهنة، من هذه سببية، أو تعليلية؛ يعني إنما لبست هذا الأمر لأجل دفع ألم أعاني منه، أو مرض أصبت به، وهو الواهنة.

قال أهل اللغة (الواهنة): عِرقٌ يصيب المنكب؛ يعني ألمٌ يُصاب به الإنسان في ذراعه، قالوا: وهو يصيب الرجل دون المرأة.

فالشاهد أنه لبس هذه الحلقة، الأسورة من هذا المعدن؛ لأجل أن تكون سبب في دفع هذا الألم، **«فقال النبي ﷺ: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا»**،

وكيف يكون ذلك كذلك، وهي لا تأثير لها؟

قال أهل العلم: إن ذلك لأنه يُصاب بالوهن معاملةً بنقيض مقصوده؛ يعني من عقوبة أن يلبس الإنسان هذا الأمر المنكر أن الله جل وعلا يزيده وهنًا، ويزيده ألمًا، ويزيده مرضًا، فلا هو بالذي انتفع، ولا هو بالذي حفظ عليه دينه.

ثم قال النبي ﷺ: **«انزعها»**، وجاء في رواية: **«انبذها عنك»**، والنبذ أشد من النزع؛ فيه قوة، وفيه طرح، وهذا يدل على أن الأمر غاية في القبح أن يلبس الإنسان مثل هذا الأمر حتى أن النبي ﷺ أمره بالنزع الشديد، والطرح المباشر انبذها عنك، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا.وهذا يدل على أن لبس الحلقة ونحوها لهذا القصد؛ أعني رفع البلاء، أو دفعه أن هذا من الأمور المحرمة، بل ذلك شرك بالله كما دلت عليه النصوص الأخرى.

(ما أفلحت أبدًا)، **الظاهر والله أعلم أنه نفي للفلاح المطلق**، و ليس نفيًا لمطلق الفلاح؛ يعني لا يفلح الفلاح التام، ولا يكون من أهل الفلاح الكامل، وليس أنه نفي لأصل الفلاح، فإن هذا إنما يُنفى عمن أشرك الشرك الأكبر.

وفي هذا الحديث أن الرجل الصالح، بل العالم قد يقع في أخطاء، وميزة العالم، والصالح على غيره، أنه إذا نُبه تنبه.

ما حكم إسورة الروماتيزم حسب اللجنة الدائمة؟ محرمة شركية لأنها لم تثبت بالتجربة الظاهرة

حكم ما يسمى بأسورة الطاقة، أو سوار الطاقة (power plant)

يزعمون أنه يعطي الإنسان توازنًا، ويسحب الذبذبات الكهربائية الزائدة وما شاكل ذلك.لا مانع أن تلبسه المرأة وأما الرجل يضعها في جيبه فقط ولكن ثبت أنه مجرد دعاية تجارية باطلة

﴿ وله عن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعًا: «من تعلق تميمة لا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له».وفي رواية: «من تعلق تميمة، فقد أشرك».

«من تعلق تميمة لا أتم الله له»؛ دعا النبي ﷺ على من علق التميمة بألا يتم الله له أمره،لأنه ارتكب ما نهى الله عنه، ورسوله ﷺ، وهذا دليل على أن لبس هذه التمائم أمر محرم.

والتميمة ضابطها: كل ما عُلق بقصد دفع البلاء، أو أي شيئًا كان.

والمشركون سموا هذه المعلقات تمائم، تلمحوا من لفظها أنه يتم لهم مقصودهم،

«ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له».

الودْع، والودَع: يجوز فيه الإسكان والفتح: هو شيء يشبه الصدف يكون في البحر سمي ودعًا.

وكان أهل الجاهلية يعلقونه على أطفالهم، ودوابهم، ويزعمون أنه سبب في دفع أذى العين.

هنا دعا النبي ﷺ على من لبس ذلك بقوله: فلا ودع الله له؛ أي لا جعله الله في دعة، وفي هناء، وفي سكون، وذلك معاملة بنقيض مقصوده، لأنه يستحق ذلك حيث ارتكب ما حرم الله تعالى

«من تعلق تميمة، فقد أشرك». أكثر روايات الحديث (تعلق)، وعند الطبراني، وغيره من (علق)، وكلمة (التعلق) فيها زيادة في المعنى؛وفيه إشارة إلى أن تعليق حسي مع تعليق قلبي،

عن ابن أبي حاتم، عن حذيفة ﷺ: أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى، فقطعه وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ .

ما دلالة استدلال حذيفة بالآية؟ أن السلف كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على ما هو من الشرك الأصغر

ما الذي ينبغي فعله في إزالة هذه المعلقات؟ أن يُبدأ بإزالة التعلق بها من القلب، ثم إزالتها فعليًا بالنصحية والكلمة الطيبة والدليل،مع العلم أن الغالب في الناس الخير ولكن ينتشر الجهل والتردد

الدرس الثاني عشر –٢٤١ ٨- باب ما جاء في الرقى والتمائم (المجلس الأول)

المؤلف بعد أن بين ما يضاد كمال التوحيد ناسب أن يعطف عليه بابا فيه التفصيل الآتي: كلمة التمائم ها هنا كلمة عامه تشمل كل ما يعلق سواء ما اتفق على تحريمه كالحلقة والخيط السابقة، أو ما وقع فيه خلاف، كالتمائم من القرآن أو من الأدعية النبوية أو مما فيه ذكر الله، هذا نوع من التمائم لكن الخلاف واقع فيه بين العلماء، فناسب أن يتطرق إليه المؤلف رحمه الله في هذا الباب.

المؤلف جمع في هذا الباب بين الرقى والتمائم وذلك لأمور:

- **أولا**: لأن الرقى الممنوعة والتمائم الممنوعة بينهما شبه من حيث الحكم والتحصيل.
- **ثانيا**: أن التمائم يحصل كثير أن يجتمع معها رقيه.
- **ثالثا**: وهو أن في النصوص الجمع بينها كالحديث «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**».

إذن هذا الجمع في الكلام بين الرقي والتمائم في هذا الباب له وجه، والمؤلف لم يجزم بحكم في هذا الموضوع كما فعل في الباب الماضي، وذلك لان المقام لا ينبغي فيه إطلاق الحكم، بل لابد من التفصيل؛ فمن الرقى ما هو مشروع ومنها وما هو ممنوع، وكذلك التمائم منها ما هو شرك ومنها ما هو مختلف فيه، بعض أهل العلم أباحه وبعضهم منعه،

الرقى: **جمع رقية** ، العوذة التي يعوذ بها والمعنى أنها ألفاظ وأقوال تقال وتقرأ بقصد دفع البلاء قبل نزوله أو رفعه بعد نزوله.

الأحاديث في موضوع الرقية على أنواع مختلفة،والجمع بينهما

- أولا: **فيها وصف الرقى بأنها شرك** كالحديث الماضي: «**إن الرقي والتمائم والتولة شرك**»

وصف ﷺ الرقى بأنها شرك فإن هذا منه ﷺ لنوع مخصوص من الرقية وهو ما كان فيه شرك،

- **ثانيا**: **نجد أن ﷺ قد نهى عن الرقى** في صحيح مسلم أن آل عمرو بن حزم جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: «**يا رسول الله أنه كانت لنا رقيه من العقرب وإنك نهيت عن الرقي**».

إنما نهى عن الرقية التي فيها شرك وليس نهيا مطلقا، إنما كان نهيه ﷺ عن شيء معين

- ثالثا: **يدل على أن الرقية مكروهة** ،كما جاء في رواية مسلم لحديث السبعين :«**لا يرقون**»

هذا الحديث لم يثبت عن النبي ﷺ،لفظه شاذ،أخطأ فيه شيخ مسلم،سعيد بن منصور

رابعا: **فيها تخصيص للرقية في شيء معين،**

كقول النبي ﷺ: **«لا رقية إلا من عين أو حمى»** الصحيح في فهم هذا الحديث أنه لارقية أنفع من العين والحمة وقد رخص في غيرها كالأحاديث في الرقية من العين والحمى والنملة، و غيره من الأحاديث

هذه أربعة أنواع من الأحاديث يقابلها أنواع أخرى:

أولا: **كان هو يفعل الرقية ﷺ، من ذلك** **«أن النبي ﷺ كان إذا عاد مريضا رقاه بقوله: اذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما»**

ثانيا: **نجدأن النبي ﷺ رُقِيَ**، رقاه جبريل **«يا محمد أشتكيت؟ قال: نعم قال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل ذي نفس أو عين حاسد بسم الله أرقيك الله يشفيك»**.

ثالثا: **نجد أن النبي ﷺ أباح الرقية** حتى تصل إلى حد معين، تكون فيه ممنوعة وذلك كما جاء في حديث عوف ابن مالك الأشجعي ﵁ أنه قال: **«قلنا يا رسول الله أنه كانت لنا رقي نرقي بها في الجاهلية فماذا ترى؟ فقال النبي ﷺ: اعرضوا علي رقاكم،لابأس بالرقي ما لم يكن فيها شرك»**النبي ﷺ أباح الرقى حتى تصل إلى هذا الحد وهوأن يكون فيها شرك،

رابعا: **نجد من النبي ﷺ الحث والأمر على الرقية** :حديث مر معنا (استرقوا لها).
وكذلك حديث عائشة كان يأمرني أن استرقي من العين، وغيره

أما إذن النبي ﷺ في الرقى فانه دليل أن الرقية إذا لم تكن ممنوعة فلا بأس بها،

كما مر معنا في حديث عوف ابن مالك قال: **«لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك»**، بعض أهل العلم حمل حديث عوف وكذلك حديث عمرو بن حزم على أن هذا نسخ منه ﷺ لنهيه السابق، كما نحى إلى هذا الطحاوي وغيره من أهل العلم.

والصواب إن الجمع مقدم على النسخ، وأن هذا ليس نسخا، إنما هذا منه ﷺ بيان لنهيه، وأنه إنما نهى عن الرقية التي فيها شرك وليس نهيا مطلقا، إنما كان نهيه ﷺ عن شيء معين

الرقية من حيث حكمها قسمين: إلى رقية ممنوعة، وإلى رقية مشروعة.

أما الرقية الممنوعة: فإنها قد تكون شركا أكبر وقد تكون شركا أصغر.

- **القسم الأول: شركا أكبر:**

الأمر الأول: فان هذا يكون إذا اشتملت الرقية على استغاثة أو استعاذة بغير الله

الأمر الثاني: أن يعتقد أن التأثير في الرقية لغير الله جل وعلا

إما أن الرقية تنفع بنفسها أو أن النفع راجع إلى الراقي فهو الذي يشفى وهو الذي ينفى

ولا شك أن من اعتقد هذه فقد أشرك في الربوبية، حيث اعتقد أن مع الله من يشاركه في ملك النفع والضر وهذا لا شك أنه شرك أكبر.

- **القسم الثاني: أن تكون شركا أصغر،**

أولا: وهذا إما أن تشتمل الرقية على ألفاظ غير مفهومة

فهذا لا شك أنه شرك أصغر اتخاذ لسبب ما جعله الله سببا لا شرعا ولا قدرا،

ثانيا: أو أن يكون في الرقية إقسام بغيرالله

بأن الرقاة إذا رقى فانه يقسم في ملك أو حياة فلان أو نبي أو ولي، ولا شك أن الإقسام بغير الله جل وعلا شرك؛ قال النبي ﷺ: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**

الثالث: أن يكون في المرقي التفات بقلبه إلى الراقي وليس أن يكون معتمدا بالكلية على الله جل وعلا، متى ما كان منه شيء من الاعتماد والتوكل والالتفات إلى هذا الراقي ولم يعتقد أنه مجرد سبب فلا شك أن هذا شعبة من الشرك،

أما الرقية المشروعة اجتمع فيها ثلاثة أمور:

- **أولا**: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، أو ما كان من أحاديث النبي ﷺ الثابتة عنه
- **ثانيا**: أن تكون هذه الرقية بكلام عربي واضح أو إذا كان الراقي من غير أهل هذه اللغة فانه لابد أن يرقي بكلام مفهوم في هذه اللغة.
- **ثالثا**: أن يعتقد كل من الراقي والمرقي أن الرقية مجرد سبب، وأن المعول والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

حكم الرقية على وجه التفصيل بين أن يكون الحكم متعلق بالراقي أو المرقي أو المسترقي.

أما الراقي لنفسه أو لغيره في الرقية المشروعة فان حكم هذه الرقية بالنسبة للراقي أنه الاستحباب، لأن فيها لجوءًا إلى الله وطلبا من الله وتذللا لله ورجاء في الله وتوكلا على الله.

أما بالنسبة للمرقي والمراد به من طلب منه أن يرقي غيره فان ذلك في حقه جائز لا بأس به، دون طلب منه كما رقي النبي ﷺ جبريل وكما رقي النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها.

وأما بالنسبة للمسترقي وذلك بأن يطلب من غيره أن يرقيه فهذا ما مضى الحديث فيه في باب من حقق التوحيد دخل الجنة،

وقلنا الأصل في الاسترقاء أنه من الأمور التي ينبغي أن يحرص المسلم على تركها،لأنها قد تفوت عليه أن يكون من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب،

۞ صفات الرقية الشرعية:

➢ **أولًا: من ذلك أن تكون الرقية مع نفَثٍ أو تفلٍ**

النفث: إخراج الهواء مع شيء من الريق هذا الشيء الخفيف هكذا هذا يسمى نفسا،

التفل أو البزاق أو البصاق: فانه شيء أكثر، وكلا الأمرين ثابت في السنة،

أن يقرأ الإنسان بآيات أو بأدعية أو برقي نبوية ويجمع مع ذلك النفث أو التفل.

دليل: **«كان إذا مرضا أحد من أهل النبي ﷺ نفث عليه بالمعوذات»**.

➢ **ثانيا: أن تكون الرقية مجرد قراءة دون أن يشتمل معها نفس أو تفل،**

«اذهب البأس رب الناس»، ولم تذكر عائشة رضي الله عنها نفثه.

➢ **الصفة الثالثة: أن يجمع الإنسان مع القراءة المسح على الموضع المصاب أو وضع اليد عليه،**

«إني اشتكى مرضا منذ أسلمت، فأمره النبي ﷺ أن يضع يده على المكان المصاب ثم يقول: باسم الله ثلاثا ثم يقول سبعا أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، فهذا الحديث فيه رقية مع وضع اليد على الموضع أو المكان المصاب.

➢ صفة رابعة: **وهي أن تكون الرقية على ماء ينفث فيه ثم يشرب أو يغتسل أو يغسل به**، رقيه تقرأ مع نفث في ماء، ثم بعد ذلك يشربها الإنسان أو يغتسل منها أو يغسل نفسه بها.

«أن النبي ﷺ لدغ، كان يصلى فلدغ من عقرب، فكان منه ﷺ بعد ذلك أن أتى بماء وملح فكان يقرأ على هذا الماء ويمسح من هذا الماء والملح

وأما الآثار عن السلف في الرقية على الماء فإنها كثيرة.

ما أبرز التجاوزات والمحدثات المعاصرة في الرقية؟ الرقية الجماعية، النفث في خزانات الماء الكبيرة، الرقية عبر الإينترنت أو السماعات.

ما من الأخطاء في طلب الرقية؟ الإعتقاد بأنها لا تصح إلا من شخص معين والغفلة عن نفع رقية الإنسان لنفسه وذلك أن الإنسان إذا رقي نفسه يكون عنده من الاضطرار وصدق اللجوء إلى الله جل وعلا ما ليس في الحال الأخرى

ما الموقف من استعمال الرقية كتجربة؟ **باطل**، لأن الرقية لا تنفع إلا باليقين والجزم لا بالتجربة.

قال العلماء: إذ اجتمعت ثلاث أمور فما أنفع هذه الرقية:

صدق الراقي، ويقين المرقي، وصحة المرقي به.

الرقية كما يقول العلماء سيف، والسيف حتى ينفع لابد من اجتماع أمرين:

لابد أن يكون الضارب به قويا(اليد)، ولابد أن يكون المحل قابلا؛

لابد من صدق في الراقي ولابد من يقينٍ في المرقي ولابد أن يكون السيف في أصله ماذا؟ قوى وهذا هو صحة المرقي به.

الدرس الثالث عشر -٢٥٦   ٨- بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ (المجلس الثاني)

ورد في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِن وَتَرٍ، أو قِلادةٌ إلا قُطِعَتْ».

أبو بشير على الصحيح لا يُعرف له اسمٌ من وجه ثابت، وإنما هو معروف بكُنيته،
هذا الصحابي الجليل كان كان في سفر مع النبي ﷺ، فأرسل ﷺ رسولًا من أصحابه ينادي في الناس،
جاء في بعض الروايات، أنه مولاه زيد بن حارثه رضي الله عنه،
الأظهر والله وأعلم أن (أو) ها هنا شكٌ من الراوي، أقال النبي ﷺ قلادة هكذا مطلقة؟ أو قال قلادة من وتر؟ وجاء عند أبي داود: «قلادة من وتر وقلادة» بالواو وليس (أو)، والمقصود من ذلك أن النبي ﷺ نهى عن تقليد البهائم، ومنها الإبل، أن تُقَلَد الأوتار،

الوتر: هو وتر القَوْس الذي يربط بين طرفيه، الذي يدفع السَهْم، و كانت العرب تتخذ الأوتار من حبال، أو من عَصَبِ الشاة أو من غير ذلك، فإذا قَدُم واخْلَوْلَقَ، وأرادوا أن يستبدلوه، فإنهم يقلدون به أنعامهم.
قال الأمام مالك رحمه الله في الموطأ عقيب إخراج الحديث: (أُرى ذلك من العين)، أي أنهم كانوا يقلدون الأوتار أو غيرها على دوابهم خشية العين،
من عقائد أهل الجاهلية، أنهم كانوا يعتقدون أن تعليق الأوتار ونحوها على البهائم يقيها من أذى العين، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وأمر بقطع هذه القلائد، وفي هذا دليلٌ على تحريم تعليق التمائم.

والتمائم يتنوع إلى أشياء مختلفة،المهم أنه كل شيء يُعلق ويوضع والقصد فيه دفع البلاء أورفعه

وليس في الحديث النهي عن تقليد البهائم مُطلقًا، فلو أنه قلد الإنسان البهائم بسببٍ أخر، فإن هذا لا بأس به، فالنبي ﷺ قد قلد الهدي الذي بعثه إلى مكة، وكانت عائشة رضي الله عنها، كما ثبت عنها، كانت تفتل القلائد؛ لهدي للنبي ﷺ، ثم كان يعلقها ﷺ على هذه البهائم التي كان يهديها إلى الحرم، ولم يكن ﷺ يُحرم على نفسه شيئًا بذلك.

وفي الحديث من الفرائض أنه يجب الإنذار، ويجب التبليغ، والتعليم، حتى تقوم الحجة على الناس، النبي ﷺ ما ترك الناس على جهلهم بهذا الأمر العظيم، لاسيما وهو يتعلق بجناب التوحيد، أنما أرسل رسولًا، وكلفه، وأمره أن يحذر الناس، ويعلمهم، وينبههم، حتى لا يقعوا في هذا الأمر المخالف في شريعة النبي ﷺ، وهكذا السائرون على نهج النبي ﷺ،

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّولَةَ شِرْكٌ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَ أَبُوْ دَاوُدَ.

ابن مسعود رضي الله عنه: «رأى في عنق زوجه ،خيطًا ، فسألها، قال: ما هذا؟» فهذا فيه الاستفسار قبل إنكار المنكر، لا تهجم على شيء تجهله، فتنكر شيئًا قد لا يكون منكرًا.

«**فقالت: خيطٌ رُقي لي فيه**»، وهذا يدلك على الاشتراك والعلاقة التي تقع أحيانًا أو كثيرًا بين التمائم والرقى،فغضب ونزعه وقال رضي الله عنه: «**إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك**»،

«إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، فبين لها رضي الله عنه الحجة والدليل على هذا الإنكار، وهذا الحديث فيه ما يدل على حكم هذه الأمور الثلاثة، وأنها من الشرك، لكن تنبه إلى أن المقام فيه تفصيل.

هناك فرق بين الرُقى والتمائم:

(إن الرُقى): شيءٌ يُقال، شيءٌ يُقرأ،وفيه تفصل ، يتناول الرُقى الممنوعة وغير المشروعة، أما الرُقى المشروعة فإنها غير داخلة في هذا الحديث،

(التمائم)، ووصفها بأنها شرك، ولم يأتِ تقييدًا عن النبي ﷺ بإباحة تميمة دون أخرى،

(والتولة): فسرها مسعود رضي الله عنه قال رضي الله عنه: شيءٌ تصنعه النساء تتحببن به إلى أزواجهن، وهذا ضربٌ من السحر، كما بين أبي عبيد وغيره، وهذا لا شك أنه شركٌ بالله جل وعلا،

أحكام التميمة: قد تكون التميمة شركًا أكبر، وقد تكون التميمة شركًا أصغر.

۞ تكون التميمة شركًا أكبر في الأحوال الآتية:

➢ **أولًا**: أن يعتقد مُقلدها ومُعلقها أنها تنفع وتضر بذاتها، هذا، شركٌ أكبر في الربوبية.

➢ **ثانيًا**: أن تشتمل التميمة على شيءٍ من الاستغاثة بغير الله استغاثة بالأولياء،بالأنبياء، وغيره

➢ **الحالة الثالثة**: أن تشتمل التميمة على شيءٍ من علم الحرف أو الطلسم،
ولا شك أنه من علوم الشياطين والمردة، شياطين الأنس، هو ضرب من الكهانة،
ولا شك أنه شرك بالله،في الربوبية،لأن فيه اعتقاد أن تصريف الكون يكون من غير الله ﷻ

قد تكون شركا أصغرا: إذا علقها باعتقاد أنها مجرد سبب، والنفع و الضر بيد الله ﷻ،

وعن عبد الله بن عُكَيمٍ ﷺ مرفوعًا: «من تعلق شيئًا وُكِلَ إليه» رواه أحمد والترمذي.

عبد الله بن عُكَيم الجوهري، هو من المخضرمين، الذين أدركوا زمان النبي ﷺ، لكنهم لم يلقوه، فحين إذٍ فالحديث على هذا مُرسل. في إسناد الحديث رجلٌ ضعيف، هو ابن أبي ليلى. وهذا المعنى جاء من حديث النبي ﷺ بإسناد أخر، جاء من طريق الحسن، عن أبي هريرة.

معنى الحديث:من توكل على الله، وأعتمد عليه، وأنزل حوائجه به، فإن الله –تعالى- يتولاه، لكن من غفل عن الله، وأنزل حوائجه لغيره، فإن الله جلَّ وعلا يخذله، ويتخلى عنه

وهذا الحديث فيه قصة وهي: «أن عبد الله ابن عُكَيم ﷺ مرض، فزاره بعض الناس فعرضوا عليه أن يعلق شيئًا، قالوا: إن علقت شيئًا، فقال ﷺ ورحمه: الموت أقرب من ذلك»، كيف يمكن لي وأنا من أهل التوحيد أن أقع في شيء من الشرك؟!، لا أعلق قلبي، ولا أجعل اعتمادي على الله، وإنما على شيءٍ تافه أعلقه،،

ثم قال: قال النبي ﷺ: **«من تعلق شيئًا وكل إليه»**. إذًا عندنا ثلاث أحاديث في التعليق، **«من تعلق تميمة فقد أشرك»**، والثاني **«من تعلق تميمة فلا أتم الله له»، وهذا «من تعلق شيئًا وكل إليه»**.

﴿ «التمائم شيءٌ يُعَلَّقُ على الأولادِ لِلعَينِ، لَكنْ إذا كانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ، فَرَخَّصَ فيه بَعْضُ السَلفِ، وبعضُهُم لَمْ يُرَخِّصْ فيه، وَيَجْعَلهُ مِنَ المَنْهِي عَنْهُ» منهم ابن مسعود ﷺ.

التميمة: هي كل شيء كان يعلق على الصبيان من العين، هذا في الغالب، وإلا قد يعلق الكبار أشياء عليهم، وقد يعلق على الدواب، وقد يكون هذا من العين، وهذا هو الغالب على أهل الجاهلية، وقد يكون لغيره أيضًا.

حكم التميمة من القرآن: يعني أن يعلق الإنسان شيئًا فيه آيات، أو فيه شيءٌ ويلتحق به شيءٌ فيه ذكر الله جلَّ وعلا، أو شيءٍ من الأدعية، أو يضع المصحف كله،

الواقع أن العلماء مختلفون في تعليق التمائم من القرأن إلى ثلاثة أقوال:

قول الأول: جائز قبل نزول البلاء وبعد نزول البلاء.

وهذا القول رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وروي عن بعض السلف ولكن الأقرب أنه لم يصح عنهما، لكنه صح عن عطاء، وعن أبي جعفرٍ الباقر

وابن القيم رحمه الله حكى أورد هو وغيره من أهل العلم، وأستدل هؤلاء بعموم الأدلة التي فيها الاستشفاء بالقرآن: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ**﴾ [الإسراء:82]، وهذا استشفاء من القرآن فيكون داخلًا في الآية، يستدل أيضًا بأثر عن عبد الله بن عمر بن العاص، وهو أنه علمه النبي ﷺ دعاء الفزع، علَّمه النبي ﷺ وهو: **أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عبادة، ومن همزات الشياطين،وأن يحضرون.**

إذا كان ممن يصاب بشيء يُفَزِّعُه في نومه، فإنه يستحب في حقه أن يقول هذا الذكر، وادعُ هذا الدعاء.

هذا القدر هذا سنة ثابتة عن النبي ﷺ، لكن جاء بعد ذلك زيادة وهي: «**أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كان يحفظها أبنائه البالغين، كان من بلغ من أبنائه حفظه إياها، ومن لم يبلغ كتبه في صكٍ**». يعني كتبه في شيء في ورقةٍ أو نحوها ثم علقها عليه، هذا يفعله مع الصغار الذين لم يبلغوا، قال وأما من بلغ فيحفظه إياها، ومن لم يبلغ يكتبه في صك فيعلقه عليه.

قال هذا دليل على إنه يجوز أن يعلق الإنسان التمائم، مما فيه شيء من الأدعية والأذكار، ومن باب أولى ما كان فيه شيء من القرآن.

هذين الاستدلالين فيهما نظر:

أولاً: فإن خيرَ من فهم الآيات المتعلقة بالاستشفاء وطبقها؛ النبي ﷺ ولم يثبت عنه ﷺ قط أنه قد علق شيء من القرآن البتة ودل هذا على أن هذا الفهم غير المراد.

ثانيًا: أثر عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما فيه نظر من جهة الإسناد، ومن جهة المتن.

فيه عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس،كما ان الأثر صريحا في قصد دفع البلء،فربما كان بقصد التعليم فقط،ومع الاحتمال يضعف الاستدلال.

القول الثاني: **أنه يجوز بعد نزول البلاء لا قبله،**

روي هذا عن عائشة رضي الله عنها، وهذا القول روايته أوحكايته عن عائشة رضي الله عنها فيها نظر، ، الأثر فيه انقطاع فلا يصح عنها رضي الله عنها،وهذا التفريق يرده عموم أدلة النهي عن التعليق،والله أعلم.

والقول الثالث: **هو النهي المطلق عن تعليق هذه التمائم، فلا يجوز ذلك لا قبل البلاء ولا بعده،**

وهذا قول جمهور الصحابة والتابعين ابن مسعود وابن عباس وحذيقة وعقبة بن عامر الحسن البصري وغيرهم من أهل العلم، وهذا القول هو الراجح،

ويدل على رجحانه أمور:

أولًا: **علوم الأدلة الناهية عن التعليق، مع عدم التفريق بين مُعلَّقٍ ومُعلَّقْ هذا واحد.**

ثانيًا: **أن النبي ﷺ فرق في الحكم بين الرُقى والتمائم.**

أما الرقى فقال في شأنها: «اعرضوا عليا رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك»، أما التمائم فلم يُفرق النبي ﷺ فيها، فدل هذا على أن النهي عن التمائم نهيٌ مطلق لا تقييد فيه.

ثالثًا: **يجد أن النبي ﷺ في الأذكار، أو الأدعية، التي فيها جلبٌ أو دفعٌ،**

تجد فيها من قال، من قرأ، **«من قرأ الآيتين من أخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه»**، من قال كذا وكذا كان له كذا وكذا، تأمل في الأحاديث ما استطعت منها، ما تجد أن النبي ﷺ قال من كتب أو من علق أو أن هذا في الواقع أسهل وأبعد عن النسيان.

أمر رابع: هذا القول فيه عملٌ بقاعدة الشريعة التي هي سد الذرائع.

القول بإباحة التمائم من القرآن، فتحٌ لذريعة اختلاط التمائم المشروعة، التي يزعمون أنها مشروعة، التي يقولون بمشروعيتها، مع التمائم الممنوعة،وبالتالي يجد المشركون فرصة ليروجوا على الناس التمائم الشركية كما أن فيه إغلاق لباب الرقية يستغني الناس عن الرُقية مع أن الرُقية سنة، وبتعليق هذه التمائم ربما يكتفي الناس عنها ويستغنون عنها.

الخامس: أن هذا القول هو الثابت عن الصحابة ،ولم يثبت على غيرهم خلافة.

السادس: أن هذا قول أكثر التابعين، فمن بعده من أهل العلم.

أيضًا المنع من هذه التمائم فيه صيانةٌ لكلام الله واسم الله، لأنه لا يؤمن ابتذال هذه الأشياء، لا يؤمن أن تبتذل الآيات أو الأدعية.

ولذلك جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله قال: كانوا يكرهون التعويذة من القرآن، ويقولون أن الصبيان يدخلون بها الخلاء، لأنها تُعلق فمع الوقت يتساهل أو ينسى فيدخلون بالقرآن، أو بشيء من ما فيه ذكر الله دورات المياه، والخلاء، أيضًا ربما يلبسها الإنسان فينام، فإذا به يجعلها تحته مثلًا، أو ربما علقها عليه، وأصبح يتكلم بكلام مُحرم أو بلغو، أو نحو ذلك.

الثامن: أن هذا القول أحوط، والاحتياط في هذه المسائل أولى.

بعض الناس تجده يضع مصحف في السيارة، لا يقرأ فيه، ربما تضربه الشمس حتى تتلف جلده، وهذا فيه شيء من عدم التقدير لكتاب الله، المهم أنه يضعه في الآخر، ترونه يضعونه في آخر السيارة أو في مقدمتها أو ربما وضعوه في درج السيارة، ويريدوا بذلك أنه يُحفظ من من العين، أو الحوادث، أو نحو ذلك. هذا لا شك أنه على الصحيح لا يجوز، كذلك تعليق هذه الآيات ونحوها على الأطفال، فالأقرب أن ذلك رعاكم الله لا يجوز، والله تعالى أعلم.

قال رحمه الله: والرقى هي التي تُسمَّى العزائمَ، وخصَّ منهُ الدليلُ ما خلا من الشركِ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

مضى الكلام في ذلك والنبي ﷺ كما قلنا رخص قال: «**لا رقية إلا من عين أو حمى**»

والتولة شيءٌ يصنعونه يزعمون أنه يُحَبِّبُ المرأةَ إلى زوجها والرجلَ إلى امرأته.

مضى الكلام في ذلك،

روى الإمام أحمد عن رويفعٍ قال: قال لي رَسُول اللهِ ﷺ: «يا رُوَيْفِعُ لعل الحياةَ ستطُولُ بك، فأخبر الناس أن من عَقَدَ لحيتَهُ أو تَقَلَّدَ وترًا أو استنجَى بِرَجِيعِ دابةِ أو عَظْمٍ، فإن محمدًا بريءٌ منهُ»

علمٌ من أعلام نبوته ﷺ، فإنه قد طالت به الحياة، فإنه توفي سنة ستٍ وخمسين من الهجرة، وقيل سنة ثلاثٍ وخمسين، فأمره النبي ﷺ بالدعوة والبيان، أخبر الناس فهذا واجب الدعاة، واجب ورثة الأنبياء.

أمر النبي ﷺ أن يحذر الناس من ثلاثة أشياء:

الأمر الأول: عقد اللحية، «أن من عقد لحيته»،

أختلف العلماء في تفسير المراد بعقد اللحية،

قيل إن يعقدها، يربط لحيته، أو يفتلها تكبرًا،وقيل أنه من فعل أهل التخلف فيهم،

وقيل أن هذا كانوا يفعلونه من أجل دفع العين، وهذا القول هو المناسب لبابنا، هذا واحد.

الأمر الثاني: (تقلد وترا)، تقلد الأوتار مر بنا في تقليد الدواب والإبل،

إذًا تقليد الوتر الذي جاء النهي عنه في هذا الحديث، فيه دليل على النهي عن التمائم، وهذا هو الذي عقد لأجله المؤلف رحمه الله هذا الباب.

الأمر الثالث: (هو الاستنجاء برجيع الدواب)، يعني أن يتطهر، يستجمر بشيئين: بالعظام عظام الحيوانات، وكذلك بروث، بمخلفات الدواب، لأن عظام هذه الحيوانات التي نأكلها إذا ذكر اسم الله عليها فإنها تكون طعام إخواننا من الجن، والروث هو طعام دوابهم،

وهذا دليل على أن هذه الأمور السابقة محرمة، بل من الكبائر، لأن كل من جاء فيه وعيدٌ خاص فإنه يكون فإنه يكون من الكبائر.

❁ وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعِدلِ رَقَبَةٍ» رواه وكيعٌ.

هذا الأثر فيه نظر في إسناده، فأنه عن ليث بن أبي سُليم وهو ضعيف، وفيه أن من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة، يعني كأنما أعتق رقبةً في سبيل الله، يعني ثوابه كثير.

قال أهل العلم وجه العلاقة بين قطع التميمة وعتق الرقبة

أولا: أن من قطع تميمة من إنسان، فإنه يكون قد فعل سببًا لعتق رقبته من النار، فكان من ثواب ذلك، أنه كمثل من أعتق رقبةً في سبيل الله ، يعتق الله ﷻ لذلك رقبة هذا الإنسان من النار، ولكن هذا الأثر ضعيف.

ثانيًا: الصح هو قول تابعي، وليس قول صحابي، وقول التابعي فيما لا مجال للاجتهاد فيه؛ الصحيح أنه ليس له حكم الرفع، فإن هذا خاصٌ بأصحاب النبي ﷺ،

التمائم لو قطعتها فقط وهي لم تخرج من قلبه، فأنه سيفعل، سيرجع ويلبس اثنتين، المهم أن تخرج من قلبه أولًا، ثم بعد ذلك برفق تحرص على أن تزيلها منه.

❁ وله عن إبراهيم رحمه الله أنه قال: "كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن".

وقوله (كانوا) يريد أصحاب بن مسعود، وفي هذا بيان المنع من تمائم القرآن هو قول جماعة من التابعين، بل هو قول الجمهور كما أسلفت.

أهم الضوابط والقواعد المستفادة من هذ الباب:

- أن التمائم من أعظم ما ينافي التوحيد.
- النهي عنها مطلقا لا فرق بين ما كان من القرآن أو غيره في التعليق.
- تعليقها شرك: أكبر أو أصغر بحسب الاعتقاد.
- ضرورة الإنكار والبلاغ والتعليم.
- الاحتياط في هذا الباب أولى،صيانة للتوحيد وكلام الله.

الدرس الرابع عشر – ٢٧٩ – ٩ – بَابُ مَنْ تبرك بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ ونَحْوِهِمَا

هذا بابٌ مهم والحاجة ماسةٌ إلى الإلمام بمسائله لكثرة الأخطاء الواقعة بالموضوع التبرك.

التبرك: تفعُل من البركة فهو يعنى طلب البركة،

وفي اللغة: معنى البركة يدور على أمرين على كثرة الخير ودوامه،

والبركة: شيء يضعهُ الله ﷻ ويعطيه من يشاء، فالله ﷻ يبارك الشيء ويبارك فيه ويبارك له ويبارك عليه، والله جلَّ وعلا هو المبارك وحده وما سواه مما شاء أن يجعله مبارك.

- **والله قد يجعل البركةَ في أزمنة** كليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:3]
- **وقد يجعل البركة في بقعة أو مكان من الأرض:** ﴿الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:30]
- **وقد يجعل البركة في ذوات كبيت الله:** ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96].
- **أو المطر**، فالله جلَّ وعلا سماه ماءً مباركًا
- **أو المسلم فالنبي ﷺ قال:** «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم»

والبركة في الجملة تنقسم إلى قسمين:

بركة دينية: راجعةٍ إلى الإيمان والطاعة والثواب وما إلى ذلك؛

فالكعبة مباركة بنص القرآن وبركتها بركة دينية أي العبادة فيها من الأجر والفضل ما ليس في غير ذلك كذلك المسجد النبوي مسجدٌ مبارك الصلاة فيه لها من الأجر ما ليس في غير هذا

وقد تكون البركة بركة دنيوية: كالمطر فالله جلَّ وعلا جعله ماءً مباركًا.

كذلك النبات: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:96] **يعني المطر والنبات.**

وقد يكون الشيء جامعًا بين الأمرين: كالقرآن فيه بركةٌ دينية من جهة ما يحصل لتاليه والمتدبر له من الإيمان والرقي في سُلم العبودية مع تحصيله جزيل الثواب، وقد يكون وفيه أيضًا بركة دنيوية من جهة ما يحصل من الاستشفاء به، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص:29].

❁ **طلب البركة عند أهل السنة والجماعة ينقسم إلى قسمين:** تبرك مشروع وتبرك ممنوع.

❁ **أما التبرك المشروع فهو الذي جمع ثلاثةَ ضوابط:**

➤ **أولًا: أن تُلتمس البركة مما ثبت شرعا أن فيه بركة،**

➤ **ثانيًا: أن يكون تبركه وِفق ما ورد في الشرع.**

قد يكون الشيء قد ثبت أنه مبارك لكنَّاالكيفية التي تُفعل من بعض الناس ليس عليها دليل.

➤ **ثالثا: أن يكون التماس البركة على جهة السببية.**

والله ﷻ هو الذي يجعل الأشياء مباركة، قال عيسى عليه السلام ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ [مريم:31]

جاء في الحديث: «**حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله**» "حيَّ:أي هلموا إلى الطهور المبارك، ولكن احذروا لست أنا الذي أعطى البركة، البركة من الله.

القاعدة ينبغي أن يستمسك بها المسلم. البركة من الله لا من غيره.

❁ **أما البركة الممنوعة فإنها ما فقدت واحد من الضوابط السابقة، وذلك:**

أولًا: أن تلتمس البركة مما لم يثبت شرعًا أن فيه بركة،

مثال ذلك بعض الناس إذا جاء إلى مثل هذه البقعة المباركة في هذا المسجد النبوي تجد أنه يتمسح بالأبواب أو بالسواري ويفعل هذا التماسًا للبركة، أين الدليل أفي هذا أية من القرآن؟

ثانيًا: أن تُلتمس البركة بكيفيةٍ لم ترد،

مثال، الكعبةُ بيت مباركٌ بنص القرآن: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:96] ولكن ماذا عن التبرك بأستارها؟

قد يقول قائل وماذا عن استلام الحجر الأسود؟ أو مسح الركن اليماني؟

أولا: الجواب أننا نتكلم عن التبرك بأستار الكعبة.

ثانيا: أن فعلنا في الركن اليماني إنما نقتدي فيه بالنبي ﷺ، ولم يثبت أن فعله النبي ﷺ، كما أن الركن اليماني فيه بركةٌ تلتمس، كذلك الحجر الأسود

هل يصح التبرك بالصالحين؟ وهل بركتهم متعدية كبركة النبي ﷺ ؟ بركة المسلم بركة ذاتية غيرُ متعدية تتفاوت بحسب الإيمان؛ وكلما كان الإنسان أكثر إيمانًا كلا كانت بركته أعظم، لكن لم يأتِ بالدليل أن هذه البركة متعدية تنال من مسح أو التصاق بجسد هذا، أما النبي ﷺ مباركٌ صفاتًا وأفعالًا، وذاتًا ﷺ، لذا صحّ تبرك الصحابة به،و لايصح القياس عليه.

أما أهل السنةِ حقًا فعندهم من تعظيم النبي ﷺ

أولًا: الوقوف عند حدود ما أنزل الله

ثانيًا. ما يجعلهم يقولون هذا حكمٌ خاصٌ بالنبي ﷺ لا يشترك معه فيه غيره، وبالتالي كان هذا قياسًا فاسدًا؛ ويدل على فساده أن إجماع الصحابة منعقد على أن هذا الفعل خاصٌ بالنبي ﷺ ولايشاركه فيه غيره.

أرأيت أحدًا من صغار الصحابة فعل هذا مع أحد من كبار الصحابة؟ يعني هل رأيت من أحد مثل عبد الله بن عمر وبن عباس فعل هذا مع أبي بكر وغيره؟ الجواب: لا؛ ولن تجد، وهذا حكم خاص بالنبي ﷺ بإجماع الصحابة، ثم أيضًا هو حكم خاص به بإجماع التابعين،

ثالثا: أن البركة تنال من غير الله يعتقد أن البركة إنما يعطيها هذا الشيء الذي تبرك به.

والسؤال ما حكم التبرك الممنوع؟ حكم التبرك الممنوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يعتقد المُتبرِكُ أن المتَبرك به يمنح البركة من ذاته

هو الذي يفيض بالبركة وهو الذي يعطي البركة إذا شاء، مثال ذلك ما يفعله القبوريون حين يتمسحون بقبور الأولياء مع اعتقادهم أن الولي أو السيد هو الذي يعطي البركة، لو تأملت لوجدت هذا المثال فيه اجتماع الصور الممنوعة الثلاثة:

أولا: لم يأتِ في الدليل أن في القبور بركةً تلتمس، أي قبرٌ كان.

ثانيا: لم يرد في الدليل أن التمسح أو تعفير الوجه أو الجسم بتراب القبر وإلخ

ثالثا: ما يعتقده كثيرٌ منهم أن صاحب القبر هو الذي يمنح ويتفضل بالبركة إذن اجتمعت هذه الظلمات الثلاث بعضها فوق بعض بهذه الصورة؛ فهذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

ثانيًا: أن يُعتقد أن لما تبرك به أرواحٌ، أو ما قد يقولون روحانيات

قد يتبرك بعضهم بشجرة، أو بسارية، أو حتى بقبر، ويزعم أن لهذه الشجرة أو الحجر أو السارية أو القبر أن له أروحًا ترفع الحاجات إلى الله ﷻ، فنقول هذا أيضًا شركٌ أكبر من جنس شرك المشركين الأولين.

ثالثا: هي ألا يعتقد أن البركة تُعطى من غير الله إنما هي سبب.

كأن يتبرك ببابٍ من أبواب المسجد، أو سارية، أو بشخصٍ صالح، أو ما شاكل ذلك وهو يعتقد أن البركة من الله وهذا مجرد سبب؛ فنقول **هذا شركٌ أصغر؛** لأنه اتخذ سبب لم يجعله الله سبب لا شرعًا ولا قدرًا.

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:19] الآيات.

(أفرأيتم): يعني "أخبروني عن هذه الأصنام الثلاثة هل كانت تخلق وترزق وتدبر؟ حتى يصح أن يتعبد بها وأن يُتقرب إليها.

مسلك من مسالك إثبات التوحيد ونقض الشرك وهو بيان ضعف الآلهة ونقصها وعجزها

أشهر الأصنام عند العرب ثلاثة:

⬅ **اللات:** قيل إن هذه الكلمة مشتقة من اسم الجلالة (الله)، أو من اسمه سبحانه (الاله)، وقيل من(لث)السويق، وكان رجلا صالحا

أما الأول: فهو دليل على أن المشركين كانوا يلحدون في أسماء الله يشتقون من أسماء الله أسماءً لأصنامهم، كان تسمية هذا الصنم باسم الجلالة الله لكن الله صرفهم عن ذلك حتى لا يختص به غيره.

والثاني: فهو يشير إلى سبب عبادة هذا الصنم

هذا الصنم كان في الطائف وأكثر الناس تعظيم له هم ثقيف أهل الطائف وأصل ذلك أن كان رجلًا صالحًا كان يجلس على صخرة يلت عندها السويق للحاج وللفقراء فلما مات أتى الشيطان الناس فسوَّل لهم تعظيمه فما كان منهم إلا أن عظموا هذا القبر وعبدوه،

فالشاهد في هذا الدليل على أن الصالحين عُبدوا وعلى أن الأحجار عُبدت وكل ذلك لا فرق فيه في الحكم الشرعي هذا شرك وهذا شرك،

🡐 **(العزى)**: أيضًا مشتقة من العزيز، عزى أنثى الأعز، ، وهذا الصنم وأكثرهم تعظيمًا له قريش، وهو أقرب الأصنام من مكة، كان هذا الصنم قريبًا من السيل بين مكة والطائف، قيل أنه كان شجرات ثلاث من شجر السَّمر المعروف، كان شجرات عظيمة وعليها بناء، وجعلوا على هذا البناء أقمشة وستائر ونحو ذلك، وقيل أنه كان صنم وكانت هذه الشجرات هي حريمه،

الشاهد أنه مما قد عُبد الشجر ولم يفرق النبي ﷺ بين قبر يُعبد أو بين حجر وشجر أوبين صنم، كله شركٌ بالله،

🡐 **(مناة)**: فإنها كانت بالمشلَّل قُربَ قُدَيد، قديت بين مكة والمدينة وهي إلى المدينة أقرب،
مناة كانت صخرة على قول وكانت صنمًا على قولٍ آخر، وهي أيضًا من الأصنام التي عظمتها العرب قاطبة وأكثرهم تعظيمًا لهذا الصنم الأوس والخزرج أهل المدينة.

الشاهد أن الله ﷻ بين في هذه الآيات أن هذه الأصنام أصنام باطلة لا قيمة لها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم:23]،

توجيه أول في الآية: كان أهل الجاهلية يعتقدون أن هذه الأصنام بنات لله
أو توجيه ثانٍ: في الآية كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام إناث، ومع ذلك جعلوها شريكةً مع الله، الأصنام كانوا يعتقدونها إناثًا وهذا ظاهر في العزى ومناة، حتى اللات على القول بأنه اسم فاعل لكنه كان مؤنث عندهم،

إذن كيف تعتقدون هذا الشيء؟!

أولًا: تعتقدون أن مع الله شريك،

ثانيا:هذا الشريك الذي تعتقدونه هو أصلًا عندكم ماذا جنسه؟ محتقر!

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم:22]، ضيزى يعني جائرة غير عادلة، وهذا دليل على أن المشركين ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه ﷻ.

حول الكعبة و(٣٦٠) صنمًا. كانوا يتمسحون ويتبركون بها حتى كان يوم الفتح كان يطعن النبي ﷺ في صدور هذه الأَصنام فتسقط، ثم أمر بها فأُخرجت من المسجد وأُحرقت.

ﷺ عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاءُ عهدٍ بكفرٍ، وللمشركين سدرةٌ يعكفونَ عندها وينُوطُونَ بها أسلحَتُهم يقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرةٍ فقلنا يا رَسُولَ اللهِ، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ. فقال رسولَ اللهِ ﷺ: الله أكبرُ، إنها السننُ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾[الأعراف: 138] لتركبن سَنَنَ من كانَ قَبلكم» رواه الترمذي وصححه.

قال الترمذي حسنٌ صحيح، وصححه غيره من أهل العلم،

أبو واقد، أُختلف في اسمه فقيل الحارث بن عوف، وقيل عوف بن مالك، وقيل عوف بن الحارث، وكان من مسلمي الفتح، والحادثة كان فام الفتح سنة ثماٍ للحجرة

(السدرة): هي شجرة النبق وهي شجرة معروفة أيام الجاهلية كان عند المشركين سدرة شجرة عظيمة، لما مرو بهذه تذكروا تلك، كانوا يفعلون عندها ثلاثة أشياء كلها عبادة:

- **أولًا:** العكوف عندها يمكثون ويعكفون عندها تقربًا لها والتماسًا للبركة
- **ثانيًا:** أنهم كانوا يعظمون هذه السدرة كتعظيم الله.
- **ثالثًا:** أنهم كانوا يتبركون بها من وجهين:

أولًا: أن البركة تنالهم إذا عكفوا عندها تنزل عليهم البركات من هذه الشجرة.

ثانيًا: أنهم كانوا ينيطون بها أسلحتهم ينيطون يعلقون ولذلك كانت تسمى ذات أنواط، إذا وضعوا أسلحتهم وبقية أسلحتهم عليها فإنها تكون أقوى وأمضى.

قالوا: **(يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم)**

وهذا يدل على أنه ربما يكون في الرجل الصالح بل العالم ما يخفى عليه من الحق ومن مسائل العلم؛ هؤلاء أصحاب النبي ﷺ وخارجين للجهاد في سبيل الله، ومع ذلك وقع منهم ما وقع مما أنكره النبي ﷺ، وهذا يدلك أيضًا على أن المنتقل من الباطل إلى الحق لا يُؤمن أن يبقى في قلبه من الباطل السابق؛ فينبغي أن يراعي الإنسان هذا في نفسه وفي غيره.ونبه إلى هذا المؤلف في مسائل.

«ونحن حدثاء عهد بجاهلية»: هذا يبين لك العذر للذي وقع منهم هذا القول، وإلا فكبار الصحابة ومتقدموهم رضي الله عنهم ما وقع منهم هذا الأمر.

اختلف العلماء في الفعل الذي فعله هؤلاء الصحابة حينما طلبوا هذا الطلب ما حكمه؟

القول الأول: طلبوا أن يسأل النبي ربه فإذا جعلها الله مباركةٌ كانت مباركة وهذا توجيه مال إليه بعض أهل العلم ومنهم المؤلف رحمه الله كما في الدرر السنية.

القول الثاني: إن الذي وقعوا فيه هو من شعب الشرك الأصغر،لم يرتدوا بسؤالهم هذا ما كان فعله شركًا أكبر، فطلبه شركًا أصغر.

القول الثالث: وقع منهم شركٌ أكبر، وإنما لم يرتدو للعذرالذي هو كونهم حدثاء عهدٍ بجاهلية،

«الله أكبر، قلتم كما قال بنوا إسرائيل لموسى اجعل لنا إله كما لهم آلهة!»

«الله أكبر»، هذه لفظ جاء عند أحمد وغيره ، في رواية الترمذي قال: **«سبحان الله»**، وكلا الأمرين كان يفعله النبي ﷺ إذا استعظم أمرًا، كان يعظم الله وينزهه سبحانه ﷺ،

«لتتبعن سُنن من كان قبلكم».ثم قال ﷺ: **«لتركبن سُنن** –أوسَنن يجوز لك الوجهان

الشاهد أن النبي ﷺ عظم الأمر وأغلظ في الجواب، وقال إن هذا الحديث يضاهي حديث بني إسرائيل لموسى:(اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة)،

فدل هذا على أن التبرك الممنوع من فعل أهل الشرك، لأن ما يفعله المشركون عند أو مع هذه الشركة أنهم كانوا يتبركون بها، وبالتالي فمن تبرك بشجرٍ أو حجرٍ أو نحوهما من قبرٍ وبناءٍ وغير ذلك فإنه يكون قد وقع في الشرك، وقد يكون شركًا أكبر أو أصغر.

الدرس الخامس عشر – ٣٠٠   ١٠ – بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ

أي: من الوعيد، فإن الذبح لغير الله من أفعال المشركين التي كانت لها عندهم حظوة ومكانة، فكانوا يكثرون من الذبح لأوثانهم وكانوا يعتبرون هذا من أحسن الأعمال عندهم،

العتيرة: الذبيحة التي كانوا يذبحون لأوثانهم في الشهر المعظم عندهم ألا وهو رجب، وكانوا إذا ذبحوا الذبيحة بين يدي الصنم ربما لطخوا رأسه أو شيئًا من جسده بدم هذه الذبيحة حتى تكون أكثر تقربيًا لهم عند هذا الوثن.

المؤلف رحمه الله عقد هذا الباب ليبين لنا أن من أنواع الشرك الذبح لغير الله ﷻ،

كيف يجتمع في الذبح لله تعالى مظاهر التوحيد؟ الذبح لله توحيد وعبادة عظيمة يجتمع فيها التقرب إلى الله وتعظيمه وإظهار الافتقار إليه والإنفاق في سبيل الله وإحسان الظن به ﷻ وهي عبادة عملية قلبية يجتمع فيها الإيمان الباطن والإيمان الظاهر،

تتنوع مقاصد المشركين في الذبح لغيرالله قديما وحديثا ألى:تقرب،رغبة،رهبة،وتعظيم

➢ **تقربًا**: **قد يذبحون تقربًا إلى وثنهم** سواء كان صنمًا أو شجرًا أو كان وليًّا صالحًا أو نبيًّا

➢ **رغبةً**: فإنهم يعتقدون أنهم إذا أراقوا الدم في سبيل هذا المعبود عندهم فإن هذا يرضيه، فبالتالي فإنه **يرفع الحوائج إلى الله ﷻ**.

➢ **رهبةً**: **كأن يكونوا خائفين من جنٍّ** يصيبوهم بأذى، فيذبحون دفعًا لشرهم. ولربما إذا ذهبوا إلى أحد السحرة أويطلبون منهم حاجة من الحاجات أويدفعوا عنهم سببًا من أسباب الضر في زعمهم،أمروهم بذبح شاة سوداء أو ديك أسود للجن والشياطين فيقعون في حمئة الشرك،

➢ **تعظيمًا**: ،من الناس من إذا أقبل زعيم أو رجل من الكبراء عليهم ذبحوا شيئًا من الإبل أو الشياه تزلفًا وتقربًا إليه وتعظيمًا له، وهذا لا شك أنه شرك بالله

❁ الذبح في الجملة له أحوال:

⬅ أولا: **أن يكون الذبح بسم الله، لله**: فيقول: بسم الله، ويقصد التقرب لله، وهذا لا شك أنه توحيد اجتمع فيه العبادة والاستعانة، بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] وعند أبي داود وغيره أن النبي ﷺ لما نحر أضحيته قال: «**بسم الله والله أكبر اللهم هذا منك ولك**» جمع بين الذبح بسم الله والتقرب إلى الله، اللهم هذا منك ولك أتقرب به لك يا الله.

الذبح بسم الله لا بد منه إما على الشرطية أو الوجوب على خلاف بين أهل العلم لقوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام:121] ولقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:118]

وفي الصحيح ﷺ **قال النبي** ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه**».

فاشترط النبي ﷺ لحل الذبيحة أمرين:

- **أن ينهر الدم**، فلا تكون الذبيحة ميتة بأن تضرب على رأسها أو تصعق بالكهرباءوإلخ
- **لا بد من قول: بسم الله**، أما قول: الله أكبر، فهذا مستحب وليس بواجب.

⬅ ثانيًا: **أن يذبح بسم الله لغير الله:**

أن يقول عند الذبح بسم الله ولكن القصد هو التقرب لغير الله، لأي أحد سوى الله جل وعلا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر في العبادة.

⬅ ثالثًا: **أن يذبح بسم غير الله لله:**

أن يسمى بسم عيسى أو غيره بسم كوكب أو بسم جني والقصد أنه يتقرب إلى الله فهذا أيضًا شرك أكبر شرك في الاستعانة.

⬅ رابعًا: **أن يذبح بسم غير الله لغير الله:**

وهذا ظلمات بعضها فوق بعض، شرك في العبادة وشرك في الاستعانة.

⬅ خامسًا: **أن يذبح بسم الله لغرض مشروع أو مباح:**

أن يطعم ضيفًا أوأهله وإلخ ، فهذا جائز أو مستحب أو ربما كان واجبًا بحسب الأحوال،

لكن ثمة فرق بين هذه الحال والأربعة السابقة، ذلك أن الذبح في الأحوال السابقة كان إراقة الدم هو الشيء المقصود واللحم تبع،

وأما في هذه الصورة الأخيرة فاللحم هو المقصود والذبح تبع، وبالتالي اكتفي بأنه يذكر اسم الله جل وعلا؛ لأن ذكر اسم الله على الذبيحة يطيب اللحم، ويزكيه، ويجعل فيه البركة،

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:162- 163] الآية.وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:2].

﴿ وَنُسُكِي ﴾: فالنسك هو الذبح وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة:﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة:196]، والنسك فسره النبي ﷺ بأنه ذبح شاة،

إذًا الآية دليل على أن الذبح عبادة يجب صرفها لله ﷻ، ووجه الدلالة من عدة أوجه:

أولا: قوله تعالى:﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ واللام للاستحقاق،إذًا الذبح لله لا يجوزأن يصرف لغيره.

ثانيًا: أن الله تعالى قرن بين الذبح والصلاة،والصلاة من أعظم العبادات، وبالتالي فالذبح كذلك عبادة لله جل وعلا.

ثالثأ: ﴿ لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ وبالتالي من تقرب بالذبح لغير الله ووقع في الشرك.

إذًا هذه الآية تدل على أن الذبح لله توحيد، وأن الذبح لغير الله شرك،

وقل مثل هذا في الآية الأخرى آية الكوثر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:2]

ووجه الدلالة على أن النحر والذبح عبادة وأن صرف ذلك لغير الله شرك، أيضًا من أوجه:

أولا: كونه قرن بين الصلاة والنحر.

ثانيًا: أنه أمر بالنحر فدل هذا على أنه عبادة محبوبة لله، قال: ﴿ وَانْحَرْ﴾.

ثالثا: أنه خص هذا الأمر بالله، قال جل وعلا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:2] يعني لربك،

قاعدة: كل ما ثبت أنه عبادة فإن صرفه لغير الله شرك،

الصلاة لله عبادة؟ نعم، إذًا ما حكم الصلاة لغير الله؟ شرك، ما الدليل؟ أن الصلاة عبادة فصرفها لغير الله شرك، إذًا هما أمران متقابلان، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء:36]،

ما الدليل على أن الذبح لغير الله شرك؟ قلنا: أدلة، أبرزها أنه قد ثبت أن الذبح عبادة إذًا فصرف العبادة لغير الله شرك،

عَنْ عَلِي ﷺ قال: حَدَّثَنِي رَسُول اللهِ ﷺ بِأَرْبَعْ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدَثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِم الحديث بيان أربع ذنوب عظيمة ومتوعد عليها بلعنة الله ﷻ،

واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذا دليل على أن هذه الذنوب الأربعة من الكبائر والموبقات،

أول ذلك: «لعن الله من ذبح لغير الله»، هذا ما ظنه برب العالمين حينما يعمد إلى حقه فيصرفه لغيره، لو كان الله في قلبه عظيمًا التعظيم الذي يليق به ما فعل ذلك

الثاني: «أن يلعن الإنسان والديه» إما بأن يلعن ذلك صريحًا وهذا لا يفعله إلا من عتى وتمرد

الثالث: «لعن الله من آوى محدثًا» من أحدث حدثًا لله ﷻ فيه حق ثم لجأ إلى إنسان ليحميه ويمنع قيام حق الله ﷻ عليه، فإن النبي ﷺ قد لعنه في هذا الحديث.

الرابع: «لعن الله من غير منار الأرض»، هذه الحدودوالعلامات التي تكون بين أرضك وأرض جارك من تلاعب فيها بزيادة أو نقصان يدخل حق غيره في حقه فإنه متوعد بلعنة الله ﷻ.

إن قرن الذبح لغير الله بأمور ليست شركية كالأمور السابقة فهي كبائر، ألا يدل على أن الذبح لغير الله مجرد كبيرة ولا يصل لحد الشرك؟ من فعل شيئًا من هذه الأمور الأربعة فإنه ملعون يلعنه الله جل وعلا لكن لا يدل ذلك على أن الحكم في الكل واحد، فاللعنة قد تقع على كافر، وقد تقع على عاصي والنصوص في هذا كثيرة.

قاعدة: اشتراك المنهيات في قدر مشترك هو التحريم هو الذم هو الوعيد لا يدل على الاستواء في الحكم، وخذ مثالاً على هذا، بقوله ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات».**

أول شيء قال: «الشرك بالله»، ثانيًا: «السحر» ثم انظر في البقية: «قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، التولي يوم الزحف، أكل مال اليتيم، أكل الربا» ،التي في الأول كانت بالنص شرك، ومع ذلك اشتركت في قدر مشترك هو أنها موبقة، كلها موبق ولكن لا يدل على الاشتراك،

﴿ عَن طَارِقَ بْنِ شِهابٍ أن رَسُولُ اللهِ ﷺ قَال: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبابٍ، ودخلَ النارَ رجلٌ في ذبابٍ» قالوا: وكيف ذلك يا رسُول اللهِ؟ قال: «مَرَّ رَجُلانِ عَلى قَومٍ لَهُمْ صَنَمٌ لا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حتى يُقَرِّبَ شيْئًا، فقالوا لأحدِهما قَرِّبْ، قال: ليسَ عِنْدي شَيءٌ أُقَرِّبُ، قالوُا لَهُ: قَرِّبْ ولَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا فَخَلَّوا سَبِيْلَهُ فَدَخَلَ النَّارَ، وقالوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقال: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيئًا دُونَ اللهِ ﷻ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الجَنَّةَ» رواه أحمد.

المؤلف جعل هذا الحديث من حديث طارق بن شهاب يرفعه إلى النبي ﷺ، ثم عزا ذلك إلى الإمام أحمد، وهو ليس في المسند الذي بين أيدينا، هو عند أحمد في الزهد،

ورواه غيره أيضًا وكل ذلك لم يكن مرفوعًا إلى النبي ﷺ إنما كان مما حدث به طارق ابن شهاب عن سلمان الفارسي ﵁ موقوفًا عليه من قوله،

وعلى كل حال حتى لو كان موقوفًا على سلمان فما فيه لا يقال إلا عن توقيف؛ لأن فيه أن أحدهما دخل الجنة والآخر دخل النار، وهذا أمر غيبي لا يقوله الصحابي إلا عن توقيف.

فالحديث سواء كان مرفوعًا أو موقوفًا فإن حكمه حكم الرفع، وهو أثر صحيح خرجه أحمد

وطارق بن شهاب البجلي على الصحيح أن له رؤية وليس له رواية،وبالتالي إذا ثبت أن هذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ فإنه يكون من مراسيل الصحابة، وهي مقبولة على الراجح.

الشاهد: وهو أن كان فيمن قبلنا رجلان مرًّا بقوم لهم صنم، وقد كان هذان الرجلان مفترقين، يعني مرة جاء الأول وبعد ذلك جاء الثاني، أو جاء معًا، جاء عند البيهقي في الشعب أنهما كانا معًا، فقال لهما: **(قربا شيئًا)**: **فقالا**: (ما كنا لنشرك بالله شيئًا)، وهذا يدلك على أن الذبيح لغير الله شرك،

قال:قربا ما شئتما ولو ذبابًا، فنظر **أحدهما إلى آخره** وقال لصاحبه ما كنت لأشرك بالله شيئًا.

التوحيد عزيز عند أهله.

وأما الآخر لما قالو له: قرب شيئًا ولو ذبابًا، جاء عند البيهقي أنه قال بيده على وجهه ثم أخذ ذبابًا فرماه إلى الصنم، فمر، ثم مات بعد ذلك فدخل النار، وجاء عند ابن أبي شيبة،قالوا له قرب ولو ذبابا،قال (إيش ذبابة) يعني استسهل الأمر

اكتفى المشركون بهذا (الذبابة) يدل على أن المقصود عمل القلب لا قدر الذبيحة وهذا يؤكد أن الشرك مرتبط بالقصد لا الحجم

الذبح لغير الله شرك، ومن وقع في هذا فقد نقض توحيده، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الإنسان راغبًا أو راهبًا أو خائفًا إلا أن يكون مكرهًا فالله جل وعلا خفف عن هذه الأمة ما استكرهوا عليه.

الرجل الذي دخل النار أنه كان مكرهًا فكيف يدخل النار وهو مكره؟ فيه أقوال

أولا: أن هذا الرجل كان كافرًا أصلا وإنما حرم التوفيق للإسلام، لكن هذا ضعيف؛ لو كان مشركًا أصلا ما قيل فيه دخل النار في ذبابة.

ثانيا: وهو قوي: أن الإكراه على الكفر لم يكن فيه رخصة في الأمم السابقة ويشهد لهذا أمور:

الأمرالأول: ما جاء في سورة الكهف، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف:20]، ثم قال:﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ مع أنهم يمكن لو كان عندهم رخصة أن يعودوا إلى ملتهم في الظاهر وقلبهم مطمئن بالإيمان، لكن الذي جاء في الآية أنهم لو عادوا إلى الملة بكل حال فالنتيجة لن يفلحوا إذًا أبدًا.

الأمرالثاني: النبي ﷺ قال: «**إن الله قد تجاوز عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» الشاهد: أن في هذا تخصيص لهذه الأمة –أمة محمد ﷺ وهذا القول له وجاهة لا تخفى.

ثالثا: أنه، أعني هذا الرجل الذي دخل النار لم يكن مكرهًا أصلا، إنما قيل له قرب فقرب،

رابعا: أنه قد انشرح صدره بالكفر في البداية قال: ما عندي شيء أقرب، ثم لما سهلوا له الأمر ويؤيد هذا ما جاء في الرواية الأخر قال: إيش ذبابة، يعني المسألة سهلة، فأخذ هذه الذبابة فرماها إلى الصنم، فلم يكن مكرهًا. على كل حال التوجيهان الثاني والثالث

خلاصة الأحكام المستفادة من الباب:

الأول:الذبح عبادة عظيمة لاتصرف إلا الله، **الثاني** :صرفها لغير الله شرك أكبر،

الثالث:حتى أقل صور الذبح لغير الله تدخل في الشرك **الرابع**:يجب استحضار تعظيم الله في كل ذبح تعبدي وخاصة الأضاحي **الخامس**: اللعن قد يثبت في الشرك والكبائر بحسب النص.

الدرس السادس عشر-٣١٨ ١١- بابٌ لا يُذْبَحُ للهِ بمكانٍ يُذْبَح فِيهِ لِغَيرِ اللهِ.

لا يُذبح: يجوز أن تكون (**لا**) ها هنا **نافية** متضمنةً للنهي،

ويجوز أن تكون ناهية (لايَذبح)،يعني: لا يجوز للمسلم أن يذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره.

المؤلف رحمه الله في الباب الماضي، نبه على المحرم قصدًا،(الذبح لغير الله ﷻ)

ونبه عقيبه على المحرم وسيلةً، (الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره)،

فالأول: هو المحرم على جهة القصد، والثاني: محرمٌ لأنه وسيلةٌ للأول.

❁ حُرِّمِ الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغير الله لخمسة أسباب:

➢ أولًا: **فيها إغراءٌ بالشرك بالله** ﷻ، فإذا رأى الأغمار والجهّال مسلمًا يذبح في هذا المكان، فإنَّ هذا قد يدعوهم إلى أن يفعلوا مثل فعله، فيقع في الشرك، حيث يظنون أنّ الذبح لهذا الصنم أمرًا جائز، بدليل أن فلانًا المسلم يفعله؛ لأنَّ صورة الفعل واحدة بين ذبح المسلم لله، وذبح المشرك للوثن،وإنما الاختلاف في النية والقصد، فيه لغيره، ذريعةً للوقوع في الشرك بالله

➢ ثانيًا: **فتحٌ لذريعة الشر**، والواجب سد ذرائع الشر، وذلك أن الذبح لله في هذا المكان، ربما يكون ذريعةً لأن يوسوس الشيطان للإنسان، أنّ هذا الصنم الذي يذبح له، أو كان يذبح له أهلٌ أن يتقرب له، ولا يخفى أن الشيطان له خطوات، وأن له وساوس في النفوس،

➢ ثالثا: **فيه تعظيمٌ لأماكن الكفر وشعائر الكفر**، وفيه شدٌ لظهور المشركين، وتكثيرٌ لسوادهم، ولا شك أن الذي يجب أن تعظم شعائرالله:﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:32

والواجب أن يغاظ الكفار، ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ [التوبة:120].

➢رابعا: **ربما يكون سببًا لإساءة الظن بالمسلم**، فإذا رآه الصالحون ظنوا أنه يفعل كالمشركين، فيتقرب لغير الله بالذبح، والواجب أن يدفع الإنسان عن نفسه الريبة.

➢خامسا: **فيه مشابهةٌ للمشركين في صورة الفعل**، وهذا أمرٌ في حد ذاته محرم، ولو لم يقترن بهذا نية ولا قصد؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «من تشبه بقومٍ فهو منهم»، المشابهة في الظاهر

ذريعةٌ للمشابهة في الباطن، فيتدرج الأمر شيئًا فشيئًا، حتى يصل الأمر إلى أن يوافقه في القصد، ولأجل هذا منعت الشريعة من مشابهة المشركين، ولوفي صورة الفعل أو الهيئة.

ينبغي أن يعرض الإنسان نفسه للشر، بأن يأتي إلى هذا المكان، الذي هو مظنة الشرك، أو يفعل فيه الشرك بالفعل، ثم يشابه المشركين في هذا الأمر، هذا أمرٌ ربما يوقع في النفوس ما يوقع، وربما يجر الإنسان إلى شرٍ عظيم، والبعد عن المشركين لا سيما في أماكنٍ تعبداتهم، فإن الدخول عليهم ومخالطتهم، ومشاركتهم، ولو في الظاهر ربما تؤدي على شرٍ عظيم.

﴿ وقول الله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ [التوبة:108]، الآية.

هذه الآية فيها نهي الله ﷻ نبيه ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، والنهي له، نهيٌ لأمته ﷺ،
أمَّا مسجد الضرار: بناه أبوعامر الفاسق وأتباعه قب قباء،ليكون قاعدةً للغدر بالنبي ﷺ عند قدومه من الشام،لكن الله كشف أمرهم، ونهى الله جلَّ وعلا نبيه ﷺ عن القيام والصلاة والتعبد في هذا المسجد،﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ﴾ [التوبة:108].

وجه الدلالة من هذه الآية على ما البحث بصدده:أن الله نهى نبيه عن الصلاة في مسجدٍ أُسس على الكفر،فبالقياس يُنهي عن الذبح لله في موضع أُعِدّ للكفر.

وفي الآية من الفوائد: أن العبرة بالحقائق والمعاني دون الألفاظ والمباني، فليس كل مسجدٍ مبنيٍّ يُعتبر للعبادة،بل يُنظر في مقاصده.

﴿ عن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: «نذر رجل أن ينحر إبلاً بِبُوانَةَ، فسأل النبيَّ ﷺ فقال: هَل كان فيها وَثَنٌ مِن أَوثَانِ الجاهِليّةِ يُعْبَدُ؟ قالوا:لا.قَال: فَهَلْ كانَ فيها عِيدٌ من أَعيَادِهِم؟ قالوا: لا. فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوْفِ بِنَذْرِك، فإنَّهُ لاَ وفاءَ لِنذرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، ولا فيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدَمَ»، رواه أبو داود. وإسناده على شرطهما.

هذا الحديث الثاني حديث ثابت بن الضحاك الخزرجي الأنصاري، من فضلاء الصحابة ومن أهل بيعة الرضوان رضوان الله عليه، خرجه أبي داود في سننه بإسنادٍ صحيح

وأبا داود رحمه الله أورد في سننه ثلاثة أحاديث في معنى هذا الحديث، هذا واحدٍ منها،

وهذه ثلاثة أحاديث متواردةٌ على معنًى واحد، هو صريح في إثبات الحكم الذي عقد المؤلف رحمه الله باب من أجل إثباته، وهو تحريم الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره،

هذا الرجل نذر أن ينحر إبلًا بموضعٍ معين، وهذا يدل على جواز تخصيص النذر ذبحًا كان أو غيره بمكانٍ معين، نذر هذا الرجل أن ينحر إبلًا ببوانة،

بوانة: موضع قيل: إنه أسفل مكة دون يَلَمْلَم التي هي ميقات أهل اليمن،
وقيل: إن بوانة هَضَبَة بعد ينبع، قريبةٌ من ساحل البحر.

هنا توجه له النبي ﷺ بسؤالين،لأن وجود وثن أو عيد في ذلك المكان يجعل الذبح فيه وسيلةٌ للشرك،فلا يصح الإذن به،فاستفصل النبي ﷺ عن الحال قبل الجواب.
وهذا يدل على: أن على المفتي أن يستفصل من المستفتي، مع وجود الإجمال أو الاحتمال، المسلك الرشيد وهو أن يستفسر، وأن يستفصل حتى يجيب على بينة.

سوأل الأول: قال **«أكان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟»،**
الوثن: كل ما عبد مع الله ﷻ كان هذا على صورةٍ آدمي، أو حيوان، أو لم يكن، على خلافٍ في ذلك، سيأتي تحقيقه إن شاء الله في محله،
سأله النبي ﷺ أكان في الماضي وليس في الحاضر؟ لأنَّ الأمر فيما يبدو والله أعلم كان متأخرًا، بعد أن زالت مظاهر الشرك، ودانت الجزيرة ومواضع الشرك فيها بالتوحيد.

السوأل الثاني: قال: **«أكان فيها عيدٌ من أعيادهم؟».**

ضابط العيد: اسمٌ للزمان الذي يعتاد فيكون فيها اجتماع، يحصل اجتماعٌ للناس اجتماعٌ عام مع وجود أعمال يعملونها، إمّا من جهة العادات، وإما من جهة العبادات، وقد يكون هذا مخصوصٌ بمكان، وقد يكون أمرًا مطلقًا غير مخصوصٍ لمكان.

فكان أهل الجاهلية لهم أعياد كثيرة، وعلى رأس ما كانوا يفعلون في هذه الأعياد، وهذه المجتمعات أنهم كانوا يذبحون الذبائح فيتقربون بها إلى آلهتهم،

فقالوا: (**لا**)، ما كان ثمة عيدٌ من أعياد الجاهلية هناك، هنا قال النبي ﷺ: «**أوفِ بنذرك**»،

النبي ﷺ بنى حكمه بالإذن بوفاء هذا النذر بأنه لم يكن هناك عيد، ولم يكن هناك وثن،

ثم عقب **بقاعدةٍ عامة**، فقال: «، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله،ولا فيما يملك ابن آدم».

وهذا يدل على أن الذبح لله في مكانٍ كان يذبح فيه لغيره، أمرٌ محرم، وهذا من وجهين:

أولًا: أن النبي ﷺ ذكر الحكم عقيب الوصف، والوصف ها هنا خلو المكان من أمرين:

الأول: أن يكون فيه وثنٌ من أوثانهم. **الثاني**: أو يكون فيه عيدٌ من أعيادهم.

لما ذكر الوصف عقّب النبي ﷺ، بذكر الحكم، وهو «**أوفِ بنذرك**»، مشروعية الوفاء النذر، إذا وجد ماذا؟ الوصف، الذي هو ماذا؟ خلو المكان من هذين الأمرين.

ثانيًا: أن النبي ﷺ ذكر حكمًا عامًا بعد سبب، «**فإنه لا وفاء لنذر لمعصية الله**»،

فدلَّ هذا على أن الذبح، في مكانٍ فيه وثن أو عيد معصية،

وهذا هو الذي مراد إثبات من إيراد هذا الحديث.

هذا الباب وما فيه، تبين لك أن قاعدة سد الذرائع أصلٌ أصيل في الشريعة، لا سيما إذا تعلق الأمر بجناب التوحيد،لما فيه من حماية التوحيد وغلق أبواب الشرك.

كيف تصف الشريعة الإسلامية من حيث التعامل مع الشرك؟ الشريعة أيسر الشرائع في المعاملات،لكنها أشد الشرائع وأحزمها في الشرك وذرايعه،حمايةً لجانب التوحيد.

هل يدخل في هذا الحكم الذي ذكرناه، أن يذبح المسلم في المسالخ المعاصرة، التي يرتادوها الكفار، فيذبحون فيها ذبائحهم؟ لا لأنهم لايذبحون فيها تقرباً لغيرالله وإنما للأكل، فلا بأس بالذبح فيها ما لم تكن مُعدة للذبح لغيرالله..

الدرس السابع عشر – ٣٣١ ١٢- بَابٌ مِنْ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

لا يزال المؤلف يوالي ذكر الأبواب التي يعقدها لبيان ما يضاد التوحيد

(من): هنا تبعيضية، يعني من أنواع الشرك، الشركُ في النذر.

(النذر) **في اللغة**: قيل إنه من الإيجاب أو الوعد أو الإبلاغ فيما فيه تخويف،

النذر في الشرع: هو إيجابُ المكلف على نفسه ما لم يجب شرعا،

❁ تختلف أحكام النذر باختلاف أحوالٍ ذكرها الفقهاء رحمهم الله، من ذلك:

➤ أولًا: **النذر المطلق**:

وهو أن ينذُرَ الإنسان،أو ينذِرُ الإنسان، لأن نَذَرَ من باب ضَرَبَ ومن باب قَتَلَ، نذر ينذِرُ ونذر ينذُرُ؛ والمقصود بأنه مطلق، يعني لم يذكر ما هو الشيء المنذور،بأن قال: لله عليّ نذرٌ، أو: نذرٌ لله عليّ

والحكم فيه كفارة يمين: قال ﷺ :«**كفارة النذر كفارة يمين**».خرجه مسلم.

الثانية: **نذر أمرٍ مباح**،

إذا قال الإنسان: لله عليّ أن أركب دابتي؛ أو: نذرٌ عليّ أن أذهب إلى السوق، وما شاكل ذلك من هذه الأمور المباحة،

حكمه: إن المكلف الناذر مخيرٌ بين فعل ما نذر وبين أن يكفر كفارة يمين.

الحال الثالثة: **النذر المكروه**:

كأن يقول مثلا: نذرٌ عليّ أن أُطلِّق.الطلاقُ الأصل فيه أنه مكروه، وقد يختلُف الحكم فيه بحسب الحال،

حكمه: مخَيَّر بين أن يفي أو يكفِّر كفارة يمين،والمستحب أن يكفّر.

الحال الرابعة: **أن ينذر الإنسان شيئا محرما** :

يقول مثلا: نذرٌ عليّ أن أسرق. أو: عليّ نذر أن أشرب خمرا، وأمثال ذلك من هذه الأمور المحرمة،

حكمه: محرمٌ ولا يجوز الوفاءبه بالإجماع ، «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه**».

الحال الخامسة: **نذر الطاعة**، يسمى عند الفقهاء: نذر التَّبَرُّر،

التبرُّر: يعني تقرب وتنسك، وهذا النذر له حالتان:

الأولى: **أن يكون نذرا مُنَجَّزًا**، والمقصود بكونه مُنَجَزًا يعني غير معلق، غير مقيد،يقول مثلا:لله عليّ أن أصلي ركعتين،نذرٌ عليّ أن أفعل عمرة،وإلخ.

حكمه: يجب عليه أن يفيَ بهذا النذر :«**من نذر أن يطيع الله فليطعه**».

وذهب بعض أهل العلم إلى أن ما لم يكن أصله واجبا فإنه لا يجب الوفاء به، ويجزئ فيه كفارة يمين وهذا قولٌ مشهور عند الحنفية أنه لا يلزمه الوفاء.

والجمهور على أن أي طاعة تجب بالنذر،وهذا هو الصواب، لأن النبي ﷺ لم يقيد الحكم في الحديث بشيء، وإنما قال:«**من نذر أن يطيع الله فليطعه**».

الثانية: **هي أن ينذر الإنسان نذرا معلقا**، **أو**: **أن يُنْذُرَ نذر المجازة**،

وذلك أن يعلق النذر بأمرٍ يرجو حصوله ،كأن يقول: لله عليّ إن نجحت في الامتحان أن أصوم ثلاثة أيام، وما شاكل ذلك.

والحكم: في هذا أنه يجب عليه أن يفيَ بهذه الطاعة، وإذا لم يفعل فلا شك أنه عاصٍ لله ﷻ إلا إذا تعذر عليه ذلك، فيكفيه أن يكفر كفارة يمين،

إذا نذر هذا النذر، ثم مرض مرضا لا يرجى برؤه، وكان قد نذر صوما مثلا،

فنقول: يجزئه أن يكفر كفارة يمين لقول النبي ﷺ: «**كفارة النذر كفارة يمين**».

النذر له جانبان: جانب انعقاد وجانب وفاء.

- **أما الوفاء بالنذر**: فإن الحالات السابقة قد بيَّنَت حكمه، ومن ذلك أنه إذا نذر طاعةً لله ﷻ منجزة كانت أو معلقة، فإنه يجب عليه أن يفي بذلك.
- **أما عن ابتداء النذر**: **يعني أن ينشئ الإنسان النذر**،

فما حكم ذلك؟ ثبت في الصحيحين:أن النبي ﷺ نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يرُدُّ شيئًا، وإنما يستخرج به من البخيل**»، وفي رواية قال ﷺ : «**إنه لا يأتي بخير، إنما يستخرج به من البخيل**»، وفي رواية ثالثة قال: «**إنه لا يقدم شيئًا ولا يؤخر، وإنما يستخرج به من البخيل**».

وعامة أهل العلم على أن **النذر مكروهٌ كراهة تنزيه،** وبعض أهل الحديث حكم بتحريمه، وبعضهم توقف، يعني هل هو محرمٌ أم لا، ذكر شيخ الإسلام أنه لا يعلم نزاعًا في كراهته.

ما هو الأمر المكروه في النذر؟ أهو المعلق والمنجز،أو هو المعلق فقط؟

النذر المطلق الذي ليس بمعلق، أن يقول لله عليّ أن أصوم أو أتصدق أو أصلي، فهذا ليس داخلا في النهي، إن الذي نهى عنه نبي الله ﷺ إنما هو النهي المعلق الذي يسمى نذر المجازاة.

❁ وعُلل هذا بأمور:

أولًا: أن هذا النذر قد يصاحبه اعتقادُ أن النذر سببٌ لجلب الخير أو دفع الضر، ولا شك أن هذا منفيٌ لأنه قال ﷺ أنه لا يرد شيئ، إنه لا يأتي بخير،إنه لا يقدم شيئا ولا يؤخر!

ثانيًا: فيه شوبٌ من سوء الظن بالله ﷻ، جل وعلا،ووجه ذلك أن هذا الناذر حقيقة الأمر أنه اعتقد أن الله لا يمن عليه بما يرجو إلا إذا وعد أن يتطوع لله ﷻ،

ثالثا: فيه شوبٌ من سوء الأدب مع الله ﷻ، كأن الناذر يقول: لن أطيع حتى تعطيني يا الله كذا وكذا؛ كأن الناذر لسان حاله يقول هذا الأمر.

والأمر والله أعلم،أن كلا النوعين مكروه، سواء أكان نذر مجازاة أو منجزا.

وأما المنَجَّز فإن كراهته من جهة أن الإنسان يوجب على نفسه شيئا لم يوجبه الله ﷻ عليه، ويُخشى ألا يفي بما عاهد الله عليه، وكم الذين نذروا فلم يوفوا؟ ولا شك أن هذا يعرض الإنسان لذنبٍ عظيم، والله جل وعلا يقول:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:75-77].

والترك النذر سواء كان نذر مجازاة أومنجزا،لا شك أنه هو الأسلم من الوقوع في هذه الورطة.

حالة سادسة: يذكرها الفقهاء، وفيها بحث طويل من كتب الفقه، ألا وهي:

نذر اللجج والخصومة، وسمي بذلك لأن هذا النذر سببه غالبا اللجج والخصومة، وهذا النذر يقول الفقهاء هو الذي ينشأ عن واحدٍ من أمور:

إما حمل،

وإما منع،

وإما تصديق،

وإما تكذيب؛

النوع الأول: أن يريد الناذر أن يحمل نفسه على شيء:

فيقول مثلا: إن لم أفعل كذا فإن لله عليّ أن أفعل كذا. يعني يريد أن يحمل نفسه على أن يترك أمرًا منكرا يأتيه، أو أن يفعل شيئا مطلوبا منه ،كأن يزور رحمًا له، ولكن لدنيا تشغله، فيقوم بهذا النذر،

النوع الثاني: هو أنه يريد أن يمنع نفسه من شيء، فيقول: إن فعلت كذا، فلله عليّ كذا.

النوع الثالث: التصديق، يريد أن يحمل الناس على تصديق كلامه، إن لم يكن كلامي صحيحا، فنذر عليّ أن أتصدق بكذا.

النوع الرابع: التكذيب: يريد أن يكذب الناس شيئا سمعوه، فيقول مثلا: إن كان ما يقول فلانٌ صحيحا، فنذر عليّ أن أفعل كذا وكذا.

هذا النذر فيه بحث طويلٌ عند أهل العلم، والراجح والله تعالى أعلم أن الناذر مخيرٌ بين فعل ما نذر، وبين أن يكفر كفارة يمين، والله أعلم.

النذر بكل أحواله سواءً كان مجازاة أو منجزا لا يصدر إلى عن طاعةٍ لله ﷿، فكان صرفه لغير الله شركا.

لأن من نذَر نذْر مجازاة يعتقد ان الله ﷿ قادر على أن يبلّغه ما يرجو

ونذر نذر منجزا فلا يفعل ذلك إلا على ذلٍ ورجاء ومحبة وخضوع لله سبحانه وتعالى

القاعدة :أن كل ما ثبت أنه عبادة فإن صرفه لغير الله شرك.

❁ وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:7].

هذه الآية الأولى، بيّن الله ﷻ فيها سبب نعيم أهل الجنة:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:7–8].

الطاعة الأولى التي ذكرها الله ﷻ في هذا السياق: **الوفاء بالنذر.**

فدل هذا على أن النذر عبادة لله ﷻ، فكان صرف ذلك لغيرالله شركًا

❁ ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:270].

هذه الآية كسابقتها في أن النذر عبادة، وإذا كان النذر عبادة، فإن النذر لغير الله شرك،

❁ وجه الدلالة من الآية:

أولا: من جهة قرن النذر بالنفقة أو الإنفاق، ولا شك أن الإنفاق في سبيل الله عبادة وطاعة، وبالتالي كان النذر أيضًا عبادةً وطاعة.

ثانيا: قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ ولازم ذلك المجازاة، يعني إذا كان الله ﷻ يعلم هذه الأعمال، فاللازم من هذا العلم،أنه يجازي عليه؛ فمن نذر لله ﷻ جازاه الله سبحانه من فضله، وإن نذر الإنسان لغير الله ﷻ، فإن الله ﷻ يجازيه بعدله،لأنه يكون قد أشرك مع الله ﷻ فاستحق العقوبة،

فدل هذا على أن النذر عبادة إن فُعلت لله ﷻ كانت توحيدا،وإن فُعلت لغيره كانت شركا.

والنذر لغير الله شأن المشركين، قديما وحديثا، فكان المشركون قديما ينذرون لأصنامهم، والمشركون حديثا أيضا ينذرون لآلهتهم ومعبوداتهم وأوثانهم؛

❁ وفي الصَحِيْحِ عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيْعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، ومَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلاَ يَعْصِهِ». وهذا الحديث أصلٌ في الباب:

(فليطعه) هذا الأسلوب أو هذه الصيغة تدل على وجوب الوفاء بالنذر إن كان المنذور طاعةً لله؛ وعليه فمن نذر طاعة لله فإنه واجب عليه أن يوفي بهذا النذر.

يقول الخطابي في شرحه على صحيح البخاري عن باب النذر: إنه بابٌ غريب في العلم، وهو أن يكون الشيء منهيا عنه، فإذا وقع، وقع واجبا، وهذا فعلا شيء غريب في مسائل الشريعة، أن ابتداء النذر منهي عنه، والوفاء به واجب.

النبي ﷺ أوجب في هذا الحديث على من نَذَرَ طاعة لله ﷻ أن يوفي بها، وهذا دليلٌ على أن الله يحب هذا الفعل، لأن الأمر الشرعي في الشريعة لا يكون إلا لواجبٍ أو مستحب،

وبالتالي حذارِ يا أيها المسلم ويا أيتها المسلمة، حذارِ من النذر، فكم من الناس من نذروا فلم يوفوا، ما الذي ألجأك إلى هذا الأمر الضيق، لمَ؟ لمَ تُلزم نفسك شيئا ما ألزمك الله ﷻ به؟ والحديث واضح وصريح: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»، ليس هناك حل، متى كنت قادرا على فعل الذي نذرته، أما مع العجز، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها،

قال: «**ومن نذر أن يعصيَ الله فلا يعصه**»، فالنذر أولا للمعصية محرم، والوفاء به محرمٌ آخر؛ وبالتالي لا يجوز بالإجماع أن يفي الإنسان بالمعصية التي نذرها،

هل يُلزمُ بكفارة، أو أنه يتوب إلى الله ﷻ من هذا النذر ولا يلزمه شيء؟ في المسألة قولان عند أهل العلم، والجمهور على أنه لا يلزمه شيء إلا أن يتوب إلى الله من ذلك، لأنه قال: «**ومن نذر أن يعصيَ الله فلا يعصه**»، ولم يزِد على هذا ﷺ.

والمشهور في مذهب الإمام أحمد واختاره جماعة من السلف، أنه يلزمه مع تركه الوفاء بالنذر أن يكفر كفارة يمين،لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال:«**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**»؛

هذا الحديث صححه الطحاوي، واحتج به الإمام أحمد، وصححه أيضا غير واحدٍ ومنهم الشيخ ناصر الألباني رحمه الله.

الدرس الثامن عشر ٣٤٥- ١٣- بَابٌ مِنْ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

الاستعاذة: طلب العوذ والعياذ هما مصدران للفعل عاذ يعوذ -كما تقول صام يصوم صومًا وصيامًا- كذلك عاذ يعوذ عوذًا وعياذًا، والألف والسين والتاء على الأصل الغالب للطلب.

والعوذ والعياذ: هو الالتجاءُ والتحصن والتحرز والاعتصام.
وعليه فالاستعاذة طلب التحرز والتحصن والالتجاء.

الاستعاذة عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله ﷻ.ووجه كونها عبادة من جهتين:

أولاً: من جهة الأمر بها في كتاب الله جل وعلا وفي سنة نبيه ﷺ:
قال سبحانه: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾ إلى غير ذلك من النصوص التي فيها الأمر بالاستعاذة بالله جل وعلا،
وقد مر معنا في دروس سابقة أن الأمر الشرعي يدل على أن المأمور به عبادة.
لأن الله ﷻ لا يأمر شرعًا إلا بما يحب، وما أحبه سبحانه ورضيهُ لعباده هو العبادة،

ثانيًا: أن الاستعاذة هي طلب العوذ، والطلب هو الدعاء والاستغاثة. وبالتالي فالاستعاذة نوعٌ من أنواع الدعاء.، كذلك لأن الاستعاذة فيها طرفان: الأول، طلب وسؤال ودعاء وهو الجهة الظاهرة، وفيها جانب آخر باطن وهو لجوء القلب وركونه وطمأنينته بمن استعاذ .
وعليه فمتى ما كانت الاستعاذة عبادةً فإن صرفها لغير الله شرك، وهذا الذي أراد المؤلف رحمه الله أن ينبه في هذا الباب عليه.

من الشرك الاستعاذة بغيرِ الله تعالى:

(من) **تبعيضية**، من أنواع الشرك أن يستعيذ الإنسان بغير الله جل وعلا،
تنبه هنا أن الاستعاذة بغير الله شرك، هذا في مقام الإطلاق والإجمال والتحذير، وأما في مقام التفصيل والتحرير فإن هذا المقام فيه تفصيل، وذلك أن الاستعاذة بغير الله جل وعلا الأصل فيها أنها شركُ أكبر،

✪ **وقد تكونُ شركًا أصغر، وقد تكون جائزة.**

القسم الأول: **أما كون الاستعاذة بغير الله شركًا أكبر فذلك يكون في الأحوال الآتية:**

أولاً: أن تكونَ الاستعاذةُ الباطنةُ بغير الله؛ اقترن بها الاستعاذة الظاهرة، أو لم يقترن

ثانيًا: أن تكون الاستعاذةُ بالظاهر بميت سواءً اقترن بها التعلق القلبي أو لم يقترن،

لو اقترن بها التعلق القلبي فإن هذا ضلالٌ فوق ضلال، وشركٌ فوق شرك

وذلك لأننا قد علمنا أن الاستعاذةَ من جنس الدعاء.

الفرق بين الاستعاذة والدعاء: الاستعاذةُ تجوزُ بصفةِ الله، وأما الدعاءُ فلا يجوزُ أن يتوجه إلى الصفة إنما يتوجه إلى الموصوف.

ثالثًا: أن تكون الاستعاذة الظاهرة بغائب اقترن بها التعلق القلبي أو لم يقترن، كأن يقول إنسانٌ مخاطبًا وليًا بعيدًا عنه في بلدةٍ أخرى يقول: يا سيدي فلان أنت معاذي بك أعوذ.

رابعًا: أن تكون الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله:

لو أتى إنسان ولو إلى شخصٍ حاضر فقال له أعذني من النار، أعوذ بك من النار.

القسم الثاني: **أن تكون الاستعاذة شركاً أصغر**: وهذا يكون في حالتين:

الأولى: **أن يقع التفاتٌ قلبيٌ عند الإنسان بغيرِ الله**،يعتمد على الله ويركن بقلبه إليه ويجعل محترزة الذي يحترز به هو جنابه جل وعلا ولكن هناك شعبة من التعلق القلبي بغير الله.

الثانية:**أن يكونَ في الاستعاذةِ تسويةُ غيرِ اللهِ باللهِ في اللفظ**.كأن يقول أعوذ بالله وبك،أو أنت معاذي والله، ونحو ذلك ، فهذا من جنس قول القائل ما شاء الله وشئت.

القسم الثالث: **أن تكون الاستعاذة بغير الله جائزة.**

وضابط ذلك أن تكون الاستعاذة: **بالظاهرِ بحيٍ حاضرٍ قادرٍ**:

بالظاهر:لابالباطن، فالقلب معتمد على الله لا غير،هناك طلبٌ تلفظٌ سؤالٌ في الظاهر فقط،

بحيٍ: لا ميت

حاضر: لا غائب قادر

قادر:أن يكون شيئًا مما هو في مقدور البشرفي الجملة لا أن يكون فيما لا يقدر عليه إلا الله.

❁ **دلت أدلة من السنة على جوازها خذ منها:**

✸ **أولاً**: ما ثبت عند الإمام أحمد في المسند بسندٍ حسنٍ «**أن صفية رضي الله عنها بعثت طعامًا إلى النبي ﷺ وهو في بيت عائشة رضي الله عنها، تقول عائشة رضي الله عنها فأخذتني رِعدةٌ حتى استقلني أفكل** -يعني أصابتها رعدة واضطراب من عظيم ما نابها من الغيرة- **يقول: فضربت الطعام فانكسرت القصعة، فنظرت إلي النبي ﷺ فعرفت في وجهه الغضب، فقالت رضي الله عنها: أعوذ برسول الله أن يلعنني اليوم**».

لو تأملت وجدت عائشة رضي الله عنها استعاذت بسؤال ظاهر بحي وهو النبي ﷺ وهو حاضر عندها، كان ذلك في أمر يقدر عليه وهو ألا يلعنها وهذا أمرٌ مقدور له ﷺ ولم ينكر عليها النبي ﷺ ذلك.

✸ **ثانيًا**: ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مسعودٍ البدري رضي الله عنه: «**أنه كان يضرب غلامًا له فقال الغلام أعوذ بالله فلم يزل يضربه، ثم قال وقد أبصر النبيَّ ﷺ كما جاء مصرحًا به عند عبد الرزاق في المصنف قال أعوذ برسول الله فتوقف أبو مسعود فقال النبي ﷺ: لله أقدر عليك منك عليه**».

الشاهد أن هذا الغلام قال أعوذ برسول الله فيدل ذلك على أن الاستعاذة بالمخلوق الحي القادر أنها أمرٌ جائز، هذا الحديث إنما كان بمحضر النبي ﷺ

✸ **ثالثاً**: ما ثبت في صحيح مسلمٍ أيضًا أن المخزومية التي سرقت وجيء بها إلى النبي ﷺ، «**فعاذت بأم سلمة رضي الله عنها**»، أم سلمة مخزومية مثلها، فعاذت بها يعني لجأت إليها طلبت منها أن تشفع لها عند رسول الله ﷺ ألا يقام عليها الحد فقال النبي ﷺ: «**والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها**». الشاهد أن هذه المرأة ماذا فعلت؟! عادت بأم سلمة رضي الله عنها، فعاذت بإنسان حي حاضر قادر.

✸ **رابعًا**: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر الفتن فقال: «**ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم**» **إلى أن قال فمن وجد معاذًا أو ملجأً فليعذ به**» يعني ليتحصن وليتحرز به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:6].

هذه الآيةُ فيها بيانُ شيءٍ مما كان الجنُّ قبل إسلامهم يفعلون مما هو مضادٌ للتوحيد.

هذه الآية فيها قولان لأهل التفسير،

قول الأول: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾: يعني زاد الجِن الإنسَ رهقًا،

فالرهق ها هنا فيه قولان:

الأول: زادوهم خوفًا ورعبًا وذعرًا.

والثاني: زادوهم إثمًا، ووجه ذلك أنه كان أهل الجاهلية من المشركين، يستعيذون من الجِن، فكان أحدهم إذا نزل في سفر بمكان قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

فلما رأى الجِن أن الإنس يخافونهم، ويتوجسون منهم، زادوهم خوفًا ورعبًا، وهذا عقوبة يُعاقبهم الله ﷻ بها على شِركهم، سَّلط هؤلاء الجِن على هؤلاء المشركين، فزادوهم خوفًا.

أو أنهم ازدادوا، زُيِّن لهم فعلهم، فازدادوا وأوغلوا في الشِرك، فازدادوا إثمًا.

والقول الثاني: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي زاد الإنسَ الجِنَّ رهقًا، والآية تحتمل المعنيين.

ومعنى رهقًا هنا: يعني طغيانًا وتعاليًا، وذلك أنهم رأوا أن الإنس يخافونهم، ويرتعدون منهم، فزادهم هذا عُتوًا، وتجبرًا، وطغيانًا.

الشاهد أن هذه الآية دلتنا على أنَّ من فعل المشركين الاستعاذةُ بغير الله، وذلك بأنهم كانوا يستعيذون بغائب، وذلكم هو الجِن، فإن الجِن في حق الإنسان غائبون، لا يراهم، ولا يدركهم الإنسان، وبالتالي فإن الاستعاذة بهم شركٌ بالله جلَّ وعلا

ومن هذا ما يفعله بعض الذين قلَّ حظهم من الإيمان والتوحيد،في هذا الزمان، فإنهم يستعيذون بالجن كثيرًا، يخافونهم إذا ساروا في الليل، أو نزلوا مكانًا قفرًا، أو حلُّوا بمنزلٍ جديد.

قاعدة: هي أن حصول المقصود، لا يدل على الجواز ولا المشروعية،

فقد يحصل الأمر من الشيء الذي يطلبه الإنسان بقدرالله وبقضائه ﷻ وإن كان السبب محذورًا، بل هذا من الفتنة التي يُعاقب الله ﷻ بها من تعلقت قلوبهم بغير الله ﷻ،

استمتاع الجِني بالإنس والعكس،

- **استمتاع الجنيّ بالإنسيّ،** هو أنه يحصل له تعظيم، وطلب وسؤال وتفخيم من شأنه من قِبل الإنسيّ، وهذا يستمتع به الجنيّ،
- **والعكس صحيح، يستمتع الإنسيّ بالجنيّ.** فالجِنيُّ قد يلبي للإنسي شيئًا من حاجته، وقد حقق له شيئًا من مطلوبه، ولكن هذا وذاك لا يدل على أنَّ هذا الأمرَ مشروع، فعلى الإنسان أن يتنبه لهذا الأمر.

وعند خولة بنت حكيمٍ رضي الله عنها قالت: سِمعت رسول الله ﷺ يقول:«مَنْ نَزلَ مَنزِلاً ثُمَّ قال: أَعُوذُ بِكَلِمات اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حتَّى يَرْحَلَ مِنْ منزِلِهِ ذلكَ» رواه مُسلم.

(من نزل منزلًا): يعني حلَّ بمكان، أي منزلٍ كان،

هذا الحديث يدل بعمومه على: أنه إن نزل في مكانٍ في الحضر، أو نزل في مكانٍ في السفر وإذا قال: **أَعُوذُ بِكَلِمات اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ،** فإنه لا يضره شيء بإذن الله الكوني، حتى يقوم من هذا المكان.

لكن لابد أن يجتمع، ويتواطأ القلب مع اللسان عند هذا الذكر، أما أن يقول الإنسان ذلك بلسانه وقلبه غافل، أو قلبه غير مستيقن، فلا شك أنه لا يحصل له المقصود.

وهذا الذِكر جاء أيضًا عن النبي ﷺ في أذكار المساء.كما جاء في صحيح، كما جاء فيه أيضًا، أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ أخبره أنَّه ما نام ليلته، وذلك أن عقربًا لدغته، فقال له النبي ﷺ: «**أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّكَ شَيء**» يعني لم يضره شيءٌ من أذى هذه العقارب، والحيات وأمثالها.

وجاء عند أحمد وغيره بإسناد صحيح قال ﷺ«**مَن قَالَ حِينَ يُمسِي، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يُصِيبْهُ حُمَّة إلى أن يُصبح**» يعني لم يُصبه شيء من ذوات السموم. فيقولها الإنسان حين يُمسي ثلاث مرات،

أما ذِكر النزول في مكان ما كما هو في هذا الحديث فإنما جاء ذكره مرةً واحدة.

الشاهد أنَّ النبي ﷺ بيَّن لنا أن الاستعاذة هاهنا إنما كانت بالله جلَّ وعلا وهذا هو التوحيد، فإذا كان ذلك كذلك، كان الاستعاذة بغير الله من شر ما خلق شِركًا بالله ﷻ.

❁ هذا الحديث فيه فوائد:

⬅ أولًا: **أن الاستعاذة بصفات الله استعاذةٌ بالله في الحقيقة،** وذلك أن هذه الصفات إنما تقوم بالله جلَّ وعلا فإذا ذُكرت في مقام الاستعاذة، كان المقصود الاستعاذة بالله جلَّ وعلا وقد يُعَبَّر بالصفة والحكم عائدٌ للذات، يعني حينما يقول الإنسان: إنني أرجو وجه الله بهذا العمل، المقصود أنك ترجوا الله جلَّ وعلا لأن الله هو الموصوف بالوجه، كذلك إذا استعذت بكلمات الله فإن الاستعاذة عادت في الحقيقة إلى الله ﷻ؛ لأن الكلمات لله ﷻ، فالله ﷻ هو الذي يتكلم، والكلام من صفاته ﷻ.

⬅ ثانيا: **أن كلمات الله تنقسم إلى قسمين:** كلمات شرعية، وكلمات كونية.

- **أما الشرعية:** فمنها وحي الله ﷻ الذي يُنزله على أنبيائه ورسله، ومنه هذا القرآن، ومنه: التوراة، والإنجيل، والزبور، إلى غير ذلك.
- **وأما كلمات الله الكونية:** فهي الكلمات التي بها سبحانه يخلق، وبها يُدبر، وبها يأمر كونًا، وبها ينهى كونًا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل:40].

ما كلمات الله في هذا الحديث التي استعاذ بها النبي ﷺ؟

الجواب: الأقرب والله أعلم أن ما استعاذ به النبي ﷺ هو كلمات الله الكونية، لأن التأثير في الكونيات راجعٌ إلى كلمات الله الكونية: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
فكل ما في هذا الكون فإنه خاضعٌ لتدبير الله ﷻ الذي يكون بكلماته الكونية، فكلمات الله الكونية هي التي لا يجاوزها ضارٌ ولا فاجر، فهذا هو الأقرب والله تعالى أعلم.

(التامات): يعني الكاملات التي لا نقص فيهن ولا عيب بوجهٍ من الوجوه،
فكلام الله ﷻ كلامٌ كامل، لا يعتريه نقص كما يعتري كلام الآدميين.

(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ):يعني من شر كل ماخلق مما فيه شر،وذلك أن المخلوقات فيها خيرٌ وشر.

- **إلا ما كان خيرًا محضًا:** كالأنبياء، والملائكة فإنهم لا شر فيهم.

- **أما بقية الناس وبقية البشر** فإن فيهم خيرًا وشرًا، وقد يزيد الخير، وقد يزيد الشر.

التنبيه: **أن الشر ليس إلى الله جلَّ وعلا ليس إلى ذاته، وإلى صفاته، وإلى فعله ﷻ،**
فعل الله ﷻ خير محض لا شر فيه بوجه من الوجه
إنما يكون الشر في مفعوله وفي مخلوقه.

خلق الله لإبليس خير، والمخلوق الذي هو إبليس شر، بمعنى إبليس من حيث هو شر، وفيه شر، أما خلق الله ﷻ له فإن هذا خيرٌ محض، ومصلحة كاملة؛ لأنه ترتب على وجود إبليس خير، فكان فعل الله ﷻ خيرًا ومحمودًا.

فلما وُجد إبليس، وُجد أشياءٌ كثيرة مما يحبها الله جلَّ وعلا: وُجدت التوبة، وُجد الجهاد، وُجدت المجاهدة، وُجد شيءٌ كثير مما يحبه الله ﷻ، فكان إيجاد الله، وخلق الله لإبليس ماذا؟

خيرًا، وإن كان إبليس الذي هو المخلوق شرًا.

الدرس التاسع عشر-٣٦١ ١٤- بابٌ مِنْ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيْثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ (المجلس الأول)

هذا الباب باب مهم بل في غاية الأهمية، وذلك أن هذا النوع من الشرك وهو دعاء غير الله أعظم شرك للمتقدمين وأكثر شرك للمتأخرين بل قال ابن القيم رحمه الله: إنه أصل شرك العالم وصدق رحمه الله، ولذلك نجد أن الأدلة التي جاءت في النهي عن دعاء غير الله أعظم بكثير من الأدلة التي نهت عن السجود لغير الله، أو الركوع لغير الله، أو الذبح لغير الله.

هذا النوع من الشرك فيه من الخطورة والانتشار والشبه ما فيه، حيث إن من الناس من يتورع عن أن يذبح لغير الله، أو يسجد لغير الله، ولكنه لا يتورع عن أن يدعو غير الله،

(من الشرك): **من**: كما علمنا سابقًا تبعيضيه يعني من أنواع الشرك أن يستغيث لغير الله.

الاستغاثة: طلب الغوث، الألف والسين والتاء للطلب،

والغوث هو: إزالة الشدة، وبالتالي فالاستغاثة طلب إزالة الشدة،

(أو يدعو غيره):

الدعاء في اللغة هو:الطلب، وخص في العرف بطلب الأدنى من الأعلى أمر من استعلا وضده دُعا وفي التساوي التماس وقعا

والعلاقة بين الدعاء والاستغاثة: العموم والخصوص المطلق،

فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة،

كما جاء من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج:77].

الاستغاثة دعاء مخصوص: وهو الدعاء من المكروب، من كان في كرب وشدة فإن دعاءه يسمى استغاثة،

وأما الدعاء: فقد يكون من مكروب وقد يكون من غيره.

الدعاء تكاثرت الأدلة على وجوب إخلاصه لله ﷻ:﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر:14] هذا هو دَيدَنُ وهذا شأن أهل التوحيد:﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:14]

فإذا نزلت النوازل وادلهمّت الخطوب على الموحد الصاد ق في إيمانه، فإنه لا يلجأ إلا لله العظيم ﷻ:
﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]، نادى ربه ما نادى غيره، ما نادى شجرًا، ولا حجرًا، ولا وليًا، ولا نبيًا، ولا ملكًا، ولا جنيًا، نادى ربه هذا هو التوحيد، بل هذا لب التوحيد، هذا لب العبادة.

ومن توجه بهذه العبادة العظيمة التي هي أعظم العبادات وأفضلها لغير الله جل وعلا فإنه قد يكون قد وقع في الشرك العظيم، أشرك مع الله وكفر بالله،

ما القول فمن لايعد دعاء غير الله شركا؟ إذا لم يكن دعاء غير الله شركًا، فليس على وجه الأرض شرك.

الأدلة في كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ بالعشرات، من الأمر بالدعاء لله وحده، والنهي عن دعاء غيره، ووصف دعاء غيره بالضلال والشرك والكفر، خذ يا رعاك الله منها طرفًا:

➢ أولًا: **الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه شرك وكفر باللفظ الصريح الواضح.**
﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون:].

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13]. هذا وصف ينطلق على كل من سوى الله الذي له الملك الحقيقي هو الله ﷻ، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:14].

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [الرعد:14]. تخيل إنسان واقف أمام الوادي يمد يده، هل سيصل إلى الماء؟ سيشرب؟ لو جلس مائة سنة هكذا ما ينتفع ،ضلال وكفر وشرك مع عدم نفعه.﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾،
ثم قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾،صفه الله بأن هذا دعاء الكافرين لأنه دعاء غير الله مع الله.

تأمل قول الله ﷻ:﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:20]، ما المقابل بأن يدعو الله وحده؟ أن يدعو معه غيره وهذا ما وصفه الله بقوله﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:20]. إذًا هو شرك،

تأمل قول الله جل وعلا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [العنكبوت:65]، إذا ركبوا في السفينة وهاجت بهم، وأصبحوا في كرب ما هو الدين الذي يخلصه المشركون بكل وضوح يدعون الله يا الله يا الله فقط: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:65]، يشركون في الذي أخلصوه قبل قليل وهو الدعاء.

➢ **ثانيًا: الأدلة التي فيها أن الدعاء عبادة، وإذا ثبت أنه عبادة كان صرفه لغير الله شركًا.**

تأمل قول الله جل وعلا عن إبراهيم عليه السلام في سورة مريم:﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:48]، في هذه الآية ذكر للدعاء،:
ثم في الآية الثانية ماذا قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:49]، إذًا هذه الآية تفسيرها الآية التي قبلها ما هي العبادة؟ الدعاء، ما هو الدعاء العبادة، آية تفسر الأخرى،

تأمل قول الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:5]. ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:6]،
ما هي هذه العبادة؟ ما ذكر قبل قليل وهو الدعاء

ثم تلا قول الله جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:60].

أخرج الترمذي والإمام أحمد من حديث النعمان ابن بشير قال ﷺ «**الدعاء هو العبادة**»،
ليس (مخ العبادة) ،حديث أنس (مخ العبادة) فيه لهيعة وهو ضعيف،
لكن هذا أوضح وأدل: (الدعاء هو العبادة)
يعني أفضل أنواع العبادة. فسر هذا ما أخرجه الحاكم في إسناد حسن عن ابن عباس موقوف عليه،
قال: «**أفضل العبادة هو الدعاء**»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ﴾ [غافر:60] الآية،
إذًا ثبت عندنا بالدليل القطعي أن الدعاء عبادة،

✪ **قاعدة مضطردة في الشريعة: من دعا غير الله أشرك،**

➢ **ثالثًا: الأدلة التي فيها وصف الدعاء بأنه من الدين ،وأنه الدين**

وهذا وجه الدلالة فيه كوجه الدلالة السابقة ،فالدين والعبادة شيء واحد فصار صرفه لغير الله شركًا.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:65]، يعني مخلصين له الدعاء هذا الذي يخلصونه في السفينة، إذًا من صرف هذا الدين لغير الله فقد أشرك.

➢ رابعًا: **الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ظلم**.وهذا هو الظلم الأكبر:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13].

﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:106]، نهي من الله: لا أحد يملك النفع والضار إلا الله جل وعلا.

(فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ) والظلم ها هنا بدلالة الأدلة الأخرى هو الظلم الأكبر يعني الكفر

جاء في حديث ابن عباس وأعلم يا عبد الله هذا أمر مهم لأبد من أن تعلمه:قال ﷺ «**وأعلم أن الأمة لو اجتمَعَتْ على أن يَنْفَعُوك بشيء لن ينفَعُوكَ إلا بِشيءٍ قَدْ كَتبه الله لك،لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»

(اعلم إن الأمة) لو اجتمعوا على أن يوصلوا لك شيء من النفع لا يستطعون إلا إذا جعلهم الله مجرد سبب،و واسطة، فقط لإيصال النفع إليك، لكن النفع في الحقيقة يملكه الله ﷻ

➢ خامسا: **الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه شطط**، مبالغة في الضلال والبطلان والكذب.

قال مسلم الجن ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:14]، : أي قولًا بالغًا في الكذب والبطلان هذا الدعاء لغير الله باطلًا أشد البطلان، وكذبًا أشد الكذب.

➢ سادسًا: **الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ضلال.**

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ﴾ [الحج:12]، انظر حكم الله العليم الحكيم الخبير ﷻ:

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ﴾، فقط الضلال؟ لا، بل و: ﴿الْبَعِيدُ﴾ أيضًا، ليس ضلالًا هينًا ولا ضلالًا كبيرًا ولا ضلالًا يسيرًا، إنما والله هو ضلال بعيد، فجور عظيم،

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:5]، **الجواب**: لا أحد، هذا أضل الضالين، وأظلم الظالمين،من هذا الإنسان الذي يدع دعاء الله وحده ويلجأ إلى غيره، ويستغيث بسواه، ويستجير باسم من عداه.

➢ **سابعًا: الأدلة التي فيها التوعد بالهلاك والعذاب لمن دعا غير الله.**

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:213]، حذار الله يتوعدك بالعذاب، قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون:117]، هل هناك وعيد أشد من هذا الوعيد حينما يقول الله العليم سبحانه يقول: هذا حسابه عندي، إذًا يا ويله، ويا خسارته ويا خيبته،

قال النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار»

➢ **ثامنًا: الأدلة التي فيها الأمر بدعاء الله وحده.**

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: هذا أمر من الله قال النبي ﷺ «**إذا سألت فاسأل الله** وإذا استَعَنْتَ فَأستَعِن بالله »،.

(اسأل) **فعل أمر**، إذا يجب عليك أردت السؤال أن تتوجه بالسؤال لله وحده،

➢ **تاسعًا**: الأدلة التي فيها النهي عن دعاء غير الله.

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء:213]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:18]، (**أحدًا**) نكرة في سياق النهي، والقاعدة عند الأصوليين أن النكرة في سياق النهي تعم، وبالتالي كلمة (أحد) ها هنا المنفية لا يستثنى منها أحد شامل لكل الأفراد.

➢ **عاشرًا: الأدلة التي فيها إثبات أن الله ﷻ هو الجدير وهو الحقيق بالدعاء**، لأنه وحده هو الذي يملك إجابة الدعاء

قال تعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ﴾ [النمل:62]، دعاء غيره لا فائدة منه لأنه لا يملك الإجابة هو مملوك نفسه، هو بحاجة إلى أن يتولاه الله ﷻ فكيف يجيبك ويكشف عنك السوء؟ قال ﷻ:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:186]، إني هو الله لا غيره،﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

ما حال من استدل بدليل يخالف الأصل في توحيد الدعاء.؟ لا يخلو أن يكون أحد أمرين:

- **إما دليل غير صحيح،** مستحيل أن يوجد شيء يخالف هذا الأصل يخرج عن هذين إما دليل غير صحيح يأتيك فيقول: لا بأس ادعُ ليرى الله لأن النبي ﷺ يقول: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»، هكذا يقولون وهذا الكلام **مكذوب مفترى** على رسول الله ﷺ، قبح الله من أفترى، والله ما قاله النبي ﷺ ولا يوجد في شيء من كتب الحديث،
- **أو تجد استدلالًا غير صحيح** يأتي يقول: كيف تنكر دعاء غير الله، والله جل وعلا يقول: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:15]

عجيب شأن الهوى في الناس تترك أكثر من عشرات الأدلة ويستمسك بشبهة الاستدلال: هذه الآية فيها طلب من حي حاضرٍ قادر، وليس هذا ما نبحث فيه هذا استدلال في غير محل النزاع، نحن نتحدث عن أولئك الذين يدعون الأموات، الذين يهتفون باسم الغائبين الذين يطلبون من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، أين هذا من قوله: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:15].

أن مشركين زماننا أغلظ شركًا من شرك الأولون، الأولون إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس:22]، أما هؤلاء إذا نزلت النوازل ما يعرفون الله يخلصون إن صحت العبارة الشرك، يخلصون الشرك يعني لا يقولون إلا الشرك.

أحد العلماء لما كان مع بعض الناس في سفينة فهاجت بهم فصاروا يصيحون أدعو غير الله، يا عمود الدين يا عمود الدين فلما قال لهم: ادعوا الله هموا به حتى كادوا أن يلقوه من السفينة، كيف تقول لا ندعو إلا الله؟ انظر إلى تعظيمهم ألهتهم أكثر من تعظيم الله ﷻ

الدرس العشرون – ٣٧٠ ١٤– بَابٌ مِنْ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيْثَ بِغَيْرَ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ (المجلس الثاني)

تبين لنا في الدرس الماضي أن الشرك في الدعاء يكون في ثلاث صور وهي:

أن يدعو ميتًا. أو يدعو حيًا غائبًا. أو يدعو حيًا حاضرًا فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والشرك في الدعاء هو أعظم أنواع الشرك ،لأنه يشتمل على أنواع الشرك الثلاثة:

أولا: هو أن التوجه بالدعاء في هذه الحالات الثلاث فيه صرف لب العبادة لغير الله، وهو الدعاء، وقد تبين لنا بالدليل القطعي أنه عبادة، وهذا ينبهك إلى

أن الشرك بالله في الدعاء هو حقًا شركٌ به في الألوهية.

وأمرٌ ثانٍ: وهو أن الدعاء فيه اعتقاد الداعي أن المدعو عنده سلطان غيبي، وعنده قدرةٌ فوق قدرة المخلوقين، وأنه يستطيع أن يوصل النفع، أو يدفع الضر لمن يريد دون أن يكون ذلك بالأسباب المعهودة عند البشر، وهذا ما لا يكون إلا من الله سُبحانه وتعالى،

فعاد الشرك في الدعاء إلى الشرك في الربوبية أيضًا.

أمرًا ثالثًا: يتعلق بالصورة الأولى والثانية، وهي أن الداعي اعتقد أن عند المدعو سمعًا عامًا، وعلمًا شاملًا وإلا لما دعاه من مكانٍ، فهذا الشرك في الدعاء يتضمن

الشرك في باب الأسماء والصفات،

وقول الله تعالى﴿وَلاتَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[يونس:107]

الآية تدل على أن دعاء غير الله سُبحانه وتعالى شرك به، وذلك لأن فيها التصريح بأن الله عز وجل بيده كل شيء، ويدل على هذا قوله: **﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾**[يونس:]

أن الله جل وعلا هو المتصرف بكل شيء، ولذلك دعوة غيره ضلال وسفه.

الدعاء الحق إنما هو لله سُبحانه وتعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[الرعد:14]. فدل هذا على أن من يدعو غير الله عز وجل قد أفسد دينه، وما استفاد شيئًا؛ لأنه يدعو دعاء لا يعود عليه بالنفع ،

قد تكون المخلوقات أسبابًا يسخرها الله في جلب الخير أو دفع الضر أو العكس،
لكن ذلك يدل على أن هؤلاء إنما هم أسباب لا غير،وأن الأمر من الله ﷻ وحده.

❁ وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾[العنكبوت: 17].

(فَابْتَغُوا) فعل أمر،

والابتغاء: يعني أن يُلجأ ويُرجى ويُطلب الرزق،

(فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ): قد قدم هاهنا الظرف، وتقديم الظرف وحقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص

كأنه قال: **فابتغوا الرزق عند الله لا عند غيره،**

فالله جل وعلا هو الذي ينبغي أن يتوجه إليه، وأن يُسأل، وأن يطلب وحده لا شريك له:

(الرِّزْقَ) و**(أل)** ها هنا لما دخلت على هذه الكلمة المفردة، وهي لغير العهد أفادت العموم.

فالرزق لا يجوز أن يطلب إلا من عند الله جل وعلا، لأن الله سبحانه هو الذي بيده الرزق،

ومن الذي يرزق غير الله؟ ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[النمل:64]،

هذا استفهامٌ إنكاري يفيد إنكار اعتقاد أن يكون الرزق عند غير الله ﷻ:

وإذا كان ذلك في شأن الرزق، فهو في غيره أيضًا يعني أن لا يُطلب الدعاء إلا من الله ﷻ في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة،

(وَاعْبُدُوهُ): عطف العبادة على الابتغاء الذي يتضمن الدعاء -من باب عطف العام على الخاص،

فإن الابتغاء والدعاء فردٌ من أفراد العبادة، فيكون من باب عطف العام على الخاص، وبالتالي لا ينبغي أن يستشكل كون الله جل وعلا ذكر العبادة بعد ابتغاء الرزق.

❁ وقوله:﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾ [الآيتين].

هذه الآية من أعظم الآيات في الدلالة على أن دعاء غير الله سبحانه شرك، وأنه أمرٌ محرم منهي عنه،

وأن الدعاء من حيث هو عبادة، ويدل على هذا وجوه في الآية:

➢ **أولًا**: فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

والاستفهام: ها هنا استفهامٌ إنكاري، وذلك أدل على النفي، من النفي المجرد، فإن النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري مشوبٌ بنوعٍ من التحدي، من ذا الذي يجرُؤ على أن يقول إن هناك أضل ممن يدعو غير الله.

➢ **ثانيا**: (وَمَنْ أَضَلُّ)، هذا دل على أن دعاء غير الله ضلال عظيم بل لا أضل ممن يدعو غير الله:

➢ **ثالثا**: في قوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فيه رد على القبوريين الذين يزعمون أن شرك الدعاء إنما هو ما توجه به صاحبه للأصنام لا بالأنبياء والصالحين.**والرد من وجوه.**

🡄 **أولا**: الذين بعث فيهم النبي ﷺ منهم من كان يعبد شجرًا، ومنهم من كان يعبد حجرًا، ومنهم من كان يعبد جنًا، ومنهم من كان يعبد نبيًا، ومنهم من كان يعبد صالحين .

🡄 **وثانيًا**: أنه قال ها هنا: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

و(من) كما يقرر النحاة إنما تستعمل فيمن يعقل، أو في العاقل،والأسلم أن تقول:فيمن يعلم، وبالتالي الأصنام لا يُقال في حقهم (من)، إنما يقال في حقهم (ما)، لكنه قال ها هنا (من)

قرينة أخرى، جعل الأمر ملغيا إلى يوم القيامة حيث يبعث الناس يوم القيامة. و هذا يشير إلى أن هذه الآية إنما تعلقت بمن كان حيًا في الدنيا، لكنه توفي ومات فهي في شأن دعاء الأموات من الأنبياء والأولياء والصالحين

ثم قال: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾

هذه الكلمة (غافلون) إنما تناسب أن تقال في حق الناس والبشر، لا في حق الجمادات،

ثم يوم القيامة يكون شأن، قال: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾

أولًا: قوله (بِعِبَادَتِهِمْ) **يدلك على أن الدعاء عبادة،**

ثانيا: قوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ هذا يدلك على أن الدعاء في هذه الآية إنما تعلق بالأولياء والصالحين؛ لأنهم هم الذين يتأتى منهم أن يكفروا بعبادة من دعاهم .

- **ودل هذا على أن** المدعوين سوف يكفرون بهذه العبادة، ويبرؤون إلى الله منها يوم القيامة،
- **قولٌ ثانٍ في الآية:** أن هؤلاء الداعين سوف يبرؤون من عبادتهم يوم القيامة،

وهذا منهم كذب حيث إنهم سيقولون يوم القيامة: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۞ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:23-24].

إذن هذه الآية تفيد أن أضل الناس هم الذين يدعون غير الله، هذا أعظم درجات الضلال.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل: 62].

هذه الآية العظيمة من أحسن الآيات وأعظمها في بيات التوحيد،

ونقض ضده:﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:59

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾

(أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ) **(إله)**:هاهنا نكرة في سياق الاستفهام الاستنكاري، فتعم **لا إله مع الله البتة** ،

جعل كونه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء في السياق نفسه الذي بين فيه أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنه هو الذي ينزل من السماء ماء، وأنه هو الذي يجعل الأرض قرارا ويجعل خلالها أنهارًا إلى آخره، إذن هذا يدل على أن كل ما ذكر من هذا السياق هو من ماذا من خصائص الربوبية.

ومن اعتقد أن غير الله جل وعلا يكشف السوء، ويجيب المضطر إذا دعاه على أي حال

لا شك أن من اعتقد ذلك فقد أشرك في الربوبية كما أن من دعا غير الله ﷻ فقد أشرك في الألوهية.

وهذا دليلٌ بين كما أسلفت على أن الشرك في الدعاء أعظم أنواع الشرك .

ولذلك ذكر هذا الاستفهام التقريري: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ثم يعود عليهم بهذا الاستفهام ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، فهذا يدلك على أنهم كانوا يعتقدون أن الذي يكشف السوء هو الله، ولذا كانوا يوحدون في الدعاء عند **الشدائد** ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ بخالف المتأخرين

ﷺ وَرَوَى الطبراني بإسناده: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِي ﷺ منافقٌ يُؤْذِي الْمُؤمِنِينَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ:قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيْثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذا الْمُنَافِقْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لاَ يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّما يُسْتَغَاثُ باللهِ ﷻ».

هذا الحديث ضعيف، فإنه يدور على ابن لهيعة وهو ضعيف كما أن في بعض أسانيده جهالة

وإيراد المؤلف لهذا الحديث على سبيل الاستشهاد والاعتضاد ما لا يصلح للاعتماد،

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نص على أن العلماء يوردون ما يصلح للاستشهاد والاعتضاد لا ما يصلح للاعتماد

هذا الحديث ضعفه يسير، ابن لهيعة ليس بشديد الضعف،بل كان من أهل العلم، بل كان قاضيًا، لكن حصل له اختلاط، فمثل هذه الرواية التي يرويها لا شك أنها تؤيد وتعضد ما قامت عليه الأدلة الراسخة في الدلالة على أن دعاء غير الله ﷻ شرك، ولعل حرص المؤلف على إيراد هذا الحديث لأن فيه ذكر كلمةٍ عزيزة في الأدلة وهي: الاستغاثة، وفيها فوائد أيضًا. وهذا الحديث أورده المؤلف رحمه الله بعد أن أورد أدلة صريحة، والأدلة سوى ما ذكر كثيرة جدًا في الكتاب والسنة،

وعلى كل حال كما ذكرت في الدرس الأول أن أحاديث هذا الكتاب أحاديث جياد صحاح إلا أحاديث معدودة نزه المؤلف رحمه الله كتابه عن حديثٍ موضوع أو متفق على ضعفه.

الشاهد أن هذا الحديث إن صح فيه أن بعض أصحاب النبي ﷺ وجاء في بعض الروايات أن القائل هو أبو بكر رضي الله عنه قال: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ، وذلك في شأن منافق كان يؤذي المؤمنين جاء في رواية ابن أبي حاتم في تفسيره أنه عبد الله بن أبي المنافق فلما ذهبوا إلى النبي ﷺ النبي ﷺ قال لهم: **«إنه لا يستغاث بي إنما يُستغاث بالله»** فأرشدهم النبي ﷺ إلى ترك الاستغاثة بالنبي ﷺ يعني به، وأرشدهم إلى الاستغاثة بالله سبحانه وتعالى.

وهذا الكلام منه ﷺ فيه توجيهان عند أهل العلم،

✸ **الوجه الأول**: المؤلف رحمه الله وكبار شراح كتاب التوحيد على أن قوله ﷺ: **«إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله»** كان منه ﷺ على سبيل الإرشاد إلى الأكمل، وإلى تحقيق مقام الأدب مع الله، وإلى سد ذريعة الشرك بالله، وإلا فطلبهم إنما كان بشيءٍ يقدر عليه النبي ﷺ، فهو حيٌّ قادر على أن يدفع أذى هذا المنافق بقتلٍ أو تعذيرٍ أو تأديب، فمع كونه قادرًا على ذلك لكنه أرشدهم إلى الأكمل والأفضل والقول المحقق لمقام الأدب مع الله، وهو أنهم يستغيثون بالله جل وعلا يجعلون كل رغبتهم إلى الله: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم:32].

وبناء على هذا يتضح لنا وجه الجمع بين هذا الحديث إن صح مع قول الله جل وعلا:

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:15]، و

كذلك ما ثبت في الصحيح من استغاثة الناس يوم القيامة بالأنبياء آدم فنوح إلى آخره فتلك النصوص تدل على أنه يجوز الاستغاثة بالحي القادر، وأن ترك ذلك أكمل كما يفيده هذا الحديث إن صح.

✸ **الوجه الثاني**: في توجيه الحديث وهو ما نحى إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أنهم استغاثوا بالنبي ﷺ في شيءٍ لم يكن النبي ﷺ قادرًا على أن يجيبهم إليه، فبالتالي وجههم إلى أن يستغيثوا بالله جل وعلا، نبههم إلى أن لا يستغيثوا به، إنما يجعلوا استغاثتهم بالله سبحانه وتعالى.

وذلك إما لكونه كان مأمورًا أن يأخذ المنافقين بالظاهر، ولم يتبين له خلاف ذلك، أو خشية من وقوع المفسدة: **«لا يتحدث أن محمدًا يقتل أصحابه»**، أو غير ذلك، وبناء على هذا فنهيهم عن الاستغاثة به ﷺ فيه يعني جارٍ على القاعدة التي سلفت أن الاستغاثة إنما يجب أن تكون بالله سبحانه وتعالى لا بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى،

١٥-باب

قوله تعالى:﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الأعراف:191-192

هذا الباب وما بعده فيهما دلالة شرعية عقلية على حسن التوحيد وقبح الشرك، وبيان بطلان عبادة الأولياء والأنبياء.

والأدلة على التوحيد وتحريم الشرك تنقسم إلى: أدلة شرعية، وأدلة شرعية عقلية.

ومن المهم لطالب العلم في مقام الدعوة إلى الله جل وعلا وبيان حقيقته، والتحذير من ضده، أن ينوع في الأدلة فيسوق ألوانًا وأنواعًا من الاستدلالات لعل الله جل وعلا أن يجعل هذا سببًا في هداية من شاء الله هدايته.

الأدلة الشرعية العقلية كثيرة تضمنها كتاب الله وسنه رسوله ﷺ

- **الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية** بما أنه الرب إذًا هو الإله،
- **الاستدلال بكمال الله ﷻ في أسماءه وصفاته:**إذًا هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.
- **ضرب الأمثال:** وهي أعني الأمثال- أقيسة عقلية تهدي الناظر فيها إلى الحق.
- **الاستدلال بنقص معبودات المشركين** وأنها لا تملك لنفسها فضلًا عن غيرها نفعًا ولا ضرًا.

وهذا ما أراده المؤلف رحمه الله التنبيه عليه في هذا الباب:

أن كل ما يعبد من دون الله جل وعلا فإنه عاجز ناقص فلأي شيء يعبد:

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ [النحل:17]، **﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾** [المائدة:75]، كانا يأكلان الطعام،فهما محتجان والمحتاج لا يكون إلهًا ولا يكون ربًا.

ومن ذلك قول الله جل وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:73].

❁ قوله تعالى﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الآية.

كل من سوى الله جل وعلا تجده متصفًا بهذه الصفات الأربعة،لهذا لا يستحق أن يعبد:

❁ الوصف الأول: **لا يخلقون شيئًا**: قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾
لو اجتمع كل من في الأرض لا يستطيعون أن يخلقوا شيئًا ولو كان حقيرًا ولو كان ذبابة، إذًا من لا يخلق لا يستحقُ أن يعبد،

قال الله ﷻ **أولًا**:**(يخلق)**: كأن الضمير في يخلق روعي فيه لفظ **(ما)**.
وقال ثانيًا: **(يخلقون)**: وفي يخلقون، روعي فيه معنى **(ما)**.
ف(ما) ها هنا هي الموصولة فتعم كلَ من ينطبق عليه الوصف المذكور بعدها:

❁ الوصف الثاني: **هم يُخلقون**: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لا شك أن معناها يدل على أفراد كثيرين فناسبَ أن يقال: (يخلقون).

❁ الوصف الثاث: **لايستطيعون نصرا لعبادهم**، ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾:
هؤلاء الذين يعبدون غير الله لا شك أنهم يطلبون تحصيل نفع ودفع ضر وإلا فما الفائدة من عبادتهم والله جل وعلا بين ها هنا أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا.

بل ربما قال قائل: أنهم قادرون على النصر لكنهم لا يريدون: فبين الله جل وعلا أنهم عاجزون أصلًا فاقدون للقدرة أصلًا على أن ينصروا عابديهم ولا يستطيعون لهم نصرًا.

❁ الصفة الرابعة: **لا ينصرون أنفسهم**: فهي أدلُّ على عجزهم وضعفهم بل حتى هذه المعبودات لا تدفع عن نفسها شيئًا ولا تنصر نفسها فضلًا عن أن تنصر غيرها.

النبي ﷺ لما كان يوم بدر رفع يديه وصار يدعو دعاءً عظيمًا وقال: «**اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض**» حينها انزل الله ﷻ:
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:9].

النبي ﷺ وهو سيد الأنبياء بل سيد ولد آدم ومعه سادات الأولياء الذين هم أصحاب النبي ﷺ، لما احتاجوا النصر سألوا من يملكه وهو الله ﷻ، فكيف بمن سوى رسول الله ﷺ، إذًا هذا دليل بين على أن عبادة غير الله عبادة باطلة في **العقل** كما أنها باطلة في **الشرع**.

الآية فيه رد على عباد القبور: قول الله ﷻ: (أيشركون) والآية تتناول

أوليًا: **كفار قريش والله جل وعلا وصفهم بالشرك** وهذا دليل على أن الشرك ليس محصورًا ولا مقصورًا على الشرك في **الربوبية**، لأن كافر قريش كانوا يعتقدون أن المؤثر في الكون هو الله وإذا قيل لهم: ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون: الله، ومع ذلك وصفهم الله ﷻ بالشرك.

ثانيًا: **الآية تفيد أن كل ما سوى الله جل وعلا فعبادته باطلة** وليس الأمر محصورًا على الأصنام، والأشجار، والأحجار، لأن (ما) هي الموصولة التي تفيد العموم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13] الآية.

القطمير: القشرة أو اللفافة التي تُغلِّفُ النواة –نواة التمر–

هذه اللفافة من أحقر ما يكون لا قيمة لها، وهذا وصف ينطبق على كل ما سوى الله،كل من عُبِدَ ما سوى الله ﷻ، فإنه لا يملك شيئًا في الحقيقة وبالتالي فإنه لا يستحق أن يعبد.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾

المالك الحقيقي هو الذي يحكم في هذا المال بحكمه الشرعي والقدري وهو الله ﷻ، فما عند الإنسان من أموال هو فيها محكوم بأمر الله الشرعي لا يجوز له أن يتصرف إلا في حدود ما أمر الله به شرعًا، ولا في يجوز له أن يتصرف في هذا الماء كيفما شاء، وهو محكوم في هذا المال بأمر الله القدري، فالله جل وعلا إن شاء أن يسلبه منه في لحظة فعل ﷻ.

إذًا ما أحرى كل مخلوق أن يعبد الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي له المِلك كله، والذي له المُلك كله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾

ولهؤلاء الذين يدعون مع الله جل وعلا فاقدون في هذا السياق لثلاثة أمور:

- **أولًا:** أنهم ما يملكون من قطمير.

- **وثانيًا:** أنهم لا يسمعون (إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم) لأنهم بين:

أموات هم في شغل في نعيم أو هلاك،

أو هم ملائكة مشغولون بطاعة الله ﷻ.

- **ثالثا:** أنهم غير قادرين على الإجابة لأنهم على فرض أن سمعوا لا يجيبون: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:14]،

وفي الصحيح عَن أَنسٍ قال: شُجَّ النبيُ ﷺ يَوْمَ أَحدٍ وكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتَهُ، فَقَال: كَيْفَ يُفْلِحَ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:128].

النبي ﷺ يوم أحد أصابه والمسلمون أمر عظيم، حتى أنه ﷺ شجت جبهته، يعني جُرح ﷺ في جبهته، ونزل الدم على وجهه ﷺ، فكان يمسحه بيده،وكسرت رباعيته السفلى، بحيث أنه ذهب منها جزء وليس أنها قلعت بالكلي

الرباعية: للإنسان، ثنيتان في الأعلى وفي الأسفل، واللذان في جانب الثنيتين ،هما الرباعية وجمعها رباعيات،

وهذا الأمر العظيم والمصاب الجلل الذي نزل بالنبي ﷺ يفيد منه المسلم فوائد عدة:

- **أولًا:** أن يعلم عظيم ما تحمله النبي ﷺ من مشاق في سبيل الدعوة إلى الله ﷻ وإبلاغ دين الله إلى الناس، فيزداد المسلم محبًا لنبي الله ﷺ.

- **ثانيًا:** اليقين بأن دين الله جل وعلا يحتاج إلى أن يتحمل المصاب في سبيل إبلاغه إلى الناس

- **ثالثا:** وهو: تحقيق التوحيد. أن يعلم المسلم أن النبي ﷺ عبد لله جل وعلا وليس معبودًا، لو كان النبي ﷺ ربًا لما أصابه ما أصابه ما كسرت رباعيته ولا شج وجهه ولا سال دمه.

«**كيف يفلح قومًا أدموا نبيهم**» كان النبي ﷺ لحقه شيء من عدم رجاء إيمانهم واليأس من إسلامهم، فقال هذا القول فأنزل الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:128].

لاحظ أن السياق نفيٌ وفيه نكرة (**شيء**) والنكرة في سياق النفي تعم، إذًا ليس للنبي ﷺ شيء إنما هو رسول واجبه الدعوة إلى الله، أما ما عدا ذلك فالأمر كله لله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ليس لك الهداية والإضلال، ليس لك شيء من الأمر شيء مطلقًا **حتى الشفاعة** لا يملكها النبي ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ الشفاعة إنما هي لله ﷻ لا لغيره.

اللام ها **هنا** (**لك**): **لام الملك** ، فالنبي ﷺ لا يملك شيئًا إنما الأمر كله لله جل وعلا.

الرد على حال كثير من الناس الذين تعلقوا بالأولياء والأنبياء:

إذا كان النبي ﷺ وهو أعظم الناس قدرًا وجاهًا، ومنزلة عند الله ومع ذلك الله يقول له: ليس لك من الأمر شيء فكيف بمن عداه! أمره الله أن يقول، النبي ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾[الجن:21]، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[الجن:22].

وليس من علوم النبي ﷺ علم اللوح والقلم: النبي ﷺ يقول في الآية ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الأعراف:188].

ولو كان يعلم الغيب لما دعا على هؤلاء ،على إناث من كفار قريش بأسمائهم الله اللعن فلانًا وفلانًا مع أنهم أسلموا بعد ذلك، ولو كان النبي ﷺ يعلم أنهم سيسلمون ما دعا عليهم.

حينما قال النبي ﷺ قل إني لا أملك لكم نفعًا ولا ضرًا، أكان صادقًا وهو كذلك ﷺ أم لا،

فإن قال: لا، لم يكن صادقًا فقد كذبه فقد كفر بالله جل وعلا،

وإن قال: كان صادقا إذًا لم تعبدهم؟ أليس هذا إلا السفه وليس إلا الضلال المبين.

۞ وَفيهِ عَن ابنِ عمرٍ رضي الله عنهما أَنهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول:إذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ فِي الرَّكعةِ الأَخيرةِ مِن الفجرِ: (اللَّهُمَّ الْعَنْ فلاناً وفلاناً) بَعْدَما يَقُولُ: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهْ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ) فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، وفي رواية: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾

النبي ﷺ دعا بعد رفعه من الركوع -وهذا يسمى قنوت النوازل- دعا على رهط من كفار قريش كانوا رءوس القوم يوم أحد وهم ثلاثة، (صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام) ولهم رابع أيضًا وهو أبو سفيان، وكلهم قد أسلموا بعد ذلك وحسُن إسلامهم.

وهذا سبب ثان لنزول الآية التي سبق الكلام فيها. والصحيح أنه يجوز تعدد أسباب النزول فتكون الآية قد نزلت لهذين السببين، والحادثة في الجملة حادثة واحدة،

❁ في هذا الحديث فوائد:

أولًا: أن النبي ﷺ والمسلمون معه **كانوا يلجئون إلى الله جل وعلا** في شأن دفع أذى المشركين ولو كان النبي ﷺ بيده كل شيء، وكان قادرًا على كل شيء **كما يزعم القبوريون** لما كان له حاجة بهذا القنوط لكان قام على هؤلاء المشركين بقدرته الخارقة النافذة وانتهى الأمر، لكنه كان محتاجًا إلى الله جل وعلا وكان مفتقرًا إلى الله، ولذلك لجأ إلى الله.

وفائدة ثانية: وهي أن النبي ﷺ **ما كان يعلم الغيب**، وبالتالي دعا على هؤلاء القوم بأن يلعنهم الله والذي سبق في علم الله جل وعلا أن هؤلاء سيسلمون وسيحصل إسلامهم.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:214]، **فقال: «يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ -أو كلمةً نَحْوَها- اشْتَرَوا أَنْفُسَكُم، لَا أُغْني عَنْكُم مِن اللهِ شَيْئاً، يا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ المُطلبِ لا أُغني عَنكَ مِن اللهِ شَيئاً، يا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ الله ﷺ لا أُغني عَنكِ مِن الله شيئاً، ويا فاطمةُ بِنتِ مُحَمَّدٍ سَلِيني مِن مالِي ما شِئْتِ لا أُغني عَنْكِ مِن اللهِ شيئاً».**

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد أعلى الصفا ولاحظ أن الاستجابة كانت سريعة من النبي ﷺ ما تردد ولا تلكأ،

وإنذار العشيرة الأقربين من الحكمة في الدعوة، فإن دعوة الأقربين واستجابتهم فيها قوة للدعوة، فإن الأبعدين إذا رأوا أن الأقربين قد أسلموا اطمئنوا وأقبلوا.

قاعدة الشريعة:أولى الناس ببر الإنسان وخيره هم الأدنى فالأدنى، وأيُّ خير وبر أعظم من السعي في الهداية والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى،

قام النبي ﷺ على الصفا، وقال : «**يا معشر قريش**»، **معشر**: يعني جماعة،يا جماعة قريش

ينادي قبيلته ينادي جماعته ﷺ، « **اشتروا أنفسكم**» يعني بالتوحيد فإنه ثمن النجاة،
وجاء في رواية «**أنقذوا أنفسكم من النار**» وهذا لا يكون بتوحيد الله، وإتباع رسوله ﷺ،

ثم إن النبي ﷺ خصص فنادى العباس، «**اشتر نفسك يا عباس أنقذ نفسك من عذاب الله، فإني وأنا رسول الله لا أملك لك من الله شيئا**»،
ولاحظ أيضًا هذه النكرة في سياق النفي، لا يملك شيئًا البتة، وهوالصادق المصدوق ﷺ.

ثم خاطب عمته صفية التي هي أم الزبير ابن العوام، ثم خاطب فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها، الحبيبة القريبة إليه التي هي بضعة منه ﷺ، يخاطبها بهذا الخطاب اشتري نفسكِ لا أغني عنكِ من الله شيئًا، سليني من مالي ما شئت، المال يمكن أن يقدمه النبي ﷺ لها أو لغيرها لكن الذي لله لا يستطيع النبي ﷺ أن يفعل فيه شيئًا،

وهذا فيه دليل على أن سؤال الحي الحاضر القادر جائز وليس من الشرك وأن هذه حالة مستثناه،
الأصل أن السؤال والطلب لا يكون إلا لله ، لكن من رحمة الله أنها استثنيت هذه الحالة وكانت هذه هي صورة جائزة أن تسأل حيًا حاضرًا قادرًا،

بعض الناس يصيبهم الغرور يقول: أنا ابن أو من أحفاد الولي الفلاني، أو من آل بيت النبي ﷺ فيظن أنه بهذا قد حصل على صك يدخل به الجنة وتغفر به الذنوب،
اتق الله وإياك من هذا الغرور فهذا والله من تلبيس وتدليس الشيطان، وأعلم أن الولاية الحقيقية والقرب الحقيقي من النبي ﷺ الذي ينفعك يوم القيامة إنما هو أن تكون متبعًا له ﷺ.قال النبي ﷺ: «**ألا إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين**».
فإذا كنت ترون وتطلب أن يكون لك حظ من رسول الله ﷺ ونصيب من القرب منه في جنات النعيم فأعلم أن هذا إنما يكون بجدك واجتهادك في إتباعه ﷺ والتزام سنته لا تكون مغترًا وراكنًا إلى سبب آخر من نسب أو وجاهه أو غير ذلك.

الدرس الثاني والعشرون -٤١٥

١٦- باب قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:23]. (المجلس الأول)

المؤلف رحمه الله عقد هذا الباب ليبين بطلان عبادة الملائكة، كما تبين في الباب السابق بطلان عبادة الأولياء والأنبياء، .

وإذا ظهر بطلان عبادة الأولياء والأنبياء والملائكة فإن ظهور بطلان عبادة من سواهم أظهر، وذلك لأن الشبهة في هؤلاء أعظم، فإذا كان هؤلاء وهم الذين لهم المكانة العلية والمنزلة الرفيعة ليسوا أهلاً لأن يعبدوا مع الله جل وعلا، فبطلان عبادة غيرهم أوضح وأظهر.

على المسلم الذي رزقه ربنا سبحانه بفضله ومنته وحده، من رزقه حب الإسلام والانقياد لله بالتوحيدعليه أن يحمد الله ويسعى السعي الحثيث في الثبات على هذا التوحيد،

سل ربك دائمًا، اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم

ومن أسباب الثبات على التوحيد: الخوف من الشرك فخوفه دافع له إلى أن يتعلم والتحرز منه

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

هذه الآية وحديثان بعدها فيهما تنبيه على دليلين عقليين شرعيين هما من أحسن الأدلة وأقواها في بيان التوحيد ونقض الشرك:

الأول: **الاستدلال على هذا المقام العظيم بعظمة الله** ﷻ خضعت لعظمته كل الأشياء حتى السماوات والأرض،هذه الأجرام العظيمة،حتى الملائكة ذلك الخلق العظيم ،قال ﷺ: «**أُذن لي أن أُحدِّث عن ملكٍ من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**» فإذا كان ذلك كذلك فالله العلي الكبير هو الجدير بالعبادة وحده لا شريك له.

الثاني: **الاستدلال على قبح الشرك بنقص كل من سوى الله جل وعلا،** فإذا كان كل من سوى الله ناقصًا عاجزًا لم يستحق أن يُعبَد،

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ فهم هذا الآية يتم بمعرفة ما قبلها قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۞ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:22-23] هذه آية عظيمة من أعظم أدلة التوحيد، حتى إن المؤلف رحمه الله أشار في المسائل إلى ما ذكره أهل العلم وهو أن: **هذه الآية تقطع جذور شجرة الشرك من القلب، ولكن هذا لمن فتح الله ﷻ على قلبه ورُزِقَ حسن بصيرة يتدبر بها كلام الله.**

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هذا أمر تعجيز للمشركين وفيه إقامة الحجة عليهم، أدعوهم وانظروا في حالهم.

الأسباب الأربعة التي تُتوهَّم للوقوع في الشرك:

➢ **أولا: إما أن يكون هذا المعبود المدعو له مِلك ومُلكٌ في هذا الكون،**

فنفى الله ﷻ ذلك عن كل ما سواه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾ لا يملكون شيئًا حتى مثقال ذرة، هذا الهباء الذي يظهر في الهواء لا يملكون شيئًا البتة إنما المِلك والملك لله العظيم وحده لا شريك له

➢ **ثانيا: ربما لا يكون الواحد من هؤلاء المعبودات له ملك الاستبداد يعني ملك الاستقلال لكن ندعوه لأجل ما له من شراكة مع الله جل وعلا،**

فنفى الله ﷻ ذلك. وهذا هو الأمر المنفي الثاني: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾كل ما يُعبد من دون الله ليس لهم شركٌ ولا أي حدٍ ونصيبٍ من هذا الملكوت.

➢ **ثالثا: ربما يكون أحد هؤلاء ظهيرًا لله، معاونًا لله، وزيرًا لله يستعين الله به،**

فنفى الله ﷻ ذلك أيضًا فقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعني معاون الله ﷻ هو الغني وكل ما سواه فهو المفتقر إليه.

➢ **رابعا: ربما يملكون الشفاعة ،فيتقدمون بين يدي المشروع عنده كما يفعلون في الدنيا،** فنفى الله ﷻ هذا الأمر أيضًا قال ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ، وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:22-23]. لأن الشفاعة ملك خالص لله وحده،﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:44]

﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾: **أختلف العلماء في المراد بمن فُزع عن قلوبهم.**

قول الأول: **إن هؤلاء هم المشركون يُفزَّع عن قلوبهم يوم القيامة،**

قرأ الجمهور:﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾،وقرأ ابن عامر:﴿حَتَّى إِذَا فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني الله تعالى،

قرأ هو على البناء للمعلوم وقرأ الجمهور على البناء للمجهول،والمراد أن الله ﷻ هو الذي يُفزّع عن قلوبهم

ومعنى فَزَّعَ: يعني أزال الفزع

في اللغة العربية الفعل إذا جاء على وزن (فَعَّلَ) فإنه يأتي على أحد ضربين،

- **إما بمعنى**: الإدخال في الشيء كنحو قولك عَلَّمَ يعني: سعى في إدخال العلم في غيره.
- وقد تأتي بالعكس يعني: في إخراج شيء عن شيء كما في هذه الآية

فزَّعهُ يعني أزال الفزع منه، جَزَّعه أزال الجزع منه، مَرَّضَه سعى في إزالة المرض عنه.

إذن ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ ﴾ يعني أُزيل، الله جل وعلا يزيل الفزع من قلوبهم،

الفزع: **هو الخوف المفاجئ** لما يصيبهم من الوجل والخوف العظيم في أهوال القيامة.

القول الثاني: **أن المراد بالذين يُفزع عن قلوبهم هم الملائكة،**

وهذا الذي أختاره ابن جرير وابن كثير وابن عطية و البخاري بل وهو الذي تعهده أدلة السنة ومعلومًا

أنه إن أمكن تفسير القرآن بالسنة فلا ينبغي العدول عن ذلك.**وهذا هو الراجح**.

وهذا وجه الاستدلال من هذه الآية: أن الملائكة لا تصلح لأن تكون آلهة لأنها تخاف

وتفزع ومن كان هذا شأنه لا يكون ربا و إلها.

ولأهل العلم قولان في تفسير قوله تعالى: ﴿**قَالُوا الْحَقَّ**﴾

- **الأول**: أن المراد أنهم يقولون: قال اللهُ الحقَّ، يعني كلمة (الحق) منصوبة على أنها مفعول به، أو أنها صفة، قالوا: قال اللهُ القولَ الحقَّ.

هذا أولى وهو المناسب لسياق الآية لا سيما وأن ظاهر قوله (وهو العلي الكبير) **أنه تابع لـ** (قالوا الحق).

- **الثاني**: وهو ما نحى إليه ابن كثير في تفسيره: فهو أنهم يقولون ما أمرهم الله ﷻ بإبلاغه من الوحي دون زيادة أو نقصان،و ليس أن الملائكة تقول القول الباطل إنما يقولون الحق.

وعلى هذا التفسير: يكون كلامًا مستأنفًا وهذه فيه من البعد ما لا يخفى.

وقول الله نوعان :الكوني والشرعي

فالله ﷻ لا يقول إلا الحق سواءً كان ذلك في القول الكوني أو الشرعي، فالله جل وعلا يدبر هذا **الكون** بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كما أنه يقول الحق سبحانه في قوله **الشرعي** ومنه وحيه الذي يُنزله على رُسله:﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:105].

✹ **في هذه الآية من الفوائد**: إثبات صفة القول لله ﷻ، وصفة العلو، وصفة الكِبر.

أما صفة القول: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ إذن الله يقول،والله تعالى ثبت في القرآن والسنة أن من صفاته القول والكلام والحديث والمناداة والمنجاة، وكلها بمعنى واحد في الجملة على فروق دقيقة بين هذه الكلمات.

ومنهج أهل السنة والجماعة وهو الذي مضى عليه السلف الصالح:

أن الله تعالى يقول ما يشاء ويتكلم بما يشاء إذا شاء كيف شاء ، وأن كلامه بحرفٍ وصوت وأن كلامه بحرف وصوت، وهذا الذي لا تعرف العرب في لغتها كلامًا سواه،لا يكون الكلام كلامًا إلا إذا كان بحرف وصوت، والقرآن الذي بين دفتي المصحف كلام الله جل وعلا، نؤمن أن الله تكلم به وهو بعض كلام الله، وخالف في هذه الصفة من خالف من أهل البدع

طائفة نفت الكلام عن الله ﷻ صراحة، قالت الله ﷻ لا يتكلم إنما الكلامُ مفعول مخلوق لله ﷻ،يخلق شيئًا أسمه الكلام مثل ما يخلق السماء والأرض والشجر وكذلك يخلق الكلام.ولا شك أن هذا من أعظم الباطل بل هذا من الكفر بالله ﷻ وقد أجمع السلف **على كفر** من قال بأن كلام الله جل وعلا مخلوق،

ومن لطيف ما أستدل به البخاري رحمه الله من هذه الآية بوب به في صحيحه، باب قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، قال البخاري: قالوا ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ولم يقولوا ماذا **خلق** ربكم.

وأما الذين نفوا هذا الصفة بمواربة ولم يكونوا صرحاء صراحة الأولين، فهم الذين قالوا إن كلام الله جل وعلا معنًا قائم بذات الله ﷻ وسموا هذا الكلام، (الكلام النفسي) وأنه لا يتبعض ولا يتجزأ بل هو شيء واحد. وعاد قولُهم إلى أن القرآن الذي هو بعض كلام الله، هو مخلوق،لأنه عبارة أو حكاية عن كلام الله،

ثانيًا: صفة العلو: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ الله جل وعلا اسمه العلي وصفته العلو، والعلو في صفة الله جل وعلا ثلاثة أنواع كلها حق وكلها ثابتة له ﷻ.

- **له علو القدر والشأن** ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾.
- **وله علو القهر**: فالله ﷻ علا على كل شيء، يعني: قهر كل شيء،

(علا) تأتي في اللغة بمعني قهرَ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[المؤمنون: 91].

- **وله علو الذات**: هو سبحانه عالم على كل شيء وفوق كل شيء وكل شيء فهو دون الله جل وعلا الله ﷻ له العلو المطلق ﷻ.

وقد ضل في هذا طائفتان:

- **طائفة تقول**: الله ليس في مكانة لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن شماله إلى أخر ما يذكرون.
- **وطائفة تقول**: الله في كل مكان وكلا الطائفتين ضلت الحق وتجنبت سواء السبيل،

بل الأدلة التي لا شك فيها من جهة الشرع ومن جهة العقل ومن جهة الفطرة التي فطر الله الناس عليها كلها متضافرة على أن الله في العلو المطلق ﷻ.

ثالثا: الصفة الكِبَر. قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ من أسمائه الكبير، الله جل وعلا له الكبر وله العظمة، بل هو أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء ﷻ، وإذا كان الله ﷻ أكبر من كل شيء وجب أن يكون عند عابديه أكبر من كل شيء، ووجب أن تكون محبته في قلوبهم أكبر من كل محبه، ويجب أن يكون خوفه في قلوبهم أكبر من كل خوف، بهذا يتحققون بإيمانهم بصفة الكبر لله جل وعلا.

الشاهد أن هذه الآية ردٌ صريح على الذين ضلوا في شأن الملائكة فجعلوهم شركاء مع الله أو أنهم شفعاء عند الله جل وعلا.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال الله: ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾، إذن انتفى أن يكونوا شركاء مع الله جل وعلا في العبادة، وانتفى أيضًا أن يكونوا شفعاء مع الله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم: 26].

الدرس الثالث و العشرون – ٤٣١

١٦–باب ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(المجلس الثاني)

﴿ قال في الصَّحِيحِ عنْ أبي هريرةَ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَاناً لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِه، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيْهَا إِلَى مِنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلقِيْهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرَكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ السَّمَاءِ».

«خَضَعَاناً» يجوز الوجهان،خَضَعاناً يعني خضوعاً، وخُضْعَاناً يعني خاضعين لعظمة الله ﷻ

«إذا قضى الله الأمر في السماء»، قضاء الله ﷻ دلت الأدلة على أنه ينقسم إلى قسمين:

قضاء كوني: ومنه قول الله ﷻ: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾[فصلت:12].

وقضاء شرعي: ومنه قوله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:23].

وعدم التفريق بين النوعين يوقع في التباس، وربما في ضلال، وذلك أن ما قضاه الله جل وعلا كوناً فإنه واقعٌ ولابد،أما ما قضاه الله شرعاً فقد يقع وقد لا يقع بحسب ما يشاء الله ﷻ.

ولو قلنا: إن القضاء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:23]، إنه هو القضاء الكوني لكان هذا ضلالاً مبيناً، بل أدى هذا إلى الوقوع في الكفر بالله سبحانه، وذلك أن القضاء الكوني،لابد من وقوع المقضي فيه،يقتضي أن لا يُعبد إلا الله ﷻ، وعليه فكل ما عُبد فهو الله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:23]، وهذا هو مذهب أهل الحلول ووحدة الوجود، وهذا من أعظم الكفر بالله جل وعلا، إذن لابد من مراعاة التفريق، وأن القضاء في كل مقام بحسبه.

✪ **بعض صفات الملائكة:**

➢ **الخوف والخضوع من الله** ﷻ، حتى إن النبي ﷺ رأى جبريل ليلة ما أُسريَ به كالحلس البالي من خشية الله، الحلس يعني كالحصير البالي من خشية الله جل وعلا.

هذا من أظهر صفاتهم في الكتاب والسنة و مما دل عليه، الحديث في هذا الباب.

➢ **وعلى أن لهم أجنحة**، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:1]،

وثبت في الصحيحين «**أن النبي ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح، سد الأفق**».

➢ **هم عالم غيبي بالنسبة لنا، خلقهم الله جل وعلا من نور،**

➢**وفقهم لطاعته**، حتى إن أوقاتهم كلها مستغرقة في طاعة الله ﷻ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، طائعون دائبون: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾

والملائكة خلق كثير، لا يحصي عددهم إلا الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:31]، والنبي ﷺ أخبر كما في الصحيح أن جبريل أخبره أن هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، فإذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم، لا يزور الواحد منهم هذا البيت فيتعبد فيه إلا مرة واحدة فقط ،هذا يدلك أن عددهم عدد عظيم جداً.

«**كأنه سلسلة على صفوان**»، دل هذا الجزء من الحديث على إثبات كلام الله جل وعلا، وعلى ثبوت الصوت في كلام الله ﷻ ،وذلك أن هذا الحديث فيه أن الملائكة تضرب بأجنحتها خضعاناً لعظمة الله،وأن الصوت الذي يبلغهم كسلسلة على صفوان ينفذهم ذلك.

وإثبات الصوت في كلام الله جل وعلا، دلت عليه أحاديث كثيرة، جاء في نحو أربعة عشر حديثاً عن النبي ﷺومن ذلك ما ثبت عند البخاري وغيره: «**أن الله تعالى ينادي يوم القيامة بصوته يسمعه من قرُب كمن بعُد: أنا الملك، أنا الديان**»، كذلك «**أن الله تعالى ينادي يوم القيامة فيقول:ينادي بصوتٍ، فيقول: يا آدم، أخرج بعث النار من ذريتك**».

تنبيه: أن كلام الله جل وعلا ليس ككلام المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:11]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:65]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:4]، ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:74]، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[البقرة:22].

«كأنه سلسلة على صفوان»، ما معنى هذا الكلام؟

السلسلة:الحديدة التي يَربط بعضها ببعض دوائر صغيرة أو كبيرة بحسب حال هذه السلسلة، **والصفوان**: الحجر الصلد الأملس، ومن جرِّ السلسلة من الحديد على الصخرة الملساء صوت عظيم، ويعظم كلما كانت هذه السلسلة كبيرة،

تنبيه: ليس المراد ههنا أن صوت الله يشبه أو مثل صوت هذه السلسلة، تعالى الله عن أن يشبهه شيء من خلقه ،إنما التشبيه ههنا للسماع بالسماع، وليس المسموع بالمسموع، يعني أن لكلام الله جل وعلا صوت، وأنه يكون له صوت كما أن السلسلة على الصفوان لها صوت، أو أن الصوت يوقع في قلوبهم، ويأخذ قلوبهم كما يأخذ صوت السلسلة على الصفوان، ويشهد لهذا التوجيه ما جاء في تتمة الحديث: «**ينفذهم ذلك**».الشأن فيه كالشأن في حديث الرؤية قال النبي ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»، ليس في هذا تشبيه المرئي بالمرئي، إنما فيه تشبيه الرؤية بالرؤية، يعني أنها رؤية واضحة كرؤية القمر.

فأهل السنة وسط، يثبتون الصوت خلافاً للمعطلة، ويعتقدون أن صوت الله ﷻ لا كصوت المخلوقين خلافاً للممثلة، والله جل وعلا أعلم.

يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

«ينفذهم ذلك» يعني يأخذ بقلوبهم، ويصل إلى قلوبهم:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿حَتَّى إِذَا﴾ تفيد في اللغة معنى **(لما)**،

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾[الأنبياء:96]،لما فتحت يأجوج ومأجوج.

معنى فزَّع: زال الفزع، أزال الله ﷻ الفزع عن قلوب الملائكة، والفزع هو: الخوف المفاجئ، فإنهم يقولون **﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾** ثم يجيب بعضهم بعضاً **﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾**

«فَيَسْمَعُهَا مُسَتَرِقُ السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ»

مسترق السمع: مفرد مضاف فيعم، يعني: مسترقو السمع من الجن،

وذلك أن الله جل وعلا لحكمته شاء أن يكون للجن قدرة على استراق السمع من السماء، هم لا يسترقون السمع من داخل السماء لأن السماء محفوظة، لا ينفذون إليها: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾[الأنبياء:32]، لكنهم يقعدون في مقاعد خاصة بهم دون السماء المبنية

وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، «فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مِنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه».

« وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ »،وفي رواية البخاري الأخرى: «**نصب يده اليمنى وبدد بين أصابعه**»، فسر هذا سفيان بن عيينة ، ماجعلها ملتصقة، وإنما جعلها مفرجة، فجعل الخنصر إلى جهة الأسفل وجعل الإبهام إلى جهة الأعلى،يعني أن بعضهم فوق بعض كما أن هذه الأصابع بعضها فوق بعض،فالجن بعضهم يكون فوق بعض، وبالتالي فإذا سمع من فوق شيئاً من الخبر ألقاه على الجني الذي تحته، والذي تحته يلقيه على من تحته وهكذا، حتى يوصلها الآخر منهم إلى الساحر أو الكاهن، وربما يشاء الله أن يصيب الجنيَّ الشهابُ قبل أن يُلقى إلى هذا الساحر أو الكاهن، وربما ألقاها قبل أن يصيبه الشهاب.

والشهاب: هو النيزك، جسم أو شيء ناري ينفصل عن النجوم، تُرجم به الشياطين،

❁ أحوال استراق السمع وإصابتهم بهذه الشهب تنقسم إلى ثلاث:

← **أولاً:** قبل بعثة النبي ﷺ: كثر استراق الجن للسماع، وكان يصيبهم شيء من هذه الشهب.

← **والحال الثانية:** لما بُعث النبي ﷺ لم يتمكن الجن من استراق السمع، وهذا من رحمة الله جل وعلا وحكمته حتى لا يحصل اختلاط بين الوحي المنزل من الرحمن مع ما يوحيه الجني إلى الكهان: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[الجن:9]،

← **الحال الثالثة:** بعد وفاة النبي ﷺ عاد إمكان استراق السمع إلى الجن، ولكن بأقل مما كان عليه الأمر في الجاهلية،

وقد دل الدليل على أن الجن قد يسترقون السمع مما يقوله ملائكة السماء الدنيا،
وقد يسترقون السمع بعد نزول الملائكة من السماء، يدل على هذا حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال النبي ﷺ: «**إن الملائكة تنزل في العنان والسحاب، فتتذاكر ما قضى الله ﷻ من الأمر في السماء، فتسمعه الجن، فتلقيه إلى أوليائهم من الكهان، فيكذبون ويزيدون عليه**»، ، لأنهم ينزلون في العنان والسحاب ليس في السماء، وإنما دون السماء: ﴿**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[البقرة:164].

قال: «فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ ». فيه قولان

- **القول الأول:** هل الذي يكذب هو مسترق السمع؟،
- **القول الثان:** أو الذي يكذب الساحر أو الكاهن ولعله أقرب، أنه يكذب ويخلط هذا الذي بلغه من الخبر الصادق الذي سمعته الجن من الملائكة، يكذبون ويخلطون معه مائة كذبة.

«فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وكَذَا، كَذَا وكَذَا فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ السَّمَاءِ».
ينبغي أن يوزن حال الشخص أو الجماعة أو الفرقة في عموم أحوالها، ثم يُنظر بعد ذلك إن كانت موافقة أو مخالفة، لابد أن يكون عند كل فرقة من فرق أهل الضلال والبدع شيء من حق، وبسبب هذا الحق القليل تُقبِل الناس لأن عندهم شيئاً من اللبس، يلبسون الحق بالباطل، ولا شك أن هذا لا ينبغي أن يكون مانعاً من الحذر والتحذير، لا ينبغي أن يكون هذا مانعاً من الحذر والتحذير
نعم، لا يُجحد الحق، ولا يُقال: إن الحق باطل، لكن أيضاً ليس بسبب هذا الحق القليل أصبحت هذه الفرقة مُسلَّمة لا شية فيها، فينبغي أن توزن الأمور بميزان معتدل صحيح.

وتأمل فائدة ثانية ، وهي ما يحصل لهؤلاء الجن وأوليائهم من الشدة العظيمة ومع ذلك هم صابرون عليها،فأهل الحق أولى أن يصبروا على حقهم وأن يتحملوا الشدائد في سبيل إبلاغه.

﴿ قال رحمه الله:(وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ ﷺ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا أَرادَ اللهُ تَعَالى أَنْ يُوحيَ بِالأمرِ،تَكَلَّمَ بِالوحي،أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنهُ رَجْفَةُ – أَوْ قال:رِعْدَةٌ – شَدِيدَةٌ؛ خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلك أَهَلُ السَّمَاواتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّدَا،فَيَكونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرَائِيل،فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِن وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمّ يَمُرُّ جَبرائِيلُ عَلَى المَلائِكَةِ،كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذَا قَال رَبُّنَا يَا جَبرائيلُ؟،فَيَقُولُ جَبرائيلُ:قَال الحَقَّ؛وَ هُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ،فَيَقُوُلونَ كُلُّهُمْ مِثلَ مَا قَال جَبرائيلُ ،فَيَنتَهِي جَبرائيلُ بِالوَحْيِ إِلَى حَيثُ أَمَرَهُ اللهُ ﷻ.

النواس بن سَمعان، ويجوز أن تقول سِمعان، يجوز في السين الفتح والكسر، والحديث، ضعيف الإسناد، فإن في إسناده نعيم بن حماد الخزاعي وهو ضعيف الرواية، وكذلك الوليد بن مسلم عنعن، وفي تدليسه بحث معروف عند طلاب الحديث،

لكن يشهد لبعض ما جاء فيه أحاديث أخرى كحديث أبي هريرة الذي مر معنا قبل قليل ، وكذلك يشهد لبعض ما جاء فيه حديث ابن عباس، وفيه أن النبي ﷺ أخبر: «**أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سبح حملة العرش، فيسبح الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يسبح الملائكة جميعاً، ثم تقول الملائكة الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربنا؟، فيخبرونهم ثم يخبرون من بعدهم حتى يخبرون أهل السماء الدنيا، فتسمع الجن ذلك ثم تلقيه إلى أوليائهم ...**» الحديث.

وعلى كل حال لعل المؤلف رحمه الله تابع ابن خزيمة في تصحيح هذا الحديث، فإنه أخرجه في كتاب التوحيد له، ولا يذكر في هذا الكتاب إلا ما صح عنده، والله أعلم.

«إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة، أو قال: رعدة شديدة».

هذا فيه فائدة، وهي أن الكلام صفة فعلية متعلقة بمشيئة الله ﷻ لأنه قال: **«إذا أراد الله»**، حينما يريد الله ﷻ أن يوحي فإنه يوحي ويتكلم جل وعلا و السماوات يصيبها رجفة،

الرجفة: حركة واضطراب بانزعاج، **والرعدة**: مثلها لكن أخف منها.

وفي هذا فائدة: أن الجمادات لها حياة تليق بها وتخصها، وقد جعل الله ﷻ لها شعوراً به تتعبد لله جل وعلا،ولأجل ذلك هذه السماوات يصيبها الخوف والفزع والرجفة من الله ﷻ، وأيضاً أن السماوات تسبح لله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[الإسراء:44].

وهذا له أدلة كثيرة، جمع ابن كثيرطائفة منها، وكذلك البغوي في تفسيره، فالطعام سبح بين يدي النبي ﷺ وسمعته الصحابة، سمعته سماعاً حقيقياً، كذلك الحجر كان يسلم على النبي ﷺ، كذلك الجذع حَنَّ واستجاب أيضاً لتهدئة النبي ﷺ له: «جبل أحد يحبنا ونحبه»، واستجاب لأمر النبي ﷺ حينما قال له:«اسكن أحد»، **وغيره من الأدلة**.

«فإذا سمع ذلك أهل السماوات صُعقوا وخروا لله سجداً».

هذا الحديث يدل على أنه يحصل -إن صح- للملائكة أمران:

أنهم يُصعقون يعني يُغشى عليهم،

وأنهم أيضاً يسجدون،

إذن يخافون ويفزعون وأيضاً يُصعقون وأيضاً يسجدون، والله أعلم أي ذلك يكون قبل، فإن العطف بالواو لا يدل على الترتيب، وهذه صفات لا يمكن أن يتصف بها الرب أو الإله،

«فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام».

جبريل عليه السلام أول من يفيق وأول من يرفع رأسه، وهو أعظم الملائكة وسيد الملائكة، **جبريل عليه السلام معنى اسمه عبد الله**، والله جل وعلا وصفه بصفات عظيمة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[التكوير:19]، هذا الوحي قوله من جهة الإبلاغ لا من جهة أنه هو الذي أنشأ هذا الكلام، بل إن هذا الوحي كلام الله، تكلم به جل وعلا ابتداءً، لكنه قوله إبلاغاً: ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ ماذا؟ ﴿مَكِينٍ﴾ثم قال ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾فهو مطاعٌ وهو أيضاً له التقدم على الملائكة، وهو أمين يبلغ كما أمر الله ﷻ بدون زيادة أو نقصان.

«فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد».

أول من يرفع رأسه جبريل لأنه هو الملك الموكل بالوحي، قبل بقية الملائكة يفيق جبريل عليه السلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد.

«ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ».

في هذا أن جبريل عليه السلام ينزل بعد أن يسمع الوحي من الله جل وعلا،
وفي هذا ما يشهد بأن القرآن سمعه جبريل من الله ﷻ مباشرة، ثم بلغه إلى النبي ﷺ،

وليس أن جبريل كما يقول المخالفون لأهل السُنَّة إنما تلقى هذا القرآن من اللوح المحفوظ، ليس الأمر كذلك، وإنما سمع وحي الله –ومنه القرآن– من الله جل وعلا مباشرة.

الشاهد أنه ينزل بهذا الوحي فكلما مر على سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟، فيجيب: قال الحق وهو العلي الكبير، فكلهم يردد هذه الكلمة، كل الملائكة يرددونها، كلهم يقولون: قال الحق وهو العلي الكبير، وهذا يقولونه في مقام الثناء على ربهم تبارك وتعالى، وهذا دليل على عظيم إيمانهم وتعظيمهم للباري ﷻ حتى ينزل جبريل بالوحي حيث أمره الله فيبلغه الله من أمره الله ﷻ بإبلاغه.

الخلاصة: المؤلف رحمه الله أراد أن يثبت من خلال هذا الباب أن الملائكة ليسوا أهلاً للعبادة، كما أن الأولياء والصالحين والأنبياء ليسوا أهلاً للعبادة، وهذا ما دل عليه الباب الذي قبله، وإذا كان هؤلاء وهؤلاء ليسوا أهلاً للعبادة فغيرهم من باب أولى، والمستحق للعبادة هو الله ﷻ وحده لا شريك له.

الدرس الرابع و العشرون –٤٤٨ ١٧– باب الشفاعة (المجلس الأول)

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب المهم وهو ما يتعلق بالشفاعة وذلك لعظيم الحاجة إلى فقه هذا الموضوع، فإن موضوع الشفاعة من الموضوعات التي جديرٌ بكل مسلم أن يفهمها الفهم الصحيح في ضوء الكتاب والسنة، فإن الخلل في هذا المقام كان سببَ وقوع الشرك كثيرًا قديمًا وحديثًا.

فإن من أعظم أسباب شرك المشركين الأولين طلبهم الشفاعة من ألهتم قال ﷻ عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﷻ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس:18].

الشفاعة: في اللغة: هي التوسط للغير في طلب خيرٍ أو دفع مضرة، وإن شئت فقل هي سؤال الخير للغير. وأصل هذه المادة يدل على الضم والاقتران، فكأن الشافعَ ضم صوته وسُؤله إلى صاحب الحاجة فكان شفعًا: أي زوجًا في السؤال.

والمراد بالشفاعة في هذا الباب وأمثاله: إنما هو الشفاعة الأخروية التي تكون يوم القيامة، وهي التي يسأل فيها الشفعاء جلب الخير أو دفع المضرة عن الموحدين يوم القيامة.

❁ والشفاعة أختلف الناس فيها وانقسموا إلى ثلاثة طوائف:

- ❖ **طائفة جفت** فأنكرت بعض الشفاعة وهم الوعيدية من الخوارج والمعتزلة،
- ❖ **طائفة غلت** في موضوع الشفاعة حتى أشركت بالله ﷻ،
- ❖ **طائفة توسطت** وهم هم أهل السنة والجماعة السلف الصالح وأتباعهم.

من تأمل أدلة الكتاب و السنة وجد أن الشفعاة وردت:

تارة منفية كما قال جل وعلا: ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة:254]

وتارة جاءت مثبتة والغالب أن ترِد مثبتة في القرآن على سبيل الاستثناء: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:255]، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:28].

ضابط الشفاعة المنفية يرجع إلى ما يأتي.

أولاً: الشفاعة التي يُظن أن تكون بلا إذن من الله.

ثانيًا: الشفاعة التي تطلب للكفار.

ثالثًا: الشفاعة التي تطلب من غير الله.

رابعًا: الشفاعة التي ظنها المشركون وهي من جنس الشفاعة الدنيوية،

أما الشفاعة المثبتة التي تقع وتحصل وتكون يوم القيامة فضابطها أنها

أولا: تكون إذا أذِن الله ﷻ

ثانيا: تكون فيمن رضيَ الله ﷻ عنه والله لا يرضى إلا التوحيد وأهله،

الله لايرضى إلا على الموحدين أما الذين أشركوا فلا شفاعة:﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾غافر

قال النبي ﷺ «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»

الشفعاء يوم القيامة فإنهم ثلاثة أصناف :الملائكة .الأنبياء .والصالحون.

جمعهم ما جاء في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «**أن الله تعالى يوم القيامة يقول: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون وما بقي إلا رحمة أرحم الراحمين**»

وأما الشفاعات المثبة الواقعة يوم القيامة قسمين:

أولا: **شفاعة خاصة أي بالنبي ﷺ لا يشركه فيها أحد بالإجماع،**

الثانية: **هيا الشفاعة العامة يعني التي تكون له ﷺ ولغيره من الشفعاء.**

أما ما اختص به النبي ﷺ بالإجماع؟

أولاً: **الشفاعة العظمى: وهي المقام المحمود على الصحيح**، وذلك أن يشفع النبي ﷺ عند ربه أن يُفصل في القضاء بين العباد بعد أن يتأخر أولو العزم وأبو البشر أدم عليه السلام، حتى يقول النبي ﷺ: «**أنا لها**» فينطلق فيستأذن على ربه ويخر له ساجدًا ويتركه الله جل وعلا ساجدًا ما شاء أن يتركه، ويفتح عليه

بثناءٍ عليه ومحامد لم يكن يحسنها ﷺ، ثم يقول الله جل وعلا له: «**يا محمد أرفع رأسك وسل تُعطى وقل يسمع وأشفع تشفع**».

➢ الشفاعة الثانية: **الشفاعة في دخول أهل الجنة** وذلك أن أهل الجنة إذا خلصوا من الصراط أتوا إلى الجنة، وأسأل الله أن يجعلني إياكم منهم فوجدوا أبوابها مغلقة، لا تفتح حتى يشفع النبي ﷺ عند ربه فيأذن الله ﷻ بفتح أبواب الجنة فيدخلونها.

➢ الشفاعة الثالثة: **شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب**، فقد ثبت في الصحيح أن العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ: «**يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال النبي ﷺ: نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»، وهذه الشفاعة مستثناه من شرط الرضا عن المشفوع فيه:﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾[القصص:68].

أما الشفاعات التي تكون له ﷺ ولغيره من الشفعاء: فمنها ما حصل فيه الخلاف، هل هي خاصة بالنبي ﷺ أم عامة له ولغيره وهذه الشفاعات الذي ثبت منها ما يأتي:

أولاً: الشفاعة في دخول من لا حساب عليه الجنة

وذلك ما ثبت في حديث أبي سعيد وغيره في الصحيحين أن النبي ﷺ لما يسجد تحت العرش لربه ويقول الله ﷻ له ما سلف أن ذكرت، يقول النبي ﷺ: «**أمتي، أمتي**» فيقول الله ﷻ: «يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في سائر الأبواب».

الشفاعة الثانية: الشفاعة من قوم دخلوا النار من أهل التوحيد أن يُخرَجوا منها،

وهذه الشفاعة ثابتة للنبي ﷺ، كما أنها ثابتة لغيره،

أما له ﷺ فيدل على ذلك أحاديث عده،منها ما ثبت، من حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين**».

وأما في حق غيره ﷺ فما جاء في صحيح أبي سعيد الخدري في الصحيح وفيه: «**أن المؤمنين إذا خلصوا وكانوا من أهل الجنة يقولون: يا ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا فيَحدُّ الله جل وعلا لهم حدًا فيخرجون من النار**».

فهذا دليل على أن الشفاعة تكون للنبي ﷺ وتكون لغيره هذه الشفاعة هيا معترك الخلاف بين أهل السنة والجماعة والوعيدية، إذ هي التي أشتدد إنكار الوعيدية لها، ولا شك أن الأدلة الصحيحة الثابتة الكثيرة ترد قولهم.

الشفاعة الثالثة: **الشفاعة في قوم استحقوا النار ألا يدخلوها**، وهذه الشفاعة توقف فيها ابن القيم، لكن الصحيح الذي لا شك فيه أنها ثابتة، بل ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا النوع لم ينكره إلا أهل الوعيد.

ويدل عليها دليلان:

أما الأول: فما استدل به الحافظ بن حجر في فتح الباري من رواية عند مسلم وفيها أن النبي ﷺ لما ذكر أن الصراط يُضرب على متن جهنم قال: «**فتحل الشفاعة، اللهم سلم سلم**».
يُشير إلى أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يقولون في ذلك المقام اللهم سلم، سلم ولا شك أن هذا دعاء يتضمن شفاعة في حق من يمر على الصراط، وفيهم من أستوجب النار.

أما الدليل الثاني: فعمومه قول النبي ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»، وما جاء في معناه فإنه يدل بعمومه على أن الشفاعة حاصلة لأهل الكبائر.

العلاقة بين الشفاعة والعبادة: أكثر شرك المشركين في القديم والحديث إنما كان لأجل تعلقهم بالشفاعة فصرفوا العبادة لغير الله لأجل ذلك، وهم كانوا إما يصرفون أنواع العبادات لهذه الآلهة، التي يظنون فيها الشفاعة فيذبحون وينذرون ويسجدون لأجل أن تعطف عليهم، فتشفع لهم عند الله أو أن يطلب الشفاعة منها مباشرة فيسألون الأشجار والأحجار ويسألون الأصنام والملائكة والأموات أن تشفع لهم عند الله.

☒ **الرد على من يقول نحن** مذنبون متلطخون بالمعاصي فلا يناسب أن نسأل الله مباشرة إنما نجعل بيننا وبينه واسطة يشفعون لنا عند الله،

والجواب عن هذا من وجهين:

أولاً: سلمنا جدلاً أنهم قصدوا تعظيم الله لكنهم من وجه أخر وقعوا في مسبة الله وتنقص حقه وقدره، فاستحقوا العقوبة على ذلك.

والوجه الثاني: أن يقال إنهم ما عظموا الله ﷻ ليس صحيحًا أنهم ما عظموا الله،ولو عظموا الله وقدروه حق قدره ما صرفوا خالص حقه لغيره، وما أشركوا مع الله غيره..

الواقع أن المشركين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء، وقعوا في:هضم حق الربوبية

وانتقاص عظمة الإلهية، وأساءوا الظن برب العالمين، كان منهم سوء الظن بالله.و**يدل على ذلك أمورٌ**:

أولاً: ظنوا أن الله لا يرحم ولا يسمع الدعاء ولا يجُيبه حتى يرفع إليه الشافع ذلك، وذلك سوء ظن بالله جل وعلا وانتقاص لعظيم علم الله ﷻ وواسع سمعه وكبير رحمته.

ثانيا: أنهم ظنوا أن لهؤلاء حقًا على الله، ولهم إدلالٌ على الله ﷻ ولذلك لا يمكنه أن يخالف شفاعتهم وهذا لا شك أن مما يدل على أنهم ما عظموا الله ﷻ إذ جعلوا لهؤلاء حقًا عليه استحقوه بأنفسهم، وأنهم يدلون على الله تبارك وتعالى إدلالاً.

ثالثا: وهو أنهم قد عظم في قلوبهم التعلق بهؤلاء الشفعاء حتى إنهم صرفوا لهم لب الرجاء وعظيم الاعتماد والتوكل،: وهذا لا شك أنه من انتقاص حق الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته.

الذي يملك الشفاعة حقيقة:هو الله ﷻ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:44] م

الأمر إنما هو من الله وإلى الله، الأمر كله راجع إلى الله ، ولأجل هذا أهل المشفوع له للسبب الذي يستحق به الشفاعة. وأهلَ الشافعة للسبب الذي كان به شافعًا وحرك قلب الشافع لأجل أن يشفع وأذن للشافع أن يشفع، بل أمر الشافع أن يشفع، فقال: له أشفع تشفع، ثم هو الذي تفضل بقبول الشفاعة، فعاد الأمر ابتداءً وانتهاءً إلى الله سبحانه وتعالى.

❁ الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا في الغالب ترجع إلى ضربين:

أولاً: **شفاعة وجاهة**،

معنى أن يشفع الوجيه ذو النفوذ عند ذي السلطان فيطلب منه أن يعفو عن مسيءٍ مثلاً، وتجد أن صاحب السلطان قد يقبل مرغمًا ربما لا يريد أن يشفع عنده أحد أصلاً في هذا الموضوع فيشفع عنده رغمٍ عنه، ثم قد يكون لا يريد أن يعفو عن هذه لكنه يرضى تحت وطأة هذه الشفاعة، لأجل أنه محتاج إلى هذا الرجل صاحب الوجاهة والنفوذ قد يكون تاجرًا غنيًا، قد يكون وزيرًا، قد يكون صاحب الجند فهو لا تتم مملكته إلا بأن يكون هؤلاء حوله، وأن تكون طاعتهم له فلأجل خوفه من نفورهم يخضع لشفاعتهم ويقفل شفاعته.

الثاني: **شفاعة المحبة**، أن يشفع الحبيب عند محبه تجد أنه يشفع ابن السلطان أو زوجه أو صديقه عنده أن يعفو عن هذا المسيء، فتجد أنه يقبل بهذه الشفاعة ولا كان في الأصل لا يريد أن يعفو لأنه لا يصبر عن جفوة حبيبه فيرضخ ويأذن، أو ربما تبين له ما كان غائبًا عنه ربما أفصح له وأعلموه بأنه لا يستحق العقوبة، وبالتالي فإنه يقبل هذه الشفاعة لأنه ظهر له الحق أو ربما خوفوه بعواقب تترتب على إنفاذ العقوبة عليه، فيخاف ويقبل.

❁ الفروق بين الشفاعة الدنيوية والشفاعة الأخروية:

✸ أولاً: **الشفاعة من المخلوق عند المخلوق لا تفتقر إلى المشفوع عنده بحال**، لا من جهة أمره ولا من جهة إذنه، ولا من جهة خلقة،

والأمر في الشفاعة التي تكون عند الله ليس كذلك فلا أحد يجرؤ على أن يشفع عند الله جل وعلا حتى يأذن الله له أن يتكلم ويشفع قال سبحانه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:255]. تأمل كيف كان النفي ها هنا بصيغة الاستفهام لأنه مشوب بنوع من التحدي من ذا الذي يجرؤ على أن يكون منه ذلك؟! ثم الله جل وعلا ليس فقط يأذن بالشفاعة، بل الله ﷻ هو الذي يأمر بها وبالتالي لا يملك الشافعي إلا أن يُجيب أليس كذلك؟ أليس الله جل وعلا يقول يوم القيامة لسيد الشفعاء: أشفع تُشفع إذن كان النبي ﷺ مأمورًا لا يسعه إلا أن يستجيب لأمر ربه جل وعلا.

✸ثانيا: **وهو أن الشفاعة من المخلوق إلى المخلوق تستلزم حاجة المشفوع عنده،**

إما من جهة أنه يطلب مرغوبًا أو أنه يترك مرهوبًا، لا تجد أن المشفوع عنده يقبل الشفاعة إلا إذا كان يطلب شيء يحتاجه، إما أن يطلب ولاء الشافع وإما أنه يدفع غضب أو هجران الشافع.

والله أجل وأعظم من أن يكون كذلك بل الله جل وعلا هو الغني ﷻ،

✸ ثالثا: **أن الشفاعة من المخلوق إلى المخلوق تتضمن افتقار المشفوع عنده، من جهة أن شفاعة الشافعي حركته إلى القبول،**

أما الشفاعة عند الله فلا يظن فيها ذلك البتة، بل الأمر بالعكس المشفوع عنده هو الذي حرك الشافع حتى يشفع، فانظر إلى الفرقان العظيم بين الرب وبين العبد.

✸ الفارق الرابع: **شفاعة المخلوق عند المخلوق، شفاعة ندٍ أو شريك أو معين،**

أما الشفاعة عند الله فإنها شفاعة عبدٍ مأمور، لا يملك من أمره شيء،ولا يقدر إلا أن يجيب.

✸ الأمرالخامس: **الشفاعة من المخلوق عند المخلوق قد تقع على كُرهٍ من المشفوع عنده،** يعني لا يريد، ولا يسمح أن يُشفع عنده في هذا الموضوع، فرغمًا عنه يدخل عليه الشافع ذو الوجاهة، أو المحبوب عند المشفوع عنده فرغمًا عنه يتكلم ويشفع

والله ﷻ يستحيل أن يكرههُ أحد، الله لا مكرهًا له، بل هو القدير العظيم ﷻ.

✸ الأمر السادس: **أن الشفاعة من المخلوق عند المخلوق يقبلها أو قد يقبلها المشفوع عنده على كره منه،**

تجد أنه قد لا يملك من أمره إلا أن يرضخ ويقبل، أو قد يقبل على كره منه،

وأما الله جل وعلا فإنه لا يظن فيه ذلك إلا الظانون بالله ظن السوء.

الدرس الخامس والعشرون –٤٦٣ ١٧– باب الشفاعة (المجلس الثاني)

۞ وقول الله ﷻ:﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾[الأنعام:51].

﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾: **الإنذار**: هو الإعلام بأسباب المخافة أو الإعلام بموضع المخافة، فهو إعلام مخصوص،

والخطاب لنبينا محمد ﷺ، فالله جل وعلا يقول يا نبينا أنذر به يعني بالقرآن كما قال بن عباس رضي الله عنهما وغيره.

والقرآن أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن ينذر الناس كلهم به، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[مريم:97]، فأهل الإيمان وأهل الكفر ينذرون بالقرآن،

لكن تخصيص أهل الإيمان ها هنا لأنهم الذين ينتفعون بهذا الإنذار، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾،﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق:45].

﴿ليس لهم﴾: (ليس) ها هنا في موضع النصب على أنها حال،

والحال: أنه ليس لهؤلاء المؤمنين الذين اتصفوا بالإيمان والخشية من الله سبحانه وتعالى،
الحال أنهم لا يتخذون من دون الله وليًا: ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾[النساء:173]،
ولا يتخذون من دون الله شفيعًا.﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:44].

۞ قال رحمه الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:44].

أول السياق: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ هذه حقيقة المشركين اتخذوا من دون الله شفعاء

(أم) ها هنا للإضراب، يعني هي بمعنى (بل)، واستقراء مواضع **(أم)** في القرآن يدل على أن هذا الاستفهام إنما يساق في مقام الإنكار

يعني هؤلاء اتخذوا من دون الله **شفعاء**،
وهذا الذي لأجله أشركوا ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[يونس:18].

هذا الذي لأجله اتخذوا الأنداد مع الله جل وعلا، ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾[يس:23].

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:44]، ولاحظ أمرين في هذه الآية:

أولاً: تقديم الخبر يفيد الحصر عند أهل البلاغة، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾ ولم يقل (قل الشفاعة لله)، وهذا يدل على أن الشفاعة كلها لله سبحانه وتعالى .

ثانيًا: في قوله ﴿جَمِيعًا﴾ كيف إن قوله جميعًا أفادت استغراق مِلك الله سبحانه وتعالى للشفاعة كلها، بحيث أنه لم يَشُذَّ عن هذا الملك لله شيئا منها، من أولها إلى آخرها بجميع أنواعها وأصنافها هي ملك لله سبحانه وتعالى

ثم تأمل بعد ذلك قال سبحانه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كما أن له سبحانه ملك السماوات والأرض فكذلك هو الذي يملك الشفاعة، فاندرج في ملكه سبحانه تعالى

الرد على قول قائل نحن نطلب الشفاعة من غير الله لأجل أن الله تعالى مَلكهم إياها.

الله جل وعلا لم يُملك الشفاعة أحدًا، بل أن الشفاعة له وحدة لا شريك له، إنما يأذن الله لمن يشاء في موضع معين أن يشفع، وليس هذا من التمليك في شيء، أرأيت إلى النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة وطلبت منه الشفاعة، أفيقوم شافعًا عند الله جل وعلا مباشرة، أم يقدم هذا بمقدمات ثم بعد ذلك يأذن الله له بالشفاعة؟

كيف يكون مالك وهو مأمور بأن يشفع «**اشفع تُشفع**»، ثم أن النبي ﷺ لما قيل له اشفع تشفع ولما حد الله له حدًا من أهل النار فأخرجهم منها ثم يعيد الكرة لأجل أن يشفع إلى الله عز وجل مرة ثانية، أرأيت أنه أخذ الإذن الأول مطلقًا فقام بين يدي الله عز وجل مرة ثانية فشفع عند الله جل وعلا، الجواب: لا. مرة ثانية يثني على الله ويسجد سجودا طويلا ثم يرفع رأسه ثم يقول الله له «**اشفع تشفع**».تكرر هذا الأمر أربع مرات كما ثبت في الصحيحين،

ثم أرأيت في حال النبي ﷺ وهو ميت أيُطلب الشفاعة الآن! مع أن الله إنما يأذن له بها يوم القيامة، فما معنى أن تطلب الشفاعة وهو في البرزخ، إذن هذا الطلب باطل غير صحيح.

ما حكم طلب الشفاعة من غير الله ؟

❁ **هذه المسالة فيها تفصيل وذلك أن الأحوال لا تخرج عن ثلاث:**

الحال الأولى: طلب الشفاعة من حيٍّ

يعني يأتي الإنسان إلى عبد صالح، أو إلى النبي ﷺ لما كان حيا فيطلب منه الشفاعة،

❁ **وهذه الحال فيها تفصيل أيضا وذلك أن الأمر يتردد بين أمرين:**

الصورة الأولى: فإن كان السائل يعتقد أن المسؤول مالك للشفاعة، بحيث انه يشفع متى شاء بلا إذن من الله وبلا امر من الله جل وعلا، وان شفاعته هي المؤثرة والمحركة لإرادة الله جل وعلا، وأن الله تعالى لا يملك إلا أن يستجيب لهذه الشفاعة، لما لهذا الشافع من حق عليه، فهو له الدلال على الله ، من اعتقد هذا في أحد،فلا شك أن هذا **شرك أكبر**.

الصورة الثانية: أن يسأله الشفاعة بمعنى أن يطلب من المسؤول أن يدعو الله عز وجل بأن يكون أو بأن يأذن له في الشفاعة- **وهذا الوجهة لا حرج فيه.**

وقد جاء في مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسي أن النبي ﷺ لما قال «**إن الله خيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة**» حين إذن قال له أبوموسى ومن معه: «**قالوا يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا ممن تشفع فيهم**».يعني أن يجعلهم من الزمرة الذين يشفع فيهم النبي ﷺ، وهذه الرواية تفسر الرواية الأخرى، التي فيها أنهم قالوا «**ننشدك بالله والصحبة إلا جعلتنا ممن تشفع فيهم**»، وكل ما جاء في الأحاديث في سؤال الشفاعة إنما يرجع إلى هذا المعنى، وهو أن يسأل النبي ﷺ أن يدعو الله تعالى بأن يجعله شافعًا للسائل.

الحالة الثانية: سؤال الميت الشفاعة،

بأن يسأل الميت كأن يدعو النبي ﷺ بعد موته أو يدعو الأموات وفيقول "اشفعوا لنا عند الله"، "يا سيدي فلان أسألك الشفاعة""يا نبي الله الشفاعة" **هذا لا شك أنه شرك أكبر.**

❁ **وهذا رجع إلى ما يأتي:**

- **أولاً**: أنه قد مر بنا سابقًا أن جنس الدعاء للأموات شرك أكبر، أي سؤال وأي طلب وأي دعاء يتوجه به الإنسان للميت!! هذا شرك أكبر:﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾
- **ثانيا**: أن الميت لا يملك الشفاعة، لان الميت قد انقطع عمله بنص حديث رسول الله ﷺ «**إذا مات الإنسان أو إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**» وسؤال الشفاعة ها هنا ليس منها، وبالتالي يكون هذا سؤال لما لا يقدر علية الميت.
- **ثالثًا**: أن الغالب على هؤلاء القبوريين يعتقدون أن الميت المسؤول مالك للشفاعة، وأن الشفاعة التي يطلبها هي من جنس الشفاعة الدنيوية، وقد أخذنا تفصيل القول في الفرق بين الشفاعة الدنيوية التي يعهدها الناس في الدنيا والشفاعة الأخروية،
- **رابعا**: أن الغالب على هؤلاء أيضا أنه يكونُ ويقومُ في قلوبهم من التوكل والاعتماد والرجاء والرغبة في الميت ما يدخلهم في بحور من الشرك.

الحال الثالثة: **طلب الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء.**

وقد ثبت في الصحيحين أن الناس إذا طال عليهم الكرب، يقول بعضهم لبعض هلموا نستشفع إلى ربنا، فيذهبون إلى آدم فنوح فإبراهيم فموسى فعيسى، والكل يعتذر،حتى يصلون إلى النبي ﷺ فيقول أنا لها، وهذا السؤال والطلب، ليس لأنهم يعتقدون أن هؤلاء الأنبياء يملكون الشفاعة –حاشى وكلا– بل يوم القيامة يوم عظيم، تتجلى فيه عظمة الله وملكوته وجبروته، فأنَّى للناس في ذلك المقام أن تتعلق قلوبهم بمخلوق، إنما المراد بذلك أن تتقدم بين يدي الله جل وعلا بالأسباب التي يأذن الله بعدها بالشفاعة.

وذلك ما جاء في أحاديث النبي ﷺ في شأن الشفاعة تجد الآتي:

أولا: أن النبي ﷺ إذا قال أنا لها، ينطلق فيستأذن على ربه، وهذا من كمال العبودية والأدب،لا يباشر الدخول على ربه، والله أعلم كيف يكون ذلك، إنما يستأذن حتى يؤذن له.

ثانيا: إذا وقف بين يدي الله جل وعلا فانه يحمد الله جل وعلا بمحامد لا تحضره في الدنيا، إنما يفتح الله عليه بها في ذلك المقام .

ثالثا: ثم يخر ساجدا لله جل وعلا ويدعو الله عز وجل ساجدًا ما شاء الله.

رابعا: ثم في سجوده يثني على الله جل وعلا ثناء ما فتحه الله عز وجل على أحد من قبل.

خامسا: ثم يرفع رأسه بعد أن يقول الله له«يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع»،

هنا أيضا قبل أن يشفع، يثني على الله، ويحمده بمحامد لم يكن يحصيها في الدنيا، قال: (ثم أشفعُ).

أفبعد هذا يقال إن النبي ﷺ مالك للشفاعة؟ أو أن الناس تتعلق قلوبهم بالنبي ﷺ من جهة أنه مالك للشفاعة أو أنه يأذن إذا شاء لا بعد إذن الله سبحانه تعالى؟

قال رحمه الله: وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:255]

و"**من**" هاهنا اسم استفهام يراد به النفي، وقد مر بنا أن النفي إذا كان بصيغة الاستفهام فإنه يكون مشوبًا بالتحدي، فهو أبلغ من النفي المجرد،

وبهذا يتضح لنا أن الأمر عظيم، وأن الله عز وجل أجل وأعظم من أن يتقدم أحد بين يديه بالشفاعة قبل أن يأذن سبحانه وتعالى، بل لا يملك أحد أن يتكلم أصلا، فضلا عن أن يشفع عند الله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[هود:105].

قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم:26]

هذه الآية جمعت شرطي الشفاعة المثبتة التي تكون يوم القيامة، والشرطان هما:

- إذْن الله للشافع أن يشفع
- ورضاه عن المشفوع له.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ "**كم**" هذه خبرية تفيد التكثير،

أي أن ملائكته سبحانه وتعالى كثُر، ومع ذلك ومع ما هم عليه من جليل القدر والوصف، ومع ذلك فإنهم لا يملكون أن يشفعوا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم، ويرضى عن المشفوع له، وإذا كان هذا في حق الملائكة، فكيف لغيرهم.

والمقام ها هنا يرجع إلى ضرورة استحضار ثلاثة أصول نبه عليها بن القيم رحمه الله

أولاً: أنه لا شفاعة إلا من بعد إذن الله.

➢ **وثانيًا**: أنه لا شفاعة إلا فيمن يرضى الله عنه.

➢ **وثالثًا**: أنه لا يرضى إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ.

السبب الذي يوصلك إلى شفاعة النبي ﷺ وشفاعة الشفعاء، هو التوحيد الخالص،

لاحظ أن أبا هريرة رضي الله عنه،سأل النبي ﷺ عن أسعد الناس بشفاعته،

قال ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه**».

لم يقل النبي ﷺ أسعدهم من طلبني الشفاعة، أسعدهم من تعلق قلبه بي لنيل الشفاعة، كلا، السبب الموصل بعد توفيق الله جل وعلا إلى نيل الشفاعة هو التوحيد الخالص.

وقوله:﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**﴾[سبأ:22]"الآيتين"

هذه الآية وما بعدها مر الحديث عنهما، وقلنا إن هذه الآية، قال العلماء إنها تقطع جذور الشرك من القلب،وذلك أن كل تعلق بغير الله إنما يرجع إلى واحد من هذه الأسباب الأربعة:

1. أن يعتقد في هذا المتعلق به أنه مالك للسموات والأرض وهذا منفي قطعًا،
2. أو أن يكون له شراكة مع الله عز وجل في الملك، وهذا منفي أيضًا.
3. أو أن يكون معينًا وظهيرًا لله سبحانه، وهذا منفي أيضًا.
4. أو أن يكون شافعًا، فيتعلق به المتعلق ويتقرب له المتقرب،لأجل أن يشفع له عند الله ﷻ

إذاً عاد الأمر كله إلى الله، فحقيقة الحال ، أن الله شفع من نفسه إلى نفسه ليرحم عبد وأراد أن يكرم الشافع.

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ (نَفَى اللهُ عَمَّا سِواهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُ، كَمَا قَالَ تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا المُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا القُرآنُ).

أبو العباس هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميه الحراني،وهذا الكلام الذي يسوقه المؤلف، كلام مهم، أورده أو ذكره شيخ الإسلام في كتابه "الإيمان".

الله ﷻ قد أكثر في كتابه من نفي الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا، من اعتقد هذه الشفاعة فإنه يكون قد هضم حق الربوبية،وانتقص عظمة الإلهية،وأساء الظن برب العالمين.

﴿ (وأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ –لاَيَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «ارفع رَأسَكَ وقُل يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَ،وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»)،

يحمد قبل أن يسجد، ويحمد إثناء السجود، يحمد بعد أن يرفع رأسه من السجود

﴿ (فَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟، قَالَ مَنْ قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلاَ تَكُونَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ).

لا تكون لمن أشرك بالله﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، كيف أن هؤلاء تعلقت قلوبهم بالشفاعة تعلقًا عظيمًا، فاتخذوا السبب الذي حرمهم منها، شيء عجيب.

﴿ (وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ هو الذِي يَتَفضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلاَصِ، فَيَغْفِرُ لَهُم بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَن أَذِنَ لَهُ أَنْ يِشْفَعَ لِيُكرِمَهُ ،وَيَنَالَ المَقَامَ المَحْمُودَ. فَالشفَاعَةُ التِي نَفَاهَا القُرآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِركٌ، ولهذا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَواضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النبيُ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونَ إِلَّا لِأَهْلِ التَوحِيدِ والإِخْلاصِ،انتهى كَلَامُهُ)

هذا كلام مهم ونفيس ولخص لك الموضوع جملة،

فائدة عن كتاب:أوصيك إن كنت طالبا للفائدة، أن ترجع لموضع مهم لابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان، لأنه من أحسن المواضع في بيان الفرق بين الشفاعة الثابتة التي دل القرآن عليها، والشفاعة المنفية التي اعتقدها المشركون في آلهتهم، والله تعالى أعلم.

١٨– باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص:56]. (المجلس الأول)

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب وبين هنا أن الهداية ملكٌ لله جل وعلا؛ فلا تُطلب إلا منه. وإذا كان من المشركين، من أشرك لأجل طلب الشفاعة؛ فإن منهم من أشرك لطلب هداية القلوب وغفران الذنوب من غير الله ﷻ، فالهداية إنما يختص الله ﷻ بها، وبالتالي، فإن من طلبها من غير الله فقد أشرك مع الله.

والهداية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ جاءت على أربعة أنواع؛ فصلها ابن القيم رحمه الله في كتابه (بدائع الفوائد):

النوع الأول: الهداية العامة؛ أن الله سبحانه هدى كل مخلوقٍ لما ينفعه،ولما هو مستعدٌ له:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه:50]،

هو الذي هدى النملة لعملها، وهو الذي هدى الطفل لأن يمسك الثدي ويمتص الحليب منه،وهو الذي هدى اليد،والرجل،والعين،وهذه هدايةٌ يختص الله ﷻ بها،فلا يشركه فيها أحد.

النوع الثاني: هداية الدلالة والبيان والإرشاد والتعريف:

بمعنى أن الله ﷻ يدل ويرشد إلى طريق الحق، وإلى الصراط المستقيم،﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾

وهذه الهداية كما أن الله ﷻ يفعلها، كذلك أعطاها لمن شاء من خلقه؛ فالنبي ﷺ وإخوانه من الأنبياء، وكذا الدعاة والمصلحون، كلهم يهدون هذه الهداية، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:7]، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾[الأعراف:]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:52].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام؛

بمعنى هداية القلوب إلى الحق، وتوفيق النفوس إلى التزام توحيد الله، وما بعث الله به رسله.

وهذه الهداية هي محور الحديث لهذا الباب، وهي المرادة في هذه الآية التي بوب المؤلف رحمه الله هذا الباب عليها

هذه هدايةٌ خاصةٌ بالباري ﷻ، لا يشركه فيها أحد، الله جل وعلا وحده هو الذي يملكه وهو الذي يمنحها من يشاء: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[النور:46].

النوع الرابع: الهداية الأخروية؛هداية أهل الجنة إلى طريق الجنة،وهداية أهل النار إلى النار

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[يونس:9]. وأيضًا ما ثبت في البخاري من حديث أبي سعيدٍ الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النار، حُبسوا على قنطرةٍ بين الجنة والنار، فيُقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم، حتى إذا هُذّبوا ونُقُّوا أُذن لهم بدخول الجنة**»، ثم قال ﷺ، وهو موضع الشاهد: «**فوالذي نفسي بيده، إن أحدهم لأهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**»

كذلك الشأن في أهل النار قال جل وعلا: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:23].

نعود إلى محور الحديث؛ **وهو هداية التوفيق والإلهام:**

معتقد أهل السنة والجماعة في هذه الهداية يتلخص في أربعة أمور:

➢ **الأمر الأول: يعتقد أهل السنة والجماعة أن الهداية حقٌ لله، فهو الذي يهبها من يشاء،**

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[يونس:25]؛ ولولا أن الله هدى المهتدي ما كان ليهتدي، مهما فعل، ومهما تعلم، ومهما استعمل من رياضةٍ نفسية.

وبالتالي فمن اعتقد أن غير الله جل وعلا يملك هذه الهداية فقد **أشرك الشرك الأكبر**،

هداية التوفيق **من فروع ربوبية الله سبحانه.** فكما أن الله ليس له شريكٌ في الخلق والملك والرزق والتدبير، كذلك ليس له شريكٌ في **الهداية**، في قول الله جل وعلا في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

كما أن الخلق لله ﷻ؛ فلا أحد يُبْدُع الخلق، أو يبدأ الخلق، كذلك الهداية. ولذلك عقب هذه الآية بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[يونس:35].

➢ **الأمر الثاني: أن الهداية محض فضلٍ من الله ونعمة.**

الله جل وعلا إذا هدى من هدى فإن ذلك راجعٌ إلى إنعامٍ وفضلٌ منه سبحانه لا شريك له؛ فليس للعبد حقٌ على الله. ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[البقرة:105].

➢ **الأمر الثالث: أن هداية الله جل وعلا، وتفضله بهذه النعمة راجعٌ إلى علم الله وحكمته**؛ فهو سبحانه يعلم المحل اللائق بنعمته.نعمة الله جل وعلا لا تتعارض مع علم الله وحكمته؛

وليس الأمر راجعًا إلى محض مشيئة الله ﷻ. يخطئ خطأً كبيرًا من يظن هذا الأمر

تأمل معي قول الله جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾[الأنعام:53] ماذا رد الله عليهم؟﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[الأنعام:53].

إذًا الله سبحانه **يعلم** من يناسب أن يوضع فيه هذه النعمة، فيضع النعمة حيث تقتضي **حكمته** ﷻ.

۞ هذه الأمور الثلاثة جمعها موضع في كتاب الله في سورة الحجرات.

أولا: قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ هذا هو الضابط الأول؛ **الهداية إلى الله راجعةٌ إلى مشيئته.**

ثانيًا: قال سبحانه:﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الأمر محض تفضلٍ وإنعامٍ من الله جل وعلا،

ثالثا: قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:8] هذه المشيئة كانت مقترنة بعلم الله وحكمته؛

➢ **الأمر الرابع: أن أهل السنة يعتقدون أن تفضل الله ﷻ بالهداية له وجهان:**

✸ **الوجه الأول: أنه يبتدئ بالهداية من شاء**، وهذا ما يمكن أن نسميه الهداية الابتدائية.

يعني أن لله سبحانه لطيفةً يبتدئ بها من يشاء، ويوقعها في قلب من أحب، فتعود عليه بالهداية، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[الأنعام:122].

يكون الإنسان كافرًا وإذا بقلبه يهتدي إلى الحق، أو يكون مبتدعًا فيهتدي إلى السنة، أو يكون فاسقًا فيُهدى إلى الطاعة.

✸ **الوجه الثاني: وهو الهداية اللاحقة**؛ يعني أن من فتح الله ﷻ على قلبه، وقذف في قلبه النور والبصيرة، فعمل الخير، وأقبل على الهدى، فإن الله ﷻ يجازيه على ذلك بأنه يهديه إلى حسنةٍ أخرى، فإذا عمل الثانية هداه إلى حسنةٍ ثالثة، وهكذا. إذًا هو الذي أنعم ابتداءً، ثم جاز بعد ذلك بنعمٍ متتالية؛ لأن ربك شكور ﷻ. تأمل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾[محمد:17]، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:29]،﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:70- 71]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾[الليل:5-6] كانت النتيجة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:7].

إذًا من اعتقد أن غير الله يهدي، فإنه قد وقع في هوةٍ سحيقةٍ من الشرك. وهذا الذي وقع فيه من وقع من **عُبّاد القبور من الغلاة في الأولياء والأنبياء والصالحين**؛ فإنهم اعتقدوا فيهم أنهم يكشفون الكروب، ويهدون القلوب، ويغفرون الذنوب.

ولذلك كان من أنفع الأدعية، بل من أوجب الأدعية عليك أن تقول: **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾**، وعليه أن يحسن تأمله وتدبره، وأن يحضر قلبه عندما يتلفظ به،

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذه الدعوة تتناول:

هداية الدلالة وهداية التوفيق أيضًا،

لابد من الأمرين، وإلا فعلمك بالحق فقط دون أن تعمل به لا ينفعك، بل هو حجةٌ عليك.

فأنت بحاجة إلى الهداية دائمًا وأبدًا، وفي كل وقت، بحاجةٍ إلى أن تهتدي إلى الإسلام، ثم بحاجةٍ إلى أن تهتدي إلى تفاصيل الإسلام، والعمل بهذه التفاصيل.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ونكرر دائمًا هذه الدعوة، ولذلك بعضهم يفسر ذلك بقوله: **ثبتنا**. واعلم يا رعاك الله أن التثبيت هو بعض المعنى لا كله، وإلا

- فأنت بحاجة إلى أن تهتدي إلى معرفة تفاصيل الحق، وتفاصيل ما يكون في الصراط المستقيم؛ لأن للإسلام وللحق تفاصيل كثيرة، وكثيرٌ من الناس يجهلها، فأنت بحاجة إلى أن يهديك الله ﷻ إلى العلم بها،
- ثم أنت بحاجةٍ إلى أن يهديك الله إلى إرادة هذه التفاصي**ل**، وإلا فلو كان في قلبك كسل أو إعراض فإنك لن تلتزم بها.
- ثم أنت بحاجةٍ إلى إعانةٍ من الله سبحانه وتعالى على القيام بها.
- ثم أنت بحاجةٍ بعد ذلك إلى هدايةٍ من الله لأجل أن تثبت على هذا الخير.
- ثم أنت بحاجةٍ إلى هدايةٍ من الله ألا يضيع هذا الخير الذي فعلته بأن يُحبط بسبب سيئاتٍ تأتي منك بعد فعلك هذا الخير.

يقول الله جل وعلا مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:56]. إذا كان النبي ﷺ وهو هو سيد ولد آدم، وأرفع الناس درجةً عند الله، ومع ذلك لا يملك الهداية لأحد؛ لا يملكها لأحد **وهو حي،**

فكيف يملكها وهو ميت؟ وإذا كان هو لا يملكها لأحد؛ فلا شك أن غيره من باب أولى،

بل انتفى في حقه ﷺ أمران، من اعتقد واستيقن بهما زال عنه كل تعلقٍ بالمخلوقين:

الأول: **أن يكون النبي ﷺ مالكًا للنفع والضر، ومن ذلك** الهداية،﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وهذا ما بينه الله جل وعلا في آياتٍ كثيرة: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾[الجن:21]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هو لا يملك ﷺ هذه الهداية، بل لا يملك لنفسه هو ﷺ فضلًا عن غيره ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:188]، وظيفته ﷺ وواجبه أن يكون داعيةً إلى الله، رسولًا لله، مُبَلِغًا عن الله، لا أن يكون هاديًا وملهمًا للقلوب.

الأمر الثاني: **انتفاء علمه ﷺ بالغيب،**

قال تعالى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:125] من يهتدي ومن لا يهتدي، هذا من علم الغيب الذي اختص الله ﷻ به، وليس للنبي ﷺ من ذلك شيء،حتى بعض أفراد الغيب، فضلًا عن أن يكون محيطًا بعلم الغيب كله، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾

ولو كان يملك الهداية لكان أعطاها لعمه أبي طالب، هو الذي أحاطه ورباه ووينتصر له، ويغضب له، فلو كان النبي ﷺ يملك الهداية لأعطاه إياها.

والأمر الثاني أنه انتفى في حقه علم الغيب؛فلو كان النبي ﷺ يعلم الغيب لتوقف عن هذا الاجتهاد في دعوة أبي طالب إن كان يعلم ما في اللوح المحفوظ

.

الدرس السابع والعشرون -٤٩٣ ١٨- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (المجلس الثاني)

﴿ (وفِي الصَّحيحِ عَن بن المُسَيَّبِ عَن أَبِيهِ قَالَ: "لَمَّا حَضرَتْ أَبَا طَالِبِ الوَفَاةَ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِندَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُوجَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ:يا عَمِّ قل (لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ)، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِندَ اللهِ، فَقَالا لَهُ: أَتَرغَبُ عَن مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ ﷺ، فَأَعَادا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عبد المطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنْهَ عَنْكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ التوبة ١١٣، وأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِيَ طَالِبِ ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القصص ٥٦.

(فِي الصَّحِيحِ): يعني في الصحيحين

(عن ابن المسيب): وهو الإمام الجلّيل سعيد ابن المسيب ابن حزن المخزومي القرشي، سيد من سادات التابعين وأحد أجلّاء التابعين أو أجلّهم توفي سنة أربع وتسعين على الصحيح

يحكي ويروي عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومي، صحابي من أهل الشجرة وكذلك أبوه حزن المخزومي كان صحابي أيضا، إذا سعيد تابعي وأبوه وجده صحابيان.

والنبي ﷺ له أربعة أعمام، واللذان لم يكن أسمهما معبدًا لغير الله أسلما حمزة وعباس وهذا من العجيب، أما اللذان كان أسمهما معبدا لغير الله ما أسلما، فأبو طالب أسمه عبد مناف وأبو لهب عمه الأخر كان أسمه عبد العزّى، وكلاهما ماتا على الكفر.

«لما حضرت أبا طالب الوفاة» الذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا إنما كان قرب الأجل ودنا الأجل وبدت العلامات التي في الغالب يعقبُها الوفاة.

قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: يا عم! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»

النبي ﷺ أستعمل أحسن الأساليب وأحكم الأساليب في الدعوة.

- أولًا: **كيف أستعطفه وأستثار شفقته فقال:** يا عم، حتى يُلَيِّنَ قلبه لأنه يعلم مدى محبته للنبي ﷺ، فقدم بهذه الكلمة التي عساها أن تلين قلبه،

«**كلمةً** »، ولك أن تقول (**كلمةٌ** أحاج لك بها عند الله) يعني

أما أن تكون بدلًا من كلمة التوحيد،

أو تكون خبرًا لمبتدأ محذوف هي كلمةٌ أحاج لك بها عند الله.

➢ **ثانيًا**: **كيف أنه سهل الأمر عليه وقال**: هي كلمة، قلها تنتفع بها ليس الأمر عسير وليس الأمر شاقا، إنما هي كلمة،

وهذا نستفيد منه درسا مهما في الدعوة إلى الله جل وعلا وهو ضرورة التيسير على المدعوين .بسلوك هدي النبي ﷺ، وهو التيسير والتسهيل لا التعسير، النبي ﷺ قال: (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) قال النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى: «**يسرا ولا تعسرا**»،

➢ **ثالثا**: **كيف أن النبي ﷺ حثه ورغبه في أن يسلم بقوله**: **(أحاج لك بها عند الله)**،

هذا فيه دافع وفيه ما يرغب ويحث على الدخول في الإسلام.

فائدة: أن النبي ﷺ أمره أن يقول (لا إله إلا الله) وهو الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، وهو فمن أدعى أنه قد آمن لكن أبى أن ينطق بلا إله إلا الله، ولا عذر له في عدم النطق، لكنه أبى أن ينطق بلا إله إلا الله فإنه لا يمكن أن يكون مسلمًا إلا إذا نطق بلا إله إلا الله.

ذن لابد من النطق مع يقين واعتقاد وتصديق وإخلاص القلب،

الجواب على سؤال، وهو كون النبي ﷺ أقتصر على شهادة الوحدانية دون الشهادة بالرسالة للنبي ﷺ؛ والجواب عن هذا أن إحدى الشهادتين تتضمن الأخرى، وبيان ذلك أن لا إله إلا الله تعني لا معبود حق إلا الله وبالتالي فلابد من إيمان بالنبي محمد ﷺ، وإلا فكيف يعبد ربه؟ لا يمكن أن تكون عبادة إلا من طريق النبي ﷺ.

ولاحظ أمرا آخر وهو أن أبا طالب لم يكن عنده تردد في شهادة أن محمد رسول الله، إنما الإشكال كل الإشكال كان في أنه أبى الشهادة الكبرى وهي شهادة أن لا إله إلا الله،

«**قالا له أترغب عن ملة عبد المطلب؟**» **قالا**: أي أبوجهل وعبد الله بن أبي أمية

هذه حجة كثيرا من الكفار في كفرهم فإنهم إذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله ماذا يكون جوابهم؟ ﴿**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾[البقرة:170]﴿**إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[الزخرف:23].

ولكنها حجة داحضة لن تنفعهم وسيندمون عليها أشد الندم وهم يتلظون في النار، نسأل الله السلامة والعافية، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[الأحزاب:67].

«فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا».

أنظر حرص النبي ﷺ وأنظر شفقته وأنظر إلى جده وهمته، أعاد النبي ﷺ الدعوة كررها ما اكتفى بالدعوة السابقة وما قال: إن اهتدى فلنفسه وإلا فلا يضرني قد قامت عليه الحجة،

وكان الكفار يعلمون أن لا إله إلا الله تقتضي إفراد الله جلّ وعلا بالتوحيد والكفر بكل ما يعبد من دون الله، لكن هذا العلم ما نفعهم لأن العلم وحده والتصديق وحده لا ينفع صاحبه مالم يتبع ذلك قبول وانقياد.

فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

الظاهر والله أعلم أنه قال أنا على ملة عبد المطلب، لكن عدل وغير بعض الرواة اللفظ، وذلك كأنه كان منه استعظاما أن يقول هذه الكلمة، أنا على ملة عبد المطلب!

الشاهد أبى أن يقول لا إله إلا الله، هذا هو كفر أبي طالب، كان كفر إباء واستكبار.

الكفر أنواع:

منه كفر تكذيب،

ومنه كفر نفاق،

ومنه كفر شك،

ومنه كفر إباء واستكبار، وذلك أنه كان يعلم الحق لكنه أبى وأستكبر وعاند عن قبوله.

۞ وسبب ذلك راجع إلى أمرين:

الأول: الحمية لآبائه ودين قومه، كانا أحب أليهم من الحق، وكانوا مستعدين لأن يتركوا كل شيء في سبيل الحفاظ عليه وهو تقليد الآباء والأسلاف

الثاني: ما جاء مصرحا به في رواية عند مسلم وهي أنه قال للنبي ﷺ: (لولا أن تعيرني قريش فيقولون أسلم خوف الفزع لأقررت عينك بها).وهذا والله من أعجب الأشياء، أنه ما أراد أن يتكلم فيه الناس، أن

ينالوا عرضه وأن يشوهوا سمعته وأن يعيروه،يقولون أسلم لأنه ماذا؟ خائف؛ يخاف من عذاب الله ولأجلّ هذا أسلم، سبحان الله العظيم، وهل الخوف من عذاب الله شيء يعير به؟ إن الخوف من عذاب الله ﷻ لا شك من أنه من أرفع مقامات الإيمان، ومن سُلب هذا الخوف فإنه سلب الإيمان والعياذ بالله.

الشاهد أن أبا طالب علم الحق يقينا ولكنه أبى وأستكبر أن يدخل في الإسلام،

✿ وهذا فيه دروس وفوائد وحكم كثيرة:

أولا: أن تعلم عظمة الله ﷻ، وأن الأمر منه وإليه جلّ وعلا، فالقلوب والهداية إنما هي بيده تعالى، وبالتالي من أستيقن بهذا فإنه يخرج من قلبه كل تعلق بالمخلوقين،الهداية من الله ﷻ.

ثانيا: أن تعلم أن الإسلام والإيمان شيء وراء التصديق، ليس هو تصديقا فحسب، بل هو نطق يتبعه انقياد وقبول لأحكام الله ﷻ، ولذلك ما أنتفع أبو طالب بتصديقه النبي ﷺ.

ثالثا: أن تعلم خطر الصحبة السيئة، وأنها من أسباب الانحراف عن الحق فالصاحب السيئ كنافخ الكير، سيصيبك الضرر منه ولابد: **(ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِى)**، فاحذر من كل صاحب سيئ، وعليك بصحبة أهل الحق وعليك بصحبة أهل الخير فإن صحبتهم من أسباب الوصول إلى الحق.

وهذه القصة تدلنا على أن الصحيح الذي لا شك فيه هو أن أبا طالب ختم له بخاتمة السوء، ولأنه جاء في أخر الحديث أبي أن يقول لا إله إلا الله.

الزعم أن أبا طالب قد أسلم، هذا خطأ وباطل قطعا

لو أسلم أبو طالب لما أنزل الله ﷻ في حقه:﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾

ولو كان أبو طالب قد أسلم لما قال النبي ﷺ: «**لاستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك**».

ولو كان أبو طالب قد أسلم لما كان النبي ﷺ يقول: وقد قال له العباس ، يسأل عن أخيه: « **يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم هو في ضحضاح من النار**»، يعني كناية عن مكان أهون من غيره في نار جهنم.

الضحضاح: هو ما قلَّ من الماء حتى لا يكاد يبلغ الكعبين.

ولو كان أبو طالب قد أسلم، لما قال النبي ﷺ والحديث في الصحيح: «**أهون أهل النار عذابا أبو طالب، ينتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه**».

فقال النبي ﷺ: «لاستغفرن لك ما لم أنهى عنك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾

«لاستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك»، وهذا كان منه ﷺ قبل أن يأتيه النهى من الله تبارك وتعالى عن أن يستغفر للمشركين، وبعد ذلك نزل قول الله جلّ وعلا الناهي عن الاستغفار للمشركين: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾

۞ وهاهنا إشكالان:

🡸 **الأول**: أن الحديث فيه أن هذه الآية نزلت بسبب هذه القصة وقول النبي ﷺ فيها، لكن يشكل على هذا أن الآية من سورة التوبة وهي مدنية، وهذه القصة كانت بمكة فإنه بالإجماع مات أبو طالب بمكة، فكيف تكون هذه القصة سببا لنزول هذه الآية، والجواب عن ذلك بأحد أمرين:

1. **إما بأن يقال**: إن الآية تأخر نزولها عن سببها، وهذا لا مانع منه.
2. **أو يقال**: بأنه تعددت أسباب النزول وهذا له نظائر في القرآن.

🡸 **الإشكال الثاني**: أن النهى قد جاء، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث أبن مسعود رضي الله عنه، أن أبن مسعود ﵁ قال: **«رأيت النبي ﷺ يحكى نبيا ضربه قومه فأدموه، يمسح الدم عن وجهه وهو يقول :اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**،

فكيف أستغفر هذا النبي والنبي ﷺ يحكي هذا مقررا مع أنهم كانوا مشركين؟

والجواب عن هذا ظاهر، وهو أن النبي كان يدعو لقومه وهم أحياء بأن يتوبوا ثم تكون لهم المغفرة من الله تبارك وتعالى يعني: اغفر لقومي بعد أن يتوبوا، كأنه يقول: أهدهم للسبب الذي به تغفرلهم؛ والله سبحانه أعلم.

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

فالنبي ﷺ كان محبًا ولا شك لهداية أبى طالب، ولأجلّ هذا جد وأجتهد في دعوته وإلي أخر لحظات حياة أبي طالب،

والقول الأخر: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ يعني من أحببته هو.

هذه محبة طبعيه ملازمة للإنسان في فطرته ولأجلّ هذا من الصعوبة بمكان أن يدفع الإنسان عن نفسه ذلك فهذه محبة طبعيه رخص فيها ولم يشدد على الناس فيها، مع وجوب بغض هذا الكافر لأجل كفره.

بقي الكلام في شأن أبي طالب وهي أن النبي ﷺ يشفع يوم القيامة في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، وهذا مما قلنا إنه من الشفاعات التي أختص بها النبي محمد ﷺ، وهذه على الصحيح مستثناة من شرط الرضى عن المشفوع له، ،

فالأصل أنه لا شفاعة في كافر: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:19]،
والأصل أيضا أنه لا يخفف العذاب عن الكفار، فلا يخفف عنهم العذاب بل ليس لهم إلا زيادة في العذاب، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:30].

بعض أهل العلم ذهب إلى أن الكافر يمكن أن تكون فيه شفاعة لكن في التخفيف لا في الإخراج من النار وأحتج هؤلاء بقصة أبي طالب وشفاعة النبي ﷺ فيه، ولكن هذا ليس بوجيه وذلك أنه يستلزم هذا ثبوت الشفاعة في غير أبي طالب من الكفار وهذا مما لم يثبت فيه دليل والقاعدة العامة كما أسلفت هي ما سبق، وهي أن الكفار لا يخفف عنهم العذاب.
هل ينتفع الكافر بشيء من حسناته؟ هذه المسألة لها وجهان:

الوجه الأول: **انتفاع الكافر بأعماله الصالحة في الدنيا،**

والمراد بالأعمال الصالحة: ما لم يفتقر إلى نية، كأنه يطعم مسكينا وما شاكل ذلك،
ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطي بها في الدنيا ويدخر له في الآخرة**».
أبشر يا أيها المسلم، الله يجازيك على حسناتك في الدنيا ويجازيك عليها أيضا في الآخرة، قال ﷺ بعد ذلك: «**وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله في الدنيا، حتى إذا لقي الله لم تكن له حسنة يجزى بها**»، إذن الكافر يجازى على العمل الصالح الذي يعمله في الدنيا، فالطعام والشراب والهواء والمال والولد والأمن وما شاكل ذلك، هذا هو جزائه على أعماله الحسنة التي عملها في الدنيا، وبالتالي فإنه لا يحاسب على هذا القِسْط من هذه الحسنات الدنيوية في مقابل أعماله الصالحة،

والوجه الثاني: **انتفاعه بها في الآخرة،**

الكافر يجازى ويحاسب ويعذب في الآخرة على ثلاثة أمور:

- على كفره بالله،
- وعلى معاصيه التي دون الكفر،
- وعلى النعم التي ما قام بشكرها.

وذلك أن الله جلّ وعلا ما أحل للكافر النعم، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الأعراف:32]، الله ما أحلها للكافر أحلها فقط للمؤمنين ولأجلّ هذا سوف يحاسب عليها الكافر يوم القيامة،

لكن هذا القِسْط الذي قابل أعماله الحسنة لن يجازى أو لن يحاسب عليه،

أما في الآخرة فالنص صريح كما قد علمت بأنه ليس له حسنة يجزى بها، ليس له أي شيء يجازى عليه يوم القيامة.

في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ فقالت: «**يا رسول الله، ابن جدعان**» تسأله عن عبد الله ابن جدعان أحد رجال الجاهلية المشهورين، **قالت: كانت له صدقات وعتاقات؛** يعني كان يتصدق على المساكين وكان يعتق الرقاب **قالت عائشة رضي الله عنها: هل نفعه ذلك؟ فقال النبي ﷺ: لا ينفعه»**.

ولو كان ينتفع بهذا أي انتفاع ولو في تخفيف العذاب، لما قال النبي ﷺ ذلك، قال: «**لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوما: ربي أغفر لي خطيئتي يوم الدين**»، يعني أنه كان كافرا بالبعث، وبالتالي كان كافرا بالله جلّ وعلا، فلا ينفعه ما قدمه في الدنيا، والأدلة على هذا كثيرة: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:23].

قال بعض العلماء إنه ينتفع بحسناته في التخفيف من عذاب النار في الآخرة،

وهذا استدلوا عليه بأمرين:

➢ **بقصة أبي طالب وبقصة أبي لهب.**

- **أما قصة أبي طالب** فقد أتضح لك أن تخفيف العذاب كان سببه ليس حسنته وإنما شفاعة النبي ﷺ، فخرج حينئذ عن أن يكون دليلا صحيحا،

- **بقينا في قصة أبي لهب، ما هي هذه القصة؟** في صحيح البخاري عن عروة ابن الزبير وهو أحد التابعين ولاحظ هذا، قال: إن أبا لهب لما مات رآه بعض أهله فسأله عن حاله فقال: "بشر خيبة، يعني بشر حال، غير أني سقيت في هذه وأشار إلى نقرة أو نقطة أسفل إبهامه، أو بين إبهامه وسبابته، قال: غير أني سقيت في هذه بعتق ثويبة".

ثويبة مولاة كانت له، لما جاءت إليه مبشرة بولادة النبي ﷺ فرح فأعتقها، يقول هذا كان سببا لماذا؟ لأني سقيت هذا الشيء النذر اليسير من الماء. فقال هؤلاء: هذا دليل على أن العمل الصالح ماذا؟ يخفف من العذاب، ورفع بعض الناس سقف الاستدلال إلى أن جعلوه دليلا على إقامة الموالد وهو دون شك أبعد وأبعد في الضعف.

✹وهذا الاستدلال فيه نظر:

أولا: من صاحب القصة الذي يرويها لنا؟ عروة ابن الزبير، إذا هذا الكلام من قبيل المراسيل، فعروه رضي الله عنه ورحمه، لم يدرك النبي ﷺ فضلا عن أن يدرك أبا لهب

وثانيا: أن القصة بقضها وقضيضها ما هي إلا رؤيا منامية، وباتفاق أهل العلم أن الرؤيا المنامية لا تثبت بها الأحكام، فكيف وهي معارضة لما دل عليه الكتاب والسنة،

ثم إن الذي رأى قال: رآه بعض أهله؛ من الذي رأى، وكيف هو حاله، وما مدى ثقته وضبطه؟ هذا أيضا مجهول، لا ندرى من الذي رأى، بل لا ندرى هل كان مسلما أو غير مسلم، إذن أتضح لنا أن الاستدلال بهذه القصة استدلالا ضعيفا لا يصح،

وأن القاعدة هي: أن الكافر لا ينتفع بشيء من أعماله الصالحة في الآخرة.

ختامًا في هذا الباب: وهو أن التعلق في شأن الهداية يجب أن يكون بالله تبارك وتعالى وأنه ليس لأحد من الخلق ،لو كان سيد ولد آدم، وهو النبي محمد ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[البقرة:272]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:56].

وكذلك ينبغي على الإنسان أن يتأمل في هذه القصة العجيبة فيعلم أن الذي ينفعه عند الله جلّ وعلا الإيمان والتوحيد وصدق الأتباع للنبي ﷺ، وأن النسب الشريف والقربى من الصالحين بل القربى من النبي ﷺ لا ينفع صاحبه ما لم يكن إيمانا وتوحيد.

الدرس الثامن والعشرون -٥١٥

١٩-بَابُ مَا جَاءَ أَن سَبَبَ كُفرِ بني آدمَ وتَرْكِهِم دِينهُم هُو الغُلُوُّ في الصَالحِينَ

فبعد أن بَيَّن المؤلف رحمه الله طائفةً من أعمال المشركين، عَقّب بذكر سببٍ هو الأهم بين أسباب الوقوع في هذا الشرك؛ ألا وهو الغلو في الصالحين.

(**هو**) ضمير الفصل (هو الغلو في الصالحين) أنه سبب شرك بني آدم وسبب تركهم دينهم،

(**الغلو**). والغلو عامةً مذموم، وفي الصالحين أشد كراهة.

الغلو في اللغة: تدور مادتُه على مُجاوزة الحد، ومنها غلا السعر؛ لأن يتجاوز حده.

وفي الشرع: هو مجاوزة الحد الشرعي؛ يعني مجاوزة ما أمر الله ﷻ به، وهذا عام يشمل كل القضايا الشرعية، سواءً تعلقت بالعبادة، أو تعلقت بالاعتقاد، أو تعلقت بمعاملة الصالحين.

فالغلو في العبادة: يعني التسلط والتشدد فيها بزيادةٍ عن الحد الشرعي، أو ترك رخصة الله ﷻ، أو الإثقال على النفس في النوافل حتى تمل، فإن المنبت لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع.

والغلو في الاعتقاد: يكون بمجاوزة الحد الذي أمر الله جل وعلا به؛ فالغلو في إثبات الصفات يؤدي إلى الوقوع في التشويه، والغلو في التنزيل يؤدي إلى الوقوع في التعطيل، والغلو في إثبات القَدَّر يؤدي إلى القول بالجبر، وهكذا.

الغلو في الصالحين؛ مجاوزة الحد الشرعي في التعامل معهم، يؤدي إلى الوقوع في معاطب، وإلى الوقوع في أخطاءٍ عظيمة، وذلك برفعهم عن الحد الذي أمر الله ﷻ وشرع، وهو محبته في الله وتقديرهم وتعظيمهم تعظيمًا لائق بهم.

أما الزيادة على ذلك بأن يُرفعوا إلى مقام النبوة فيُعتقد عصمتهم، أو يُرفعوا قدرهم إلى درجة الألوهية، فيُدعون ويُعبدون مع الله، أو تُرفع درجتهم أكثر من ذلك، فيُعتقد فيهم الربوبية.

ما هو الأكثر شيوعًا في إيصال إلى الشرك ولماذا؟ هوالغلو في الصالحين، وذلك أن الشيطان يزين الشرك إلى الناس في طلب محبة الصالحين وتعظيمهم، حتى يتوصل إلى الإيقاع بهم؛ فيعبدونهم من دون الله ﷻ.

ما هي النتيجة الغلو في الصالحين؟ هي إما عبادة قبورهم، أو عبادة صورهم وتماثيلهم،

فمن نصيحة المؤلف لإخوانه المسلمين عقد هذا الباب: حتى يحذر المسلم من هذا الطريق الذي يوصل إلى الضلال، الذي أمر الله جل وعلا به أن يسلك الإنسان مسلك الوسطية والاعتدال، وإعطاء كل ذي حقٍ حقه.

قال جل وعلا: ﴿فَاستَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا﴾[هود:112]،

الطغيان قريبٌ في المعنى من الغلو،يعني مجاوزة الحد أيضًا،﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾تجاوز حده.

ولذلك تجد الأوامر والنواهي في الشريعة كلها تحذر من الغلو، ومن الطغيان،ومن التشدد.

أعظم وأهم ما ينبغي ملاحظته في هذا الباب وهو ما يتعلق بالغلو في الصالحين.

وقول الله ﷻ: ﴿يَا أَهلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[النساء:171].

هذا أمرٌ من الله ﷻ لأهل الكتاب ألا يغلوا في دينهم، ويتضمن هذا نهيَ هذه الأمة أن تفعل فِعل أهل الكتاب، فإن اليهود غلوا فقالوا:عزيرٌ ابن الله، والنصارى غلوا أيضًا فقالوا: المسيح ابن الله،فكان في هذه الآية تحذيرٌ لهذه الأمة أن تسلك ما سلكه من قبلها من الأمم.

(فِي الصَحيحِ عَن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في قَولِ اللهِ تعالى ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:23]. قَالَ: هَذِهِ أَسْماءُ رجالٍ صَالحينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فَلمَّا هَلَكُوا أَوحَى الشَيطانُ إِلى قومِهِم أَنِ انْصِبُوا إِلى مَجالِسِهِمُ التي كَانوا يَجلِسُون فِيها أَنْصَابًا،وَسمُّوهَا بِأَسمَائِهِم،فَفَعَلُوا،وَلَم تُعْبَدْ، حَتى إِذَا هَلَكَ أُولئكَ ونُسِيَ العِلمُ عُبِدَتْ).

هذا الأثر ذكره المؤلف رحمه الله معزوًا إلى الصحيح؛ وقد اختصر أوله؛ فإن ابن عباسٍ رضي الله عنهما بَيَّن في أوله مآل هذه الأصنام بعد الطوفان، وكيف وصلت إلى العرب،

هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح حملها الطوفان فيما حمل؛ فألقاها على ساحل جدة، وسفت عليها الرمال فغطتها، فجاء أساس الشر لعبادة الأصنام عند العرب، وهو عمرو بن لُحي الخزاعي، الذي أخبر

النبي ﷺ أنه رآه يجر قُصْبَه؛ يعني أمعاؤه في جهنم والعياذ بالله وذلك أنه أول من غَيَّر دين إبراهيم في العرب،إذ كان له رئيٌ من الجن،فأمره أن يذهب إلى جدة،هذه المدينة المعروفة على ساحل البحر، وأن يستثير هذه الأصنام، ففعل، فحملها معه حتى إذا جاء موسم الحج، أمر العرب بأخذ هذه الأصنام وعبادتها،وكان الرجل ذا مكانةٍ، كان مطاعًا في العرب فأطاعوه.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: صارت الأصنام التي كانت في قوم نوح إلى العرب،

فكانت **وَدٌّ**، والجمهور قرأوا بفتح الواو، وقرأ نافع وأبو جعفر بضم الواو **وُد**،

➢ **أما ودٌّ**: فكانت لكلبٍ بدومة الجندل؛ **دومة الجندل**: مدينة على أطراف الشام مما يلي العراق، ولعلها هي المدينة التي في شمال المملكة في منطقة الجوف،

كلب: قبيلة من قضاعة، هم الذين أخذوا هذا الصنم وذهبوا به إلى بلادهم وعبدوه هناك.

➢ **سواع**: فذكر أنه كان لهُذيل، وذكر المؤرخون أن محل هذا الصنم كان برُهاط، منطقة اسمها رُهاط، قيل أنها كانت بينبع، وقيل أنها كانت بديار هُزيل بالقرب من مكة، وهذا أقرب

فعبدوا هذا الوثن مع الله ﷻ، ووافقهم على هذا من والاهم من مُضر وغيرهم من القبائل.

➢ **أما يغوث**: فذكر ﷺ أنه كان لمراد ثم لبني الغطيف؛ وبنو الغطيف من مُرات، لكن يبدو والله أعلم أن هذا الصنم كان معبودًا عند كل قبيلة مرات، ثم اختص به بنو غطيف، وهؤلاء كانوا بمنطقة اسمها الجرف أو الجوف أو الجون باليمن، ثلاثة أقوال.

➢ **ويعوق**: فإنه كان لهمْدان، وهمدان أيضًا في اليمن، ذكر المؤرخون أن هذا الصنم كان بقرية اسمها خَيْوان، وأنها كانت على بُعد ليلتين من صنعاء للمُصعد إلى مكة.

➢ **وأما نسرٌ**: فكانت لحِمير لآل ذي الكَلاع، آل ذي الكلاع من حمير، في ديارهم في اليمن.

هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوحٍ، ... نوح عليه السلام ما أدركهم؛ إنما بُعث ﷺ بعد أن عُبدوا، وذلك بعد موتهم بمدة، قال ابن عباس (بين آدم ونوح عشرة قرون، كلها على شريعة الحق)، إلا لما خطط الشيطان هذا التخطيط، ووصل إلى مبتغاه من خلال عبادة الصالحين الذين كانوا في قوم نوح.

هذا أول شركٍ كان على وجه الأرض.

فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن ينصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم.

لما هلكوا: يعني:ماتوا. أوحى الشيطان إلى قومهم، ما يلقيه الشيطان في قلب ابن آدم يُسمى **إيحاءً:** ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[الأنعام:121].

والشيطان كما تعلمون يجري من ابن آدم مُجرى الدم. أوحى الشيطان إليهم قذف في قلوبهم، هذه الخطة التي أحكم تخطيطها؛ وهي أن هؤلاء الآن قد ماتوا، وأنتم أصابتكم الحسرة واللوعة لفَقدهم، ثم إنهم كانوا صالحين، فلأجل أن تتسلوا برؤيتهم، وتتعزوا برؤيتهم، ولا تشتاقون إليهم الشوق العظيم، يخفف عنكم ما تجدون أن تفعلوا ما آمركم به.

وأمر ثانٍ وهو أنكم تنشطون إذا رأيتم هذه الأنصاب ورأيتم هذه الصور والتماثيل التي تجعلونها عليها، فإن ذلك سيدعوكم إلى مزيد من النشاط؛ لأنكم ستتذكرونهم، تذكرون صلاحهم، فتجتهدون في طاعة الله جل وعلا، وهكذا زين لهم الشيطان هذا العمل القبيح.

إذًا حذار من أن يغتر أحدٌ بشبهة حق تروج الباطل،بل عليه أن يكون حكيمًا،وأن يعلم أن كل باطل، وأن كل إحداث، وأن كل بدعة لابد أن يكون فيها شوبٌ من حق تؤدي إلى ترويجها، و،لكن هذا لا يجعلها حقًا؛ بل لا تزال باطلًا وعلى الإنسان أن يحذر.

ثم أن نعلم أن للشيطان خطوات؛ الشيطان ليس له خطوة واحدة، الله جل وعلا يقول: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[الأنعام:142]، إذًا هو لا يصل إلى مبتغاه من خلال خطوة واحدة، يأمرك مباشرة بعبادة غير الله، كلا؛ بل إنه نفذ إلى ذلك من خلال خطوات.

قال رضي الله عنه: ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عُبدت.

في ابتداء الأمر لم تُعبد هذه الأنصاب التي نصبوها،

والأنصاب: هي الحجارة التي تُنصب فتتُخذ وثنًا يُعبد،

✿ **والذي وقع من هؤلاء هو عدة أمور، كما سيأتي أيضًا في كلام ابن القيم رحمه الله:**

أولًا: عكفوا على قبورهم.

ثانيًا: نصبوا هذه الحجارة عند قبورهم، وكأنه –والله أعلم- كانت قبورهم ومجالسهم متقاربة.

الأمر الثالث: أنهم نحتوا هذه الصخور على هيئة صور وتماثيل على هيئاتهم؛

فاجتمع أن كانت هذه أنصابًا وصورًا وأوثانًا وأصنامًا أيضًا، فلما كان الحال في ابتداء الأمر ماحصل شيءٌ زائد على ما كانوا عليه،إنما كانوا يرون هذه الصور،فينشطون في عبادة الله ﷻ.

لكن لما هلك الجيل الأول الذين كانوا يعلمون حقيقة الحال وجاء جيلٌ جديد جاهل، ما يعرف السبب، عند ذلك عُبدت.

وهذا يدلك على أن فقد العلم في الناس وفي الأوطان مصيبةٌ ليس بعدها مصيبة، أساس الشر والبلاء أن يقل العلم ويكثر الجهل. والعلم لا يقل، بل لا يذهب إلا بموت العلماء،

كما أخبر النبي ﷺ «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ينتزعه من صدور الناس، ولكن بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقي عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**».

ونُسخ العلم: وفي بعض روايات البخاري،: (وتنسَّخ العلم) يعني ذهب العلم بالشرع، لاسيما التوحيد، ما عندهم علمٌ بالتوحيد، وعلمٌ بحقيقة الشرك وبذرائع الشرك،.

نُسخ أو تنسخ العلم بسبب نصب هذه الأنصاب؛ جهلوا السبب،

ولأجل هذا جاءهم الشيطان بعد ذلك، وقال: إنما نُصبت هذه الأنصاب لأن هؤلاء كانوا معظَمين، كانوا يعبدونهم ويُرزقون بهم،

وفي بعض الروايات أنهم قالوا: ويطلبونهم الشفاعة، يشفعون لهم عند الله.

﴾ قال ابنُ القيمِ (قَالَ غيرُ وَاحدٍ مِنْ السَّلَفِ: لما مَاتُوا عَكَفُوا عَلى قُبُورِهِم، ثُم صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُم طالَ عليهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهم).

كان القبر والمجلس متقاربًا، فلأجل هذا تارةً يقال إنه نُصبت على مجالسهم، وتارةً يقال إنها نُصبت عند قبورهم، والمقصود واحد؛ فهؤلاء عكفوا على قبورهم، ونصبوا الأنصاب، وأيضًا نحتوا هذه الحجارة على هيئة صورٍ لهم فعُبدت بعد ذلك.

﴾ وعَنْ عمرَ رضي الله عنه أَن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارى ابن مَريمَ، إِنَّمَا أنا عَبدٌ فَقولوا: عَبدُ اللهِ ورَسُولُهُ».أخرجاه.

قال رحمه الله: أخرجاه؛ مع أنه في البخاري فقط وليس في مسلم. والحديث في غاية الصحة.

والإطراء:**هو مجاوزة الحد في المدح**،يعني كأنك تقول هو الغلو في المدح.

هذا نهيٌ صريح بلفظٍ فصيح من النبي ﷺ عن إطرائه، في مدحه، لم؟

لأن هذا ذريعةٌ إلى وقوع ما يكره الله، ألا وهو **الشرك** بالله سبحانه وتعالى. ولذلك وجدنا النبي ﷺ ينبه على دقائق في هذا المقام، يأتيه من يقول: (يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا) وإذا بالنبي ﷺ يكره هذا القول، يقول:«قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان».

آخر يقول: ما شاء الله وشئت، فيقول: «أجعلتني لله ندًا، قل ما شاء الله وحده».

حق النبي ﷺ أنه يُعظم التعظيم الشرعي بالقلب واللسان والجوارح.

تعظيمه ﷺ بالقلب هو: أن يُعتقد أنه رسول الله، هو أن يُحب محبةً عظيمة التي لا يفوقه فيها أحد إلا رب العزة سبحانه وتعالى، فأعظم محبوبٍ عند المسلمين هو ربنا عز وجل، ثم نبيه محمدٌ ﷺ .

باللسان: ألا تذكر هذا النبي الكريم ﷺ إلا بحفاوةٍ وتقديرٍ شرعي، وأنت تصلي عليه ﷺ كثيرًا، فإنك إذا عَمَّرت وقتك وعُمرك بالإكثار من الصلاة على النبي ﷺ فزت فوزًا عظيمًا.

أما بالجوارح: فبالمسارعة إلى طاعة النبي ﷺ مهما طرق سمعك أمرٌ من النبي ﷺ فقل: سمعًا وطاعة، وإذا طرق سمعك نهيٌ من النبي ﷺ فانتهي مباشرة،هذا هو التعظيم الشرعي.

(... قال:قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُم والغُلُوَّ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم الْغُلُوُّ»).

بيض المؤلف رحمه الله لمخرج هذا الحديث. والحديث عند النسائي، وابن ماجة، وغيرهما بإسنادٍ صحيح.

هذا نهيٌ من النبي ﷺ عن الغلو، قال:

«إياكم والغلو» يعني احذروا الغلو، فإن الغلو أمرٌ محرم ومنكر، يجب أن يجتنبه المسلم.

بَيَّن النبي ﷺ السبب الذي جعله يحذرنا هذا التحذير المؤكد،أنه كان السبب في هلاك من قبلنا.

ولِمُسلمٍ عَنِ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلك المُتَنَطِّعُونَ»،قالها ثلاثًا.

أن النبي ﷺ كرر هذا الكلام **ثلاث مرات؛ حتى يرسخ المعنى في نفوس المؤمنين،**

المتنطعون: **يعني المتعمقون**؛ يعني الذين يبالغون في الأمور، فيكون في المعنى قريبًا من الغلو. وذكر بعضهم أن **التنطع**: هو التقعر في الكلام، والإتيان بوحشي الكلام، أو بالتفاخر في الإعراب عند العوام والجُهال. ولا مانع أن يكون المعنى شاملًا لهذا ولهذا؛

«هلك المتنطعون» يعني أهل الغلو والمبالغة، وكذلك الذين يتشدقون ويتقعرون في كلامهم.

وهل هذا من النبي ﷺ دعاء أو إخبار؟ إذا قلنا أنه دعاء فواضح،

وإذا قلنا إنه إخبار، فإنه إخبارٌ يتضمن الدعاء،أو أن شئت فقول: هو دعاءٌ بصيغة الإخبار.

ولعل من أولى من يدخل في هذا الحديث أهل البدع الذين يتعمقون في أشياء ما كُلفوا بالخوض فيها؛ كأهل الكلام الذين يخوضون ويتعمقون في مباحث الصفات أو في مباحث
القدر، أو في غيرها حتى خرجوا إلى مخالفة سنن السلف الصالح.

الدرس التاسع والعشرون –٥٣٥

٢٠- بَاب مَا جَاءَ مِن التَّغْلِيظِ فِيمن عَبَدَ اللهَ عِندَ قَبرِ رَجلٍ صَالحٍ: فَكيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟ (المجلس الأول)

المؤلف رحمه الله بين في هذا الباب صورة من أخطر صور الغلو تأثيرا على الاعتقاد، الغلو في قبور الصالحين، فعقد لأجل التنبيه والتحذير هذا الباب والذي بعده والذي بعده أيضا.

(**التغليظ في من عبد الله عند قبر رجل فكيف إذا عبده؟**)

هذا التبويب يدلنا على فائدتين:

الأولى: **لزوم سد الذرائع إلى الشرك بالله جل وعلا**، وذلك أن التحذير والتشديد بل اللعنة قد ثبتت عن النبي ﷺ فيمن عبد الله عند قبر، وذلك لأنه ذريعة إلى الوقوع في الشرك.

الثانية: **التحذير من الشرك من باب أولي**، وذلكم أنه إذا كان قد ثبت هذا التغليظ في حق من عبد الله عند قبر فكيف إذا توجه بالعبادة لصاحب القبر؟ لا شك أن هذا أشد وأغلظ.

شريعة النبي ﷺ أسهل الشرائع وأيسرها في المعاملات لكنها أشد الشرائع في جانب حماية جناب التوحيد، وهذا ظاهر لمن تأمل الكتاب والسنة، وقد أورد المؤلف في هذا الباب أربعة أحاديث، كلها تدور على النهى عن اتخاذ القبور مساجد وعن البناء على القبور.

الأمر الأول: **النهى عن البناء على القبور**، وهذا يشمل صورتين:

الأولى: أن يبنى على القبر مسجد، يؤسس مسجد فوق القبر فيكون القبر داخله، في وسطه أو في طرفه.

والثانية: أن يبنى على القبر قبة أو نحوها وإن لم تجعل مسجدا فهذا كله مما نهت عنه الشريعة، بل نهت عما هو أقل من ذلك، وهو أن يرفع القبر مجرد ارتفاع زائد عن المعتاد، قال علي رضي الله عنه كما في صحيح مسلم: «**ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تَدَعَ صورة إلا طَمَسْتَها ولا قبرا مشرفا إلا سَوَيتَه**».

الأمر الثاني: **النهى عن اتخاذ القبور مساجد،**

وهذا أكثر ورودا وتصريحا في الأحاديث، واتخاذ القبور مساجد هذا الذي نهى عنه النبي ﷺ **له صور:**

➢ **أولا: أن يصلى على القبر،**

بمعني أن يقوم الإنسان عند قبر فيصلى عليه ويسجد عليه سجد ولا شك أن هذا أشد وأخطر الصور.

➢ **والصورة الثانية: أن يصلى إلى القبر**، بمعنى أن يجعل القبر في قبلته فيصلى إليه، ففي

سُئل عمر بن دينار التابعي الجليل رحمه الله عن الصلاة عند القبور

فقال رحمه الله: **«بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه لعن من أتخذ القبور مساجد»**،

وعلق البخاري رحمه الله في صحيحة ووصل ذلك ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بإسناد صحيح، أن عمر ؓ رأى أنس ؓ يصلى إلى قبر، وكان أنسا ؓ غافلا لا يدري أنه قبر، فصاح به وناداه وهو يصلى:(القبر القبر)، حتى إن أنس ؓ ظن أنه يريد القمر، يقول:(فرفعت بصري إلى السماء أظن أنه يقول القمر)؛ فقال:(إنما أقول القبر، لا تصلى إليه)، فكان بعد ذلك ؓ إذا كان مع بعض أصحابه يأخذ بأيديهم فيتنحى عن القبور ثم يصلى.

وثبت هذا صريحا في سنة النبي كما في مسلم **«لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»**.

➢ **الصورة الثالثة: أن يصلى عند القبر بمعنى أن يصلى في المقابر**، في أفنائها، وفي داخل سورها، وفي محيطها، فإن هذا أيضا داخل في مفهوم النهى عن اتخاذ القبور مساجد،

والنبي ﷺ قال: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها مقابر»**،

باستثناء صلاة الجنائز فإنها في المقابر جائزة-واصلاة التي هي ذات ركوع وسجود، هذه لا تجوز في المقابر بالإجماع. **نقل الإجماع على هذا** ابن حزم وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما

ويدل على هذا قول النبي ﷺ : **« كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمام»**.

وأن ضابط المقبرة :هو المكان المحاط الذي يوجد فيه قبر فأكثر، وهذا هو الصحيح،

أما قول من قال إنه لا يكون مقبرة إلا بوجود ثلاثة قبور فأكثر، هذا قول لا دليل عليه، ثم إن العلة المحظورة المخوفة في القبور الثلاثة موجودة في القبر الواحد، فدل هذا على أن المكان إذا كان فيه قبر كان مقبرة، وكانت الصلاة فيه منهي عنها من لدن رسول الله ﷺ.

➢ **الصورة الرابعة: هي أن يبنى مسجد على قبر**؛ بمعنى أن يموت ميت فيدفن في محل ثم يبنى مسجد فوق هذا القبر، والغالب على أهل هذا الفعل أنهم يفعلون ذلك رجاء بركة القبر.

➢**الصورة الخامسة: أن يموت ميت فيدفن في المسجد:** هذه الصورة عكس الصورة السابقة.

هذه صور خمس لمعنى قول النبي ﷺ:**«ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»**

والقاعدة الشرعية: أنهما اثنان لا يجتمعان، مسجد وقبر،

ومتي ما وجد أحدهما فالسابق هو الذي له الحكم، بمعني لو كان الذي تقدم زمنا هو القبر فالواجب إزالة المسجد وإبقاء القبر في محله لأن الحكم للأسبق، ولو كان الذي تقدم هو المسجد لكان يجب نبش القبر وإخراجه من المسجد لأن الحكم للأسبق.

❁ **الرد على بعض ما شغب به على هذا الحكم الذي بينه علماء أهل السنة والتوحيد، قالوا:**

☒ **أولا:** إن النهى عن الصلاة في المقابر واليها إنما هو خشية ملابسة النجاسة، فإذا أمن وضمن عدم ملابسة النجاسة فلا حرج أن يصلى الإنسان حينئذ في المقبرة أو إلى القبور.

والجواب عن هذا: أن هذه العلة غيْر صحيحة، بل العلة خوف ملابسة النجاسة **المعنوية** لا الحسية، نجاسة الشرك بالله ﷻ، وليس المقصود أن ها هنا نجاسة ينبغي على الإنسان أن يتوقاها، وبالتالي فإذا جزم أنه بعيدٌ عن النجاسة فإنه لا حرج.

☒ **قالوا إن هذا الميت يخرج منه صديد وهذا الصديد نجس**، وبالتالي فإنه قد يلامس الإنسان شيء منه إذا سجد أو ربما لامس ثيابه، لأجل هذا نهت الشريعة عن الصلاة في المقابر.

أولا: لا دليل على أن هذا الصديد نجس.

وثانيا:هل ما يخرج من الميت هو شبيه بالفوار الذي يصعد إلى فوق أو ينزل إلى تحت.

☒ **قالوا لعل هذه المقابر تنبش وبالتالي تخرج الأتربة التي في الداخل،**

أولا: فيقال هذه صورة نادرة وحمل أحاديث النبي ﷺ على الصور النادرة، أمر لا ينبغي كما هو مقررا في أصول الفقه.

وثانيا: هذا النبي ﷺ ينهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن أهل الكتاب لفعلهم هذا، وقبور الأنبياء بالإجماع لا تنبش، فلا توجد هذه العلة وبالتالي زال ما ذكروه،

إنما العلة سد الذريعة إلى ملابسة وملامسة النجاسة المعنوية ألا وهي نجاسة الشرك.

أما بالنسبة لبناء المساجد على القبور، أو الدفن في المساجد، وهذا من مفهوم اتخاذ القبور مساجد، فإن بعض الناس قد يلبس ببعض الشبه.

☒ **الأولى:** شبهة أدعوها في شأن عائشة رضي الله عنها حيث قالوا أنها كانت تصلى في بيتها وفيه ثلاثة قبور، وبالتالي كانت الصلاة في المكان الذي فيه قبور جائزة ولا حرج فيها.

والجواب عن هذا الذي قالوا أنه غير صحيح، بل هو نوع من التلبيس، يعني تصحو وتنام وتأكل وتشرب و تجلس بين القبور؟ هذا مالا يتصوره عاقل بل ولا يفعله عاقل.

إنما الأمر هو أن القبور الثلاثة: (قبر النبي ﷺ، وقبر أبي بكر وعمر)، كانت هذه القبور منفصلة عن المكان الذي كانت فيه عائشة رضي الله عنها، ولذلك لما دخل القاسم بن محمد بن أخ عائشة رضي الله عنها عليها،سألها أن تُريه قبر النبي ﷺ فكشفت السِترَ فأرته إياه.

والقاسم رضي الله عنه ورحمه بالتأكيد كان يصل رحمه ويزور عمته، مرات ومرات ومع ذلك لم رأي القبر حتى طلب في هذه المرة أن يشاهد القبر.

ولذلك كانت رضي الله عنها قبل دفن عمر إذا أرادت حاجة من المكان الذي فيه القبور دخلت وهي غير محجبة لأنها في بيتها، فلما دفن عمر رضي الله عنه ما كانت تدخل هذا المكان إلا وقد جمعت عليها ثيابها وهذا من حيائها وأدبها وحشمتها رضي الله عنها.

وها هنا فائدة في فعل القاسم بن محمد رحمه الله تدل على أن السلف رحمهم الله ما كانوا يأتون إلى قبر النبي ﷺ فيدعون ويصلون ويذكرون الله، إذ لو كان ذلك كذلك لكان القاسم قد رأى القبر وما أحتاج إلى أن يطلب مشاهدة قبر النبي ﷺ.

ويؤكد ما سبق ما ثبت عن الإمام مالك ابن أنس رحمه الله أنه قال: قُسمت حجرة عائشة رضي الله عنها باثنين فقسم كان فيه قبر النبي ﷺ وصاحبيه، وقسم كانت فيه عائشة رضي الله عنها وبينهما وبالتالي فهو مكان ممعزول.

☒ **الشبهة الثانية** قالوا: كيف تمنعونا من أن تكون القبور في المساجد وهذا قبر النبي ﷺ في مسجده والصلاة فيه جائزة بالإجماع، وبالتالي فيجوز أن ندفن الأموات في المساجد.

والجواب عن هذا:النبي ﷺ لما توفي أختلف الصحابة في محل دفنه، فاتفقوا بعد مجادلة ووجهات نظر أن يدفن في المكان الذي توفي فيه فرفع الفراش وحفر في المكان الذي قبض ﷺ فيه، ودفن ثم. **وكان ذلك منهم لأمرين**:

الأول: ما حدثهم به أبو بكر ؓ وهو أن النبي ﷺ أخبر أنه: «**ما من نبي يقبض إلا دفن حيث قبض**»، فاستجابوا لأمر النبي ﷺ ودفنوه في هذا المحل.

الأمر الثاني: أنهم خشوا رضي الله عنهم إذا دفنوا النبي ﷺ في البقيع، يعني في العراء أن يكون في هذا شبهة فيتخذ الجهال قبره مسجدا،ولولا ذلك لأبرز قبره،

والنبي ﷺ دفن في حجرة عائشة، أستمر الأمر على هذا حتى جاء بعد ذلك عهد الوليد بن عبد الملك، فأمر عامله على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يوسع مسجد النبي ﷺ، فهدم حُجَرُ أمهات المؤمنين، باستثناء حجرة عائشة رضي الله عنها، فلها شأن خاص. ووسع المسجد من جميع الجهات لكنهم لم يخرجوا إلى الجهة الشرقية، حيث انتهى ما يتعلق بتوسعة المسجد من الجهة الشرقية، إلى حد حجرة عائشة رضي الله عنها،
ثم هدم عمر رحمه الله حجرة عائشة وبناها بناء محكم أقوى من الأول، ثم إنه ومن معه من أهل المدينة وعلمائها بنوا جدارا مخمسا بعد حجرة عائشة رضي الله عنها،

وأرادوا بذلك أمرين:

أولا: ألا تجعل صورة الحجرة كصورة الكعبة.
ثانيا:حتى لا تكون صورة المصلي في الخلف إلى القبر، الذي هو في داخل الحجرة
وأستمر الوضع على هذا الحال حتى جاء عهد الظاهر بيبرس سنة ستمائة وثمانية وستين فَوُضِعَ جدار خشبي يسمي الدرابزين، هذه كلمة فارسية، ثم لما أحترق المسجد بعد ذلك وضع الجدار المشجر الحديدي في عهد قايتباي أحد الحكام المماليك.
بناء: قبر النبي ﷺ هو في بيت عائشة، وبيت عائشة رضي الله عنها محل مستقل عن المسجد، ليس جزء من المسجد،

☒ **قد يقول قائل:** ولكننا نرى بقعة في الجهة الشرقية من القبر، هناك مسافة حدود ثلاث أو أربعة أمتار، وهذا يدل على أن القبر في المسجد.

الجواب عن هذا أنه لم يكن لهذه البقعة وجود مدة اثني عشر قرنا، ما كان لهذا المكان وجود، بمعني كان المسجد ينتهي إلى حد جدار الحجرة الغربي ولم يكن في الجهة الشرقية شيء، حتى كانت التوسعة العثمانية التي كانت سنة ألف ومائتين وسبعة وسبعين.

ثم نقول وجد هذا المكان ومع ذلك هذه الصورة لم تختل، لا يزال قبر النبي ﷺ في حجرة عائشة وحجرة عائشة مكان مستقل عن المسجد، ووجه ذلك أن الأمر قد يشتبه على الناظر، لكن حقيقة الحال مختلفة فالمسجد توسع حتى أحاط بالقبر من جميع الجهات لا أقل ولا أكثر، وهذا لا يخرج البيت على أن يكون بيتا، وعن أن القبر لا يزال في البيت لا في المسجد.

قد يقول قائل: وهل نقول بالتالي إنه يجوز إذا دفن إنسان في حجرة ثم توسع المسجد أن يتكرر هذه الصورة؟ **نقول لا نوافق على هذا،لأنه**

أولا: لا يجوز أن يدفن أحد في مكان مبني أصلا

الواجب أن يدفن الإنسان في المقابر كما هي السنة العملية للنبي ﷺ ومن بعده من أصحابه فالأمة مجمعة على ذلك وبالتالي هذه الصورة لا يمكن تصورها، أما النبي ﷺ فله شأن خاص، وهو أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، وحيث دفن النبي ﷺ في هذا المكان جاز دفن غيره معه تبعا، ولذلك دفن أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في ذلك المكان.

ثانيا: وهذا وجه مهم ،كل مسجد فيه قبر لا يخلو من أحد أمرين:

أما أن يكون المسجد بني من أجل القبر أو يكون القبر أدخل من أجل المسجد،

لابد من وجود أحد هذين الوصفين المؤثرين في الحكم، أما مسجد النبي ﷺ فلم يكن شيء من ذلك فيه قط.إذن أصبح حكم مسجد النبي ﷺ حكما خاصا،لايقارن بغيره،

ثالثا: وهو أن الإجماع قد أنعقد على صحة الصلاة في المسجد النبوي،

والإجماع حجة مستقلة فيستثنى من عموم النهى و يبقي ما عاداه على الأصل وهو النهي

لا سيما وأن قبر النبي ﷺ توقيفي، لا يمكن العبث فيه بالإجماع،
والمسجد توقيفي لا يمكن تغيير محله بالإجماع،وأما بقية المساجد فإن الأمر فيها ليس كذلك.

رابعا: **أن دخول القبر في هذه الصورة التي تشتبه على بعض الناس كان تبعا لا قصدا:**

➢ **أولا:** أدخلت الحجرة لا القبر فدخل القبر تبعا للحجرة وليس هو المقصود، المقصود إدخال الحجرة.

➢ **ثانيا:** الحجرة دخلت تبعا لبقية حجر أمهات المؤمنين ولم تكن هي المقصودة بالذات، إنما كانت كبقية الحجر التي كانت بجوارها فدخل تبعا لذلك.

➢ **ثالثا:** أن دخول هذه الحجر أصلا ما كان لأجل إرادة القبر قط إنما كان لأجل إرادة توسعة المسجد وهذا بخلاف حال المساجد التي فيها قبور.

خامسا: **أن الذين حصل منهم هذا الفعل وكان هذا في عهد التابعين** ولم يكن في المدينة إذ ذاك أحد من أصحاب النبي ﷺ قط، الذين صحبوه وعرفه سنته، **هذا أولا**.
وثانيا: كان هؤلاء السلف رحمهم الله يطوقون أشد الطوقي أن يوسعوا المسجد من الجهة الشرقية، كل ذلك خشية أن يصبح القبر في المسجد،

سادسا: **هؤلاء يستدلون بفعل حدث بعد النبي ﷺ بثمانين عاما، فأين فعله هو ﷺ.**
ألم تَمُت خديجة وأبنه إبراهيم وعمه حمزة وأصحابه وأحبابه رضي الله عنهم أجمعين، أين دفنه ﷺ للأموات في المساجد أو بناء المساجد على القبور في المدينة أو في مكة أو في غيرهما؟

سابعا: **أين فعل الصحابة وأين فعل السلف الصالح؟** هل ثبت عن صحابي قط أو التابعي أنه قاس غير مسجد النبي ﷺ عليه فدفن قبرا في مسجد أو بنى مسجدا على قبر؟

الدرس الثلاثون -٥٥٣

٢٠- بَاب مَا جَاءَ مِن التَّغْلِيظِ فِيمن عَبَدَ اللهَ عِندَ قَبرِ رَجلٍ صَالحٍ: فَكيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟! (المجلس الثاني) (فِي الصَحيحِ عَن عائشةَ رضي الله عنها أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرضِ الحَبَشَةِ ومَا فِيهَا مِن الصُّوَرِ، فَقَال: «أُولئكِ إِذا مَاتَ فيهِمُ الرجلُ الصالحُ أَوِ العَبْدُ الصالحُ بَنَوا عَلَى قَبرِهِ مسجدًا وَصَوَّرُوا فيهِ تلكَ الصورَ، أُولئكِ شِرارُ الخَلْقِ عِند اللهِ» فهؤلاء جمعوا بينَ الفِتنَتَيْنِ، فتنةِ القُبُورِ، وفتنةِ التَّمَاثيلِ).

بدأ المؤلف هذا الباب بما ثبت في الصحيحين، قوله في الصحيح؛ يعني في الصحيحين.

تحدثت عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة؛ وهي أم المؤمنين هند بنت أبي أمية المخزومي، جاء في الصحيحين عن عائشة أن أم سلمة وأم حبيبة كلاهما كانتا تحدث رسول الله ﷺ بهذا الحديث، إذًا عائشة رضي الله عنها تارة أسندت الحديث إلى أم سلمة، وتارة أسندت الحديث إلى أم سلمة وأم حبيبة.

ذكرتا أو ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، إذ إنها ممن هاجر إلى الحبشة، وهذه الكنيسة جاء في الصحيحين أن اسمها مارية بتخفيف الياء على اسم جارية رسول الله. فذكرتا لرسول الله ﷺ ما فيها من الصور، وفي بعض روايات الصحيحين ذكرتا من حسنها؛ يعني كانت الكنيسة ذات بناء حسن، وما فيها أيضًا من الصور.

هاهنا أخبرنا النبي ﷺ أن «**أولئكِ**» إذا كان الحديث موجهًا إلى أم سلمة فيكون الحديث هكذا «**أولئكِ**» أما إذا كان الحديث عامًّا «**أولئكَ**».

«أولئكِ كان إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئكِ شرار الخلق عند الله»

هذا الحديث فيه فائدة: وهي أن كل مكان يصلى فيه ويسجد فيه فإنه يسمى مسجدًا، **فهو من التسمية اللغوية**، لا من التسمية الاصطلاحية، وذلك أن النبي ﷺ سمى تلك الكنائس التي يصلي فيها

هؤلاء مسجدًا في هذا الحديث باعتبار أن المسجد هو ما يُسجَد فيه وما يصلى فيه، وهذا ينطبق على الكنيسة وعلى غيرها مما يصلى فيه.

الشاهد من الحديث أن النبي ﷺ وصف هؤلاء بأنهم شرار الخلق عند الله، ولم يعلل بهذا التعليل لكونهم عبدوا غير الله، إنما فقط لكونهم بنوا على قبور الأنبياء والصالحين المساجد، وصوروا كذلك تلك الصور، فإذا كانوا بهذين الفعلين شرار الخلق عند الله، فكيف إذا توجهوا لهؤلاء المقبورين بالعبادة، لا شك أن الأمر في شأنهم أشد وأشد،

ثم نقل رحمه الله كلمة حسنة عن ابن القيم رحمه الله ذكر في (إغاثة اللهفان) أن هؤلاء جمعوا بين فتنة القبور وفتنة التماثيل.

وجُل شرك العالم، راجع إلى هذين الأمرين،

- الشرك إما بقبر يُعبد
- أو بتمثال يُعبد

وأول شرك وقع في الأرض وما تسلسل بعده وإلى هذا اليوم كله راجع إلى هاتين الفتنتين،

إما فتنة القبور، **وإما فتنة الصور والتماثيل**، فالصور سواء كانت مجسمة، أو غير مجسمة فتنة عظيمة وذريعة ووسيلة إلى وقوع الشرك بالله ﷻ،

ولأجل هذا نهى النبي ﷺ عن التصوير، **وبيّن أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون**، لأن هذا التصوير وسيلة وذريعة إلى وقوع الشرك كما حصل قديمًا وكما يحصل حديثًا.

(ولهمُا عَنها قالتْ: لَمَّا نُزِل برِسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرِحُ خَمِيصَةً لهُ على وَجْهِهِ، فإذا اغْتَمَّ بِها كَشَفَهَا، فقَال:وهُو كَذلكَ:(لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى اتخذوا قُبُورَ أَنبيائِهِمْ مَساجِدَ يُحَذِّرُ ما صنعُوا،ولولا ذلك لَأُبْرِزَ قَبرُهُ، غَيرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا)أخرجاه.

(طفق): بمعنى جعل- يطرح خميصة على وجهه ﷺ،

(والخميصة): كساء مخطط له أعلام كان يطرحه على وجهه ﷺ من شدة ما يصيبه، ثم إذا اغتم كشفها ﷺ، فهو قد عالج أمرًا عظيمًا ﷺ،

وهذه اللحظات الحرجة التي هي آخر لحظات حياته المباركة ﷺ ما كف فيها عن الدعوة إلى التوحيد،وعن التحذير من ضده، منذ أن بعث ﷺ وإلى آخر لحظات حياته.

قال ﷺ هذه الوصية، وهذا التنبيه، وهذا التحذير حتى تحذر الأمة؛ لأنه خشي ﷺ أن يصيب هذه الأمة ما أصاب من قبلها، خشي أن يتخذ قبره وثنًا يعبد مع الله جل وعلا-.

وفي مسند الإمام أحمد بسند صحيح أن النبي ﷺ دعا الله بهذا فقال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا»**، **«لعن الله قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

قال ﷺ في هذا للحديث: **«لعنة الله على اليهود والنصارى»**

اللعنة من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومن العباد الدعاء بذلك، فهم إذا دعوا على أحد باللعنة فالمراد أنهم يسألون الله أن يطرده عن رحمة الله.

والأولى بالمسلم أن يتجنب لعنة المعين الحي الذي لم يمت على الكفر حتى ولو كان كافرًا في حياته إلا ما تحقق من موته كافرًا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الوصية الكبرى: أكثر أهل السنة يكرهون لعنة المعين.

والشاهد أن النبي ﷺ إما أنه دعا على اليهود والنصارى، أو أخبر بلعنة الله ﷻ لهم، جاء التعليل منه ﷺ بعد ذلك فقال: **«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** إذًا هذه هي العلة التي لأجلها استحقوا لعنة الله ﷻ، فمن وافقهم في هذه العلة كان له النصيب من هذه اللعنة.

ثم قالت رضي الله عنها : **«يحذِّر ما صنعوا»**.

إذًا فلتحذر أمة محمد ﷺ، ولتأخذ بوصية النبي ﷺ التي هي من أثمن الوصايا وأغلاها.

«ولولا ذلك لأُبرِز قبره»،

أبرز: من الإبراز؛ يعني الظهور؛

يعني لولا هذه الخشية من أن يُتخذ قبره مسجدًا لكان قبره ﷺ مثل بقية القبور، دفن في المقبرة، لكنه خَشِيَ ﷺ، أو خُشِي، خَشِي هو، أو خُشِي يعني خَشي الصحابة رضي الله عنهم أن يُتخذ قبره مسجدًا، ولم يكن ليقع هذا في عهد أصحاب النبي ﷺ، لكن ذلك غير مأمون بعد ذلك، وأنت إذا تأملت في أحوال الناس اليوم حمدت الله ﷻ على أن حفظ الله قبر نبيه ﷺ فلم يكن بارزًا.

«غير أنه خُشي أن يُتخذ مسجدًا» وحصل أن كان دفن النبي ﷺ في بيته،

وهذا كما قلنا: معلل بعلتين :

- ما ثبت أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون.
- والثاني: ما يتعلق بسد ذريعة الشرك.

(ولِمسلم عن جُنْدَبِ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: سَمعتُ النَّبيَّ ﷺ قبلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهو يَقُولُ:«إنِي أَبْرَأُ إلى اللهِ أنْ يكونَ لِي مِنْكُم خَليلٌ،فإنَّ اللهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَليلًا،ولو كنتُ مُتَّخِذًا مِن أُمتي خَليلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بكرٍ خَليلًا،ألا وإِن مَن كانَ قَبلكم كانوا يتَّخِذونَ قُبُورَ أَنبيائِهِمْ مِساجِدَ أَلا فلاَ تتَّخِذوا القُبُورَ مَساجِدَ،فإِني أَنهاكم عن ذلك»).

هذا حديث جندب بن عبد الله ﷺ مخرج في صحيح مسلم، وفيه مسألتان:

- إحداهما تتعلق بتوحيد الأسماء والصفات.
- والأخرى تتعلق بتوحيد الألوهية.

وبالتالي فهذا الحديث فيه رد على طائفتين ضالتين مخذولتين:

إحداهما معطلة الصفات والرد عليهم بإثبات صفة الخُلَّة لله جل وعلا.

والشق الثاني: من الحديث فيه ردٌ على طائفة مخذولة هي أول من أدخل الشرك والتعلق بالقبور بهذه الأمة،وهم سبابة الصحابة،دين هؤلاء هو البناء على القبور واتخاذها مساجد.

(الخليل): فعيل كصديق؛ بمعنى مفاعل من الخلة،

والخلة: أعلى درجات المحبة، سميت بذلك؛ لأنها تتخلل إلى حنايا القلب والجسد، فلا تدع خلة ولا فرجة في الجسم إلا دخلته، وفي هذا أنشد بشار بن برد:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

والثابت في النصوص لله ﷻ **صفة المحبة**، **وصفة الود**، **وصفة الخلة**،

فالله ﷻ متصف بالمحبة، فهو يُحِب، كما أنه يُحَب،﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

🗸 **كذلك من صفاته الود**، ومن أسمائه الودود، والصحيح أن هذا الاسم يجمع بين كونه اسم فاعل واسم مفعول، فهو ودود يَوَدُّ، و ودود يُوَدُّ، يحب ويود عباده، ويودُّه عباده.

🗸 **وكذلك صفة الخلة لله تبارك وتعالى**، والذي نعلمه من النصوص أن هذه الصفة تعلقت باثنين فحسب، الله جل وعلا اتخذ إبراهيم ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام خليلين.

التبيه: بعض الناس يقول: إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله ﷺ وهذا غلط وفيه عدم إنزال النبي ﷺ منزلته، وكأن إبراهيم على هذا أرفع درجة من النبي ﷺ، والصواب أن الخليل، أن إبراهيم خليل الله، وكذلك النبي محمد ﷺ خليل الله،

✵ وأنبه أيضًا إلى ضرورة لزوم النص ولزوم الأدب بهذا المقام:

➢ **أما لزوم النص**: فبأن لا يضاف إلى الله جل وعلا من الصفات إلا ما ثبت، وبالتالي فلا يجوز أن يضاف إليه من درجات المحبة ما لم يثبت

➢ **وهذا أيضًا الذي يقتضيه الأدب**: فليس لأحد أن يضيف إلى الله درجة الصبابة، أو التتيم، أو العشق مثلًا لله تبارك وتعالى ،كذلك ليس لأحد أن يعامل الله ﷻ بذلك.

☒ **بعض الناس يقول: أنا أعشق الله، أو ربما تسمى عاشق الله، أو عاشق لله**، على الإنسان أن يلزم مقام الأدب لاسيما وأن إطلاق العشق في هذا المقام فيما يتعلق بالله جل وعلا باطل، ولا يجوز؛ لأن العشق محبة مع شهوة، وهذا لا شك أنه يتنافى مع مقام العبودية.

«ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا».

وهذا فيه فضيلة أبي بكر ، ويدل على أن أبا بكر ﵁أحب أصحاب النبي ﷺ إليه، ولا شك أنه جدير بهذه الرتبة وذلك لأنه أفضل البشر على الإطلاق بعد الأنبياء عليهم السلام.

«ألا وإن من كان من قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد».

هذا هو الشق الثاني من الحديث، وفيه الرد على عباد القبور من الأمم ولاسيما ما كان من أهل الكتاب، اليهود والنصارى، فمن شأنهم قديمًا وحديثًا أنهم يدفنون في الكنائس والبِيَع، وأماكن العبادة، إضافة إلى وضع الصور المعلقة أو التماثيل المنصوبة لهؤلاء المعظمين، وذلك كله من أسباب لعنة الله ﷻ وغضبه.

خشي النبي ﷺ أن تسلك أمته هذا المسلك الذي كان فيمن قبلنا: **«كانوا يتخذون قبور أنبيائهم»**، وفي رواية: **«وصالحيهم مساجد»**، ثبت في مسلم: **«وصالحيهم»** أيضًا.

«ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»:

استعمل النبي ﷺ هاهنا صيغتين من صيغ النهي،وهذا يدلك على **أنه أمر محرم مؤكد التحريم**، كان يكفي أن يقول: لا تتخذوا القبور مساجد، لكنه أكد بعد ذلك بصيغة أخرى فقال: **«فإني أنهاكم عن ذلك»**، وهذا النهي المؤكد فيه مزيد من حرصه وشفقته ﷺ ونصحه لهذه الأمة أن تقع في هذا المنكر العظيم وهو أن تتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

(فقد نَهى عنهُ في آخِرِ حَياتِهِ، ثم إنهُ لَعَنَ وهو في السياقِ_ مَنْ فَعَلَهُ، والصلاةُ عندَها مِن ذلكَ، وإنْ لم يُبْنَ مسجدٌ).

هذا الكلام ينقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب (اقتضاء صراط مستقيم)، **فائدة عن كتاب:** (اقتضاء صراط مستقيم)، و(إغاثة اللهفان) لابن القيم، هذان الكتابان من أحسن الكتب لبيان وتجلية هذا الموضوع،ما يتعلق بالقبور وما يكون عندها من البدع.

ينبه شيخ الإسلام رحمه الله إلى أن هذا الأمر كان موضع اهتمام النبي ﷺ حتى إنه نبه عليه قبل أن يموت بخمس ليال، ثم لم يزل يؤكد ويكرر ذلك حتى وهو في لحظات النزع .لما نزل إليه ملك الموت،في لحظات خروج الروح، في هذه اللحظات الشديدة، ومع ذلك النبي ﷺ كان يؤكد على خطورة اتخاذ القبور مساجد

فقد نهى عنه في آخرِ حياتهِ، ثم إنه لعن وهو في السياق–من فعلهُ والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد، وهو معنى قولها «خُشيَ أَن يُتَّخَذَ مسجدًا» فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حولَ قبرهِ مسجدًا،وكلُّ موضعٍ قُصِدَتِ الصلاةُ فيه فقدِ اتخذَ مسجدًا،بل كلُّ موضعٍ يصلَّى فيهِ يُسَمَّى مَسجدًا كما قال ﷺ«جُعِلَتْ لِي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا».

هذا تنبيه لطيف نقله لنا الشيخ رحمه الله إلى أن معنى النهي عن اتخاذ القبور مساجد لا يختص فقط ببناء مسجد على قبر، بل حتى الصلاة على القبور وإليها وعندها داخل في مفهوم اتخاذ القبور مساجد.

وَلأحمدَ بسندٍ جيدٍ عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «إنَّ من شِرار الناسِ منْ تُدْرِكُهُمُ الساعةُ وهم أَحياءٌ، والذين يتخذون القبورَ مَسَاجِدَ» ورواه أبو حاتم في صحيحه.

لم يزل جزاه الله المولف خيرًا يعيد ويؤكد ويورد وينوع في الأحاديث التي مضمونها واحد ، وتكثير الأدلة في بيان التوحيد من الحكمة في الدعوة والعلم، ولذلك من أحسن ما يكون الداعي إلى الله عز وجل أن يكثر الأدلة وينوعها، لعل الله عز وجل أن يفتح لهذه الأدلة القلوب.

هذا الحديث فيه بيان أن من شرار الخلق عند الله جل وعلا صنفين:

الصنف الأول: **الذين تدركهم الساعة وهم أحياء،**

وذلك أن هذا الصنف لا خير فيه البتة، فإن الله جل وعلا قبيل قيام الساعة يرسل ريحًا فتقبض روح كل مؤمن، ولا يبقَ على وجه الأرض إلا الكفار حتى أخبر النبي ﷺ عن ذاك الوقت، وذاك الزمان أنه لا يبقَ من يقول: لا إله إلا الله، لا يوجد من يوحد الله سبحانه وتعالى، وجاء أيضًا أنه لا يوجد تذكير بالله، ولا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، حتى لا يبقَ على وجه الأرض من يقول: الله الله.

والصنف الثاني: **الذين يتخذون القبور مساجد،**

ولاحظ يا رعاك الله هذا القِران بين الصنفين، كأن النبي ﷺ يقرن بين نتيجة ووسيلة:

النتيجة: الكفر. **والوسيلة:** اتخاذ القبور مساجد.

إذًا على المسلم أن يحذر وأن يخاف، وأن يتنبه، فالشريعة شددت وأكدت كثيرًا في موضوع القبور.

الدرس الحادي والثلاثون – ٥٦٩

٢١– بابُ ما جاءَ في أنّ الغُلُوَّ في قُبُور الصَالحينَ يُصَيِّرُها أَوْثَاناً تُعْبَدَ مِن دونِ اللهِ.

هذا الباب ينبه فيه المؤلف رحمه الله القارئ إلى العناية بسد الذريعة فيما يتعلق بالقبور، وإن الواجب عدم الغلو فيها أو في أصحابها، والشريعة جاءت بالوسطية والاعتدال في كل شيء، ومن ذلك التعامل مع الصالحين،

من أسباب انتشار الشرك في هذه الأمة ضعف كثير من الدعاة في العناية بالدعوة إلى التوحيد، والتحذير من ضده حيث انشغل كثيرًا من الدعاة–مع الأسف–عن هذا الأمر العظيم بغيره مما هو أقل أهمية منه، وهذا يحتاج منا معاشر طلاب العلم إلى التواصي فيما بيننا، فاشهد ذمتك واجتهد واحرص على ما كان يحرص عليه النبيﷺ.

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله ﷻ،

الغلو في قبور الصالحين ربما صيَّرها:يعني جعلها:

➢ **أوثانًا تعبد من دون الله:**

يدعو أصحاب القبور، أو ينذر لأصحاب القبور، أو يذبح لصحاب القبور، أو يعظم أصحاب القبور تعظيمًا مثل تعظيم الله جل وعلا، وكل ذلك لا شك يجعل هذه القبور أوثانًا تعبد من دون الله.

فهذا هو شرك أكبر

➢ **وربما جعل هذا الغلو القبور وسيلة إلى أن تعبد من دون الله**

وقد يكون الغلو في أمور دون ذلك **من المنكرات والمحدثات والكبائر والشرك الأصغر**، ومن ذلك رفع القبور والبناء عليها وتجصيصها وإنارتها والكتابة عليها، أو عبادة الله ﷻ عندها كالصلاة أو الصدقة أو ماشاكل ذلك؛لاعتقاد أن هذا المكان العبادة فيه لله أفضل، وكل هذا لا شك ذريعة تصير ويؤول الأمر في هذه القبور إلى أن تكون أوثانًا تعبد من دون الله عزوجل.

الفرق بين الأوثان و الأصنام: التحقيق إن الأصنام أخص من الأوثان، وذلك أن الأصنام هي ما نصب على صورة ما فيه حياة من إنسان أو حيوان، وأما الوثن فيعم ذلك وغيره.

وكذلك الأشجار والأحجار والأبنية التي تعبد من دون الله ﷻ تسمى أوثانًا، ويدل على ذلك أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام، ومع ذلك قال في حقهم إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾[العنكبوت:17]، فدل هذا على إن الأصنام يطلق عليها أوثان.

رَوَى مالكٌ في (الموطأ) أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال: «اللهم لا تجعَلْ قبري وثنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَ غضبُ اللهِ على قومٍ اتخذوُا قُبُورَ أَنبيائِهِم مساجدَ».

هذا الحديث أورده المؤلف رحمه الله معزوًا إلى موطأ الإمام مالك، والإمام مالك رحمه الله روى هذا الحديث مرسلاً، فإنه أخرجه من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن النبي ﷺ وهذا إسناد رجاله ثقات، غير أنه مرسل فعطاء تابعي ثقة رحمه الله،

وأخرج البزار هذا الحديث بلفظ قريب:**«اللهم إني أعوذ بك أن يتخذ قبري وثنًا»** واكتفى.

اختلف العلماء في ترجيح إحدى الروايتين على الأخرى وعلى كل حال مهما رجحنا في هذا الحديث فإن هذا الكلام ثابت عن النبي ﷺ دون شك،

فإن هذا الكلام الذي جاء في هذا الحديث ثابت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة

قال ﷺ **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا»**، دون كلمة "**يعبد**"ومعلوم أن الوثن يعبد.

الشاهد أن هذا كان منه ﷺ دعاءً وأجاب الله ﷻ دعاء نبيه ﷺ فحفظ قبره عن أن يكون وثنًا يعبد من دون الله جل وعلا،

وفي هذا الحديث فوائد:

أولاً: أنَّ كل ما يتوجه إليه بالعبادة فإنه وثن.

ثانيا: إن وقوع الشرك في هذه الأمة أمر ممكن، خلافًا لمن يقوله المتعلقون بالقبور الذين يزعمون أن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة،و الدليل قول النبي ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا»**،

ثالثا: وهي أن قبر النبي ﷺ لو قدر أنه عبد من دون الله جل وعلا كان أسمه ماذا؟ وثنًا، وبالتالي تتنزل فيه النصوص التي جاءت في الأصنام والأوثان، وبالتالي يكون في هذا رد على القبوريين الذين

يزعمون أن وصف الأوثان إنما يختص بما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الأحجار والأشجار والأصنام المنصوبة على هيئة ما فيه روح وليس ذلك راجعًا إلى القبور.

رابعا: أن قبر النبي ﷺ لو قدر أنه عبد كان وثنًا، وبالتالي فكل قبر سواه فإنه يشمله هذا الحكم، ، أو أنهم أولى بهذا الوصف.

فائدة عن كتاب: (إغاثة اللهفان) لابن القيم، نوصيك بالرجوع إلى هذا الكتاب العظيم، فإنه من أحسن المواضع في بيان خطورة الغلو في قبور الصالحين.

في هذا الحديث إثبات صفة الغضب لله ﷻ، اشتد غضب الله ﷻ على هؤلاء الذين يغلون في القبور ويتخذونها مساجد، وأهل السنة والجماعة يقولون بما نطقت به الآيات والأحاديث من إثبات الصفات لله ﷻ،فالله يغضب كما أخبر، وكما أخبر عنه نبيه ﷺ وغضبه لائق به، وكما أنه هو في ذاته ليس كمثله شيء،فكذلك هو في صفاته ليس كمثله شيء.

والمحرفة والمعطلة أوَّلَ هذه الصفة فقالوا: الغضب ها هنا بمعنى الانتقام، والرد عليهم

أولا: والعجيب في شأنهم هم فروا من إثبات الغضب لله خوفًا من التشبيه، فوقعوا في التشبيه أيضًا، فإنه إذا كان المخلوق يغضب فالمخلوق أيضًا ينتقم، وإذا كانوا يزعمون أنهم لا يعرفون من يغضب إلا المخلوق، فإننا نقول نحن لا نعرف من ينتقم إلا المخلوق.

ثانيا: ثم إن الدليل صريح في الفرق بين الغضب والانتقام، فالله جل وعلا يقول: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[الزخرف:55]، والأسف ها هنا في هذه الآية بمعنى الغضب،
فدل هذا على أن **الأسف شيء يعني الغضب والانتقام** شيء آخر.

(ولابنِ جريرٍ بِسَنَدِهِ عَن سفيانَ، عَن مَنْصُورٍ، عَن مجاهدٍ:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:19]، قال (كانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلى قَبْرِهِ).

هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره من طريق سفيان الثوري عن منصور بن المعتمر عن مجاهد بن جبر الإمام المفسر الجليل الذي هو من أعلم الناس بتفسير كتاب الله فسر في هذا الأثر قول الله جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾

اللات بأنه رجل كان يلت السويق

هذا رجل صالح وجاء عند أبي حاتم أنه كانت له بعض الكرامات يعني كانت تظهر على أيديه أمور تدل على أنه رجل صالح، فمن ذلك أنه –أعني من صلاحه وأعماله الخيرة– أنه كان يطعم الناس، كان يتصدق، وكان يكرم، كان يلت السويق.

والسويق: طعام مصنوع من القمح أو الشعير المطحون، ولتُّه يعني خلطه .

اللت: يعني الخلط، يخلطونه بالسمن أو بالزيت أو الماء حتى يساغ في الأكل.

لما مات غلوا فيه وفي قبره ثم غلو في الصخرة التي عند قبره حتى عبد من دون الله ﷻ.

فأراد المؤلف أن ينبه على أن الغلو في الصالحين وفي قبورهم يصيرها أوثانًا من دون الله.

ومجاهد رحمه الله جاء عنه في تفسير (اللات) قولان:

التفسير الأول: **أن اللات هو أسم فاعل**، والأصل فيه اللَّآتُّ ثم خفف، وعلى التشديد مع المد المشبع جاءت قراءة عشرية، هي قراءة رويس عن يعقوب الحضرمي:﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّآتَّ وَالْعُزَّى﴾ لاتّ: يعني أسم فاعل من لتَ يلت، والجمهور قرأ بالتخفيف(التاء) يعني (اللاَّتَ)

وعلى كلا القراءتين فالمراد هو ذاك الرجل الصالح الذي كان يلت السويق للحاج.

والتفسير الثاني:أن هذا الاسم مشتق من اسم الجلالة الله أو الإله على خلاف بين أهل العلم فيكون هذا من إلحادهم في أسماء الله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:180]،

ومن الإلحاد:أن يُشتق للأصنام من أسماء الله ﷻ أسماء، **وبعض أهل العلم جمع بين الأمرين**: فاللّاتُ هو الأصل

ثم اشتقوا من هذا الاسم للمناسبة وللقُرب اشتقوا له(لهذا الرجل) من اسم الله جل وعلا.

(وكذا قال أبُو الجَوْزاءِ ،عن ابن عباس : كان يَلُتُّ السَّوِيقَ للحَاجِّ).

هذا الأثر بالمعنى السابق، عن أبي الجوزاء وهو أوس الرابعي، تابعي ثقة يروي عن ابن عباس معنى ما جاء في أثر مجاهد رحمة الله على الجميع.

﴿ (وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ قالَ: «لَعَنَ رسُولُ اللهِ ﷺ زائِراتِ القبورِ والمتخذينَ عليها المساجدَ والسُّرُجَ». رواهُ أهل السنن).

هذا الحديث أخرجه أهل السنن أخرجه الخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم،

والحديث فيه النهي عن ثلاثة أمور:

أولاً: نهيُ النساء عن زيارة القبور.

والثاني: النَّهي عن اتخاذ القبور مساجد. مضى الحيث فيه.

والثالث: النهي عن إسراج القبور.

من الشبه التي تش✖وا به اهل البدع :أن هذا المسجد النبوي المبارك كان في أصله يعني في أرضه قبور ثم بني المسجد عليها، وبالتالي يجوز اتخاذ القبور مساجد **.والرد من وجهان**

الوجه الأول: لا شك أن استدلالهم استدلال باطل، وذلك أن الذي ثبت في الصحيحين أن الرقعة التي أُنشئ عليها مسجد النبي ﷺ **كانت عبارة عن ثلاثة أشياء،**

- منها جزءٌ :**كان حائطًا يعني بستانًا لبني النجار**:والنبي ﷺ ثمنهم، طلب منهم أن يحددوا سعرًا حتى يشتري منهم هذا البستان لكنهم أبوا أن يأخذوا عليه أجرًا إلا من الله ﷻ .
- الجزء الثاني :**كان عبارة عن خِرَبْ**: أمر النبي ﷺ فسويت بالأرض، وأما البستان فقُطِعت نخله، ثم صُفَّت في قبلة المسجد.
- الجزء الثالث: **كان عبارة عن قبور المشركين**:كان مقبرة، كان قبر فيها مشركون فأمر النبي ﷺ بالقبور فنبشت يعني استثيرت وأخرج ما فيها من رفات ثم سويت بالأرض.

فهم صدقوا أن الأصل في هذا المكان أنه كان فيه قبور، ولكن النبي ﷺ ما بنى المسجد حتى نبشت القبور، والقبر إذا نبش زال حكمه، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا

الوجه الثاني: أن هذا الحديث دليل عليكم لا لكم، أفرأيتم نبش النبي ﷺ للقبور؟ ما الفائدة منه ؟إذًا يكون هذا فعلاً لغوًا لا فائدة منه، ولا شك أن النبي ﷺ يُصَانُ فعله عن ذلك فدل هذا على أنه إنما أزال آثار هذه القبور؛ لأجل أنها علة مانعة من بناء المسجد هناك.

شبهة أخرى وهي أنهم قالوا: إنه دلت السنة على جواز صلاة الجنازة على القبر،وبالتالي فتجوز الصلاة الأخرى،التي هي ذات الركوع والسجود بجامع أن الكل صلاة.

هذا من الفجور في الاستدلال أين هذه الصلاة من تلك؟ إنما منع النبي ﷺ من الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود؛لأنها هي التي تكون ذريعة ويُتوصل بها إلى عبادة صاحب القبر يكون ركوع،ويكون خضوع، ويكون سجود،أماصلاة الجنازة فليس فيها شيء من ذلك.

ثم إن النبي ﷺ تكاثرت عنه وتواترت عنه الأحاديث في النهي عن اتخاذ القبور مساجد

المقابر وعند القبور وفي المقابر أو عليها من باب أول، وأما صلاة الجنازة فإن العلة منتفية فيها فجازت للحاجة، والله تعالى أعلم.

الأمر الأول في الحديث: «لعن الله زوارات القبور»،أو: «لعن الله زائرات القبور»،

وهذا المعنى جاء فيه الحديث عن النبي ﷺ من رواية ثلاثة من الصحابة:

ابن عباس كما في هذا الحديث، وأبي هريرة، وحسان بن ثابت،جاء الحديث من روايتهم الثلاثة بهذين اللفظين: «**لعن الله زَوارات_أو زُوارات القبور**» و «**لعن الله زائرات القبور**».

وهذا يدلك على أن هذا الفعل ليس محرمًا،**بل كبيرة من الكبائر**، زيارة النساء للقبور؛وذلك لأن حد الكبيرة متوعد بوعيد خاص من لعنة أو عذاب،أو غضب من الله، أوما شاكل ذلك

هذا الحديث اعتُرِض عليه، بأمرين:

❖**أولاً**: أن الحديث فيه: «**لعن الله زوارات القبور**»، وبالتالي هذا يدل على إن النهي إنما تعلق بالإكثار من زيارة القبور، أما التي تزور القبور أحياناً فإنه لم يأتي في حقها نهي وبالتالي فيجوز،

والواجب عن هذا الإيراد من وجوه:

الوجه الأول: أن الحديث جاء بلفظ زوارات، وجاء بلفظ زائرات، وإعمال الدليل أولى من إهماله،

أعني أن الجمع بين الروايتين أولى من ترجيح إحداهما على الأخرى، فإننا لو قلنا: إن الممنوع هو الزيارة مطلقًا فإننا نكون قد جمعنا بين اللفظين فتنهى المرأة عن زيارة القبور، وإن أكثرت كان التحريم في حقها

أشد، وهذا أولى من أن نقول: إن النهي إنما تعلق بالإكثار؛ لأننا في هذه الحالة سنلغي لفظة زائرات القبور.

الوجه الثاني: قال بعض أهل العلم، وهذا توجيه حسن من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: **إن المبالغة ها هنا والتكثير تعلقت بالنساء لا بالزيارة**، يعني تعلقت بالزائرات وليس بالزيارات، ويكون ما جاء في هذا الحديث على نسق ووزن ما جاء في قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ﴾[ص:50]، وذلك أن جنات عدن تفتح أبوابها مرة واحدة، لكن التكثير عائد إلى الأبواب فقال: ﴿مُفَتَّحَةً﴾ وليس مفتوحة.

الوجه الثالث: **أن بعض أهل العلم ضبط هذا اللفظ** ومن أولئك السيوطي، ضبطوا هذا اللفظ بـ (زُوَّارات)، وليس (زَوَّرات)، و(زُوَّرات): جمع زُوَّارة بمعنى زائرة، وليس ذلك من صيغ المبالغة، إنما زُوَّارة بمعنى زائرة، وبالتالي فيتخذُ معنى (زُوَّرات) مع (زائرات).

الوجه الرابع: **يدلك على أنه لا يمكن حمل الحديث على معنى التكثير في الزيارة.**

هو أن يقال: الحديث دل على أن زيارة النساء سواء قلنا: على قلة أو كثرة،مسألة كبيرة من الكبائر، ولا تُعلقُ الشريعة أمرًا منكرًا بهذه المثابة على شيء غيرِ منضبط بمعنى ما هو الحد الفارق بين القلة والكثرة؟ الجواب أننا لا يمكن أن نضبط هذا الأمر، والناس في هذا تتفاوت آراؤهم، من الناس من يرى قد أن عشرة زيارات أو نحوها في السنة كثير، أو أن مائة هي الكثير،وتسعمائة قليل،إذًا ما الذي يمكن أن نضبط به هذا الأمر المنكر؟ وبالتالي فلا يمكن أن نقول: الشريعة قد علقت هذا الأمر العظيم على مثل هذا الشيء الذي لا ينضبط.

❖**الأمر الثاني** الذي اعُترض به على منع النساء من زيارة القبور أن النبي ﷺ قد قال: «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تذكركم الآخر**»،

قالوا: هذا الحديث فيه **وجهان** يدلان على جواز زيارة النساء للقبور:

أما الأول: فهو في قوله: «**فزوروها**» فهذا الحديث ناسخ لنهي النساء عن زيارة القبور،

والجواب عن هذا بأن يقال:

أولاً: **ثبوت النسخ فرع عن معرفة التاريخ**، يشترط العلماء للحكم بالنسخ معرفة التاريخ فلابد أن يثبت عندنا بالدليل الصحيح أن قوله ﷺ: «**فزوروها**» متأخر، وقوله: «**لعن الله زوارات القبور**» ماذا؟ متقدم وهذا أمر متعسر ما عندنا دليل يعلمنا بالمتقدم والمتأخر، وما الذي يدرينا ربما يكون قوله ﷺ: «**لعن الله زوارات القبور**» هو المتأخر.

وثانيًا: أن النظر الأصولي في هذين الحديثين يقتضي القول **بأن النهي الخاص للنساء مقدم على الإذن العام للرجال الذي دخل فيه النساء تغليبًا**، النهي الخاص للنساء **أقوى** في الدلالة من دخولها في الدليل العام في قوله «**فزُوروها**».

(**فزوروها**) خطاب موجه إلى الأصل للرجال ودخل النساء في ذلك تغليبًا، ولا شك أن دلالة النص المتعلق بهن مقدمة على دلالة النص الذي دخلت فيه النساء تغليبًا، وبالتالي فإن ذلك يقتضي تقديم حديث: «**لعن الله زوارات القبور**» على قوله: «**فزوروها**»، .

وجه ثالث: **أنه لا يمكن حمل الحديث على النساء** وهو أن هذا الحديث استدل به أهل العلم على استحباب زيارة الرجال للقبور،ولو قولنا إن النساء حكمهن حكم الرجال لاقتضى هذا أن تكون الزيارة في حق النساء مستحبة ولا قائل بهذا من الأئمة المعتبرين.

إنما غاية الأمر أن تكون عند هؤلاء إما مباحة وإما مكروه، أو على القول الصحيح محرمة، أما أن تكون مستحبة فهذا لا قائل به.

وجه رابع: **وهو أن السنة العملية من عهد أصحاب النبي ﷺ فما بعد: هي أن زيارة القبور من شأن الرجال لا النساء**، فما كان يُعهد، أن النساء يزرن المقابر،.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر رضي الله عنه قال: وجدنا أضل الناس زائرات القبور .فهذا يدلك على أن السلف كانوا يرون أن زيارة النساء للقبور أمر منكر.

وجه خامس: وهو أن النظر في المقاصد الشرعية يدل على أن النساء لا يدخلن في هذا الحديث في قوله: «فزوروها»، وذلك أن الشريعة جاءت بأمر النساء بالقرار في البيوت فكيف مع وجود الفتنة بهن ومنهن،

أما الفتنة بهن فإن خروج النساء لا شك أن فيه فتنة للرجال، قال النبي ﷺ: **«المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»**،

أما الفتنة منهن: فمعلوم ما عليه النساء من الضعف وقلة الصبر في الغالب، فإذا دخلت المقبرة فشاهدت ها هنا قبر أبيها، أوقبر ابنها، ما المضمون أن تفعل؟ فحدِّث ولا حرج مما يكون منهن من صياح وعويل،

الوجه الثاني من استدلالهم بالحديث هو قولهم إن قول النبي ﷺ: **«فإنها تذكركم الآخرة»**، يعني كما أن النساء بحاجة إلى تذكر الآخرة فالنساء أيضًا بحاجة على تذكر الآخرة،

الجواب: سلمنا بأن هذه حكمة تصلح للاثنين، ولكن عارض هذه المصلحة مفسدة متحققة أو مظنونة، **والقاعدة هو:** إذا تعارضت مصلحة مع مفسدة فإنه تدرئ المفسدة بترك المصلحة، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

الأمر والثاني: (والمتخذينَ عليها المساجدَ) مضى الحيث فيه.

الأمر الثالث في الحديث: (السُّرُج) : إسراج القبور يعني وضع القناديل عليها،

(**السرج:** يعني القناديل) يكون النهي إذًا عن إضاءتها وعن إنارتها، وهذا لا شك أمر منكر؛ **لأنه يترتب عليه:**

أولاً: وقوع ذريعة إلى تعظيم صاحب القبر.

ثانيا: وهو أنه تحصل التوهمات وتحصل التهيئات، وربما تُنسج الأساطير مع وجود هذه الإضاءة، وربما يظهر شيء من الظل فَتَعْظُم الفتنة بالقبور حينئذ.

أخيرًا الحكم على هذا الحديث، الحديث فيه كلام من جهة ثبوته ومدار الخلاف على رجل في الإسناد هو أبو صالح،واختلف فيه هل هو أبو صالح مولى أم هانئ وكان اسمه بذام أو بذان هذا أكثر أهل العلم على تضعيفه- أو هو أبو صالح ذكوان السمان الذي هو ثقة مشهور من رجال الصحيح،
اختلف أهل العلم في ذلك، منهم من رجح الأول وهم الأكثر، وعليه فالحديث عندهم ضعيف، ومنهم من رجح الثاني فالحديث عندهم ثابت،

وعلى كل حال الحديث فيه كما ذكرت لك ثلاثة أمور، أمران منهما لهما شواهد فالمعنى صحيح لا شك فيه، وذلك النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ونهي النساء عن زيارة القبور.

الأمر الثالث وهو النهي عن إسراج القبور، وهذا لو قلنا بضعف الحديث، يستدل عليه:

أولاً: بأنه ذريعة بوقوع الشرك فينهى عنه لأجل ذلك، وينهى عنه.

ثانيًا: يُنهي عنه لأجل أنه أمر محدث وبدعة
إذ وجد المقتضي لفعل ذلك بعهد النبي ﷺ وزال المانع ولم يفعل، فيكون فعله إحداث وابتداع.

أمر ثالث: وهو فيه إضاعة للمال، والله جل وعلا كَرِهَ لنا إضاعة المال.

الدرس الثاني والثلاثون - ٥٩٠

٢٢- بابُ ما جاءَ في حِمَايَةِ المصطفى ﷺ جَنَابَ التوحيدِ وسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إلى الشِّركِ

(المجلس الأول)

فهذا الباب الذي عقده المؤلف رحمه الله تتويجٌ وخلاصةٌ للأبواب القريبة الماضية

والمعنى الذي يجمع ما مضى وغيره مما يُرجع إليه هو: سد الذرائع إلى الشرك.

وهذه قاعدة من قواعد الشريعة العظيمة: وهي قاعدة سد الذرائع.

والمؤلف ذو عناية فائقة بهذا الموضوع، ولذلك بوب بابين متشابهين، هذا الباب الذي بين أيدينا أحدها، والآخر هو الباب قبل الأخير في هذا الكتاب؛ حيث عَنْوَنَ له المؤلف بقوله: **باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده قوى الشرك**، فالمؤلف رحمه الله يبدئ ويعيد ويؤكد ويكرر هذا الأصل الأصيل في الشريعة؛ لاسيما إذا تعلق بجناب التوحيد.

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد.

المصطفى هو: المصَفى من الشيء، وهو خلاصته وصفوته.

والأصل في وصف النبي ﷺ بالمصطفى هو ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأصقع رضي الله عنهأن النبي ﷺ قال: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**

هو ﷺ المصطفى، وهو سيد ولد آدم ﷺ،كان حريصا على حماية جناب التوحيد.

وجناب الشيء:جانبه؛ قالوا لفناء الدار جنابها، لأن هذا الجناب يحيط بالدار،ويكون حولها.

إذًا النبي ﷺ حِمَى التوحيد من جميع جوانبه، وسد كل الذرائع التي تُكَدِّرَ صفوه سواء كانت قولية أو عملية،كل ما يخدش هذا التوحيد أو يُنقصه أو ينقضه فقد بينه النبي ﷺالبيان التام.

قاعدة سد الذرائع: المراد بها منع كل ما يؤدي إلى المحظور وإن لم يكن في أصله محظورًا.

وهذا قد قامت عليه أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، ومن دلائل هذه القاعدة

قول الله جل وعلا: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:
فقد نهى الله جل وعلا عن سبِّ آلهة المشركين، وإن كان هذا في أصله ليس محظورا لكن قد يكون طريقا لوقوع المحظور وهو أن يتجرأ هؤلاء على سبِّ الله جل وعلا.
وقل مثل هذا في قول الله جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة:.

ومن فقه هذه القاعدة: أن تعلم أنه كلما كان الشيء أعظم تحريما كانت عناية الشريعة بسد الذريعة إلى الوقوع فيه أعظم وأكثر، كلما كان المحرم أشنع كان سد الذرائع إليه أكثر وأعظم،

مثلا في جريمة الزنا: كيف أنها لما كانت من عظائم الجرائم في الشريعة تكاثرت الأدلة على سد الأبواب والنوافذ التي توصل إلى هذه الجريمة؛ فتجد الشريعة منعت من سفرها بلا محرم، منعت من الخلوة بالنساء أو الاختلاط بهن، أو الدخول عليهن، في أوامر ونواهٍ شتى كلها دخلت في هذا المعنى؛ كلها تؤدي إلى سد الذريعة إلى الوقوع في هذه الجريمة.

وإذا طبقنا هذا على ما يتعلق بالشرك الذي هو أكبر جريمة على وجه الأرض؛ وجدت أن القاعدة ظاهرة جلية تمام الظهور والجلاء، في سد الذرائع إلى الشرك كبيره وصغيره.

قد جاءت الأدلة في نواحٍ كثيرة. فمثلًا فيما يتعلق بالقبور؛ مرت معنا مسائل شتى فيها

- تجد نهي النبي ﷺ عن إطراءه كما مر معنا: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**»، تجد أن النبي ﷺ: نهى عن أن يُتخذ قبره عيدا، تجد أن النبي ﷺ ينكر على من قال: ما شاء الله وشئت، تجد في حديث: «**إنه لا يستغاث بي؛ إنما يستغاث بالله**»، تجد أن النبي ﷺ كره من أصحابه أن يقولوا في حقه: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، أو أنهم يصفونه بأنه أفضلهم قولًا، ويقول: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان**».

- تجد الشريعة تنهى عن أشياء كثيرة كالتصوير؛ فيخبر النبي ﷺ أن أشد الناس عذابًا المصورين، تجد أن الشريعة جاءت بالنهي عن التشبه بالكفار: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»،

ولاحظ ما يندرج تحت هذا الباب، تجد أن النبي ﷺ ينهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لأجل سد الذريعة إلى مُشابهةِ المشركين التي هي ذريعة إلى الوقوع في الشرك بالله.

وأنت إذا تأملت طريقة السلف الصالح وما مضى عليه الأئمة الأعلام وفقهاء الإسلام: وجدت عنايتهم شديدة بهذه القاعدة الأصيلة فاستفادوها وأحسنوا تعلمها من لدن رسول الله ﷺ، فهذا عمر رضي الله عنه كما عند ابن سعد بإسناد صحيح كما قال الحافظ في الفتح؛ بلغه أن الناس تنتاب الشجرة التي بايع الرسول ﷺ الصحابةَ تحتها، فتوعدهم على ذلك ثم إنه بعث إليها فقطعها، شجرة بويع تحتها النبي ﷺ، وجاء ذكرها في القرآن: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:]؛ومع ذلك عمر رضي الله عنه يقوم بقطعها خشية الفتنة بها.

إذًا على دعاة التوحيد وطلبة العلم السائرين على نهج النبي ﷺ وسبيل السلف الصالح أن يفقهوا هذه القاعدة وأن يعملوا بها.ولا يُهَوِّلَنَّكَ يا طالب العلم ما يشغب به أعداء الحق وأهل الشر والفتن؛ حينما يشغبون على هذه القاعدة الأصيلة التي توارد جميع أطياف الضلال والانحراف من المتعلقين بالقبور، أو الذين ينهجون نهج العلمانية، أو العقلانية والتنوير، أو غير ذلك ،القوم ليس حرصهم على هدم هذه القاعدة وإضعاف العناية بها إلا لأجل أنها هدمت وانفتح الباب عندهم إلى إيصال البدع والفساد والشرك إلى المسلمين،

لأن هذه القاعدة تحمي حِمى التوحيد، وتحول دون أن يقرب جناب التوحيد، فإذا انهدم هذا السور وهذا الجناب فما أسهل الوصول إلى التوحيد وتفكيك عراه، فإن الراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

فالحرص يا طلبة العلم ويا ومعشر الدعاة على العناية بهذا الأمر العظيم

التوحيد والإيمان أعظم من كل جواره الدنيا، فالله الله بالحرص والجد والعناية بالحفاظ على هذا التوحيد، والحيلولة دون كل ما يخدش فيه، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:128].

هذه الآية العظيمة التي، يمتن الله سبحانه وتعالى فيها على الناس ببعثة هذا النبي الكريم ﷺ،

ولا شك أن بعثة النبي ﷺ من أعظم نعم الله على الناس جميعا منذ بعثته ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:164]؛ نعمة، وأي نعمة ورحمة وأي رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:107]،

النبي ﷺ بعثه الله لغاية عظيمة وحكمة بالغةٍ: أن يكون سببًا في إخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ابراهيم

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾

تعرفونه، تعرفون نسبه، وحاله،و خُلقه،تعلمون يقينًا صدقه،وأنه لم يكن ليكذب على الله ﷻ.

ولا شك أن أحوال النبي ﷺ من دلائل نبوته، والعقلاء يستدلون على صِدقِ المتكلم بحاله، فإذا كانت حاله وسمته وخلقه تشهد بصدقه حكموا بذلك

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يشق عليه كثيرًا ﷺ الشيء الذي يُتعب المسلمين ويشق عليهم، لأنه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

رؤوف: كثير الرأفة. **رحيم**: كثير الرحمة ﷺ.

وهذا يعلمه ويتيقنه كل من اطلع على طرفٍ من سنة النبي ﷺ كان عليه الصلاة والسلام حريصًا أشد الحرص على هذه الأمة، بذل كل ما يستطيع في سبيل دعوتها، وفي سبيل هدايتها، حتى إنه ﷺ ما ترك شيئًا يُقرِب إلى الله إلا بينه، ولا شيئا يُباعد عن الله إلا حذر منه، برأفة ورحمة ولطف منه ﷺ.

ما ألطف قوله ﷺ كما في قول أبي هريرة عند أبي داوود والنسائي وغيرهما: «**إنما أنا لكم مثل الوالد أعلِّمكم**»، هذا النبي ﷺ يخبرنا أنه لنا مثل الوالد يعلمنا ﷺ، ولذلك ما ترك لنا شيئا نحتاجه في أمور ديننا إلا بينه لنا، في صحيح مسلم قال ﷺ:«**ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم،وأن يحذرهم من شرما يعلمه لهم**»:فإذا كان هذا شأن كل نبي فكيف بسيد الأنبياء ﷺ ولذلك يقول أبو ذر رضي الله عنه: «**ما تركنا رسول الله ﷺ إلا وكلُّ طائر يقلِّب جناحيه في السماء قد آتانا منه علما**»، فالصغير والكبير، والدقيق والجليل مما يحتاجه الناس بينه النبي ﷺ أعظم بيان وكان ذلك منه ﷺ في كل شيء، حتى كيف يقضي الإنسان حاجته.

فإذا كان هذا البيان من النبي ﷺ في الأمور الدقيقة؛ فكيف بأشرف الأمور، وكيف بأهم الأمور، وكيف بأعظم الأمور، ألا وهو ما يتعلق بتوحيد الله ﷻ، لا شك ولا ريب أن النبي ﷺ قد بيَّن الأمر، وجلَّ المقام، وأقام الحجة، ما ترك شيئا يقرب إلى الله ﷻ ويزيد من توحيده إلَّا بينه، ما ترك شيئا يخدش في هذا التوحيد أو يقدح في صفوه إلا بينه وحذر منه ﷺ.

الدرس الثالث والثلاثون – ٦٠١

٢٢- باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك (المجلس الثاني)

عَن أبِي هريرةَ ﷺ أنهُ قالَ: رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ تجعلوا بُيُوتَكم قُبُورَا،ولاتجعلوا قَبري عيدًا، وصَلُّوا عليَّ ،فإن صلاتَكم تَبْلُغُني حيثُ كُنتُم» رواه أبو داوود بإسناد حسن، ورواته ثقاتٌ.

هذا الحديث كما قال شيخ الإسلام، وكذلك ابن القيم، (ورواته ثقات المشاهير)، وذكر ابن عبد الهادي في (الصارم): أن الحديث له طرق يرتقي بها إلى درجة الصحة،

هذا الحديث فيه ثلاث مسائل:

أولًا: **نهي النبي ﷺ عن جعل البيوت قبورا**، وهذا يُستفاد منه **فائدتان**:

الأولى: أنه ينبغي للسلم أن يحرص على أن يعطر بيته بطاعة الله سبحانه **بالصلاة**، **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا»**، وكما قال ﷺ: **«أن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»**. **كذلك قراءة القرآن**، قال: ﷺ **«لا تجعلوا من بيوتكم مقابر فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»**،**وما إلى ذلك من أنواع العبادة**, سيكون بيته منيرًا، يتنزل عليه البركات والرحمات، ويفر منه الشيطان.

والفائدة الثانية : أن الحديث أفاد أن القبور والمقابر ليست محلًا للصلاة، فإن هذا هو المستقر في أذهان الصحابة رضى الله عنهم، ولأجل هذا أمرهم النبي ﷺ ألا يجعلوا بيوتهم قبورا، وقد أورد ابن حزم في (المحلى) أثارًا عن الصحابة في النهي عن الصلاة في المقابر.

ثانيا: **نهي النبي ﷺ عن أن يُجعل قبره عيدا.**

العيد فيه معاودة واعتياد، **وهو** :كل ما يُصد ويعتاد مجيئه من زمان أو مكان،

- **أما الزمان** ما يعتاد تقربه من أوقات معينه كالعيدين،
- **وأما المكان** فما يعتاد المجيء عنده في أزمان مخصوصة، ، لأجل التعبد هناك أو غير ذلك .قال ﷺ في شأن من نذر أن ينحر إبلا ببوانه، **«فهل كان فيها عيد من أعيادهم»**.

ولأجل هذا من الأعياد المكانية عند المسلمين:منى، وعرفات، والمزدلفة، ومكة لأنهم ينتابونها ويعتادون المجيء إليها **على هيئة مخصوصة، فيتعبدون لله ﷻ هناك.**

النبي ﷺ نهى عن أن يُجعل قبره عيدا، وهذا كما قرر علماء التوحيد يشمل صورا منها:

الصورة الأولى: **تكرار المجيء لزيارة قبر النبي ﷺ**، فإن هذا داخل في اتخاذه عيدا، وقد أورد إسماعيل القاضي البغدادي المالكي في كتابه (**المبسوط**)،عن الإمام مالك رحمه الله، فيه أنه سُئل رحمه الله عن أناس من أهل المدينة لم يرجعوا من سفر ولا يريدون سفرًا، يأتون إلى قبر النبي ﷺ كل يوم مرة أو مرتين، ويسلمون على النبي ﷺ، فقال رحمه الله

«**ما أدركنا على هذا أهل الفقه عندنا في بلدنا، ولا يصلح أخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، قال: أكره ذلك إلا من أراد سفر أو جاء من سفر**». وهذا أثر مهم عن الإمام مالك وهو من أفقه الناس بما يتعلق من أحكام تتعلق بقبر النبي ﷺ أو مسجده.

الصورة الثانية: **أن يُعتاد المجيء إلى قبره ﷺ على هيئة مخصوصة وكيفية معهودة**، كما يفعله بعض الناس، فإن لهم طقوسًا يفعلونها عند قبر النبي ﷺ، ويجتمعون عليها، ولا شك أن هذا أمر منكر، وداخل في اتخاذ قبر النبي ﷺ عيدا، وفي مصنف عبد الرزاق أن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ورحمه رأى أناس اجتمعوا عند قبر النبي ﷺ فنهاهم عن ذلك، وحدثهم بحديث النبي ﷺ: «**لا تجعلوا قبري عيدا**».

الصورة الثالثة: **قصد قبر النبي ﷺ لأجل الدعاء عنده.**

وهذا أيضًا داخل في اتخاذ قبره عيدا، و، كما سيأتي معنا في أثر الحسين بن علي زين العابدين رحمه الله

الصورة الرابعة: **شدُّ الرَحلِ إلى قبر النبي ﷺ**، بمعنى أن يسافر الإنسان والقصد أن يسافر الإنسان إلى المدينة، والقصد ليس زيارة المسجد، وإنما زيارة قبره.والنبي ﷺ قال: «**لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاث مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**».

أما السلام على النبي ﷺ في قبره فإن هذا مرخص فيه كما نص عليه جمهور أهل العلم .ومنهم الإمام مالك، والإمام أحمد، وأبو داوود، وأبو حبيبة من المالكية، وعامة أهل العلم

ومما استدل به عليه ما ثبت عن ابن عمر ﵄ أنه كان إذاأراد سفرًا أتى عند قبر النبي ﷺ وقال السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتِ، ثم ينصرف، وهذا أثر صحيح عنه، بل قال ابن عبد الهادي: أنه مجمع على صحته عنه. فهذا القدر لا بأس به أن يأتي الإنسان متأدب دون صخب أو رفع صوت حيث يأتي قبر النبي ﷺ ثم يسلم هذا السلام المشروع ثم ينصرف،فلا وقوف طويل،ولا دعاء،ولا شيء من هذا القبيل

إذن نستطيع أن نقول إتيان قبر النبي ﷺ يكون على وجهين، مشروع وغير مشروع:

- **أما المشروع:** أن يفعل الإنسان كما كان يفعل ابن عمر﵄
- **أما الممنوع فإنه يشمل صورًا:**

أولًا: أن يأتي الإنسان إلى قبر النبي ﷺ من أجل أن يدعوه ويستغيث به.

وهذا النبي الذي يجيء هذا المسكين إلى عند قبره يستغيث به ويسأله، عاش حياته ﷺ ناهيًا ومحذرًا لهذا الفعل القبيح، ودعوة الأموات تبطل العمل وتسلخ الإيمان خاب من فعل

ثانيا: أن يأتي إلى حيث القبر لقصد الدعاء عنده. يأتي إلى المواجهة مثلًا ثم يقصد أن يدعو الله هناك لأنه يظن أن هذا أدعى وأقرب للإجابة وهذا كما ذكرته من قبل داخل في مفهوم جعل قبره عيدا، إذن لا شك أنه فعل محدث وفعل مبتدع،

✸رويدل على ذلك أمران:

أولا: أن النبي ﷺ لم يثبت عنه قط أنه إذا أراد الدعاء أتى إلى قبر فدعا، ولم يثبت عنه ذلك حثًا بقوله ﷺ، ولم يثبت عنه ذلك تقريرًا منه لفعل أحد، ولو كان هذا مشروعًا لفعله.

الوجه الثاني: إجماع السلف الصالح على عدم فعل هذا الأمر، ولو كان أمرًا مشروعًا لبادروا إليه، فانتهى أصحاب النبي ﷺ عن هذا الفعل،وأحرص الناس على أن يستجاب دعائهم.

عن عبد الرزاق في المصنف لما أورد أثر ابن عمر،عبيدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب قال:(ما بلغنا عن أحد أنه فعل ذلك إلا ابن عمر من أصحاب النبي ﷺ)

وأخرج القاضي إسماعيل في (المبسوط) عن مالك رحمه الله:أنه كره من جاء مُسَلِّمًا إلى النبي فيقف فيدعو، وإنما يسلم فينصرف.

ثالثا:«**صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»وهذا منهﷺ تعليق لترك اتخاذ قبره عيدا بمعنى الشيء الذي تطلبونه من صلاتكم علي عند قبري حاصل مع صلاتكم على مع البعد، فلا حاجة إلى اتخاذي عيدا، صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم،

وعند النسائي النبي قال ﷺ: «**صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم، قال: إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام**».

إذن حيثما كان الإنسان فصلى على النبي ﷺ وبلغه ذلك ﷺ وعرض عليه ذلك ﷺ، كما دل على هذا أخرج أبو داوود وغيره عن النبي ﷺ أنه ذَكَرَ يوم الجمعة، وقال: «**أنه خير أيامكم، ثم قال:(فأكثروا على فيه من الصلاة فإن صلاتكم معروضة علي)**. قالوا: يا رسول اللهِ وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يريدون: بَلِيْتَ، **قال: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)**.

الشاهد أن النبي ﷺ أخبر أن صلاة المؤمنين تعرض عليه، وقد يكون هذا مفسرًا في حديث الملائكة السياحين، وقد يكون شيء آخر فالله أعلم كيف يكون، لا علم لنا بتفاصيل أو كيفية عرض هذه الصلاة على النبي ﷺ إن لم يكن إبلاغًا من الملائكة.

وعنْ عليّ بنِ الحسينِ، أنهُ رأى رجلاً يَجِي ءُ إلى فُرْجَةٍ كانتْ عندَ قبرِ النبي ﷺ فيدخُلُ فيها فيَدعُو،فنهاهُ، وقال:ألا أُحَدِّثُكُمْ حديثا سَمِعْتُهُ من أبي،عنْ جدي،عن رسُولِ الله ﷺ قال:(لاتتخِذوا قبري عيدا،ولا بُيُوتَكم قبوا،فإن تَسليمَكُم يَبْلُغُني أَين كُنتم).رواه في المختارة

هذا الأثر الذي يشتمل على ما اشتمل عليه الحديث السابق، إلا أن فيه أن **يبلغه السلام عليه**، الحديث الأول فيه أنه **يبلغه الصلاة عليه**.

وهذا الحديث حديث حسن أيضًا،و للنهي عن اتخاذ القبر عيدا، النهي عن قصد قبر النبي ﷺ للدعاء.

وجاء قريب من هذا الأثر عن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، «**أنه كان يتعشى في بيت فاطمة، بيت فاطمة مجاور لحجرة عائشة رضى الله عنها فرأى سهيل بن أبي سهيل جاء إلى قبر النبي ﷺ فدعاه، فقال: هلمَّ إلى العشاء. فقال: لا أريده. قال: ما جاء بك إلى قبر النبي ﷺ؟ قال: جئت**

مُسَلِّمًا. **قال: إذا دخلت إلى المسجد فصلّ عليه»**، ثم أخبره بحديث النبي ﷺ: **«لا تتخذوا قبري عيدا، لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

ومن حكمة الله ﷻ أن تجد هذه الآثار البينة النافعة عن **سادة** أهل بيت النبي ﷺ الذين هم أقرب الناس إلى النبي ﷺ نسبًا، والذين هم أعلم الناس بحقه، وأعظم الناس قيامًا بتعظيمه

❁ **بقي معنا أمرين أود التنبيه عليهما، وقد جاء في مسائل هذا الباب فيما ذكره المؤلف:**

الأمر الأول:

المسألة الرابعة: (نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال).

انظر إلى كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، أن زيارة النبي ﷺ من أفضل الأعمال، وقارن هذا الكلام بما ينسجه عليه أهل الفتن والشر والبدع من أنه رحمه الله كان لا يقدر النبي ﷺ حق قدره، أو أنه كان يحرم زيارة قبر النبي ﷺ، فانظر كلامه رحمه الله الواضح البين بأن زيارة قبره من أفضل الأعمال، أما الذي يُنهى عنه هو زيارة القبر على وجه المخصوص وهو الوجه المبتدع الممنوع لا الوجه المشروع،

الأمرالثاني:

المسألة التاسعة: (كونه ﷺ في البرزخ تُعرض عليه أعمال أمته الصلاة والسلام عليه).

هذه المسألة،يدل على ذلك ما ذكرته لك، وهو حديث أبو داوود وفيه أن النبي ﷺ قال: **«إن صلاتكم معروضة علي فقالوا: يا رَسُول اللَّهِ وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْت (قال: يقول بَلِيْتَ) قال: إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء»**.

وهذا الحديث صحيح إن شاء الله، وإن كان أُعلَّ بأكثر من علة، و فيه ثبوت عرض خاص على النبي ﷺ، والله أعلم بكيفيته، قد يكون بإبلاغه ﷺ من قبل الملائكة الموكلين بهذا الأمر وقد يكون غير ذلك، والله أعلم بهذا الأمر كيف يكون.

عرض الأعمال كلها صالحا وفاسدها على النبي ﷺ

وهذا ما يتشبث به من يتوجهون إلى النبي ﷺ عند قبره، أو بعيدًا عنه بالدعاء والاستغاثة، يقولون النبي ﷺ تعرض الأعمال عليه، ونحن نسأله بأن تغفر الأعمال لنا، ويستدلون بحديث: أخرج القاضي إسماعيل

المالكي عن بكر بن عبد الله المزني عن النبي ﷺ أنه قال: «**تُحدثون ويُحدَث لكم،و تعرض أعمالكم عليَّ فما وجدت من خير حمدت الله وما وجدتُ من شر استغفرت لكم**»، قالوا هذا الحديث فيه أن الأعمال عمومًا تعرض على النبي ﷺ، فيستغفر للمسيء فنحن نسأله وهو في قبره الاستغفار والشفاعة،

۞ وجواب عما ذكروا من وجوه:

➢ **الوجه الأول:** أنه حديث مرسل والمرسل من قسم الحديث الضعيف، فإنه مروي عن بكر بن عبد الله المزني عن النبي ﷺ فهو كما ترى ليس بمتصل،فهو ضعيف

➢ **والوجه الثاني:** إن الذي دل الدليل الثبات عليه أن الأعمال تعرض على الله ﷻ، لا على النبي ﷺ، يدل على هذا ما أخرجه الإمام مسلم عن النبي ﷺ: «**أن الأعمال تعرض على الله كل اثنين وخميس**».

➢ **الوجه الثالث:** أن الدليل قد دل على أن ذا العلم والخبرة بذنوب عباده هو العليم الخبير ﷻ لا غيره: ﴿**وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**﴾[الإسراء:17].

➢ **الوجه الرابع:** أن النبي وهو في حياته ما كان يعلم كل شيء، ومن ذلك ما كان عليه المنافقون: ﴿**لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾[التوبة:101]، فأعيانهم وأعمالهم وهو حي كان يجهلها ﷺ، فكيف يعلم كل الأعمال من الأبرار والفجار وهو ميت ﷺ.

➢ **الوجه الخامس:** أن النبي ﷺ وهو في قبره لا يعلم كل شيء، وذلك أنه قد مات وانقطعت حياته الدنيوية، وإنما هو في حياة برزخيه، الله أعلم بها، ولو كان يعلم ما تعمل أمته من بعده، لكان محيطًا بعلم كل شيء من أعمال الناس،وهذا مما اختصه الله ﷻ به.

➢ **الوجه السادس:** وهو أن الله ﷻ ينادي يوم القيامة الرسل ويسألهم أي شيء أجبتم، فيقولون: ﴿**قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا**﴾[المائدة] ولو كان النبي ﷺ يعلم وهو في البرزخ ما تعمل أمته لكان يعمل ما الذي أجيب به ﷺ، وكذلك عيسى ؑ، ماذا يقول لربه يوم القيامة، ﴿**وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ**﴾[المائدة] إذن الذي يعلم ذلك الله ﷻ.

كذلك النبي ﷺ كما في الصحيحين في حديث الحوض حينما يُذاد أناس من أمته، فيسأل عن ذلك ﷺ أو يقول: «**أمتي أمتي، فتقول الملائكة: لا تدري ما أحدثوا بعدك**»، ولو كان النبي ﷺ على إطلاع على أعمال أمته، لكان يعلم ما أحدثوا.

➢ **الوجه السابع**: أنه لو سلمنا صحة الحديث فإن ما يكون في البرزخ هو ما يرجع إلى الأمر **الكوني** لا إلى الأمر **الشرعي**. وبالتالي فإن سؤال النبي ﷺ وهو في قبره لا يؤثر شيئًا، التأثير إنما يكون في الدنيا، لأن ذلك راجع إلى الأمر الشرعي،

➢ **الوجه الثامن**: أن يقال إن الحديث إن صح فيه أن النبي ﷺ تعرض عليه الأعمال.

وأما القدر الذي يستدِلُ من أجله هؤلاء بالحديث فهو السؤال والدعاء والاستشفاع، وهذا قدر ما دل عليه الدليل إن صح بوجه من الوجوه.

➢ **الوجه التاسع**: إن صح هذا الحديث، فليُبشر الذي أخبر النبي ﷺ بأنه لا يكون له في هذا الحديث نصيب، لأنه ﷺ بعد موته يكون قد أشرك، والنبي ﷺ لا يستغفر للمشركين: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**﴾ [التوبة:113].

الدرس الرابع والثلاثون -٦١٨ ٢٣- بابُ ما جاءَ أنَّ بَعْضَ هذهِ الأمّةِ يَعْبُدُ الأوثانَ (المجلس الأول)

هذا الباب الذي عقده المؤلف رحمه الله أراد أن يَرُدَّ على شبهة يسيرها عباد القبور
وهي أن من عباد القبور ومِن مزيّني الشرك للأمة من يقول إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وبالتالي فإن كلما يقع من الضالين من عبادة للأموات بالدعاء والذبح والنذر والطواف وما إلى ذلك هذا كله ليس شركًا وليس كفرًا.

۞ **السبب الذي لا ينتفعون كثير من الناس مع أن أدلة التوحيد وما يبين الشرك ويحذر منه ظاهرة وكثيرة وواضحة في القرآن والسنة هو:** أن هذه الشبه حاجز وحائل بينهم وبين الحق.**إذن لابد من بيان الشبه التي يتشبث بها الضالون** حتى ينتفع الناس بالحق.

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدوا الأوثان،

الأوثان: الوثن هو كل ما يعبد من دون الله، ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا**﴾[العنكبوت:17]، وهذه الأوثان تتنوع قد تكون أصنامًا، وقد تكون أحجارًا وقد تكون أشجارًا وقد تكون قبورًا وقد تكون صلبانًا،النبي ﷺ أمر عديًا رضي الله عنه أن يلقي عنه الصليب الذي كان يعلقه،وسماه وثنًا.

إذن بعض هذه الأمة سيعبد الأوثان والناس في هذا الموضوع طرفان ووسط:

- طرفٌ يقول: **إن الأمة كلها عبدت الأوثان وارتدت وكفرت بالله إلا نزرًا يسيرًا** هم من يتبنى هذا القول فقط، وهؤلاء الخوارج الذين كفروا هذه الأمة قاطبة، أو كفروا هذه الأمة أكثرها، وربما سلُّوا السيف على أمة محمد ﷺ .
- **وطرف آخر يقول: إن الشرك والكفر والردة لا تقع في هذه الأمة البتة.**

فمهما وقع فإنه ليس شركًا، وهؤلاء القبوريون، وهم الذين اعتنى المؤلف رحمه الله بالرد عليهم.

- والوسط: **هم أهل التوحيد والسنة، الذين يقولون إن الشرك ممكن الوقوع من الناس** وأن بعض هذه الأمة قد وقع في ذلك، وهذا ما دل عليه الدليل الشرعي والدليل الحسي الواقعي.

شبهة عُبَّاد القبور: يقولون إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، دليلهم حديث خرجه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه وهو قول النبي ﷺ: «**إن الشيطان أيِس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب،ولكن بالتحريش بينهم**» أيس يعني يئس،أن يعبده المصلون في جزيرة العرب وجاء عند الترمذي بحذف كلمة جزيرة العرب:«**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون**»

واجواب عن هذه الشبهة من وجوهٍ كثيرة، منها:

أولاً: أن الحديث ليس فيه إلا أن الشيطان قد أيس، وهل الشيطان معصوم؟

ليس بمعصوم، وقع في نفسه لما رأى الخير ينتشر والفتوحات الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجًا وقع في نفسه اليأس من أن يعبُدَهُ المصلون، ولايلزم من هذا أن يكون الذي يئس منه أمر صحيح في الواقع.بل لو يئس الصالحون ولذلك أخبر الله ﷻ عن الرسل أنهم استيئسوا ﴿**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا**﴾:

قال الله﴿**جَاءَهُمْ نَصْرُنَا**﴾[يوسف:110].

ثانيا: أن يقال إن (أل) في قوله (المصلون) للاستغراق فتفيد العموم، وهذا يقتضي أن المسلمين المصلين جميعًا لا يمكن أن يقعوا في الشرك، وهذا صحيح، فالله جل وعلا قد حفظ هذه الأمة من أن ترتد عن بكرة أبيها، هذا لا يقع ولن يقع إن شاء الله.

ثالثا: أن يقال إن (أل) ها هنا عهدية، فالمقصود أن الشيطان أيس أن يعبده المصلون **حقًا**، الذين قاموا بعبادة الله ﷻ ومنها الصلاة على وجهها الصحيح، والصلاة كما أخبر الله إذا أقيمت على وجهها الصحيح تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي منكر أعظم من الشرك.

رابعا: قول أن الشرك لم يقع في الأمة، أمرٌ باطلٌ بنص حديث رسول الله ﷺ، وأحاديث النبي ﷺ لا يمكن أن تتناقض وسيمر معنا إن شاء الله في هذا الباب،

خامسًا: كيف يقال إن الشرك لا يقع من هذه الأمة، أو على الأقل لا يقع في جزيرة العرب **وقد خرج المتنبئون الكذابون كمسيلمة والأسود وغيرهما في وسط جزيرة العرب**، فهل يقولون أن هؤلاء ومن اتبعوهم ممن كانوا مسلمين أنهم ما كفروا ولا ارتدوا.

سادسًا: ماذا يقولون عن الذين كانوا مسلمين، ثم ارتدوا بعد موت النبي ﷺ وقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من الصحابة؟ ماذا يقولون في هذه القبائل العربية التي كانت في جزيرة العرب وارتدت والأخبار فيهم تطفح بها كتب الحديث.

سابعًا: ماذا هم قائلون في أولئك الزنادقة الذين خرجوا في عهد أصحاب النبي ﷺ وما بعد ذلك العهد، كالذين خرجوا في وقت علي رضي الله عنه، فألهوه فحرقهم رضي الله عنه بالنار أو أولئك القرامطة الذين كانوا في الجزيرة في شرقها في البحرين.

ثامنًا: عجيب شأن هؤلاء في كونهم يزعمون أنهم يتبعون المذاهب الفقهية بل ويتعصبون لها، **فماذا هم قائلون فيما حشيت به كتب الفقه من باب حكم المرتد؟** كل كتب الفقه في جميع المذاهب الفقهية المعروفة قد دون فيها هذا الباب، باب حد المرتد، باب حكم المرتد.

تاسعًا: عجيب أمر هؤلاء قالوا إن الشرك لا يمكن أن يقع ولاسيما من كان في جزيرة العرب، ثم نجد منهم من كفر أهل التوحيد وكفر علماء التوحيد لما قاموا بالدعوة إلى التوحيد،

الخلاصة: الأمر الحق الذي لا شك فيه أن الكفر والشرك أمر ممكن الوقوع وأن من وقع فيه فإنه قد أوقع نفسه في الظلال، إلا أن يتداركه الله برحمته فيتوب ويثوب

وليس أن التكفير والحكم بالشرك أن هذا حِمًى مباحًا لكل أحد، إنما دل الدليل على أنه كفر بالله، والذي يقال فيه ذلك.

(بعض هذه الأمة يعبدُ الأوثان)، هذه الأمة هي أمة **الإجابة** وليس المقصود **أمة الدعوة**،

فإن أمة الدعوة: هذه التي تشمل كل من تناولتهم بعثة أو دعوة النبي ﷺ،

إنما المراد أن من **أمة الإجابة** الذين شهدوا بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ من سيقع في الشرك وسيعبد الأوثان كما أخبر بهذا النبي ﷺ وهذا الباب يورث المتأمل فيه الخوف والوجل والحذر والحرص، حتى لا يكون من هؤلاء فإن المقام خطير.

قال تعالى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:51]

هذه الآية وجه إيرادها فيه: أن الله ﷻ أخبرنا أن اليهود الذين كفروا بالله ﷻ عبدوا الجبت والطاغوت، (عبدوا الأوثان) وأخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة ستتبع سنن من كان قبلها.

ما وصف هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب؟

أخبر الله ﷻ عنهم أنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾. هذه الآية نزلت في كعب بن أشرف اليهودي،الذي قال له كفار قريش مَنْ على الهدى؟ نحن أو محمد ﷺ، فقال: أنتم خير من محمد ﷺ. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:3]، وأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾وجاء عند أبي حاتم أنها نزلت في كعبٍ وأيضًا في حيي بن أخطب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾

حال هؤلاء حالٌ عجيبة،مع كونهم أوتوا نصيبًا من الكتاب،عندهم علم،لكنهم ما انتفعوا به.

وهذا **يفيدك** على أن العلم وحده ليس كافيًا في حصول الهداية ما **لم يكن توفيقٌ** من الله ﷻ

ولذا مَنْ أتاه الله حظًا من العلم من طلبة العلم عليهم ألا يغتروا، عليهم أن يلجؤوا إلى الله ﷻ بصدق أن يثبتهم وأن يوفقهم وأن يبصرهم بالحق ويعينهم على التزامه، وإلا فمجرد العلم أو الذكاء ليس بكافٍ:

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾

أكثر كلام المفسرين يدور على:

أن الجبت: هو الساحر أو الصنم أو الكاهن،

والمسلك الذي يسلكه كثيرٌ من السلف وهو أنهم يفسرون الكلمة بمثالٍ لها لأنهم يضعون حدًا جامعًا مانعًا، فكل ما يُعبَدُ من هذه المعبودات ويصرف له حق الله جل وعلا، فإنه داخلٌ في كلمة الجبت وإن كان الأصل في هذه الكلمة أنها تطلق على ما لا خير فيه.

الطاغوت: أكثر السلف فسروا هذه الكلمة بأنها الشيطان، وجاء هذا عن عمر بإسنادٍ قوي، قال رضي الله عنه: "الجبت السحر والطاغوت الشيطان، وقال الإمام مالك رحمه الله: الطاغوت كل ما عُبِدَ من دون الله، **ومراده رحمه الله دون شك أنه كل ما عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ.**

وأدق تعريفٍ للطاغوت ما قاله ابن القيم: أنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع. وذلك أن أصل المادة في الطاغوت يرجع إلى الطغيان **وهو** مجاوزة الحد، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾الحاقة

الشاهد أن هؤلاء يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأيضًا يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، هؤلاء لأنهم اشتركوا مع المشركين في الكفر بالله وبرسوله ﷺ، صار المشركون أحب إليهم وأقرب إليهم وأهدى في نظرهم من النبي ﷺ وأصحابه مع أن هؤلاء يعلمون أنه على الحق، لكن الغشاوة غشاوة الهوى حالت بينهم وبين الاعتراف بذلك.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة:60].

هؤلاء هم المقصودون في هذه الآية، هم اليهود الذين ذموا النبي ﷺ ونقموا منه ومن أصحابه أن آمنوا بالله وحده وآمنوا بالرسل وآمنوا بالكتب.

مثوبة: يعني جزاءً، كلمة المثوبة أصل المادة فيها ثاب يثوب، إذا رجع إلى الشيء فإنه يكون قد ثاب إليه، وهكذا الجزاء، جزاء العمل يعود على عامله، والغالب أن كلمة المثوبة ترد في شأن جزاء الحسنات لكن قد ترد في جزاء السيئات ومن ذلك هذه الآية.

جزاهم الله ﷻ على إفكهم وبغيهم وضلالهم بالآتي:

الوصف الأول: أنه لعنهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾[المائدة:59]،

باءوا بلعنة الله ﷻ، والأدلة في كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ، كثيرة في وصفهم باللعنة،

الوصف الثاني: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[المائدة:60]: باءوا أيضًا بغضب من الله ﷻ،

الوصف الثالث: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[المائدة:60]، مسخوا،

منهم من مسخ قردة وخنازير، وهذا مسخ حقيقي، قلبهم الله جل وعلا حقيقةً إلى قردة وخنازير،

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[البقرة:65]، جزاهم الله ﷻ على الإثم العظيم الذي وقعوا فيه، وهو تحايلهم على محارم الله ﷻ جزاهم الله ﷻ على ذلك بأن جعلهم قردة وخنازير،

أولا: وهؤلاء الذين قلبهم الله ﷻ إلى ذلك ليسوا جميع اليهود **إنما طائفة** منهم.

وثانيًا: يخطئ بعض الناس حينما يظن أن القردة والخنازير الذين هم موجودون في هذه الدنيا، أن أولئك هم اليهود الذين قُلِبوا أو سُلالَتُهم **وهذا غير صحيح**،

بين النبي ﷺ، أن الله ﷻ ما مسخ قومًا فجعل لهم ذرية، والقرود

والخنازير كانوا موجودين من قبل، قبل هذا المسخ، لكن هؤلاء أناس قلبهم الله ﷻ عقوبة على فعلهم وإفكهم إلى ذلك، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قلَبَ الشباب قردة وقلَبَ الشيوخ خنازير، الشاهد أن هؤلاء قوم مسخهم الله ﷻ ثم إنهم هلكوا وانقطعوا.

الوصف الرابع. فهو الشاهد في إيراد المؤلف رحمه الله هذه الآية، قال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، هذه الآية قرئت بقراءات كثيرة أنهاها أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) إلى نحوٍ من عشرين قراءة لكنها كلها شاذة إلا قراءتان هما القراءة المتواترة قراءتان فقط.

- **وقرأ الجمهور**: وعَبَدَ الطاغوت، فعل ومفعول والفاعل محذوف يعني:**هم**

هم الذين عبدوا الطاغوت،

وتكون **معطوفة على الأفعال التي قبلها**، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ لكن الفرق أن الضمائر مختلفة، فالضمير في الأفعال الثلاثة السابقة ترجع إلى الله ﷻ وأما في هذا الفعل فإنه راجعٌ إلى هؤلاء اليهود الذين عبدوا الطاغوت، وإنما قال (عبد) ولم يقل (عبدوا) لمراعاة لفظ (مَنْ) الذي ذُكِر قبل ذلك.

- **قرأ حمزة الكوفي** أحد القراء السبعة، (وعَبُدَ الطاغوتِ)، مضاف ومضاف إليه، و(**عَبُد**) بضم الباء

قيل: إن هذه الكلمة جمع عابد وهو جمعٌ سماعيٌ قليل، الذي يأتي على هذا الوزن،

وقيل: إن (عَبُد) بمعنى عابد وبالتالي فيكون عبُد الطاغوت إما عباد الطاغوت أو عابد الطاغوت إما أن تكون جمعًا وإما أن تكون كلمة مفردة، وعلى هذا فتكون هذه الكلمة معطوفة على القردة والخنازير.

الشاهد أن هذه الآية فيها أن من أهل الكتاب وهم اليهود من عبد الطاغوت، وأخبر النبي ﷺ أن من هذه الأمة مَنْ سيتبع أهل الكتاب،إذن وقوع الشرك في هذه الأمة ممكن.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:21].

والغالب أن هؤلاء من النصارى، كما يذكرهم كثير من المفسرين، وأخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة سيكون فيها من يتبع سنن من كان قبلنا، فهذا وجه إيراد المؤلف رحمه الله لهذه الآية.

☒ **من الناس من يزعم أن هذه الآية دليل على جواز اتخاذ القبور مساجد** فيقولون كيف شتنكرون، وقد دل القرآن على جواز ذلك؟ ألم تسمعوا إلى قول الله ﷻ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾

هذا من أوهن الاستدلالات والجواب عن هذا هذه الشبهة:

➢ **أولاً: أن هذه الآية ليس فيها إلا ذِكرُ عزم طائفةٍ من الناس،** جاء وصفهم بأنهم الذين غلبوا على الأمر يعني كانوا أهل النفوذ والسلطة، أنهم سيتخذون على قبور هؤلاء الفتية الصالحين مسجدًا ولا شيء أكثر من ذلك، ليس في الآية ما يدل على مدح هؤلاء ولا على الحث على أن نفعل مثلما فعلوا، إن ما فيها أن هؤلاء أرادوا وعزموا على أن يتخذوا على قبورهم مسجدًا وذلك أنهم رأوهم أناس صالحين وفُتِنوا بهم وبصلاحهم

ومن أهل التفسير من قال إن هؤلاء كانوا قومًا مشركين: فالاستدلال ساقط من أصله،

ومن أهل التفسير من قال أنهم كانوا قومًا مؤمنين ،كانوا قومًا منتسبين إلى دين سماوي كالنصارى مثلاً، فأنه لا عصمة لأحدٍ بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أكان فيه النبي يحتج بفعله ويحتج بعزمه؟ لم يكن في ذلك شيء من هذا البتة، فإذًا هذا الاستدلال غير صحيح.

على أن في الآية ما يشعر أن هذا الفعل ليس صوابًا، لأن الله جل وعلا وصف هؤلاء بأنهم **(الذين غلبوا على أمرهم)**، لم يقل **(قال الصالحون)**، والحال والواقع أن الغالب على أهل النفوذ والسلطة أن يكونوا جهالاً بل وأن تغلبهم الأهواء وتقع منهم الأخطاء،

وفي الآية ما يشعر أنهم قالوا هذا القول على سبيل المراغمة للذين قالوا أنهم يسدون عليهم الكهف وينتهي أمرهم، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم، هنا قال هؤلاء: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ كأنه كان على سبيل العناد والمراغمة.

➢ **ثانيا: اتفق أهل العلم على أن خير ما فُسِّر به كتاب الله ﷻ هو سنة رسوله ﷺ بعد الكتاب.**

لا ندري ما التحقيق في شأن الذين غلبوا على أمرهم، أكانوا صالحين أم هم طالحون، أكان فعلهم صوابًا أم غير صواب، دعونا نرجع في هذا البيان إلى سنة النبي ﷺ.

بحثنا ووجدنا في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، ومر بنا الحديث في أول حديثٍ قبل ثلاثة أبواب، (باب ما جاب من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجلٍ صالح، فكيف إذا عبده) أن أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما، حدثت عن كنيسة رأتها أو رأتاها في الحبشة يقال لها مرية، وما فيها من التصاوير وما كانت عليها من الحسن، فقال النبي ﷺ: **«أولئكِ كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك التصاوير»**

السؤال الآن:

وازنوا بين ما جاء في الآية وما جاء في الحديث، أليس هذا هو هذا؟! مات رجلٌ صالح فبُنِي على قبره مسجد، فالذي جاء في الحديث هو هو الذي جاء في الآية.

ماذا كان موقف النبي ﷺ من ذلك؟ قال ﷺ: **«أولئكَ أو أولئكِ شرارُ الخلق عند الله»**.

إذن هذا الفعل الذي جاء في الآية، ما الحكم الذي دل عليه الحديث؟ جاء أنه خطأ، وجاء أنه باطل، وبالتالي فكيف يستدل بعد ذلك بهذه الآية والنبي ﷺ قد بين الأمر وفصله، وأن هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل وكانوا يفعلون هذا الفعل شرار الخلق عند الله.

الدرس الخامس والثلاثون – ٦٣٧ ٢٣- باب ما جاء أنّ بعض هذه الأمّة تعبد الأوثان (المجلس الثاني)

عن أبي سعيدٍ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كانَ قَبْلَكم حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حتى لَو دَخَلوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قالوا: يا رسول اللهِ، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» أخرجاه.

هذا اللفظ الذي أورده المؤلف ليس هو اللفظ الذي أورده الشيخان، وإنما قال النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب اتبعتموهم. فقلنا: يا رسول الله، آليهود والنصارى؟ قال النبي ﷺ: فمن؟**»

وهذا الحديث أورده المؤلف بلفظ «**حذو القذة بالقذة**» في مسند الإمام أحمد، لكن من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لَيُحْمِلَنَّ شِرار هذه الأمة على سنن من كان قبلهم حذو القذة بالقذة»،ولكن هذا اللفظ فيه إسناده شهر بن حوشب، وهو كثير الأوهام.

ولعل المؤلف رحمه الله تابع في عَزْوِ هذا اللفظ إلى الشيخين، تابع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في (اقتضاء الصراط المستقيم)، فإن الذي يظهر والله أعلم.

وهذا الحديث قد جاء أيضا عند البخاري عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» أو قال: «**لا تقوم الساعة حتى تتبع أمتي سنن من كان قبلها، قالوا: كفارس والروم ؟، قال النبي ﷺ: فمن الناس إلا أولئك؟**»

وهذا الحديث فيه ذكر فارس والروم، وفي الحديث الذي بين أيدينا ذكر اليهود والنصارى، والجمع بينهما كما نقل الحافظ بن حجر في الفتح أن اتباع هذه الأمة في الدين أصولًا و فروعًا كان لليهود والنصارى وفي شأن الحكم والسياسة كان لفارس والروم.

أيضًا جاء هذا الحديث بلفظ قريب مما أورد المؤلف، وهى قوله ﷺ: «**حتى لو كان من أحدهم أن ضاجع أمه بالطريق لكان من أمتي من يفعل ذلك**»،

المقصود أن هذا المعنى ثابت في روايات عدة عن النبي ﷺ، وهو أصل في هذا الباب في كشف شبهة القبوريين الذين يزعمون أن الشرك لا يقع في هذه الأمة.

فهذا الحديث فيه إثبات أن هذه الأمة سيكون منها من يتبع اليهود والنصارى فيما ضلوا فيه، ومن ذلك لا شك ما يكون من اتباعهم في شأن الشرك بالله جل وعلا.

وهذا الحديث من أعلام نبوة النبي ﷺ، حيث وقع ما قال عليه ﷺ،إذا نظرت وجدت اتباع ما عليه أهل الكتاب والتشبه بهم في العقيدة والتشبه بهم في العبادات والأخلاق والعادات و التشبه في الملبس والهيئة والعادة والكلام، وما إلى ذلك، والله المستعان

«لتتبعن سنن من كان قبلكم»، ولاحظ كيف أن هذا الفعل أُكِّد بثلاثة مؤكدات:

أولًا: اليمين المقدرة،

ثانيا: واللام

ثالثا: والنون، كل ذلك يدل على أن هذا واقع لا محالة من هذه الأمة،

التنبيه: **والمقصود هو مجموعها لا جميعها**، لمجموع الأمة سيكون منهم اتباع اليهود والنصارى، وليس أنها جميعًا من كل فرد من أفرادها سيقع ذلك،.

«لتتبعن سنن من قبلكم» قرئ هذا اللفظ بالفتح والضم، (سَنن)، و(سُنن)،**والأشهر الفتح**

هذه الكلمة إذا قرأت بالفتح فهي كلمة مفردة، **بمعنى الطريق**،

وإذا قرأت بالضم (سُنن) فهي جمع **سُنة**، والسنة هي السبيل والطريقة أيضًا، فهما معنيان متقاربان، وأكد النبي ﷺ أن هذا الاتباع سيكون اتباعًا دقيقًا، شبرًا بشر، وذراعًا بذراع.

«حذو القذة بالقذة»، الحذو: هو القطع، **والقذة هي الريشة**، التي توضع في السَهْم،

فكانوا إذا صنعوا وبروا السهام فإنهم يضعون ريشة للنَسر أو للصَقْر أو ما إلى ذلك، وهذه الريشة تكون سببًا في استقامة السهم إذا رُمي، كانوا يضعون قذتين، أو ريشتين، ولابد لباري السهم أن يجعل إحدى الريشتين مطابقة للأخرى تماما، وإلا فإنه ما انتفع،

هذا يطلق على الشيئين يكونان متطابقين تمامًا، إذا أخبر النبي ﷺ أنه سيكون هناك مطابقة تامة لما يقع من اليهود والنصارى في الجملة وتصل إلى الحد الذي لو قُدر فيه دخول أحدهم جحر ضب، لكان من هذه الأمة من يدخل جحر الضب كما فعلوا،

الضب هو الحيوان الزاحف المعروف، و**جحره هو غاره**، وهو شيء صغير، لا يتصور أن يدخله إنسان، لكن جرت عادة العرب على أن يذكروا الأمر المستحيل من جهة المبالغة

إذن هذا الأمر الذي أخبر به النبي ﷺ، أمر واقعي حقيقي ليس خياليًا، وتأكد ذلك من حيث الواقع، فهو شاهد على صحة ما أخبر به النبي ﷺ.

۞ ولمسلم عن ثوبان ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مَشَارِقَهَا ومَغَارِبَهَا، وإن!ّ أُمتي سَيَبْلُغ مُلْكَهَا ما زُوِيَ لي مِنها وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لِأُمَّتي أَلَّا يُهْلِكَهَا بسَنَةٍ بعَامَةٍ وألا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أَنْفُسِهِم، فَيَستَبِيحَ بَيْضَتُهُم، وإنَّ ربي قَالَ: يا محمدُ، إِني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكها بسنة عامة، وألا أُسَلِّطَ عَليهِم عَدُوًّا مِن سِوَى أنفسهم فَيَستَبِيحَ بَيْضَتُهم، ولَو اجْتَمَع عليهم مَنْ بِأقطارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضَا ويَسْبِيَ بَعضُهم بَعضًا»

هذا الحديث فيه ذكر آية من آيات الله ﷻ التي خص بها النبي ﷺ،

زوى: يعني جمع، والمعنى: أنه طوى له الأرض حتى أصبحت في نظره صغيرة، فرأى مشارقها ومغاربها، وأخبر النبي ﷺ أن ملك هذه الأمة سيبلغ ما زُوي له ﷺ منها.

وكان ما قال ﷺ، وذلك أن الإسلام توسع وانتشر من جهة المشرق ومن جهة المغرب أكثر مما كان من جهة الشمال والجنوب، لأن النبي ﷺ أخبر بهذا ذكر المشرق والمغرب، فكان كما قال ﷺ.

وقال ﷺ: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»

المقصود بالإعطاء إعطاء أمته ﷺ، لأن حصول هذه الغنائم وهذه الكنوز إنما كان في عهد أصحاب النبي ﷺ، في عهد عمر رضي الله عنه، ولم يكن هذا في عهده ﷺ، لكن ذكر النبي ﷺ أنه أُعطيه، لأن الإعطاء كان لأمته التي هو قائدها، وهو نبيها، وهو سيدها، لا سيما وأن إعطاء الأمة هذه النعمة إنما كان بسببه هو ﷺ، وببركة اتباعه والإيمان برسالته.

الكنزين الأحمر والأبيض، يعني: الذهب والفضة. **والمراد**: أنه نالت هذه الأمة الأموال والمكاسب والخيرات والغنائم التي كانت عند فارس والروم، والغالب على مال كسرى والفرس هو الفضة، وهذا هو الكنز الأبيض، والغالب على كنز الروم وقيصر هو الذهب، وهذا هو الكنز الأحمر.

❁ **قال ﷺ: «وإني سألت ربي لِأُمَّتي أَلَّا يُهْلِكَهَا بسَنَةٍ بَعَامَةٍ»**

هذا سؤال من النبي الرؤوف الرحيم بهذه الأمة,ألا يهلكها بسنة عامة.

وكلمة (**بعامة**) جاءت في بعض نسخ كتاب التوحيد بهذا اللفظ بإثبات الباء،

وجاءت في بعض النسخ بحذف الباء (بسنة عامة)، وهكذا كان الأمر في الأصل، يعني في صحيح مسلم، فإن نُسَخَ صحيح مسلم جاء في بعضها (بسنة بعامة)، وجاء في بعضها (بسنة عامة)، وهكذا في بقية المصادر التي خرجت هذا الحديث. وعلى كل حال المعنى واحد، والباء كما يقول أهل اللغة ها هنا زائدة.

السنة يعني: **الجدب وانقطاع المطر**، سأل النبي ﷺ ألا يهلك هذه الأمة بالعطش.

«وألا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًا مِن سِوَى أَنْفُسِهِم، فَيَستَبِيحَ بَيْضَتَهُم.»

الطلب الثاني الذي سأل النبي ﷺ ربه.

«وإنَّ ربي قَالَ: يا محمدُ، إِنِي إِذا قَضَيْتُ قَضاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ».

أجاب الله ﷻ نبيه ﷺ بما بينه ﷺ في هذا الحديث، وهو أن الله تعالى إذا قضى قضاء فإنه لا يرد؛ وهذا القضاء يا رعاك الله هو **القضاء الكوني**، والقضاء الكوني هو في معنى المشيئة، فما قضى الله كونًا، فإنه **واقع ولا بد**، ولا يمكن أن يُغالب الله ﷻ في قضائه الكوني.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء:4]،

والمقضي كونًا قد يكون محبوبًا لله، وقد يكون مبغوضًا لله، فالإفساد الذي قضاه الله ﷻ في شأن بني إسرائيل مبغوض لله غير محبوب، لكن الله ﷻ قد يقضي ما لا يحب لأنه يفضي إلى ما يحب.

إذن، المقضي كونا ينقسم إلى قسمين:

إما أن يكون محبوب لذاته لله جل وعلا، وإما أن يكون محبوبًا لغيره.

والقضاء الشرعي، وهو في معنى المحبة والإرادة الشرعية،﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الإسراء:فهذا القضاء لا يلزم وقوعه، قد يقع وقد لا يقع، لكنه محبوب لله ﷻ ولا بد،

إذن القضاء الشرعي ملازم للمحبة، والقضاء الكوني ملازم للوقوع.

قال ﷺ: قال الله ﷻ: «وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكها بسنة عامة»

الأمر الأول: الذي سأله النبي ﷺ ربه أجابه الله جل وعلا **بلا قيد**

هذا من فضل الله وله الحمد والمنة، قضى الله قضاءً كونيًا لا يتخلَّف وهو أن هذه الأمة لا تهلك بالجدب والقحط وقلة المطر جميعا، وإنما قد يكون القحط في ديار دون ديار.

قال: «وألا أُسَلِّطَ عَليهِم عَدُوًا مِن سِوَى أنفسِهِم فَيَستَبيحَ بَيْضَتُهم، ولَو اجْتَمَع عليهم مَنْ بِأقطارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضا ويَسْبِيَ بَعضُهم بَعضًا».

بالبيضة: يعني مجتمع المسلمين وموضع اجتماعهم وقوتهم،

والعرب تقول: "**بيضة الدار**" لوسطها ومعظمها،

والمقصود بذلك أن الله ﷻ وعد –ووعده لا يُخلف– أنه لا يسلط عدوًا على هذه الأمة من الخارج فيستبيح سلطانها ويقضي على موضع إمامتها، وخلافتها، وقوتها، إلا إذا وُجد أمر.

الأمر الثاني: **فكان الجواب جوابا مقيدًا،**

قال حتى: هنا هي **للغاية**، إذا بلغ الأمر أن بعض هذه الأمة قتل بعضا، وسبى بعضها بعضا، حينئذ فإن الأمر مخوف، فلم يكن وعد من الله جل وعلا لهذه الأمة،

إن كان من هذه الأمة تسلط على بعضها ألا يكون هناك تسلط من الكفار، **بل يمكن أن يقع ذلك** أن يتسلط الكفار على المسلمين فيستبيحون بيضة الإسلام، وهذا ما وقع مع الأسف الشديد في مرات متكررة في التاريخ، ومن نظر في التاريخ عرف ذلك.

ومن أشهر تلك الوقائع: ما حصل من تسلط التتار على المسلمين حينما غزوا بلاد المسلمين، حتى وصلوا إلى عاصمة الإسلام بغداد، وحصل ما حصل من القتل العظيم، في حدود أربعين إلى ستين يومًا، بلغ قتلى المسلمين ألفي ألفي قتيل،

۞ وتشهد على أن المسلمين نِيْطَ نصرهم بتحقق أمرين:

➢ **أولًا: تحقيق التوحيد والاتباع لله ﷻ ورسوله ﷺ.**

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور:55]، متى؟

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[النور:55].

➢ **ثانيا: حصول الاجتماع وعدم الفرقة والاختلاف،**

كما أخبر النبي ﷺ عن ربه في هذا الحديث، إذا اختلفوا وتقاطعوا وتقاتلوا، فإن لا وعد لهم بالنصرة والعزة والتمكين، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:46].

ورواهُ البَرْقَانِيُّ في صحيحهِ وزاد: «وإنما أخافُ على أمتي الأئمةَ المضلينَ وإذا وَقَعَ عليهِمُ السيفُ لم يُرْفَعْ إلى يومِ القيامةِ ولا تَقُومُ الساعةُ حتى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمشركِينَ،وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ وإنَّهُ سَيكونُ في أُمتي كَذَّابُونَ ثلاثونَ، كُلُّهُم يَزْعُمُ أَنهُ نبي،وأنا خَاتَمُ النبيينَ،لا نبيَّ بَعدِي وَلا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمتي على الحقِّ منصورةً، لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم حتى حتى يأتي أمرالله تبارك وتعالى ».

البرقاني: هو تلميذ الدارقطني وشيخ الخطيب البغدادي، توفي سنة خمسة وعشرين وأربعمائة،

أخرجها البرقاني في صحيحه، وهذا الكتاب في حد علمي مفقود إلا قطعة يسيرة في أوراق معدودة وجدت، والحديث كاملًا بما سبق وبهذه الزيادة خرجه إضافة إلى البرقاني أبو داود في سننه وكذلك الإمام أحمد في مسنده وغيرهما، فهي زيادة صحيحة.

«وإني أخاف على أمتي الأئمة المضلين»، هذا من كلام النبي ﷺ،

والأئمة المضلون هذا الوصف يشمل طائفين:

ضُلَّالَ الحكام، و ضُلَّالَ العلماء،

وما دخل الشر والشرك والبدعة على هذه الأمة إلا من خلال هاتين الطائفتين.

فالحكام من أهل الشر والبدعة والشرك، يحملون الناس على الضلال، كما حصل في عهد الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن التي لا تخفاكم، ولها نظائر في التاريخ الإسلامي.

وأما العلماء، علماء السوء، الأئمة المضلين، فهؤلاء أكثر، وتأثيرهم أعظم، هؤلاء الذين يزينون الشر و الضلال، ويزينون مخالفة الكتاب والسنة وجاء في مسند أحمد بإسناد قوي أن النبي ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**»، المنافق عنده لسان وأسلوب، فإذا تكلم وإذا خطب أثر،والمصيبة أن كثيرًا من المسلمين لا سيمافي العصور المتأخرة جهال بدينهم، والجهال يخدعهم بريق الألفاظ، دون أن يغوصوا إلى الحقائق المعاني

قال ﷺ: «وإذا وَقَعَ عليهِمُ السيفُ لم يُرْفَعْ إلى يَومِ القيامةِ».

وكان ما أخبر به لما سُل السيف على هذه الأمة منذ عهد عثمان رضي الله عنه لم يرفع ولن يرفع إلى أن يشاء الله، وقتلى المسلمين بفعل من ينتسبون للإسلام أكثر من قتلى المسلمين الذين قتلوا بفعل غيرهم، فتأثير الخوارج والبغاة ومن تأول، أو القتال الذي حصل بسبب التغلب، أو الحرص على السلطة بين المسلمين على مدار التاريخ شيء كثير جدًا.

«ولا تَقُومُ الساعَةُ حتى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمشركِينَ،وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانِ»

۞ **هذا هو موضع الشاهد من الحديث**، ولأجله أورد المؤلف رحمه الله هذا الحديث.

فئام: يعني مجموعة، و **الحي**: هو قبيلة،

وجاء عند أبي داود:«**حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأصنام**»،

وما المقصود بقوله ﷺ بلحوق حي أو قبائل من هذه الأمة بالمشركين؟

هل المراد أنهم يرتدَّون فيكونون قد لحقوا بالمشركين حكمًا، وهم في أماكنهم؟

أو أن المقصود أنهم يلحقون بالمشركين واقعًا فينتقلون إلى ديارهم ويسكنونها؟

أو أنهم يجمعون بين هذا وبين الردة عن دين الله جل وعلا؟

الأقرب والله أعلم هو: أنهم يلحقون بهم ويسكنون ديارهم،

لأن المعنى لو كان هو الأول وهو أنهم يرتدون لكان ما ذُكر بعده في معناه فيكون شبيها بالتكرار، والتأسيس كما عند الأصوليين أولى من التأكيد، فذكر معنى جديد أولى من تأكيد معنى أخر ذُكر،

وبالتالي فيكون هذا الحديث دليلًا على أن سُكنى بلاد الكفار أمر مذموم شرعًا، إلا لمصلحة شرعية معتبرة.

الشاهد أن النبي ﷺ أخبر أن من هذه الأمة من سيقع في الشرك، سيعبد الأوثان والأصنام، وكان ما أخبر به ﷺ، فحدث ولا حرج عمن ينتسبون للإسلام ويقولون لا إله إلا الله، وربما صلوا وصاموا وزكوا وحجوا، ولكنهم عند القبور، وبعيدًا عنها، يتوجهون إلى الأموات، يدعون ويستغيثون، وينذرون ويذبحون ويطوفون و وقع ما أخبر به ﷺ، **وهذه من علامات النبوة** ﷺ، حيث كان كما أخبر

وهذا رد بالغ على أولئك الذين ذكروا الشبهة السابقة، وهي أن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وأين هؤلاء عما ثبت في الصحيحين أيضًا عنه ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس عند ذي الخَلصة**».

ونساء دوس: وهي قبيلة في جنوب الجزيرة العربية– أخبر النبي ﷺ أنها لن تقوم الساعة حتى تضطرب ألياتهن يعني أردافهن عند ذلك الوثن الذي هو طاغية دوس واسمه ذو الخلصة.

أين هؤلاء عما جاء عن النبي ﷺ في صحيح مسلم ﷺ أنه قال: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلِم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرضِ من الدنيا**».

أين هم عن حديث النبي ﷺ وهو ثابت في الصحيحين، لما ذكر الدجال وأنه يجوب الأرض إلا المدينة، فإن على أنقابها ملائكة يحرسونها، أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أنها «**ترجف ثلاث رجفات**»، فيخرج من المدينة التي هي أعظم المدائن والتي يرجع إليها الإيمان في آخر الزمان، قال: «**فيخرج منها كل كافر ومنافق**»، وهي المدينة، فماذا يُقال عن غيرها!!

وفي هذه الأحاديث أيضًا ما يُورث المسلم:

الخشية والخوف والوجل، فإن الشرك مخوف، والنبي ﷺ أخبر أن الجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، والنار مثل ذلك

هذا دليل على أن الأسباب التي توصل إلى الجنة سهلة ويسيرة والأمر كذلك إلى النار.

وعلى المسلم أن يحذر، وأن يخاف، وأن يلجأ إلى الله جل وعلا بالصدق أن يجنبه الشرك وعبادة غيره.

«وإِنَّهُ سَيكونُ في أُمتي كذَّابُونَ ثلاثونَ، كُلُّهُم يَزْعُمُ أَنهُ نبي،وأنا خَاتَمُ النبيينَ،لا نبيَّ بَعديِ»

رؤوس أولئك هذا العدد الذي ذكره النبي ﷺ، وهم ثلاثون، وهذا العدد فيه أنه سيكون هناك دجالون ثلاثون، كلهم يدعي أنه نبي، **وليس فيه الحديث** أن كل من يدعون هذه الدعوى ثلاثون، إنما هؤلاء الثلاثون هم الأبرز والأشهر، أو الذين لهم أتباع والله تعالى أعلم كسيلمة الذي كان صاحب اليمامة، وأخوه الأسود العَنَسي الذي كان في صنعاء، والى هذا العصر ككذاب قاديان، غلام أحمد القادياني في الهند، وغيرهم.

فمن أثبت نبوة لأحد بعد النبي محمد ﷺ فهو كافر بإجماع المسلمين، لأنه مكذب للقرآن ومكذب لحديث النبي ﷺ، الذي تكاثر عنه ﷺ، من أنه لا نبي بعده.

﴿ قال ﷺ: «وَلا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمتي على الحقِّ منصورةً، لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم حتى حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

هذه البشارة من النبي ﷺ، ستبقى طائفة -والطائفة هي الجماعة من الناس- هي التي قامت حقًا وصدقًا بتوحيد الله واتباع رسوله ﷺ،في كل صغير وكبير، ، هؤلاء هم السلف الصالح وأتباعهم، هم أهل الحديث، يعني أهل السنة والجماعة.

الدرس السادس و الثلاثون –٦٥٨   ٢٤– بابُ مَا جَاءَ في السِّحرِ

هذا الباب من المؤلف رحمه الله استكمال لما جرى من بيان نواقض وقوادح التوحيد.

السحر في اللغة: اختلف العلماء في تفسيره، من أشهر ما ذكروا

أن السحر هو: ما خفي ولطف ودق سببه. ومنه سمي (السَحَر) لأنه تخفى فيه الأشياء، السَحَرُ أخر الليل.

وذكر بعض اللغويين أن أصل هذه الكلمة في اللغة يرجع إلى صرف الشيء عن وجهه، وذكروا غير ذلك في كلام كثير عند أهل اللغة.

أما في الاصطلاح: أهل العلم في حد السحر يجدوا أنهم اختلفوا إلى **ثلاث طرائق**:

- الأول: **منهم من يُعِّرف السحر** وذلك لكثرة أنواعه التي تدخل تحت هذا اللفظ وليس بينها قدر جامع مشترك، ولأجل هذا فإن هؤلاء يذكرون أمثلة للسحر ولا يحدونه بحد. ومن أولئك الإمام الشافعي ومن المتأخرين "محمد الأمين الشنقيطي "رحمه الله.
- الثاني: **هو ذكر تعريف عام للسحر**. من هؤلاء من يقول أنه مزاولة النفس الخبيثة لأقوالٍ و أفعالٍ تكون منها أمور خارقة.

ومنهم من يقول في تعريف السحر أنه اجتلاب معونة الشيطان بالتقرب إليه.

- الثالث: **هو تعريفه بذكر أمثلة له**:. ومن هؤلاء ابن قدامه فإنه عرف السحر بأنه عُقد ورقى وعزائم تؤثر في القلوب والأبدان فتمرض وتقتل وتفرق بين الرجل وزوجه.

ما هو السحر وهل هو حقيقة أم لا؟

أما كون السحر له حقيقة: فإن هذا مذهب أهل السُنة والجماعة بل مذهب عامة الأمم لم ينكروا في عمومهم أن للسحر حقيقةً وأن له تأثير حقيقيٌ، ذلك أنه بمعاونة الشياطين يكون بهذا السحر تأثير على المسحور بأمراضه. فربما أصاب عقل بأذى حتى ربما أوصله إلى حد الجنون، وربما أصاب بدنه فأمرضه، وربما قتله،و إلى ما شاكل ذلك.

ولكن ذلك أنما هو بإذن الله الكوني المرادف للمشيئة.﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة

وخالف بعض الناس في ذلك و هم المعتزلة، ووافقهم على هذا بعضهم كابن حزم و "الجَصاص الحنفي" ذهبوا إلى أن السحر ليس إلا تخيل للعين، يحصل تخيل للعين بحيث أن ترى الشيء على خلاف حقيقته. والصواب هو قول عموم الناس من أهل السُنة وغيرهم.

يدل على هذا أدلة كثيرة:

أولا:منها قول الله جل وعلا ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾[البقرة:102]، السحر يكون بسببه أثر يفرق به بين الرجل وأهله، وهذا دليل على أن له تأثير حقيقي.

ثانياً: قول الله ﷻ ﴿**وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾[الفلق:4]،

والنفاثات في العقد: هن السواحر اللائي يَسحَرنَ وينفثن في العقد فيكون التأثير بإذن الله الكوني. ولولا أن للسحر حقيقة وتأثيرا ما كانت الاستعاذة من السواحر.

الثالث: قول النبي ﷺ المخرج في الصحيحين «**من تصبَّح بعشر تمراتٍ من عجوة العالية لم يصبه في ذلك اليوم سمٌ ولا سحر**»، وفي رواية «**لم يضره سم ولا سحر**». ولاحظ أن هذا الحديث فيه:

أولاً: حثٌ من الوقاية من ضرر السحر. فدل على أن له ضرر حقيقي.

ثانياً: إثبات الضرر (لم يضره)، إذن هو تأثير حقيقي.

ثالثاً: قرنه بالسُم والسُم تأثيره تأثير حقيقي. فدل هذا على أن للسحر حقيقة.

الدليل الرابع: **ما ثبت أيضاً في الصحيحين من قصة سحر النبي ﷺ**، فالنبي ﷺ سُحر غير أن سحر النبي ﷺ كان في شيء مخصوص لم يؤثر في عقلة ولا في قلبه، وحاشاه ﷺ، أنما كان هذا السحر من جنس الأمراض التي تصيب الأنبياء - وذلك جائز في حقهم.

والسحر الذي أصيب به النبي ﷺ تعلق بشأن النساء حيث كان يُخَيَّل إليه أنه يأتي أهله والواقع انه ما أتاهم. حتى أن الله ﷻ فَرَجَ عنه ذلك ودله على موضع السحرة.

الخامس: وهو الواقع المشاهد الذي لا ينكره إلا مكابر. فإن الناس تعرف في أحوالها وفي أحوال الآخرين من أصيب بهذا السحر فمنهم من رُبط عن أهله، ومنهم من وقع في نفسه بغضاء لأهله، ومنهم

من أصابه أذى في عقله، وإلخ. وصدق "الخطابي حينما ذكر أن إنكار حقيقة السحر جهل. نعم الأمر كذلك، جهل بأدلة الشرع، وجهل بالواقع المحسوس.

☒ **أما المخالفون فإنهم استدلوا عن هذا بما أخبر الله ﷻ به** عن سحر سحرة فرعون حيث قال الله ﷻ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[الأعراف:116]، ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[طه:66]، قالوا فهذا دليل على أن السحر ليس إلا تخيل للعين.

والجواب عن هذا أن يقال: نحن لا ننكر أن من السحر ما هو تخيل للعين، ولكن لا دليل في الآيتين وما جرى مجراهما على أن السحر كله محصور في تخيل العين، سحرهم كان من هذا النوع ووراء ذلك نوع أخر لم يكن من صنعتهم وهو السحر الحقيقي المؤثر في العقول والأبدان

ثم أنه يقال لهم أيضاً إذا أمكن أن يكون في السحر تأثير على العين فما المانع أن يكون بسببه تأثير على غيره من أعضاء الإنسان.إذن الصحيح الذي لا شك فيه أن السحر منه ما هو حقيقة، ومنه ما هو تخيل للعين حيث يؤثر على البصر حتى تري الشيء على غير وجهة.

۞ حكم السحر فالناظر في كلام أهل العلم يجد أن لهم مسلكين في المسألة:

- **منهم من يطلق أن السحر كفر بالله ﷻ وهؤلاء جمهور أهل العلم.**
- **وطائفة أخرى أنهم يفسرون فيقولون**
  - من السحر ما هو كفر وما كان بإعانة الشياطين،
  - ومنه ما ليس بكفر أنما هو فسوق ومعصية وظلم وهو ما لم يكن بإعانة الشياطين.

كاستعمال الأدوية والعقاقير وخواص الأشياء من تدخينات وما إلى ذلك، ومنهم ما يكون عن طريق ما يسمى بخفة اليد وما إلى ذلك، فهذه لا تدخل تحت حد السحر.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لا خلاف حقيقي بين القولين،. فأن أهل العلم الذين أطلقوا أن السحر كفر بالله جل وعلا فإن مرادهم السحر **الذي نطقت به الأدلة**، وهو يكون بإعانة الشياطين ولا يريد هؤلاء الإطلاقات الأخرى التي ليست بإعانة الشياطين.

✵ الادلة على كفر السحر بالإطلاق الأول بما تعلق بإعانة الشياطين:

الدليل الأول: قول الله ﷻ:﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾بقره 102 ووجه الدلالة من وجوه

الوجه الأول في قوله ﷻ وما كفر سليمان، رد على اليهود زعمهم وأفكهم أن سليمان عليه السلام كان يتعاطى السحر،وبالتالي فيكون معنى الآية:

- ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾لأنه لم يتعاطى السحر. فدل على أن السحر كفر،
- أو وما سحر سليمان وبالتالي ما كفر. فدل أن تعاطي السحر كفر بالله ﷻ

الوجه الثاني: في قوله ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ قالوا أهل الأصول أن تعقيب الناس الحكم بالوصف مُشْعِرٌ بالعلِّية، يعني أنها هذا الوصف المذكور هو علة الحكم، الله جل وعلا حكم على الشياطين بالكفر فما العلة؟ أن الشياطين يعلمون الناس السحر، ومعلوم بلا خفاء أن تعليم الشيء لا يكون كفر إلا إذا كان هذا الشيء كفراً.

الوجه الثالث: في قول هاروت وماروت: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾، يعني يحذران تعلم السحر بأن من تعلم السحر فقد كفر، وهذا واضح جلي في الآية. وقد ذكر ابن جرير بإسناد صحيح عن "ابن جُرَيج" رحمه الله في هذه الآية أن قال:**لا يجترئ على السحر إلا كافر.**

الوجه الرابع:في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾
يعني من استبدل الإيمان بالله ورسوله ﷺ بالسحر فإنه ليس له عند الله ﷻ من خلاق، وظاهر هذه الآية كفر من تعاطى السحر. لأن الكافر هو الذي ليس له عند الله ﷻ في الآخرة من حظ ولا نصيب.

الوجه الخامس: في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[البقرة:103]، فإن هذا السياق يدل على أن هؤلاء كفروا، لأن من كان مؤمن لا يقال في حقه ولو أنه أمن واتقى لكان خيرا له لأنه مؤمن أصلاً. فدل هذا على أن من تعاطى السحر كفر.

الدليل الثاني: في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[طه:69]، **قد دل الاستعمال الغالب في القرآن على أن نفي الفلاح إنما يتعلق على ما هو كفر**، ويدل على هذا قول الله عز وجل:﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[المؤمنون:

أنه لا يفلح من؟الكافرون، فدل هذا على أن الذي يحكم عليه بعدم الفلاح إنما هو الكافر.

وقوله ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس،.فهذا وجه صريح بأن تعاطي السحر كفر.

الدليل الثالث: هو ما ثبت في الصحيحين من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**اتقوا السبع الموبقات أو اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر**» فهذا كما دليل على أن السحر كفر وشرك بالله. لأن هذا العطف الشرك والسحر هو من باب العطف الخاص على العام.

والبخاري رحمه الله بوب باب في صحيحة قال باب من الموبقات **الشرك والسحر**، وأورد تحته الحديث بهذا اللفظ «**اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر**» فقط، ولم يذكر ما عدا ذلك، استظهر الحافظ رحمه الله أن هذه الرواية اختصار من البخاري وأنه رأى أن القدر الذي هو مخرج من الإسلام من هذه الأمور السبع أنما هو هذين الأمرين الشرك والسحر.

الدليل الرابع: **ما ثبت عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم من قتل السحرة** وسيأتي الكلام عن ذلك مفصلاً إن شاء الله و إذا نظرت وجدت أن الساحر ليس بزانٍ ثيّب وليس بقاتل نفس، فما بقي إلا أنه تارك لدينه مارق منه، وهؤلاء الثلاثة هم الذين جاء الترخيص بقتلهم في الإسلام كما ثبت هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: «**لا يحل من دم أمرئ مسلم إلا بثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة**». ويستدل هذا على

أن قتل الصحابة رضي الله عنهم لهؤلاء الصحابة دليل على أن السحر كفر بالله عز وجل

الدليل الخامس: وهو واقعُ السحر.أن السِحر الذي يكون عن تعاطي، أو عن تعاون وإعانة الشياطين هو كفر بالله عز وجل هذا أمر لا يشك فيه من يعرف حال السحرة،

✿ وبيان هذا بتقديم المقدمتين:

الأولى: أن السحر لا يكون إلا بإعانة الشياطين حيث إن بين نفس الساحر الخبيثة ونفس الشيطان الخبيثة توافق يُنتِج تضامن وتعاون.

الثانية: أن الشياطين لا تُعينُ الساحر إلا إذا كفر بالله ﷻ حيث أن الشيطان لا أَرَبَ له في إعانة هذا الساحر إلا لتحقيق غاية عنده يلتذُّ بها، وهي إغراء بني أدم، وهذا له مقابل هو أشبه كما يقول شيخ الإسلام أشبه بالرشوة يدفع الساحر هذه الرشوة ليحصل على إعانة الشيطان له، كما يدفع من الظالمين الرشوة لأحد ليقتل أو يؤذي أحد وما شاكل ذلك.

هذه الرشوة هي: **الكفر بالله ﷻ** وقد يكون: **باعتقاد** وقد يكون **بقول**، وقد يكون **بفعل**

- فإما أن يُؤمر الساحر من قِبل الشياطين باعتقاد أن لما يسمونه بالأرواح العلوية وهو الكواكب، أو للأرواح السفلية وهي الشياطين أن لها تأثير مستقل في مجريات هذا الكون.
- أو أن يكون هذا الكفر بالقول بأن يؤمر الساحر بأن يستغيث بالجن والشياطين أو أن يُسب الله ورسوله ﷺ أو الدين وما شاكل ذلك من هذه النواقض القولية .
- أو أن يكون كفره بفعل كان يؤمر بإهانة المصحف أو رمية في الحُشْ أو كتابته بدم الحيض، أو بكتابته منَكَساً أو ما شاكل ذلك من أسباب الكفر الفعلية.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[البقرة:102]

هذه قطعه من آية البقرة وقد مضى الحديث فيها، والظاهر من هذه الآية هو أن الساحر كافر لأنه هو الذي ليس له عند الله في الآخرة من خلاق يعني من حظ ونصيب.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:51] قال عُمَرُ: الجبتُ: السحرُ والطاغوتُ: الشيطان.وقال جَابِرُ «طواغيتُ :كُهَّانٌ، كانَ يَنْزِلُ عليهمُ الشيطانُ» في كلِّ حيّ واحدٌ.

هذه الآية مضى الكلام عنها في درس قريب، وسيأتي باب خاص لموضوع الكهان.

الشاهد أن السلف رحمهم الله جاء عنهم في روايات كثيرة تفسير الجبت بالسحر والساحر، ودل هذا على أن تعاطي السحر من شأن اليهود لا من شأن المسلمين، ودل أيضاً على أن الساحر كفر بالله ﷻ لأن النصوص قد دلت على أنه من شأن الكافرين.

كما دل الله ﷻ في هذه الآية من أن اليهود يؤمنون بالسحر حق لا مرية فيه،

فإن أكثر الناس ولعاً على الإطلاق بالسحر هم اليهود وهذا معلوم من حالهم قديماً وحديثاً، إن للسحر مكانه عظيمة عندهم وله في ذلك مؤلفات بلغت حد التقديس عند هؤلاء اليهود، ولم يزالوا يتعاطون هذا الأمر استفادة من الأمم القديمة البابليين وقدماء المصريين، وزودا عليه ما أوحى الشيطان إليهم حتى أنهم أصبحوا ساده هذا الباب، فتأثر بهم من تأثر من غيرهم حتى دخل فيه بعض المنتسبين لهذا الدين مع الأسف الشديد.

وحذار يا أيها الفضلاء من المواقع والفضائيات التي تروج للسحر،

فإن الأمر في هذا ثبت عن أبي يعلى وغيره بإسناد صحيح عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: **«من أتى كاهن أو ساحر أو عراف فسأله فصدقة فقد كفر بما أنزل على محمدﷺ»**

قال أبن حجر(ومثله لا يقارب بالرأي)، وأضف هذا إلى أدلة القول بأن السحر كفر. الأمر ليس سهل ولا يسير والذي يتعرض لمثل هذه الأمور الرديئة فليعلم أنه يعرض إيمانه إلى الزوال والعياذ بالله.

❁ عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ. » قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشركُ بالله، والسحرُ، وقَتلُ النفسِ التي حَرَّم اللهُ إلا بالحقِ، وأكلُ الرِّبَا، وأَكلُ مالَ اليتيمِ، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المحصنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ».

هذا الحديث مضى الكلام فيه من اجتنبوا السبعة الموبقات،

لك أن تقول(الشركَ بالله والسحرَ) **على البدلية،**

ولك أن تقول (الشركُ بالله والسحرُ) على أن الشرك **خبرٌ لمبتدأ محذوف،** هنَّ الشرك بالله بالسحر إلى أخره. ومضى الكلام في أن العطف في قوله **«والسحر»** هو من باب عطف الخاص على العام.

❁ (وعنْ جُنْدَبٍ مرفوعا «حدُ الساحرِ ضَرْبُهُ بالسيفِ» رواه الترمذيُّ، وقال (الصحيح أنهُ مَوقُوفٌ).

هذا الحديث حديث جُندب وهو جُندب بن كعب. ووهِم بعض الناس فظنه جُندب بن عبد الله. بينما هذا جُندب بن كعب، وقيل ابن زهير ابن عبد الله الغامدي الأسدي المعروف بجُندب الخير ﷺ روى عن النبي ﷺ حديثا، والصحيح أن المرفوع إلى النبي ﷺ من هذا الحديث ضعيف، **أن فيه إسماعيل بن مسلك وهو ضعيف.**

ولهذا قصة وهي أنه وقف على ساحر تعاطى بعض هذه المخاريق فما كان منه إلا أن اخْتَرَقَ سيفه وقطع رقبة هذا الساحر وحدث بهذا الحديث. حد الساحر **ضربةٌ** بالسيف ولك أن تقول حد الساحر **ضَرْبُهُ،** قُرِأ بهذاو بهذا. بالسيف. فهذا فيه أن السحر كفر بالله جل وعلا لأن الصحابي لم يكن ليجترئ على هذا إلا لما هوِ ردَّه.

۞ وفي صحيحِ البخاريِّ عنْ بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قال كَتَبَ عمرُ بن خطاب: «أَنِ اقتُلُوا كلَّ ساحرٍ وساحرةٍ». قال فَقَتَلنَا ثلاثَ سواحِرَ.

هذا الأثر عن عمر ﷺ نسبة إلى البخاري **غير دقيقة،** كتابة عمر ﷺ إلى عماله ثبتت في البخاري ولكن اللفظ الذي في البخاري كتابته لهم أن يفرقوا بين المجوس ومحارمهم، وبين أهل هذه الديانة، كان أحدهم يتزوج امرأة من محارمه كأمه أو أخته والعياذ بالله. فأمر عمرﷺ عماله بالتفريق بين هؤلاء المجوس وبين محارمهم.

لكن جاء في غير البخاري إسناد صحيح عن أحمد وعبد الرزاق وغيرهم أنه كتب لهم أيضاً

(أن اقتلوا كل ساحر وساحرة). قال بجاله بن عبده –تابعي كبير مشهور– قال فقتلنا يومئذ ثلاثة من السواحر. وهذا أيضاً فيه قتل السحرة وفيه أيضاً أن هؤلاء السحرة كفار.

قال ابن قدامه رحمه الله: ومثل هذا الأثر اشتهر ولم ينكر، وكان إجماعا من الصحابة،

۞ (وصحَّ عنْ حفصةَ رضي الله عنها أنها أَمَرَتْ بِقَتْلِ جارية لها سَحَرَتْها فَقُتِلتْ)

هذا عند مالك في الموطأ ،فيها ما يؤيد ما ثبت عن عمر،و عن جندب ﷺ

قال أحمدُ : عن ثلاثةِ مِن أصحابِ رسولِ ﷺ.

يعني صح قتل السحرة عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ وهم عمر وحفصة وجُندب، و إضف إليهم، عثمان و ابن عمر وقيس بن سعد ابن عباده ﷺ.

۞ ماهي حد الساحر ؟

مر معنا الحديث الذي فيه ضعف والأثر عن جُندب بن كعب وعن عمر اقتلوا كل ساحر وساحرة.

إضافة إلى أفعال الصحابة فدل هذا على أن الواجب قتل السحرة.

✵ وقوله حد الساحر فيه وجهان:

أولاً: **إذا كان السحر لم يصل إلى حد الكفر لكنه مؤذي** فإن هذا ينطبق عليه وصف الحد اصطلاحاً. لأنه في حكم الباغي الذي لا يدفع شره عن المجتمع المسلم إلا بقتله.

والحد اصطلاحاً: هو القتل على بعض المعاصي التي تثبت في عقوبتها القتل

ويترتب على هذا أمور: منها أن الحدود كفاراتٌ لأصحابها.

ثانيا: **إذا كان القتل عن ردِه**، ومعلوم عند الفقهاء التفريق بين **القتل حداً** **وبين القتل رداً**، فإن كلمة الحد التي معنا في الأثر لا يراد بها الاصطلاح المعروف عند الفقهاء، **إنما يراد بكلمة الحد ها هنا العقوبة**، يعني عقوبة الساحر ضربةً أو ضربةُ بالسيف.

ولا يشكل على هذا ما أخرج البيهقي وغيره عن عائشة رضي الله عنها أنها قد سحرتها جارية لها فأمرت بها فباعتها ولم تقتلها. **وتوجيه ذلك لأحد الأمرين**:

← **الوجه الأول**: إما أن يقال أن سحر هذه الجارية لها لم يكن عن طريق الشياطين فرأت أن تكون عقوبتها بأن تبيعها.

← **الوجه الثاني**:أن يكون الأمر قد ترددت فيه رضي الله عنها هل كان عن طريق الاستعانة بالشياطين، أو إذا كان ذلك بخلاف ذلك؟ ومع الاحتمال ما كان لها أن توقع ذلك.

وقد ذكر نحو من هذا الكلام الشافعي رحمه الله في كتابه الأم.

✵ **المسألة الأخيرة وهل يستتاب الساحر قبل قتله؟ أم لا يستتاب؟**

➢ القول الأول: **أكثر العلماء على أنه لا يستتاب**، الظاهر الفعل لأصحاب النبيﷺ ، فعمر رضي الله عنه قال ماذا؟ قال اقتلوا كل ساحر وساحرة كما جاء في أثر بجالة قتلوا في ذلك اليوم ثلاثة سواحر، وكذلك فعل جُندب ، وكذلك فعل حفصة رضي الله عنهم **فظاهر أحوالهم أنهم ما استتابوهم**.

➢ القول الثاني: أنهم يستتابون، فإن تابوا قُبِلَ منهم وأن لم يتوبوا قُتِلوا، وهذا ما مال إليه الشافعي رحمه الله في كتابه "الأم".

➢ القول الثالث: أن حكمهم حكم الزنادقة بحيث أنه يرجع في أمرهم إلى رأي الحاكم الشرعي الذي يراعي المصلحة الشرعية، فإن رأى أن المصلحة الشرعية في قتله –يعني الساحر– قتل وإلا استتاب، فإن تاب عفى عنه وإن لم يتب قتله، وفي هذا القدر كفاية والله تعالى أعلم.

الدرس السابع والثلاثون -٦٧٨ ٢٥- باب بيان شيء من أنواع السحر (المجلس الأول)

عقد المؤلف رحمه الله في الباب الماضي السحر حكمًا وحقيقةً وحدًا، وهذا االباب هو تفصيل لسابقه.

والسحر اسم عامٌ يضم أنواع مختلفة يجمعها أمران:

الأول: أن فيها تأثير خفي على النفوس.

والثاني: إن فيها خداعًا للنفوس.

لهذين السببين أهل العلم يطلقون هذا الاسم (السحر) على أنواع شتى:

منها خاص: إذ لا يكون إلا بحصول الشرك، وهذا هو السحر إذا أطلق بالحقيقة الشرعية الخاصة، و يترتب عليها أمران: **الحكم بالكفر، وإقامة الحد الشرعي على ما مضى بيانه،**

بالمعنى العام: هناك أنواع أخرى تدخل في كلمة السحر بالمعنى العام **التي يرجع إلِي**:

استعمال بعض الأدوية وخواص الأشياء والتدخينات التي يلبس ويخدع بها أهل هذا الصنف،فالذين يطلون أنفسهم بأنواع من الدهانات ثم يدخلون النار فلا تؤثر فيهم هذا يسمى سحرا، لكنه ليس السحر بالمعنى الشرعي الخاص الذي قد تعلمناه،

هناك أيضا السحر الذي هو تخييل للعين، يعني يستعمل أصحاب هذه أو هذا النوع طريقة في إشغال أعين الناس وأبصارهم بشيء ما ،ثم يفعلون خفاء شيء آخر،

ومن ذلك أيضا ما يسمى في عصرنا الحاضر بخِفة اليد، حركات وتصرفات يصنعونها بسرعة وذكاء يتدربون عليها ويكون لهم فيها نوع رياضة ويطلق عليها وتسمى أيضا **(سحرا).**

إذن هناك أصناف شتى لما يطلق عليه أنه سحر، **منه ما يكون كفرا ومنه لا يكون كذلك،**

وطالب العلم بحاجة إلى أن يعرف الفرق بين هذه الأنواع حتى يُنزِّل كلَّ نوع منزلته، ويُحْكم على كل نوع بالحكم الشريعي المناسب له، فان بعض الناس ربما أطلق أو عمَّم فوقع بسبب ذلك شيء من الالتباس بل التعدي على الشرع.

وهذا الموضوع يرجع إلى أصل مهم ينبغي على طالب العلم بل على المسلم أن يراعيه ألا **وهو ضرورة معرفة حدود ما أنزل حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ**، هذا معرفته من أهم المهمات،

ﷺ **قالَ أَحْمَدُ: حدَّثَنَا محمدُ بنُ جعفرٍ، حدثنَا عَوفٌ، عَن حَيانُ بنُ العَلاَءِ، حدثنا قَطَنُ بنُ قَبِيْصَةَ عَن أَبِيهِ:أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ العِيَافَةَ والطَّرْقَ والطَّيْرَةَ مِنَ الجِبتِ»**

من النادر أن يسوق المؤلف رحمه الله حديثا بإسناده، وهذا الحديث فيه بحث من جهة إسناده فإن فيه **حيان بن العلاء**، ابن العلاء فيه كلام يسير، والأقرب والله أعلم أن الحديث ثابت قد صححه المنذر وحسنه شيخ الإسلام ابن تيميه والنووي، وجود إسناده ابن مسلح والشوكاني وغيرهم من أهل العلم،

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر: وهو غُنْدَر الإمام العلَم الثقة الثبت،

عن عوف: هو بن أبي جميلة البصري المعروف بعوف الأعرابي وهو ثقة، خرج له الجماعة

عن حيان بن العلاء: ويقال ابن مخارِق أبو العلاء وهذا الذي **فيه الكلام يسير** وثّقه بعض أهل العلم وقالوا لا بأس به، وبعضهم ضعفه، يروي عن قطن ابن قبيصة وهو تابعي صدوق وأبوه قبيصة ابن مخارق البصري صحابي جليل نزل البصرة رضي الله عنه

هذا الحديث فيه بيان ثلاثة أمور التي هي من الجبت (السحر): العِيافة، والطَّرْق، والطِيرَة.

أما الجبت: فمر بنا فيما مضى أن الأصل في هذه الكلمة هو إطلاقها على ما لا خير فيه، وتنوعت كلمات السلف في تفسير هذه الكلمة بين أن يكون الجبت هو الشيطان أو السحر أو الشرك أو الأصنام، **والمعنى المناسب منها لهذا الحديث هو أن الجبت هو السحر.**

و(من)، ها هنا:إما أن تكون **تبعيضية** يعني من أنواع السحر هذه الأمور الثلاثة أو أن هذه الأمور منشأها من السحر.

الأمر الأول: فهو (العيافة) والعِيافةُ هي الزجر، تقول (عِفت الطير أعيفها عيافة) يعني زجرتها، فهو زجر الطير،

وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا أهل ولعٍ بالتطير، فكان أحدهم إذا خرج من داره يريد سفرا أو تجارة أو مالا أو ما إلى ذلك فإنه يتأمل طيرا في السماء وينظر في مَمَرِّهِ، ويستدل بذلك على عاقبة ما هو مقدم عليه،

فإذا لم يجد شيء طائرا ووجد طائرا ساكنا في محلة زجره، يعني أثاره وطيره حتى يطير، ثم بعد ذلك ينظر في ممر هذا الطير، إذا كان يمر من جهة الشمال إلى جهة اليمين بالنسبة لهذا الزاجر سمى ذلك الطائر (سانح) واستبشر بذلك و اعتقد أن العاقبة حميدة،

أما إذا طار هذا الطائر من جهة اليمين إلى جهة الشمال فإنه يسميه (بارحًا) ويتشاءم بذلك، ويعتقد أن مقال الأمر الذي هو مقدم عليه الخيبة والخسران، فيرجع ولا يقبل، هذا هو الذي أسماه النبي ﷺ العيافة.

الأمر الثاني الطيرة: وبين العيافة والطيرة ،**كلا الأمرين عام من وجه وخاص من وجه**

- **أما العيافة** فإنها **أعم** من الطيرة من جهة أنه يكون بها **تشاؤم وتفاؤل**،
- **أما الطيرة**: فالغالب في استعمال هذه الكلمة أن تكون **في التشاؤم**،.

- **وفي مقابل ذلك في** الطيرة أعم

قد تكون بالطيور من جهة ممرها، من جهة ألوانها، من جهة أسمائها، من جهة أصواتها، وقد تكون بغير الطيور من حيوانات وعاهات وألوان وأرقام وأمكنه وأزمنة إلى غير ذلك.

- فان العيافة مختصة بالطيور،

وباب الطيرة باب سيأتينا عن قريب إن شاء الله ولكن بمناسبة ما ذكر ها هنا فان الطيرة أمر محرم، وإذا عظمت في النفس حتى كان سببا للإقدام أو الإحجام **فإنها تكون شرك على ما سيأتي بيانه.**

ووجه إطلاق السحر على العيافة و الطيرة هو:

ما فيهما من تأثر خفي على النفوس، فإن العيافة والطيرة بحيث يحصل انقباض أو انشراح أو إقدام أو إحجام، الأمور التي لا أصل لها ولا حقيقة لها، فشابهت السحر من هذه الجهة، وبالتالي صح وصف العيافة ووصف الطيرة بأنها سحر بالمعنى **العام** لا بالمعنى الخاص الذي وصفناه بأنه شرك أكبر مخرج من الملة، فهذا القدر لا يصل إلى هذا الحد .

الأمر الثالث: فهو الطرق، **وللطرق تفسيران عند أهل العلم:**

← **التفسير الأول**: ما أورد المؤلف. من كلام عوف رحمه الله من أنه الخط في الأرض.

وسمي الخط في الأرض طرقا لأنه الذي يرسم أو يخط على الأرض كأنه يرسم فيها طُرقًا،

وصفة ذلك: إن أهل الجاهلية كانوا يأتون إلى الكهان والمشعوذين فيطلبون منهم أن يخطوا لهم إذا أرادوا الإقدام على زواج أو سفر أو تجارة أو ما شاكل ذلك، طلبوا من هذا الكاهن أن يخط لهم في الأرض، فيأخذ عودا يَنْكُتُ به في الأرض أو بإصبعه بحيث أنه يرسم خطوط كثيرة على التراب لا يحيط بها العد، يرسمها هكذا بطريقة عشوائية، ثم يأتي بعد ذلك على مهل فيمسح خطين خطين، ثم يُنظر فيما بقي، فإن كان الذي يبقى خطان كان هذا علامة على النجاح، استبشر صاحب الشأن بهذا وأقدم واعتقد أن هذا إعلام له بما في الغيب،

وأما إن كان الذي يبقى فهو خط واحد فإنه يتشاءم بذلك لأنه يراه علامة الخيبة، ولأنه يستطلع بهذا إلى ما في الغيب،وأن الذي في الغيب هو أن يكون على الإنسان خسارة،وبالتالي فانه يحجم ولا يقدم

🡸 **أما التفسير الثاني**: فهو أن الطرق **هو الضرب بالحَصَى**،

وذلك أن الطرق في اللغة يطلق ويراد به الضرب، ومن ذلك سميت المطرقة، مطرقة الحداد أو مطرقة النجار سميت مطرقة، لأن بها الضرب وهذا الذي قاله لبيد بن ربيعه:

لعمركَ ما تدري الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعهُ

۞ وهذا البيت ذكر أمرين مما كان أهل الجاهلية يتعاطون:

الأول: الضرب بالحصى.

والثاني: العيافة التي ذكرناها قبل قليل.

فالشاهد أن هيئة هذه الصورة وهي الضرب بالحصى أنه تأخذ حصيات حجارة أو نحوها كالودع ثم يضرب عليها، ثم يزعم هذا الكاهن المشعوذ الدجال بعد أن يتأمل في هذا الذي ضرب عليه سيكون كذا، أو لا يكون كذا،

إذن على كلا التفسيرين الطرق نوع من الكهانة، فيه ادعاء علم الغيب، وهذا لا شك أنه منكر عظيم،وظاهر ما في هذا النوع من تأثير خفي على النفوس، وصح وصف ذلك بأنه من السحر.

﴿ قال عوفٌ: «العيافةُ: زَجرُ الطيرِ، والطرقُ: الخطُ يُخَطُ بِالأرضِ»، «والجبتُ، قال الحسنُ: رَنَّةُ الشيطانِ». إسناده جيدٌ،ولأبي داودَ والنسائيَّ وابن حبانَ في (صحيحه) المسندُ منه.

قال الحسن: يعني البصري

«رنة الشيطان» الرنة. في اللغة الصوت الحاد،

الحسن رحمه الله يفسر الجبت بهذه الكلمة **(رنة الشيطان)**.

أهل العلم أمام هذه الكلمة (رنة الشيطان). لهم ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: إنهم يتوقفون في هذه الكلمة كما فعل الشارح الشيخ سليمان بن عبد الله، في التيسير أنه لما ذكر هذه الكلمة في التيسير قال: (لم أقف فيها على كلام).

والموقف الثاني: أن بعض أهل العلم فسروا هذه الكلمة بأمرين،

فسروا (رنة الشيطان) بالنياحة أوبالغناء،

وهذا جاء فيه بعض الآثار عن السلف لكن ليس في تفسير الجبت، إنما في رنة الشيطان،.

الثالث: (رَنة الشيطان)يعني دعاءه وتسويله، فهو يوسوس ويدعوا ومن يطيعه حتى يعصي الله ﷻ

فعاد الأمر إلى أن الجبت هو الشيطان، رنته يعني دعاؤه ودعوته وتسويله ووسوسته إلى هذه المعاني.

والأقرب والله تعالى أعلم، بل هذا الذي لا أرى فيه غيره ولا أشك فيه، أن هذه الكلمة (رنة) **تصحيف**، وأن الكلمة في أصلها **أنه الشيطان لأن الحجة في هذا ظاهرة من ثلاثة وجوه:**

أولا: أن الذي في مسند الإمام أحمد و الذي بين أيدينا منقول عن المسند قال الحسن (الجبت أنه الشيطان).

ثانيا: أن الذي نقله الحافظ بن كثير رحمه الله عن الإمام أحمد، فإنه ساق هذا الحديث بإسناده، في تفسير سورة النساء،و ذكر أنه **(الشيطان)** وليس (رنة الشيطان)،ومعلوم أن ابن كثير من أعظم الناس عناية بمسند الإمام أحمد، وقد راجعت تفسيره في طبعات مختلفة وكلها متفقة على أنه الشيطان.

ثالثا: أن هذا التفسير هو المعروف عن الحسن البصري رحمه الله في تفسير الجبت، وهذا ما ذكره غير أحد من المفسرين عند تفسير كلمة الجبت، فالذي لا أشك فيه والعلم عند الله تعالى أن هذه الكلمة صحفت من (**أنه**) إلى (**رنة**)، ومعلوم أن كتابة الألف قد تأتي بصيغة رسمها قريب من الراء، فلعله اشتبه الأمر ولا أدري على من، هل على المؤلف أو على من نقل عنه المؤلف، فصار رنة الشيطان.

وعلى كل حال الأمر يسير، إن قلنا (أنه الشيطان) أو(رنة الشيطان) فالأمر راجع إلى الشيطان، والمعنى أن الشيطان هو الذي يوسوس ويسول للناس هذه الأمور من العيافة، والطرق، والطيرة،

لأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه،

يعني أنّ أبا داود و من ذُكر رووا الحديث المرفوع القطعة المرفوعة الى النبي ﷺ دون ما بعد ذلك و هو تفسير عوف أو الحسن رحمهما الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اقتبسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعَبَةً مِنَ السحرِ، زادَ ما زادَ» رواهُ أبُوداودَ،بإسنادٍ صحيح.

هذا الحديث حديث صحيح، قد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية، والنبوي، وكذلك الذهبي وغيرهم

وفيه يخبر النبي ﷺ **أن من اقتبس** -يعني حصل وتعلم

شبعه من السحر: **الشعبة الجزء**- يعني من حصل طرفا من علم النجوم فقد حصل طرفا من السحر

(زاد ما زاد):يعني أنه كل ما أوغَل في تعلم هذا العلم -علم النجوم- فانه يكون قد أوغل في السحر،

والمراد بهذا الحديث: علم النجوم الذي هو علم التأثير لا علم التَسيير.

علم النجوم قسمان: **علم تأثير ، وعلم تسيير.**

والمراد هاهنا بعلم النجوم يعني علم التأثير،

وعلم التأثير يرجع **إلى أمرين**، وهذا الذي كان من يتعاطاه من أهل الجاهلية من الكفار والمشركين والى هذا العصر.

الأول: الاستدلال بحركات الأفلاك والنجوم واجتماعها وافتراقها على المغَيبَات.

والثاني: اعتقاد تأثير الأفلاك في مجريات هذا الكون، يعني أن لهذه الكواكب ولهذه النجوم ولهذه الأقمار أن لها تأثيرا وتدبيرا لهذا الكون. **وكلا النوعين شرك بالله ﷻ وكفر به،**

ووجه إطلاق السحر على هذا النوع: هو ما فيه من تأثير خفي على النفوس، فإن أرباب هذا الصنف ومن يتعاطاه ومن ينساق له تتأثر نفوسهم به ويبنون عليه تفاصيل ومواقف وأمور كثيرة بناء على هذا، وهو ما وقر في نفوسهم، وهو لا شك شيء باطل لا حقيقة له.

(وللنسائيِّ مِن حديث أبي هريرةَ ﷺ: «مَن عقَدَ عُقْدَةً ثم نَفَثَ فيها فَقَد سَحَرَ، ومَن سحر فقد أشركَ، ومن تعلقَ شيئاً وكل إليهِ».

هذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته فإن الذهبي رحمه الله في ميزان الاعتدال أعله بعلتين:

الأولى: أحد رواته فإنه لين وهو عباد بن ميسره.

والعلة الثانية: الانقطاع، جهة أن الجمهور يرون أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

والحديث جاء من طريق **عباد عن الحسن** عن أبي هريرة، والجمهور يرون أن الحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة ﷺ، ولذلك ضعف هذا الحديث الذهبي وغيره ومن المعاصرين الشيخ ناصر رحمهم الله.

وبعض أهل العلم حسنَ هذا الحديث. وذلك أن من أهل العلم من رأى أن الحسن قد سمع من أبي هريرة، ومن أهل العلم من قال عباد بن ميسرة لا بأس به،

على كل حال هذا الحديث فيه أمران:

أولا:هذا الحديث هو الحديث **الوحيد** من الأحاديث الخمسة الذي أوردها المؤلف رحمه الله في هذا الباب فيها ذكر هذا النوع الذي **هو السحر بالحقيقة الشرعية الخاصة** التي قلنا أن **حكمها إنها كفر وشرك، لأنها لا تكون إلى بالشرك بالله ﷻ.**

وذلك أن هذا النوع هو الذي يكثر عند السحرة ،كلبيد بن الأعصم وإخوانه من اليهود ومن سار على نهجهم من السحرة في القديم والحديث،

وذلك أن هؤلاء السحرة يعقِدون خيوطا يرمون بذلك عقد السحر وعدم انحلاله، ومع هذا العقد فأنهم يتلون رقى وعزائم وتعويذات يتقربون بها للشياطين ويستعينون فيها بالشياطين، ويضيفون إلى هذا النفث، **وقلنا أن النفث** مرتبة بين النفخ والتفل، إخراج الهواء مع شيء من الريق.

وذلك أن نفس الساحر نفس خبيثة، فإذا نفث خرج من نفثه هذا النفس الخبيث،وهذا الريق الخبيث فتكيف ذلك واتفق واقترن مع روح الشيطان الخبيثة، فتكيف ذلك بكيفية الله أعلم بها،
فحصل بسبب ذلك أذىً للمسحور بإذن الله الكوني لا بإذن الله الشرعي، يجتمع ويتوافق ويقترن ويتعاون روح إنسية خبيثة مع روح شيطانية خبيثة في كيفية الله أعلم بها، ينتج بها أو ينتج منها حصول السحر وأذى المسحور؛ فهذا هو العقد الذي جاء في هذا الحديث، وهو المراد بقول الله ﷻ.
﴿ **وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ يعني السواحر اللاتي يعقدن وينفثن في هذه العقد التي عقدنها.

أما قول النبي ﷺ: **«ومن تعلق شيء وكل إليه»** فهذا حق لا مرية فيه،

كذلك أن من تعلق قلبه وتعلقت جوارحه بالله جل وعلا فإن الله ﷻ كافيه، وإن الله ﷻ مغنيه، وإن الله ﷻ ناصره: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾[الزمر:36]، والله جل وعلا كافٍ كل من آوى إليه

الدرس الثامن والثلاثين –٦٩٣ ٢٥– باب بيان شيء من أنواع السحر (المجلس الثاني)

وعنْ ابنِ مسعودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «ألا هَل أُنَبِّئُكُم ما العَضْهُ؟ هي النَميمةُ القَالَةُ بينَ النَاسِ» رواه مسلم.

في هذا الحديث،سأل النبي ﷺ أصحابه، هل يدرون ما العضه؟ وهذا نهج نبوي تكرر في جملة من الأحاديث، وذلك أن يستفتح ﷺ كلامه بتوجيه سؤال لأصحابه، ليستدعي اهتمامهم.

والعضه اختلف في ضبط هذه الكلمة:

- **فقيل**: إن هذه الكلمة بفتح العين وسكون الضاد (العَضْه)، على وزن (الوَجْه).
- **وقيل**: إنها بكسر العين وفتح الضاد (عِضَه) على وزان (زِنَه) و (عِدَه)، **والأول أشهر**.

ثم أجاب أصحابة وجاء هذا الحديث عن أنس ﷺ في (الأدب المفرد) قالوا: «الله ورسوله أعلم». أما في حديث ابن مسعود فإن النبي ﷺ بادر بالجواب، فقال ﷺ في تفسير **العضه**: **(أنه النميمة)**،

هذه النميمة من جهة أثرها:

- **فقال**: **(القالة بين الناس)**، نقل الكلام بين الناس **على جهة الإفساد**،
- **وفسر بعضهم النميمة**: بأنها إفشاء السر الذي يترتب على إفشائه اضطراب، وقطيعة؛

وأصل العضه، قيل: إنه الكذب، والبهتان؛ وإنما سميت النميمة عضهًا، لأنها لا تنفك غالبا من كذب، الغالب أن النمام يضيف إلى نقله، وحديثه، شيئًا من عنده، فسميت النميمة بأنها العضه.

وقيل أن أصل العضه في اللغة: هو السحر،

- **وقال ابن قتيبة** (إن قريشًا كانت تسمي السحر عضهًا)
- **وقال عكرمة** في تفسيره قوله تعالى ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[الحجر:91]، قال: (كانت قريش تسمي السحر عضينًا)،
- **وقال الطحاوي في عن ابن مسعود** ﷺ **قال**: (كنا في الجاهلية نسمي السحر عضهًا، وما أُراه فيكم اليوم إلا القالة).**وهذا هو الأقرب والله أعلم.**

وإيراد المؤلف لهذا الحديث ضمن هذا الباب ،دليل على أنه يرجح أن أصل العضه هو السحر.

❁ ووجه الشبه بين السحر والنميمة من جهتين: **من جهة الطريقة، ومن جهة الأثر.**

⬅ أما الطريقة: فإن السحر كما مر معنا فيه خفاء، فإنه عرف أنه ما خفي، ولطف، ودق سببه؛ **وكذلك النميمة**، فإن الساعي بها يذهب في الغالب في خفية إلى من يَنُّمَ إليه، ثم يفشي له شيئًا كان ينبغي إخفاؤه.

⬅ أما من جهة الأثر: **إن السحر** من أعظم آثاره **هو التفريق بين الناس،**

والله ﷻ قال في سحر هاروت وماروت: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ **بقره**

وأما التفريق في النميمة: أثر ظاهر كأثر السحر أو لعله أشد

قال الطحاوي في (مشكل الآثار)، **«هو النميمة الفارقة بين الناس»**،

ووقع عن الدارمي في هذا الحديث، أنه قال: **«هي النميمة التي تفسد بين الناس»**،

وعند البخاري في الأدب المفرد قال ﷺ **«هل تدرون ما العضه ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: القال نقل الكلام من بعض الناس إلى بعض ليفسد بينهم»**
ونقل ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير (يفسد النمام والكذاب في ساعة، ما لا يفسده الساحر في سنة). **والنميمة لو لم يرد في النصوص تحريمها**، لكان ما فيها من دناءة وسقوط كافيًا.للنفوس الشريفة وذوي المروءات كفًا عنها ، حتى قالت العرب: النميمة مرعى اللئام.

والنبي ﷺ قد قال: **«لا يدخل الجنة قتّات»** يعني نمام،
و أخبر النبي ﷺ عن صاحبي القبرين اللذين أخبر أنهما يعذبان فيه، قال: **(أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة؛ وأما الآخر كان لا يستبرئ من بوله).**

وهذا يدلك يا رعاك الله على أن النميمة منكر عظيم، ويكفي أن النبي ﷺ شبهه بالسحر،

و قال ﷺ ايضا : **«أتدرون من المفلس؟ قالوا: من لا دينار عنده ولا درهم، فقال النبي ﷺ: إن المفلس من يأتي يوم القيامة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا»**، إلى آخر الحديث، ليس مراد النبي ﷺ أن فاقد المال لا يعد مفلسًا؛ لكنه أراد أن يبين أن المفلس من الحسنات يوم القيامة.

فعلى المسلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، فإن النميمة المذموم فيها اثنان: **المبلِّغ، والمبلَّغ**؛ الناقل، والمستمع؛ أما المبلغ فقد علمت ما فيه، وأما المستمع، فإنه لا شك أنه مذموم، وقبيح .
قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾[القلم:10] فلا ينبغي للمسلم أن يرخي سمعه لهذا النمام،

۞ **واعلموا يا طلاب العلم أن أقبح خلق، يكون عليه طالب العلم**، هذا الخُلق القبيح هذه الفتن الصمّاء، العمياء، التي وقعت وتقع بين طلاب العلم، والدعاة وأهل السنة، يتنقلوا بين المجالس ينقلون الكلام من هذا إلى هذا، يا فلان، يا شيخ، أما شعرت أن فلانًا قال فيك كذا وكذا، هدفه –لفساد قلبه– إيغار الصدور وإثارة الأحقاد وأن يشعل أوار الفتنة بين أهل الخير وطلبة العلم،

وفي صحيح مسلم من حديث عبادة ﷺ: «**أخذ علينا النبي ﷺ العهد كما أخذ على النساء؛ ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا من إملاق، ولا يعضه بعضنا بعضًا**».

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**من صمت نجا**»؛ وأخبر النبي ﷺ عن أنه «**لا يكب الناس على وجوههم، أو قال على مناخرهم في النار إلى حصائد ألسنتهم**».

ولهمَا عنْ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لِسِحرًا »
وهَمَ المؤلف رحمه الله حينما جعل الحديث عند الشيخين، إنما الحديث عن ابن عمر ﷺ **في البخاري**.

وأما في مسلم: جاء من حديث عمار بن ياسر ﷺ، قال: إني سمعت الرسول ﷺ يقول: «**إن طول صلاة المرء وقصر خطبته من مئنَّة فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرًا**»

أما هذا الحديث الذي بين أيدينا أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه في موضعين:
وفيه أنه جاء إليه رجلان من المشرق فخطبا كل واحد خطبة، وتكلم كلمة، فعجب الناس من بيانهما، فقال ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»، أو قال:« **إن بعض البيان سحر**»،
هذا الحديث فيه عن النبي ﷺ بيان أن بعض **البيان** سحر؛

والبيان: هو الفصاحة وعرف بأنه إخراج المعنى من حيز الخفاء، إلى حيز التجلي،

ووجه وصف بعض البيان بأنه سحر، أن البيان العالي، والبلاغة، والفصاحة تؤثر في النفوس تأثيرا يشبه تأثير السحر،

فإن البيان العالي ربما أظهر الأمر **على غير حقيقته** حتى يخيل للإنسان الأمر على غير وجهه.

✸ واختلف العلماء هل هذا الحديث فيه ذم للبيان أو مدح له:

القول الأول: أكثر العلماء على أن هذا الحديث إنما سيق لمدح البيان،ووجه ذلك أن الله ﷻ امتن على العباد بتعليمهم البيان، فقال:﴿الرَّحمنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

والنبي ﷺ قد كان حاز أعلى درجات الفصاحة، والبلاغة، والبيان، فإنه قد أوتي جوامع الكلم ولا يخفاكم حديث العرباض رضي الله عنه: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون**» **فكانت البلاغة، والفصاحة، والبيان، طوع شفتي رسول الله ﷺ**»،

وأما القول الثاني: فإنه يرى أن هذا الحديث إنما سيق **مساق الذم**، وذلك لما في البيان من تكلف والتكلف مكروه في الجملة، ثم إن البيان قد يستعمل في نصرة الباطل، وإخفاء الحق، وتعزيز الظالم، وهضم المظلوم، فكان هذا من النبي ﷺ ذمًا له، والإمام مالك رحمه الله كأنه يميل إلى هذا فقد أخرج هذا الحديث في موطئه تحت باب: (ما يُكره من الكلام إلا من ذكر الله).

والأظهر والله أعلم أن الحديث إنما فيه بيان الواقع، فالواقع أن البيان يؤثر تأثيرًا شبيهًا بتأثير السحر

✸ أما كونه مذمومًا، أو ممدوحًا، فهذا يختلف باختلاف حال المبين:

- يكون ممدوحا: اذا أراد نصرة الحق، ودفع الظلم، لأنه أضحى حينئذ سلاحًا للخير؛
- يكون مذموما: إذا أراد أن يكون البيان سببًا لنصرة الباطل، وتقوية الظالم، وإخفاء الحق.

فالمقصود أن إخبار النبي ﷺ أن من البيان سحرًا، **دليل على أن هذا المقام مقام جلل، وذو خطر، وينبغي** أن يتعامل معه بحذر **أيضا على الدعاة إلى الحق أن يتنبهوا إلى هذا الأمر** فأحسن وأقوى ما يستعينون به، بعد عون الله ﷻ وتوفيقه حسن البيان، والقدرة على الفصاحة، فإن الناس تُقبِل على من يستميل قلوبها، ويهز مشاعرها، ويُحسن إيصال الكلام الذي يريده بأسلوب حسن أخاذ.

الدرس التاسع و الثلاثون – ٧٠٥ ٢٦- بابُ ما جاء في الكُهَّانِ وَنَحْوِهِم

عطف المؤلف هذا الباب لأن ال الكهانة قريبة من السحر.

الكهان: **جمع كاهن** وهذه الكلمة تجمع على كُهَّان وعلى كَهَنَة والكِهانة، ويجوز أن تقول الكَهانة

حدُّها الذي يجمع الصور التي تدخل تحتها: هو ادعاء علم الغيب، فكل ما يرجع إلى هذا المعنى فهو داخل في معنى الكهانة، وهذا له صور في القديم والحديث، مر معنا في الباب السالف.

من تلك الصور: مر معنا ادعاء علم الغيب.

عن طريق زجر الطير. أو عن طريق الخط في الأرض. أو عن طريق ضرب الحصى.

وقد يكون عن طريق ادعاء وصول علم الغيب.عن طريق الجن.أو النظر في النجوم.أو ما يسمى بعلم الحرف والطلسم.أوما يسمى البروج.أو ما يسمى قراءة الكف.أو ما يسمى القراءة في الفنجان.

إلى غير ذلك من صور كثيرة تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة.

❁ وما يدعيه هؤلاء الدجالون الكهنة من الغيب راجع في الجملة إلى ثلاثة أشياء:

➢ **الأمر الأول**: **أن يكون راجعًا إلى استراقِ السمع**، وقد مر معنا ما يتعلق باستراقِ السمع في بابه ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:23]

➢ **الأمر الثاني**: **أن يكون راجعا إلى ما يخبرهم به الجن، من أمور غائبة عن الناس**، كشيء ضائع، أو متاع مسروق، أو ما شاكل ذلك، وذلك أن الجن لهم قدرة على الطيران والجولان والتقصي عن مثل هذه الأمور، فربما اطلعوا عن علم شيء من هذه الأشياء التي بإمكانهم أن يصلوا إلى علمها، ثم يخبرون وليهم الكاهن.

➢ **الثالث**: **فهو أن يكون ما يخبرون به راجع إلى تخمين وحزر**، يعني إلى كذب لا حقيقة له، وليس له سبب صحيح ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[الشعراء:221-223].

وأما عن العلاقة بين السحر والكهانة: فإن بين السحر والكهانة اجتماعًا وافتراقًا،

أما التقائهم: **فإنهما يلتقيان من جهة الاستعانة بالجن والشياطين**، كما مر معنا في حديث أبي هريرة السالف: «**حتى يلقيها إلى الساحر أو الكاهن**».

أما اختلافهما فإن الكاهن إنما يتعلق به إخبارا: يخبر سيكون كذا، سيموت فلان، ستنتهي الحياة سنة كذا وكذا،يخبرون عن أشياء يراد العلم بها،

وأما الساحر فيتعلق به تأثيرًا، فهو شأن آخر، فيه إيصال أذى لمسحور أو من يراد سحره، فيه سحر عطف، جلب حبيب، أو صرف تبغيض، أو أذية لإنسان عن طريق الجن، أو ما شاكل ذلك،

۞ **أما حكم الكاهن** فهو **كافر**، وهذا مما لا يجوز أن يختلف فيه، كاهن يدعي أنه يعلم الغيب الذي أخبر الله أنه استأثر به لا شك أنه كافر بالله ﷻ.وذلك أنه

أولاً: يدعي مشاركة الله ﷻ فيما يختص به، ﴿**قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾[النمل:65]، ﴿**لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[الكهف:26]

ثانيا:أنه مكذب لكتاب الله الذي أخبر باستئثار الله ﷻ بعلم الغيب.

رَوَى مسلمٌ في صحيحهِ عنْ بعضِ أَزْوَاجِ النبيّ ﷺ عن النبي ﷺ أنهُ قالَ: «مَن أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لهُ صَلَاةٌ أَربعينَ يَوْمًا».

۞ **اللفظ الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه مخالف لهذا اللفظ الذي بين أيدينا من جهتين:**

أولا: أنه ذكر أربعين ليلة، والذي في الكتاب عندنا أربعين يومًا، والأمر في هذا يسير.

ولكن الأمر المهم: أن هذا الحديث فيه «**فسأله عن شيء فصدقه لن تقبل له صلاة أربعين يوما**»، **وعزو** الإمام لهذا الحديث إلى مسلم لعله تابع فيه ابن الأثير في جامع الأصول، و النووي في رياض الصالحين وغيرهما، ذكروا هذا الحديث بهذا اللفظ معزوا إلى الأمام مسلم

أما الذي جاء في صحيح مسلم من حديث ابوهريرة هو قول النبي ﷺ: «**من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»، والعراف من **جنس** الكهان

وهذا الحديث بهذا اللفظ **جمع فيه بين السؤال والتصديق**،

والصواب أن الحكم المذكور وهو: «لم تقبل له صلاة أربعين يوما»

- هو اللفظ الصحيح المبني على **السؤال** كما جاء في رواية الإمام مسلم.
- **أما التصديق** فيه حكم أخر: **«من أتى عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»** ﷺ،

✵ **والمجيء إلى الكهان فيه ثلاث أحوال: مجيء اختبار وامتحان. ومجيء إطلاع. ومجيء تصديق.**

حال الأولى: مجيء اختبار وامتحان:، فيأتي **العالم** إلى كاهن لكي يختبره ويمتحنه ويكشف حاله، فهذا لا بأس به ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين من إتيان النبي ﷺ ابن صياد وهو كاهن يهودي دجال، فقال له النبي ﷺ: **«إني خبأت لك خبيئًا. فقال الدخ، فقال النبي ﷺ: اخسأ فلن تعدُ قدرك»** هذا ليس داخلاً فيما نحن فيه، إذن هذا سؤال ماذا؟ هذا إتيان ماذا؟ اختبار وامتحان.

الحال الثانية: إتيان الاطلاع: يريد أن يستطلع كما يقولون باللسان المعاصر، حب استطلاع، يريد فقط يتفكه، يضحك، وما شاكل ذلك، ينظر ماذا عند هذا الكاهن **دون أن يصدقه**

أولا: هذا أمرٌ منكر ومحرم، وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه قال: **«يا رسول الله، إن كنا نأتي في الجاهلية الكهان، فقال النبي ﷺ:فلا تأتهم»**؛ نهى النبي ﷺ عن إتيان الكهان، ففاعل ذلك آثم بعصيانه الله ورسوله.

ثانيا:هذا هوالذي يترتب عليه وعيدٌ خاص في الحديث **«لن تقبل له صلاة أربعين يوما»**، كما عندنا هنا أو في بعض الروايات في خارج صحيح مسلم؛

ومعنى ذلك أنه يجب على هذا الإنسان أن يصلي ومع ذلك **لا ثواب له في صلاته**، ولا يطالب بالإعادة بالإجماع كما قال النووي رحمه الله في صحيح مسلم

الحال الثالثة: فهو أن يأتي إلى هذا الكاهن فيسأله فيصدقه، فهذا الذي يتنزل عليه حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ،: **«من أتى عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»** .

☒ **الشبهة**: خرَّج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة والحديث فيه «**من أتى عرافًا فسأله**»، الذي في مسلم ليس فيه «**فسأله**» إنما فيه «**فصدقة لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»، فماذا نصنع بهذه الرواية؟

الجواب عن هذا

أولا: بعض أزواج النبي، أن المراد حفصة رضي الله عنها كما بين بعض الحفاظ، وإذا نظرت إلى الإسناد الحديث وجدت ظاهره الصحة، ولكن عند جمع الروايات **تجد أن الحكم فيه نظر**، وذلك أن الإمام أحمد رحمه الله روى هذا الحديث عن يحي بن سعيد، وقد روى هذا الحديث عن يحي بن سعيد بهذا الإسناد جمع من الثقات كل هؤلاء ذكروا هذا الحديث بدون لفظ «**فصدقه**»

ثانيا: أضف إلى هذا أن عبد الله بن رجاء تابع عبيد الله بن عمر في الرواية عن نافع بدون هذا اللفظ.

ثالثا: أضف إلى هذا أن الروايات الأخرى من غير حديث بعض أزواج النبي ﷺ فيها عن رسول الله ﷺ **ترتيب الكفر على من صدق**، وقد جاء هذا من حديث أبي هريرة ومن حديث عمران وجابر، وعمر، و أنس، وأيضا وافلة، وإن كان الإسناد في ذلك ضعيف أو ضعيفًا جدًا كل أولئك كان حديثهم مرتبًا على شيء واحد وهو أن من **صدق هذا العراف كفر بما أنزل على محمد** ﷺ.

رابعًا: وهو أنه قد وقع عند الطبراني من حديث بن عمر ترتيب الإتيان إلى العراف فقط أنه لن تقبل له صلاة أربعين يومًا، وهذا يؤيد رواية مسلم، فأصبحت رواية حفصة ورواية أخيها ابن عمر كلاهما متفقان على أن من أتى فسأل مجرد سؤال، جاء مجرد إتيان لهذا الإنسان يستطلع، فانه يعتبر قد باء بهذا الإثم وهو أنه «**لا تقبل له صلاة أربعين يومًا**».

نأتي الآن إلى مسالة مهمة وهي: وما معنى قول النبي ﷺ: «**فقد كفر بما أنزل على محمد**».

القول الأول: ذكر جمع من أهل العلم إن الإتيان إلى الكاهن أو العراف وتصديقه **كفر أصغر**،

ورأي هؤلاء أن الحديث، الإمام أحمد والذي فيه «**فسأله فصدقه**» هذه الرواية مقيدة للرواية المطلقة.

«**من أتى عرافًا أو من أتى عرافًا فسأله**» **هذه مطلقة**،

ولها تقييد في رواية «**فصدقه**»، وبالتالي فإن من أتي فصدق يبوء بوعيدين:

أنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا، وأيضا أنه يكفر الكفر الأصغر.

ولماذا قالوا إنه كافر كفرًا أصغر؟ قالوا لأنه لو كان كافرا كفرا أكبر لم يكن عدم قبول الصلاة محدد بأربعين يومًا، بل كان لا يقبل له صلاة مطلقًا حتى يتوب إلى الله جل وعلا، فلأجل هذا قالوا إن تصديق الكاهن هو كفر أصغر.

⬅ القول الثاني: **هو أن تصديق الكاهن كفر أكبر**، ورأى هؤلاء الروايات الصحيحة التي فيها لفظ التصديق، إنما ترتب على ذلك فيها «**فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ» لا سيما وأن هذا هو المناسب لهذا اللفظ «**كفر بما أنزل عل محمد**» ﷺ، وذلك أن هذا الإنسان اعتقد أن غير الله يشارك الله في علم الغيب، وهذا لا شك أنه كفر أكبر.

⬅ القول الثالث: يذكر في كتب أهل العلم **وهو التوقف**، ويروي هذا عن بعض الأئمة،

وهذا القول:

- إما أن يحمل على أن القائل لا يدري أهو كفر أكبر أو أصغر، وبالتالي لا ينبغي أن يقال أنه قول ثالث، لأنه ليس عنده علم،
- أو يقال إن قائل هذا القول أراد السكوت عن التفصيل والبيان ليكون أردع في النفوس.

بل تحكي ما حكى النبي ﷺ فهو أوقع في النفوس عند العامة والناس بدلاً أن تقول هذا كفر أصغر، ربما يخفف هذا حِدَةُ الأمر في نفوس الناس، لكن أطلق ما جاءت به النصوص، وبالتالي هذا راجع إلى الحكمة في الدعوة وليس قولاً ثالثًا.

والذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن يقال **أن القولين الأولين يرجعان إلى اتفاق،**
فإن القائلين بأن تصديق الكاهن كفرًا أصغر أجزم أنهم لا يريدون تصديقه في أنه يعلم الغيب الذي استأثر الله به، إنما يظن أن هذا الكاهن أو العراف **أخبر** بما وصله علمه عن طريق الجن، وما أخبر به الجن سمعوه

من الملائكة، وما سمعه الملائكة خرج عن حيّز كونه غيبًا، ماأصبح الآن غيبًا استأثر الله به، وبالتالي وجود هذه الشبهة تذرا عن هذا المصدق مالحكم بالكفر الأكبر.

﴿ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:
«مَن أتى كاهنًا فَصَدَّقَهُ بما يقولُ فقدْ كَفرَ بما أُنزِلَ عَلَى مُحمدٍ» ﷺ. رواه أبو داود.

هذا الحديث حديث أبي هريرة و رواه أبو داود،وأيضا أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم،و هو صريح في الحكم بأنه كفر من صدق هذا العراف،
والحديث جاء من رواية أبي تميمة الهجيمي عن أبي هريرة ولم يسمع منه ،لكن كثرة المتابعات والشواهد لهذا الحديث يقطع الناظر فيها بأن هذا الحديث وهذا اللفظ ثابت عن رسول الله ﷺ دون شك، وقد ذكرت لك طائفة من هذه الروايات عن أصحاب النبي ﷺ فالحديث صحيح إن شاء الله.

﴿ وللأربعةِ والحاكمِ، وقالَ صحيحٌ على شرطِهما – عن ... «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقهُ بما يقولُ فقد كفر بما أُنزلَ على محمدٍ» ﷺ، ولأبي يعلى بسندٍ جيدٍ عن ابن مسعودٍ ﷺ مثلُهُ موقوفًا.

مر بنا هذا الأثر غير مرة، كررناه عدة مرات في الدروس السابقة، وفيه ذكر أيضا الساحر،فيه إتيان الكاهن والعراف والساحر، فمن صدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

﴿ وعن عِمران بنِ حصينٍ ﷺ مرفوعًا «ليسَ مِنَّا مَن تَطَيَرَ أَو تُطَيِّرَ لَهُ أو تَكَهَّنَ أو تُكَهِّنَ لهُ أو سَحَرَ أو سُحِرَ له،و من أتى كاهنا فصدقهُ بما يقولُ فَقَدْ كَفَرَ بما أُنْزِلَ على محمدٍ» ﷺ، رواهُ البزارُ بإسنادٍ جيدٍ.
هذا الحديث في شطره الثاني موافق لما قبله، وأما الجديد فيه فهو شطره الأول، «مِنَّا مَن تَطَيَرَ أَو تُطَيِّرَ لَهُ أو تَكَهَّنَ أو تُكَهِّنَ لهُ أو سَحَرَ أو سُحِرَ له»

(تكهن) **فعل الكهانة**، أما (تكهن له) يعني فُعلت لأجله، يعني جاء إلى كاهن فسأله أو طلب منه أن يخبره بشيء غيبي، هذا الذي يقال فيه ماذا؟ تُكهن له؛ وكذلك في تطير له، وكذلك في سحر له.

(ليس منا): هكذا أخبر النبي ﷺ.وهذا وعيد، وترتيب مثل هذا الوعيد على معصية قرينةٌ على أن هذه المعصية **كبيرة من الكبائر**،

والأصل أن كلمة (ليس منا) يراد بها ليس من المؤمنين الأيمان الواجب،

ليس بلازم أن يكون ليس منا أن يكون ليس **مسلم أصلا**، إنما ليس منا يعني ليس **مؤمنًا الأيمان الواجب**، وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.

مسألة مهمة: إن هذا الحديث جمع ثلاث معاصٍ، **الكهانة** و**السحر** و**التطير**

والحكم فيها مختلف: السحر مضى الكلام فيه،والكهانة هي التي نتكلم فيها،والطيرة سيأتي فيها بابٌ

والطيرة لا تصل إلى حد السحر ولا تصل إلى حد الكهانة، **فإن من تطير**، يعني تشاؤم ولم يترتب على ذلك شيء فإن هذا أمر منكر ومحرم، وإن ترتب على هذا تركًا أو فعلاً فإن هذا يعتبر شركًا أصغر،

فكيف جمع بينها في حديث تضمن وعيدًا واحدا؟

القاعدة: اجتماع أفعال متعددة تحت وعيد واحد لا يدل على التساوي في الحكم الخاص.

بمعنى قد يأتي الدليل جامعًا لأعمال عدة تشترك في قدر مشترك من الوعيد، لكن هذا لا يعني استواء هذه الأعمال في الحكم الخاص،

أضرب لك مثالاً: قال النبي ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» وذكر الشرك بالله والسحر، وهذان لهما حكم خاص وهو الكفر، وذكر أشياء دون ذلك، ذكر (قذف المحصنات)، (ذكر التولي يوم الزحف)؛ لكن الكل يشترك في شيء واحد وهو أن هذه الأمور موبقة، وإن كان مقدار الإباق يتفاوت، **إذن بينها قدر مشترك وبينها قدر فارق.**

قل مثل هذا في الأحاديث التي بين أيدينا، كلها تشترك في أن من وقع فيها لم يكن مؤمننا الإيمان الواجب، ربما كان في بعض هذه الأمور المذكورة قدر زائد على ذلك، وهو أن يصل إلى الشرك أو الكفر الأكبر.

رواه الطبرانيُّ في الأوسط بإسنادٍ حسنٍ من حديثِ ابنِ عباسٍ، دونَ قولهِ «ومن أتى . . .» إلى آخره. وروي مرفوعا إلى النبي ﷺ، أما الموقوف على ابن عباس فالإسناد فيه جيد، وأما المرفوع فضعيف أو ضعيفا جدًا.

قال البغويُّ رحمه اللهُ:(العرافُ: الذي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بمقدماتٍ يَستدِلُّ بها على المَسْرُوقِ ومكانِ الضَّالَّةِ ونحو ذلك)، وَقيلَ هو الكاهنُ، والكاهن هو الذي يخبرُ عنِ المُغَيَّبَاتِ في المستقبلِ، وقيلَ: الذي يُخْبِرُ عمَّا في الضَّميرِ، وقال أبو العباسِ بن تيميةَ: العَرَّافُ: اسمُ للكاهنِ والمُنَجِّمِ والرَّمَّالِ ونحوهم، ممن يَتكلمُ في معرفةِ الأمورِ بهذهِ الطُّرُقِ.

الآن وصلنا إلى التفريق بين الكاهن والعراف، وغيرها كالمنجم والرمال وما إلى ذلك،
في هذا الموضوع اختلاف طويل، وكلام كثير و **ويمكن أن نذكر محصلة لهذا فنقول:**

إن العلماء مختلفون في هذه المسألة:

فمنهم من يرى أن الكاهن هو العراف وأن العراف هو الكاهن، ولا فرق،
ومنهم من يرى -كما ذكر تقي الدين رحمه الله- أن العراف أعم، كل من ادعى علم الغيب فهو عراف، يدعي معرفة الغيب. ثم بعد ذلك هناك تسميات مفصلة، من ذلك الكاهن الذي يدعي أن معرفة الغيب عن طريق مسترقي السمع، هناك رمال عن طريق الخط في الرمل وغير ذلك.

والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال أن كلمة العراف والكاهن من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، أن العراف والكاهن إذا أطلق احدهما دون الأخر فإنه يشمل الآخر، وإذا ذكرا معًا يفترقان،
ولعل الأقرب في ذلك ما ذكر الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة) أن الكاهن من يخبر عن الأمور المستقبلة. وأما العراف فمن يخبر عن الأمور الماضية.

✤ وقالَ ابنُ عباسٍ في قومٍ يَكتُبُونَ أبا جادٍ، وينظرونَ في النجومِ:(ما أرى مَن فعلَ ذلك لهُ عِند اللهِ مِن خَلاَقٍ).

هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في المصنف وغيره بإسناد ثابت عنه ﵁، وأخبر فيه أن الذين يتعاطون ما يسمي **بأبي جاد** ليس لهم عند الله من خلاق،

وهذا يؤيد أن من أتى هؤلاء الكهان،والعرافين فصدقهم **فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ **كفرًا أكبرا**، فإن هذا اللفظ إنما يستعمل غالبًا في هذا (ليس له عند الله من خلاق، أو ليس له من خلاق) يعني ليس له من حظ ونصيب عند الله جل وعلا.

ومراده بـ(أبي جاد): **الحروف الأبجدية** التي ترتيبها كما تعلمون (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ)،

۞ هذه الحروف الثمانية والعشرين بهذا الترتيب لها استعمالات:

✹ **قد يكون ممنوعًا**: فهو ما جاء في أثر ابن عباس ﵄، وذلك أن الكهان والعرافين يستعملون هذه الحروف فيما يسمونه بعلم الحرف أو علم الحروف، وذلك أنهم يدعون أن كل حرف من هذه الحروف يقابله عدد من الأعداد، وهذه الأعداد لها خواص واتصال بالأفلاك والنجوم السماوية، وبالتالي فإنه إذا جاء أحد هؤلاء إنسان يسأل عن شيء ما متى سيكون؟ متى سيحصل كذا؟ إلى آخره، فيأتون فيذكرون هذه الحروف بكميات، ولا شك ولا ريب أن هذا من الكهانة المنكرة التي فيها ادعاء علم الغيب، الذي استأثر الله ﷻ بعلمه، **ولا شك أن هذا كفر بالله ﷻ، هذا هو الاستعمال الممنوع**.

✹ **أما الاستعمال الجائز**: فهو استعمال هذه الحروف الأبجدية في نحو التقسيم، أو ذكر الفقرات، يقال ألف كذا باء كذا، كما يستعمله الباحثون وطلاب العلم، يضبطها بهذه الطريقة من أجل تسهيل الحفظ لا غير، مثل هذا لا شك أنه جائز ولا بأس به.

الدرس الأربعون – ٧٢٨ **٢٧- بابُ مَا جاءَ في النُّشْرَةِ.**

عن جابر ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ» رواه أحمدُ بسندٍ جيدٍ وأَبُو دَاوُدَ.وقَالَ: سُئِلَ أَحمَدُ عَنها فقَال ابنُ مسعودٍ ﷺ: «يكرَهُ هذا كُلَّهُ».

في البخاريِ عَن قَتَادةَ: «قُلْتُ لِابْنِ المُسَيِّبِ: رَجُلٌ بهِ طِبٌّ أَوْ يُؤَخَّذُ عنِ امرأتِهِ أيُحَلُّ عنهُ أَو يُنَشَّرُ؟ قال: لابأسَ بِهِ إنَّما يُرِيدُونَ بهِ الإِصلاحَ، فأما ما يَنفَعُ فلمْ يُنهَ عنهُ » انتهى

ورُوِيَ عنِ الحسنِ أنَّهُ قالَ: «لا يحُلُّ السحرَ إلا سَاحِرٌ».

قال ابن القيم النُشرَةُ حلُّ السّحرِ عنِ المّسحُورِ وهيَ نوعانِ:

أَحَدُهُما:حَلٌّ بِسِحرٍ مِثْلِهِ، هوالذي من عملِ الشيطانِ، وعليهِ يحُمَلُ قولُ الحسنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ والمُنتشرُ إلى الشيطانِ بما يُحِبُّ، فيُبطِلُ عَمَلَهُ عنِ المسحورِ.

والثاني: أَن النُّشْرةُ بالرقيةِ والتَّعوُّذاتِ والدَّعَوَاتِ والأَدْوِيةِ المُبَاحةِ فَهذا جائِزٌ.

والنُشرة: حل السحر عن المسحور و**علاج** من أصابه مسٌّ أو جنون.

سُميت النشرة بذلك: لأنها تَنْشُر عن المصاب ما خامره من داء، يعني كأنها ترفع وتحلُ ما عقده الساحر.

والنُشرة فصل الخطاب فيها ما ذكره ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين، **والحكم فيها فيه تفصيل**.

فالنشرة تنقسم إلى: نشرة ممنوعة ونشرة غير ممنوعة.

أما غير الممنوعة فإنها تنقسم إلى قسمين: المستحبة و الجائزة.

القسم الأول: النشرة المستحبة، وهي التي يكون فيها العلاج بآيات الكتاب وأذكار وأدعية النبي ﷺ وما فيه أسماء الله وصفاته، ومضى معنا ما يتعلق بالرقية الشرعية، ويدخل في هذا أيضًا ما جاء عن النبي ﷺ من الأدوية الناجعة لهذه الأمور **فمن ذلك:**

التصبح بسبع تمرات عجوة وجاء في الصحيحين **«من تصبَّح بسبع تمرات عجوة لم يصبه في ذلك اليوم سم ولا سحر»** وجاء عند مسلم: **«من تصبح بسبع تمرات مما بين لابتيها»** يعني من عجوة المدينة

اللاباتان: الحرتان (واقم والوبرة)، يعني الشرقية والغربية-، المقصود أن تكون من عجوة المدينة فهذا أبلغ في الشفاء، أخبر النبي ﷺ أن «**من تصبح**» يعني أكل على الريق كما يقولون.

كذلك من هذه الأدوية النبوية اغتسال من أُصيب بعين بغُسالة العائن إذا عُلم العائن الذي أصاب بعينه إنسانًا، فإنه يؤمر بأن يغتسل وأن يغسل داخلة إزارِهِ (يعني ملابسه التي لامست جسده الملابس الداخلية) ثم إذا غُسلت غُسل بها بهذه الغسالة التي تبقى في الإناء، يغتسل بها من أصيب بهذه العين، فإنه يبرأ إن شاء الله.

➢ القسم الثاني: **النشرة الجائزة**، فيكون الاستطباب في شأن هذه الأجواء بشيء لم يرد؛

لكن ضابطه:

- ليس فيها محظور من جهة الشرع
- وثبت بالتجربة نفع ذلك،

فهذا لا بأس به وهو من جنس الطب، والأصل في التطبب الجواز.

والغالب على هذا النوع: أن يكون باغتسال على هيئة مخصوصة كما عرف ذلك

من ذلك قول يحيى بن سعيد وقد خرجه ابن عبد البر في التمهيد: «**ليس في نشرة الإنسان بما يُجمع من نبات وطِيبٍ فيغتسل به من بأس**». كذلك عرف النشرة القاضي عياض في المشارق و الحافظ في مقدمة الفتح: بأن النشرة تطببٌ باغتسال على هيئة مخصوصة،

حل السحر بسحر مثله؟

وهذه مسألة كثُر فيها اللبس والخوض من بعض المعاصرين، وبعضهم حمل لواء القول بجواز هذا الأمر، هذه مسألة فيها التباس وفيها خلطٌ وخبط كثير،

ولا شك أن اللجوء إلى السحرة لأجل أن يسحروا سحرًا يفك سحرًا قبله، لا شك أن **هذا منكر و محرم بل شديد التحريم ولا يجوز بحال**.

✪ **ويدل على هذا أمور:**

أولاً: ما بين أيدينا من هذا الحديث الذي هو حديث جابر ﷺ **أن النبي ﷺ سُئل عن النشرة التي هي حل السحر** فقال: **«هو من عمل الشيطان»** هكذا في رواية أبي داوود، وعند أحمد **«من عمل الشيطان»** ولا شك أن في هذا تحذيرًا بليغًا وتنصيصًا على التحريم، وأن حل السحر بسحر مثله أمر منكر ولا يجوز شرعًا.

وهذا الحديث جوّد إسناده ابن مفلح وحسنه الحافظ، وهو أعلى من الحسن كما نص على هذا الشيخ ناصر رحمه الله في السلسلة، أستدرك على الحافظ قال: بل هو صحيح، رجاله رجال الصحيحين إلا عقيل بن معقل وهو رجلٌ ثقة، الحديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ.

ثانيًا: أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له»

ثالثًا: أن النبي ﷺ قد قال:**«إن الرُقى والتمائم والتولة شركٌ»** ومراده ﷺ بقوله:**«إن الرقى شرك»** يعني الرقى الشركية،ولا شك أن هذه **النُشرة السحرية هي من جنس الرقى الشركية** أومقيسة عليها،

الرابع: قول النبي ﷺ: «اجتبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر» إلى أخر الحديث، ها هنا أمر النبي ﷺ باجتناب السحر مطلقًا، ولم يفصل بين حال وحال، لم يقل إلا في حال فك السحر إنما أمر باجتناب مطلق، فوجب على الإنسان أن يستجيب لأمر النبي ﷺ.

الخامس: ما ثبت عن جمع من الصحابة فمن بعدهم من النهي عن هذه النُشرة

ما ثبت عن ابن مسعود و**«من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد»** ﷺ، وقلنا إنه أثر له حكم الرفع، فمثله لا يقال باجتهاد.

ومن ذلك ما قد سمعت قبل قليل من كراهة ابن مسعود ﷺ لذلك، مصطلح الكراهة الغالب في استعمال السلف أن يراد به التحريم،

وما ثبت في مصنف عبد الرزاق عن جابر ﷺ أنه سُئل عن النشرة فقال:**«هي من عمل الشيطان»** أيضًا الأثر الذي عن الحسن و «لا يحل السحر إلا ساحر»، كذلك سُئل كما في المصنف عن النشُرة فقال: **«هي من السحر»** أو قال **«هي سحر»**، كذلك ما ثبت من الكراهة عن الإمام أحمد رحمه الله كذلك ما جاء عن مجاهد وغيرهم من السلف –رحمه الله تعالى عليهم–.

🡸 السادس: **أن الله تعالى قد نهى عن الجلوس في المجالس التي فيها كفر ومنكر**، ولا شك أن مجالس السحرة هي من أوائل ما يدخل في ذلك ألم يقل الله جل وعلا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء:140].

🡸 السابع: **نُقل الإجماع على المنع منه**،قال شيخ الإسلام رحمه الله (إن المسلمين وإن اختلفوا في التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير، إلا أنهم لا يتنازعون في أنه لا يجوز التداوي بالشرك والكفر)، والسحر ولا شك أنه شرك وكفر.

🡸 الثامن: **إن القول بجواز فك السحر بفعل ساحر أنه يتناقض إجماع الصحابة على قتل كل ساحر وساحرة، مر بنا أن هذا قول ستة من أصحاب النبي ﷺ** ولم يأتِ عن غيرهم ما يخالف قولهم. وبعث عمر ﵁ إلى عماله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة،القول بجواز ذلك يقتضي الإبقاء على السحرة أو الإبقاء على بعضهم ضرورة،وإلا كيف يمكن اللجوء إليهم،فإذن هذا القول منكر ولا يجوز.

🡸 التاسع: **إن هذا القول ذريعة لبقاء السحر وانتشاره:** فإنه إذا أُمسك لأجل أن يقام فيه حد الله، فإنه سيقول مهلاً، انتظروا –هداكم الله–أنا ساحر أقوم بوظيفة جليلة وهي أني أساعد المحتاجين، ينبغي أن تكرموني، ربما يُطالب بأن يجرى له مرتب شهري بل وأن تفتح معاهد له يدرس فيها هذا العمل الجليل، وتحت هذه المظلة يمُرر ما شاء من هذه الشعوذات وهذه المنكرات العظمى.

☒ الشبهة: **قد يقول قائل**: **وما الذي أستدل به من أجاز هذا من أدلة؟** فالجواب على هذا أن يقال إن أقوى ما أستدل به على هذا القول **أمران:الضرورة – استدلال بأثر سعيد بن المسيب.**

أولاً: **الضرورة** قالوا إن حل السحر بمثله منكر ومحرم ولكن الضرورة تُلجئنا إليه،هو كأكل الميتة، الميتة محرمة ويجوز عند الاضطرار تناولها، قول كلمة الكفر أمر محرم وعند الضرورة يجوز النطق بها الضرورة والضرورات تبيح المحظورات.

نستدل ثانيًا: بأثر **سعيد بن المسيب رحمه الله** وهو أنه قد سُئل عن الرجل به طب، **طب يعني سحر**، كلمة طب من الأضداد، فالداء طِبٌ والدواء طِبٌ، كأن العرب تفاءلوا من هذا اللفظ بحصول الشفاء

بعد وقوعه، سُئل عن رجل به طب أي سحر أو يؤخذ عن امرأته أي يُحبس عن إتيانها وجماعها، فهل يحل عنه أو ينشر؟ فقال رحمه الله: «**لا بأس بذلك إنما يريدون به الإصلاح أو النفع**» وهذا الأثر قد علقه الإمام البخاري ووصله غيره كابن عبد البر بلفظ قريب: «**سُئل عن الرجل به سحر أو يؤخذ عن امرأته فقال رحمه الله: إنما نهى عما يضر وأما ما ينفع فلم يُنهَ عنه**».

والجواب عن هذين الاستدلالين فيما يأتي:

✸ أولاً: الجواب عن الاستدلال بالضرورة:

أولاً: نقول إنه لا يُسلَّم أن كل إصابة بالسحر تقتضي الاضطرار، بخلاف حال الجائع الذي لو لم يأكل لتحقق هلاكه،لكن يمكن أن يكون مسحورًا وكثير من الناس أصيبوا بالسحر نالهم فيه ما نالهم من مشقة لكنهم أحياء ويعيشون، إذن أصبح هؤلاء ها هنا قياس مع الفارق .

ثانيًا: أن يُقال لا يسلم بصحة هذا القياس أن نقيس النُشرة على أكل الميتة لأن العلماء متفقون على أنه متى ما أمكن الاستغناء بالحلال عن الحرام في دفع الضرورة إذا وجد لحمين أحد اللحميين ميتة والأخر مذكّى، لايجوز أن يأكل من الميتة لوجود مندوحة عن الحرام وهو الحلال،كذلك في الرقية و الشفاء،﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾[الإسراء:82]،

ثالثا: إن الذهاب إلى السحرة لأجل أن يعقدوا سحرًا يحُل سحرًا أخر، مفسدة متحققة في سبيل مصلحة موهومة، وهذا بخلاف حال من كاد أو يكاد أن يموت من الجوع فإن استعماله أو إن أخذه وتناوله من الميتة يتحقق به بإذن الله ولكن من الذي يضمن أن فعل الساحر لا بد وأن يأتي بنتيجة نافعة؟ السحرة متفاوتون، ربما يحاول هذا الساحر أن يحُل هذا السحر ولكنه لا يصنع شيء، ولا يفعل ذلك لأن سحر الساحر الأخر أقوى منه وشيطانه أقوى من شيطانه

رابعًا: من ضامن أن هذا السحر الذي لجأت إليه سوف يسعى لنفعك؟ أليسوا أهل فجور وكذب؟ ربما يماطلك يريد أن يتطاول الزمان وهو ما يصنع شيئًا لأجل أن يأكل مالك وما يدريك لعله يسعى في حل هذا السحر وفي نفس الوقت يعقد سحرًا أخر حتى تكون على ارتباط به دائم، إذن أين هذا من تناول الإنسان لميتة يتحقق بها يعني بهذا الأكل بإذن الله ﷻ دفع المفسدة.

خامسًا: يتعلق بالنطق بكلمة الكفر، هل أُبيح النطق بكلمة المكفر مطلقًا أو بقيد؟ قال الله ﷻ في هذا الشأن: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل:106]، لا بد ويجب أن يكون قلب هذا الإنسان الذي نطق بكفر يدفع عن نفسه القتل، أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان،**هل هذا الأمر متحقق في ذهاب الإنسان إلى الساحر ليحل عنه السحر؟**

وما أكثر أولئك ذهبوا إلى هؤلاء السحرة فأمروهم أن يذبحوا خروفًا أسود أو ديك أسود، وربما أمره بل شدد عليه ألا يذكر أسم الله عند الذبح بل ربما أمره أن يذكر أسم جن من الجن أو شيطانًا من الشياطين. فانظر كيف كان الذهاب إليهم ذريعة إلى فقد الإيمان.

أما الاستدلال بأثر سعيد رحمه الله فإنه أضعف وأضعف، ويتبين لك هذا من وجوه:

➢ **أولاً: أن أثر سعيد رحمه الله مع جلالة قدره ليس بحجة في نفسه**، هو قول عالم من العلماء وإمام من الأئمة، نعم، ولكنه ليس بحجة وكلا أهل العلم يُستدل له وليس يُستدل به.

➢ **ثانيًا: كلامه ليس بحجة فكيف وقد عارضه من هو مثله وفي مرتبة بل هو أكثر منه وأفضل.**
إذا قال المبيح: قال سعيد؛ قلنا: قال الحسن، عالم في مقابل عالم,وهذا مجاهد وهذا أحمد وهؤلاء أصحاب ابن مسعود بل هذا ابن مسعود وهذا جابر وغيرهم كثير، فهم أكثر منه، واحد يقابله جمع فقولهم أقرب للصواب ولا شك.

➢ **ثالثا: أن كلام سعيد في نفسه ليس بحجة وقد عارض سنة رسول الله ﷺ؟! أيكون حجة بعد ذلك؟**

➢ **رابعا: هو أنه ما جاء عن سعيد رحمه الله حرفٌ واحد في أنه أراد النُشرة بفعل ساحر**، ما أراد النشرة السحرية، ومن قال بخلاف ذلك فعليه الدليل، يقول رحمه الله كما عند ابن عبد البر: (إنما نهى عما يضر وأما ما ينفع فلم يُنهى عنه)، **والسؤال هل السحر يضر أم لا يضر؟** أيضر أديان الناس أيضر إيمانهم، إذن ليس داخلاً في كلام سعيد رحمه الله قطعًا.

➢ **الوجه الخامس**: أن كلام سعيد يحتمل، يحتمل أنه أراد النُشرة الجائزة ويُحتمل أنه أراد الُنشرة السحرية، **ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.**

➢ سادسا: **إن حمل كلام سعيد رحمه الله على أنه أراد النشرة الجائزة أو لا لم؟ لأمرين:**

أولاً: لأن هذا ما يقتضيه إحسان الظن به رحمه الله وإذا كان إحسان الظن بآحاد المؤمنين شيئًا مطلوبًا فكيف بهذا الإمام الجليل؟ وكل من عرف حال السلف، فإنه يقطع بأنهم من أبعد ما يكونون عن أن يبيحوا هذا النوع من المنكر الذي يترتب عليه مفاسد لا تُحصى.

والأمر الثاني: أن حمل كلامه –رحمه الله –على ما يوافق كلام غيره من السلف أولى من حمله على ما يخالف كلامهم، و النُشرة عند جمع من السلف يراد بها التطبب بما لا محذور فيه مما ثبت بالتجربة نفعه، والغالب أنه يدور على الاغتسال بهيئة مخصوصة.

من أمثلة ذلك: ما جاء عن ليث بن أبي سليم رحمه الله أنه وصف في علاج السحر أن يؤتى بماء فيقرأ عليه آيات السحر، نحو قوله تعالى:﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾[يونس:81] ثم ينفث بهذه الآيات في الماء ثم يشرب منه ويغتسل فإنه ينتفع بذلك إن شاء الله

أو يقول بما قال الشعبي رحمه الله لا بأس بالنشرة العربية ووصف هذا رحمه الله بأنه يخرج إلى عضاة يعني (شجر له شوك صغير) فيأخذ من ذات اليمين ويأخذ من ذات الشمال من كل الشجر ثم يضعه في إناء، ويصب فيه الماء ويقرا عليه ثم يغتسل منه، فإنه ينفع في فك السحر

كذلك ما جاء عن وهب بن منبه رحمه الله أنه أمر بأن يؤخذ سبع ورقات من السدر فتدق بين حجرين ثم يصب عليها الماء في إناء ثم يقرأ عليه ثم يغتسل ويشرب منه فإنه نافع في فك السحر، ولا سيما في رجل يأخذ عن امرأته.

بل جاء في كتاب الطب النبوي ،**نصوح بن واصل رحمه الله** أنه فسر النُشرة في كلام سعيد، قال رحمه الله: (أن يخرج إلى البساتين فيأخذ من ورده شيئًا ثم يضعه في إناء ماء ثم يغليه أو يغلي هذا الماء تحت النار، حتى إذا فتر أغتسل منه وشرب فإنه ينفع في فك أو في حل السحر).

وأن العلماء ما فهموا من أثر سعيد رحمه الله أن يذهب الإنسان إلى ساحر ليكفر الساحر بالله وليتمتم بالعزائم الشركية لكي يستغيث بالشياطين لأجل أن يفكوا عنه السحر.

الدرس الحادي و الأربعون –٧٤٤ ٢٨–بابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

المؤلف رحمه الله بعد أن تكلم عن السحر وبعض أنواعه وعطف على ذلك ما يقرب منها،وما يتعلق بحله، رجع إلى شيء أشار إليه في باب (بيان بعض أنواع السحر) وهو ما مر بنا من أخبار النبي ﷺ: «**أن العيافة والطيرة والطرق من الجبت**» وبينا أن الطيرة تشبه السحر من جهة تأثيرها على النفوس، **هذا أوان الكلام عن الطيرة.**

الطيرة: هي التشاؤم، ومعنى ذلك: ظنٌ سيءٌ يقوم بالقلب ناشئٌ عن سببٍ متوهمٍ لا حقيقة له،

المتطير: يتوقع السوء بسببٍ لم يجعله الله سببا. فهو إذا رأي شيئًا أو سمع أو لاحظ شيئًا ما يتعلق بمكان أو زمان أو غير ذلك توقع السوء، هو شيء يقع في نفسه لا حقيقة له.

والأصل في تسمية الطيرة: يرجع إلى ما كان عليه العرب، فإنهم كانوا أهل ولع شديد بالتشاؤم من أشياء كثيرة ولا سيما من الطير، **كانوا يتشاءمون من الطير،**

من أسمائها: فإذا مر غراب قالوا: وقعت غربة،وإذا مر عقاب قالوا: تحصل عقوبة،

أو بألوانها: فإذا شاهدوا طائرًا أسودا تشاءموا، أو بحركاتها وممرها، كما مر في العيافة. زجر الطير وإثارته عن مكانه ثم تأمل حركته بعد ذلك، فإن جاء من جهة اليمن كان سانحًا وإن جاء من جهة الشمال كان بارحًا وإن جاء من جهة الأمام كان نطيحًا وغن جاء من الخلف كان قعيدًا.

فربما تشاءموا ببعض هذه الأحوال وتيمَّنوا أوسرُّوا بها، وتفاءلوا ببعضها، وربما كان العكس عند بعضهم، لكن الغالب أنهم كانوا يتشاءمون من البارح ويتفاءلون بالسانح.

وربما تشاءموا أيضًا بأصواتها فإذا سمع أحدهم صوت الغراب أو صوت البومة فإنه يتشاءم.

وربما تشاءم بنوعها: إذا نزلت بقربه هامة أو بومة أو وقعت على بيته، قال إنها نعَتْ إلى نفسي وقرُب أجلي، فضاقت نفسه بذلك.

والله جل وعلا قد أخبرنا في كتابه عن حال بعض الأمم من جهة تطيرهم بل قال ابن القيم رحمه الله: (إن الله ما حكي التطير إلا عن أعداء الرسل)كما أخبر الله جل وعلا مما سيأتي في قوم فرعون أو في ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:13] وكذلك في شأن ثمود حينما قالوا لصالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ

﴿وَبِمَنْ مَعَكَ﴾[النمل:47]. كذلك أهل الجاهلية حينما قالوا للنبي ﷺ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾[النساء:78]، إذن هذه أربعة مواضع في القرآن فيها نسبة التطير إلى أعداء الرسل،

وفي حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب أنهم «**كانوا لا يتطيرون**» **ولذلك جاءت الشريعة بالتشديد في شأن التطير**،وهذا أمر ظاهر لمن تأمل الكتاب والسنة،قال النبي ﷺ:«**ليس منا من تكهن أو تُكهن له أو تتطير أو تُتطير له**»،يتطير يكون منه التشاؤم أو يُتطير له.

مر بنا حينما تكلمنا عن العيافة أن بعض الناس يذهب إلى هؤلاء الذين لهم معرفة يسمون العرافين،وهذا من ما أنكرته الشريعة،وبينت تحريمه وفي صحيح مسلم لما سأل معاوية بن الحكم رضي الله عنه النبي ﷺ قال: «**إن منا أناس كانوا يتطيرون! قال ذلك شيء يجدونه في نفوسهم، فلا يصدنهم**» يعني هذا شيء لا يتجاوز أن يكون توهمًا في النفس لا حقيقة له في الخارج ولا تأثير له في الأشياء.

أحوال التطير:

- التطير باب إلى الشرك.
- التطير سوء ظن بالله سبحانه وتعالى،
- التطير ضعفٌ في التوكل،
- التطير تسلطٌ من الشيطان على ابن أدم
- التطير رعونة وسخف لا حقيقة له، التطير هموم وأحزان،

صاحب التطير الذي استولى هذا الأمر على نفسه كئيب، كسيف البال، مهموم حزين باستمرار، دائمًا تجده يتأمل في الأشياء ويتوقع السوء من أي شيء، لو رأى ذا عاهة تشاءم ورجع إلى بيته، يمشي في طريقه فيشاهد حادث السير فيقول: هذا يوم نحس، يعطيه إنسان يا سمين فيقول يأس ومينٌ، يسمع شيئًا لا يعجبه فيتطير، يرى شيئًا لا يعجبه يتطير،وهكذا هو في هموم وأحزان باستمرار

ومن عجيب هذا الشأن أن من استولى التطير والتشاؤم على قلبه تجد أن الشرور أسرع إليه من السيل إلى منحدره،الذي يستولي عليه التشاؤم ما أكثر ما يقع عليه هذا الشيء.

أما أهل الإيمان وأهل التوحيد الصادق والذين تمسكوا بالعروة الوثقى، وعظم توكلهم على العظيم ﷻ فإنهم أبعد ما يكونون عن الوقوع في هذه الرعونات، هم أهل إحسان للظن بالله العظيم واعتماد وثقة به جل وعلا.أخبر الله ﷻ به في الحديث القدسي:«**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**»

ذكر عكرمة مولى بن عباس رضي الله عنه ورحمه: «**أن ابن عباس كان جالسًا فمر غرابٌ يصيح فقال أحد الحاضرين خيرٌ خيرٌ، فالتفت إليه وقال: لا خير ولا شر ما علاقة الخير والشر بمرور هذا الطائر أو صوته؟**» وكذلك طاووس عليه رحمه الله كان في سفر، فمر طائر يصيح فقال: خير، قال: وأي خير في ذلك؟ لا تصاحبني، أعطاه درسًا عمليًا على ترك الالتفات إلى هذه الأمور،

وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:131].

هذه الآية في شأن قوم فرعون قال جل وعلا: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ**﴾[الأعراف130-131]. يعني نحن أهلها، نحن نستحق هذا الأمر، والمراد الحسنة الدنيوية من مطر وخصب ونبات الزرع وما إلى ذلك،

﴿**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف:131] لا يعلمون أن موسى وأهل الإيمان معه لا علاقة لهم بهذا الذي أصابهم، بل الخير كل الخير فيما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام موسى وإخوانه، ولو عقل هؤلاء وعلموا لأدركوا هذا يقينًا: ﴿**لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾

والله جل وعلا بين هنا ﴿**طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ**﴾ وفي هذه الآية كلام كثير عند أهل التفسير

والأقرب والله أعلم أن المعنى أن هذا الذي أصابهم وتشاءموا بسببه راجعًا إلى تقدير الله ﷻ الذي عاقبهم بسبب كفرهم وإعراضهم عن الله، ما أصابهم مما تشاءموا به ونسبوه ظلمًا وزورًا إلى موسى ومن معه هذا في الحقيقة بتقدير الله ﷻ وكان عقوبة منه سبحانه على بغي هؤلاء الكفار، وصدهم عن سبيل الله جل وعلا **وكأن المؤلف رحمه الله أراد من إيراد هذه الآية أن يبين** أن التطير ليس من شأن أهل التوحيد، إنما هو من شأن أهل الشرك فعلى المسلم أن يحذر من ذلك.

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ الآية. يس:19
كذلك هذه الآية بين الله ﷻ فيها رد الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ إلى أهل القرية الذين ذكرهم الله ﷻ في سورة ياسين: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:13]
إلى أن قال جل وعلا: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[يس19:18]
إذا ذكرناكم بالله تعلى ودعوناكم وبلغناكم أمر الله ونهيه؟ **قلتم إنكم تتطيرون؟**
وقول الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾هو من باب القصاص في الكلام، لما نسبوا الطيرة إليهم تشاءم القوم بهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ردوا عليهم وقالوا إنه هو شيء في نفوسكم كان ثمرة لكفركم، وإعراضكم عن الله ﷻ أما نحن فلا علاقة لنا به وليس لكم أن تنسبوا هذا إلينا

وَعن أبي هريرةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا عَدْوَى ولاطِيرَةَ ولا هَامَةَ ولا صَفَرَ» أخرجاه وزاد مسلم «ولا نَوْءَ وَلا غولَ».
ما جاء في أخر كلام المؤلف من أن مسلم رحمه الله زاد في صحيحه: «ولا نوء ولا غول»

وهذا إن أراد به المؤلف رحمه الله أن هاتين الكلمتين وردت في مسلم بغض النظر عن كون ذلك كان في حديث واحد أو سياق واحد أو لم يكن، فالكلام صحيح فهذا اللفظ من كلام النبي ﷺ وارد في صحيح مسلم،

أما إن كان المراد أن مسلم رحمه الله أورد هذا النص بهذا اللفظ في حديث عن النبي ﷺ هكذا فهذا ليس بصحيح، وذلك أن الذي في مسلم زيادة في رواية أبي هريرة وهي قوله: «ولا نوء ولا سفر».
وجاء من حديث جابر أيضًا عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «ولا غول ولا سفر»،
فتحصل من هذا أن نفي النوء ونفي الغول ثابت عن النبي ﷺ في صحيح مسلم، ولكنه في حديثين مفرقين وليس بهذا السياق.

ولعل السبب راجع إلى وهم حصل أو انتقال للبصر إلى التبويب الذي بوبه النووي فإن التبويب الذي جاء قبيل هذا الحديث فيه باب: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول» فلعله سبق النظر إلى التبويب، فظن أن هذه زيادة في الحديث وإنما هذه قطعة من ماذا؟ من التبويب.

هذا حديث عظيم فيه تنصيص على أمور بعضها راجعٌ إلى ما نحن فيه وهو باب التطير

قال ﷺ: **«لا عدوى»، العدوى**: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح

والسؤال: وقوله ﷺ ها هنا **«لا عدوى»** هل أراد به نفي العدوى من أصلها؟ أو أراد نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن المرض أو بعض أنواعه تنتقل بنفسها باستقلال عن مشيئة الله؟

التحقيق والجمع بين النصوص يرجح الثاني: يعني لم يكن هذا من النبي ﷺ نفيًا عن أن هناك أسبابًا تؤدي إلى انتقال المرض، هي العدوى ينتقل المرض بسبب هذا السبب وهو مخالطة المريض، فالعدوى واقعة من جهة التسبب **لا العدوى التي كان يعتقدها أهل الجاهلية** من أن المرض ينتقل بذاته دون مشيئة الله ﷻ. **وذلك** أن النبي ﷺ هو الذي قال هذا الحديث

وهو أيضًا الذي قال ﷺ: **«فِر من المجذوم فرارك من الأسد»**، والحديث صحيح علقه البخاري رحمه الله في صحيحه ووصله غيره، فالنبي ﷺ أمر بالابتعاد عن المجذوم،

المجذوم: الذي أُصيب بالجذام، وهو مرض يصيب الإنسان فيؤدي إلى تأكل أعضائه، نسأل الله السلامة والعافية، وهذا ربما انتقل بسبب المخالطة فأمر النبي ﷺ بالابتعاد عن ذلك.

كذلك ثبت عنه في الصحيح ﷺ قال: **«لا يُورد ممرض على مُصح»**، يعني أن صاحب الإبل المريضة لا يُورد إبله –لا يدخلها– في إبل مُصح، يعني من إبله صحيحة سليمة ما فيها مرض.
كذلك النبي ﷺ نهى من كان في بلد وقع فيه طاعون أن يخرجه منه، أو إذا كان خارجًا عنه أن يدخل إليه.

هذه النصوص وغيرها تدل على أن العدوى تقع ولكن بمشيئة الله ﷻ، يعني هي سبب من جملة الأسباب، ليس أن المرض ينتقل **بذاته**، الله جل وعلا جعل للأشياء أسبابًا،

إذن أهل الإيمان يجمعون بين الأمرين:

- بين إثبات مشيئة الله ﷯
- وإثبات الأشياء التي جعلها الله أسبابًا،

وبالتالي تبين لنا أن قول النبي ﷺ: «**لا عدوى**» ليس إنكارًا أو نفيًا لوجود العدوى أصلاً، لا، إنما هو نفيٌ لما كان يعتقده أهل الجاهلية في هذا الشأن.

الجواب عن الشبهة: ثبت عن بعض الصحابة كعمرو وابنه وسلمان ﵃ من أنهم أكلوا مع مجذومين.

هو أن يُقال: **أن الخلطة بهؤلاء المصابين سبب**؛ ولكن السبب قد يكون له **مانع**، إن وجد المانع فإن أثر السبب يزول أو يضعف يعني هناك أمراض لها أسباب ويمكن أيضًا أن يكون لها مانع ،مَصْل يأخذه الإنسان أو ما يسمونه تطعيم أو علاج أو ما إلى ذلك هذا يعتبر مانع لتأثير هذا السبب.

التوكل على الله ﷻ إذا عظم في النفس كان أحد الموانع من وقوع هذا المرض وانتقاله، وبالتالي ففعل هؤلاء الصحابة ﵃ يوجّه على أنه كان في الخلطة تحقيق مصلحة رأوها مع عظيم توكلهم واعتمادهم على الله ﷻ فبطل أو عطل تأثير السبب .فإن الله ﷻ من رحمته قد يعافيه من تأثير هذا السبب، وقد يُصاب إذا شاء الله ﷻ ذلك وهذا من قدر الله جل وعلا.

۞ وبالتالي أضحى عندنا في الشريعة مسلكان:

➢ **مسلك الأخذ بالأسباب** وهذا ما دل عليه حديث: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**» وإلى أخره.

➢ **وهناك مسلك أخر**: وهو أن يسلكُ الإنسان مسلك التوكل والاعتماد على الله ﷻ ويقتحم هذا الأمر معتمدًا على الله ﷻ لتحقيق هذه المصلحة، وهذا يرجى له أن لا يصاب. قد يكون بعض هؤلاء المرضى يحتاجوا إلى زوجة تخالطه، وخادم يخدمه، وممرض يمرضه، فمثل هؤلاء في بقائهم بالقرب من صاحب هذا المرض تحقيق مصلحة في حصول شفاءه أو بقاء حياته أو تخفيف ألمه،

ثم قال ﷺ: «**ولا طيرة**» **وهذا الذي هو محل البحث هاهنا**

ومناسبته إيراد هذا الباب: هو ما في التطير من منافاة التوحيد الواجب على ما سيأتي تفصيله.

وهل قوله ﷺ هنا: «لا طيرة»، **(لا) ها هنا للنهي أو للنفي؟**

أختلف العلماء في ذلك والأقرب والله أعلم أن **لا هنا للنفي**، وهذا أبلغ من أن تكون للنهي؛ لأنها تتضمن النهي وزيادة هذه الزيادة هي الدلالة على أن هذا أمر لا حقيقة له ولا تأثير له،

«ولا هامة»، الهامة: اختلفوا في تفسيرها إلى قولين:

التفسير الأول: **أن الهامة طيرٌ من طير الليل**، وبعضهم نص على أنها البومة،
كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها فإذا نزلت بالقرب من الإنسان أو على سطح بيته قالوا: نعَتْ إلى نفسي، تشاءموا بذلك أن الموت قد قرب، فنفى الله سبحانه وتعالى ذلك،
وعليه فيكون نهيه أو نفيه للهامة **من باب عطف الخاص على العام**،
الخاص: أي (لا هامة)
والعام: (ولا طِيَرة) يعني ذكرصورة خاصة وهي الهامة.

التفسير الثاني: **أن الهامة نفيها نفي لاعتقادٍ جاهليٍ كان عليه الكفار سابقًا**، وهو أن الميت إذا قُتل بغير حق يقولون إن هناك طائرًا يطير حول قبره، وربما قالوا: إنه يخرج من عظامه يُصبح طائرًا يطوف ويدور على قبره ويقول: اسقوني، اسقوني؛ حتى يُأخذ بثأره ثم بعد ذلك يذهب وينصرف.
هذه الخرافة كان يعتقدها أهل الجاهلية كأن مرادهم من بثها وإشاعتها حث أهله على الأخذ بثأره، **بين النبي** ﷺ أن هذه خرافة لا حقيقة لها، وبالتالي كان هذا موضوعًا أخر بعيدًا عن موضوع الطيرة.

«ولا صَفَرَ»

أيضًا أختلف العلماء في صفر في تفسير صفر ها هنا إلى قولين.

التفسير الأول: أن صفر داءٌ يصيب البطن وهذا ما نص عليه البخاري رحمه الله بأنه قال باب لا صفر وهو داء يصيب البطن،
وكأن الأمر والله تعالى أعلم أن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن هذا المرض ينتقل بنفسه، ولذلك كانوا يرون أنه شديد العدوى حتى كانوا يصفونه بأنه أعدى من الجرَب.

فبالتالي يكون هذا نفيًا لأمر خاص بعد أمر عام وهو (لا عدوى)،

إذن أصبح قوله ﷺ:**(لا هَامَة)** راجعة إلى (ولا طِيَرة) وأصبح قوله **(ولا صفر)** راجعًا إلى **(لاعدوى)**.

أما التفسير الثاني: **هو أن صفر هو الشهر المعروف شهر صفر ثاني الأشهر الهجرية،**

✵ واختلفوا بعد ذلك في هذا النفي الوارد في الحديث إلى قولين:

الأول: أن النفي إنما كان لتشاؤم أهل الجاهلية من شهر صفر، فكانوا يتشاءمون من أزمنة ومنها شهر صفر يتشاءمون منه، فبين النبي ﷺ أن هذا أمر متوهم لا حقيقة له،
فعاد ﷺ نفيه لصفر إلى نفيه للطيرة، عاد إلى نفيه الطيرة.

الثاني: على أن صفر هو الشهر المعروف ما يرجع إلى النسيء الذي كان يستعمله أهل الجاهلية وهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[التوبة:37]،

وذلك أنهم كانوا يؤخرون النسيء يعني التأخير، كانوا يؤخرون شهر محرم إلى شهر صفر، لأجل الغزو، إذا أرادوا أن يغزو في شهر محرم وهو عندهم شهر محرم معظم لا يجوز القتال فيه، قالوا نجعل شهر محرم متى؟ في وقت شهر صفر، وبالتالي يجوز لنا أن نغزو في هذا الوقت.
وهذا من التلاعب الذي كان عليه أهل الجاهلية، وبالتالي يكون النبي ﷺ قد نفى هذا التصرف في هذا الحديث؛ هكذا قيل **وهذا التوجيه فيه من البعد ما فيه،**

كأن الأقرب والله تعالى أعلم أن هذا راجعًا إما على تشاؤمهم في شهر صفر أو أن يكون هو المرض الذي ذكره غير واحد من أهل العلم ومنهم البخاري رحمه الله.

أما الزيادة فيها قوله ﷺ: **«ولا نَوْءَ»**
والنوء: فيه كلام يختص بباب خاص نتكلم عنه إن شاء الله تعالى على وجه التفصيل.

أما **«الغُول» فالغول على ما ذكروا نوع من أنواع الجن والشياطين،** وبعضهم يقول هي سحرة الشياطين، **وسميت بذلك:** لأنها تتغول للمسافرين يعني تتراءى لهم وتضلهم عن الطريق، وربما أهلكتهم،
وهل مراد النبي ﷺ نفي وجود شيء اسمه الغول من الشياطين؟
أو نفي هذا التأثير الذي كانوا يعتقدون من أن هذه الشياطين تتراءى لهم وتضلهم عن الطريق الصحيح وربما كانت سببًا في موتهم؟ الثاني هو الأقرب والله تعالى أعلم.

الدرس الثاني و الأربعون – ٧٦٠ ٢٨-بابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ (المجلس الثاني)

وَلَهُمَا عنْ أَنَسٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا عَدْوَى ولا طِيرَةَ، ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ» قالوا: ومَا الفَأْلُ؟ قالَ «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»

هذا الحديث مخرج في الصحيحين، و فيه ذكر ثلاثة أمور: **العدوى، والطيرة، والفأل.**

أما الأولان فجاء الحديث بنفيهما،وقد مر بنا الكلام فيهما وأما الثالث فقد جاء الحديث بإثباته.

التنبيه على ما قد يظن أنه معارض للحديث؛: «لا عدوي ولاطيرة والشؤم في ثلاثة» وفي رواية: **«إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة المرأة، والدار، والفرس»**، وفي رواية: **«الدابة»**.

الحديث مخرج في الصحيحين من حديث ابن عمر ومن حديث سهل بن سعد، كما جاء في كتب السنة من حديث أبي هريره وابن جابر، وبالتالي فإن إنكار من أنكره كعائشة رضي الله عنها اجتهادٌ منها، فإنها أنكرت على أبي هريره ﷺ تَحْديثَهُ بهذا الحديث على إنه من كلام النبي ﷺ إقراراً؛ إنما ظنت أن النبي ﷺ إنما قال هذا الحديث حكاية (عن حال الكفار؛ أنه هكذا كان يقع في نفوسهم) ولم يرد تقرير الشؤم في هذه الأمور الثلاثة، ولكن ذلك غير صحيح؛ لا يمكن أن يخطأ هؤلاء الصحابة الأجلاء.

واختلف أهل العلم في توجيه هذا الحديث، ولا يخرج ما قيل في التوجيه عن رأيين:

الرأي الأول، القول بالنسخ،

والثاني: القول بالجمع.

أما القول بالنسخ: فقال بعضهم أن حديث (لا عدوى ولا طيرة) ناسخ لحديث (إنما الشؤم في ثلاثة) وبعضهم عكس، **ولا شك أن القول بالجمع مقدم على القول بالنسخ**؛ بل القول بالنسخ ضعيف لا ينبغي أن يلتفت إليه، وذلك أنه قد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: **«لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاثة»**، إذاً لا يمكن أن يكون الحديث حديثاً واحداً وفيه ناسخ ومنسوخ.

يبقى القول بالجمع: وقد قيلت أقوال عدة، الأقوى والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال هذا الحديث يتحدث ويتكلم **عن الشؤم**، **لا التشاؤم.** **عندنا أمران:**

عندنا التشاؤم: هو الطيرة؛ وهو ما نفاه الحديث أولاً.

وعندنا الشؤم: وهذا ما جاء إثباته.

إذاً لا يمكن أن يكون الشؤم هو التشاؤم؛ لأنه لا يمكن أن يثبت ما نفي، لا يمكن أن يقول النبي ﷺ: **«لا طيرة»** أي لا تشاؤم؛ ثم يثبت التشاؤم؛ هذا غير وارد. **إذاً النبي ﷺ يتحدث عن الشؤم؛**

والشؤم في كتب اللغة: هو الشر، إذاً النبي ﷺ **يقول الشر في ثلاثة أمور: المرأة، والدار، والفرس**

ومعنى هذا الحديث: أن الله ﷻ جعل للخير أسباباً، وجعل للشر أسباباً؛

ومن أهم أسباب الشر التي تلحق الإنسان؛ هذه الأمور الثلاثة: **المرأة، والدار، والفرس**

لا ينفك الإنسان غالباً عن زوجة يأوي إليها، وعن دار يسكنها، وعن دابة يستخدمها؛
فقد يقتل الإنسان بكدرٍ في حياته من قبل هذه الأمور الثلاثة التي هي من أقرب الأمور إليه،
فيقتل الإنسان لامرأة سيئة الخلق تكدِّر عليه حياته وتنغِّص عليه معيشته،
أو يقتل بدار ضيقة يضيق صدره بسببها أو أن له جيراناً سيئين فيضيق صدره ويتكدر حاله،
أو يقتل بدابة عسِرة أو كثيرة الأعطاب والأمراض. هذه هي في الغالب
وقد يبتلى بغيرها؛ قد يبتلى بأبنٍ عاق تناله أنواع الشرور بسببه و إلى غير ذلك.
الحديث يتحدث عن الشؤم؛ بينَ النبي ﷺ أن هذه أسباب ثلاثة لوصول الشر إلى الإنسان بمقارنتها؛
هذا لا إشكال فيه ولا تعارض بينه وبين الطيرة أو التشاؤم التي جاء نفيها في الشطر الأول من الحديث.

✸الأمر الثالث من الحديث وهو: (الفأل)

الفأل: هو الاستبشار بمسموعٍ أو مرئي، يعني أن يحصل على الإنسان استبشار وفرح وسرور ورجاء بسبب كلمة يسمعها أو شيء يراه يدخله الأمل والرجاء بسبب ذلك؛ **فهذا لون والطيرة لون آخر،** الطيرة والتفاؤل **يجتمعان في التأثير** عن النفس ولكن بينهما لون شاسع،

والنبي ﷺ فرق بينهما كما فرق النبي ﷺ بين الرقية المشروعة والممنوعة في نظائر كثيرة في الشريعة،

إذاً النبي ﷺ نفى وحذر من الطيرة؛ واثبت التفاؤل بل بين أن هذا أمر مستحب؛ لأنه يعجب النبي ﷺ، ولا شك أن النبي ﷺ لا يعجب إلا بأمر حسن.

في هذا الحديث،في **حديث أنس**، أخبر النبي ﷺ **بإعجابه بالفأل؛**

وجاء ايضا من حديث أبي هريرة و فيه بين النبي ﷺ :**أن خير الطيرة الفأل؛** قال: «**وخيرها الفأل**»،

لما سأل النبي ﷺ عن الفأل؛ فسره بمثال له وهو: الكلمة الصالحة يسمعها الإنسان.

وهذه الكلمة وصفت في الصحيحين في مجموع الروايات: **بالكلمة الطيبة والكلمة الصالحة والكلمة الحسنة؛ والمعنى متقارب؛**

يعني أن يسمع الإنسان كلمة طيبة فينشرح صدره لذلك ويستبشر؛ كأن يكون يريد سفراً فيسمع من يقول يا راشد، أو مريضاً فيسمع من يقول يا سالم، فيبتهج بذلك ويتفاءل ويستبشر.

هذا الحديث الذي فيه إعجاب النبي ﷺ بالفأل: فيه إبانة عن غريزة جعلها الله ﷻ في النفوس، الله ﷻ جعل جبل النفوس البشرية على محبة أشياء؛ فهي تحب رؤية المناظر الأنيقة والرياض النضِرة والألوان الحسنة وإلخ،فهذا من هذا الجنس كون الإنسان يسمع كلمة حسنة؛ فيستبشر بها هذا مما يدخل عليه الفرح والسرور والنشاط

ولا يضر إيمانه في شيء ولا يتأثر إيمانه وتوحيده بذلك؛ إن هذا أمر حسن؛ بل هذا هو الكمال؛ وهذه هي حال النبي ﷺ؛ إن النبي ﷺ كان له أكمل الأحوال البشرية ﷺ.

و ثبت في الصحيح البخاري بقصة الحديبية؛ أن النبي ﷺ لما أقبل سهيل بن عمرو ليفاوض النبي ﷺ في الصلح؛ قال النبي ﷺ: «**سهل عليكم من أمركم**»؛ من أين أخذ النبي ﷺ هذا التفاؤل؟ من أسم الرجل؛ أقبل رجل أسمه **سهيل؛** فهذا لا يعدو أن يكون فرحاً واستبشاراً تغدو النفس على إثره أكثر نشاطاً وجدية في الأمور ولهذا تقبل على أمرها في شأن الدين أو من أمر الدنيا وهي منشرحة النفس.

إذاً الشريعة تدعو أن يكون الإنسان منشرح الخاطر دائماً؛ ومن تلك الأسباب أن يتعاطى الأشياء التي تؤدي إلى حصول هذه الحالة الحسنة؛ ولذلك النبي ﷺ يتفاءل بالكلمة الطيبة؛ كان النبي ﷺ يحب

الحلواء والعسل؛ كان النبي ﷺ يحب الرائحة الطيبة وكان أطيب الناس ريحاً ﷺ وكان يحب الشراب الحلو البارد؛ إذاً كل هذه أسباب تؤدي إلى راحة في النفس وانشراح في الخاطر؛

إذاً لا حرج في تعاطيها؛ شرط أن يقف الأمر عند هذا الحد:

بمعنى مشروعية: **الفأل لا تتجاوز هذا القدر**؛ وهو أن يحصل عرضاً سماع أو رؤية ما تبتهج أو تستبشر به النفس فينشرح صدره وخاطره لذلك ويأمل الخير ويحسن الظن في الله ﷻ.

أما أن يكون هذا الذي تفاءل به هو الذي يعتمد عليه في الإقدام أو عدمه.

فهذا يجعل الفأل من جنس الطيرة؛

فرق أن يكون الإنسان قد خرج من بيته؛ فسمع كلمة حسنة فاستبشر وقال إن شاء الله وقال هذا يوم خير، سمع كلمة بشارة، فوز، طيب إلى آخره فاستبشر؛ فمضى في عمله وهو ماضٍ عليه أصلاً؛ لكنه انشرح لذلك وأكمل عمله؛ وهذا أمر حسن لا حرج فيه.

الأمر الثاني: أن يخرج الإنسان وهو يترقب مثلاً طائراً بلون حسن؛ أو طائراً يمضي من جهة اليمين؛ وفي نفسه إن رأى هذا الشيء الذي يستبشر به إلا رجع؛ وما عمل الذي أراد؛ هذا نقول وقع فيما هو من نوع جنس الطيرة الممنوعة؛

لأبي داودٍ بسندٍ صحيحٍ عنْ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ قال: ذُكِرَتِ الطِيَرَةُ عندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فقال: «أحسنُهَا الفألُ، ولا تَـرُدُّ مُسْلِمًا، فإذا رَأَى أَحَدُكُم ما يكرَهُ فليقُل (اللهمُ لا يأتِي بالحسناتِ إلا أنتَ ولا يَدفعُ السَّيئَاتِ إلا أنتَ ولاحَولَ ولَا قُوَّةَ إلا بِكَ).

هذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته من جهتين:

أولاً: نسبة هذا الحديث إلى عقبة بن عامر وهم؛

قد وقع في هذا الوهم بعض من تقدم الشيخ محمد رحمه الله تعالى كالنووي، وابن القيم وغيرهما؛ **والصواب** أن الحديث من حديث عروة بن عامر قيل القرشي وقيل الجهني، وقد اختلف في **صحبته** كثير من أهل العلم؛ رأوا أنه تابعي ولا يصح له صحبة ونص على هذا المزي رحمه الله وجماعة؛ وبعض أهل العلم أثبت له الصحبة وبعضهم قد وقف في ذلك؛ إذًا على القول في ثبوت صحته **فالحديث متصل**؛وعلى القول بأنه تابعي **فالحديث مرسل.**

➜ ثانيا: **الحديث في إسناده حبيب بن أبي ثابت وهو على كونه جليلاً، كثير التدليس والإرسال** لكن الشيخ صححه وتقدمه أيضا في هذا التصحيح النووي رحمه الله في رياض الصالحين وغير واحد من أهل العلم.

وعلى أي حال الحديث فيه التنبيه على **أن الطيرة أمر منفي وأنها لا تردُ مُسلماً؛**

وكونه **(لا ترد مسلما)** فيه إشارة إلى أن حال أهل الشرك على خلاف ذلك، ويشهد على هذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم؛ على ما قال معاوية بن الحكم للنبي ﷺ: «**ومنا أناس يتطيرون قال ذلك شيء يجدونه في أنفسهم فلا يصدنهم أو قال فلا يصدنكم**».

والشطر الأخير من الحديث: وهو أن ما يدفع به الإنسان عن نفسه هو هذا الدعاء:(اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت...) إلى آخره والحسنة والسيئة هنا هي الحسنة الدنيوية والسيئة الدنيوية؛

يعني لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر إلا أنت يا الله، هكذا الإنسان لا يدفع عن نفسه وساوس الشيطان إلا إذا اعتصم بحبل وثيق من الإيمان بالله ﷻ وتوحيده.

عن ابنِ مسعودٍ مرفوعا: «الطيرةُ شركٌ، الطيرةُ شركٌ، وما مِنَّا إلا، ولكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بالتوكلِ» رواه أبو داودَ والترمذيُّ وصححهُ، وجعل آخِرَه من قول ابن مسعودٍ.

هذا حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ: **«الطيرة شرك، الطيرة شرك»**، هذا القدر ثابت عن النبي ﷺ وفيه بيان حكم الطيرة؛ وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل.

الطيرة لها أحوال؛ وكل حال لها حكمها.

➢ **فأولا**: من تطير بشيء لاعتقاده، أن هذا الذي تطير به هو الذي يعطي الخير أو يعطي الشر بذاته فهذا **شرك أكبر**؛ مشاركة لله ﷻ في ربوبيته.

➢ **حال الثانية**: من تطير بشيء لاعتقاده أنه نزول للشر؛ **مجرد سبب**؛ إلا فالأمر راجع إلى الله ﷻ بسبب تقديره؛ **فهذا شرك أصغر** وعلى هاتين الحالتين يتنزل قول النبي ﷺ : **«الطيرة شرك»**.

أما كون هذه الحال الثانية شرك أصغر؛

أولا:فذلك أن هذا المتطير، أعتقد أن هذا الشيء سبباً والواقع أن الله ﷻ لم يجعله سبباً في نزول البلاء

والقاعدة: أن من اتخذ واعتقد سبباً لم يجعله الله سبباً لا شرعاً ولا قدراً؛ فإنه قد يكون أشرك الشرك الأصغر.

ثانيا: قيدها بأنه يتطير ويبني على هذا التطير رجوعه عن العمل ورده عنه، هذا ما أردت قوله إنه شرك أصغر.إذا بنى على هذا التطير أنه ترك العمل؛ وما أقبل فإنه يكون قد وقع في الشرك الأصغر؛

➢ **والحال الثالثة**: أن يتطير ولكنه يمضي في عمله؛ تنقبض نفسه ويضيق صدره ويبقى متوجساً منتظراً أن مكروهاً ينزل به؛ **وهذا محرم** لأنه سوء ظن بالله ﷻ وقبولٌ لوساوس الشيطان.

➢ **الحالة الرابعة**: أن يقع في نفسه خاطر ولكنه يدفعه بتوكله على الله ﷻ وإحسان ظنه به؛ فهذا قدر معفو عنه؛ وهذا الذي جاء فيه: «**وما منا**» يعني الغالب أن كل أحد يعتريه هذا الخاطر، يقع في نفسه شيء وقد خرج من بيته فرأى حادثاً أو منظراً قبيحاً؛ وقع في نفسه شيء من الضيق ثم دفعه وتوكل على الله ﷻ فزال الذي في نفسه ومضى إلى عمله؛

بقي البحث في الشطر الأخير من الحديث: «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل».

اختلف الحفاظ في كونه كلام من قول النبي ﷺ أو هو مدرج يعني من قول ابن مسعود،

الأقرب والأصح أن **هذا ليس** من كلام النبي ﷺ فالنبي ﷺ لما وصف الطيرة بأنها شرك ليس من المقبول أن يقال إنه يقول إنه وقع في هذا الأمر؛ حاشاه ﷺ فإنه ﷺ أبعد الناس عن التطير، وأكمل الناس إيماناً وتوكلاً و إحساناً بالظن لله ﷻ ومن عداه لا يخلو من وقوع شيء في نفسه ولكنه يدفع بتوكل الله ﷻ وبالاعتصام به جل وعلا.

﴿ ولأحمدَ منْ حديثِ ابنِ عمرٍو «مَن ردَّتْهُ الطِّيَرةُ عنْ حاجتِهِ فقد أَشركَ»..

قالوا فما كفارةُ ذلكَ؛ قال: «أن تقول:اللهمَّ لا خَيرَ إلا خَيْرُكَ ولا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا إلهَ غيرُكَ».

هذا الحديث يؤيد الرابط السابق الذي ذكرناه، فمن ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك؛

هذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته وفي جهة إسناده ابن لهيعة وفيه كلام معروف؛ لكن هذا الحديث جاء من رواية ابن وهب عنه وكذلك من رواية عبد الله بن يزيد عنه وطائفة من أهل العلم تقوي ما رواه العبادلة ابن لهيعة وقد روى عنه العبادلة عبد الله بن وهب وعبد الله بن يزيد المقرئ وعبد الله بن المبارك

إضافة إلى جماعة من الرواة؛ ولأجل هذا صحح هذا الحديث غير واحد من أهل العلم ومنهم الشيخ الألباني رحمة الله تعالى على الجميع.

الشاهد أن الحديث فيه بيان **ضابط كون الطيرة شرك؛ وأيضا فيه ذكر كفارة من يقع في هذا الأمر،** من وقع في هذا الأمر وأراد أن يكفر أو أن يدفع ما في نفسه فليدعو بهذا الدعاء

(اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك). يعني لا يأتي الخير إلا من قبلك يا الله.

كما أن الطير الذي يتطير به كثير من الناس ما هو إلا مخلوق من مخلوقاتك يا الله؛ إذاً هو لا يملك جلب خير أو لا يملك جلب شر؛ إنما الأمر كله إليك يا الله ولا إله غيرك؛

فجمع هذا الدعاء والذكر بين **إثبات التوحيد العلمي وبين إثبات التوحيد العملي**؛ وبين تثبيت المعرفة والإثبات؛ وإثبات توحيد القصد والطلب؛ وهذا كما أسلفنا خير ما يلجأ إليه الإنسان إذا ما أصابه الشيطان بهذه الوساوس التي لا حقيقة لها والله أعلم.

۞ وله من حديثِ الفضلِ بنِ العباسِ رضي الله عنهما : «إنما الطِيَّرَةُ ما أمْضَاك أو رَدَّكَ».

الشارح الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير أنه وجد بخط المصنف تعليقاً على هذا الحديث؛ أنه قال إن في إسناده رجلاً مختلفاً فيه، كما أن فيه انقطاعا؛ يعني ذكر أن الحديث **قد أعل بعلتين**:

الأولى: أن في إسناده رجلاً مختلفاً في توثيقه وهو محمد بن عبد الله بن علاثة وهذا الرجل قد ضعفه طائفة من أهل العلم، وقد وثقه طائفة، والحافظ رحمه الله قال في التقريب إنه صدوق يخطئ.

أما العلة الثانية: فهي الانقطاع، لأن محمد بن عبد الله بن علاثة روى هذا الحديث عن مسلمة بن عبد الله الجوهري عن الفضل بن العباس والصحيح أنه لم يسمع منه؛ لم يسمع مسلمة من الفضل وبالتالي فإن الحديث فيه انقطاع؛ لكن يشهد له الحديث الذي قبله؛ فإنه يدور في المعنى نفسه والله تعالى أعلم.

الدرس الثالث و الأربعون –٧٧٥ ٢٩–بابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ.

قال المؤلف رحمه الله: (باب ما جاء في التنجيم): أي من الذم والوعيد،

والتنجيم: مصدرٌ للفعل نَجَّم يُنجِّم، **والتنجيم يطلق على تعاطي علم النجوم المذموم**، وعلم النجوم منه ما هو **مذموم**، ومنه ما هو **غير مذموم**، وهذا الباب صار على القسم المذموم من علم النجوم،

والمنجم: هو من يتعاطى التنجيم، وهو من **جنس الكهان والعرافين**.

✪ علم النجوم ينقسم إلى قسمين: **علم تأثير وعلم تسيير**،

✸ فأما علم التأثير: **فإنه ينقسم إلى قسمين**: **تأثير عملي، وتأثير علمي**.

- النوع الأول علم التأثير العملي: **هو اعتقاد أن للنجوم والكواكب العلوية تدبيرًا لهذا الكون**، أو هي كما يقول أرباب هذه الصناعة: ما يكون على وجه الأرض من مجرياتٍ وأحداث إنما هي انفعالٌ لفعل النجوم والكواكب.

وهذا دين الصابئة المشركين الذين بُعث إليهم إبراهيم عليه السلام، **ولم يزالوا موجودين إلى هذا العصر**، توجد قلة في بعض البلدان من هؤلاء الصابئة يعتقدون أن النجوم والكواكب مدبراتٌ لشئون هذا الكون مع الله جل وعلا، فكما أن الله يدبر شئون الكون كذلك هذه الكواكب، ويتبع هذا إشراكهم بها مع الله في العبادة، حيث أنهم يرجونها ويخافونها ويتقربون إليها بأنواع العبادات.

✸ حكمه: **هذا شركٌ ظاهرٌ في الربوبية**، فالله عز وجل هو الذي يدبر الأمر، وهو الملك السيد المتصرف في شئون هذا الكون وحده لا شريك له،

وأصل عبادة الأصنام بعضه راجعٌ إلى ذلك،

فالأصنام إنما هي تماثيل يتذكر بها العابدون معبوداتهم السماوية أو الأرضية،

المعبودات الأرضية: يعني ما يعبدونه من الأولياء والصالحين ينصبون أنصابًا، ويجعلون أصنامًا.

والمعبودات السماوية: يجعلون هياكل وأبنية وبيوتًا يصورون فيها صورًا لهذه الكواكب والنجوم، أو يجعلون لها صنمًا فيتقربون إلى هذا الصنم؛ لأنه يمثل الكوكب، وهم يعتقدون أيضًا أن روحانيات هذا الكوكب، وهي الشياطين في الحقيقة ربما خاطبتهم ولبت رغباتهم،

فجمع هذا الشرك **بين الشرك في الربوبية، والشرك في الألوهية**.

- **النوع الثاني: علم التأثير العلمي**: **وذلك يرجع إلى استدلال أصحاب هذا الدجل**، استدلالهم بحركات النجوم والكواكب واقترانها وافتراقها، استدلالهم بهذا على الحوادث المستقبلة الغيبية، يعني يزعمون أن ظهور هذه النجوم والكواكب، أو خفائها، أو اقترانها، أو افتراقها، أو سيرها في الأفلاك، أن هذا به تُعرف أمور الغيب، فإذا ظهر النجم الفلاني فإن هذا يدل على أن ملكًا سيموت، أو عظيمًا سيولد، أو أنه ستقوم حرب، أو ستحصل هزيمة، أو ما شاكل ذلك

✸ حكمه: **فإنه على الصحيح إشراكٌ مع الله ﷻ في علم الغيب**، فالله جل وعلا عنده علم الغيب، **﴿قُلْ لاَّ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأرضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾**.

وفي صحيح البخاري من حديث بن عمر –رضي الله عنهما– أن النبي ﷺ قال: **«مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله»**، لا يعلم أحدٌ ما في غدٍ إلا الله، إلى أخر الحديث.

وقد جمعهما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في المجلد الخامس والثلاثين من مجموع الفتاوى، عرَّف علم النجوم بما يجمع هذين النوعين، قال: علم النجوم هو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأفلاك السماوية، وتمزيج الأفلاك السماوية بالحوادث الأرضية، قال هذا أو كلمة قريبة منها،

- **ثمة قسمٌ ثالث**: **يرجع إلى التأثير العلمي، لكنه ليس شركًا أكبر، إنما هو شركٌ أصغر**، وهو ما يزعمه أرباب هذا الدجل من أن الأمور التي وقعت كان وقوعها **بسبب** تأثيرٍ من هذه الكواكب، وهذه البروج، وهذه النجوم، على أن الله ﷻ هو الفاعل حقيقةً لكن هذه أسباب، وما يذكرونه في هذا الباب **إنما هو وهميات**، ما جعل الله ﷻ هذه الكواكب أسبابًا لحصول هذه الأمور، كما يزعمون مثلاً أن الذي يولد في البرج الفلاني تكون حالته كذا وكذا، فهؤلاء جعلوا سببًا لأمرٍ لم يجعله الله ﷻ سببًا، **لا من جهة الشرع ولا من جهة القدر**، فكان هذا شركًا أصغر كما مر معنا غير مرة.

 **علماء الإسلام لا ينفون** أن يكون شيءٌ من هذه النجوم، والشمس، والقمر، وما إلى ذلك، أن يكون **لها سببٌ** ما على شيءٍ مما يكون على وجه الأرض، هذا قدرٌ ما ينكره أهل العلم

قاعدة: الشريعة لا يمكن أن تنكر أمرًا واقعًا.

فالشمس مثلاً سببٌ لكثيرٍ من الأمور التي تقع على وجه الأرض من جهة ما يتعلق بإنضاج الثمار، من جهة ما يتعلق بحصول انتفاع بهذا الضوء، أو الحرارة للكائنات الحية، أو ما شاكل ذلك، أو من جهة مثلاً أن يكون هناك سببٌ من القمر في حصول المد والجزر، وقد يكون سببًا شرعيًا، كما أخبر النبي ﷺ عن الشمس والقمر: «**إنهما لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن الله ﷻ يخوف بهما عباده**»، فهما إذًا سبب لحصول التخويف، سببٌ لحصول الخوف من العباد.

فهذا القدر لا شك أنه ليس داخلاً فيما نتحدث فيه، نحن نتحدث عن جعل هذه الأجرام السماوية سببًا لشيءٍ، والحقيقة أنه ليس سببًا، إنما هو شيءٌ يتوهمه هؤلاء في عقولهم، أما ما جعله الله ﷻ سببًا فنحن لا ننكر ذلك، ولا يعد اعتباره سببًا قادحًا في التوحيد

فأهل السنة والجماعة في نظرتهم إلى الأسباب يعتقدون أنه لا يوجد سببٌ يستقل بالأمور

بل لابد من اجتماع أسباب، ولابد من زوال المانع، وكل ذلك يكون بتقديرٍ من الله سبحانه وتعالى.

 النتيجة: **علم النجوم الذي هو علم التأثير لا شك أنه مذمومٌ بإجماع أهل العلم،**

فالله جل وعلا ما جعل هذه الكواكب أسبابًا مؤثرة في تدبير هذا الكون، ومن شواهد هذا قول النبي ﷺ: قال الله جل وعلا على أثر مطر نزل، قال الله ﷻ: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**»، وسيأتي الحديث عن هذا قريبًا في الباب القادم إن شاء الله.

وكذلك ما يكون في الأرض من أمور الغيب، لا شك أن هذا دجل،فبينَّ النبي ﷺ بطلان هذا الوهم، وقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته**»، فدل هذا على أن ما يزعمون من هذا التأثير العلمي أن هذا باطلٌ لا شك في بطلانه.

قال البخاريُّ في صحيحهِ: قال قتادةُ: (خلق اللهُ هذهِ النُّجُومَ لِثَلاثٍ: زينةً للسماءِ، ورجومًا للشياطينِ، وعلاماتٍ يُهْتَدَى بها، فمَنْ تأوَّلَ فيها غيرَ ذلكَ أخطأَ، وأَضَاعَ نَصيبَهُ، وتَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لهُ به) انتهى.

هذه كلمةٌ حسنة من قتادة بن دعامة السدوسي التابعي الجليل الثقة الثبت رحمه الله.

فالنجوم من الحكم التي ظهر لنا في شأنها هذه الأمور الثلاثة

أولاً: أنها زينةٌ للسماء،

وثانيًا: أنها رجومٌ للشياطين، والمقصود بهذا كما سبق أن درسنا هذا الأمر، أنه ينفصل عن النجوم الشهب التي يرمى بها سراق أو مسترقوا السمع من الجن، وقد جمع الله ﷻ هاتين الحكمتين في قوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[الملك: 5].

والحكمة الثالثة: فبينها الله ﷻ في قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16]،

فهذا الذي يجب أن يعتقده الإنسان في هذه النجوم، فمن جاوز ذلك إلى ما وراءه ما يتعلق بعلم النجوم من جهة التأثير كما فصلناه،فلاشك أنه قد أخطأ، وضل السبيل، وتكلف شيئًا لم يحط به علمًا بل أضاع نصيبه؛ لأنه أضاع عمره في شيءٍ لا ينفع، بل في شيءٍ قد يضره في دينه.

ليس هناك أي ثمرة من وراء هذا العلم بقية العلوم فيها فائدة، إذا تعلم الإنسان علم الطب كان هذا سببًا في حصول الشفاء، إذا تعلم علم الحساب مثلاً فإنه يستطيع أن يقسم التركات ويستفيد من هذا في أمور حياته، لكن إذا علم أنه سيكون كذا وكذا فما الثمرة؟ أيستطيع أن يقلب الموت إلى حياة مديدة؟ أيستطيع أن يقلب الهزيمة إلى نصر؟ الجواب: لا، إنما هو صار ومحكومٌ بقدر الله جل وعلا.

(وكَرِهَ قتادةُ تَعَلُّمَ منازلِ القَمَرِ، ولم يُرَخِّصِ ابنُ عُيَينَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حربٌ عنهما، ورَخَصَ في تَعَلُّمِ المنازلِ أحمدُ وإسحاقُ).

هذه المسألة راجعة ألي القسم الثاني، كل ما سبق كان يتعلق بالقسم الأول وهو علم التأثير،

هذا الذي ذكره رحمه الله من تعلم منازل القمر وأنه رخص فيه أحمد وإسحاق، وكذلك هذا منصوص مجاهد وإبراهيم النخعي، وغيرهم، **بل هذا قول جمهور أهل العلم**، أنه لا حرج في تعلم ذلك،وقد يكون هذا مشروعًا من جهة الاستحباب، وقد يكون هذا واجبًا في بعض الأحوال

علم التسيير: **هو معرفة حركات النجوم والكواكب ومواقعها للانتفاع بذلك**، إما بمعرفة مكانٍ أو معرفة زمان، يعني فائدة علم التسيير الذي هو أحد شقي علم النجوم،

✹ حكمه: وهذا ليس مذمومًا بل هو مباح، وقد يكون مشروعًا، فائدته ترجع إما إلى معرفة زمان وإما إلى معرفة مكان.

أما معرفة الزمان: فإن أهل الشأن والمعرفة بهذا الأمر يستدلون بظهور القمر في منزلٍ معين على أن الفصل الفلاني، فصل الشتاء، أو فصل الخريف قد دخل، يستدلون بحركة الشمس وأنها إذا كانت في البرج الفلاني فإن الفصل الفلاني قد دخل، وبالتالي فإنهم يبنون على هذا مصالح ترجع إليهم، كأن هذا الوقت هو الذي يزرع في النبات الفلاني، ويحصد فيه النبات الفلاني، ولا يزرع فيه النبات الفلاني؛ لأن المطر سينزل فيفسد، أو أن المطر لن ينزل، كما جرت عادة الله ﷻ في كونه.

وقد يكون هذا استدلالاً على مكان: كأن يستدل بالنجوم على الاتجاهات، فإذا عرف الإنسان مثلاً أن النجم المسمى بالقطب أنه يكون في جهة الشمال، فإنه إذا وضعه أمامه فإنه سيتجه إلى جهة الشمال، والناس في السابق لاسيما العرب كانوا لهم عناية فائقة بهذا العلم، وهذا أمرٌ شائع في جميع الأمم، لكن العرب كانت حاجتهم إلى ذلك عظيمة؛ لأنهم يعيشون في صحاري، يحتاجون فيها إلى الاستدلال على الاتجاهات وإلا تاهوا، فكان لهم عناية بهذا العلم، **وهو علم التسيير**، كذلك حينما يُبحر الإنسان فإنه في السابق لا يجد وسيلة يهتدي بها في ظلمات البحر إلا من خلال معرفته بهذه النجوم، فيعرف الاتجاهات.

وأما الذين ذموا ذلك، ونقل هذا أعني عدم الترخيص في تعلم منازل القمر– عن قتادة وعن سفيان بن عيينة، وهذا فيما يظهر والله أعلم يمكن أن يُخرج على **أحد وجهين**:

الأول: أنهم أرادوا ما يرجع إلى علم التأثير لا إلى علم التسيير،

والثاني: أنهم أرادوا الانشغال بذلك عما هو أولى منه.

وربما يكون هذا الأمر مشروعًا إما استحبابًا أو وجوبًا، بمعنلو قدر أن إنسانًا لن يستطيع أن يعرف القبلة إلا من خلال استدلاله عليها بالأجرام السماوية، فأصبح علمه **بذلك واجبًا** كذلك مثلاً فيما يتعلق بمعرفة الزوال، فإن هذا لابد منه، فإذا قدر أنه لا يعرف دخول وقت الظهر إلا بمعرفة الزوال وإن كان هذا في هذه الأزمنة المتأخرة أصبح قليل الفائدة مع وجود هذه الأجهزة الحديثة.

ذكر هنا أن قتادة وابن عيينة لم يرخصا في تعلم منازل القمر، وأن أحمد وإسحاق بل الجمهور أجازوا ذلك،

منازل القمر: هي المواقع التي ينزلها القمر كل ليلة، وذلك أن القمر عند أهل علم التسيير له ثمانيةٌ وعشرون منزلاً تظهر للناظر من فوق سطح الأرض، إذا نظر إلى القمر فإنه تظهر له هذه المنازل، كل ليلة ينزل منزلاً منها، هذه التي تسمى منازل القمر، وفي الليلتين الأخيرتين التي هي التاسعة والعشرين والثلاثين لا يظهر فيها الضوء غالبًا؛ لأن ما تراه إنما هو المساحة المنيرة من ظهر القمر، والتي تكون إذا انعكس عليها ضياء الشمس.

وذلك أن القمر يدور ويسير حول الأرض خلال الشهر،إذا قدرنا أن الدائرة، وهو يسير في دائرة أشبه بالبيضاوية، وليس بدائرة محكمة، إنما هو أشبه بالدائرة البيضاوية كما يقول أهل الفلك، الدائرة ٣٦٠ درجة، فإذا قسمناها على ٣٠ فإنه يصبح اثنا عشر درجة، كل يومٍ يمشي القمر هذا المقدار المحدد، هذا المقدار المحدد يسامت من السماء نجمًا أو مجموعة نجوم، يسامت من السماء كأنه أصبح نازلاً عند هذه النجوم، ولاشك أنها فوقه بكثير، لكن الناظر إليها يرى أنه أصبح في مسامته هذه النجم كأنه نزل عندها، وفي اليوم التالي ينتقل فيصبح مسامتًا إلى مجموعة من النجوم أخرى، هذه هي التي تسمى منازل القمر.

والعرب سموا هذه المنازل: الهنعة، والهقعة، وسعد السعود، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد الأخبية، والدبران، والثريا، إلى أخر ما ذكروا من الثمانية والعشرين منزلاً، هذه هي المقصودة بمنازل القمر، فكل ليلةٍ للقمر منزلٌ ينزله، يعني موقعٌ من السماء أثناء سيره يكون فيه مسامتًا لمجموعة من النجوم التي تسمى النجوم الثوابت، وهذه يتصورون أشكالاً لها، يرسمونها على شكل أشكال، يعني يربطون بينها بخطوط وهمية في عقولهم، فيصبح شكلها على شكلٍ معين. كذلك الشأن فيما ذكرناه غير مرة في البروج،

البروج: هي المواقع التي تنزلها الشمس خلال السنة، الشأن فيها كمنازل القمر

لكن في حق الشمس تسمى عند أهل الفلك تسمى **(بروجًا)**،

وفي حق القمر تسمى **(منازل)**.

وهذه هي البروج الاثني عشر، وكل ثلاثة بروجٌ منها تمثل فصلاً من الفصول الأربعة،

وهذا في الحقيقة الباب من أخذ منه طرفًا فإنه يزيده إيمانًا ويقينًا بالله العظيم، وبصفاته جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[يونس: 5]، هذا كله من الحق الذي خلق الله السماوات وما فيها، والأرض وما فيها من أجله ﷻ وكذلك في سورة يس ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[يس: 39].

العرجون: هو العذق، عذق النخل الذي يحمل الشماريخ، الشماريخ يكون عليها الرطب، سبحان الله إذا قدم وكبر -يعني تقدم به الوقت- فإنه ينحني، والهلال إذا وصل إلى الليلة المؤخرة، أو أخر ظهور له قبل أن يولد من جديد، فإنه يشبه **العرجون القديم**.

ولاحظ هذه الدقة في هذه الكلمة، العرجون ينحني باتجاه النخلة، كذلك الهلال سبحان الله العظيم طرفاه المنيران يتجهان جهة الأرض، بعكس الهلال الوليد فإن طرفاه تكون على غير اتجاه الأرض، وهذا أدق ما يكون في الجملة حينما قال: ﴿حَتَّى عَادَ﴾ رجع ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

المقصود أن إحاطة الإنسان بشيءٍ من هذا العلم أنه أمرٌ حسن، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في شرح العمدة عن الإمام أحمد رحمه الله، أنه أجاز تعلم منازل القمر، بل أخبر عن نفسه أنه تعلم ذلك من أهل مكة، وكان الإمام الشافعي رحمه الله له عناية بمثل هذا الأمر.

وعَن أبِي موسَى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يدخلونَ الجنةَ: مُدمِنُ الخَمْرِ، وقاطِعُ الرَّحِمِ، ومُصَدِّقٌ بالسحرِ»، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

هذا الحديث فيه بحثٌ من جهة ثبوته: ففيه رجل اسمه أبو حريز، عبد الله بن الحسين، وهذا فيه كلام، قال فيه الذهبي في الميزان:(فيه شيءٌ)، قال الحافظ رحمه الله:(صدوقٌ يخطأ)، والحديث له شاهد عند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولكن فيه أيضًا علة وهي أنه من طريق العوفي، وعلى كل حال هذا الحديث حسنه جماعةٌ من أهل العلم، والشيخ الألباني رحمه الله أورده في صحيح الترغيب.المقصود أن النبي ﷺ أخبر إن صح الحديث أنه لا يدخل الجنة هؤلاء الثلاثة:

مدمنُ خمرٍ، **مدمنٌ**: أي مستمرٌ ولا ينفك عن شرب الخمر أبدًا، هذا هو المدمن، مستمرٌ على شربها حتى وفاته، لم يتب إلى الله ﷻ منها،

قاطعٌ لرحمه، يعني قرابته،

مصدقٌ بالسحر، **هذا هو الشاهد من هذا الحديث، ولأجله أورد هذا الحديث في الباب.**

وجه ذلك أن التنجيم شعبةٌ من شعب السحر.

مر بنا من قول النبي ﷺ:**«من اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد»**،

فهذا الذي أراده المؤلف رحمه الله،**فلاشك أن علم التنجيم إن صحت تسميته علمًا،**

أن هذا داخلٌ في السحر من الوجه الذي ذكرناه سابقًا من جهة أن السحر ما خفي ولطف ودق سببه، وفيه تأثيرٌ خفيٌ على النفوس، وهذا شأن أيضًا في التنجيم،

وهو من جهة أخرى داخلٌ في حكم الكهانة، والكهانة والسحر حكمهما متقاربٌ إلى حد كبير،

لكن قول النبي ﷺ هنا إن صح مصدقٌ بالسحر، لابد من التفصيل فيه،

من صدق أن للسحر تأثيرًا بإذن الله ﷻ فلا شك أنه ليس داخلاً في هذا الحديث من ربنا، أن للسحر تأثيرٌ بإذن الله الكوني، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾

إذًا ما المقصود بهذا الحديث؟ الذي يظهر والله تعالى أعلم أنه يراد به **أحد أمرين:**

➢ **الأول**: أن يكون المراد بالسحر هاهنا هو **التنجيم**، فيكون قد توعد بعدم دخول الجنة من صدق المنجم في ادعائه علم الغيب، أو أن لهذه الأجرام السماوية تدبيرًا لهذا الكون.

➢ **والوجه الثاني**:إن السحر هو السحر بحقيقته العرفية التي تعلمناها، والتي فيها معاونة من الشياطين، فمن صدق بهذا السحر تصديقًا يؤدي إلى إشراكٍ مع الله ﷻ، كأن يعتقد هذا المصدق والمتعاطي للسحر والمؤمن به أن الشيطان له مشاركةٌ مع الله ﷻ في ربوبيته، أو في أسمائه وصفاته، أو أن لهذا الساحر مشاركةٌ مع الله ﷻ فيما يختص به من الربوبية والصفات، فلا شك أنه داخلٌ في هذا الذم، إذًا لابد من التفصيل في هذا الجزء من الحديث، وهو قوله: «**ومصدقٌ بالسحر**».

لكن لنا وقفة هنا مع هذا الحديث وأمثاله:

أولاً: مربنا سابقًا **قاعدة وهي دخول أمور عدة تحت وعيدٍ واحد لا يدل على استواءها في الحكم،** مر بنا قول النبي ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، ذكر الشرك، وذكر قذف المحصنات، بين هذا وهذا قدرٌ مشترك، وهو أن هذا موبق وهذا موبق مع قدر مميز فارق بين هذا وهذا، فهذا شركٌ وهذا معصية،

كذلك الشأن هنا إن قلنا: بصحة هذا الحديث فلا شك أن إدمان الخمر، وقطيعة الرحم **من المعاصي،** أما تصديق السحر على القدر الذي وصفته لك قبل قليل فلا شك أن **هذا شرك،** لكن اجتمع الكل تحت حدٍ معين وهو قوله: «**لا يدخل الجنة**»، هذا وعيد وهو: «**لا يدخل الجنة**».

ثانيا: ما معنى هذا الحديث؟ تكرر هذا اللفظ في أحاديث عدة عن النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة قاطع**»، «**لا يدخل الجنة قتات**»، عندنا هذا الحديث الذي بين أيدينا، فما المراد بعدم الدخول؟ هذا الحديث وأمثاله من أحاديث الوعيد لابد من أن يعلم الإنسان في **شأنها أمرين:**

الأمر الأول: ما معنى الدليل؟ وما معنى الوعيد الذي جاء فيه؟

الأمر الثاني: ضم هذا الحديث إلى غيره من الأحاديث والنصوص بحيث يُفهم فهمًا واحدًا معها،

أولاً: لابد أن تعرف ما مراد النبي ﷺ بوعيده، عندنا هذا الحديث: «**لا يدخل الجنة**»، لا يدخل الجنة وعيدٌ توجه به النبي ﷺ في هذا الحديث إلى قدرٍ هو معصية، وإلى قدرٍ هو شرك، ولا يمكن أن يستويا هذا وهذا، الذي ذهب إليه بعض أهل العلم أن هذا الحديث محمولٌ على **شأن المستحل،** الذي يستحل إدمان الخمر، الذي يستحل قطيعة الرحم، فلا يدخل الجنة دخولاً مطلقًا.

ولا شك أن هذا التوجيه توجيهٌ ضعيف، وقد أنكره الإمام أحمد وغيره من أهل العلم، وذلك أن الاستحلال من حيث هو كفر، فأصبح قوله: «**مدمنٌ خمرٍ**» لغوًا لا أثر له في الحكم، بمعنى لو استحل الخمر ولم يشرب منها قطرةً ما حكمه؟ حكمه أنه كافر، ولا يلزم كل من كان مدمنًا للخمر أن يكون مستحلاً، كذلك من استحل قطيعة الرحم ولم يقطع رحمه، فإنه يكفر بذلك، على كل حال هذا التوجيه ليس بوجيه.

أما التوجيه الصحيح فالقول: بأن المنفي في هذا الحديث في حق القاطع، وفي حق مدمن الخمر، وفي حق القتات وما إلى ذلك، المراد بذلك **نفي الدخول المطلق لا نفي مطلق الدخول**.

الفرق بين الدخول المطلق و مطلق الدخول:

الدخول المطلق: الدخول الكامل، يعني من أول وهلة دون أن يسبق هذا بعذاب،

أما مطلق الدخول:يعني عدم الدخول أبدًا، لا يدخل أبدًا، ولا يلج هذه الجنة أبدًا،هذا **حق الكافر**

وأما العاصي: فإنه متوعدٌ بعدم الدخول مع أول الداخلين، و إذًا هذا وعيدٌ بدخول النار؛ لأنه إذا لم يدخل الجنة سيكون في النار، **إذا المنفي هنا الدخول المطلق** لا مطلق الدخول،

ومعتقد أهل السنة أن العصاة دخولهم النار **دخولٌ مؤقت** لا دخولٌ مؤبد، يدخلون النار دخولاً إلى مدة يشاءها الله، ثم يخرجون منها.

وفي قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف: 40]، ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، **المنفي مطلق الدخول**، يعني لا يدخلونها أبدا، فإن الله ﷻ حرم الجنة إلا على نفسٍ مؤمنة، حرمها على هؤلاء الكفار.

الأمر الثاني: ضم هذا الحديث إلى غيره، فتفهم النصوص كنصٍ واحد، بمعنى فهمنا الآن أن المراد من هذا الحديث أنه متوعدٌ بدخول النار دخولاً مؤقتًا، وعدم دخول الجنة الدخول المطلق،

لكن هل واجبٌ أن يكون هذا في حق كل واحدٍ يقع في هذا الأمر؟

الجواب: أننا حتى نحكم على هذا الأمر لابد أن نجمع بين الأدلة، ونؤلف بينها، فلما نظرنا في الكتاب والسنة وجدنا أن هذه النصوص نصوص الوعيد في حق العصاة مطلقاتٍ لها أدلةٌ مقيدة، فنفهم هذا الحديث على أنه حديثٌ مطلق وله تقيدٌ في الشرع،

ما هو هذا التقيد؟ التقيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: 48]، فأصبح هذا الوعيد يمكن أن تجعل بجواره قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: 48]؛ لأن هذا حق وهذا حق، والحق لا يمكن أن يتناقض.

إذًا لا يدخل الجنة إلا أن يشاء الله ﷻ، من أين فهمنا لا يدخل الجنة؟ من الحديث،

ومن أين أتينا بـ (إلا أن يشاء الله)؟ من قوله: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾

طيب لو لم يشأ الله العفو عن هذا العاصي، وأراد تعذيبه، فما المراد بهذا الوعيد؟ هل سيخلد في النار خلودًا مؤبدًا؟ الجواب: أن النفي هنا نفيٌ للدخول المطلق لا لنفي مطلق الدخول، وهذا معروفٌ في مجاري كلام العرب، فإنهم قد ينفون الشيء لانتفاء شيءٍ مهمٍ فيه، انتبه إلى هذا، العرب قد ينفون الشيء لانتفاء شيءٍ مهمٍ فيه.

مثلاً في شأن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم ختمها بقتل ذاك العابد فأصبحوا مائة، لما نزلت ملائكة العذاب ماذا قالت حينما اختصمت مع ملائكة الرحمة؟ قالت: ما عمل خيرًا قط، والسؤال هل الملائكة تكذب؟ لا، لا يمكن أن تخبر بخلاف الواقع، لا يمكن أن تكذب، والواقع أن هذا الرجل عمل عملاً صالحًا، أليست الهجرة إلى البلاد التي فيها الصالحون عملاً صالحًا؟ الجواب: نعم، إذًا كيف يوجه هذا النفي، ما عمل خيرًا قط؟ يحمل على الغالب؛ لأنه قد انتفى شيءٌ مهم من الواجبات ما فعله، فصح النفي على هذه الصيغة، ما عمل خيرًا قط، والواقع أنه عمل بعض الخير، أراد الخير، أراد التوبة، وسعى إليها.

فدل هذا على أن هذا أسلوبٌ مستعملٌ عند العرب، وتنزيل كلام ربنا جل وعلا ورسوله ﷺ في محله هو الفقه يا أيها الإخوة، ولأجل الإخلال بهذا ضل من ضل من الفرق، وهدى الله ﷻ أهل السنة إلى الحق المحض، لما أخذت الخوارج والوعيدية طرفًا من النصوص واعرضوا عن طرف ضلوا، وهكذا لما أخذت المرجئة طرفًا وضلت عن طرف ضلت، لكن أهل السنة والجماعة ولله الحمد والمنة هداهم الله ﷻ للجمع، والتأليف بين النصوص، فأمنوا بها جميعًا وقالوا بها كلها، بذلك حاذوا السعادة والتوفيق وإصابة الحق ولله الحمد.

الدرس الرابع و الأربعون – ٧٩٧ ٣٠–بابُ ما جَاء في الِاسْتِسْقَاء بِالأَنْواءِ

هذا الباب الخاتمِ للأبواب المتتالية المتقاربة في موضوعها،و ما يتعلق بالسحر والكهانةِ وما يُشبهُ ذلكَ.

الِاسْتِسْقَاء بِالأَنْواءِ: **الاستسقاء**: المراد به هنا نسبة السُقية، يعني نسبة إنزال المطر إلى الأنواء،
والأنواءُ: جمع نوء مصدرٌ للفعلِ (ناء ينوء).
من ذلك قول الله جل وعلا: أعني بهذا الفعل: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾[القصص:76].
ومن ذلك ما جاء في الصحيح من قصةِ وفاة النبي ﷺ: «**كُلما أراد أن ينوء**» يعني أن ينهض.
فناء: ينهضُ ويقوم، ناء، فينوء: أي ينهض ويقوم.
وقيل: إن هذه كلمة من الأضداد فتقال على جهةِ النهوض وتُقال على عكسها.
والمرادُ بالأنواء: هو سقوطُ النجمِ وغروبهُ.

وتوضيح ذلك: أن النجوم التي تكون في السماء إذا غاب نجمٌ منها وغيابه يكون في الفجر، إذا غاب من جهة المغربِ؛ فإنه يظهرُ في تلك الساعة نجمٌ آخر عند الفجر من جهة المشرق يسمى رقيبَهُ، كأنه يراقبه، حتى إذا غرب فإنه يظهر ويشرق ويصعد، فكانت العرب تَنسِبُ نزول المطر إلى هذا الأمر وهو غروب النجم من جهة المغرب وظهور النجم الآخر الذي هو رقيبه من جهة المشرق، يقولون إن هذا يُنسَبُ إليه إنزال المطر، وهذا الأمر يتكرر كل ثلاثة عشرَ يوما.
منازل القمر التي تكلمنا عنها تنزلها الشمس أيضا، ولكن الشمس تمكث في المنزلة الواحدة ثلاثة عشر يوما تقريبا وفي كل ثلاثة عشر يوما فإنه يغيبُ نجمٌ ويظهر آخر، فمثلا يقولون إذا غرب النَثرة أو النُثرة ظهر رقيبه وهو سعد الذابح، يعرفون هذا من خلال المطالعة ومن خلال المشاهدة.

فهذا الذي أراد المؤلف رحمه الله عقد هذا الباب لبيان ذمه وفساده.
قال: باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء: يعني من الذم والنهي عن هذا الأمر.

۞ **وقول الله تعالى**: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:82]. هذه الآية سيأتي ذكرها ضمن حديث قادم وهذا شيء نادر في كتاب التوحيد، أن يكرر المؤلف دليلا في الباب نفسه.

﴿ وعنْ أَبِي مَالكِ الأشعريِّ ﷺ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال: «أربعٌ في أُمتي مِن أَمرِ الجاهليةِ لا يَترُكُونَهنَّ: الفخرُ بالأَحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنِّيَاحَةُ»، وقال: «النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قبلَ موْتِهَا تُقَامَ يومَ القيامةِ وعليهَا سِرْبَالٌ مِن قَطِرانٍ ودِرْعٌ مِن جَرَبٍ»، رواه مسلم.

في الصحابة ثلاثة يكنون بهذه الكنية، وهذا أحدهم وهو الحارث بنُ الحارث الأشعري، وعلامته أنه تفرد بالرواية عنه أبو سلامَ الحبشي.

أمتي: والمراد أمة الإجابة بكل تأكيد، هذه الخصال وصفها النبي ﷺ بأنها من أمر الجاهلية.

والجاهلية أمران أو نوعان: جاهلية مطلقة وجاهلية نسبية.

- **أما الجاهلية المطلقة**: فإنها الحال التي كان عليها الناس قبل بعثة النبي ﷺ. وانتهت ببعثته وسميت تلك الفترة بالجاهلية، لأن السائد في ذلك الوقت في الناس هو الجهلُ وأعظم الجهل الذي كانوا فيه جهلهم بالله ﷻ وبحقوقه على عباده.

- **أما الجاهلية النسبية**: فإنها تكون بعد بعثة النبي ﷺ في مكان دون مكان وزمان دون زمان وأشخاص دون أشخاص، **والمراد بذلك** بقاء شيء من خلال الجاهلية وخصالها فإذا كانت الجاهلية المطلقة قد انتهت فإنه قد بقت بقية من أخلاقها وخلالها وخصالها.

أخبر النبي ﷺ أن هذه الخصال باقية في الأمة، والمراد أنها باقية في مجموعها لا في جميعها، ليس المراد أن هذه الخصال واقعة من كل فرد فرد من هذه الأمة بحيث يكون ذلك واقعا من جميعها، المراد أن هذه الخصال واقعة في مجموع الأمة يعني موجودة في الأمة في الجملة.

ولاشك أن هذا الوصف وصف ذم وعيب، كل ما كان منسوبا وموصوفا بالجاهلية فلاشك أنه مذموم ومعيب، ومن ذلك قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾[الأحزاب:33].

الخصلة الأولى: الفخر بالأحساب:

والأحساب: جمع حسب، **والحسب** هو الشرف الثابت للآباء، والمراد أن يتشرف الإنسان ويفخر على غيره بتعداد ما كان عليه آبائه وأجداده من المفاخر والشرف والسؤدد،

ولا شك أن هذا أمر مذموم، وهذا أمر قد نهت عنه الشريعة؛ قال النبي ﷺ **«إن الله قد أذهب عنكم عِيبية الجاهلية وفخرها بالأحساب، مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس لآدم وآدم من تراب، لينتهين أقوامٌ عن فخرهم بالأنساب أو ليكونُن أهون على الله من الجعلان»**.

الجعلان: جمع جُعَل وهو حشرة قذرة تشبه الخُنفساء.

هؤلاء الذين يفخرون على الناس بأحسابهم وأنسابهم، ويغفلون عن أن الناس مشتركون في أصلهم، كلهم من آدم وآدم من تراب:

ليكونُن أهون على الله :يعني يكونن بهذه منزلة وهذا القدر الحضيض النازل السافل الذي هو يكونون فيه مشبهين بهؤلاء الجعلان.

كذلك قال ﷺ **«إن الله قد أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحد»**. هكذا حال المسلم أن يكون متواضعا لينا هينا بل أن يكون ذليلا لإخوانه المسلمين. كما قال جل وعلا: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[المائدة:54]. لا أن يكون شامخا بأنفه متعاليا بنسبه وحسبه وأصله وفصله، فإن هذا من سخف العقل، ناهيك عما فيه من ضعف الإيمان.

الخصلة الثانية: **فهو الطعن في الأنساب**: والطعن في الأنساب **فُسِرَ بأمرين**:

الأول: أنه القدح فيها من جهة ثبوتها، يعني أن يشكك في أنساب الناس بأن يقال أن فلان ليس بصحيح أنه ينتسب للقبيلة الفلانية، أو أن الأسرة الفلانية ليس بصحيح أو في نسبتها إلى القبيلة شك فهذا طعن في أنساب الناس.

ثانيا:**هو القدح والعيبُ والذمُ لأنساب الناس وقبائلهم وأسرهم وعوائلهم** بأن يُقال آل فلان فيهم كذا وكذا، والقبيلة الفلانية معيبةٌ بكذا وكذا من الصفات الذميمة.

كل ذلك داخل في الطعن في الأنساب، ولا شك أن هذا الأمر فيه ما فيه من البغي، وفيه ما فيه من الغيبة، وفيه ما فيه من إثارة الأحقاد، والواجب أن يكون المسلمون متعاونين متحابين متآلفين.

الخصلة الثالث: **وهو الاستسقاء بالنجوم**، والمراد بذلك لك نسبة نزول المطر إلى الأنواء.

ونسبة نزول المطر إلى الأنواء– له حالتان:

الحالة الأولى: يكون الحكم فيها **الكفر الأكبر**، وذلك إذا نسب نزول المطر إلى الأنواء على جهة الإيجاب والفعل، يعتقد أن الذي أنزل هذا المطر إنما هو هذا النوء أو هذا النجم. لا، ربنا ﷻ.

وهذا ما وقع فيه طوائف من المشركين وقلنا إن الصابئة كانت تعتقدُ أن الكواكب والنجوم مدبرة لهذا العالم وأن ما يكون منها إنما هو انفعال لفعل هذه الكواكب **لا شك أن هذا شرك أكبر في الربوبية.**

الحالة الثانية: أن ينسب نزول المطر– إلى الأنواء لا على أنها **الموجدة** ولا على أنها **الخالقة** ولا على أنها الفاعلة، إنما يكون ذلك على جهة السببية.

وهذا هو الذي كان عليه أهل الجاهلية الذين بقت هذه الخصلة من خصالهم في هذه الأمة، وذلك لأن الغالب على المشركين مشركي العرب قريش وغيرها كانوا يعتقدون أن الله ﷻ هو المنزل للمطر: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[العنكبوت:63].

فدل هذا على أن هذه الخصلة التي تبقى هي هذه النسبة التي فيها ما فيها من **الشرك الخفي** وهو نسبة النعم إلى غير الله ﷻ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله

الخصلة الرابع: فهو النياحة،

والنياحة: رفع الصوت بندب الميت، والغالب أن يتبع ذلك قول ما لا يحل وفعل ما لا يحل، وتوعد النبي ﷺ النائحة التي تنوح بهذا الوعيد، وإن كانت النياحة مذمومة ومنهي عنها في حق المرأة وفي حق الرجل، لكن لما كانت النياحة في الغالب إنما تكون من النساء أخبر النبي ﷺ في الحديث بهذا اللفظ قال:

«النائحة التي ماتت قبل أن تتوب».

وهذا الحديث فيه أن الكبائر تكفر بالتوبة وهذا موضع أجماع من أهل العلم، أن من وقع في كبيرة فتاب إلى الله ﷻ منها فإن الله يغفر له ذلك، كذلك إذا وقع في صغيرة من باب أولى، بل كذلك إذا وقع في **كفرٍ أكبر** فتاب إلى الله ﷻ منه فإن الله ﷻ يكفر عنه ذلك: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**﴾[الأنفال:38].

أخبر النبي ﷺ بهذا الوعيد الأكيد الذي يدلك على أن النياحة ذنب عظيم وهو أن الله جل وعلا **يجعل سربالا لها القطران.**

القطران مادة تُستخلص من بعض الأشجار ثم تُغلى ثم يطلى ويدهن بها الإبل،

والسربال: هو القميص أو الثوب ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾[النحل:81]،

كذلك هذه المادة مادة شديدة الاشتعال،إذا اشعل فيها النار فإنها تكون شديدة التوهج والعياذ بالله.

وظاهر الحديث والله أعلم أن هذا العذاب التي تُعذب النائحة به هو أنها تُطلى بالقطران حتى يكون كالثوب لها والله ﷻ أعلم كيف يكون الأمر،

كذلك يجعل لها درعٌ من الجرب،

والجرب: مرض يصيب الإنسان بحكة شديدة،

والدرع: نوعٌ من الثياب وهو من قمص النساء، فهذا لا شك أنه وعيد يدل على أن النياحة من الذنوب العظيمة عافاني الله وإياكم من ذلك.

المقصود من هذا الشاهد من الحديث إخبار النبي ﷺ أن هذه الخصلة وهي الاستسقاء بالنجوم خصلة كانت في الجاهلية وبقيت في هذه الأمة وستبقى في هذه الأمة والله المستعان.

ولهما عن زيدِ بنِ خالدِ ﷺ قال: «صلى لنا رسُوُل اللهِ ﷺ صلاةَ الصبح بالحديبيةِ على إثْرِ سَمَاءٍ كانت مِن الليلِ، فلما انْصرفَ أقبَلَ على الناس فَقالَ: هَل تَدْرُونَ ماذا قالَ ربُّكُم؟ قالوا: اللهُ ورسُولُه أعلمُ. قال: أَصبحَ مِن عِبادي مُؤمنٌ بي وكافرٌ، فَأَمَّا مَن قالَ: مُطِرْنا بِفَضْلِ اللهِ ورحمتهِ فذلكَ مؤمنٌ بي ،كافرٌ بالكوكبِ، وأما مَن قال: مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مُؤمنٌ بالكوكبِ».

هذا الحديث حديث زيد بن خالد الجهني المدني الصحابي المشهور ﷺ وحديث جليل وهو أصلٌ في هذا الباب،

أخبر فيه أن النبي ﷺ صلى لهم صلاة الفجر،

المقصود صلى بهم وأتى بقوله لهم، لأن المصلي إذا كان إماما فإنه يصلي لنفسه ويصلي لمن خلفه أيضا.

(على إثر سماء.) والمراد بالسماء: ها هنا **المطر**، وسمي المطر سماء على عادة العرب في تسمية الشيء باسم ما يكون مجاورا له أو سببا له، وذلك لأن المطر ينزل من السماء، يعني من العلو، وكان هذا المطر في الليل، فلما أصبح النبي ﷺ وصلى بهم انصرف فقابلهم بوجهه ﷺ وقال لهم:

«**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» لا شك أنهم لا يعلمون لأنهم لا يوحى إليهم، لكن هذا فيه أسلوب حسن في التعليم، طرح السؤال على المتعلم لأجل تشويقه واستثارة انتباهه، «**قالوا: الله ورسوله أعلم**». وهكذا المسلم، لا ينبغي له أن يتكلف ما لا علم له به، يفوض العلم إلى من يعلمه؛

فأخبر النبي ﷺ بما قاله الله جل وعلا، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**».

هذا الحديث فيه إثبات أن **صفة الكلام لله جل وعلا صفة فعلية اختيارية**، وذلك أن ظاهر الحديث أن الله تكلم بهذا الكلام بعد نزول المطر وحصول كلام العباد الذي به انقسموا إلى مؤمن وكافر، بخلاف قول أهل البدع الذين قالوا إن صفة الكلام صفة ذاتية قائمة بالذات قديمة بقدم الذات، لا شك بأن هذا قول باطل، بل الله يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء جل وعلا.

هذه القطعة من الحديث **حديث قدسي** من كلام الله ﷻ «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»:

(عبادي): وكل الناس عباد الله أصبحوا على إثر هذا المطر قسمين:

- **قسم مؤمن** هو الذي نسب النعمة إلى الله جل وعلا.
- **وقسمٌ كافر** وهو الذي جحد نعمة الله جل وعلا ونسبها إلى غيره.

إذن هذا الحديث فيه من الإيمان نسبة النعم إلى الله ﷻ وشكره عليها. والنعم كلها صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها إنما هي بفضل الله ﷻ على العباد: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:53].

وإن تعدوا نعمة الله، لا نعمة غيره: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم:34].

أما الذين كانوا من الموصوفين بالكفر فهو أنهم نسبوا هذا الفضل ونسبوا هذه النعمة إلى غير الله جل وعلا، نسبوها إلى هذه الأنواء وإلى هذه النجوم والكواكب فاستحقوا أن يوصفوا بوصف الكفر.

والسؤال هنا: هل الكفر في الحديث كفر أكبر أم هو كفر أصغر؟

قال بعض أهل العلم: إنه يشمل الأكبر والأصغر، فمن قال هذا القول على أن النوء هو الذي أنزل المطر فذلك في حقه كفر أكبر، وأما من كان يعتقد أن الله ﷻ هو المنزل للمطر ولكنه في قوله فقط نسب ذلك إلى النوء فهذا كفرٌ أصغر.

وقال بعض أهل العلم بل هذا الحديث إنما تعلق **بالكفر الأصغر** ولا يدخل في هذا الحديث ما إذا كانت النسبة نسبة إيجاد، **وهذا الأقرب والله تعالى أعلم.**

وذلك لأن النبي ﷺ أخبر بهذا القول -أخبر أن هذا سيكون باقيا في الأمة، ولاشك أن أمة محمد ﷺ إنما يقع فيها غالبا ما هو من هذا الجنس، أما كان من الشرك الأكبر والكفر الأكبر فإن هذا إن وقع فإنما يكون شاذا -أعني في نسبة المطر إلى النجوم- وأما الذي يقع كثيرا فهو ما كان من هذا الجنس الذي هو شرك وكفر أصغر، ناهيك عن أن لفظ الحديث **لا يساعد** على أن المراد هو الكفر الأكبر، و**ذلك لأن الحديث مساقه مساق نسبة النعمة لا الإيجاد،**

بدليل أن الأولين قالوا (مطرنا بفضل الله ورحمته).

والآخرون ما قالوا أمطرنا النو، أنزل علينا النوء، لا، إنما قالوا:(مطرنا بنوء كذا وكذا).

فدل هذا على أن المقام مقام نسبة للنعمة وليس مقام ذكر الموجد،

الواجب أن تنسب النعم إلى الله ﷻ بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما نسبتها إلى غير الله ﷻ فإن هذا لا شك أنه من جحود نعمة الله ﷻ، فإذا انضاف إلى هذا أنه ما نسب إليه ليس بسبب أصلا، كان هذا سببا إضافيا لكونه شركا أصغر، لأنه اعتقد سببا ما لم يجعله الله سببا لا شرعا ولا قدرا.

✸ **وهذا الحديث فيه تنبيه على أمر مهم** **وهو قول الإنسان مجرد قول** مطرنا بمطر كذا وكذا مع اعتقاده أن الله ﷻ هو المنزل للمطر بقوته وبمشيئته جل وعلا ومع ذلك جاء وصف هذا القائل بأنه كافر، فكيف يكون الحال بشأن من استغاث بغير الله وصرف لب العبادة لغيره؟

فأين عقول القبوريين؟ أين هم عن هذا الوحي والنور المحمدي الذي جاء به النبي ﷺ من عند ربه، مجرد قول فيه نسبة نعمة إلى غير الله، لم يقم فيها الإنسان بواجب الأدب مع الله ﷻ، كان واجب الأدب يقتضي منه أن ينسب النعمة إلى الله ﷻ، فلم يفعل ونسبها إلى غيره بلفظه فقط فوصفه الله ﷻ بأنه كافر، ونقل هذا النبي ﷺ، فكيف بالذي صرف العبادة لغير الله أصلا؟

﴿ وهما مِن حديثِ ابن عباس مَعْنَاهُ وفيهِ:قال بَعْضُهُم لقد صدقَ نَوءُ كذا وكذا، فأنزلَ اللهُ هذه الآيات:﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم ﴾إلى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:75-82]

هذا الأثر نسبه المؤلف رحمه الله إلى الشيخين **والصحيح أنه ليس في البخاري وإنما في مسلم فقط**، وفيه بيان سبب نزول هذه الآيات من سورة الواقعة، وذلك أن الله ﷻ لما نزل مطر فانقسم الناس، قال بعضهم مطرنا بفضل الله وقال آخرون صدق نوء كذا، قال الله ﷻ: «**أصبح من عبادي شاكر وكافر**»، فنزلت هذه الآيات.

الأولى قول الله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم ﴾

اختلف العلماء اختلافا طويلا في هذه الصلة ﴿لا أُقْسِمُ﴾ وهذا قد تكرر كثيرا في القرآن، والأقرب والله أعلم أن لا ههنا **صفة تفيد التوكيد**، والتوكيد ههنا هو بالتكرار، فإن هذه اللفظة لا تقوم مقام تكرار الكلام، كأنه قال في غير القرآن أقسم بمواقع النجوم .. أقسم بمواقع النجوم، ولا شك أن التكرار يفيد التوكيد؛ لعل هذا أقرب ما يقال في ذلك.

اختلف المفسرون في مواقع النجوم إلى أقوال:

فمنهم من قال: أن مواقع النجوم انتثارها يوم القيامة.

وقيل: إن مواقع النجوم منازلها على ما مضى شرحه وبيانه.

وقيل: إن مواقع النجوم يعني مطالعها ومغاربها عنى الله بذلك مطالعها ومغاربها.

الشاهد أن الله ﷻ أقسم بمواقع النجوم -**وهذا هو التفسير الأقرب**- أن النجوم هي نجوم السماء، وهذا الذي عليه أكثر المفسرين، بل أن القول الصحيح الذي لاشك فيه لدلالة سبب النزول

وقال بعض أهل العلم إن النجوم ههنا: نجوم القرآن، والمراد بنجوم القرآن آجال نزوله، القرآن ما نزل على النبي ﷺ دفعة واحدة، إنما نزل منجما، فرقه الله ﷻ لحكمة بالغة ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾[الإسراء:106]. فأقسم الله ﷻ بنجوم القرآن، يعني آجال نزوله.

المقصود أن القول الأول هو الأقرب، وبالتالي فمواقع النجوم إما أن يقال إنها منازلها وإما أن يقال إنها مطالعها ومغاربها وهذا هو الأقرب، وقيل إن ذلك انتثارها يوم القيامة.

والله ﷻ **له أن يقسم بما يشاء من خلقه**، وإقسامه بشيء من خلقه فيه تفخيم وتعظيم هذا المخلوق،**أما المخلوق فهو ليس له إلا أن يقسم إلا بالله جل وعلا**، وهذا -أعني القسم والحلف بغير الله جل وعلا منكر يجب على المسلم أن يتوب إلى الله منه وأن ينكره من غيره لأنه **من الشرك**، إذا قال: وحياتك أو والكعبة، أو قال والنبي، لا شك أن هذا من المنكر الذي يجب أن يتقي الله المسلم في نفسه وأن يتوب إلى الله ﷻ منه. قال النبي ﷺ: «**من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**»، **قال عليه الصلاة والسلام** «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**».

﴿ **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ اختلف المفسرون في تفسير قول الله جل وعلا ﴿**رِزْقَكُمْ**﴾، **فقيل إن الرزق ههنا** هو القرآن لأنه فضل من الله ونعمة، وهذا إذا فسرنا النجوم أولا بنجوم القرآن.

والقول الثاني: هو أن الرزق هو ما يتفضل الله به ﷻ به، ومن ذلك المطر، وهو ما يشهد له سبب نزول الآية،

﴿**أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ اختلف العلماء في هذا الكلمة هل المراد بالرزق ههنا:الشكر أو أن ها هنا حَذْفا؟

- **قال بعض أهل العلم**: إن ههنا حذفا وهو المضاف: **(وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون)**، وأكثر المفسرين على هذا.
- **وقيل**: الرزق ها هنا لا حاجة لإضمار شيء قبله، إنما هو(تجعلون رزقكم) يعني تجعلون الرزق الذي رزقتموه منسوبا إلى غير الله جل وعلا وهذا المراد بقوله: ﴿**أنكم تكذبون**﴾، فدل هذا على أن نسبة المطر إلى الأنواء نسبة كاذبة وافتراء ليس بصادق، إنما الصدق والحق والإيمان أن تنسب الرزق وتنسب الأمطار إلى الله ﷻ.
- **وقيل**: إن الرزق ها هنا هو الحظ والنصيب، وهذا الذي قاله الحسن رحمه الله: تجعلون حظكم ونصيبكم من نعمة الله ﷻ ورزقه أنكم تكذبون بها وتنسبونها إلى غيره.

والخلاصة: أيها الكرام أن الواجب في شأن الأمطار كما هو الواجب في نعم الله جل وعلا أن تنسب إلى الله سبحانه، وأن يشكر هو وحده عليها.

حكم من قال: مطرنا بنوء كذا، ومراده في نوء كذا بمعنى أنه يريد أن يذكر الظرفية أن يذكر الظرف الذي كان فيه نزول المطر، هل يجوز أن يقول هذا أم لا؟

الباء قد تأتي ظرفية كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ﴾ الصافات **يعني** وفي الليل.

فمن ها هنا قال بعض أهل العلم وهذا نص **الشافعي** رحمه الله في كتابه (الأم): أن القائل لو قال: مطرنا بنوء كذا وأراد في نوء كذا، قال(إن هذا ليس بكفر، وغيره من الكلام أحب إلي). يرى رحمه الله هذا بأنه كفر، لكنه يرى أن استعمال غير ذلك من الألفاظ أولى وأحرى.

والتحقيق في هذه المسألة والله تعالى أعلم أن يقال:
إذا دل اللفظ مع قرائن الأحوال على أن هذه النسبة نسبة ظرفية يعني أن الباء نسبة ظرفية فإن هذا لا شك لا يكون كفرا. ولكن مع ذلك ينبغي أن يوجه القائل إلى ترك استعمال اللفظ الذي فيه لبس

فنقول له إذا قال مطرنا بنوء كذا ماذا تريد؟ قال أريد أننا مطرنا في نوء كذا يعني مطرنا في الوقت الذي ناء فيه هذا النجم أو ظهر فيه هذا النجم، أنا فقط أقول إن هذا هو الوقت الذي مطرنا فيه. فنقول: لا بأس، المعنى الذي أردته صحيح، لكن الأولى بك أن تتكلم بلفظ ليس فيه أدنى التباس، فقل مطرنا في نوء كذا وينتهي الإشكال.

قاعدة:أن يترك اللفظ المحتمل الباطل احتياطا. قال ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**.

الخلاصة التي نريد أن نصل إليها أن نسبة الأمطار إلى الأنواء والكواكب والنجوم **وما إلى ذلك تنقسم إلى ثلاثة أقسام:**

🡸**القسم الأول**: أن تكون النسبة نسبة إيجاد، فهذا لا شك أنه كفر أكبر.

🡸 **ثانيا**: أن تكون النسبة نسبة نعمة إلى غير الله ﷻ، والباء باء السببية، فهذا كفر أصغر وشرك خفي على ما جاء في الأدلة. طبعا إذا ما اعتقد أن الله ﷻ هو الذي أنزل المطر.

🡸**الحال الثالثة**: أن يكون مراده الظرف يعني أن تكون الباء ههنا ظرفية فنقول إن هذا ليس بكفر أكبر ولا أصغر، لكن الأولى استعمال اللفظ الذي لا لبس فيه فقل مطرنا في نوء كذا وكذا.

الدرس الخامس و الأربعون – ٨١٧

٣١ – باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:165].الآية

المؤلف رحمه الله انتقل من هذا الباب إلى الكلام عن أهم العبادات القلبية التي لا يكون التوحيد إلا بها، وبدأ رحمه الله بالكلام عن عبودية المحبة لله سبحانه وتعالى،

والمحبة لا تُعرَف بأكثر من لفظها لأن المعاني الكلية معلومة بالبداهة ولا يزيدها التعريف إلا غموضا، محبة الله عز وجل هي لب العبودية وروح الإيمان وساق شجرة الإسلام و**أعلى مراتب الإحسان**، وهي أساس كل خير وكل نعيم في الدنيا والآخرة، محبة الله جل وعلا حقيقة العبادة، فإن الإله هو المعبود عن محبة وخضوع وتعظيم.

ألِه يألَه أُلوهةً **وإلهية بمعنى**: عبد وذل وخضع محبة وتعظيمًا، فالدين كله راجع إلى هذا الأصل العظيم.

قال خليل الرحمن عليه السلام لما أفل الكوكب: ﴿قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[الأنعام:76]، لم يقل لا أعبد أو لا أخاف أو لا أرجو الآفلين، قال لا أحب الآفلين، **لأن المحبة هي لب العبودية**، ولما أفل الكوكب كان هذا دليلاً على أنه ليس ربًا، وبالتالي لا يكون إلهاً ولا معبودًا، فهو لا يستحق أن يعبد.

وهذا المقام العظيم كان نبينا صلى الله عليه وسلم يسأل الله ربه أن يبلِغه إياه، فكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربني إلى حبك**».

والمحبة في الجملة من حيث هي تنقسم إلى قسمين: محبة مشتركة و محبة خاصة.

۞ **أما المحبة المشتركة فيمكن أن نجعلها في ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: **المحبة الطبيعية**، وهي محبة ما يميل إليه الإنسان بحكم الطبع من مطعم أو مشروب أو زوج أو ما شاكل ذلك، وهذا أمر لا محظور فيه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل، والشراب الحلو البارد، والدُبَاء،ومن الثياب ما كان أبيضَ، وقال صلى الله عليه وسلم «**حُبّب إلى من دنياكم الطيب والنساء**».

القسم الثاني: **محبة الإجلال والإشفاق**، محبة الإجلال كمحبة الولد لوالده ومحبة الإشراف كمحبة الوالد لولده.

القسم الثالث: **محبة الأنس والمناسبة** وذلك كمحبة الإنسان لإلف يألفه وزميل يزامله في دار أو عمل أو سفر أو ما شاكل ذلك.

هذه المحبة المشتركة يَعْتَوُرها الأحكام التكليفية الثلاثة: الاستحباب، والإباحة والتحريم.

المباحة: فإن ذلك مشروط بثلاثة شروط:

أولا: أن تكون هذه المحبة مأذونا بها شرعًا، بمعنى أن يكون هذا المحبوب قد أذن الله وأباح محبته، وبالتالي فإن ما حرم الله ﷻ لا تجوز محبته، كمحبة الخمر ومحبة الخنزير ومحبة الفاحشة وما إلى ذلك.

ثانيا:**ألا تكون** هذه المحبة مشغلة عما يحبه الله ﷻ،يجب أن يكون الله ﷻ وما يحبه هو المقدم وبالتالي فهذه المحبوبات والتي يهواها الإنسان لا يجوز أن تبلغ إلى أن تشغل الإنسان عن محبوب الله ﷻ.

ثالثا: ألا تبلغ هذه المحبة إلى أن تكون **مساوية** لمحبة الله ورسوله ﷺ، فإن الذي يجب كما سيأتي بيانه إن شاء الله أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء من كل ما سواهما.

المحرمة: أما إذا كانت هذه المحبة غير مأذون فيها، أو أشغلت عما يحبه الله، أو بالغ الإنسان فيها حتى وصلت إلى أن تكون في مصافِّ محبة الله ورسوله، فإنها حينئذ تنتقل إلى أن تكون **محبة محرمة**.

المستحبة: أما إذا استعمل الإنسان هذه المحبوبات وطوعها لأجل أن تكون **سببًا لنيل محبة الله** جل وعلا، فأحبها لأنها تُبلغه إلى محبة الله كانت في حقه مستحبة، إذا كان يحب الطعام لأجل أنه سوف يقوى به جسده ليقوى على طاعة الله جل وعلا **كانت هذه المحبة في حقه مستحبة وهكذا**.

أما القسم الثاني فهو المحبة الخاصة:

هذه المحبة هي محبة العبودية، هي المحبة التي تقتضى تمام الذل والخضوع وكمال الطاعة والإيثار على الغير، هذه المحبة اختص الله ﷻ بها ولا يجوز أن تصرف لغيره، ولا يجوز أن يشركه فيها غيره، **وهي التي أراد المؤلف رحمه الله بيانها والكلام عنها حينما عقد هذا الباب**، وهذا هو لب العبودية كما ذكرت لك وأساس الدين، وما أسست عليه هذه الملَة والدين كله

✹ **هذه المحبة ضلَ فيها أناس أخطأوا فيما يتعلق بمحبة الله جل وعلا:**

- **الصنف الأول: ممن أخطأ في هذا الباب أناس نفوها،** فبعض ضلال المتكلمين الذين نفوا أن يحب العبد ربه جل وعلا، وقالوا إنما تكون المحبة للثواب أو النعمة التي يمن الله ﷻ بها أما أن يكون هو سبحانه محبوبًا من عبده فإن هذا لا يصح، وهذا كان منهم لضلالٍ في عقولهم وقسوة في قلوبهم. يا لله العجب كيف نفى هؤلاء أعظم ما جاء به هذا الدين وأعظم لذة يلتذ بها المؤمن،
فإن القلوب لا تطمئن إلا بمحبة الله في الدنيا، ولا تقر أعينها إلا برؤية الله ﷻ في الآخرة.

- **الصنف الثاني: أناس أخرجتهم رعونتهم وعدم انضباطهم بضوابط الشرع،** أخرجته إلى دعاوى تُنافي الأدب مع الله ﷻ، بل تنافي مقام العبودية، فإن من ضلال أهل البدع أنه لأنه يحب الله ﷻ فالله ﷻ يحبه، وبالتالي فإنه تنحل عنه التكاليف، وبالتالي فإنه لا تضره الذنوب لأنه يحب الله وكان حبيبا لله، وهؤلاء فيهم شبهة من أهل الكتاب الذين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه.

- **الصنف الثالث:** قال تعالى﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:165]هذا حال المشركين أجمعين قديمًا وحديثًا، أضحت في قلوبهم في مصاف ربنا جل وعلا من حيث المحبة، بل ربما أحبوهم أعظم من محبة الله،ولذلك فإنهم تمسكوا بهذه المعبودات أشد التمسك، حتى إنهم هانَ عليهم أن تضرب رقابهم وأن تُسال دمائهم في سبيل تمسكهم بعبوديتهم لهذه المعبودات.

ومن علامات أن هؤلاء أشركوا في هذه المحبة مع الله جل وعلا

- أنك تجد أحدهم يغار على حرمة من يعبد، أعظم مما يغار على حرمة الله جل وعلا، بل ربما انتفض وأجلب بخيله ورجله إذا تعدى أحد على جناب السيد أو الولي الذي يعبده، بينما تراه لا يحرك ساكنًا إذا انتُهكت محارم الله جل وعلا.
- بل ربما تقدم محبة الأولياء والمعبودون عند هؤلاء على محبة الله، أنك تجد أحدهم يسهل عليه أن يحلف بالله كاذبا، لكنه لا يجرؤ على أن يحلف بمعبوده كاذبًا.

اختلف أهل التفسير في هذه الآية: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

الوجه الأول: هؤلاء المشركون- يحبون آلهتهم كما يحبون الله، محبة آلهتهم في نفوسهم تضارع محبة الله.
والوجه الثاني أن هؤلاء المشركين يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله. **والوجه الأول أولى ولا شك.**

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ كذلك اختلف العلماء في هذا القدر من الآية، واختلافهم هاهنا مبنى على اختلافهم في الشطر الأول،
والصواب أن معنى الآية والذين آمنوا أشد حبًا لله من محبة المشركين لله .**وهذا هو الأقرب.**
وقيل والذين آمنوا أشد حبًا لله من محبة المشركين لآلهتهم.

لا يظنن ظانٌ أن المشركين الذين بُعث النبي ﷺ فيهم وقاتلهم وكفرهم،ما كانوا يعرفون الله، أو أنهم ما كانوا يعبدونه، كلا بل كانوا يصلون، وكانوا يحجُون وكانوا يتقربون إلى الله ﷻ بأنواع القُرب،
ولكن كان شركهم من جهة أنهم أحبوا غير الله كمحبة الله، ساووا بين الله ﷻ ومعبوداتهم، لا والله ما ساووهم بالخلق والرزق والتدبير، إنما ساووهم بالمحبة والإجلال والخوف والتعظيم.
ولذلك يقولون يوم القيامة:﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:97-98]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ محبة أهل الإيمان فإنها محبة كاملة توجهت إلى محبوب واحد وهو الله جل وعلا، فكانت المحبة الخالصة أقوى من المحبة المشتركة والذين آمنوا أشد حبا لله.

من قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[التوبة:24]. الآية.
هذه الآية نزلت في حق أناس من المسلمين أسلموا ولم يهاجروا لأجل تعلقهم بواحد أو أكثر من هذه الأمور الثمانية المذكورة، فأنزل الله ﷻ هذه الآية في عتابهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ لما لم يقدموا ما يحبه الله ﷻ على ما تحبه أنفسهم وما تهواه قلوبهم أتاهم هذا الوعيد، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني انتظروا عقوبة الله ﷻ التي تحل بكم؛ **دل هذا على أن المحبة لا تكون صادقة إلا إذا كان عليها برهان،** هذه الآية محنة كما كانت الآية الأخرى التي هي شقيقتها محنة.

هذه الآية مرور الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران:31]، إذن هذان برهانان على صدق المحبة لله جل وعلا، من كان مدعيا لمحبة الله، فإنه مطالب بأن يأتي **بالدليل** عليها.

والدليل أمران:

الأول تقديم ما يحبه الله جل وعلا على ما تحبه نفسه ويهواه قلبه.

والدليل الثاني صدق الاتباع للنبي محمد ﷺ.

الناس لا تعرف المحبة إلا وعليها دليل وبرهان، وهو موافقة المحبوب وطاعته، وإلا فإنها محبة كاذبة أو محبة مدخولة ضعيفة

وبالتالي من كان دائماً وأبداً في كل مقام يقدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله، دائمًا إذا تعارض عنده الأمران قدم محبة ما يحب على محبة ما يحب ﷻ، **فهذا لا يكون مسلمًا، هذا يكون مشركًا،**

أما الذي يكون تارةً وتارة، تارةً يقدم ما يحبه الله وتارةً يقدم ما تحبه نفسه **فهذا يكون عاصيًا،**

هذه الآية ليست تنفي محبة الإنسان لهذه الأمور محبةً طبيعيةً، إنما تنهى وتأمر المؤمن بأن ينأى بنفسه عن أن **يكون مقدما لما يحب على ما يحبه** ﷻ، يجب أن يكون المقدم دائمًا ما يحبه الله.

۞ **ولذلك المحبة من حيث أحكامها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:**محبة نافعة، ومحبة ضارة، ومحبة بين هذين.

✸ **أما المحبة النافعة تنقسم إلى ما يأتي:**

أولا محبة الله، **وثانيا** المحبة في الله، **وثالثا** محبة ما يحبه الله وما يقرب إلى محبة الله.

✸**أما المحبة الضارة:** فإنها **أولا** المحبة مع الله **وثانيا** محبة ما يبغضه الله **وثالثاً** المحبة التي تشغل عما يحبه الله.

إذن لو تأملت محاب الناس النافعة والضارة لوجدتها تدور على هذه المحابّ الستة.

✸ **أما التي بين هذين النوعين فهي المحبة الجائزة المباحة،** وهي التي مضى الحديث فيها وقلنا إنها المحبة المشتركة، فهذه الأصل فيها كما ذكرنا الجواز، وقد تكون مستحبة، وقد تكون محرمة

عن أنسٍ رضي الله عنه أن رسُولَ اللهِ ﷺ قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى أَكونَ أَحَبَّ إليهِ مِن وَلَدِهِ ووالدهِ والنَّاسِ أجمعينَ» إخراجاه.

هذا الحديث جاء معناه أيضا عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: **«والذي نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده»**

هذا الحديث دليل على وجوب محبة النبي ﷺ، على وجوب أن تعظم محبة النبي ﷺ حتى تكون أعظم المحابّ على الإطلاق إلا محبة الله، ولا يكون الإنسان محققا للإيمان الواجب إلا بذلك، **فإن نفي الإيمان في أمر دليل على أن متعلقهُ من الأمر الواجب،**

«أَحَبَ» إن المحبة ما يحبه الإنسان طبعا أمر جائز مأذون فيه بشرط أن يكون دون محبة النبي ﷺ،

سؤال: هذا الباب معقود للكلام عن محبة الله،فما بال الشيخ قد أتى بحديث يتعلق بمحبة النبي ﷺ؟

والجواب: أن في هذا نكتتين:

الأولى: للدلالة على أن محبة الله ﷻ تقتضي محبة ما يحب، ومن ذلك محبة النبي ﷺ لأن الله يحبه بل إن الله جل وعلا قد اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، والخلة أرفع من أصل المحبة.

ونقطة ثانية أنه إذا كانت محبة النبي ﷺ يجب أن تعظم في القلب إلى هذا القدر، فكيف بمحبة الله جل وعلا؟ يجب أن تكون في القلب أعظم من ذلك وأعظم.

«والناس أجمعين». **فالناس عموم وأجمعين عموم،** ويدخل في ذلك نفسه التي بين جنبيه، وهذا ما جاء التنصيص عليه في صحيح البخاري من حديث عبدالله بن هشام رضي الله عنه أنه قال: **«كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر رضي الله عنه، فقال عمر: والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل أحد إلا من نفسي. قال: والذي نفسي بيده** –انظر إلى هذا القسم من رسول الله ﷺ– **حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: فوالله لأنت الآن أحب إلى من نفسي. قال: الآن يا عمر»** يعني الآن بلغت درجة الإيمان الواجب.

- ومن علامات محبة النبي ﷺ الشوق إلى لقائه ورؤيته،

ومر بنا ما جاء في صحيح مسلم قول النبي ﷺ: **«إن من أشد الناس حبا لي قوم يأتون من بعدى ما رأوني، ودوا لو رأوني بأهلهم وماهم».**

- من علامات محبة النبي ﷺ المسارعة إلى طاعته والدقة في اتباعه.
- من علامات محبة النبي ﷺ تقديم سنته وحديثه وأمره على كل ذوق وعرف وعادة وعقل وهوى.
- من علامات محبة النبي ﷺ أن تطرح الآراء أمام حكمه وقوله عليه الصلاة والسلام.
- من علامات محبة النبي ﷺ الوقوف عند سنته وعدم الزيادة عليها وعدم الإحداث في شريعته.

- من علامات محبة النبي ﷺ الدفاع عنه والسعي في نشر سنته عليه الصلاة والسلام.
- من علامات محبة النبي ﷺ كثرة الصلاة والسلام عليه – فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره.

هذه نبذة تتعلق بمحبة النبي ﷺ وهذا كما علمنا فرع عن محبة ربنا جل وعلا.

- كيف لا يُحب النبي ﷺ هذه المحبة العظيمة والله جل وعلا يحبه أعظم محبة؟
- كيف لا يُحب النبي ﷺ وقد أمرنا الله بمحبته كما في هذا الحديث؟
- كيف لا يُحب النبي ﷺ وهو الذي أحسن إلينا بفضل الله جل وعلا أعظم إحسان:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:164].

- كيف لا يُحب النبي ﷺ وهو الذي قد جمع الكمال البشري في خلقه وخلقه فإن له الكمال في سجاياه وفى خلاله وفى صفاته عليه الصلاة والسلام، والنفوس السوية مجبولة على حب الكمال.

وَلهما عنهُ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ اللهِ ﷺ: «ثلاثٌ مَن كنَّ فيهِ وَجدَ بهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسُولُه أَحبَّ إليهِ مما سَواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكفرِ بعدَ إِذْ أَنقذَهُ اللهُ منهُ، كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النارِ».

هذا حديث عظيم فيه بيان كيف تحقيق المحبة الصادقة،

قال أهل العلم المحبة الصادقة التي تكون لله جل وعلا لا تتم إلا بتكميلها وتفريعها ودفع ضدها.

➢ **أولا: تكميلها:** بمعنى أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما، ولاحظ أنه قال مما سواهما ليفيد التعميم، فيجب أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه من كل شيء على الإطلاق كما مضى بيانه.

➢ **ثانيا: تفريعها،** بمعنى أن يأتي بما يتفرع ويلزم على محبة الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك المحبة في الله ولله ولأجل الله، وهذا ما جاء التنصيص عليه في الحديث وأن يحب المرء ما يحبه إلا لله.

✹ **التنبيه:.. فثمة فروق من لم يتنبه إليها فإنه سيقع في خطأ عظيم، فرق** بين محبة الله أصلا والمحبة له فرعا والمحبة معه شركا،هذه المحبة التي جاءت في الأمر الثاني في هذا الحديث المحبة **لأجل** الله عز وجل **وفى** الله جل وعلا، وهذه المحبة فرع عن محبة الله سبحانه وتعالى

لأننا كما قلنا إن المحبة الصادقة تستلزم موافقة المحبوب، والله جل وعلا يحب عباده المؤمنين، فمن يحبه عليه أن يحب هؤلاء المؤمنين؛ الله يحب الأنبياء، ويحب الملائكة، والله ﷻ يحب من كان مستقيما على طاعته، يحب التوابين، يحب المتطهرين،إلى آخر ما جاء في النصوص.

في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**أن الله تعالى ينادى يوم القيامة: أين المتحابين في جلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**». في الصحيحين ذكر النبي ﷺ شأن السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظله، ومنهم «**رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**» قال الله جل وعلا في الحديث القدسي الصحيح: «**وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتآخين فيّ والمتزاورين فيّ والمتجالسين فيّ**» المحبة في الله ﷻ أن يحب الإنسان أخاه لا لأمر دنيوي، لا لغرض مادي، إنما يحبه لأنه مستقيم على طاعة الله، فهو يحب فيه طاعته لله جل وعلا، وهذا دليل على صدق المحبة لله جل وعلا.

➢ **ثالثا**: **دفع الضد** وهذا ما جاء التنصيص عليه في قوله عليه الصلاة والسلام

«وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»

سِيّان عند المحب الصادق بين الكفر والوقوع في النار، كما أنه يكره هذا يكره هذا، كما أنه يمتنع عن هذا أشد الامتناع ،يمتنع عن هذا أشد الامتناع ،لأن المحب الصادق الذي أخلص محبته لله وأعظمَ محبته لله أنار الله ﷻ قلبه بالإيمان، فانكشفت أمامه محاسن الإسلام، وانكشفت أمامه قبائح ضده وهو الشرك والكفر، ولذلك فإنه كان أعظم ما يكون بُغضا للكفر، وإذا كان مُبغضًا للكفر والشرك أبغض من قام به الكفر والشرك فإن من أبغض شيئا أبغض من اتصف به.

وفِي رِوَايَةٍ «ما يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإيمانِ» حتى ... »إلى آخره.

هذه الرواية عند البخاري فحسب، وفيها النفي المذكور لكنه أبلغ من الرواية التي قبله، لأن النفي في هذه الرواية كان من طريق المنطوق، والنفي فيما قبلها كان من طريق المفهوم، **والمنطوق، لا شك أنه أقوى من المفهوم**.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال:«مَن أَحَبَّ في اللهِ وأَبْغَضَ في اللهِ وَ وَالَى فِي اللهِ، وعَادى فِي اللهِ فإنَّما تُنال ولايَةُ اللهِ بِذلك، ولَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمانِ وإنْ كَثُرَتْ صَلاتُهُ وصَوْمُهُ حتى يَكونَ كذلكَ، وقد صَارتْ عامةُ مُؤَاخَاةِ الناسِ على أَمرِ الدنيَا وذلكَ لا يُجْدِي على أهلِهِ شيئا» رواه ابن جرير.

هذا الأثر حسن الكلام، جزل الألفاظ، لطيف المعنى، لكنه **ضعيف الإسناد**، ففي إسناده ليث ابن أبي سليم وهو ضعيف، لكن معناه صحيح لا شك فيه، **وقد جاء عند أبي داوود بإسناد حسن.**

قال ﷺ:«**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**» وهذا الأثر في معنى هذا الحديث والمقصود أن من التفريع على محبة الله ﷻ أن يحب الإنسان في الله وأن يبغض في الله

ومن فقه ابن عباس رضي الله عنه وهذا ما أشار إليه المؤلف في المسائل فيه معرفة الصحابي بالواقع، صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام يعرف واقعه، لأنه يعيش فيه، ولأنه ينظر إلى أحواله نظر المستبصر، ذكر في آخر هذا الأثر أنه «**وقد صَارتْ عامةُ مُؤَاخَاةِ الناسِ على أَمرِ الدنيَا وذلكَ لا يُجْدِي على أهلهِ شيئا**» يعنى لا ينفع أهله شيئا مع الأسف الشديد.

هذه المحبة التي تبنى على غير الرباط الوثيق الذي هو المحبة في الله ولله لا تجدى على أهلها ولا تنفعهم شيئا،ويصف ابن عباس رضى الله عنهما الحال في وقته، وهذا يقارن فيه بين ما كان أو ما عاشه في آخر حياته وبين ما كان عليه الأمر في عهد الخلفاء الراشدين، فضلا عما كان عليه الأمر في عهد النبي ﷺ، سبحان الله وقد صارت عامة مؤاخاة الناس في أمر الدنيا في ذلك الوقت، فكيف لو أدرك زماننا رضي الله عنه

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[البقرة:166]، قال اَلْمَوَدَّةُ.

الأسباب: فسرها ابن عباس وكذلك جاء هذا التفسير عن مجاهد وقتادة: **أنها المودات**،

وقيل إن الأسباب: ها هنا هي الأعمال أو القرابات. **والأقرب والله تعالى أعلم أن المودة تفسير بالمثال**، وإلا فالمعنى أعم كما قال ابن قتيبة رحمه الله إن كل ما ذكر في تفسير هذه الآية صحيح، **والمعنى الجامع** أنه تقطعت كل أسباب العلاقات، فإن العلاقات بين الناس لا تبنى إلا بأسباب، قد تكون لمحبة، قد تكون لمصالح، قد تكون لقرابة، قد تكون لزمالة في عمل، وما إلى ذلك.

نشاهد أن الله جل وعلا بين في هذه الآية أن المودات والصلات التي كانت بين الناس ولم تبنى على المحبة في الله ﷻ ولأجله سبحانه فإنها سوف تتقطع يوم القيامة وتضمحل وتتلاشى، بل تنقلب إلى عداوة وهذا ما بينه الله جل وعلا في قوله ﷻ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:67].

الدرس السادس والأربعون – ٨٣٩

٣٢ – باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:175]. (المجلس الأول)

فلا يزال الشيخ رحمه الله يوالي في الأبواب التي عقدها ببيان بعض العبادات القلبية التي هي من عماد الإيمان، مضى الكلام عن عبادة المحبة، وعطف عليها بعبادة الخوف من الله سبحانه وتعالى،

الخوف من الله سبحانه عبادةٌ عظيمة، وركنٌ من أركان الإيمان القلبي، وركيزةٌ لسير العبد إلى ربه سبحانه وتعالى.

وقد أمر الله جل وعلا بخوفه أن يخافه عباده، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[النحل:51]

وأثنى الله جل وعلا على القائمين بهذه العبادة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:46]، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف:154].

والخوف ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مشروع، وممنوع، ومباح.

أولا: الخوف المشروع: **فهو الخوف من الله سبحانه وتعالى، هذا الخوف خوف إجلالٍ وتعظيم**؛ فالله سبحانه وتعالى متصفٌ بصفاتٍ يقتضي العلم بها الخوف العظيم منه جل وعلا،فالله متصفٌ بالعزة، والقدرة، والقوة، والجبروت، والغضب، والبغض، والانتقام، وأمثال هذه من الصفات، وكلها إذا تأملت وجدت أنها تورث في القلب خوفًا عظيمًا من العظيم جل وعلا.

وأعظم سببٍ للخوف من الله سبحانه هو العلم به،

والقاعدة في هذا الباب أنه كلما عَظُم العلم بالله سبحانه فإنه يعظم الخوف منه،

كلما كان الإنسان أكثر علمًا بالله سبحانه لأسمائه، وصفاته، ونعوت جلاله، فإنه سيكون أكثر خوفًا من الله جل وعلا؛ ولذلك قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: (كفى بخشية الله علمًا). ونادى أحد السائلين الشعبي رحمه الله، فقال: أفتني أيها العالم، فقال: إن العالم من يخاف الله. وقال تعالى﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:28]، ولذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم جامعًا بين كمال العلم بالله عز وجل وشدة الخوف منه سبحانه، ففي الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: «**فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**».

وفي السُنة لابن أبي عاصم والطبراني وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مررت ليلة أُسري بي بجبريلَ كالحلس البالي من خشية الله**» **الحلس**؛ هذا الكساء الرقيق الذي يوضع على ظهر الدابة،ويوضع عليه السرج.

ومن أسباب الخوف أيضًا من الجليل العظيم سبحانه، يقينه بوعيد الله جل وعلا:

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر:16]

كيف لا يخاف المؤمن وهذا الوعيد ماثلٌ بين عينيه في كتاب الله، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[المزمل: 12-13].

ومن أسباب الخوف أيضًا: علم الإنسان بتقصيره في جنب الله جل وعلا؛

فإن العبد مهما ظن في نفسه الظنون، وأنه قد فعل وفعل، فإنه في جانب حق الله عليه لا شك أنه مقصرٌ تقصيرًا عظيمًا، بل لو أن الله جل وعلا حاسبنا على الواجبات التي قمنا بها لكنا جديرين بالعقاب؛ لأننا ما وفيناها حقها من كمال الإخلاص، وصدق المراقبة، وتحسينها وفق هدي النبي ﷺ على الوجه المطلوب. فكيف إذا انضاف إلى هذا ذنوبٌ وآثامٌ عِظام؟ فكيف إذا انضاف إلى هذا تقصيرٌ عظيم في أداء شكر الله جل وعلا على نعمه؟ إذًا لا معول إلا على رحمة الله سبحانه وتعالى.

ومن أسباب الخوف من الله سبحانه: الآيات التي يخوف الله جل وعلا بها عباده؛

آياتٌ حسية يراها الناس يخوف الله بها من أراد بهم خيرًا، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء:59]، وفي الصحيحين قال ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده**».

ويتبع هذا الخوف تفاصيل راجعةٌ إلى هذا الأصل.

من تلك التفاصيل التي هي من أنواع الخوف المتفرعة عن الخوف من الله جل وعلا

أولا: الخوف من إثم السيئة؛ فإن الإنسان يخشى تبعات ما اجترحته يداه، يخاف من هذا الإثم الذي تحمله فوق ظهره، وفي الترمذي وأحمد وغيرهما أن النبي ﷺ عاد شابًا من الأنصار وهو في سياق الموت، فقال النبي ﷺ: «**كيف تجدك؟ فقال: والله يا رسول الله إني لأرجو الله، وأخاف ذنوبي، فقال النبي ﷺ: ما اجتمع في قلب المؤمن في هذا الموطن إلا أتاه الله ما يرجو، وأمَّنه مما يخاف**».

ثانيًا: الخوف من الوقوع في السيئة؛ إما حالًا والمرء جاهل، أو مستقبلًا، ولذا فإن النبي ﷺ علم صِديق الأمة دعاءً «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**». قال ابن أبي

مُليكة التابعي الجليل كما علقه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: قال: (**أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى النفاق على نفسه**).

ثالثًا: الخوف من عدم قبول الحسنة؛ أهل الإيمان الصادق يعملون، ويجتهدون، ويبذلون قُصارى ما يستطيعون، ومع ذلك فإن قلوبهم تَرْجُف خوفًا من الله جل وعلا ألا تُقبل حسناتهم، وأن تُرد في وجوههم. هذا الخوف ليس ناشئًا من سوء ظنٍ بالله، حاشا، إنما ذلك لخوف التقصير في أداء الحسنة، وهذا ما جاء في قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:60]، فسر هذا النبي ﷺ بالرجل يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويخشى ألا يُقبل منه.

رابعًا: الخوف من سوء الخاتمة؛ وهذا الخوف قَسَمَ ظهور الصالحين، فلا شيء كان يعظُم في نفوس المؤمنين من أمورٍ مستقبلة مثل سوء الخاتمة، وأن يحور الإنسان بعد كوره. ومثل هذا الخوف هو منزلةٌ مصاحبة للمؤمن، ليس هو منزلةً مؤقتة تكون في بُرهة، وفي وقتٍ من الأوقات ثم تنقضي، كلا الخوف من الله وما يتبع هذا الخوف يجب أن يكون منزلةً مصاحبةً للمؤمن من أول حياته إلى آخرها

واعلم يا عبد الله أن هذا الخوف منضبطٌ عند أهل العلم بضابط؛

فلا يكون الخوف مشروعًا إلا به، ألا وهو أن ينضم إليه **الرجاء في الله،**

وإلا فإن الخوف المجرد ليس عبادة، بل هذا هو القنوط من رحمة الله جل وعلا، ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:87]، ﴿وَمَنْ يَقنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:56]،

۞ **إنما يكون الخوف عبادةً صحيحةً مثابًا عليها متى ما اجتمع إليها الرجاء،**

أما خوفٌ مجرد، فإنه لا ينفع صاحبه، وأما رجاءٌ مجرد، فإنه لا ينفع صاحبه،

وهذا ما دلت عليه أدلة كثيرة؛ من ذلك ما أثنى الله ﷻ به على عباده المؤمنين: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:57]،

بل هذا ما مُقتضى ما أخبرنا به الله ﷻ عن نفسه ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾الحجر:49، 50﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾غافر:3.

إذًا لا بد أن يكون خوف الإنسان خوفًا مشوبًا ومقترنًا برجاءٍ من الله ﷻ، بحيث لو قُدر أنه قيل إن كل الناس سيدخلون الجنة إلا واحدًا لخاف أن يكون هو، ولو قُدِّر أن يقال إن كل الناس سيدخلون النار إلا واحدًا لرجى أن يكون هو. إذًا لا بد من خوفٍ مع رجاء، ولابد من رجاءٍ مع خوف.

❁ **مسألة تغليب أحد العبادتين على الأخرى، أو أن يكون الأمران متساويان**. هذا موضع بحثٍ طويلٍ عند أهل العلم:

- فمن أهل العلم من رجح أن يكون الخوف أغلب في القلب من الرجاء مطلقًا،
- ومنهم من رجح أن يكون الرجاء في القلب هو الأغلب مطلقًا،
- ومنهم من فصل؛ فرجح أن يكون الخوف هو الغالب في حال الصحة والسعة، وأما في حال المرض أو الشعور بدنو الموت فيُغَلب الرجاء على الخوف،
- **ومنهم من قال: المشروع أن يتساوى الأمران دائمًا في كل وقت؛ وهذا هو الأقرب.**

وفي هذا يقول مطرف بن عبد الله رحمه الله: (لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لكانا سواءً، لا يزيد أحدهما على الآخر). ويشهد لهذا ما سبق من الأدلة،

وغلبة أحد الأمرين على الآخر لا يُؤْمن معه الوقوع في أحد محظورين:

- إما الأمن من مكر الله، وهذا إذا غلب الرجاء،
- وإما القنوط من رحمة الله، وهذا إذا غلب الخوف.

والمشروع للمؤمن أنه إذا علم من نفسه تساهُلًا، وعدم انضباطٍ بحدود الشريعة، فإنه ينبغي حينئذٍ أن يضرب نياط قلبه **بسياط الخوف**،

وإذا علم منها قنوطًا ويأسًا فينبغي أن يدمن النظر في الأدلة التي تدل على سعة رحمة أرحم الراحمين.

إذًا هذا علاجٌ مؤقت إلى أن يستقيم الحال، ويستقيم السير إلى الله جل وعلا

❁ النوع الثاني: فإنه الخوف الممنوع: **والخوف الممنوع على درجتين**: الخوف الشركي والخوف المعصية

الأولى: هي الخوف الشركي. يكون شركًا أكبر

أما ضابط الشرك الأكبر: فإنه خوف السر من غير الله.

خوف السر هو أن يخاف الإنسان من غير الله، أن يصيبه بسوء من غير مباشرة، يعني أن يخشى من غير الله أن يصيبه بضرر بدون سببٍ ظاهر،

وهذا لا شك أنه إشراكٌ مع الله ﷻ في الألوهية، لأنه صرف عبادةٍ واجبةٍ لله جل وعلا لغيره

وفي الربوبية، متى ما اعتقد الإنسان أن غير الله سبحانه يمكن أن يوقع ما يشاء بأمرٍ خفي، وسلطانٍ غيبي، دون سببٍ ظاهر معروفٍ بين الناس. يستطيع أن يطلع على ما في القلب، فيضل صاحب هذا القلب، أو أنه يمنع عنه الولد، أو أنه يقطع عنه المطر، و ماشاكل ذلك، لا شك أنه بدون سببٍ معهود، وبالتالي كان شيئًا لا يقدر عليه إلا الله؛ فمن اعتقده في غيره قد أشرك مع الله سبحانه.

وهذا النوع من الشرك واقعٌ قديمًا وحديثًا:

أما في القديم فمن ذلك ما أخبر الله ﷻ عن طوائف من المشركين الذين كانوا يعتقدون هذا في آلهتهم، ومن ذلك قول الله جل وعلا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[هود:54]، قالوه لهودٍ عليه السلام.

هؤلاء اعتقدوا في معبوداتهم أنها تنزل المكروه مع البُعد، ومن غير مباشرة، وبغير سببٍ ظاهر.

كذلك الحال في المشركين المعاصرين في هذه الأزمنة المتأخرة، حيث إنهم يعتقدون في معبوداتهم التي اتخذوها مع الله جل وعلا من صالحين، وسادات، وأولياء، وأنبياء، يتوجهون إليهم في قبورهم ومقاماتهم، يخافونهم خوفًا عظيمًا، مع أنهم في قبورهم، وبينهم وبين هذا الخائف قدرٌ كبيرٌ من التراب،

والشرك كما قد تعلما يا أيها الإخوة، هو اعتقاد مشاركٍ لله سبحانه وتعالى فيما اختص به جل وعلا. وهؤلاء قد وقعوا في هذا. بل ربما زاد خوفهم من غير الله على خوفهم من الله.

والثانية: الخوف الذي هو معصية: هو كل خوفٍ منع مما أوجب الله ﷻ.

إذا كان الخوف من غير الله ﷻ أدى إلى ترك واجب، أو فعل محرم، فإن هذا لا شك أنه معصية؛

كأن يترك الإنسان الجهاد خوفًا من أعداء الله إذا وجب عليه، أو يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا وجب عليه خوفًا من الناس، أو أنه شارك غيره في معصية الله خوفًا منهم.

بل ربما كان هذا نوعًا من الشرك الخفي، حيث إنه قَدَّم ما يرضاه غير الله على ما يرضاه الله جل وعلا، وهذا من جنس الشرك الخفي.

قاعدة: كلما عَظُم خوفك من الله جل وعلا قل خوفك من غيره، كما أنك كلما عظمت محبتك لله قلت المحبوبات عندك، كما أنك كلما عظم رجاؤك في الله ﷻ قل رجاؤك في غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (إن الخوف من غير الله لا يكون إلا من مرضٍ في القلب).

وما أحسن ما قال الفُضيل بن عياض الإمام الجليل عليه رحمه الله **(من عَرف الناس اِستراحْ)**

من عرف الناس فعلِم أنهم لا ينفعون ولا يضرون استراح، فلم يحمل لهم همًا، ولا كان في قلبه من خوفهم كقدر قلامة ظفر؛ لأنهم لا يضرون، الأمر كله لله. كذلك إذا علم أنهم لا ينفعون لم يتزين لهم، ولم يرائهم، ولم يُسَمِّع لأجلهم، ولم يتذلل لهم؛ لأنهم لا ينفعون، الأمر كله لله جل وعلا.

وفي حديث ابن عباسٍ قال ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك**»، القضية انتهت، محسومة، «**رفعت الأقلام، وجفت الصحف**».

إذًا لأي شيءٍ يحمل الإنسان همًا لهذه المخلوقات، المؤمن الصادق لسان حاله.

القسم الثالث؛ هو الخوف المباح: فإنه الخوف الطبيعي الذي تقتضيه الجبلة الإنسانية؛ كخوف الإنسان من عدوٍ صائل، أو خوف الإنسان من حيةٍ أو عقربٍ، أو ما شاكل ذلك، فإن هذا القدر قدرٍ معفوٌ عنه، وليس داخلًا لا في الخوف المشروع، ولا في خوف الممنوع،

قال تعالى في حق الكليم موسى عليه السلام: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾[القصص:21]؛ مع أن أنبياء الله جل وعلا وصفهم الله جل وعلا بقوله: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ**﴾[الأحزاب:39]، فكيف بموسى عليه السلام الذي هو من أولي العزم من الرسل؟ فدل هذا على أن هذا الخوف ليس داخلًا فيما تكلمنا عنه من الخوف الممنوع، وأن هذا القدر لا حرج فيه،

نعود إلى الآية التي افتتح المؤلف رحمه الله أو بوب المؤلف رحمه الله هذا الباب عليها.

﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ وتتمة الآية: ﴿**فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾.

الله جل وعلا علق ثبوت الإيمان على الخوف من الله عز وجل وهذا عند أهل العلم محمولٌ **على حالتين:**

الأول: أن يكون الإيمان هو أصله؛ يعني إن كنتم مؤمنين أصلًا، **وهذا المنهي عنه هو الخوف الشركي الذي هو خوف السر**، فلا تخافوهم خوف السر، ﴿**وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾

يعني إن كنتم مسلمين، ولستم كفارًا؛ فيُشترط في صحة الإيمان التخلي عن خوف السر.

والحال الثانية: أن يكون الإيمان في قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **هو الإيمان الواجب**، وإن شئت فقل: أن يكون كمال الإيمان الواجب. وهذا يكون إذا قلنا به فإن المنهي عنه في قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ **يعني الخوف الذي هو معصية**، وليس الخوف الذي هو شرك

وقد اختلف المفسرون رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ إلى قولين:

الأول: هو قول جماهير أهل العلم، وهو المروي عن ابن عباسٍ ﷺ، ومجاهد، **وهو الأقرب**. أن معنى الآية: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه، يعني يخوفكم من أوليائه. ومعلومٌ أن الشيطان جعل الله ﷻ له قدرةً على أن يوسوس في صدور الناس، وكل ابن آدم معه قرينٌ من الجن، وبالتالي فإن من شأن هؤلاء الشياطين أنهم يوسوسون في قلوب المؤمنين وصدورهم أن يخافوا أولياءهم، ولا شك أن هذه الوسوسة لا تؤثر إلا فيمن كان ضعيف الإيمان، أما من كان قوي الإيمان، فإن هذه الوسوسة لا تؤثر فيهم شيئًا، ولا يبالي أهل الإيمان القوي بهذا التخويف شيئًا.

ولذلك انظر يا رعاك الله إلى حال أنبياء الله ورسله، لما كان أولياء الشياطين الذين هم شياطين الإنس، كانوا يخوفون الأنبياء من معبوداتهم وآلهتهم، ماذا كان ردهم؟ هذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾[الأنعام:80] لما خوفوه بآلهتهم صارحهم وأعلنهم بأنه لا يبالي، ولا يخاف من هذه المعبودات. كذلك الحال مع المشركين في عهد النبي ﷺ حينما قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[الزمر:36]، ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يبالي بهم؛ لعظيم خوفه من الله سبحانه وتعالى.

أما التفسير الثاني: فهو ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، يعني يُوقِع الإخافة في قلوب من يكون وليًا له، **وبالتالي فإن مفهوم هذه الآية أنه لا سلطان له في إخافة أقوياء الإيمان**، إنما ذلكم الشيطان يوقع الخوف في قلوب من يُذعن للشيطان، ويسوس قياده له، وينصاع له، فيكون وليًا له.

والمقصود أن هذه الآية قد دلت على:

وجوب الخوف من الله سبحانه. فإن الله تعالى نهى عن الخوف من غيره

كما أن الآية قد دلت على أن الخوف من غير الله جل وعلا إنما يصاحب القلوب المريضة، التي تستجيب للشيطان.

الدرس السابع والأربعون – ٨٥٤

٣٢ – باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[آل عمران (المجلس الثاني)

ﷺ لقوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾[التوبة:18]، الآية.

الشاهد الذي لأجله أورد المؤلف رحمه الله هذه الآية هي قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، **وهذا الأسلوب أبلغ أساليب القصر**، أعني ما جاء في هذا الشطر من الآية **وهو النفي والإثبات**،

قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾،والمعنى أنه جعل خشيته لله ﷻ خالصة، لم يخشى أحداً البتة إلا الله ﷻ.

الفرق بين الخوف والخشية، وأن الأقرب أن الخشية أخص من الخوف، فبينهما عموم وخصوص،

الخشية خوف مقرون بعلم وتعظيم، بعلم بالمِخُوف، وتعظيم له، **أما متى كان خوفاً مع جهل** بالمخوف أو مع عدم تعظيمه وإنما مع احتقاره مثلاً فإن هذا لا يعد خشية.

وقال بعض أهل العلم إن الخشية أبلغ الخوف فهي أخص من هذه الجهة، يعني أعلى درجات الخوف يسمى خشية، فمهما يكن من شيء فالخشية ترجع في الجملة إلى معنى الخوف،

فالله ﷻ أثنى في هذه الآية على اللذين حققوا الخشية لله تبارك وتعالى،بل إنهم أخلصوا هذه الخشية له جل وعلا.

والاقتران في هذه الآية بين الخشية والعمل، يدل على أن الأعمال الصالحة يؤثر بعضها في بعض، بين الأعمال الصالحة تصادق وتلازم لاسيما إذا تعلق الأمر بالعبادات القلبية، وعلى الأخص ما يتعلق بعبادة الخوف فإن ذلك يقترن **إن كان خوفاً شرعياً مع العمل الصالح**، والله جل وعلا قرن في صفات هؤلاء المؤمنين الذين هم أهل لأن يعمروا مساجد الله بين عملهم الصالح وخشيتهم لله تبارك وتعالى، وهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة.

كذلك الأمر في اقتران الخوف بالعلم، فإنه يقترن بالعلم، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف:154].

الفرق بين الخوف والرهبة: فالرهبة خوف مقرون بتحُّرز وهرب، وكل أحد يخاف و كلُ ما يُخاف فإنه يهرب منه، إلا الله سبحانه، فإنه إذا خافه العبد هرب إليه جل وعلا، قال سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[الذاريات:50]. كذلك قول الله جل وعلا: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾[الأعلى:10].

قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ **إنما**: أداة من أدوات الحصر،

والمعنى أن الذين هم أهل لعمارة مساجد الله ﷻ هم هؤلاء، **ليس المقصود** أنه لا يعمر مساجد الله إلا هؤلاء، إنما المقصود أن الذين هم أهل لعمارة المساجد هؤلاء، لأن عمارتهم تنفعهم.

وأما الذين لم يتصفوا بالصفات الخمس الواردة في الآية، فإنهم ليسوا أهلاً لعمارة المساجد، وإن عمروها فهي ليست عمارة حقيقية، لأنهم لا ينتفعون بها، **وعمارة المساجد وبيوت الله سبحانه**

قال بعض أهل التفسير إنها **عمارة حسية**، بابتنائها وإصلاحها وتشييدها،

وقال بعضهم إنها **عمارة معنوية**، التي هي بالجلوس فيها، وذكر الله سبحانه والصلاة وتلاوة القرآن.

وقالت طائفة ثالثة **إنها تشمل الأمرين**.

ولا شك أن العمارة المعنوية **أولى** من العمارة الحسية، **والآية الأقرب والله أعلم أنها تشمل الأمرين**.

مَن هؤلاء الذين هم أهل بعمارة المساجد؟

هؤلاء الذين حصلوا هذه الصفات الخمس آمنوا بالله واليوم الآخر،

لم يذكر الإيمان برسول الله ﷺ ، كذلك لم يذكر الإيمان بالملائكة والكتب والرسل،

وذلك لأن أركان الإيمان، بل جميع ما يندرج في هذا الدين فإنه متضمن في الإيمان بالله، وكذلك إذا أفرد فإنه يشمل في المعنى جميع ما يدخل في هذا الدين أصولاً وفروعاً، أركاناً وعبادات، وقد يفرض بعض ذلك لأجل فائدة أو تحقيق مصلحة أو لحكمة يعلمها الله جل وعلا

ها هنا ضم إلى الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر.

وهذا كثير في القرآن، كثير ما يقرن بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك أن الإيمان باليوم الآخر باعث عظيم على العمل الصالح، فإن تذكر الإنسان يوم الآخرة التي فيها المأوى نعيماً أو عذاباً، **تذكره ذلك دافعاً، وحاث له على أن يستقيم على شرع الله والإيمان بالله ﷻ.**

وذكر بعد ذلك الصلاة والزكاة قال: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾، وذلك لأن هاتين العبادتين أعظم العبادات، والغالب أن من سمحت نفسه بأدائهما، الغالب أنه في غيرهما أطوع، يؤدي غيرهما، إنما من قصر في هذين فالغالب أنه يقصر فيما سواهما.

ﷺ وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:10] الآية.

هذه آية العنكبوت يذكر الله ﷻ فيها طائفة من الناس، حتى نكون على بينة من حالهم، وأن نحذر أن نكون مثلهم،

(فِي اللَّهِ)، (**الفاء**) هذا الحرف يفيد معنى السببية، يعني بسبب الإيمان بالله، لأجل الإيمان بالله، والمؤلف رحمه الله قال الآية، أي أكمل **الآية**، ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۞ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾

هذه الآية في حق أناس كان فيهم نفاق، وذلك أنهم كانوا بمكة فأسلموا، لكن فتنوا بالكفار، مسَّهُم شيء من الأذى والابتلاء بسبب هؤلاء الكفار، ها هنا وقعوا في امتحان، ثم قارن هذا بعذاب الله ﷻ الذي ينتظره إن أعرض عن الله ﷻ، **فكان من هؤلاء أنهم قدموا خشيتهم من الناس على خشيتهم من الله** ﷻ، فخسروا خسارة لا ربح بعدها، فكان أن دفعوا عذاب ساعة بعذاب الأبد،

لكن هؤلاء ما أظهروا كفرهم وردتهم للمؤمنين كانوا يداهنون أهل الإيمان، لكن حقيقة الحال أنهم ركنوا إلى الكافرين، ولذلك إذا قضى الله ﷻ بنصر المؤمنين فإنهم يأتون إلى المؤمنين ويقولون إنا معكم نريد أن نصيب مما تصيبون من نتائج هذا الظفر كالغنيمة ونحوها، فبين الله ﷻ أن هؤلاء وإن خفي حالهم على المخلوقين، فإنه لا يخفى على الله ﷻ: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم حكم الله جل وعلا بأنه قدر هذا الأمر حتى يعلم علم الظهور، علم أهل الإيمان الذين إذا ابتلوا ثبتوا، وعلم ظهور حال المنافقين الذين لما ابتلوا ما ثبتوا، نكصوا على أعقابهم، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾

هذا العلم الذي جاء في هذه الآية المراد به ليس العلم **القديم**، إنما هو **علم الظهور**، وذلك أن الله ﷻ علم الأشياء بعلمه القديم الذي هو صفة ذاتية لا تنفك عن الذات، علم الله كل شيء أزلًا وأبداً.

وهناك علم آخر وهو علم الله ﷻ بالشيء وقت حصوله، إذن الله ﷻ يعلم الشيء قبل حصوله ويعلم الشيء إذا حصل، والثواب والعقاب يتعلق بعلم الظهور،

الله ﷻ لا يعاقب أحد على العلم القديم، إنما يعاقب على علم الظهور هذا العلم الذي يتجدد.

المقصود أن الله ﷻ بين في هذه الآية حال هؤلاء وحالهم يشبه ما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[الحج:11]، على حرف يعني على طرف،

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾[الحج:11] والنتيجة: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾[الحج:11]

الله جل وعلا من حكمته أنه يبتلي أهل الإيمان، في هذه السورة التي نحن فيها (العنكبوت)، حتى يميز الله الخبيث من الطيب.﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:1-3]

والناس يختلفون في هذا الابتلاء، بحسب ما يشاؤه الله تبارك وتعالى، من الناس من تكون فتنة عظيمة، ومن الناس من تكون فتنته دون ذلك، ربما إذا أسلم الإنسان بعد كفر فتن وأوذي وابتلي بأهله، بأصدقائه بأناس من ذوي الجاه والمنصب، لأجل أن يردونه، يرهبونه أو يرغبونه، ربما ابتلي بشيء من الأذى في جسده أو الأذى في عرضه، تشاع عنه قالة السوء، ربما ابتلي بأقل من ذلك كسخرية واستهزاء.

وها هنا يمتاز أهل الإيمان الصادق من الكاذبين، أهل الإيمان الصادق كما مر معنا «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»،لا يمكن أن يرجع إلى الظلام وقد نور الله ﷻ قلبه وأما أولئك الذين في قلوبهم مرض وغش ودغل، فإنهم لا يثبتون عند الامتحان،

إذن المؤمن الصادق هو الذي خشية الله في قلبه أعظم من كل خشية، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحزاب:39]. هكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان، وهذا هو حقيقة التوحيد، قال جل وعلا: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾[التوبة:13].

وأننا نتحدث عن الخوف الممنوع بكل ما سبق وما سيأتي كلامنا عن الخوف الممنوع، أما الخوف المباح الذي تقتضيه الجبلة وهو ما أسميناه الخوف الطبيعي فإن هذا غير داخل فيما نتحدث فيه،

عن أبي سعيدٍ مرفوعاً: «إِنَّ مِن ضَعْفِ اليقينِ، أنْ تُرضي الناسَ بسَخطِ الله، وأنْ تَحْمَدَهُم على رزقِ اللهِ،وأنْ تَذُمَّهُم على مَا لَمْ يُؤتِكَ اللهُ،إنَّ رِزقَ اللهِ لايَجُرُّهُ حِرصُ حَريصٍ، ولا يَرُدُّهُ كراهِيَةِ كارِهٍ».

هذا الحديث، حديث صحيح معنى لكنه ضعيف الإسناد، وفيه لطيفة، قال إن من ضعف اليقين، يصح أن تقول إن من ضعف اليقين على **لغة تميم**،

واليقين أعلى درجات الإيمان، وهذا اليقين **واجب** على المسلم، ومر بنا حينمافي دروس قديمة ما يتعلق بشروط لا إله إلا الله،

اليقين الواجب على المسلم

- **اليقين المتعلق بأمر الله** أن يكون يقين بأن أمر الله ﷻ حق.
- **واليقين المتعلق بوعد الله** يقين يقتضي اعتقاد أن وعد الله صدق.
- **واليقين المتعلق بقدر الله** ﷻ يقتضي اعتقاد أن قدر الله ﷻ عدل.

إذن من علامات وأمارات ضعف هذا اليقين ما جاء في هذا الحديث،

أولا:(**أن يرضي الإنسان الناس بسخط الله**) وهذا سنتحدث عنه إن شاء الله، في الدليل القادم.

الثاني:(**فهو أن يحمد العبد المخلوق على رزق الله**).

والثالثة (**أن يذم المخلوق على ما لم يؤته الله ﷻ**).

وهذه لطيفة مهمة ينبغي أن يلحظها الراغب في تحقيق التوحيد، كيف ألا يحمد الإنسان من وصله الخير والرزق من قِبَله؟

الجواب: أن المقصود بهذا الكلام هو أن يكون التفات القلب ومشاهدة النعمة وملاحظة الفضل كل ذلك متعلق بالله ﷻ، وذلك أن النعمة حقيقة إنما هي من الله ﷻ، قال جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:53]، ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾[الإسراء:20] من ماذا ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾[الإسراء:20].

إذن الذي خلق هذا الرزق هو الله، والذي من بهذا الرزق هو الله، والذي حرك قلب هذا المخلوق فأوصل لك هذا الرزق هو الله ﷻ، إذن الأمر في الحقيقة من الله وإلى الله.

❖ إذن ماذا عن المخلوق الذي جاءني الرزق من طريقه؟

هو في الحقيقة سبب ووسيلة لا غير، حقه عليك المكافأة والشكر، أما المكافأة في قول النبي ﷺ كما في الصحيح: **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تظنوا أنكم قد كافأتموه»**، والشكر في قول النبي ﷺ: **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»**، إذن المخلوق حظه وحقه ونصيبه لا يتجاوز هذا الأمر.

أما أن يكون هناك التفات من القلب إلى المخلوق، واعتقاد أن المنة له، وأن الإنعام من قبله هذا لا شك أنه من ضعف اليقين والإيمان، والنبي ﷺ قال كما في الصحيحين: **«إنما أنا قاسم، والله يعطي»**، وفي رواية عند البخاري **«الله المعطي وأنا قاسم»**، النبي ﷺ يقسم، يعطي بأمر الله ﷻ ما منّ الله به وأعطى، لا أقل ولا أكثر.

لا يعني هذا ألا يبذل الإنسان السبب في الرزق أو في طلب الرزق، لكن الذي ينبغي أن يكون أثناء طلبه لهذا الرزق وبذله هذا السبب قد تعلق قلبه بالمنعم الأول الله ﷻ، هو الأول والآخر، فالأمر كله منه وإليه ﷻ.

❁ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنِ التَمَسَ رضا الله بِسَخطِ الناسِ، رضي الله عنه وأرضى عنه الناسَ، ومَن التمسَ رضا الناسِ بسخطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عليهِ، وأسخطَ عليهِ الناسَ» رواه ابن حبانَ في صحيحه.

هذا الحديث، حديث عائشة رضي الله عنها، حديث حسن لا بأس به إن شاء الله،

هذا الحديث فيه بيان قاعدة جعلها الله ﷻ في قدره

وهي المعاملة بنقيض المقصود الفاسد، بمعنى أن من التمس رضا الله ﷻ بسخط الناس فإن الله ﷻ يجازيه على ذلك بأن يرضى عنه، وأن يرضي عنه الناس، وهذا جزاء على عمله الصالح.

أما المعاملة بنقيض المقصود الفاسد، ففي حال العكس، وهو أن يرضي الناس بسخط الله،

(الباء) ها هنا باء معاوضة، يعني كأنه يشتري رضا الله ﷻ برضا الناس أو العكس يشتري رضا الناس بسخط الله ﷻ، وبئس الصفقة حينئذ.

(التمس) يعني طلب، هو كان يطلب وجوه الناس ورضاهم لا يسخطوا عليه، لكن النتيجة أن الله ﷻ سيجعل قلوبهم ساخطة عليه، وذلك عقوبة منه ﷻ على ما صدر منه من تقديم محاب المخلوقين على محاب الله، ورضا المخلوقين على رضا الخالق ﷻ.

وإن من المؤسف أن حال كثير من الناس لاسيما في هذه الأعصار المتأخرة أنهم – ربما يذهب إلى المسجد ويرى الناس أو يرى من الناس من هو جالس لا يصلي في المسجد وقد أقيمت الصلاة، لا يتكلم بحرف واحد فيذكر ويأمر وينهى، **لم؟**

الجواب: أنه التمس رضا الناس. لكن مع الأسف الشديد بسخط الله جل وعلا، مع أنه لو قُدِّر أنه ناله شيء من الأذى فإن الواجب عليه أن يصبر كما مر بنا آنفاً.

والغالب أن من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسلك في هذا المسلك الصحيح بمعنى أن يكون أمره بالمعروف بمعروف ونهيه عن المنكر بمعروف، الغالب أن من يفعل ذلك لا يناله شيء، وإن ناله شيء فالغالب أنه لا يتجاوز كلمة، ربما يسمع كلمة، لكنه يربأ بنفسه في ظنه عن أن يؤذى في الله ﷻ ولو بكلمة، وربما مع هذا باء بسخط الله ﷻ، فهذا من الأمر المشكل والمحزن.

ما انتشرت كثيراً من المنكرات في عالم المسلمين، ولا حصل تقصير في أداء الواجبات،

إلا بأسباب، ومن أعظمها عدم مراعاة هذا الأمر، وهو تقديم رضا الله ﷻ على رضا المخلوقين.

وإذا كان هذا مما يخاطب به كل مسلم، فالدعاة إلى الله وطلبة العلم مطلوب منهم هذا الأمر أكثر من غيرهم، عليهم أن يجردوا التوحيد لله ﷻ، وأن يقدموا رضا الله ﷻ على رضا المخلوقين، وألا يداهنوا في دين الله سبحانه، وألا يمانعوا من كان واقعاً في معصية الله ﷻ دون أمر ونهي وبيان وتبليغ، هذا من المهمات يا طلاب العلم.

٣٣ – باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:23].(المجلس الأول).

فهذا الباب قد عقده المؤلف للكلام عن عبودية التوكل على الله ﷻ، والتوكل مقام عظيم من مقامات الدين، بل هو نصف الدين، فالدين **عبادة وتوكل**،﴿فَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:123].

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:88]. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5].

والمتوكلون أحباب الله ﷻ،﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

- **والتوكل شرط الإيمان وشرط الإسلام**: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[يونس:84].
- **والتوكل على الله أوسع مقامات الدين من حيث أهلها**، وذلك أن التوكل يكون من كل أحد، من المسلم ومن الكافر، ومن أهل السماوات ومن أهل الأرض، ومن الأنس ومن الجن، حتى الحيوانات والطيور، كل مخلوق فإنه يتأتى منه التوكل على الله ﷻ،
- **كما أن التوكل على الله من أوسع المقامات الإيمانية من حيث تعلق بصفات الله ﷻ عبوديةً.**

التوكل يتعلق بصفات كثيرة ونعوت جليلة للباري ﷻ، فيتعلق بصفة العلم والقوة والقدرة والمشيئة والرحمة والرأفة والمحبة وغيرها من صفات الله جل وعلا. إنها عبادةٌ جليلة القدر إذا خلا منها القلب ترحل عنه الإيمان وإن ضعف فيه ضعف الأيمان.

وحقيقة التوكل أنها مؤكدةٌ من شيئين:

- **أمر يتعلق بالقلب**: إنه الاعتماد والتفويض إلى الله ﷻ،
- **وأمر على الجوارح**: فهو بذل السبب،

✪ وإذا أردنا أن نفصل هذا المقام أكثر فإننا نقول إن التوكل على الله ﷻ ينبني على ثلاثة أشياء:

الأول: **تحقيق توحيد المعرفة والإثبات**؛ أول أساس في قيام هذه العبودية تحقيق هذا التوحيد، إفراد الله جل وعلا في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته، لا يمكن أن يكون متوكلا إلا من كان معتقدا بأن الله ﷻ هو الرب المالك، السيد المتصرف المدبر، الذي له الخلق والرزق والتدبير، وأيضا أنه المتصف بصفات الجمال جل وعلا.

۞ **نقل الإمام ابن القيم رحمه الله عن شيخه ابن تيمية قوله: إن ثلاثة لا يتأتى منهم التوكل:**

الفيلسوف: يعتقد أن الله جل وعلا لا يعلم الجزئيات، إنما يعلم الأمور كليةً.

والقدري النافي: يعتقد بأن الله ﷻ لا يعلم الأشياء حتى تقع. أنه يقع في هذا الكون ما لا يشاؤه

والجهمي المعطل: يعتقد أن الله تعالى معطل عن صفات الكمال

الأمر الثاني: **بذل السبب**، والسبب لابد أن يكون سببا مشروعا، لابد ألا يكون سبب ممنوعا، بمعنى بذل المستطاع في تحقيق المراد في ضوء ما أباحته الشريعة.

☒ **وها هنا يخطأ كثيرون حينما يظنون أن هناك تنافر بين التوكل وبذل السبب**،فإن حكمة الله جل وعلا وشرعه وقدره اقتضت ربط الأشياء بأسبابها، وبالتالي فإن بذل السبب في تحقيق المراد لا شك أنه مما دلت عليه الشريعة ومما أبانته سنة النبي ﷺ. قال ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»، تذهب في الصباح الباكر وهي جائعة ثم تعود بعد ذلك وهي شبعة، ألم ترَ أن الله أوحى لمريم: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾[مريم:25]، ولو شاء أن يسقطه من غير هزها إليه، ولكن كل شيء له سبب.

وإذا كان سيد المتوكلين الذي قد بلغ الغاية في التوكل والاعتماد على الله ﷻ كان يبذل السبب بلا تقصير، أليس هو الذي لبِس يوم أحد ﷺ درعين؟، أليس هو الذي أتخذ السبب المعلوم يوم الخندق، أكان هذا يقدح في توكله؟ حاشا وكلا ﷺ.هذا ما ينبغي التنبه له، وهو أن السبب من حقيقة التوكل ولكن تنبه هنا إلى أن المتوكل في شأن السبب **لابد أن يجمع بين اتصال وانفصال.**

أما الاتصال: فاتصال الجوارح بالسبب.

وانفصال القلب عن ذلك، بمعنى أن التوكل فيه بذل السبب من جهة الجوارح، يبذل ويعمل ويجد أما القلب فإنه غير ملتفت للسبب، القلب معلق بالمسبب ﷻ.

والعلامة ابن القيم رحمه الله في المدارج نقل عن بعضهم تعريف التوكل بأنه اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب، والمعنى أنه اضطراب بالجوارح بمعنى أن التوكل يقتضي حركة دؤوب وجد باجتهاد

بالجوارح، ومع ذلك القلب ساكن لا يضطرب، لأنه واثق بالله ﷻ، لا يلتفت إلى الأسباب، حسب الأسباب أن لا تتجاوز عن هذا القدر، وهي أن تكون أسبابا مبذولة بالجوارح دون أن يكون هناك التفات من القلب إليها.

الأمر الثالث: **الذي ينبغي عليه التوكل هو عمل القلب،** ولذلك عرف الإمام أحمد رحمه الله التوكل بأنه عمل القلب، وهذا العمل مركب من اعتماد وتفويض إلى الله ﷻ، وثقة وحسن ظن به جل وعلا. لا بد من أن يكون المتوكل إن شاء أن يكون متوكلا صادق التوكل لا بد أن يكون محسنا الظن لقدر الله ﷻ، معتقدا أن خيرة الله له خير من خيرته لنفسه، وأن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه.

☒ **هذا المقام قد أخطأ فيه طوائف من الناس:**

➢ الصنف أول: **أولئك الذين أشركوا في توكلهم على الله الشرك الأكبر،**

وضابط التوكل الشركي هو

أولًا: أن يتوكل على ميت مطلقا

ثانيا: أن يتوكل على الغائبين مطلقا،

ثالثا: أن يتوكل على حاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله،

فلذلك أولئك الذين تعلقت قلوبهم بالقبور والأضرحة والأولياء، الذين عظم اعتمادهم وتوكلهم عليها فاشركوها مع الله ﷻ، هؤلاء ينبغي أن يستيقظوا من غفلتهم، هذا الشيء الذين هم واقعون فيه لا شك أنه يوردهم دار البوار عافاني الله وإياكم من ذلك.

➢ الصنف الثاني: **الذي أخطأ في هذا الباب هو الذي وقع في الشرك الأصغر،**

وذلك بأن يكون وقع منه نوع التفات واعتماد بقلبه على مخلوق فيما يقدر عليه، هذه شعبة من الشرك، هذا نوع من **الشرك الخفي،** عنده توكل على الله ﷻ ومع ذلك وقع في نفسه شيء من الاعتماد والالتفات لمخلوق. وهذا –والله المستعان– شيء يكثر ويقع فيه كثير من الناس شعروا أو لم يشعروا، كثير من الناس في شأن الرزق التفت في قلبه إلى الوظيفة، إلى الراتب، أو يكون قد احتمى بأحد بشأن دفع أذى من شخص أو نحو ذلك، تجد عنده شيء من الالتفات إليه.

➢ **الصنف الثالث**: ما يقع من بعض الناس حينما **يتركون بذل الأسباب**،

وظنهم أنهم بهذا يكونون متوكلين، قد علمنا قبل قليل أن هذا غلط وأن هذا ليس من التوكل الشرعي، بل إن هذا مخالف لسنة الله التشريعية وسنته الكونية وحكمته جل وعلا،

ثم إنه مخالف لهدي النبي ﷺ وهدي أصحابه، الميزان الذي ينبغي أن توزن به الأحوال إنما هو سنة النبي ﷺ ثم سنة أصحابه، ونحن نعلم قطعا ويقينا أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا أعظم المتوكلين، ومع ذلك فإنهم كانوا يبذلون السبب.

➢ **الصنف الرابع**: **هو حال من يقصرون التوكل على أدنى الأشياء ويفوت التوكل على الله في عظائم الأمور**؛**التوكل على الله ﷻ في عبادته** جل وعلا لا شك أنه أعظم، ولذلك تحوج الناس إلى التوكل في عبادة الله سبحانه، الصائم الذي يصوم أو يريد أن يصوم، والمصلي الذي يريد أن يصلي، وطالب العلم الذي يريد أن يطلب العلم، هؤلاء مطالبون بالتوكل على الله ﷻ، فهذه الأمور أعظم من غيرها.

ولذلك أنبياء الله جل وعلا كانوا أعظم الناس في التوكل بشأن الدعوة والبلاغ والبيان، وقالوا: ﴿**وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا**﴾إبراهيم:12﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾النمل:79.

هكذا يخاطب نبينا ﷻ ويأمر نبيه محمد ﷺ، أنت على الحق المبين فتوكل على الله وادعوا إلى الله.

➢ **الصنف الخامس**: **ما يقع من بعض الناس من أخطاء لفظية**،

فان صادفت شيئا يقع في القلب كان هذا خطئا إلى خطأ، أما إن لم يكن شيء واقع في القلب لكنه عرض على اللسان فقط، فهذا خطأ، وينبغي لهؤلاء أن يتنبهوا لذلك، وذلك أن بعض الناس يقول: يا فلان الأمر عليك، أو: على الله وعليك، وأريد أنه وكله في الأمر لا يريد أنه يعتمد في قلبه ويفوض الأمر إليه كما هو يفوضه إلى الله، ولكنه أخطأ في هذه التسوية بين الله ﷻ والمخلوق في اللفظ.

قول الإنسان أنا متوكل عليك

عندنا هاهنا ألفاظ:

أولًا: قول الإنسان أنا متوكل عليك.

ثانيا: قول الإنسان أنا متوكل على الله ثم عليك.

ثالثا: قول الإنسان أنا متوكل على الله وعليك.

✿ عندنا ثلاث ألفاظ:

أما اللفظ الثالث، فهو قول الإنسان: **أنا متوكل على الله وعليك،** لا شك أنه **لا تجوز هذه التسوية،** وسنتكلم عن هذا إن شاء الله بالتفصيل في الباب الخاص بذلك.

نأتي الآن في اللفظين الأولين بعض أهل العلم رخص في ذلك من جهة أن المتكلم يريد **التوكيل** لا التوكل، يعني في لسان العامة هو لا يريد التفويض القلبي والاعتماد بفؤاده، إنما يريد فقط أنه وكله بهذا الشأن، **ولكن الصواب أن هذا اللفظ خطأ وان كان لم يخطئ بقلبه،** لكن مجرد هذا اللفظ لا يجوز، ويجب أن ينتهي عنه، لأن التوكل عبادة، ولا يجوز للإنسان أن يتوجه بالعبادة ولو لفظا لغير الله جل وعلا، ولذلك نقول لهذا الإنسان قل: **أنا متوكل على الله ووكلتك، أو: أنا أوكلك.**

الدرس التاسع و الأربعين -٨٨٣

٣٣-باب قول الله تعالى:﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المائدة:23 (المجلس الثاني).

هذه الآية مقول للرجلين اللَّذين هما من الذين يخافون، وأنعم الله عليهما وكانا من قوم موسى عليه السلام.

وسياق الآية أن موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[المائدة:21]. وكان جواب بني إسرائيل قالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[المائدة:22].

هنا قال رجلانِ من بني إسرائيل من قوم موسى من المؤمنين، وصفهم الله سبحانه وتعالى بالخوف منه جل وعلا، **وهذا هو الأقرب في أقوال أهل التفسير،**

﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:23]. أنعم الله عليهما بالتوفيق، وبقول كلمة الحق في ذلك الموضع:

✵ هذه الآية فيها فوائد:

أولاً: فيها الدليل على وجوب التوكل، ووجوب إخلاص التوكل على الله، **وذلك من وجهين:**

الوجه الأول: من تقديم الجار والمجرور، وعلى الله فتوكلوا، ومعلوم في لغة العرب أن تقديم المعمول الذي هو هنا الجار والمجرور **يفيد الحصر**، أي معنى الآية فتوكلوا على الله لا غيره،

والوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى بين في هذه الآية أن تحقيق التوكل شرط في الإيمان،(إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ): **(إن) هنا الشرطية**،وجواب الشرط محذوف للعلم به، إن كنتم مؤمنين فتوكلوا عليه.

ثانيا: الجمع بين بذل السبب، وتفويض الأمر إلى الله تبارك وتعالى والاعتماد عليه، لأن الآية كان فيها **أولا** حث على بذل السبب: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ ثم كان الاعتماد على الله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن بذل السبب والتوكل أمران مقترنان لا متنافران ونظير هذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:51]

﴿ وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:2] الآية.

الله ﷻ وصف المؤمنين حقاً بالصفات الخمس العظيمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[الأنفال:2-3].

من صفات أهل الإيمان حقًا الذين حققوا الإيمان.

أنهم يتوكلون على الله ﷻ، فدل هذا على فضيلة عبودية التوكل لله سبحانه،

وأيضا على وجوب الإخلاص في التوكل، وعلى ربهم يتوكلون، أي يتوكلون عليه لا على غيره.

التوكل عبادةً شأنها شأن بقية العبادات التي يجب إخلاصها لله ﷿، ولا يجوز الإشراك فيها مع الله ﷿،

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:36].

﴿ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾[الأنفال:64].

هذه الآية اختلف المفسرون فيها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ خطاب للنبي ﷺ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- **القول الأول: حسبك الله وحسبك المؤمنون**، وهذا قول بعض أهل التفسير وقلة من المتقدمين.
- **القول الثاني: يا أيها النبي حسبك الله وحسب المؤمنين**، يعني الله حسبك وحسب المؤمنين.

الحسب: هو الكفاية والنصرة، فالله ﷿ حسب نبيه والمؤمنون؛ يعني هو كافيهم وهو ناصرهم جل وعلا،

وهذا قول أكثر أهل التفسير،وهو الصواب الذي لا شك فيه، لدلالة الأدلة على ذلك.

قال الله ﷻ:﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:62]

هذه الآية على ميزان الآية التي بين أيدينا، ففيها لما ذُكر الحسب قصْره على الله ﷿، فإن حسبك الله،

لكن لما جيء إلى التأييد، التأييدَ يكون من الله ﷿ بنصره وكذلك يكون من المؤمنين، يسخِّرهم الله ﷻ، فيكونون مؤيدين للنبي

إذن هذه الآية تدل على أن الحسب إنما هو شيء مقصور ومحصور على الله ﷻ،

وقل مثل هذا في قول الله ﷻ:﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾التوبة59

لما ذكر الحسب قصر على الله ﷻ أما الإيتاء، فإن الله ﷻ يؤتي من فضله، وكذلك النبي ﷺ يؤتي في حياته،فهو يؤتي العلم ويؤتي الخير ويؤتي المال.﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾الحشر7

أما الحسب فما قال الله ﷻ (وقالوا حسبنا الله ورسوله) إنما قال ﴿**حسبنا والله ونعم الوكيل**﴾

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:3].

كذلك الأمر في هذه الآية: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يعني كافيه وناصره،

وهذه الآية فيها بيان الثمرة والغاية التي تكون من التوكل على الله ﷻ

فإن من توكل على الله فليُبْشِر أن الله ﷻ كافيه وناصره، وإذا كان الله ﷻ هو المتولي أمرك، إذا كان الله ﷻ كافيك وناصرك، إذا كان الله ﷻ هو حسبك فلن يضرك شيء، ولو كادك أهل الأرض والسموات. لن يضرك ذلك شيئاً؛ لأن القوي القدير الغني ﷻ وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء ففي قبضة يده وفي سلطانه وتحت تدبيره.

قد يقول بعض الناس من أين أُتيت؟ وأنا قد توكلت على الله ﷻ لكن سُلط علي؟

الجواب: راجع نفسك، ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**﴾[آل عمران:165]، ونحن نشهد الله ﷻ على أن ما أخبرنا به حق وصدق: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾[النساء:87]، فمن توكل على الله ﷻ فهو حسبه قطعاً لا شك في ذلك ولا ريب، لكن الإشكال إنما هو في تقصير الإنسان في تحقيق الشرط، شرط أن يكون ربنا ﷻ حسب عبده، أن يكون محققاً للتوكل.

عن بن عباس رضي الله عنهما قال:حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيمُ ﷺ حينَ أُلْقِيَ في النارِ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران:173]، الآية (رواه البخاريُّ والنسائيُّ).

حسبنا الله ونعم الوكيل: هذه الكلمة العظيمة التي يلهج بها أهل الإيمان وشأنها وقت الشدائد عجيب، وأثرها لا يعلمه إلا من قالها بصدق ورأى أثرها بتوفيق الله ﷻ،

هذه الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وجاء في رواية عند البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنه أنها كانت أخر كلمة تكلم بها قبل أن يقذف في النار، قال حسبي الله ونعم الوكيل، كان الفرج من عند الله ﷻ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء:69]

كذلك الحال في خليل الله محمدٍ ﷺ حينما قال الناس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾
وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه معه، كانوا في طريق عودتهم بعد أحد وقد أصابهم ما أصابهم في هذه المعركة ،كانوا في طريقهم عائدين إلى المدينة، فبلغهم خبر أن المشركين أرادوا أن يعودوا إليهم ليستأصلوا شأفة المسلمين، وما كان من النبي ﷺ وأصحابه إلا أن قالوا: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ثم إنهم تقدموا من أجل أنهم يريدوا أن يلاقوا هؤلاء المشركين، حتى وصلوا إلى حمراء الأسد، أو المكان القريب من المدينة من الجهة الجنوبية، فلما بلغ المشركين ذلك، قذف الله ﷻ الرعب في قلوبهم، فانصرفوا راجعين إلى مكة، وسلم الله المؤمنين من هذا الأمر، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل.

فالشاهد أن هذه الكلمة، كلمة عظيمة فيها تحقيق التوحيد لله ﷻ فيها

❁ **تحقيق التوحيد العلمي، أو توحيد المعرفة والإثبات**،الذي يجمع توحيدين الربوبية، والأسماء والصفات، ولذلك لو تأملت في قول الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:58]، فانظر كيف أن التوكل كان على هذا الرد العظيم، وهذا وصفه أنه حي لا يموت،**ولذلك كلما عظم هذا التوحيد في قلبك، كان التوكل عندك عظيماً،والعكس بالعكس.**

❁ **ثم في هذه العبادة تحقيق لتوحيد الألوهية**، وذلك بأن يقوم بقلب الإنسان من حسن الظن بالله جل وعلا والثقة به، والتفويض والاعتماد عليه، وهذه عبادة جليلة، وهذا هو التوحيد العملي، **فاقترن الأمران بهذه العبادة**، عبادة التوكل، ولذلك قلنا إن هذه العبادة، إنما يقوم بها المحققون، لا يقوم بها على وجهها الكامل إلا المحققون بالإيمان.

وهذه الكلمة تشتمل على جزأين: حسبنا الله ونعم الوكيل،

- **حسبنا الله:** يعني كافينا وناصرنا، إقرارٌ بأن الله ﷻ هو من بيده الكفاية والنصرة جل وعلا
- **ونعم الوكيل:** ولاحظ أن مخصوص (**نِعْمَ**) محذوف للعلم به، (ونعم الوكيل **هو**)، ونعم الوكيل الله، فالله نعم الوكيل جل وعلا، والوكيل هو من إليه التفويض.

(ونعم الوكيل) فيها بيانٌ أن الله ﷻ **وكيل** عباده، **فالتوكيل يكون إليه وهذا شيء أخر**. كنا نتكلم قبل قليل **عن التوكل عليه**، والآن نتكلم **عن التوكيل إليه**،

كلاهما ثابت في حق الله جل وعلا ، **التوكل والتوكيل**.

۞ ولاحظ الفرق الدقيق بين الأمرين:

التوكل: الأصل في معناه الاعتماد،

والتوكيل: الأصل في معناه من جهة اللغة هو التفويض،

وإن كان الأمران مقترنين في حق الله ﷻ،فالله جل وعلا إليه التفويض وعليه الاعتماد،

أما في حق المخلوق فالأمر مختلف:

- **أما التوكل** فإنه لا يصح أن يكون متعلقاً بالمخلوق لأن حقيقة التوكل والركن الأعظم في التوكل إنما هو الاعتماد القلبي، وهذا لا يجوز أن يتوجه به العبد إلا لمولاه جل وعلا.
- **أما التوكيل** فإنه مختلف، التوكيل تفويض، ولذلك يفوض المخلوق فيما يليق به، كما أن الله —ﷻ— يفوض إليه ما يليق به، ولذلك جاءت النصوص بصحة توكيل المخلوق، وعدم **التوكل** على المخلوق،

النبي ﷺ وكّل علي رضي الله عنه أن يذبح بقية هدْيِه، النبي ﷺ وكل عروة بن الجعد رضي الله عنه في شراء شاة في القصة المعروفة. إذن هذا التفويض لا إشكال فيه، وليس فيه أي شائبة أو قدح في التوحيد، **بل الغالب أو مما يكثر أن يكون الموكل أرفع درجة من الموكل.**

أما في حق الله ﷻ فإن الله ﷻ يوَكَّلُ بمعنى يفوض إليه كل شيء، فالتوكيل إلى الله ﷻ بمعنى التفويض هو تفويض العاجز من كل وجه، الفقير من كل وجه إلى القدير العظيم الغني الذي له الغنى المطلق.

وأمر التوكيل ثابت من الجهتين، فالله ﷻ موَكِّلٌ، والله ﷻ موَكَّلٌ، العبد يوكِّل الله جل وعلا، والله جل وعلا يوكل عبده، ولكن ليس التوكيل كالتوكيل، ولا الموَكَّل كالموكِّل،

توكيل العبد لربه هو تحقيق للربوبية، وقيام بالعبودية

أما توكيل الله ﷻ لعبده وهذا حق وثابت، توكيل الله ﷻ لعبده هذا توكيل أَمْرٍ وتعبيدٍ وإحسانٍ وإكرامٍ واجتباء، قال جل وعلا: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[الأنعام:89]، إذن الله ﷻ موكِّل عبده أو عباده، يعني أقمناهم وكلَّفناهم وأمرناهم بأن يقيموا شريعة الله ﷻ في أرضه وبين عباده.

وكما أيضا ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «**إن الله وكل بالرحم ملكاً، فيقول الملك يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة**» إلى آخر الحديث.

والشاهد أن هذه الكلمة كلمةٌ يتمثل فيها تحقيق عبادة التوكل على الله ﷻ حينما يقول الإنسان : حسبنا الله ونعم الوكيل، في كل أمر شديد من أمر الدنيا، أهل الإيمان على لسانهم تجري هذه الكلمة، ويكون لها أثر ووقع في قلوبهم أيضا. تذكرون قصة الثلاثة الذين تكلموا في المهد، لحديث مطول عند مسلم، وهذا الشاهد جاء مختصراً عند البخاري، في قصة ذلك الطفل الذي كان يرضع من ثدي أمه، فمرت تلك الفتاة التي كانوا يضربونها ويقولون سرقتِ وزنيتِ ، وهي لا تزيد على أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

إذن هذا مما لا ينبغي أن يغفله المظلوم، ويبشر بفرج الله ﷻ إن ظلمت فأجعل حسبي الله ونعم الوكيل، بل حتى إذا أهمك أمر الآخرة، فإن مما يخفف الأمر، ويعين بعون الله ﷻ وتوفيقه ، ومما يعين الله ﷻ على تخفيف هذا الأمر على عبده أن يقول الإنسان، حتى في شدائد الآخرة : حسبي الله ونعم الوكيل.

الشاهد هذا ما خرجه الترمذي في جامعه الإمام أحمد بإسناد صحيح من رواية عدد من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**وكيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وأحنى جبهته ينتظر الإذن، متى يُأمر بالنفخ فينفخ**» صاحب القرن يعني صاحب الصور وهو إسرافيل عليه السلام، التقم الصور الذي هو القرن وينتظر الإذن، متى يؤمر من الله ﷻ بالنفخ فينفخ، فأشتد الأمر على أصحاب النبي ﷺ «**قالوا: وكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا، قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**».

الدرس الخمسون-٨٩٨

٣٤ -وقول الله تعالى:﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:99].(المجلس الأول)

بوب المؤلف رحمه الله هذا الباب بعلاج مرضين قد يعرضان للقلوب:

➢ **المرض الأول: الأمن من مكر الله وهذا ما قدم المؤلف رحمه الله الدليل عليه في هذه الآية**

➢ **المرض الثاني: فهو القنوط من رحمة الله**، ودليله سيأتي إن شاء الله.

ومعلومٌ أن كلا هذين المرضين ينتجان عن عدمٍ أو ضعفٍ للخوفِ والرجاء.

فإن الأمن من مكر الله ثمرة لعدم أو ضعف الخوف من الله

والقنوت من رحمة الله ثمرة لعدم أو ضعف الرجاء في الله.

الخوف من الله مضى الحديث فيه، وبقي الكلام عن الرجاء

الرجاءُ: هو ملاحظة سعة الرحيم سبحانه، والطمع في فضله جل وعلا، وحسن الظن به.

وقد جاء في الأدلة ثلاثة ألفاظ تدل على هذا المعنى في الجملة.

- **اللفظ الأول: الرجاء:** ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:57]، في أدلة كثيرة.
- **واللفظ الثاني: هو الطمع:** ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾[المائدة:84]
- **والثالث: الرغبة:** ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[التوبة:59]، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:90].

أما عن الأسباب التي تدعوا القلب إلى أن يرجوا الله جل وعلا فذلك سببان:

الأول: حسنُ التعبدِ لله جل وعلا بأسمائه التي تدل على معاني الرحمة، والكرم، والمحبة، والأمر كما قال النووي رحمه الله: "أكثر أسماء الله تعالى تدعوا القلب إلى محبة الله،فالله جل وعلا هو الرحمن الرحيم الرؤوف الكريم البر الودود جل في علاه تأمل العبد وتعبُّده بهذه الأسماء يكسبُ القلب الرجاء في ربنا جل وعلا.

وفي صحيح مسلم يقول النبي ﷺ: **«لولم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بقومٍ يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»** إذن مغفرة الله ﷻ ورحمته شيءٌ عظيم لا يحيط به فكر: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:47]،

قال ابن مسعود ﷺ: (ما أعطى أحد عطاء خير من حسن ظنه بربه).

والنبي ﷺ يقول كما في الصحيحين: «**أنا عند ظن عبد بي**»، وزاد أحمد بن حبان: «**فليظن بي ما شاء**»؛ ظُنَّ بربك ما تعتقد أنه أهل له، وستجد ربك جل وعلا مجيبًا لما ترجو.

قال سفيان الثوري رحمه الله وقد عزم رجاءه في ربه ﷻ قال: "لو خيرت بين أن يحاسبني أبي أو يحاسبني ربي لاخترت ربي؛ ربي أحسن لي من أبي، ربي خيرٌ لي من أبي".

الثاني: مطالعة النصوص وأدلة الرحمة والمغفرة التي كَثُر ورودها في الكتاب، والسنة.

قال جل وعلا: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[الزمر:53]، وباجتماع هذين السببين وحسن تأمل الإنسان فيهما فإنه يصل لتوفيق الله جل وعلا إلى تحقيق هذه العبودية.

في متعلق الرجاء ما الذي يرجوه الإنسان؟ الرجاء متعلق بأمرين:

الأول: رجاءٌ قبول الحسنة،والإثابة عليها.

وهذا ما دلت عليه أدلة كثيرة ومنها أدلة تحث العباد. قال النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، **الاحتساب** ها هنا هو الذي نتحدث عنه وهو ما جاء قبول الحسنة والإثابة عليها.

ثانيًا: فإنه رجاء مغفرة السيئة والعفو عنها،

قال الله جل وعلا:﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾[الشعراء:82]،

فالمسلم الصادق في إيمانه يطمع أن يمن الله جل وعلا عليه بأن يتجاوز عن سيئاته، ويعفو عن زلاته. إذن هذا هو الرجاء الشرعي

ولكن أن الرجاء الشرعي لا يكون كذلك إلا باجتماع أمرين:

أما الأول: أن يكون رجاءه مشوب بالخوف، وهذه المسألة تكلمنا عنها سابقًا.

لابد من اجتماع الأمرين: ﴿**وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا**﴾**أنبياء** ولو تأملت بالأدلة لوجدتها تدل على هذا الأمر حتى في أدلة الرجاء الخاصة، وحتى في أدلة الخوف الخاصة،

مثلًا قول الله جل وعلا لإبراهيم عليه السلام لاحظ كيف كان الجزم في ابتلاء الأشياء أو الأفعال التي ذكرها أو أضافها إلى الله جل وعلا: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء:78-80]،

لكن لما كان المقام الآتي متعلقا بالرجاء كان رجاءً مشوبا بالخوف قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:82].

قال الله سبحانه وتعالى في وصف المؤمن الصادق قال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾[ق:33]،

علق الخشية باسم الله الرحمن وهذا يدلك على أن المطلوب يكون خوفًا ممزوجًا برجاء.

إذن المطلوب أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء في كل الأحوال، وهذا هو حال المتقين من عباد الله سبحانه وتعالى

الأمر الثاني: فهو أن يكون الرجاء مقترنٌ بالعمل؛

وهذا موضعٌ يخلط فيه كثيرٌ من الناس، فهم يخلطون بين الرجاء والإرجاء.

الرجاء الشرعي الذي يكون عبودية حقيقية يقوم بها المؤمن هي الرجاءُ الذي يقترن به العمل الصالح، وما عدا ذلك فإنه أماني لا تغني عن الإنسان شيء في مقام الرجاء.

ولذلك تأمل في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾[البقرة:218]؛ **يعني**: أولئك الذين يستحقون أن يكونوا راجين وليس غيرهم، بل الذي حقًا يمكن أن يوصف بأنه راجٍ لله عز وجل الذي قام بالأعمال الصالحة، الذين آمنوا، والذين هاجروا، وجاهدوا في سبيل الله.

قال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:110].

قال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

أنهم مصرون على معصية الله جل وعلا ثم أنهم يأمنون مكر الله جل وعلا، فلا يأمن مكر الله إلا الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وفاتهم حظهم من رحمة الله جل وعلا.

ابتداء السياق قول الله جل وعلا:﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

﴿**الْخَاسِرُونَ**﴾ الأمن من مكر الله جل وعلا دليلٌ على انعدام أو ضعف الخوف من الله ﷻ، وذلك أن أهل الإيمان الصادق عندهم خوفٍ من مكر الله جل وعلا،

وهذا الخوف سببه أحد أمرين: إما استرسالٌ، وإما عُجبٌ، وكلاهما من البلاء.

- **الأول**: **استرسالٌ في المعصية**، يغفل الإنسان عن ربه جل وعلا فيأمن من مكر الله سبحانه.
- **والثاني**: **جانب العُجْبٌ**، أن يُعجب الإنسان بعبادته وقيامه بالطاعة، فيغتر، فيوكل إلى نفسه فيكون آمنًا من مكر الله، ومن وكله الله سبحانه إلى نفسه فقد كفر به والعياذ بالله،

والمؤمنون المتقون يخافون من هذا المقام خوفًا عظيما.وذلك الخوف يرجع إلى أحوال وصور:

أولا: **فهم يخافون أعظم الخوف من أن يكون ذنبهم ومعصيتهم لله جل وعلا سببًا في أن ينسوا الله جل وعلا فينساهم**، والله جل وعلا توعد من نسيه أن ينساه، ومن نسيه الله قطع توفيقه عنه وخذله والعياذ بالله ووكله إلى نفسه؛ ومن كان كذلك كانت له الخسارة وكانت حاله إلى دمار.

ثانيًا: **يخاف المؤمن المتقي أن يكون بسببِ ذنبه ومعصيته قد مكر به من جهة أن مبتلى فلا يصبر فيفتن والعياذ بالله.**

ثالثا: **أن تأتيه النُذُرُ وأن تأتيه العِبَرَ فلا يتعظ**، ولا يكون قلبه حيًا متيقظًا، فبالتالي أنه يخذل والعياذ بالله بعد أن يستدرج، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾[الأنعام:42]، جاءتهم العبر، جاءتهم النذر لعل وعسى أن يحصل منهم تضرع إلى الله جل وعلا: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾، ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الأنعام:44-45] فقامت عليه الحجة وبلغته النذارة والبشارة وجاءته العبر فلم يتعظ، فإنه يخشى أن يمكر الله ﷻ به.

إذن هذا المكر من الله جل وعلا بعبده مسببٌ عن المعصية والسيئة، **وأعظم أن يكون مسببًا عن الكفر بالله ﷻ**

والمكرُ تعريفه: هو الإيقاع بالخصم بكيفية خفية ،

ومنقسمٌ إلى قسمين: ومكر مذموم. مكر ممدوح،

۞**المذموم**: فهو المكر بمن لا يستحق.

المكر المذموم: الذي يكون فيه الإيقاع بالخصم بكيفية خفية، **إذا كان بمن لا يستحق**، كان متضمنًا كذبًا أو ظلمًا، أو كان متضمنًا كليهما، والله جل وعلا منزه عن ذلك الله سبحانه بكماله منزه عن كل نقص جل وعلا.

۞ **الممدوح**: فإنه المكر بمن يستحق.

هذا المكر مكرٌ فيه أنه مدح هنا، لأن هذا المكر اجتمع فيه ثلاثة أمور:

➢ **أولًا**: اجتمع فيه الدلالة على عدل الله جل وعلا والعدلُ ممدوح لأن مكر الله جل وعلا لمن يستحق المكر عقوبة وإيقاع العقوبة في محلها مدح.

➢ **ثانيًا**: هذا المكر الممدوح الذي كان بمن يستحق دليلٌ على قدرة الله، حيث أنه جل وعلا يفعل ما يشاء ﷻ ولا راد لأمره، فالله على كل شيءٍ قدير، وهذا مدحٌ في حق الله تعالى.

➢ **ثالثا**: أن في هذا المكر دليلًا على حكمة الله ﷻ الله له الحكمة البالغة، بحيث أنه قابل مكر الماكرين بمثله، بل بما هو أعظم منه وأخبر جل وعلا عن نفسه بأنه خَيْرُ الْمَاكِرِينَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:30]، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾[يونس:21]

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[الرعد:42]؛ يعني الذين قبل كفار قريش؛ كفار قريش أرادوا المكر بالنبي ﷺ ، ألم يقل الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[الأنفال:30]، إذن كانوا يمكرون بالنبي ﷺ.

قال الله جل وعلا: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[الرعد:42]؛ ما أعظم هذه الآية، كيف أنها تعطي المؤمنين طمأنينة وسكينة ورجاء في الله جل وعلا.

وجه ذلك أن الله تعالى أخبر أن الله له المكر جميعًا، وبالتالي فإن مكر غيره كالعدم، المكر الذي يقع هو مكر الله ﷻ أما مكر هؤلاء فإنه لا يقع، ولا ينفع، والله جل وعلا يجعله مُضمحلًا، هنا جاء الجواب قال ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾[الرعد:42]؛ وبالتالي إنه سيستدرجهم ويوقعهم من حيث لا يشعرون.

ولذلك قال ﷻ:﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾النحل:26،هذا من حكمة الله ﷻ.

فإذن مكر الله جل وعلا صفة مدحٍ وصفة كمال، لأنه واقعٌ بمن يستحق، هذا المكر واقعٍ من الله جل وعلا بمن يستحق،

ولذا أهل السنة والجماعة **يثبتون هذه الصفة كما وردت**، بمعنى: **تضاف هذه الصفة إلى الله جل وعلا مقيدة بما ورد**؛ الذي ورد أن الله ﷻ يمكرُ بمن يستحق كالذين يمكرون بدين الله وبأوليائه ﷻ وهذا أحسن المكر وهذا صفة كمال لله جل وعلا

أما إطلاق أن المكر صفة لله ﷻ هكذا دون تقيد، لا شك أنه مخالفٌ للنصوص وفيه نسبة ما لا يجوز، فهذه الصفة صفة مقيدة تضاف لله ﷻ كما وردت **ولا يشتق منها اسمٌ لله ﷻ**

وهذا الموضع موضعُ اختلاف بين أهل السنة والجماعة ومخالفيه، ليسوا كأهل البدع أبوا إضافة هذه الصفة لله ﷻ كما أخبر، وشأنها كشأنُ بقيت الصفات التي من هذا الجنس، يعني الصفات المنقسمة التي تضاف إلى الله ﷻ منها الممدوح لا المذموم، ومن ذلك معنى المكر، من ذلك الكيد، من ذلك الاستهزاء، من ذلك الخداع، وما إلى هذه الصفات، تضاف إلى الله ﷻ كما وردت.

أما المخالفون فإنهم لا يثبتون لله جل وعلا، وإنما تقرأ في بعض الكتب التي ألفت على هذا النهج تجد أنهم إذا جاءوا بهذه الصفات فيقولون من باب المشاكلة،أي لا تضاف إلى الله ﷻ

ولا شك أن هذا باطل

وموضوع المشاكلة مبحث من مباحث العلم البديل للعلوم البلاغية، وهو أن يسمى الشيء بلفظ غيره، ووقوعه في محله حقيقة أو تقديرا، فالله جل وعلا لا يمدح عند هؤلاء، لكن جعل هذا من باب المجاز، وكان هذا على سبيل المشاكلة نقصد أن هذا لا شك أنه مسلكٌ مخالف لمسلك أهل السنة والجماعة، **والصواب إثبات هذه الصفة لله جل وعلا كما وردت.**

إذن الله جل وعلا يمكرُ بمن يستحق وهذا القدر لابد أن يكون في القلب،

كل إنسان فإنه يخشى أن يمكر الله ﷻ به، ما من جهة أن الله ﷻ لا يحب عباده المؤمنين ولا يكرمهم ولا يتفضل عليهم، **كلا**؛ إنما ذلك مما يخشى أن يكون **عقوبة على الذنوبِ والمعاصي**؛ فالذنوب والمعاصي لها آثار، ويخشى أن يكون من آثارها أن يمكر الله ﷻ بمن يسترسل بها في هذه المعاصي ولا يبادر بالتوبة إلى الله ﷻ.

على ما وصفنا قبل قليل ربما يقع الإنسان في معصية، وينظر في نفسه فلا يرى عقوبة، مؤجلة، فيدعوه هذا إلى الاغترار ويدعوه هذا إلى الاسترسال، يظنُ أن تأخر العقوبة ربما كان من عدم تأثير السيئة وأنها عديمة الأثر، وغفل هذا المسكين على أن الذنب مؤثرٌ ولابد، لكن لحكمة الله جل وعلا قد تتقدم العقوبة وقد تتأخر العقوبة، فإن المكر بالعاصي أنه يسترسلُ في المعصية اتكالًا على عدم رؤية العقوبة، وهذا من أهم ما ينبغي على المسلم أن يتنبه له، وأن ما أكثر الغفلة.

✿ **ها هنا إلى مسألة مهمة**، وهي أن بعض الناس إذا وصل لهذا المقام فإنه قد يتكلم عنه بكلامٍ قد لا يكون فيه مراعاة مقام الأدب مع الله ﷻ، إذا وصل إلى هذا المكر حذر من مكر الله ﷻ بالعبد، **وأن الله ﷻ قد يوقع بالإنسان بلا سبب** ولا يريدُ أن يهديه ويبين له.

وقد يستدل على هذا بأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[الأنفال:24]، بل ربما يستدل بقول النبي ﷺ: «**إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**».

الله جل وعلا هو البر الرحيم، الكريم الشكور، إياك أن تظن أن ربك جل وعلا إذا أقبلتَ إليه أعرض عنك، إياك أن تظن إنك إذا عملت الحسنة جزآك عليها بأن وجهك إلى السيئة

وهو جل وعلا الذي لا يخلف وعده أخبرنا أنه من أقبل إلى الله ﷻ أقبل الله إليه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:17]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:5-7]، هذا هو الكبير، وهذا هو الرحيم، وهذا هو الشكور جل وعلا يشكرُ حسن عبادته فيثيبه عليها بحسنة بعدها.

ماذا عن هذه الأدلة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[الأنفال:24]؟

هذا إنما هو بسببٍ من الإنسان، فيكون ذلك عقوبة من الله جل وعلا وليس أن الإنسان يقبل على الله بالعمل الصالح فيجازيه الله على ذلك بأن يحول بينه وبين الهداية، حاشا وكلا، هذا لا يجوز أن يقال في حق الله.

أهل السنة والجماعة يقولون: أن الله قادرٌ على كل شيء، والله على هذا قدير، ولكنه لا يفعله، لأنه لا يليق بموجب أسمائه وصفاته، لا يليق بكماله سبحانه وتعالى،و يتنافى وحكمته.

أما إزاغته سبحانه وتعالى والحيلولة بين الإنسان والإيمان وبسببٍ من الإنسان، ولذلك تأمل معي قول الله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:5]، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[الليل:8-10]، ثم انصرفوا بأقسى العقوبة.

الآن هذا هو المكر، قال جل وعلا: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[التوبة:127]، ليس أنهم أقبلوا إلى الطاعة والخير، والإيمان، وعبادة الله فصرف الله قلوبهم، حاشا وكلا، إنما لأنهم انصرفوا عن طاعة الله عز وجل والله سبحانه وتعالى مكر بهم فأوقع هذا الانصراف في القلوب فخذلوا والعياذ بالله.

أما حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي سقته قبل قليل، فأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم يفسر بعضها بعضًا، ، والواجب الجمع والتأليف بينها وليس أن تأخذ طرفًا وتترك أخر؛

النبي صلى الله عليه وسلم بين هذا في حديثٍ أخر ففي الصحيحين **«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار»**، إذن ضع خطًا عند كلمة **«فيما يبدو للناس»**.

فإذن ذاك الذي يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع هذا عمله مغشوش، في قلبه خبيئة سوء، عنده رياء كان يعمل العمل الصالح فيما يبدوا للناس، إذن كان يظهر شيء ويخفي شيء أخر، فمثل هذا حريٌ أن يمكر به والعياذ بالله.

ثم الصادق في طاعة الله عز وجل فلا يكون ذلك أبدًا منه سبحانه وتعالى لأنه أخبر بهذا وهو سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:5-7].

الدرس الحادي والخمسون-٩١٢

٣٤-باب قول الله تعالى:﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:99].(المجلس الثاني)

المؤلف رحمه الله وقد أورد الدليل الذي يعالج أحد **خللين القلوب**:

الخلل الأول: حيث أورد الدليل على النهي والذم من الأمن من مكر الله ﷻ في إيراده قول الله جل وعلا ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

والخلل الثاني: **هو القنوط من رحمة الله**، وهو الذي جاء ذمه والتنفير منه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾. الحجر٥٦

هذه الآية فيها قصة، وهي حلول ضيف إبراهيم عليه السلام عليه وهو ملائكته الكرام، حينما نبأنا الله ﷻ عن خبر ضيف إبراهيم، وأنهم بشروه بغلام عليم، وهو إسحاق عليه السلام، هنا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[الحجر:54]، **لاحظ أنه جاء الاستفهام مرتين**، وهذا الاستفهام ليس لاستبعاد أو إنكار أن يكون الله ﷻ برحمته قد قدر الإنعام على إبراهيم بهذا الولد على كبره، فإنه يعلم بقدرة الله ﷻ ورحمته ما هو أعظم من ذلك.

لكن هذا الاستفهام كان مسوقًا مساق التعجب، تعجب أنه مع كبر سنه وسن زوجه، فإن الله سبحانه قدر أن يكون له الولد، فها هنا الملائكة عليهم السلام قالوا: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾[الحجر:55]، نبهوا إلى أن الواجب ألا يقنط الإنسان من رحمة الله جل وعلا، فأجاب إبراهيم عليه السلام ببيان أنه لم ولا يقنط من رحمة الله جل وعلا، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:56]

فهذا دليل على أن القنوط من رحمة الله جل وعلا ليس من شأن أهل الإيمان والتقوي، إنما هو من شأن من ذل وضل وانحرف عن الطريق المستقيم.

ذلك أن القنوط من رحمة الله جل وعلا فيه ارتكاب ما نهى الله عنه. قال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾[الزمر:53].

أيضًا **القنوط من رحمة الله جل وعلا يتدنى من الجهل بالله، وسوء الظن به**، من جهتين.

➤ الأولى: **من جهة اعتقاد ضعف قدرة الله ﷻ عن تحقيق المرجو، أو دفع المرهوب.**

وإلا لو اعتقد الإنسان أن الله على كل شيء قدير، وأن قدرته كاملة جل وعلا فلا يحدثه شيء، إذًا لأي شيء يقنط، ولأي شيء ييأس؟

➤ والأمر الثاني: **أنه وقع في اعتقاده تحجير رحمة الله ﷻ.**

وأن رحمة الله سبحانه أضعف من أن يحقق الله ﷻ بها مرجوه أو يدفع ما يخاف منه، فلأجل هذا كان القنوط من رحمة الله جل وعلا شأن الضالين ما شأن المؤمنين،

الواجب أن يعظم في قلب المسلم الرجاء في الله، والطمع فيما عنده، وحسن الظن به جل وعلا كيف لا يكون ذلك وقد علم العبد أن ربه هو الرحمن الرحيم، أنه وسعت رحمته كل شيء، هو الذي قال:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:156].

كيف يقنط من رحمة ربه من قال: أنا عند ظن عبدي بي، كيف يقنط من رحمة ربه من قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:53].

كيف يقنط من رحمة ربه من يعبد هذا الكريم العظيم الذي قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:47]، **هذا** ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «**ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطر على قلب بشر**»، إذا كيف يقطع الإنسان طمعه ورجائه في هذا الإله الرحيم الكريم سبحانه وتعالى.

إذًا على المسلم أن يتق الله، وأن يتأدب مع الله، وأن يقدر الله ﷻ حق قدره، وأن يحذر من سوء الظن بالله جل وعلا لكن حذار من الاغترار، ومن الاسترسال،

قال ابن القيم رحمه الله: "أجمع العارفون على أن الرجاء الشرعي لا يكون إلا مع العمل"،

عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنِ الكبائرِ، قال: «الشركُ باللهِ، واليأسُ مِن رَوْحِ اللهِ، والأمنُ منْ مِكرِ اللهِ».

هذا الحديث خرجه البزار والطبراني وغيرهما، **وفيه بحث من جهة ثبوته**، ومن جهة أن في إسناده رجلا هو **شبيب بن بِشر**، حديث من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ وعلى كل حال إذا ثبت رفعه إلى النبي ﷺ أو كان موقوفًا فهو في كل حال له حكم الرفع إلى النبي ﷺ.

❁ **هذا الحديث فيه ذكر ثلاث كبائر:**

➢ **الأولى: الشرك الذي هو أكبر الكبائر على الإطلاق**، وكيف لا يكون ذلك كذلك، والشرك بالله سبحانه تنقص من عظمة الربوبية، وهدمًا لحق الألوهية، وسوء ظن برب العالمين جل وعلا،

➢ **الكبيرة الثانية: الأمن من مكر الله**،

➢ **والثالثة.اليأس من روح الله**،

- **رَوح الله**: الرَوح بفتح الراء، هو التفريج والتنفيس من الله ﷻ ويكون من الإنسان يأس،
- **واليأس**: قطع الرجاء وانعدامه، ينعدم الرجاء في هذا الإنسان من فرج الله ﷻ مع أنه قريب، فرج الله جل وعلا قريب، لكن الإنسان يعجل، وهو في معنى القنوط من رحمة الله،

عندنا في موضوع الكبائر لابد من ملاحظة أربعة أمور:

🡸 **الأول: هل الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر؟ الجواب نعم**، دل على هذا الكتاب والسنة والإجماع، ويكفي في الدلالة على هذا قوله تعالى: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾[النساء:31]، السيئات ها هنا يتعين أن تكون هي الصغائر لأنه ذكر الكبائر قبلها، الشاهد أن الذنوب تنقسم إلى كبير وإلى صغير.

🡸 **والأمر الثاني: هل الضابط للكبيرة هو الحد أو العد؟** يعني هل تنضبط الكبائر بالحد فهي محدودة، أو بالعد فهي معدودة، ولاحظ أننا نتحدث عن الكبائر، وذلك بأنه إذا استبان لنا ما الكبيرة استبان لنا بالتالي ما الصغيرة، لأن الصغيرة هي ما كان دون الكبيرة،

قال بعض أهل العلم أن الكبائر منضبطة بالعد، واختلفوا، قيل الكبائر ثلاث، وقيل أربع، وقيل سبع، وقيل هي سبعين، وقيل هي سبعمائة، وقيل غير ذلك، **وهذا مسلك ضعيف**.

❁ **والصواب أن الكبيرة منضبطة بالحد**، وما جاء في بعض الأدلة من ذكر أشياء كما تبين الأدلة في هذا الحديث أنها ثلاثة، ففي غيرها غير ذلك هذا محمود عند أهل العلم على أن أجوبة النبي ﷺ كانت مناسبة لمقتضى الحال، أجاب النبي ﷺ في ضوء المناسب للحال الذي كان ينجيه أو يتحدث فيه النبي ﷺ.

الأمر الثالث: وهي ما ضابط، أو ما حد الكبيرة؟ اختلف العلماء رحمهم الله ها هنا اختلافًا طويلًا جدًا،

والأقرب والله تعالى أعلم أنه قال أن الكبيرة كل ذنب توعد الله ﷻ عليه بوعيد خاص، ومرادنا بقولنا "وعيد خاص": هو أن يتوعد الله ﷻ على ذنب ما بمال أو عذاب أو لعنة أو دخول أو حرمان من جنة، أو الوصف بأن الفاعل ليس منا، وما شاكل ذلك، هذه نماذج للوعيد الخاص، أما ما لم يرد فيه وعيد خاص، فإنه يكون من الصغائر لا من الكبائر.

وهو الذي اختاره، وقال معناه جمع من المحققين من أهل العلم كابن عباس رضي الله عنهما، والإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهم من أهل العلم رضي الله عنهم ورحمهم

المسألة الرابعة: هل يقترن بالصغيرة ما يسيرها كبيرة؟

الجواب نعم، نص على هذا أهل العلم الذنب الصغير قد يقترن به ما يرفعه، ويعظمه حتى **يلحقه بالكبائر،**

أولا: وذلك بأن يقترن بالصغيرة ما مبالاة بها، أن يقترفها الإنسان دون أن يبالي، ودون أن يكترث، ويكون متساهلًا إبَّان فعله لها.

الثاني: المجاهرة بها، والمجاهرة بها أمرعظيم بل قد تكون المجاهرة من حيث هي ذنبًا أعظم من الذنب نفسه،

ثالثا: الإصرار عليها، الإصرار على السيئة يسيرها إلى أن تكون كبيرة. قال ابن عباس ﷺ **«لا صغيرة مع الإصرار»**، الإصرار على الذنب، بمعنى المداومة، وعدم الترك.

الترك الذي يصحبه توبة إلى الله ﷻ منه، إنما يدمن المعصية ويداوم على المعية، **هذا هو الإصرار**، وهذا مصيّر الصغيرة كبيرة، بالتالي على المسلم حتى ينجو من هذه النكبة أن يحذر أشد الحذر من أن يكون مصرًا على صغيرة، وإنه إن ذلت قدمه عليه أن يبادر إلى التوبة إلى الله ﷻ مما اقترفته يداه.

۞ **وعن ابن مسعود ﷺ أنه قالَ: «أكبرُ الكبائرِ الإشراكُ باللهِ، والأمنُ من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روحِ الله»، رواه عبد الرزاق.**

هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق وابن جرير في تفسيره، وقال فيه الحافظ بن كثير في تفسيره أنه صحيح إلى ابن مسعود بلا شك،

وفيه تنصيص على أن من الكبائر هذه الأمور الأربعة: والجديد في هذا الأثر هو أنه جاء فيه ذكر لفظين متقاربين، القنوط واليأس،

فما وجه إيراد هاتين الكلمتين في هذا الأثر؟

لأهل العلم ها هنا اجتهادات في التفريق بين القنوط واليأس،

من أهل العلم من ذهب إلى أن بين اللفظين عمومًا وخصوصًا، فإن القنوط أشد اليأس، وبالتالي فبينهما عموم وخصوص، فكل قنوط يأس، وليس كل يأس قنوطًا.

وبعض أهل العلم رأى أن بين اللفظين تباينًا، فالقنوط هو استبعاد حصول المرجو، وأما اليأس استبعاد زوال المكروه، وعلى كل حال مهما يكن من شيء فلا شك أن اللفظين متقاربان، وقد يوضع الشيء محل الشيء إذا كان قريب منه كما قال أهل العلم.

والقنوط من رحمة الله قد يكون **متعلقًا بأمر الآخرة**، وقد يكون متعلقًا **بأمر الدنيا**،

۞ **أما فيما يتعلق بأمر الآخرة**، فإن سبب هذا القنوط راجع **إلى أحد أمرين**:

الأول: الاسترسال في المعاصي، والغرق في بحارها المظلمة،وهذا موضع ينشط فيه إبليس، يصور لهذا الإنسان بأن نيل رحمة الله ﷻ شيئًا بعيدًا عنه، معنى هو متلطخا به، ومع ما عليه قلبه من إجلال للمعاصي واقتراف المحرمات، إذًا ليستمر في هذه المعاصي ثم بعد ذلك ينتظره المآل الوخيم عند الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثاني المبالغة في الخوف وطغيانه على الرجاء: بمعنى أن يكون عند الإنسان خوف لكنه مبالغًا فيه، في مقابل أن رجائه في الله سبحانه وتعالى ضعيف أو منعدم، وبالتالي فأنه يقع في القنوط من رحمة الله ﷻ ولابد.

۞ وبالتالي علاج هذه المشكلة هو بأن يداوي الإنسان نفسه بأبداد ما وقع فيه، فإذا كان الغالب عليه الخوف من الله ﷻ حتى وصل إلى حد القنوط ينبغي عليه أن يُرَوِّح عن نفسه بالنظر إلى سعة رحمة أرحم الراحمين ﷻ بالتالي يستقيم سره، إذا كان انقطاع طمعه في مغفرة الله ﷻ بسبب ما وقع فيه من المعاصي فلينظر إلى الأدلة التي تدل على أن الله غفور رحيم.

الله جل وعلا لا يتعاظمه ذنب، ولا يمكن أن يُعتقد فيه جل وعلا أن الذنب لعظمه فهو أكبر من قدرة الله على مغفرته، **هذا ظن لا يجوز أن يكون لمسلم**، إذا معالجة الأجواء إنما تكون باتخاذ الأسباب التي هي بد لها، وكل إنسان ينبغي أن يكون طبيب نفسه.

۞ **أما الشق الآخر من القنوط فهو ما يتعلق بأمر الدنيا**، وكم من الناس من هو واقع في ذلك تجد أنه يبتلى باليأس في شأن معاشه بسبب أنه حاول مرة واثنتين، وربما ثلاث مرات أو أربع، فوجد الأبواب في وجهه مغلقة، ويصاب بهذا القنوط، ويجلس في هم وغم ،على الإنسان أن يعظم رجائه في الله ﷻ، ويعظم تعظيمه له جل وعلا وأنه لا يعجزه شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأنه لا يتعاظمه شيء، وأنه الذي إذا شاء شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

أيضا من هذه الجوانب التي لابد من التعريج عليها، التي هي من ضمن الصور اليأس والقنوط ما يصاب به بعض الناس حينما ينظر إلى تكالب الأعداء على أمة الإسلام، وما هو واقع على المسلمين من ويلات ومصائب، وأنه قد يتسلل إلى نفوس البعض شيئًا من اليأس والقنوط، واستبعاد انتصار هذه الأمة ورجوعها إلى رشدها.

وهذا أيضا لا شك أنه قنوط ممقوت، يجب أن نستبعد تماما من النفوس المؤمنة، الشريعة ربت اتباعها على التفاؤل، وعلى الأمل، وعلى الرجاء، وهذا ما نطقت به أدلة كثيرة في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الله ﷻ قد وعد، والله لا يخلف الميعاد، فقال: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ**﴾[الأنفال:18]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾[النحل:128].

إذًا ما ينبغي أبدا أن يتسلل اليأس إلى القلوب المؤمنة أو الشك في الله ﷻ إنما ذلك ينبغي أن يكون دافعًا إلى مزيدًا من النشاط والجد في إصلاح الخلل أنه وقع في هذه النفوس المؤمنة، ولأجله فقط تأخر النصر، وتأخر التقدم لهذه الأمة، وإلا فلو رجعت هذه الأمة إلى سابق تمسكها بدينها لرجعت إلى سابق عزها

دون شك، وأصبحت متبوعة لا تابعة، لأصبحت أعز الأمم، وأعزها شأنا، لكنها ابتليت بما ابتليت به بسبب هذا البعد عن الاستقامة على طاعة الله، والاستجابة لأمره وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فالله ﷻ فضله أوسع، ورحمته أكبر ما ينبغي للإنسان إلا أن يصبر ويجد ويجتهد.

كذلك الدعاة إلى الله طلبة العلم ما ينبغي عليهم البتة أن يصيبهم اليأس والقنوط والتشاؤم في مستقبل الدعوة، ومستقبل إقبال الناس على الخير، وينبغي أن يكونوا دائما متفائلين، ودائما مؤملين للخير، وأن الخير قادم، وأن الفضل من الله ﷻ مقبل

قال جل وعلا لدعاة التوحيد العظماء اللذان هما موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه:46]، هذه معية خاصة تقتضي نصرًا من الله ﷻ، وتأييدًا وتوفيقًا، وبالتالي فمن كان الله ﷻ معه فإنه لا يخزى، لا ينبغي أبدًا أيضًا أن يصاب الدعاة والمصلحون بيأس من الخير، ومن إقبال الناس هذا كله من تسويل الشيطان، ومن وسوسته في صدور الناس، يجب أن يدفع ذلك بيده، والله تعالى أعلم.

الدرس الثاني والخمسون-٩٢٥ ٣٥- باب:من الإيمان بالله، والصبر على أقدار الله.(المجلس الأول)

الصبر له من الإسلام محل جليل.حتى ذكر بعض السلف أن الصبر من الإسلام بمنزلة الرأس إلى الجسد.

الصبر: في اللغة هو الحبس،

وفي الشرع هو الصبر على المأمور، والصبر عن المحظور، والصبر على المقدور.

وتفصيل ذلك أن الصبر ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة:

الأول: **الصبر على طاعة الله سبحانه**، سواء كانت هذه الطاعة واجبة أو مستحبة، فأنه لا قيام بالطاعة ما لم يكن ثمة صبر.

النوع الثاني: **الصبر عن معصية الله سبحانه**، فما من يحبس الإنسان نفسه ويحجزها عن مقارفة الإثم، وعن الانهماك فيما حرم الله جل وعلا، فإنه لم ينفك عن الوقوع فيها، لاسيما مع قوة الداعي إليها.

والنوع الثالث: **الصبر على أقدار الله المؤلمة**، وهذا هو موضع البحث في هذا الباب،
والصبر من حيث هو بأجزائه الثلاثة له في الإسلام شأن وأي شأن،

الصبر خلق كريم، إنما تستقيم حياة الإنسان ودينه، وحسن مآله بهذا الصبر، **قال عمر رضي الله عنه**:(وجدنا خير عيشنا بالصبر)، وقال بعض السلف: (لو كان الصبر رجلًا لكان رجلا كريما)، كيف لا يكون ذلك كذلك، وأهل الصبر هم أهل معية الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:153]،
فهنيئًا للصابرين الذين خصهم الله جل وعلا بمعيته الخاصة، والتي مقتضاها نصره وإعانته وتأييده، فمن كان الله معه فما الذي فاته.

وأهل الصبر أيضًا هم أهل المعونة جاءتهم أعظم معونة من الله جل وعلا قال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[البقرة:45].

الصبر خير ما يعطى للإنسان في هذه الدنيا، قال عليه الصلاة والسلام كما ثبت عنه: والحديث في الصحيحين،«**وما أعطي عبدا عطاءا ولا أوسع من الصبر**»،

الصبر هو الذي يقود الإنسان إلى **أن يكون من أهل البشارة والفلاح والفوز**: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:155]،

الصبر معابر الجنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾العنكبوت:59

لا جنة إلا بالصبر، ولذا تقول الملائكة يوم القيامة لأهل الجنة، ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:24]، ويكفي الصبر فضلًا أن الله ﷻ يقول في ذلك اليوم العظيم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[المؤمنون:111]، يكفي والله فضلًا وشرفًا لهذه العبودية هذا الفضل العظيم ﷻ.

إذا كان الصبر بهذه المثابة فلا شك ولا ريب أنه من أهم الأمور، ومن أعظم العبادات، **وقد أجمع المسلمون على أن الصبر بأنواعه الثلاثة أمر واجب،**

والصبر كما علمت عبادة، وبالتالي لا يكون عبادة إلا إذا كان لأجل وجه الله ﷻ، تلك الثمرات العظيمة للصبر إنما ينالها المخلصون في صبرهم: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[الرعد:22]،

والصبر لا يكون إلا بمعونة من الله جل وعلا ولذا من ظن أنه يمكن أن يصبر دون أن يصبره الله ﷻ فإنه واهم، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[النحل:127].

لكن بذل جهده، وحاول واستعان بالله، فإن الله ﷻ سيجعله ينال هذه الرتبة الشريفة، قال ﷺ كما في الصحيحين: «ومن يتصبر يصبره الله»

اختلف العلماء في هذه الأقسام الثلاثة للصبر أيها أفضل؟ والأقرب والله تعالى أعلم أن الصبر على الطاعة والصبر على المعصية أعظم وأفضل من الصبر على الأقدار المؤل ذلك أن الصبر على الطاعة وعلى المعصية صبرًا اختياري، أما الصبر على أقدار الله المؤلمة فإنه صبرا اضطراري، بمعنى أن الإنسان لا عنده إلا أن يصبر، فهو مضطر إلى هذا الصبر، فإما أن يصبر طاعة لله ﷻ فيفوز بالأجر، أو أنه سيتحمل ما يأتيه، ولا شيء في يديه يدفع هذا القدر المؤلم.

لكن يبقى بعد ذلك أي النوعين أفضل من الأخر؟

قال بعض أهل العلم أن الصبر على المعصية هو الأفضل، ذلك أن الداعي إلى المعصية أعظم، حيث أن الداعي إلى المعصية هو الشهوة والهوى، وبالتالي فإن الإنسان يحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يصبر عن المعصية، ولذلك قال أهل العلم لا يصبر على المعاصي إلا الصديقون، أما ترك الطاعة فإنما يدعو إليه الكسل والبطالة، ولا شك أن الهوى والشهوة أعظم تأثيرًا في النفس من الكسل والبطالة، فكان الصبر عن المعصية أعظم من الصبر على الطاعة.

وقالت طائفة من أهل العلم بل الصبر على الطاعة أعظم من الصبر على المعصية، ذلك أن جنس فعل الطاعة أفضل من جنس ترك المعصية، فلما كان ذلك كذلك كانت الوسيلة المؤدية إلى الأعظم أعظم، وبالتالي كان الصبر على الطاعة أفضل من الصبر على المعصية.

والتحقيق في هذا هو ما حرره ابن القيم رحمه الله في كتابه طريق الهجرتين، وهو التفصيل، فالصبر على الطاعة العظيمة أعظم من الصبر عن المعصية الصغيرة، كما أن الصبر على المعصية الكبيرة أعظم وأفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة؛ صبر الإنسان على أداء الصلاة، والجهاد في سبيل الله، وصوم رمضان والحج، لا شك أنه أفضل من الصبر عن معصية صغيرة، كما أن صبر الإنسان عن مواقعة كبيرة من كبائر الإثم والفواحش أفضل من صبره على أداء صلاة الضحى أو قيام الليل مثلا، هذا هو التحقيق في هذه المسألة، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:11].

هذه الآية أول ما استدل عليه المؤلف رحمه الله، وإنما يستبين الاستدلال بمعرفة ما قبلها، قال جل وعلا: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن:11].**

المصيبة :كل ما يؤلم، سواء تعلق بأمر حسي، أو أمر معنوي، كفقد الولد، وحصول الجدب، ونزول المرض، أو السحر، أو العين، كل ذلك من المصائب.

قال جل وعلا: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** إذن الله ها هنا هو الإذن الكوني، **والإذن ينقسم كما جاء في النصوص ينقسم إلى قسمين**، إذن شرعي وإذن كوني.

- **الإذن الشرعي** وهو مقتضي لمحبة الله ﷻ للأمر المأذون فيه، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس:59]،
- **أما الأذن القدري** فهو الذي جاء في هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:102].

والإذن هو الإرادة، بينهما تقارب كبير بالمعنى، والإذن الشرعي قريب في المعنى من الإرادة الشرعية، والإذن الكوني قريب في المعنى من الإرادة الكونية.

قال الله جل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

إذن الله يعني إرادته الكونية ومشيئته، لا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا إذا شاءه الله ﷻ،

كل المصائب فالله ﷻ هو الذي قدرها وشاءها، إذًا ليس لك يد في دفعها إنما شأنك، وإنما وظيفتك هي فيما يتعلق بك، وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

ما جاء في هذه الآية من قوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ هو من العام الذي أريد به بعض أفراده، **يعني لم يرد جميع أفراد وأجزاء وشعب الإيمان،**

أنما أريد ركن من أركانه، وشعبة من شعبه، **ألا وهي الإيمان بالقدر**، من حقق الإيمان بالقدر فإن الله ﷻ يهدي قلبه، ثمرة ذلك أن الله ﷻ يهديه ويثبته، ويطمئن قلبه جزاء على هذه الحسنة، وبذلك معنى أن جزاء الحسنة الحسنة بعدها، والله جل وعلا كريم شكور يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

والإيمان بالقدر يقتضي إيمان العبد:

١. بعلم الله ﷻ
٢. وكتابته لكل ما يجري في هذا الكون في لوح محفوظ،
٣. ومشيئته لكل شيء من الذوات ومن الأفعال ومن الصفات
٤. ثم خلقه جل وعلا لكل شيء، الله خالق كل شيء،

إذًا متى حقق الإنسان الإيمان بهذه الأمور الأربعة، فإن الله جل وعلا يرزقه الهداية.

۞ قال عَلْقَمَةُ «هو الرجلُ تُصيبُهُ المُصيبةَ فيعلمَ أنهَا مِن عند الله فيرضى ويُسَّلِمُ»
يرزقه الله ﷻ الرضا بالقدر، **وهذه درجة أرفع من درجة الصبر.**

ويرزقه التسليم، قال: (يرضى ويسلم): أي أنه يستسلم لله جل وعلا فلا ينازعه في أقداره، وهذه حقيقة المسلم الذي استسلم لله ﷻ وسجد لله ﷻ.

إذًا وعد الله ذاك العبد الطائع الذي

آمن بالله جل وعلا **أولا**، وحقق الإيمان بالقدر **ثانيًا**

أن يرزقه الطمأنينة والهداية، وذلك متضمن أن يكون راضيًا مسلمًا لأقدار الله ﷻ،

وقال بعض أهل العلم أن معنى قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، يدل على ما هو أعم من هذا المعنى الخاص الذي هو الرضا والتسليم، يعني أنه يدل على حصول الهداية التامة للعبد، فكان من ثمرات الرضا والصبر والتسليم أن الله ﷻ يوفق العبد لأن يكون مستقيما على طاعة الله ﷻ

إذًا من أسباب الهداية، ومن أسباب الثبات عليها صبر الإنسان ورضاه بأقدار الله جل وعلا، والعكس بالعكس،

من سخط، فله من الله السخط، ولاز ذلك حصول البلاء والخذلان والعياذ بالله.

۞ في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اثْنَتَان في الناسِ هُما بهم كفرٌ؛ الطعنُ في النَّسَبِ، والنِّيَاحةُ على الميتِ».

هذا الحديث فيه بيان خصلتين مضمومتين، وصفهما النبي ﷺ بأنهما من خصال الكفر، **والمعنى** أنهما خصلتان تقومان في النفس، وتوجدان منهم، و**حكم** هاتين الخصلتين أنهما من الكفر.

۞ **والكفر** المراد ها هنا هو **الكفر الأصغر** لا الأكبر، والأدلة ينبغي أن يجمع بينها، وأن يؤلف بينها، لا أن يؤخذ بدليل، ويُعرَض عن غيره من الأدلة.

والجمع بين الأدلة يقتضي أن هاتين الخصلتين هما من الكفر الأصغر إلى الأكبر، والأدلة متواردة متكاثرة على انقسام الكفر إلى أكبر وإلى أصغر، **كما أن الإسلام له شعب، فإن الكفر له شعب**، وبالتالي لا يلزم من وجود شعبة أو أكثر من شعب الكفر أن قام به حقيقة الكفر الذي هو الخروج من الإسلام، كما أنه لا يلزم وجود شعبة أو أكثر من شعب الإيمان أن يكون الإنسان مؤمنا ما لم يقم به أصل الإيمان.

بمعنى دلت الأدلة على أن من شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق، هل إذا أماط كافر الأذى عن الطريق أصبح الآن مؤمنا؟ لا، لم؟ لأنه **ما قام به أصل الإيمان**، كذلك الحال في شعب الكفر لا يلزم من وجودها في الإنسان أن يكون كافرا بالله ﷻ الكفر الأكبر،

هاتان الخصلتان المهمتان اللتان حذر النبي ﷺ من وجودهما في هذه الأمة:

الأولى منهما الطعن في الأنساب، وقد مر بنا الكلام على هذا الأمر(باب ٣٠)

أما الخصلة الثانية فهي المناسبة والشاهد من إيراد هذا الحديث في هذا الباب،

قال النبي ﷺ: **«والنياحة على الميت»** **النياحة على الميت**: رفع الصوت بتعداد شمائل الميت وخصاله على جهة التسخط، كأن يقول أو تقول وا عبداه، وا كاسياه، وا كذا، وا كذا، هذا هو النياحة، **وهو أمر قبيح عظيم القبح** لأنه يشتمل على قلة الأدب مع الله ﷻ وعدم الرضا والصبر على أقداره المؤلمة، وقد مر بنا في درس سابق قول النبي ﷺ المخرج عند مسلم: **«النائحة التي لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها قميص من قطران ودرع من جرب»**، وهذه حال بئيسة تدل على أن هذا الذنب ذنب عظيم.

وهذا مع الأسف الشديد من خصال الجاهلية التي لا تزال باقية في هذه الأمة مع الأسف الشديد، فإن النياحة كانت من أهل الجاهلية، وكانت من الأمور المشتهرة عندهم، كانوا ينوحون لا سيما النساء على الموتى، ويضيفون إلى هذا الدعاء بالويل والثبور، وهذا كله من ضعف الإيمان، أو من عدم الإيمان نسأل الله السلامة والعافية.

۞ لكن ننبه ها هنا إلى تنبيهين بما يتعلق بالنياحة على الميت، أنبه إلى تنبيهين:

الأول: أنه ليس من النياحة البكاء المجرد، بكاء الإنسان بدمع عينيه، إذا تجرد من نياحة ورفع صوت، وقول ما لا يقل وتسخط في القلب، إذا عري من ذلك هذا القدر لا بأس به، بل قال شيخ الإسلام رحمه الله "أنه أمر حسن"، والدليل على هذا أن النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال ﷺ **«إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»**.

وفي الصحيحين لما كان ابن بنت النبي ﷺ يجود بنفسه رفع إلى النبي ﷺ وروحه تقعقع كأنه في شل، فتردد ترددًا عظيمًا، فما كان من النبي ﷺ إلا أن دمعت عينه، فقال له سعد بن عبادة رضي الله عنه:

«ما هذا يا رسول الله؟» فقال النبي ﷺ: «**هذه رحمة يجعلها الله في قلب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»، إذا هذا القدر لا بأس به،

الأمر الثاني أن ذكر كلمات تتعلق بالميت إذا اجتمع فيها أمران،

أن تكون صادقه، وألا يكون فيها رفع بالصوت،

وأنت خبير بأنه بالتأكيد لا يجتمع مع هذا تسخط قدر الله جل وعلا فإن مثل هذا لا بأس به إن شاء الله، ونص على هذا جمع من المحققين من أهل العلم كالإمام أحمد وغيره، بمعنى أنه لو قال إنسان في حق ميت كلمات صادقة على سبيل الشوق والحزن على هذا الميت لا على سبيل التسخط على هذا القدر، **فإن هذا القدْر ليس من النياحة.**

ويدل على هذا مسألة عند البخاري من أن فاطمة رضي الله عنها لما توفي النبي ﷺ قالت رضي الله عنها: «**يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه**»، وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن أن أبا بكر رضي الله عنه لما توفي النبي ﷺ وكان خارج المدينة، فلما وصلها دخل على النبي ﷺ فكشف عن وجهه الشريف، ووضع فمه بين عينيه، يعني قبله، وقال رضي الله عنه: «**وا نبياه، وا خليلاه، وا صفياه**».

ولهما عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، «ليسَ منَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وشقَّ الجُيوبَ، ودعَا بِدَعْوَى الجاهليةِ».

«ليس منا»، **بمعنى ليس من المؤمنين الإيمان الواجب**، وهذا اللفظ على التحقيق من الألفاظ التي إذا جاءت في سياق دل هذا على أن المذكور فيه **كبيرة من الكبائر**، يعني ما جاء في الأحاديث فيه ليس منا من فعل كذا فأعلم أن هذا الفعل كبيرة من الكبائر.

إذًا فهذا الحديث الذي بين أيدينا فيه ذكر **ثلاث كبائر من كبائر الذنوب**، قال النبي ﷺ:

الخصلة الأولى: «ليس منا من ضرب الخدود»، والمراد بذلك كما هو واضح يعني في حال نزول المصيبة، فإن من الناس إذا نزلت بهم مصيبة فقد صوابه، وصار يضرب نفسه، ويخدش جلده، **وهذا لا شك دليل على ضعف إيمانه بالقدر،**

ودليل على قلة تسليمه لأمر الله عز وجل الكوني، فهذا لا شك أنه أمر منكر، ولا يجوز.

ومثله أيضا الخصلة الثانية: «وشق الجيوب»، **الجيب فتحة الثوب من أعلى**، وهي التي يدخل منها الرأس، يعني هذا هو الجيب الذي تلبس الثوب فيدخل الرأس، إذا لبست الثوب يدخل رأسك منه، هذا يفعله ضعاف الإيمان بالله، ضعاف الإيمان بالقدر.

نذكر أن امرأة توفي ولدها، وكانت بعد ذلك تلبس على رأسها شيئا مثل الغطاء، لا تريد أن تنظر إلى السماء، تقول عياذًا بالله: ما وجدت إلا ابني؟ نسأل الله السلامة والعافية.

والمخرج من هذا أن يحقق عبودية الصبر على أقدار الله المؤلمة، ومما يعينك يا عبد الله على تحقيق ذلك شهود أمور:

أولًا: **أن تشهد فضل الله ﷻ عليك بهذه المصيبة**، فإنها سببًا لتكفير سيئاتك، وأعظم بهذا فضلًا وأجرًا، ربما لو أتيت كل النعم، ثم قارنت ذلك بتكفير سيئة واحدة لو كنت تعقل

ثانيًا: **شهود الإنسان سبب المعصية**، وأنها ما كانت لتقع لولا أن ذنبًا حصل من الإنسان: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى:30]، ولاحظ هذا العموم في الآية فأنه يشمل كل مصيبة سواء كانت جليلة أو حقيقة.

ثالثا: **أن تشاهد فيها قدر الله ﷻ، وأن ما قدره الله ﷻ نافذًا شئت أم أبيت**، لذا إن لم تسلم اختيارًا أسلمت أو سلمت اضطرارا، يعني الأمر قد نزل وانتهى، وبالتالي لا تزد همًا إلى همك،كل ذلك لن يقدر شيئا، فالذي حكم هو الله المدبر سبحانه وتعالى.

والأمر الرابع: **أن تشاهد في هذا الأمر حكمة الله ﷻ ورحمته**، فإن الله ﷻ له في تقدير الأمور حكمة ورحمة لكن هذا لا نعلمه، ويؤمن به إلا أهل الإيقان، قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:50].

أما الأمر الثالث في هذا الحديث: (ودعَا بِدَعْوَى الجاهليةِ):

سياق الحديث قرينة تدل على أن المراد بدعوى الجاهلية **هنا إنما هي النياح**، وذلك أن النياح كما أسلفت كانت مما يتميز به أهل الجاهلية.

وكل دعوى للجاهلية فأنها داخلة في مضمون هذا الحديث ومعناه، ومن ذلك أن يكون ثمة اعتزاء لأمور ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، كاعتزاء وتعصب لطائفة أو بلد أو نسب أو ما شاكل ذلك،والنبي ﷺ لما اشتجر بعض من الحيَّين الكريمين الأنصار والمهاجرين، فقال رجل ها هنا يا للأنصار، وقال رجل ها هنا يا للمهاجرين، النبي ﷺ اجتمع عليهم وقال: **«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم»!**

ومن هذا دعوى وتعصب بعض المتمسكة، وبعض طلبة العلم، وبعض الدعاة من حيث تعصبهم إلى حزب من الأحزاب، أو جماعة من الجماعات حتى إنهم يضنون الولاء والبراءة على الانتماء إلى هذا الحزب أو ذاك، من ذلك أيضًا ما يقع فيه بعض الناس من التعصب إلى عالم من العلماء، أو شيخ من الأشياخ حتى أنه يجعله محور الولاء والبراء، وميزانًا للقرب من الحق، أو للبعد عنه، يدور على ما دار عليه هذا العالم أو الشيخ، وبالتالي فأنه يقبل الآخرين أو يردهم بحسب قربهم من هذا الشيخ، أو بعده عنه، ولا شك أن هذا كله تعصب مذموم قبيح يجب على المسلم أن يتوب إلى الله ﷻ.

الرجل الوحيد الذي يجب أن يكون الولاء والبراء عليه اسمه محمد بن عبد الله ﷺ هذا هو نبينا، ورسولنا، وسيدنا عليه الصلاة والسلام، هذا الذي يجب أن يكون هو الميزان الذي يوزن به الناس، من كان إلى سنته ﷺ أقرب فهذا الذي ينبغي أن يكون إلينا أقرب، ومن كان من سنته أبعد هذا الذي ينبغي أن يكون عنا أبعد.

الدرس الثالث والخمسون – ٩٢٤ ٣٥- باب من الإيمان بالله، والصبر على أقدار الله

(المجلس الثاني)

عن أنسٍ ﷺ أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إذا أرادَ اللهُ بعبدهِ الخيرَ، عجلَ لهُ العقوبةَ في الدنيا، وإذاَ أراد بعبدهِ الشرَّ، أمسكَ عنه بذنبهِ حتى يُوافى بهِ يومَ القيامةِ».

هذا الحديث الذي قد خرجه الترمذي وحسنه وصححه الطحاوي وغيره من أهل العلم.

و فيه بيان أن الله ﷻ جعل هذه الدنيا محلًا لتكفير سيئات المسلم، ذلكم أن الله جل وعلا من رحمته ولطفه بعباده، جعل الأسباب التي تُكفر بها السيئات واقعة في الدور الثلاثة الدنيا وفي البرزخ ويوم القيامة.

والأسباب التي تُكفر بها الذنوب والسيئات في الدنيا عدة:

- أعظمها توحيد الله ﷻ،
- ثم التوبة إلى الله،
- كذلك الاستغفار،
- وكذلك الأعمال الصالحة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[هود:114]،
- كذلك الحدود المقدرة شرعًا، فإنها كفارة للأسباب التي أوجبتها،
- **ومنها أيضًا المصائب الدنيوية، وهذا هو محل الحديث في هذا الباب.**

الله جل وعلا من صفاته الإرادة، والإرادة في هذا الحديث إرادة كونية، **(إذا الله أراد الله بعبده خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا)**، ذلكم أن الناس لا يخلون من ذنوب، والذنوب مؤثرة ولابد، ولو لم يكن من تأثيرها إلا اسوداد القلب وإلا ضياع العمر، وكان الذي ينبغي أن يُستغل هذا العمر والوقت في طاعة الله ﷻ.

فإذا أراد الله بعبده الخير، فإنه يصب عليه البلاء، ويذيقه من المصائب حتى تكون هذه المصائب سببًا لتكفير السيئات. ولا شك ولا ريب أن هذه المصائب إن تأمل الإنسان فيها، وجد أنها تشتمل على فوائد وحكم ومنافع لابن آدم، لو عقل لشكر الله جل وعلا عليها: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:19]،

✿ وهذه النعمة التي تنال الإنسان بسبب المصائب في الدنيا ترجع إلى أمور عدة:

أولًا: أن هذه المصائب سبب لتكفير السيئات،

ومن الأدلة على ذلك ما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال «**ما يصيب المسلم من همٍّ ولا حزن ولا نصب ولا وصب ولا غل ولا أذى إلا كفر الله ﷻ من خطاياه، قال حتى الشوكة يشاكها**» إلى هذه الدرجة، هذا الألم اليسير الذي يصاحب هذا الأمر وهو أن يشاك الإنسان بشوكة، فإن الله جل وعلا يجعل ذلك سببًا لتكفير السيئات، ولما نزل قول الله جل وعلا: ﴿**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾[النساء:123]، بلغ ذلك من المسلمين مبلغًا عظيمًا، شق عليهم الأمر كثيرًا، كما ذكر أبو هريرة ﵁ في صحيح مسلم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لا يصيب المسلم نصب ولا مصيبة، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه**».

وهذه السيئات على قول جمهور أهل العلم، هي الصغائر، يعني أن ما تكفره المصائب الدنيوية إنما هو الصغائر من الكبائر، **أما الكبائر تحتاج في تكفيرها إلى التوبة**، ثم إن تكفير هذه المصائب والسيئات يتفاوت ويختلف بحسب عظمها أو خفتها، كلما عظمت المصيبة كانت أكثر تكفيرًا للسيئات، وكلما خفت كانت دون ذلك. المقصود أن كل مؤلم يصيب الإنسان في الدنيا سواء تعلق بأمر حسي أو أمر معنوي، فإنه سبب لتكفير السيئات قطعًا، وبالتالي لا ينبغي للإنسان أن يُغفل التفاتهُ إلى هذا الأمر العظيم الذي يجعل هذه المحنة منحة، فالله جل وعلا قدر المصائب ليطهر بها من المعائب، وهذه نعمة.

ثانيًا: هو أن المصيبة الدنيوية، سبب للصبر، والصبر أجره عند الله عظيم.

قال ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[الزمر:10]، قال بعض السلف: **كالماء المنهمر،** ثواب عظيم لا يقدر قدره إلا الله ﷻ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، فإذا صبر المسلم على هذه المصيبة كانت هذه فائدة كبرى له، وهي تحصيل هذا الأجر العظيم، قال سبحانه: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[البقرة: 155-157]. ثلاث فوائد وجوائز ينالها الصابرون، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها، إذًا كم في أعطاف المصائب من نعم جزيلة من المولى ﷻ.

ثالثًا: وهو أن المصائب التي تصيب الإنسان ويعلم الإنسان أنها مسببة عن الذنوب والمعاصي، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى:30]، قال ابن القيم رحمه الله: هذا دليل عام يشمل كل المصائب دقيقها وجليلها، أي مصيبة تقع فليعلم الإنسان أنه إنما أوتي من سيئاته، فإذا أدرك ذلك وأيقنه، بادر إلى التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والتوبة أمر محبوب إلى الله جل وعلا، وأهلها أهل محبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[البقرة:222]، فصارت المصيبة سببًا لحصول هذا الأمر العظيم، وهو التوبة إلى الله، عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:41]، يعودون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، للتوبة النصوح، فكان في أعطاف المصيبة هذه الفائدة الكبيرة.

رابعا:، وهي حصول الاستكانة لله جل وعلا والذل والخضوع،

وهذا أمر محبوب لله جل وعلا وهو من حِكم تقدير المصائب، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:76]، الله جل وعلا يحب من عبده إذا نزلت به النازلة أن يرجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخضوع والتذلل له تبارك وتعالى، يترك الكبر والغرور ومشاهدة النفس ومطالعة إحسانه، يترك كل ذلك، ليعود عبدًا ذليلًا لمولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

خامسًا: الدعاء والتضرع والأنين والابتهال إلى الله جل وعلا.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:76]، ذم الله هؤلاء على هذا، بخلاف حال أهل الإيمان، فإنهم يرجعون إلى الله جل وعلا بالتضرع والدعاء والسؤال والإثبات وهذا كله من الله عَزَّ وَجَلَّ بالمحل العظيم، الله سبحانه يحب من عبده أن يدعوه وأن يسأله وأن يتضرع إليه،.

تلك الثمرات، إنما هي مما يختص به المسلم، وأما من عداه فإن المصائب في حقه ربما لا تزيده إلا انتكاسًا وخذلانًا -والعياذ بالله-،الكافر فإنها عقوبة يعجلها الله عَزَّ وَجَلَّ في الدنيا، **ولذلك أخبر النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أن الله جل وعلا إذا أراد بعبده شرًا، أمسك عليه ذنبه)، لم يعطه هذه النعم ولم يكفر عنه من خطاياه بسبب ذنبه، يعني بسبب ما اجترحته يداه من الذنوب والسيئات والكفر والإعراض، حتى يوافي بذلك يوم القيامة، هو يوافي ذنوب يوم القيامة، تجدها كاملة ويعاقب عليها كاملة -عياذًا بالله-.

✿ والكافر في الأخرة، يجازى على ثلاثة أصناف:

➢ أولًا: **على كفره بالله ﷻ.**

➢ ثانيًا: **يجازى على سيئاته التي هي دون الكفر سواء كانت تركًا لواجب، أو فعلًا لمحرم.**

السيئات من حيث هي تنقسم إلى قسمين:

قد تكون تركًا لواجب بلا عذر، وقد تكون فعلًا لمحرم،

والكافر إذا لقي الله جل وعلا جازاه وعاقبه على كل واجب أوجبه لم يأت به هذا الكافر، كل صلاة يمضي وقتها ولم يصلها سيحاسب عليها، كل يوم من رمضان مر ولم يصم فإنه سيجازى عليه، وكذلك كل شربة خمر أو كذبة أو غيبة أو نظرة أو سرقة أو زنا –والعياذ بالله–، كل ذلك سيجازى عليه.

وبين الله ﷻ في ذلك وهو أن الإنسان الكافر –عياذًا بالله– سيجازى يوم القيامة على كفره وعلى ما دونه: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ*وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ*وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ*وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[المدثر:43]، **إذًا هو يجازى على الكفر ويجازى على ما دونه أيضًا،**

➢ ثالثا: **فهو أنه يعاقب على عدم شكر الله ﷻ على النعم، هذه النعم الدنيوية.**

الماء والطعام والهواء والأمن والرخاء والولد والمال وإلى آخر ذلك، هذه النعم الدنيوية إنما أباحها الله ﷻ لأهل الإسلام لأنهم بتوحيدهم لله ﷻ يقومون بشكرها، أما الكافر فإنها لم تبح له، لذلك تأمل في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الأعراف:32]، **حلال للذين آمنوا**، أما غير الذين آمنوا ليست حلالًا لهم، وإن كانوا يشتركون، الكل يتناولها في الدنيا، لكن في الآخرة خالصة يوم القيامة، ستكون لأهل الإيمان فقط، لكن لن ينعم بها الكفار في الآخرة، إذًا هي النعم سوف يجازى عليها هذا الكافر أيضًا لأنه لم يقم بشكرها، **وأعظم شكر لها توحيد الله ﷻ والإيمان به وبرسوله ﷺ،**

إذًا من أراد الله ﷻ به شرًا أمسك عنه ولم ينزل به هذه المصائب، وبالتالي لا تحصل له تلك الفوائد ومنها تكفير السيئات، حتى يلقى الله ﷻ فيجازيه على هذه السيئات كاملة موفورة.

۞ **وهنا مسألة، وهي قوله ﷺ:** «**وإذا أراد الله بعبده شرًا**»، الله ﷻ قد يريد بعبده الشر كما جاء في هذا الحديث،ولكن تنبه ،**الشر إنما يضاف إلى مفعول الله لا إلى فعله،**

فعل الله الذي يقوم به ﷻ، هذا لا شر فيه البتة، بل كله خير، قال النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**»، الشر لا ينسب إلى ذاته، ولا ينسب إلى صفاته ولاإلى أفعاله ﷻ، **إنما يكون الشر في المفعول**، في المقدر، في المخلوق، وهو شر أراده الله ﷻ **لغيره لا لذاته**، الله لا يريد الشر لذاته، يعني لكونه شرًا قدره، لا، لكن قدَّر هذا الأمر الذي هو شر لأنه يترتب عليه خير يحبه الله ﷻ، إذًا هو مرادٌ لغيره لا لذاته.

الشر الذي يقدره الله ﷻ كله ليس شرًا محضًا، إنما هو شر من وجه وخير من وجه، فالله ﷻ إنما قدره لأجل هذا الخير الذي فيه، فيكون تقديره ﷻ له.

قال النبيُ ﷺ: «إن عِظَمَ الجزاءِ معَ عِظَمِ البلاءِ، وإن اللهَ تعالى إذا أَحبَّ قومًا ابتلاهُم، فمَن رضيَ لهُ الرضَا، ومن سَخِطَ فلهُ السُّخْطُ» حسنه الترمذي.

«**فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السَخَط**»، ولك أن تقول: «**ومن سخْط فله السُّخْط**».

هذا الحديث رواه أيضًا عن أنس ﵁، لكنه حديث مستقل ليس تابعًا للحديث السابق.

(أن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمَ البلاء) ولك أن تقول **(عِظَمَ)** ولك أن تقول **(عُظْمَ)**، هذه القطعة من الحديث، تجرنا للحديث عن موضوع يتعلق بالمصائب وثمراتها ونتائجها.

۞هل هذا الحديث يفيد أن الإنسان يثاب على المصيبة، إضافة إلى كونها سببًا لتكفير السيئات؟

هذا الموضوع، التحقيق فيه أن المصائب النوازل التي تنزل بالإنسان تنقسم إلى قسمين،

⬅ القسم الأول: **أمور مؤذية أو مصائب هي نتيجة لعمل صالح.**

يعني أن تكون مسببة عن عمل صالح، وهذه يثاب عليها الإنسان دون شك: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[التوبة:120]، إذًا بين الله ﷻ أن ما ينشأ عن الأعمال الصالحة من أمور مؤذية فإن الإنسان يثاب على ذلك: ﴿**إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾[النساء:104]، **وهو الثواب**.إذاً ما ينال الإنسان من تعب ومشقة بسبب صيامه، أو بسبب وضوئه في الليلة الباردة، أو ما يلقاه المجاهد في سبيل الله إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة، **هذه يثاب عليها الإنسان قطعًا إذا كان مخلصًا لله.**

🡸 القسم الثاني: **المصائب والمؤذيات التي ليس للإنسان يد فيها.**

هذا هو محل البحث كأن يصاب الإنسان بفقد ولد أو حبيب، أو يصاب بمرض أو عين، أو يصاب بحريق بيت أو فقد مال أو خسارة تجارة، إلى آخر ذلك. هذه المصائب سبب للتكفير، **هل هي مع ذلك ترفع الدرجات وتنيل الإنسان المثوبات أم لا؟**

۞ هذا الموضوع هو محل اختلاف بين أهل العلم، واختلف العلماء فيه إلى قولين:

القول الأول: **أن المصائب الدنيوية ليست سببًا للثواب، إنما تكون من حيث هي سببًا لتكفير السيئات،** إنما لو صبر الإنسان يثاب على الصبر لا على المصيبة، قالوا قاعدة الشرع قد دلت على أن الثواب لا يكون إلا على أمر وجودي، بمعنى لا يكون إلا عن عمل صالح فعله الإنسان أو توّلد من فعله، أو كان هذا هو السبب له.أما أمر لا يد للإنسان فيه، لا سبب للإثابة لأجله.

وهذا القول اختاره جماعة من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله وتلميذه (ابن القيم)، وروى معنى ذلك عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ، وروي أيضًا عن غيره من الصحابة،

والقول الثاني: **وهو أن المصائب سبب للثواب.**

أولًا سبب للتكفير،

ثانيًا سبب للثواب، إن صبر أثيب ثوابًا ثانيًا.

وهذا القول نسبه النووي رحمه الله في شرحه على مسلم إلى جماهير العلماء، وجاء عن أبي هريرة ﷺ أن المريض يثاب على مرضه، فكأنه يميل إلى هذا القول ﷺ

واستدل هؤلاء في هذا الحديث الذي بين أيدينا، «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»، واستدلوا أيضًا بما خرج الإمام مسلم رحمه الله من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: **«لا يصيب المسلم مصيبة حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها خطيئة ورفعه بها درجة»**.

العطف بالواو **ها هنا يقتضي أن المصيبة ترتب عليها الأمران**. التكفير والثواب.

لكن يُكدِّر على هذا ما جاء في رواية أخرى عند مسلم فيها **العطف بـ(أو)**،«كفر الله عنه بها خطيئة أو رفعه بها درجة»، **وهذا محل بحث طويل عند أهل العلم**، هل هذا شك من الراوي يعني حصل عنده

شك، أقال النبي ﷺ الأول؟ أو قال الثاني؟، أو كان من النبي ﷺ من قوله أراد به التنويع؟ بمعني أن تكون المصيبة سببًا لتكفير الخطايا لمن عنده ذنوب، فإن لم تصادف هذه المصيبة ذنبًا كانت سببًا لرفع الدرجة؟

على كل حال، الذي يظهر لي –والله تعالى أعلم

أن المصيبة إذا نزلت بالإنسان يكون حال صاحبها واحدًا من اثنين:

إما أن يكون صابرًا وإما أن يكون جازعًا ساخطًا.

فإن كان صابرًا فهذا محل اتفاق، أنه صار مثابًا، لأنه صابر، فيكون الثواب حاصلًا له لكن بسبب الأمر الموجود الذي بدر منه وهو الصبر وهذا لا خلاف فيه، أما إذا كان جازعًا ساخطًا فإنه لا يمكن أن يقال إنه مع هذه الحال يكون مثابًا، بل الدليل قد دل على أنه يكون آثمًا.

قول النبي ﷺ: **«ومن سخط»**، أقال ﷺ: **«فله الثواب»**؟، أم قال: **«فله السخط»**؟ إذًا لا يمكن أن يكون ساخطًا ومثابًا في نفس الوقت،

وبالتالي يمكن أن تقرر المسألة في هذه الصورة وهي أن الثواب إنما يتعلق على الأمر الوجودي المصاحب للمصيبة وهو الصبر.

والخلاف إنما يظهر ويتحقق إذا تصورنا حالة هي وسط بين الصبر والجزاء، وهذا في الحقيقة إن تصور فإنه يكون محل الخلاف، من أهل العلم من قال يثاب ومنهم من قال لا يثاب، وإن كان والذي يبدو أن تصور ذلك فيه ما فيه، وأن المصيبة في الغالب لا تخلو من هاتين الحالتين والله تعالى أعلم.

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن **«عِظم الجزاء مع عظم البلاء»**، أخبر أيضا كما في الصحيح: **«من يرد الله به خيرًا يصب منه»** ولذلك كان أعظم الناس مصيبة وابتلاء، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سُأل النبي ﷺ بإسناد صحيح: **«من أعظم الناس بلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»**،و يبتلى المرء على قدر إيمانه، فمن كان في إيمانه صُلبًا، شدد عليه، ومن في إيمانه ضعيفا خفف عليه، كما قال ﷺ.

قالت عائشة رضى الله عنها كما في الصحيحين: **«ما رأيت أحدًا اشتد به الوجع كما اشتد برسول الله ﷺ»**، وذلك لأنه أعظم الخلق منزلة ومكانة عند ربه، فلذلك عظم بلاءه ﷺ ليعظم أجره عند ربه ﷻ.

والله جل وعلا إذا أراد بعباده خيرًا ابتلاهم، ثم تكون النتيجة بعد ذلك، أن من رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، وجزاءه يكون إنفاقًا، أهل الرضا الذين رضوا عن الله ﷻ في تقديره، فإن الله جل

وعلا يرضى عنهم، والذي يسخط ربه جل وعلا في تقديره، فإن الله ﷻ يسخط عليه، والرضا والسخط من الله جل وعلا صفتان فعليتان، والله جل وعلا يرضى إذا شاء ويسخط إذا شاء ﷻ.

۞ وهذا الموضع من الحديث يجرنا أيضًا للكلام عن مسألة الرضا بالقدر، وهذه مسألة مهمة

هل الرضا واجب؟ أو ليس بواجب؟ عندنا درجتان: صبر ورضا

هناك درجة ارفع هي: درجة الشكر أن ينتج عن المصيبة شكر الله ﷻ والفرح بها، **وهذه لعباد الله ﷻ الأخيار المتقين،** كما قال عمر بن عبدالعزيز (أصبحت وما لي في سرور إلا في مواضع القضاء والقدر).

قلنا الصبر واجب، الدرجة الثانية هي درجة الرضا أرفع من الصبر، أهي واجبة أم لا؟

۞ انتبه إلى أن الرضا له طرفان:

الطرف الأول: الرضا عن قدر الله ﷻ القائم به ﷻ

يعني تقديره الذي هو فعله، **وهذا واجب بالاتفاق،**

يجب على كل إنسان أن يرضى عن فعل الله، عن تقدير الله، ولا يسخط فعله جل وعلا ولا يعترض على فعله جل وعلا، بل يعتقد أن في تقدير الله ﷻ الخير كل الخير، وأن فيه الحكمة كل الحكمة.

أما الطرف الثاني فهو محل البحث وهو: **الرضا بالمقدور، الرضا بالمصيبة.**

يعني نزلت به مصيبة، فقد ماله، سرق بيته، هل رضاه **بهذا الذي نزل به أمر واجب أم لا؟**

قبل أن نسترسل، ما الفرق بين الصبر والرضا؟

قال العلماء كعمر بن عبدالعزيز وابن المبارك وغيرهما من أهل العلم، الفرق بينهما

أن الراضي لا يتمنى تغيير الحالة التي هو عليها

وأما الصابر فإنه بخلاف ذلك، الصابر حبس نفسه، حبس قلبه عن اعتقاد ما لا يحل، وحبس لسانه عن قول ما لا يحل، وحبس جوارحه عن فعلا ما لا يحل، **لكنه يتمنى أن هذه المصيبة تزول**

قد يقول قائل: هل في هذا منافاة للأمر الجبلي وهو الشعور بالألم؟

الجواب: لا، لا يعني هذا أن الراضي لا يشعر بالألم، لأنه بشر وإنسان، ولكن كما قال العلماء، كم من أجساد محشورة بالألم وقول محشورة بالرضا، يمكن أن يجتمع الأمران يكون في جسده متألمًا ولكن في قلبه راضٍ وساكن ومطمئن، **هذا القدر الذي هو الرضا بالمقدور، هل هو واجب أم لا؟**

ذهب بعض أهل العلم إلى أنه واجب، كابن عقيل الحنبلي وغيره من أهل العلم، **واستدلوا بهذا الحديث،** (فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط)،

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أنه مستحب وليس بواجب، الواجب الصبر، يحبس نفسه عما لا يحل. أما أن يرضى بالمصيبة فهذه الدرجة أعلى وأرفع فهي مستحبة لا واجبة، لأنه لم يأت في الدلة دليل على إيجابها، إنما جاء الثناء والمدح بمن قام بها، وهذا ما اختاره شيخ الإسلام (ابن تيمية) و(ابن قيم) وجماعة من أهل العلم **وهذا هو فيما يظهر الأقرب**، وإلا لو قيل بإيجاب الرضا لكان في هذا تكليفًا بأمر عظيم، يشق على أكثر الناس، وبالتالي فيكون الأمر والله تعالى أعلم أن الرضا بالمقدور أمر مستحب ومن جاهد نفسه فوصل إليه فليبشر بالخير الجزيل ونيل رضا الله سبحانه وتعالى.

وبالتالي فإن هذا الحديث بناء على هذا القول يوجه إلى أن الرضا والسخط الذي **تعلق بتقدير الله لا بالمقدور**، يعني من رضي بتقدير الله وفعله فله الرضا، ومن سخط ذلك فله السخط.

الدرس الرابع و الخمسون – ٩٦٠   ٣٦- باب ما جاء في الرياء

والرياء: مصدر راءَى يُرائي رياءً ومُراءاةً،

والمرادُ به: أن يعمل الإنسان العمل الذي لله لغيرِهِ وأن يتقرب الإنسان بالعمل لله سبحانه ولغيرِهِ، فالمرائي أراد بعملِهِ غير وجه الله ﷻ خالصًا، إنما أراد تحصيل مدح الناس وثنائهم وبلوغ الرئاسةِ والتصدُّر فيهم.

والرياءُ داء عُضال، وهو من أعظم غرائب النفس مكائدها الباطنة، والباليةُ بِهِ عظيمة، والكلام فيه له شأن، وقد تكاثر في الأدلة بالتنبيه والتحذير فيما يخصه، والأمر بضده إلّا وهو الإخلاص.

۞ الرياءُ ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هو الرياء الأكبر، وهذا رياءُ المنافقين: وهو الرياء الذي يقعُ في الأعمال كُلها، في أصل الدين، وفي فرعهِ، وهو الذي جاء في قول الله ﷻ: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾[النساء:142]، **وهذا لا شك أنه شركٌ أكبر.**

القسم الثاني: هو الرياء الأصغر وهو الذي يقع من المسلم في بعض الأعمال.

فيريد بها وجه الله ﷻ ويريد به أيضًا أن يتصنع للخلق، وأن يحمد ويثنى عليه، **وهذا ليس بشركٍ أكبر وإنما هو شركٌ أصغر.**

و ابن القيم رحمه الله عبر عن هذا النوع بقولهِ يسير الرياء، وذلك أن الرياء الكامل هو رياء المنافقين.

۞ الرياءُ كما سبق أن ذكرت البَليةُ به عظيمة، والخطر في شأنهِ عظيم ويظهرُ هذا من وجوة:

➢ **أولا: أنه قد جيء في النصوص وصفُ هذا الأمر بأنه من الشرك بالله ﷻ واعظِم بهذا خطورةٍ وتحذيرًا.**

فقد سماه النبي ﷺ **الشرك الخفي،** ، وسماه النبي ﷺ **بشرك السرائر،** وسماه النبي ﷺ **بالشرك الأصغر.**
وبالتالي الأمرُ فيه عظيم، فإن وصفه بأنه شرك مؤذنٌ بأنه أكبر من غيره من الكبائر.

➢ **ثانيا: أن الرياء محبط للأعمال، وهذا الحكم في الجملة.**

وذلك أن الله ﷻ شرط في قبول الأعمال والإثابة عليها الإخلاص له جل وعلا، فالإخلاصُ والرياء ضدانِ لا يجتمعان، متى وجدَ الرياء زال الإخلاص، وبالتالي كانت الأعمال حَبطةٌ عياذا بالله.

➢ **ثالثًا:وهو صعوبة التخلص من الرياء،**

فإن الرياء دافعه دافعٌ قوي،إذ أن الذي يحُثُ ويدفع إليه شهوة خفية كامنةٌ في النفوس، ألا وهي حبُ المدحِ والرئاسة، ولذلك فإن الرياءَ يعرضُ للصالحين، للعلماء، للعُباد، ولا يكاد يسلمُ منه إلا الصديقون، فمسالكه خفية وطَرائقه دقيقة، له أشكالٌ وله ألوان، رُبما تتصور من إنسان في صورٍ حسنة وفي حقيقتها السُم الزُعاف. إذًا هذه الأوجه و على المسلم أن يكون حذرًا أشد الحذر منه، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[الكهف:110].

هذه الآية آية عظيمة فيها الأمر بالإخلاص لله ﷻ وهذا يتضمن أن يستلزم ترك الرياء: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ المؤلف رحمه الله أورد شطر الآية وأراد منك أن تُكملها وما بعدها؛ ليستبين لك وجه الشاهد، وجه الشاهد: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

ووجه الدلالة هنا من جهتين:

الأولى:في قوله ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ **فإن العمل الصالح هو المُقيد بالسُنة الخالصُ من الرياء.**

وبالتالي فإن هذه الآية فيها زجرٌ وتحذير من الرياء، لا يكون العملُ صالح إلا باجتماع هذين الأصلين، **وإن شئت فقُل اجتماع هَذين الركنين أَلَا وهما الإخلاص لله والمتابعة لرسولهِ ﷺ.**

الثاني: تأكيدٌ لما قبله، وهو في قولهِ تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

والرياء شرك بالله، إذًا الآية فيها النهي عن الرياء، وكل دليل جاء فيه النهي عن الشرك فإنه يتضمن النهي عن الرياء، وكل دليل دل عن النهي عن الشرك فإنه يتضمن النهي عن الرياء.

في هذهِ الآية فوائد قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾

- النبي ﷺ بشرٌ لا يختلف عن البشر، ولا يتميز عن البشر من جهة كونهِ بشرًا، من هذه الجهة لا فرق بين النبي ﷺ وغيره، ومن خالف في ذلك فقد كذب صريح الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إنما الفرق في قولهِ تعالى: ﴿ يُوحَى إِلَيَّ﴾ الفرق أنه –عليه الصلاة والسلام– نبيٌ ورسول، وبالتالي ليس له من الربوبية شيء، وليس له من الإلهية شيء، وليس له من خصائص الإله العظيم سبحانه شيء.

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ **الإله هو المعبود**، معبودكم يجب أن يكون واحدًا وهو الله ﷻ،
- ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، **هذه الآية استدل بها السلف رحمهم الله على رؤية الله ﷻ الآخرة،** وربنا سبحانه يُرى في الآخرة في موضعين في عَرصات القيامة وفي جنات الخلد.
- أنه لَمَا جاء النهي عن الشرك عُلق ذلك بصفة الربوبية،﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ وهذا فيه دليلٌ على منهج ومسلك أهل السُنة في أدلة التوحيد وذلك أن الربوبية دليلٌ على الألوهية، كأنه قال لأنه ربكم وجب أن تعبُدوه وحده ولا تُشركوا به شيءَ.
- ثُم الفائدة الأخيرة وما أحسنها وما ألطفها وذلك في قولهِ جل وعلا: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

كلمة أحدا هنا نكرة في سياق النهي، وقد تعلمنا في أصول الفقه أن النكرة في سياق النهي تُفيدُ العموم، وبالتالي في هذه الآية النهي عن الإشراك مع الله ﷻ بأي أحد. أحد إنس كان أم جن، وليًا كان أم نبيًا، حجر كان أم شجر.

وبالتالي كان فيها ردًا على أهل الشرك الحديثين والقدماء، الذين زعموا أن الشرك إنما هو ما كان فيه التقرب إلى الأصنام والأوثان.

وعن أبي هريرة مرفوعا «قال اللهُ تعالى: أنا أغنى الشركاءِ عن الشركِ، من عمِلَ عملاً أَشْرَكَ معي فيه غيري تركتُهُ وشِرْكَهُ» رواه مسلم.

هذا الحديث حديثٌ قدسي يرويه نبينا محمد ﷺ عن ربه

والحديث القدسي كالقرآن من جهة أن لفظه ومعناه من الله جل وعلا، كما أن القرآن تكلم الله به حقيقةً، فكذلك الحديث القدسي تكلم الله به حقيقةً، فلا فرق بين القرآن والحديث القدسي من هذه الجهة، **إنما الفروق بينهما من جهات أخرى.**

فأولًا: الفرق بينهم من جهة التعبد، القرآن مُتعبد بتلاوته بخلاف الحديث القدسي.

ثانيًا: القرآن مُتحادّى بهِ، تحدى الله ﷻ به الخلائق، وأما الحديث القدسي فلم يكن في شأنهِ ذلك.

الأمر الثالث: من جهة الأجر ومن جهة الثواب، فإن في تلاوة القرآن ما ليس في قراءة الحديث القدسي، وبالتالي فإنهما يفترقان من هذه الجهة إلى فروقٍ أخرى بين القرآن والحديث القدسي.

الله جل وعلا لغناه التام ولكماله المطلق لا يقبل أن يشرك معه أحد، فإما أن تكون العبادةُ له خالصة وإلا فإن الله جل وعلا يرد العمل ويحبط ثوابه ولا يقبل منه شيئا، «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**» لاحظ أن (أَفْعَلَ التفضيل) ها هنا ليست على بابها، فليس لشركاء الله الذين يزعمهم المشركون غنىً، إنما هذا لأدلالة على غنى الله جل وعلا المطلق، على حد قول الله سبحانه: ﴿**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا**﴾[الفرقان:24]، مع أن أهل النار ليس معهم ولا لهم خير.

قال: «**تركته وشركه**» يترك الله جل وعلا العامل والعمل، وبالتالي فإن هذا الدليل صريحٌ في حبوطِ العمل الذي دخله الرياء.وجاء عند أحمد في روايتِهِ لهذا الحديث: «**فأنا منه بريء وهو للذي أشرك، فليطلب منه ثوابًا**»، يعني أن يطلب هو من الذي أشرك إذًا ليذهب إليه وليطلب منه ثوابًا أما ربنا الغني ﷻ فإنه لا يُثيبُ على عملٍ مشوب قصد به هو سبحانه وغيره، وهذا من المواضع المهمة التي تحتاج إلى تنبه،

وذلك أن أحوال الرياء من حيث اقتضاء الحبوط للثواب وعدم ذلك ترجع إلى ما يأتي:

۞ أولًا: **الرياء المحض وهو الذي لا قصد للإنسان فيه للدار الآخرة،**

يعني لا يريد وجه الله بالعمل، ولا يريد تحصيل الثواب الأخروي، إنما أراد الرياء فقط، قصد التصنع للمخلوق فقط وهذا معلوم بالضرورة أنه عمل حابط.

وهل يُتصور وقع ذلك من مسلم، أو أن هذا لا يكون إلا من مشركٍ منافق؟

بعض أهل العلم كابن رجب رحمه الله ذهب إلى أن هذا العمل يمكن أن يُتصور وقوعه من مسلم في الأعمال التي تظهر كالحج والصدقة والزكاة وما إلى ذلك، لكن لا يُتصور وقوعه من مسلم في الأعمال التي فيها خفاء كالصيام أو صلاة الإنسان في جوف بيته وما إلى ذلك،

۞ النوع الثاني: **هو الرياء اللاحق بأصل العمل.**

بمعنى قام بالعمل أصلًا ودافعه إرادة وجه الله ومُراءة الخلق، قام يصلي ويريد أن يُثاب وأن يؤدي الفريضة التي أوجبها الله عليه، ويريد أيضًا أن يُحمد ويُثنى عليه ويراه الناس ويُشيرون إليه بالأصابع ويقولون عابد، **هذا القصد كان مقارب لأصل العمل**، يعني ما ابتدأه إلا وهو يريد هذين الأمرين ، **وهذا النوع من الأعمال حابطٌ بلا شك**، بل قال بن رجب إنه لا يعلم عن السلف خلاف في ذلك، وإن كان بعض المتأخرين قد خالف في هذا ولكنهم محجوجون بالإجماع المتقدم ومحجوجون بالأدلة الصريحة الواضحة.

من ذلك هذا الحديث الذي بين أيدينا «**من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»، وأضف إلى هذا ما خرج النسائي «**رجل جاء إلى الرسول ﷺ وقال يا رسول الله الرجل يريد الغزو للأجر والذِكرِ ما له** -يعني ما الذي يحصله هو يريد الغزو والقصد ماذا؟ أمران. أجر وذكر (ذكر يعني أن يذكره الناس فيثنون عليه ويحمدونه)- **فقال النبي ﷺ لا شيء له فأعاد الرجل السؤال، فأعاد النبي ﷺ الجواب فكرر السؤال ثالثًا فأجاب النبي ﷺ ثالثا بقوله: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وأُبتغي به وجهه**»، هذه قاعدة راسية تنسحب على جميع الأعمال

قاعدة: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وأُبتغي به وجهه.

والسؤال هذا العمل الذي صاحبه الرياء في أصلهِ أكان خالصًا؟ لم يكن خالصًا، وبالتالي فإنه غير مقبول أي أنه حابط لا ثواب فيه، ويا ليت أن العمل الذي دخل فيه الرياء يكون حابطًا فحسب إنما هناك عقوبة عظيمة تترتب على الشرك بالله ﷻ، الذي علمنا أنه شركٌ أصغر.

۞ النوع الثالث: **هو الرياء الطارئ**،

بمعنى أنه ابتدأ العبادة وهو مخلصٌ فيها لله، ثم طرأ عليه واردُ الرياء **وهذه الحالة لها صورتان:**

➢ **الأولى**: أن يكون هذا الوارد خاطرٌ فدفعه فذهب، قام يصلي ثم تنبه إلى أن هناك إنسان يحبه أو يقدره أو يطمع فيه ينظر إليه، فبدأ يحسن الصلاة وبدأ يُطبق السُنة كاملة في ذلك، ثم إنه تنبه وتعوذ من الشيطان وترك هذا الالتفات والتصنع للمخلوق،**فإن هذا لا يضره بلا شك**،خاطرٌ ورد فدفعه لا يضره إن شاء الله

➢ **الصورة الثانية**: أن يطرأ فيسترسل معه العامل، يعني إذا طرأ عليه في أثناء العمل بقي معه إلى انتهائه.

✹ هذا موضع اختلف فيه العلماء:

- **قول الأول**: إن هذا الرياء الطارئ لا يضر في قبول العمل؛ لأن ابتدأه كان لله خالصًا.
- **قول الثاني**: إن هذه الصورة يكون فاعلُها ارتكب معصية غير أن العمل ثبت ثوابه له، لأن العبرة بالأصل.

- **والقول الثالث**: أنه حابط أيضًا مثله مثل الصورة التي قبلها، **وهذا القول هو الأقرب والله تعالى أعلم**؛ وذلك لأن الأدلة التي سبقت لم تفرق في ورود الرياء على العمل بين ما كان في أصلهِ وبين ما كان **طارئ** عليه، «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وأبتغي به وجهه**»، هل هذا العمل الذي خالطه الرياء في وسطه واستمر إلى نهايته هل هو خالصٌ لله؟ الجواب لا، وبالتالي فإنه يكون حابطً أيضًا.

لكن تنبه هنا إلى من أهل العلم كابن جرير الطبري وغيره من أهل العلم قالوا إن محل الخلاف

- **ومحل البحث ها هنا هو في عمل يرتبط أوله بأخرهِ،**
- **أما ما كان مما لا يرتبط أوله بأخره؛ فإنه لا يرد فيه الخلاف ما معنى هذا الكلام؟**

يعني الخلاف إنما نتصورهُ في عمل واحد له ابتدأ وانتهاء كالصلاة كالصوم يرائي في صيام اليوم والعمل لا يكون صيامًا إلا من أول اليوم إلى أخرهِ فيه إمساك، الصلاة من التكبير إلى التسليم، الحج منذ أن يُحرم إلى أن يطوف طواف الوداع، أما الأعمال التي لا يرتبط أولها بأخرها كقراءة القرآن، فإن كُل آية بمثابة العبادة المستقلة، الذكر، التسبيح، كل تسبيحة بمثابة العبادة المستقلة، وبالتالي ما مضى والإنسانُ مخلصٌ فيه فإنه مُثابٌ عليه وما ورد عليه الرياء فما بعد فإنه يكون قد راءى فيه، وبالتالي فهو حابط.

۞ **النوعِ الرابع: هي في الرياءِ اللاحق بعد العمل**

بمعنى قام الإنسان بالعمل مخلصًا ثُم حصل الرياءُ بعد ذلك،

وهل هذا متصور؟ هل يمكن أن يرائي الإنسان بعمل قد مضى وانتهى؟

الجواب: نعم، كأن يقوم الليل ثم أنه إذا أصبح تحدث بما عمل، والمراد أن يُعجب الناس به وأن يُصدر في المجالس وأن تكون له الكلمة لأنه إنسان عابد، والغالب أن مثل هذا نيته في الأصل مدخوله لكن لنتصور ولنَقُل إنه كان مخلصًا، هذه الصورة من أهل العلم من قال إنها من الرياء، ومنهم من قال إنها لا تدخل في مسائل الرياء بل هذه من مسائل السمعة، وإن شأت فقُل التَسميع.

واختلف العلماء في التفريق بين الرياء والتسميع و في الصحيحين قال النبي ﷺ: «**من راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به**»، وعند ابن حبان عن أنس رضي الله عنه بإسناد صحيح «**أن النبي ﷺ كان في دعائهِ قال: وأعوذ بك من السُمعةِ والرياء**»، إذاً أمران شيء اسمه **سمعه** وشيء اسمه **رياء**.

السمعةِ أو التسميع أكثر من رائيته فرق بينهما ويبدو لي والله أعلم أنه هو الفارق الصحيح،

أن الرياء يكون مقارنًا للعمل وهذا ظاهر من اللفظ؛ هو يعمل ويريد أن يُرى عمله رياء، فيهِ رُؤيه.

السُمعة أو التسميع فإنها ما كان لاحقًا بعد العمل؛ لأن الأمر الأن لا يعدو أن يكون سماعًا بالعمل، يعني يَسمع خبرًا ويُسمع خبر العمل، فهو يتحدث بالعمل بعد ذلك لأجل أن يُحمد ويُثنى عليه، وهذا يقع مع الأسف الشديد كثيرًا من الناس لا يصبر أو لا يُطيق أن يصبر على كتم عملٍ في السابق، ولذلك تجدهُ يتفننُ في الحديث حتى يصل إلى أن يتكلم عن عملٍ عمله سابقًا.

المقصود سواء سمينا هذه الصورة رياء أو تَسميعًا ما حكمها؟

اختلف العلماءُ أيضًا في هذه المسألة:

- **منهم من قال**: إن هذا الأمر ليس محبطًا للعمل؛ لأن الدليل قد جاء على أن الدليل قد جاء على أن الرياء هو المحبط وهذا ليس برياء، إنما هذه معصية يُعاقب عليها، أما العمل فالثوا ثابتُ فيه.
- **وقال بعض أهل العلم**: إن هذا العلم حابط أيضًا؛ لأن حكمهُ حُكم الرياء ولا فرق بينه وبين الرياء، والله جل وعلا لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصًا.
- **وقال بعضُ أهل العلم**: إن المقام مخوفٌ محتمل، يعني يخشى على مَن سَمّع أن يكون عملهُ حابط.

بل ما يبدوا والله أعلم من خلال التأمل في قول النبي ﷺ (ومن سَمّعَ سمعَ الله به) **أن هذا هو وعيد،** والمراد بأن يُسَمعَ الله به أنه يفضحهُ على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ومثلُ هذا لا يتناسب أن يكون معه إثابةٌ على العمل، عملٌ كان سبابًا لأن يُسَمعَ بصاحبِهِ يوم القيامة ما يتناسب معه أن يكون معه ثواب، فالذي يبدو والله أعلم أن هذا التسميع يوصل العمل إلى حد الحبوط، ولا يُستغرب أن يكون شيء متأخر مُحبطًا لشيء متقدم فإن الردة المتأخرة محبطه للأعمال المتَقدمة إذا قاربت الموت، كذلك المعاصي والسيئات دلة الأدلة على أنها مؤثرة إحباطً أو إضعافً للثواب بالنسبة للحسنات المتقدمة عليه.

۞ والصورة الرابعة أنبهك فيها ونفسي، إلى ثلاث تنبيهات

التنبيه الأول: أن علم الإنسان بهذا الحكم يحفزهُ إلى أن ينظُر إلى عمله الصالح كرأس مال، ينبغي أن يحافظ عليه الإنسان وهذا قَل من يلتفت ويتنبهُ إليه، أُحافظ عليها من أن يَرِدَ عليها ما يُحبطها أو يُبطلها أو يُنقصُ ثوابها،

وهذا يشتملُ على أمرين: أولًا: التَسميع. **وثانيًا**: المعاصي والسيئات.
وذلك بأن صبر الإنسان على العمل الصالح بعد فعلهِ، **وهذا من أدق أنواع الصبرِ على الطاعة**، بأن يصبر على كتمانِها وعدم إشهارها، وأيضًا يصبر نفسه على ألا يقعُ في معصية تكون سببًا في حبوطِ عمله أو نقصان أجره.

التنبيهُ الثاني: الصورة الرابعة لا يتعلقُ بها صورةٌ آخري، وهي أن يظهر العملُ دون إظهار، بمعنى رُبما عمل الإنسان العمل الصالح وهو مخلصٌ لله جل وعلا، لكن بغير فعلٍ منه ولا إرادةٍ منه ظهر العملُ للناس، وقد جاء في صحيح مسلم سؤال النبي ﷺ عن هذه الصورة، وهي أنه سئل ﷺ عن الرجل يعمل العمل فيُحمد عليه، قال النبي ﷺ: «**تلك عاجلُ بشرى المؤمن**».

التنبيه الثالث: أن بعض الناس يقول أنا أُظهر عملي الصالح الذي قد عَمِلته لأجل أن يُقتدى بي فيه.الذي يظهر والله أعلم، **أن ذلك ليس من مسائل الرياء والتسميع** ولا يَردُ هذا أصلًا، يعني يقول أنا أخبرت الناس بأن والله حصل كذا وكذا مني لأجل أريد أن أَحَفِزَهم، وأدفعهم لكي يعملوا، وربما يعمل أمامهم بأجل ذلك فهذا فيما يبدوا والله أعلم ليس من مسائل الرياء، ولكن المقامُ مقام مَخُوف.

وعن أبي سعيد مرفوعا: «أَلَا أُخبِرُكُم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيحِ الدجالِ، قالو يا رسول الله: قال: الشركُ الخفيُّ، يَقومُ الرجلُ فيُصلي فيُزيّنُ صلاتَهُ لِمَا يَرَى مِن نَظَرِ رجل».
هذا الحديث فيه تسميةُ النبي ﷺ الرياء بالشرك الخفي، وفي الحديثِ أن النبي ﷺ خاف الرياء على كُمّل المؤمنين وهم أصحابه، فماذا يُقال عمن بعدهم؟ أو ما لا يُقال عن أهل هذه العصور المتأخرة التي ضَعُف فيها الإيمان وضَعُف فيها التوحيد؟ والله المستعان.
لا شك أن المخوف علينا معشر هذه الأزمان الشرك الأصغر والشرك الأكبر أيضًا كلاهما.

ولاحظ أن النبي ﷺ ذكر أن الرياء أخوف عنده عليهم من المسيح الدجال.
المسيح الدجال: إنه أعظم فتنة خلقها الله ﷻ منذ خلق آدم إلى قيام الساعة، هذا الفتنة العظيم الذي كان النبي ﷺ يستعيذُ بالله ﷻ منه ويعلم أصحابه أن يستعيذُ بالله منه، داخل الصلاة وخارجها، بل كان يُعلمهم ذلك كما يُعلمهم السورة من القرآن.**ومع ذلك فالرياء أخوف عند النبي ﷺ منه** لأنه ذو مسالك دقيقة خفية رُبما تخفى هذه المسالك على الإنسان نفسهِ.

الدرس الخامس و الخمسون – ٩٧٨ ٣٧- بابُ مِن الشركِ إرادةُ الإنسانِ بِعمَلِهِ الدُنيا

من الشرك: يعني من أبعاده ومن أنواعه؛ والشرك والعمل ها هنا يراد بهما شرك خاص؛ وعمل خاص.

- **أما الشرك فإنه الشرك الأصغر**هذا هو لبُ ما يتعلق بالموضوع من الشرك فالذي يرد على المسلم من هذا الموضوع وهو إرادة الإنسان بعمله الدنيا؛إنما هو متعلق بأحد نوعي الشرك وهو الشرك الأصغر.
- **كذلك العمل هنا هو العمل الأخروي**؛ يعني العمل الصالح الذي يراد به وجه الله ﷻ والدار الآخرة فهذا هو المقصود، ما العمل الدنيوي الذي ليس من أعمال البر ليس من الحسنات ليس من الصالحات فإنه لا حرج على الإنسان أن يقصد به الدنيا كأن يتاجر أو يزرع أو يفعل ما شاء.

والفرق بين هذا الباب وما قبله: هو أن هذا الذي بين أيدينا الآن يريد صاحبُ هذه الإرادة؛ إرادة الدنيا يريد نيل شيء من حطامها بالعمل الصالح. أما المرائي فإنه لا يريد شيئاً من الدنيا إنما قصده معلق بثناء الناس ومدحهم وأن يعظم في أعينهم سواء جاءه شيء من نعيم الدنيا أو لم يأتي.

وإن كان الأمران يشتبكان في أنهما من مراتب الشرك الأصغر ومن أسباب الهبوط والخسران.

إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا، هذه المسألة تتفرع إلى حالتين:

الحالة الأولى: **تمحضُ الإرادة الدنيوية.**

بمعنى أن يعمل الإنسان العمل الصالح؛ ولا قصد ولا التفات في قلبه البتة إلى نيل ثواب الله ورضاه إنما يريد فقط نيل شيء من الدنيا؛ وهذا لا شك أنه عمل حابط وأن هذا القصد لا يكاد يصدر من مسلم؛ وبالتالي من كان لا يريد بالعمل الصالح إلا الدنيا فعمله حابط مردود عليه ولا شك؛

دل على هذا ما بين أيدينا الآية الأولى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:15-16].

كذلك آية الشورى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[الشورى:20].

وكذلك آية الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء:18-19]. هذه ثلاث آيات يؤيد بعضها بعض ويصدق بعضها بعض؛ تدل على أن من كان قصده الدنيا ولها يعمل؛ فإنه ليس له في الآخرة من نصيب، ومن كان يريد الآخرة ولها يعمل؛ فإن عمله مقبول، وهو مثاب من الله ﷻ،

بقيت آية رابعة والشيء بالشيء يذكر؛ وهي آية النساء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[النساء:134]، **هل هذه الآية على نسق الآيات الثلاث السابقة أم لا؟**

✸ اختلف المفسرون رحمهم الله في ذلك:

فذهب بعضهم إلى أنها تدل على ما دلت عليه الآيات السابقة من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

والقول الثاني أنها لا تدل على ما دلت عليه الآيات السابقة؛ وإنما هذا الآية فيها تنبيه وتحذير لقاصر الهمة الذي همته الدنيا؛ ولا يطمح إلى ما فوقها، نبَّهته هذه الآية إلى أنه ينبغي أن يكون عالي الهمة فيطلب خيري الدنيا والآخرة؛ وذلك أن الدنيا والآخرة بيد الله ﷻ وهو قادر على أن يعطيهما معاً؛ فينبغي للإنسان على أن يكون عنده همة لنيل الدنيا والآخرة؛ حتى يكون من الرابحين لا من الخاسرين **وهذا القول أختاره ابن كثير رحمه الله، ولعله الأقرب في تفسير الآية.**

أما الحال الثانية: فهي حالة تشريك النيتين؛ النية الدنيوية والنية الأخروية.

قبل أن أسترسل أنبه إلى أننا نتحدث عن نية دينية ونية دنيوية، وبالتالي فليس داخلاً في هذا نيتان صالحتان؛ بمعنى من عمل عملاً من الأعمال لصالحة يريد به أكثر من نية صالحة فهذا ليس من موضوعنا الذي نبحث فيه.

وهذا باب عزيز شريف لا يقصده إلا صادق الطلب عالي الهمة غزير العلم؛ وهو أن يدخل إلى عمل صالح فينوي فيه نيتين فأكثر **وبالتالي يخرج بعبادتين فأكثر**؛ كأن يذهب مثلاً إلى المسجد ونيته أن يصلي صلاة الجماعة ونيته أيضاً أنه إذا جلس استغفرت له الملائكة؛ ونيته أيضا أنه يغض طرفه عن النظر في

الحرام ويكف آذاه عن الناس؛ ويحفظ لسانه عن الوقوع في الغيبة، لاحظ أن هذه ثلاث نيات، وربما ينوي الإنسان أكثر من ذلك؛ فيكون هذا الذكي في عمل الآخرة قد خرج من عبادة واحدة بعبادات شتى.

كذلك أن ينوي الصوم فرضاً كان أو نفلاً وينوي مع ذلك حصول العفاف وكبح جماح شهوته؛ وهي التي أرشد إليها النبي ﷺ في قوله: «**يا معشر الشباب من أستطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»، **المقصود بهذا ليس داخلا في موضوعنا.**

نحن نتحدث عن إنسان يريد عبادة فينوي فيها نيتين:

نية بإرادة وجه الله ﷻ والدار الآخرة ونية يريد بها نيل شيء من حطام الدنيا،

۞ اختلف العلماء رحمهم الله في هذه الحال:

➢ القول الأول: **إن ورود أدنى نية أو طرف من إرادة دنيوية في عمل صالح يبطل العمل الصالح بالكلية.** وابن حزم رحمه الله مال إلى هذا حتى إنه ذكر أن من توضأ ونوى بوضوئه العبادة والتبرد فإنه لا يجوز له أن يصلي بهذا الوضوء لأنه وضوء باطل، واستدل على هذا بقول الله ﷿﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾[البينة:5]. فلما كان هذا الإنسان نيته غير خالصة فإن عبادته حابطة.

قالوا وماذا إذا توضأ فأراد العبادة وأراد تعليم غيره أيصح أن يصلي بهذا الوضوء أم لا قال نعم يصح لأن قصد تعليم الناس أمرٌ أُمِر به شرعاً وبالتالي فإنه لا حرج عليه في ذلك، إذاً هذا هو **القول الأول.**

➢ القول الثاني: **أن تشريك نية دنيوية مع نية أخروية لا يؤثر في العمل إثابة أو إنقاصاً أو إحباطاً؛** وانتصر لهذا القرافي رحمه الله في جماعة من أهل العلم واستدل أصحاب هذا القول بأن الشريعة قد رخصت بنية دنيوية في عمل صالح، ولا فرق بين أن تكون هذه النية الدنيوية تابعة أو متبوعة غلابة أو قاصرة؛ ومن تلك الأدلة قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[البقرة:198].

هذه الآية في شأن التجارة في الحج، يعني أن يحج الإنسان ونيته تحصيل العبادة وأيضا أن يتاجر أثناء الحج، الله جل وعلا قال: ﴿**ليس عليكم جناح**﴾[البقرة:198]. قال أيضا من تلك الأدلة قول النبي ﷺ: «**يا معشر الشباب من أستطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم**».

قال وهذه نية غير نية العبادة **وهذا الاستدلال في هذا الدليل الثاني فيه نظر؛** فإن نية الإعفاف نية مطلوب بها وليس نية دنيوية، على أي حال هذا هو القول الثاني في هذه المسألة.

➢ **القول الثالث: وهو ما ذهب إليه أكثر أهل العلم؛ وهو النظر في النية.**

فإن كانت النية الدينية هي الباعثة الغالبة فإن العمل صحيح مقبول، لا بد أن تكون النية الدنيوية تابعة لا متبوعة وأن تكون غير غالبة؛ ويجب أن تكون النية الدينية هي الباعثة؛ يعني هي التي تدفع للعمل الصالح وهي أيضا الغالبة هي القصد الأكبر لا القصد الأصغر.فبالتالي إن هذا لا يؤثر.

لأن العبرة كما تقول القاعدة بالغالب والنادر لا حكم له

۞ **والتحقيق في المسالة** هو أن يقال إن الأحوال في هذا الباب ليست على نمط واحد بل فيها تفصيل؛ وذلك يظهر في الأحوال التالية ولعل هذا هو الصواب في هذه المسألة والله ﷻ أعلم.

لكن قبل أن نسترسل لا بد أن نستصحب في هذا الباب أصلاً محكماً في الشريعة؛ دلت عليه أدلة كثيرة؛ وهي أن الإخلاص أساس قبول العمل الصالح؛ وأن القبول وعدمه مرتبط بوجود هذه النية الخالصة وجوداً وعدماً، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:5]، والنبي ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله؛ ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه**»، ومر بنا القاعدة النبوية العظيمة وهي قول النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وأبتغي به وجهه**».

۞ **الحال في تشريك النيتين ترجع إلى ما يأتي:**

الحالة الأولى: قصد ما هو من ضرورات العمل

بمعنى أنه حاصل قصد أو لم يقصد مثال ذلك؛ أن يتوضأ وهو يريد العبادة والتنظف أو التبرد؛ التنظف أو التبرد حاصل شئت أم أبيت فمثل هذا لا يضر ولا يؤثر في الثواب لا إحباطا ولا إنقاصا؛ فإن لا ضرر في أن تقصد العبادة بما هي عليه أن تقصد بضرورتها؛

هذه هي الحالة الأولى وفيها يظهر ضعف قول ابن حزم ومن معه أن قصد التبرد مع الوضوء يبطل العمل الصالح

لكن هنا مسألة: ما الأفضل أن ينوي الإنسان العمل الصالح بهاتين النيتين أو ينوي النية التعبدية فقط؟ لا شك أن قصد النية التعبدية وحدها أفضل، لكن بحثنا يتعلق بالرد والحبوط، أما الرد والحبوط فإن قصد ما هو من ضرورات العمل وما هو كائن حاصل ولا بد لا يؤثر.

الحالة الثانية: قَصْد ما أذن الشرع في قصده تصريحاً أو تلميحاً.

بمعنى إذا كانت الشريعة أذنت في قصد شيء دنيوي في العمل الصالح فإن هذا لا يؤثر في الثواب من جهة الرد أو الحبوط؛ مثال قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[البقرة:198]، كون الإنسان يحج وهو يريد في سيره من الحج نيل رضا الله ﷻ؛ ومع ذلك يريد التجارة، الشريعة أباحت له ذلك، وبالتالي فمن ضرورة إباحة ذلك أن لا يكون هذا مؤثراً على العمل من جهة الحبوط أو الرد.

مثال آخر قال النبي : ﷺ «من قتل قتيلاً فله سَلَبُه»، بمعنى أنه في الجهاد الشرعي إذا قتل الإنسان قتيلا من أعداء الله فإنه يجوز له أن يأخذ سلبه،سلاحه وما هو عليه، لا حظ أن النبي ﷺ قال هذا الحديث يوم حنين وبالتالي فمن ضرورة ذلك أن الصحابة سوف يقصدون هذا الأمر؛ بل ما قال النبي ﷺ هذا القول إلا لأجل أن يقصد الصحابة ذلك فيكون دافعاً وباعثاً لهم على مزيد من الجد والاجتهاد في قتال أعداء الله. ولذلك لما سمع أبو طلحة ذلك قتل عشرين من الكفار فأخذ أسلابهم،

وبالتالي يتضح لنا أن ما استدل به المؤلف مع الذين قالوا بالقول الثاني؛ أنه أمر مخصوص، استدلوا بشيء جاءت الأدلة الشرعية على جواز قصده لكن البحث فيما لم يأتي دليل على قصده فتعميم الحكم على جميع الأحوال فيه نظر.

الحالة الثالثة: قصد أمر دنيوي لم يأتي في الشريعة الإذن به.

وهي أن يقصد الإنسان في عمله الصالح نيل شيئاً من حطام الدنيا والشريعة لم تأتِ بالإذن في شأنه **مثال ذلك؛** أن يحج ويريد التكسب بحجه وليس في حجه.

عندنا فرق بين مسألتين أن تحج وتريد التكسب في الحج؛ يعني أثنائه، بأن تتاجر مع كونك حاجاً، هذا قلنا أذن الشرع فيه، إنما بحثنا أن يتكسب بالحج كأن يحج عن غيره والقصد مع القصد الأخروي؛ القصد أن يأخذ دراهم عن هذا الحج، أو أن يتعلم العلم الشرعي؛ ولا قصد نيل الشهادة؛ أو نيل المكافأة التي تعطى في الجامعة أو أن يؤم؛ والقصد نيل المكافأة التي تدفع للإمام أو نيل المسكن الذي يُعطاه، وكذلك الشأن في الآذان أو غير ذلك من الصور الكثيرة، **فما حكم ذلك؟**

الذي يظهر والله أعلم أن الأدلة الشرعية المحكمة حتى التي قالت صريحة على أن الإخلاص شرط قبول العمل الصالح؛ وإرادة الدنيا قادحة في هذا الإخلاص فهي مؤثرة في هذا العمل إما بإحباط الثواب وإما بإنقاصه؛ بحسب دخول هذه النية الدنيوية في العمل.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال لا أعلم أحداً كان يحج عن غيره بشيء، وليس الارتزاق بأعمال البر من شأن الصالحين. وذلك أن العمل الصالح يجب أن يكون القصد فيه إرادة وجه الله ﷻ لا غير، وبإرادة الدنيا مع العمل يكون الإنسان قد أخل بهذا الشرط.

واسترسل شيخ الإسلام عن مسألة الحج وقال: **عليه إذا ينبغي للإنسان أن يحج عن غيره بقصدين:**

- **الأول** أنه يستعين بهذا المال على الوصول إلى تلك البقاع المشرفة؛ يحج عن غيره ومراده أن يصل إلى مكة، وأن يُشْبعَ نَهمة نفسه من رؤية الكعبة والطواف بها والدعاء يوم عرفة إلى غير ذلك.

- **القصد الثاني**: أنه يريد أن يبرئ ذمة أخيه المسلم الذي يكون عليه حج واجب بأصل الشرع أو بالنذر، فهو يريد أن يبرئ ذمة أخيه المسلم؛ و الأدلة الشرعية قد جاء فيها جملة تشهد لهذا القول.

من ذلك قول النبي ﷺ كما عند أحمد: «**واتخذ مؤذناً لا يؤخذ على أذانه أجرا**»، كذلك قول النبي ﷺ: «**اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه ولا تأكلوا به ولا تتكاثروا به**»، كذلك قول النبي ﷺ: «**من تقلد قوساً على تعليم القرآن قلده الله به قوساً من النار يوم القيامة**»، كذلك قول النبي ﷺ: «**من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة**».

الحال الرابعة: **وهي قصد نيل شيء من الدنيا ليكون وسيلة لأداء العمل الصالح.**

وهذا مخرج في شأن الحالة السابقة ولا يحتاج المسلم معه إلا أن يصحح نيته معنى أنه ينوي ويأخذ شيئاً من الدنيا لتكون الدنيا وسيلة لتحصيل العمل الصالح؛ فرق شاسع بين من كانت الدنيا قصده والدين وسيلته؛ وبين من يكون الدين قصده والدنيا وسيلته.

الحالة السابقة التي هي الحالة الثالثة: ما الذي كان مقصوداً؟ الدنيا. وما الوسيلة؟ الدين.

أما هنا فهو أراد الدين أراد العمل الصالح وأخذ الدنيا لتكون وسيلة له لأداء هذا العمل الصالح؛ فهو توظف إماماً وأخذ المسكن لأجل أن يكون المسكن معيناً له لإداء الإمامة على أكمل وجه؛ ليكون قريبا من المسجد أخذ المكافأة ليتفرغ ليؤدي هذه الإمامة؛ **ومثل هذا لا حرج فيه.**

وهنا قاعدة لطيفة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله كما في الاختيارات قال:

وأما المشروع أن يأخذ الإنسان ليحج لا أن يحج ليأخذ.

وعمم هذا في جميع المسائلأن يؤخذ ليأُم وليس أن يأُم ليأخذ، فإن ممن أخذ ليطلب فإن هذا لا حرج عليه فيه أما من طلب ليأخذ قال شيخ الإسلام فإن هذا الأشبه أنه ليس له في الآخرة من نصيب.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾الآيتين.

الآيتين: يعني أكمل الآيتين

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:15-16].

هذه الآية مضى ما يتعلق بها وبقي فيها مسألتان:

المسألة الأولى: أن أهل العلم اختلفوا في هذه الآية نازلة فيمن؟

القول الأول: فقال بعض أهل العلم إنها نازلة في الكفار؛ من كان يريد الحياة أولئك هم الكفار.

القول الثاني: وقالت طائفة من أهل العلم أنهم أهل القبلة.

والقول الثالث: وعليه الأكثر أنها عامة في جميع الناس الكفار وأهل القبلة،

وإذا قلنا أنها عامة أو في أهل القبلة فالاستدلال بها في شأن إرادة الإنسان الدنيا بعمله الصالح ظاهرة؛ **هذا لا إشكال فيه**، وإما على القول بأنه في شأن الكفار؛ فإن ذلك أيضاً ظاهر وذلك أن الكفار زُين في أعينهم شأن الحياة الدنيا؛ قال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[البقرة:212].

وإن قلنا بهذا فإن الاستدلال بها في شأن المسلم أيضاً مستقيم وذلك أن من شابه الكفار في خصلة من خصالهم ناله شيء من الذنب الوارد في حقهم.

أما المسألة الثانية: فهي ما جاء عن ابن عباس ﷺ أن هذه الآية نسختها آية الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾[الإسراء:18].

ومراد ابن عباس ﷺ من نسخها هنا ليس النسخ الاصطلاحي المعروف عند المتأخرين؛ في أصول الفقه أننا أخذنا أن مصطلح النسخ عند المتقدمين **أعم** من النسخ عند المتأخرين؛ فإنهم يريدون النسخ الاصطلاحي ويريدون كل ما يرد على الدليل من مخصص أو مقيد؛ سواء يعني كان النسخ عندهم للآية يعني لحكمها بالكلية، أو كان لبعض حكمها الذي هو تقيد أو تخصيص، هذا كله عندهم داخل في معنى النسخ **ومراد ابن عباس ﷺ هذا أن آية الإسراء مخصصة لآية هود**، تأمل معي في آية هود، قال تعالى ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**﴾[هود:15].

تريد الدنيا، الله سيعطيك الدنيا ولكن ليس ثمة أجر أخروي؛ لكن في آية الإسراء تخصيص لهذا وذلك أن الله ﷻ أرجع ذلك الإعطاء إلى مشيئته قال: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ**﴾[الإسراء:18]؛ ماذا؟ لمن نريد؛ إذاً ليس هذا حاصلاً لكل أحد بل هذا راجع أيضا لمشيئة الله قد يعطي الله ﷻ مريد الدنيا وقد لا يعطيه، وبالتالي فإنه لا الدنيا استفاد ولا الآخرة استفاد. نسأل الله السلامة والعافية.

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال قال النبي ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدينارِ تَعِس عبد الدِّرهِمِ تعس عبد الخميصةِ،تعس عبد الخميلة، أن أُعطِي رَضيَ، و إن لمْ يُعطَ سَخِطَ،تعس وانْتكس،وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ،طوبى لِعبدٍ آخذٍ بِعِنانِ فَرَسِهِ في سبيل الله،أَشْعَثَ رأسُهُ،مُعبرَّةٍ قَدَماهُ،إنْ كانَ في الْحِراسةِ كان في الحراسةِ،و إن كان في السَّاقَةِ كان في الساقةِ، إن اسْتَأذَنَ لَم يُؤْذَنْ لهُ، وإن شَفَعَ لَم يُشَفَّع».

في هذا الحديث فوائد منها:

أن الإنسان قد يكون عبداً للدنيا وهذه العبودية قد تصل إلى حد الشرك الأكبر وقد تكون شركاً أصغر

- **أما كونها شركاً أصغر ففي حق المسلم الذي معه أصل التفويض، ولكن دخلت عليه شعبة من شعب الشرك**، وذلك يرجع إلى ما جاء في الحديث؛ يعني الضابط إلى حصول هذا الشرك الأصغر إن أعطي منها يعني من الدنيا رضى وإن لم يعطَ سخط. إذًا من كانت الدنيا ترضيه أو تسخطه فإن فيه شعبة من شعب التعبد أو العبودية للدنيا،

وهذا من **عجيب الأشياء أن يكون الإنسان عبداً لثوبه** وذلك أن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**» هذه أثمان

وقد تكون من الأثاث، «**تعس عبد الخميصة**، وهي كساء عند العرب لونه أحمر أو أسود مخطط له أعلام معروف عندهم،

«**تعس عبد الخميلة**» هي القطيفة سواءً كانت ثوباً أو كانت فراشاً يجلس عليه؛ وذلك أنه إذا كانت الدنيا إن جاءته رضى وإن لم تأته سخط على ربه وقدره، فهذا والعياذ بالله صار عبداً للدنيا.

- **وأما كونها شركاً أكبر فإنها تكون كذلك في حق الكفار**، وذلك أننا قد علمنا مما سبق أن الله ﷻ قد شاء أن تكون الدنيا مزينة في نظرهم وفي قلوبهم: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾[البقرة:212]، قال الله ﷻ في شأن المنافقين: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ**﴾[التوبة:79]، قال ﷻ: ﴿**فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾[التوبة:58].

فهذا هو حال هؤلاء الكفار الذين شركهم بالدنيا شرك أكبر تعلق قلوبهم بها تعلق عظيم، حتى أنها أصبحت مزاحمة لمحبة الله ﷻ وإرادة طاعته فمثل هؤلاء لا شك أن هذه العبودية في حقهم شرك أكبر؛ أما المسلم فقد يكون واقعا في شرك أصغر وربما يكون كثير من الناس كذلك.

قال النبي : ﷺ «**تَعِسَ**» ويجوز لك أن تقول (**تَعَسَ**)؛ تعس يعني ناله التعاسة **والتعاسة** الشقاء والهلاك، والنبي ﷺ يدعو على من كانت هذه حاله، كان من أهل هذه الأصناف الذين تعبدت قلوبهم للدنيا دعا عليه النبي ﷺ بالتعاسة والشقاء ودعا عليه بعد ذلك؛

دعوة اشتملت على ثلاثة أشياء: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**».

تعس: نالته التعاسة،

وانتكس ،**الانتكاس**: الرجوع بعد الخير إلى الشر، وبعد الهدى إلى الضلال، ويتضمن ذلك اضطراب الأمور عليه،

إذا شيك فلا انتقش والمعنى: أنه إذا نزلت عليه البلايا والمصائب لم تزل تستمر معه وتتفاقم في حقه، **ومثل لهذا ﷺ بأنه**

(**إذا شيك**) يعني إذا أصابته شوكة

(**فلا انتقش**) يعني فلا خرجت هذه الشوكة.

لأن الإنسان إذا أصيب بالشوكة فأنه ينتقش أي أنه يسعى في إزالة هذه الشوكة بالمنقاش.

المنقاش: هو الآلة لتي يستعملها الإنسان في إزالة الشوكة إذا دخلت في الجسم، إذا شيك فلا انتقش يستمر عليه اضطراب والألم.
هذه حال من كانت الدنيا هي المقصود والغاية والتي يسعى لها لغياته،

وعلامة ذلك أنه يرضيه عن ربه وجودها ويسخطه على ربه وقدره فقدها.

ثم أبان النبي ﷺ الصورة المقابلة لذلك وهي صورة المخلص لله ﷻ،
(طوبى) طوبى قيل هي الجنة وقيل هي شجرة في الجنة،

والأقرب والله أعلم هي أعم من ذلك،ذلك أن طوبى مؤنث أطيب، إذًا هو إخبار أو دعاء من النبي ﷺ.
أن من كانت حاله كما أخبر أن يناله أو تناله أطيب الأحوال وأطيب الأشياء طوبى لعبد؛
(طوبى لعبد): هذا العبد مخلص لله ﷻ لا يريد إلا وجهه؛ ولذلك فإنه يخرج في سبيل الله ﷻ جهاداً، الجهاد الشرعي الذي فيه نصرة للدين وفيه قمع لأعدائه؛ وليس الجهاد البدعي الذي قصده وغايته غير شرعية والذي فيه سلُّ السيف على أمة محمد ﷺ والذي ينتفع به أعداء الله لا أولياء الله، بل هؤلاء قد يكونون عذابا على المسلمين.

المقصود هو الجهاد الشرعي الذي تتحقق فيه الشروط الشرعية ويحصل به المقصد الشرعي؛ وهذا الإنسان يريد وجه الله ﷿ حيث لا التفات إلى نفسه وحاله ورفعة مكانته، حاله أنه ساع في رضا الله ﷿ وذلك أنه لا يهتم بنفسه؛ رأسه وشعره أشعث غير مهذب غير مرتب وقدمه مغبرة؛ دليل على أنه مجتهد في طاعة الله ﷻ والاجتهاد في نيل مرضاته جل وعلا، ولا يبالي في أي مكان كان.

الدرس السادس و الخمسون – ٩٩٧

٣٨- بابُ مَن أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحريمِ ما أحلَ اللهُ أو تحليل ما حرمه، فقد اتَّخَذَهُم أرباباً من دون اللهِ

هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله لأجل بيان أن من لوازم التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، أن تكون الطاعة كلها لله سبحانه، وأن تكون طاعة غيره مندرجة في طاعته تبارك وتعالى،

وقد ذكر أداة شرط وفعله وجوابه، (من أطاع العلماء والأمراء أو غيرهم)،
ما ذكر الشيخ ها هنا إنما هو على سرير التمثيل، لأن أكثر ما يقع الخلل في باب الطاعة إنما هو من جهة المخالفة في طاعة العلماء أو في طاعة الأمراء، ولو أطاع غيرهم أيضًا في هذا الشأن، وهو في تحريم ما أحل الله أو في تحليل ما حرم الله، **فجواب الشرط**: (فقد اتخذهم أربابًا من دون الله).
وأن مما لا شك فيه أن طاعة الله ورسوله ﷺ أوجب الواجبات على المسلم، والله تبارك وتعالى عبادته هي طاعته، وطاعته هي عبادته، لا فرق في معاملة العبد لربه بين الطاعة والعبادة، بخلاف معاملة غيره، فإن الأمر فيه تخصيص فإن الطاعة أوسع من العبادة.

❁ والمقصرون والمخالفون في بعض الطاعة أصناف:

الصنف الأول: منهم أهل البدع والكلام الذين قصروا في طاعة الله ورسوله ﷺ
حيث أنهم اعتمدوا قواعد زعموها عقلية، وهذياناتٍ وفلسفاتٍ منطقية قدموها على كلام رسول الله ﷺ فخرجوا إلى أنواعٍ من البدع وتعطيل صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الصنف الثاني: المتعصبون للمذاهب الفقهية.
فإن البلية بالتعصب للمذاهب الفقهية بلية كبرى عمّت وطمّت، فإن من الناس من يتعصب لمذهبه ولإمامه بحيث إنه لو تليت عليه الآيات والأحاديث المخالفة لما كان عليه هذا الإمام أو ما تقرب في مذهبه، فإنك لا تجد منه قيادًا للحق، إنما يركب الصعب والذلول لأجل أن يتأول أو يضعف أسانيد أو دلالات هذه النصوص، والمهم أن يسلم المذهب، وأن يسلم قول الإمام، وهذا لا شك أنه قدحٌ عظيم في شأن التوحيد من جهة طاعة الله ورسوله ﷺ.

ﷺ الصنف الثالث: وهم أتباع المشايخ والطرق والأحزاب والجماعات الذين جعلوا لهم إمامًا لا يتقدمون عن قوله ولا يتأخرون،

لسان حالهم يقول إنه معصوم وإن الحق يدور مع قوله وموقفه، لذلك فإنه عنه لا يتزحزحون حتى لو قامت الأدلة والبراهين على خطأ هؤلاء، وهذه بلية قديمة حديثة.

ﷺ الصنف الرابع: من المقصرين، بل من أصحاب التقصير الشديد في باب الطاعة

وهم أهل السياسات الجائرة، والعلمنة الفاجرة الذين يقدمون أقوال البشر وقوانينهم على كلام رسول الله ﷺ،و أنهم ينظرون إلى الشريعة الإسلامية بأنها شريعة قاصرة عن أن تستوعب أحكام السياسة أو الاقتصاد أو الأسرة، يرمونها تصريحًا أو تلميحًا بأنها لا تستطيع أن تواكب ما عليه هذا العصر.

شريعة النبي ﷺ التي أنزلها الله ﷻ عليه جاءت كاملة منظمة لكل الشئون على الإطلاق، لم تدع شيئًا من الأشياء على هذا الإطلاق وفي هذا العموم، إلا وقد نظمته تنظيمًا بديعًا يعود بالسعادة على الفرد وعلى المجتمعات، من تنظيم سياسة الدول وإلى كيف يلبس الإنسان حذاءه، مرورًا بأحكام العبادة والنكاح والطلاق والصناعة والزراعة وكل شئون الحياة.

إذن من الجور العظيم زعموا أن هذه الشريعة قاصرة عن أن تنظم أمور معاش الناس ، ولا شك أن هذا خلل عظيم، قد يكون فسقًا وقد يكون كفرًا بحسب حال هذا المخالف.

ﷺ وقال ابن عباس: يُوشِكُ أنْ تَنْزِلَ عليكم حجارةٌ مِنِ السماءِ، أَقُولُ قالَ رسُولُ ﷺ، وتقولونَ: قال أَبُو بَكرٍ وعُمَر!

هذا أثر لطيف حسن المعنى، وإن كان لم يوقف عليه بهذا اللفظ، لم يقف على إسناد له بهذا اللفظ، وإن كان قد نقله جمع من أهل العلم وكأن المؤلف رحمه الله تابع في ذلك شيخ الإسلام وكذلك ابن القيم رحمه ذكر بعض الفضلاء أن له إسنادًا في مجموع فتاوى في المجلد السادس والعشرين لابن تيمية، ولكن هذا وهم هذا الإسناد كان لأثرٍ لابن عمر رضي الله عنهما.

وجاء لابن عباس رضي الله عنهما لفظ قريب مما بين أيدينا، وذلك ما خرجه ابن عبد البر رحمه الله في جامع بيان العلم وفضله من قوله رضي الله عنه: "**أراهم سيهلكون**" أقول قال رسول الله ﷺ: ويقولون نهى أبو بكر وعمر.

كما أخرج أثرًا قريبًا أيضًا من هذا في نفس الموضع، هما أثران أحدهما صحيح والآخر فيه ضعف بإسناده **شريك ابن عبد الله وهو ضعيف**

وابن عباس ﵄ قال هذا القول في شأن مسألة التمتع في الحج، ويدل على وجوب أن يقدم قول الله ورسوله ﷺ على قول أي أحد حتى لو كان في منزلة علية، حتى لو كان قول أبي بكر وعمر، هذا هو الحق الذي يجب أن يكون، يجب أن يحفظ للنصوص الشرعية، وللآيات والأحاديث يجب أن يحفظ لهما قدرهما ومكانتهما بحيث لا يجوز أن يتجرأ عليهما أحد، وفي الأثر أن من عارض ولم يقبل ولم يزعم بكلام الله ورسوله ﷺ ، فإنه متوعد بعذاب يصيبه، وهذا ما أخبرنا به جل وعلا: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:63].

كل من عارض كلام الله ورسوله ﷺ واستكبر ولم ينقد فليبشر بالعذاب المعجل قبل العذاب المؤجل إلا أن يتوب إلى الله ﷻ، في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يأكل ومعه رجل فقال له وقد كان يأكل بشماله، قال له: «**كل بيمينك، قال: لا أستطيع، قال لاستطعت، ما منعه إلا الكبر**»، يقول الراوي: فما رفع يده بعد ذلك إلى فيه، يعني شلت يده، بسبب أنه استكبر عن طاعة الرسول ﷺ.

إذن حذار أن يتردد أو يتأخر إنسان في طاعة الله ورسوله ﷺ، إنه يوشك أن يعاجله الله ﷻ بالعقوبة وهذا مما ينبغي أن يأخذه المسلم على محمل الجد وأن يتنبه له غاية التنبه.

كل إنسان سيسأل عن هذا النبي الكريم ﷺ في موضعين عظيمين

في القبر فيما يقال للميت ماذا كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم **وفي الموضع الثاني** في عرصات القيامة، ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين، الرسول المرسل إلينا اسمه محمد بن عبد الله ﷺ

وقال أحمد بن حنبل : عجِبتُ لقومٍ عرفوا الإسنادَ وصِحَّتَهُ، يذهبون إلى رأي سفيانَ، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:63]، الآية. أتدري ما الفتنةُ؟ الفتنةُ الشركُ، لعلهُ إذا رَدَّ بعضَ قولهِ أنْ يَقَعَ في قلبهِ شيءٌ مِنَ الزيغِ فَيَهْلِكَ.

هذا الأثر عن الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه تلميذه **الفضل بن ضياء**، وكذلك تلميذه أبو طالب

الإمام أحمد رحمه الله يرسم لنا منهجًا واجبًا على كل من استطاع الوصول إلى الحق، فإنه لا يجوز له أن يقلد في خلافه،

يقول: **(عجبت لمن عرف الإسناد وصحته)**، هذا في شأن من هو متأهل لمعرفة الحق والصواب، بحيث أنه يمكن أن ينظر في الأحاديث وفي أسانيدها وفي عللها، وبالتالي فهو يمكن أن يتحقق من الحق وأن يصل إليه من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ ، كيف يدع هذا ويذهب إلى أقوال العلماء!

ومثل بإمام جليل من أئمة المسلمين المقدمين، وهو سفيان الثوري رحمه الله المتوفى سنة إحدى وستين ومائة وكان إمامًا جليلاً وله مذهب متبوع وله طلاب، ومع ذلك يقول كيف لإنسانٍ يمكنه أن يعرف الحق، كيف لا يسعى إلى الوصول إلى الحق، ويدع ذلك إلى اتباع قول فلان أو فلان من أهل العلم، وإذا كان هذا في حق هؤلاء الأئمة الأجلاء فكيف فيمن ترك الكتاب والسنة واستعاض عنهما بأقوال أهل بدع أو ضلال، أو ربما من الكفار أو الملاحدة.

قال ابن القيم رحمه الله تعليقًا على كلمة ابن عباس رضي الله عنه ، قال رحمه الله: رضي الله عن ابن عباس ورحمه فكيف لو رأى الخلف اللذين نعرفهم وهم يتركون كلام الله ورسوله ﷺ ويأخذون بقول أرسطو وأفلاطون وابن سينا والفارابي والجهم بن صفوان والبشر المريسي، وأبي الهذيل العلاف!
ثم بين رحمه الله أن الدليل على وجوب اتباع الحق هو ما جاء في كتاب الله جل وعلا ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:63].

ثلاثة أقوال أهل التفسير في هذه الآية لكلمة الفتنة:

منهم من فسر الفتنة بالضلالة،

ومنهم من فسر الفتنة بالابتلاء في الدنيا،

ومنهم من فسر الفتنة بالشرك، وهو قول السدي ومقاتل، واختاره كما ترى الإمام أحمد.

الشاهد أن من أعرض عن كلام الله ورسوله ﷺ وتقصد إلى مخالفته، والاستكبار على اتباعه، فإنه متوعد بهذا الوعيد الشديد، أن تصيبه فتنة أو يصيبه عذاب أليم.

الفعل (**يخالفون**) مع أنه متعدد بنفسه، الأصل أن يقال (فليحذر الذين يخالفون أمره)، لكنه عد الفعل ها هنا بحرف (**عن**) وذلك لأن الفعل ها هنا أُشرِبَ معنى الإعراض **فكأنه قال**: فليحذر الذين يعرضون عن أمر النبي ﷺ أن تصيبه فتنة أو يصيبهم عذاب أليم،

إذن ليست كل مخالفة هي ما نتحدث عنه ولو كانت عن خطأ أو اجتهاد إنما الحديث عن خطأٍ ناتجٍ عن إعراض واستكبار، هذا الذي يدور عليه هذا الوعيد الشديد.

وفي هذا الأثر أن على المسلم أن يجتهد في الوصول إلى الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يبذل جهده في أن يصل إليه **ولا يعني هذا** أن لا يستعين بأقوال أهل العلم وأن يرجع إلى فتاويهم وأن يسألهم، بل هذا هو الواجب عليه إن كان لا يستطيع الوصول إلى الحكم باجتهادٍ منه، إذا كان ضعيف العلم واجبه أن يسأل أهل العلم، لأن الله ﷻ أمرنا بذلك، وكذلك أمرنا رسوله ﷺ: **«هلا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العيِّ السؤال»**، وبالتالي فمن كان جاهلاً فإنه يسأل أهل العلم ويعمل بمقتضى أمرهم، لكن دون أن ينصب له شيخًا أو عالمًا لا يتجاوزوا قوله.

هناك فرقٌ بين التعلم وبين التعبد:

العلماء وسيلة للتعلم،

أما التعبد فإنه يرجع إلى مقام الألوهية، يتعبد الإنسان لله ﷻ، والتعبد هذا إنما يكون بكلام الله ورسوله.

۞ **لكن قد يقول قائل**: وما يفعل مَنْ سأل وبحث وتبين له أن في المسألة خلافًا، وما أكثر المسائل الخلافية،هذا شيخ يقول حلال، وهذا شيخ يقول حرام، إذن كيف أصنع؟

الواجب عليك الآتي:

أولاً: **أن يكون قصدك الوصول إلى الحق.**

جرب قصدك ورغبتك في الوصول إلى الحق، وأبشر بالخير فإنك ستهتدي إلى الحق، ألم يقل الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾[النحل:104]، مفهوم المخالفة من آمن بالله ورسوله ﷺ وبالآيات والأحاديث وأذعن إلى الحق فليبشر بأن الله ﷻ سيهديه إلى الحق.

ثانيًا: **عليه أن يبذل ما يستطيع في معرفة الحق.**

ثالثًا:**فإن كان لا يستطيع فعليه أن يراجع من يثق بدينه وعلمه فيسأله.**

فإن اختلف العلماء عليه فعليه رابعًا **أن يرجح بين المختلفين بالأعلمية أو بالتقوى والورع.**

وهذا لا يحتاج أن يكون الإنسان عالما حتى يميز بين عالمٍ وعالم، أرأيت أحوال الناس كيف أنهم يميزون بين الأطباء، إذا مرض الإنسان –طفل مثلاً– فإنه يحرص على أن يعرضه على أفضل الأطباء، وتجد أنه بالتسامع، بقرائن الأحوال، يدرك أن هذا الطبيب أفضل. كذلك الشأن في باب العلم.

فإن قال: لا أستطيع حتى هذه لا أستطيعها والكل عندي سواء، والكل عندي سواء.

نقول **خامسا** اذهب إلى من تثق بدينه وعلمه من العلماء أو طلاب العلم وقل له رجحلي بين هذه الأقوال وخذ بقوله وبذلك تكون قد عملت بقول الله ﷻ: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[النحل:43]، هلا سألوا إذ لم يعلموا؟ وبذلك يصل الإنسان بتوفيق الله ﷻ إلى الحق، والله أعلم.

عن عَدِيّ بن حاتمٍ ﷺ أنهُ سمع النبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة:31]، قال: فقلتُ لهُ: إنَّا لسنا نَعْبُدُهُمْ، قال: أليسُ يحرِّمُون مَا أحل الله فتُحَرِّمُونَّهُ، ويحلون ما حرم الله فَتُحِلُّونَهُ، فَقُلْتُ: بلى، قال فتلك عبادَتُهُم، رواه أحمد والترمذي وحسنه.

هذا حديث عدي بن حاتم ﷺ، وهو الذي انتزع منه المؤلف رحمه الله التبويب على هذا الباب، والمؤلف ذكر أن الترمذي قد حسنه، من واقع أنه حسنه ولكن عقب عليه، بأن فيه عطيفة بن أعين، وذكر ما يدل على ضعفه، وهذا الرجل فيه ضعف، وهذا الحديث من جهة الثبوت فيه بحث طويل واختلاف طويل بين أهل العلم، منهم من ضعفه، ومنهم من حسنه.

وهذا الحديث إن صح عن رسول الله ﷺ فإنه يبين لنا مسألةً مهمة تتعلق بموضوع الطاعة في شأن التحليل والتحريم، **وهذا الباب ينبغي أن يُحكِمَه المسلم وعلى الأخص أن يُحْكِمَه طالب العلم**،من لم يُحكِم هذا الباب وفق منهج أهل العلم الأثبات وطريقة أهل السنة والجماعة، ربما أخطأ وضل، بل ربما وقع في التكفير بغير حق، كما وقع فيه مَنْ وقع مِنْ مَنْ لم يلزم طريقة أهل السنة والجماعة من تناول هذه المسألة.

نذكر أن أحدهم وهو ممن له كتابات مشهورة بين بعض الناس ذكر أن النساء اللائي يتبعن الموضة أو ما يسمى المودة أنهن كافرات بالله جل وعلا مشركات، لأنهن أطعن الكفار، وهذا لا شك أنه خطأٌ كبير وخللٌ كبيرٌ أيضًا في فهم منهج أهل السنة والجماعة، وهذا تكفير لا يجوز.

لذلك فإن الخلل ها هنا جاء من عدم التفريق بين الطاعة والعبادة،

الطاعة والعبادة: إذا تعلقت بحق الله ﷻ، أنهما كلمتان مترادفتان.

أما في حق غيره سبحانه فإن الأمر يختلف، الطاعة أوسع من العبادة، أليس كل طاعة عبادة.

مسألة الطاعة ومتى تكون شركًا، ومتى لا تكون شركًا، فيها التفصيل الآتي:

الطاعة: قد تتعلق بالاعتقاد وقد تتعلق بالعمل،

➢ الحالة الأولى الطاعة في الاعتقاد وهذه الحالة تتفرع إلى ثلاث صور:

الصورة الأولى: **بأن يعتقد** أن غير الله ﷻ يسوغ له أن يحلل أو يحرم برأيه وهواه، فيطاع على ذلك، **ولا شك أن هذا شرك بالله ﷻ،** لذلك فإن التحليل والتحريم حق لله تبارك وتعالى، لا يجوز أن يشاركه فيه غيره، كما قال ﷻ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة:31].

ولاحظ ههنا أن هؤلاء النصارى الذين جاءت فيهم هذه الآية، قد اختلف الحال عندهم، بما يتعلق بعيسى عليه السلام وبما يتعلق بأحبارهم ورهبانهم،

الأحبار، الحَبر و يجوز كسر ذلك حِبر، لكن الأكثر على الفتح حِبر: عالم، الأحبار هم العلماء،

والرهبان هم العباد،

اتخاذ عيسى عليه السلام ربًا : كان باعتقاد الربوبية فيه، والتقرب إليه بالإلهية.

أما في حق الرهبان والأحبار فإنما كان اتخاذهم أربابًا من جهة طاعتهم في التحليل والتحريم،

حيث إنهم يحللون ما حرم الله، أو يحرمون ما أحل الله، **وهذا هو الشرك والذي كانوا به متخذين الأحبار والرهبان أربابًا** ولذلك جاءت من رواية عند ابن جرير لأثر حذيفة ﷺ لما جاء لتفسير هذه الآية، قال: والله إنهم ما صلوا لهم ولا صاموا لهم، ولكنهم كانوا يحرمون لهم الحلال فيحرمونه، ويحلون لهم الحرام فيستحلونه، هذا هو الذي كانوا به أربابًا مع الله جل وعلا.

إذن من اعتقد هذا الاعتقاد وأن أحدًا يجوز أن يشارك الله ﷻ في حق التحليل والتحريم، فلا شك أنه قد اتخذه ربًا مع الله ﷻ وهذا شرك أكبر.

الصورة الثانية: أن يطيع غير الله جل وعلا في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله اعتقادًا، يطيعه من جهة الاعتقاد بمعنى أن يقول له في شيء حرمه الله إنه حلال، فيعتقده حلالاً أو يقول له في شيء أحله الله إنه حرامًا، فيعتقده حرامًا **فهذا أطاع في شأن التحليل أو التحريم من جهة الاعتقاد** وهذا يحصل من طائفة القبورية الذين غلوا في مشايخهم الذين اتخذوهم أربابًا بل اتخذوهم أيضًا آلهة، فإنهم يعتقدون أن الشيء الذي يقول فيه هذا الشيخ إنه حرام، فإنه حرام وإن كان الله أحله، وما قال فيه الشيخ إنه حلال فإنه حلال وإن كان الله ﷻ حرمه. **ولا شك أن هذا شرك أكبر لله ﷻ،**

ويدل على هذا الحكم قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:121].

قال أهل العلم إن أطعتم هؤلاء المشركين في تحريم ما أحل الله ﷻ فإنكم حينئذٍ تكونون مشركين، فالآية على المشروع في سبب نزولها، تتعلق في قول المشركين، إن الميتة حلال، لأنها في زعمهم قد قتلها الله ﷻ، فهي أولى بالحلية مما يقتله الإنسان، مع أن الله ﷻ قد بين في كتابه أن هذه حرام، فبين سبحانه في هذه الآية أن من أطاع المشركين في ذلك، والخطاب موجه للصحابة:﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

الصورة الثالثة: هي اعتقاد أن غير الله ﷻ يجوز أن يطاع في معصية الله،

فلو أمر أحدٌ أحدًا بمعصية الله كأن يأمر سلطان أو متنفذ غيره بمعصية الله ﷻ فيعتقد أنه يجوز أن يطيعه على ذلك فهو يعمل هذا الأمر المحرم وهو يعتقد أنه يجوز أن يفعله **هذا لا شك أنه أيضًا شرك أكبر.**

- **أما من جهة العمل فإن هذه الحال تتفرع إلى صورتين:**

الصورة الأولى: أن يؤمر الإنسان بالشرك فيفعل الشرك،

يطيع في الفعل الشركي فيكون مشركًا، قال له العالم أو قال له الأمير أو قال له اسجد للسماء يدعو الأموات ففعل، الآن أطاع من جهة العمل فعل الشرك فيكون بهذا ماذا؟ مشركًا.

الصورة الثانية: أن يطيع في فعل معصية،

وهذه معصية، أن يقول له اسرق أو اشرب الخمر، فيطيع وهو يعتقد أن هذا حرام، لكنه يطيعه لا من جهة العمل، أُمِرَ أن يعصي فعصى مع اعتقاده أنه عاصٍ ومع اعتقاده أن هذه الطاعة لا تجوز، لكنه يرجو بره أو يزعم أنه يكتفي شره مثلاً، **ولا يكون بهذا معذورًا فهذه الحالة تكون معصية،**

إذن لابد من النظر في هذا الموضوع بهذا التفصيل، وإن لم يكن مفصلاً لهذا يكون قد وقع في الخطأ.

هذا الحديث أخبر فيه النبي ﷺ أن طاعة العلماء الذين هم الأحبار أو العباد وقد يكون ذلك في غيرهم أيضًا كما ذكر المؤلف رحمه الله في التبويب ربما يكون أميرًا وربما يكون غير هؤلاء، لا شك أن من أطاعه في ذلك من جهة تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، لا شك أن هذا يكون شركًا على التفصيل الذي سبق وبذلك يتبين لنا أن الواجب على المسلم أن يخلص طاعته لله ورسوله ﷺ من جهة التحليل والتحريم ومن جهة العمل أيضًا فإنه بذلك يسلم من الشرك ويسلم من الفسق، ويحقق توحيده لله ﷻ.

والإمام الشافعي رحمه الله تحدث مرة بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له أحد جلسائه أتقول بهذا الحديث؟ فغضب الإمام الشافعي رحمه الله وقال له: أتراني خرجت من كنيسة؟ أترى في وسطي زُنارًا – يعني علامة كانت معروفة في أهل الكتاب في ذلك الزمان– حتى أروي عن رسول الله ﷺ حديثًا ولا آخذ به؟ بلى على الرأس وعلى العين، هذا هو الاتباع الصادق لهؤلاء الأئمة،

يخطئ من يظن أنه يتبع الإمام حينما يأخذ بقوله المخالف للحق من الكتاب والسنة، الإمام ربما يكون معذورًا ليس أحد معصومًا وليس أحد قد أحاط بكل حديث رسول الله ﷺ، العالم مهما كان رفيع الدرجة في العلم لابد أن يفوته شيء من حديث رسول الله ﷺ، وبالتالي فإنه إذا قال قولاً خالف فيه الحق فجاء هذا التابع لهذا الإمام أو من ينتسب إليه أو من يتقلد مذهبه، فخالف الإمام واتبع الحق هو في الحقيقة متبع للإمام لا مخالف له، نعم هو خالفه في جزئية، لكنه وافقه في القاعدة العامة، وهذا أقرب إلى الاتباع.

الشافعي رحمه الله قال كلمة عظيمة تكتب بماء العين، قال:

أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدَعها لأحد كائنًا من كان، هذا إجماع قطعي، وإن كان قد قاله الشافعي رحمه الله فهو لسان حال جميع الأئمة، منها الأئمة الأربعة وغيرهم، أما هذا الذي يقول أنا أتبع هذا الإمام ولا أخرج عن قوله أبدًا، أختار واحد من الأئمة الأربعة مثلاً وبالتالي فإنني لا يمكن أن أخرج عن قوله أبدًا لا شك أن هذا أمر محدث في دين الله، وليس عليه آثارة من علم، وليس عليه دليل من الكتاب والسنة.

الدرس السابع و الخمسين – ١٠١٧

٣٩- باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:60]. الآيات. **(المجلس الأول)**

هذا الباب الذي عقده المؤلف رحمه الله، بعد الباب الذي سبقه، كان منه ترتيب حسن من المؤلف رحمه الله حيث إن بين البابين علاقة وذلك أن المؤلف رحمه الله أراد أن يبين حقيقة الكفر بالطاغوت،

والطاغوت:أصح تعريف له هو تعريف ابن القيم: كل ما تجاوز به العبد حده، من معبود أو متبوع أو مطاع.

أما المعبود فمضى الكلام عما يتعلق به في الأبواب المتقدمة،

وأما المتبوع والمطاع: فأراد المؤلف رحمه الله أن ينبه إلى ما يتعلق بهما في هذين البابين، وذلك أن تجاوز العبد بأحدٍ حدَّه يكون اتخاذاً للطاغوت من هذه الجهات الثلاثة أن يجعله **معبودًا أو متبوعًا أو مطاعًا تجاوز به الحد الواجب شرعًا وكل واحد من هذه الأمور الثلاثة فيه تفصيل**

➢ **أما المعبود** فلا شك أن كل عبادة لغير الله فهي تجاوز للحد، لكن علمنا أن إطلاق وصف الطاغوت على المعبود **لا يكون إلا في حالتين:**

- **الأولى**: حالة الرضا بالعبادة يُعبد وهو راضٍ.
- **والحالة الثانية**: حالة الترشّح، يترشح للعبادة ويرى أنه أهل لها وإن لم يعبد، ففي هذه الحالة نقول إن هذا طاغوت، أيضًا في حالة المعبود ليس له إرادة كالأشجار والأحجار والأصنام، فإنما تسمى طواغيت.
- **الحالة الثالثة**: فهو أن يعبد المعبود دون الله تعالى **وهو غير راضٍ** كعيسى عليه السلام والملائكة والجن المسلمين والأولياء الصالحين وما إلى ذلك، فيما لا يسمى المعبود في هذه الحال طاغوتًا،

وإنما يقال إن العابد اتخذ طاغوتًا مع الله، أما المعبود فلا يسمى طاغوتًا في هذه الحال.

➢ **أما المتبوع: فإنه العالم الذي يُتْبَعُ قوله.**

➢ **وأما المطاع:** فإنه الأمير وذو السلطان، الذي يطاع أمره،

- **وإنما يكون هذا وذاك طاغوتين فيما إذا تعلق الأمر بتحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله.**
- **أو من جهة تنزيل أمره وقوله منزلة الكتاب والسنة في إرجاع مسائل التنازع إلى هذه الأقوال.**

إذن هذا الباب أراد المؤلف به أن يبين: أن تحكيم شرع الله ﷻ توحيد، وأن تحكيم غير شرع الله إما أن يكون **ناقضًا** لهذا التوحيد أو **قادحًا** في هذا التوحيد، وبالتالي واجب على جميع المسلمين أن يجعلوا شرع الله الذي جاء في الكتاب والسنة هو المرجع عند التنازع وهو الذي يجب أن يحكم به،
وذلك أن الله تبارك وتعالى كما أنه المعبود جل وعلا الحق، كذلك هو الذي يجب أن يكون حكمه نافذًا في خلقه؛ كما أن حكمه الكوني نافذ، فكذلك يجب أن يكون حكمه الشرعي نافذًا؛ الله جل وعلا هو الحكم وإليه الحكم، كما قال النبي ﷺ حين خرج أبو داود وغيره: **«إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم»**،

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:57]. **﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾**[الأنعام:114]. **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾**[التين:8].

الله جل وعلا أنزل هذا القرآن لا لغرض التعبد والتدبر فحسب، هذا من مقاصد القرآن ولا شك، لكن ليس الأمر مقصورًا على ذلك، **بل يجب أن يكون أيضًا المرجع عند التنازع**، يجب أن يكون هو المحكم مع سنة النبي ﷺ: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ﴾**[النساء:105].

هذه قضية من صميم العقيدة الإسلامية يجب أن يعتقدها كل مسلم، الحكم لله، والطاعة لله، وعلى جميع الخلق أن يلتزموا حكم الله ورسوله ﷺ ، وإلا فإنهم يكونون ألا شفا هَلَكة.

۞ **وأنبه هنا إلى أن مفهوم تحكيم شرع الله ﷻ أوسع مما يظنه بعض الناس،** بعض الناس يظن أن بمعنى كما يجب أن يكون الشرع هو المحكم في جرائم المسلمين، وسرقة السارقين، كذلك يجب أن يكون شرع الله ﷻ هو المحكم في هُتاف الهاتفين، والمستغيثين بالأموات، والناظرين للقبور، والطائفين بالأضرحة،

يجب أن يكون الكتاب والسنة محكمًا فيما تنازع الناس فيه في مسائل الأسماء والصفات..

يجب أن يعبد الله بما شرع الله ورسوله ﷺ ، لا أن يحكم الإنسان أحدًا من الخلق سوى رسول الله ﷺ .

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء:59] لاحظ هنا كيف أن الفعل أطيعوا تكرر في أمر الله وفي أمر رسوله ﷺ. **وهذا يفيد أن حكم النبي ﷺ واجب الطاعة استقلالاً** بمعنى ما جاء الأمر فيه من الكتاب والسنة فعلى الرأس وعلى العين، وما جاء الأمر فيه من الكتاب فحسب، فعلى الرأس وعلى العين، وما جاء الأمر فيه من السنة فقط، فعلى الرأس وعلى العين، فلا فرق عندنا معشر المسلمين بين أن يثبت الحكم بآية وحديث، أو آية أو حديث، كل ذلك مقبول وكل ذلك واجب الطاعة والاتباع.

بخلاف قول بعض الضالين الذين يزعمون أنهم قرآنيون والحق أنهم كافرون بالقرآن مكذبون لكتاب الله، حينما يزعمون أنهم لا يأخذون إلا بالقرآن، وأما ما انفرد به شيء من سنة النبي ﷺ فإنه لا يلتفت إليه ولا يرجع إليه، ولا شك أن هذا المذهب مكذب لكتاب الله وكفر بالكتاب والسنة.

ثم قال: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ لم يُعَد الفعل (أَطِيعُوا)، ذلك أن التحقيق في هذه الآية،
(أُوْلِي الأَمْرِ) هذه الكلمة تجمع صنفين: **الأمراء والعلماء**،
قال(وَأُوْلِي الأَمْرِمِنْكُمْ) ولم يعد الأمر أطيعوا، **ليبين لك أن طاعة أولي الأمر ليست طاعة مستقلة**، بل يجب أن تكون تابعة للكتاب والسنة، وبالتالي فكل حكم لولي أميرًا أو سلطانًا أو عالمًا فإنه لا يقبل إذا كان مضادًا للكتاب والسنة، قال النبي ﷺ: **«إنما الطاعة في المعروف»**، فطاعة أولياء الأمر لا يجوز أن تكون نافذة في معصية الله ﷻ، قال النبي ﷺ:
«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بالمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».
﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إذن هذا هو الذي يجب من كل مؤمن بالله ورسوله ﷺ، أن يرد التنازع ومواضع التنازع، وأحوال التنازع إلى الكتاب والسنة.

وقد أجمع العلماء على

أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه،

وأن الرد إلى رسوله ﷺ بعد وفاته، هو الرد إلى سنته، هذه هي زبدة الإيمان، وحقيقته في هذا الباب

مستحيل –وهذا ما يجب أن يلزم به– يستحيل أن يكون شيء من الأشياء خاليًا عن حكم الله ورسوله ﷺ ، هذا من أبعد المحالات كل المسائل والقضايا والأمور والنزاعات وغرض النزاعات لله ولرسوله ﷺ فيها حكم، فالشريعة تستوعب هذه الأمور مهما استجدت المستجدات، لكن طبيب ذلك العالم الرباني، الذي يعرف كيف ينزل المسائل على أدلتها بحيث يحسن تحقيق المناط والبلية حينما يتولى ذلك من ليس بذلك أهلاً.

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[النساء:59].

من لم يلتزم حكمية الله، ورد التنازع إلى الله والرسول ﷺ فإنه يكون قد انطبق عليه هذا الحكم، لم يكن مؤمنًا بالله واليوم الآخر، لم يكن مؤمنًا بالله والرسول ﷺ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ **هذا في اللغة يسمى أسلوب تعجيب،** أعجِب بمن هذه حاله: ﴿أنظر إلى هؤلاء يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾

الزعم كلمة من مثلث اللغة يقال: زَعْمٌ وزِعْمٌ وزُعْمٌ، الأكثر زَعم،

الزعم في اللغة قد يأتي وهذا الأكثر بمعنى: القولُ الكاذب، هذا زَعمٌ أو زَعْمَ فلان، يعني هذا كذب، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ بكذبهم وإفكهم، هذا هو الأكثر.

وقد يستعمل فيما هو أرفع شأنًا من هذا، وهو في القول الذي تحوم حوله الشكوك، أمر مشكوك فيه، بقوله زعم فلان كذا، ولم يجزم بكذبه، لكن الأمر ماذا؟ مشكوك فيه.

وقد يستعمل هذا الكلم فيما هو أرفع من ذلك، وهو القول الذي تحال فيه العهدة إلى قائله، وهذا واقع أيضًا في كلام أهل اللغة، وقد أكثر سيبويه رحمه الله في كتابه (الكتاب) من هذه الجملة، فهو يقول: (زعم الخليل كذا، زعم الخليل كذا)، فهو يريد أنه قول ليس أنه قول ليس كذبًا إنما هو قول يحيل عهدته على قائله.

وقد يستعمل فيما هو أرفع من ذلك، وهو القول الحق، ويشهد من هذا ما جاء في صحيح مسلم من قصة الأعرابي الذي جاء للنبي ﷺ وكان فيما قال: (أنه آتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك)، هذا قول الرسول أن النبي ﷺ يزعم أن الله أرسله، فهذا الزعم قول حق.

الشاهد أن هذا القول الذي نسبه الله ﷻ إلى هؤلاء المنافقين وطائفة من المفسرين نقلوا الإجماع على أن المقصود في هذه الآية إنما هم المنافقون، ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ **والزعم ههنا هو القول الكاذب** هم يقولون قول لم يسبقوا فيه، يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك،

ومعلوم أن الإيمان بالكتب من أركان الإيمان، وأن من كذب بالكتاب الواحد مما أنزل الله جل وعلا فلا شك **أنه كافر بالله ﷻ، وغير مسلم،** وميزة ما أنزل الله على نبيه ﷺ على بقية الكتب إنما هو الاتباع أما بقية الكتب فيؤمن بها ويُصدق بها لكن لا يُعمل بها ولا تُتبع، الاتباع والعمل أمر خاص بما أنزل على النبي ﷺ

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾

۞ الطاغوت في مجال التنازع هو كل ما جُعِل عديلاً للكتاب والسنة، بمعنى أنه ينزل منزلة الكتاب والسنة في الرجوع إليه ووجوب الإذعان إلى حكمه، ما كان كذلك فهو طاغوت، سواء سُمِي قانوناً أو دستورًا أو سوالف بادية، أو ما شاكل ذلك،

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ يدلك على أن كفرهم راجع إلى عدم التزام الحكم أو التحاكم إلى الكتاب والسنة،

۞ **انتبه هذه المسألة مهمة،** المنافقين- كان الخلل عندهم أنهم يريدون عندهم رغبة وعندهم انشراح صدر، وهذا يدل دلالة بينة على أنهم لم يلتزموا حكم الله ورسوله ﷺ، وعدم التزام حكم الكتاب والسنة، يلزم التحاكم إلى غير الكتاب والسنة وهذا قوام تفصيل هذه المسألة: **التحاكم،**

التحاكم، هذه مسألة تختلف عن مسألة الحكم، إذن عندنا مسألتان، مسألة تحاكم، ومسألة حكم،

✿ نحن نبحث الآن في التحاكم، هذه المسألة لها أحوال ثلاث:

الحال الأولى هي: **عدم التزام الكتاب والسنة،**

بمعنى تحاكم إلى غير الكتاب والسنة مع عدم التزام الكتاب والسنة، عدم التزام الحكم أو التحاكم إلى الكتاب والسنة، **وهذا له صور:**

- **منه أنه يتحاكم** إلى غير الكتاب والسنة لأنه يستكبر ويأنف من التحاكم إلى الكتاب والسنة، وهذا عدم التزام بحكم الكتاب والسنة،

الالتزام هو: **أن يعتقد** الإنسان أنه مخاطب وملزم وواجب، يعتقد أنه واجب عليه وأن عليه أن يفعل، بغض النظر أقام بهذا بالفعل أو لم يقم، المهم أن هذه قضية عقدية.

- يعتقد أن الشريعة قاصرة عن أن تحكم في مثل هذه المسائل، شأنها أن تتكلم عن أحكام الصلاة والصيام و هذه القضايا يقول من مسائل المنازعات التجارية لا للشريعة ولهذه المسائل، فهو يترك التحاكم إلى الكتاب والسنة لأنه يرى أن الشريعة قاصرة عن ذلك.
- **ومن ذلك** أيضًا أن يقول الرجوع إلى الكتاب والسنة أحسن وتحكيمهما أفضل، ولكن يجوز أن نتحاكم إلى غيرهما لا مشكل.

ولا شك أن هذا كفر بالله جل وعلا، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:44].

هذه المسائل جميعًا **يجب** أن يكون الحكم فيها لله ﷻ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾الشورى

الحالة الثانية: **أن يكون ملتزمًا بالتحاكم إلى الكتاب والسنة ولكنه يتحاكم إلى غيرهما لشهوة أو لسبب أو لآخر،**

مثلاً لأنه يرى أنها سوف تحكم له بأكثر مما تحكم له به الشريعة، فطمحت نفسه إلى هذا العرض الزائل من الدنيا، مع اعتقاده أنه عاصٍ لله جل وعلا، وأنه يخالف الواجب عليه.

فنقول هذا له حكم غيره من العصاة، هذه المعصية كغيرها من المعاصي وإن كانت كبيرة وعظيمة وضلالاً مبينًا لكنها لا تصل إلى حد الكفر بالله جل وعلا، لأن مناط التفكير في مسائل التحاكم يعود إلى الكفر بالله جل وعلاو عدم التزام التحاكم للكتاب والسنة، انتبه.. هذا منزلق ربما يخطئ فيه من يخطئ فيقع في قوة التكفير بغير وجه حق، تنبه إلى هذا الأمر.

الحال الثالثة: حالة الاضطرار،

وذلك أن يكون مسلمٌ يسكن بلد من بلاد الكفار، ولا حكم للشريعة هناك، ولا محكمة شرعية ثمة، اعتدي عليه أُخِذَ ماله، سرقت سيارته، ماذا يفعل؟ أيترك حقه يذهب هكذا أمام نظره أو ربما اعتُدِي عليه بالضرب، يترك الناس وهو لا يحرك ساكنًا، لا شك أن الشريعة لا تأتي بهذا، هذه حالة اضطرار، **ومثل هذه الحالة أفتى علماؤنا بجواز الرجوع إلى المحاكم التي تحكم بقوانين ولكن بشروط:**

أولاً: أن يكون الضرر محققًا، يعني ليست القضية قضية أوهام أو توقعات أو تصورات إنما هناك أمرٌ واقعيٌ محقق، **فمثل هذا وقع على الإنسان في شأنه ضرر، وقاعدة الشرعية(الضرر يُزال).**

ثانيًا: ألا يوجد حلٌ لهذا الإشكال إلا الرجوع لهذه المحاكم، لا يوجد محكمة شرعية، لا يوجد مجالس للتحاكم في الجالية المسلمة ويكون حكمها ملزمًا، بعض البلاد ربما يوجد فيها شيء من ذلك، يوجد مجالس للتحكيم، يتحاكم المتخاصمان من المسلمين إلى هذه المجالس ويُحكَم فيها بمقتضى الشريعة، **فمثل هذا واجب أن يَرجِع إليه ولا يجوز أن يَرجِع إلى الأحكام الوضعية.**

ثالثا: أن يأخذ حقه الذي جعلته له الشريعة فقط، لو أن في مقتضى قانونٍ ما، يجوز أن يُحكم بأن تأخذ يا أيها المغلول أكثر من حقك، ولو أنه رُجِعَ إلى الله في هذه الشريعة لأخذت حقك فقط، **هذا القدر الزائد لا يجوز لك أخذه،** يجب أن تأخذ حقك فقط، وبالتالي كان الرجوع إلى هذه المحكمة لإرادة الحصول على حكم الشرع، ولكنك رجعت إليها لأنه لا سبيل لك غيرها، فأنت مضطر، فمثل هذه الحال باجتماع.

هذه الشروط الثلاثة فإنه يجوز إعمالاً لقواعد الضرورة في الشريعة الرجوع أو التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ، ولكن عند التحقيق عاد الأمر إلى أخذ ما تحكم به الشريعة.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾

نعم، أُمِرْنا أن نكفر بالطاغوت، ألم يقل الله جل وعلا: **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾**[البقرة:256]، إذن لا توحيد ولا إسلام ولا إيمان ممن لم يجمع بين الأمرين، لو آمن بالله فقط لا ينفعه، بل لابد أن يضم إلى ذلك الكفر بالطاغوت،

وهذا هو شطر كلمة التوحيد التي هي أساس الإسلام ومفتاح الإيمان، وذلك أن لا إله هي التي تترجم عن الكفر بالطاغوت، فما قد أخذنا هذا في الدروس السابقة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾[النساء:61]،
هذه الجملة تدل على أن بلية المنافقين رجعت إلى قضية الالتزام القلبي، **عندنا قرينتان،**

القرينة الأولى في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾
والصد إعراضٌ يشوبه في الغالب استكبار إعراضٌ صد عن كذا يعني أعرض عنه، في الغالب أن يكون هذا الإعراض مع شيء من الاستكبار **فالقوم أوتوا بأمرٍ، أوتوا من جهة أمرٍ قلبي عقدي.**

والقرينة الثانية قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[النساء:63]،
إذن الأمر رجع إلى أمر **في القلب**، وليس راجع إلى أمرٍ **في العمل**
﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾

سبحان الله، كل أحد يمكن أن يدعي أنه مصلح وأنه يريد الخير ويريد الإحسان ويريد الإصلاح حتى المنافقون أساس الشر والبلاء إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا، حتى إبليس، ألم يقل الله ﷻ عنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف:21]، فرعون أكبر الطغاة ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[غافر:29].
إذن ليس كل من ادعى أنه مصلح وأنه يريد الخير، ليس كل من ادعى ذلك يكون صادقًا،

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[النساء:64–65].
هذه حقيقة الإيمان بالرسول ﷺ ، أن يكون مطاعًا وأن يكون متبعًا وأن يكون محكمًا.

رجعنا مرة أخرى إلى قضية التحاكم إلى شرع الله: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:65]، نفى الله الإيمان عمن لم يتحاكم إلى الرسول ﷺ ، بل والله هذا لا يكفي حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت، يزول من قلبهم كل تلون وكل تردد وكل حرج من حكم الله ورسوله ﷺ ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ويذعنوا إذعانًا. **هذه حقيقة الإيمان، هذه حقيقة الطاعة.**

الدرس الثامن و الخمسون – ١٠٣٣

٣٩- باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (المجلس الثاني)

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:11]

هذا إخبارٌ من الله ﷻ عن المنافقين إذ لا يزال الحديث متعلقًا بهم وهذه الآية أيضًا في المنافقين.

❁ ووجه إيراد المؤلف رحمه الله في هذه الآية في هذا الباب، هو أن من الإفساد في الأرض ترك تحكيم شرع الله ﷻ وتحكيم غيره، هذا من الإفساد في الأرض، وهذا دأبُ المنافقين، فإنهم أبعد الناس عن تحكيم شرع الله، وأقرب الناس إلى تحكيم غير شرع الله،

قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾[البقرة:11]، كأن هذا الخطاب وكأن هذه نصيحة توجه بها بعض أصحاب هؤلاء المنافقين أو أقربائهم المؤمنين، رغبة في دعوتهم إلى الحق رجاء إيمانهم.

الإفساد: هو السعي في الفساد، إفساد يعني أن يسعى الإنسان في فساد شيء، والغالب أو يقع كثيرًا أن يكون الإفساد واقعًا على شيء صالح في الأصل، يقال إنه أفسده،يعني صيره فاسدًا بعد أن كان صالحًا.

والفساد: هو كل ما فيه ضرر وقد يكون **شيئًا حسيًا** وقد يكون **شيئًا معنويًا**،

والفساد ها هنا: هو الفساد المعنوي وذلك أن أعظم الفساد هو معصية الله جل وعلا ومحادة أمره وعدم الاستجابة لدعوته، أي فساد أعظم من هذا الفساد أن يفعل الإنسان ضد الحكمة التي لأجلها خُلِق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾فجاء هذا المخذول بضد ما أُمِرَ به فكان فعله فسادًا.

والمنافقون لا شك أنهم مفسدون أفسدوا أنفسهم ويسعون في إفساد غيرهم، فهم مفسدون بكل حال:وأنه لم يعين هذا الشيء الذي أفسدوا فيه، وذلك لأن فروع الفساد التي تكون من المنافقين كثيرة جدًا حتى كأنهم حازوها جميعًا، ولذلك جاءت الآية بهذا الإطلاق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾

وأقبح ما يكون الإفساد حينما يعود على شيء صالح، والله جل وعلا جعل هذه الأرض صالحة خلقها أول مرة ﷻ صالحة مباركة وقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[فصلت:10]، فجاءها الإنسان الذي لم يستجب لله جل وعلا بما يفسدها،

وأول الإفساد هو الإفساد المعنوي بمعصية الله جل وعلا، فيتبعه على ذلك ثمرته، وهو الفساد الحسي، ألم يقل الله سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:41].

الله ﷻ قدر بإرادته الكونية أن يكون الفساد الحسي في الأرض ثمرةً للفساد المعنوي، كل ما يذوقه ويلمسه الناس ويشكون منه من فساد في الأرض كلها راجعة إلى الفساد المعنوي بعصيان الله جل وعلا وتنكب الطريق الذي دعا إليه أنبياءه ﷻ، والله جل وعلا مع ذلك يلطف بعباده ويمهلهم.

﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ ماذا كان الجواب؟ كان الجواب بالنقض: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

نلاحظ أنهم أتوا بالجملة الاسمية التي تفيد معنى الدوام، لم يُخبروا عن أنفسهم بأنهم مصلحون، كما كان كلام الناصحين لهم، لا تفسدوا. كانت الجملة فعلية، لكنهم أجابوا بجملة اسمية، يخبرون عن أنفسهم بأننا مصلحون دائمًا، قوله في طول حياتنا وفي طول أمرنا وأرضه نحن مصلحون، ولاحظ ما بلغوا فيه من المكابرة حينما أتوا بهذا الحرف الذي يفيد القصر: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾يعني قصروا أنفسهم على الإصلاح، لا شأن لنا ولا شيء عندنا سوى أننا مصلحون!

وهذا ضد حالهم بالضبط، ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة:12].

والقصر ها هنا جاء أقوى من القصر الذي زعموه لأنفسهم، ألا وهو: بتعريف

﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ يعني أنهم هم المفسدون في الحقيقة، وأُكِّد هذا القصر بضمير الفصل، **(هم)** هنا ضمير فصل يفيد معنى التأكيد، فكان الجواب أو الرد على كلامهم بالنقض أيضًا، يعني أخبر الله ﷻ أن حالهم على ضد ما كانوا يزعمون.

إذن نستفيد من هذه الآية: أن أهل النفاق دأبهم وديدنهم وشأنهم هو الإفساد في الأرض.

وبهذا أيضًا يتأكد لنا أن أهل النفاق بل أن كل مبطل يمكن أن يدعي لنفسه الإصلاح، كما قلنا عن إبليس وعن فرعون وعن المنافقين.

القاعدة التي يجب أن يتنبه لها المسلم فيها: أن كل مبطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه مُزخرفًا مُموَّهًا محسنًا.

أشاهد هذا في كتاب الله، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ماذا؟ ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:112].

إذن الوسيلة التي يسعى بجد واجتهاد شياطين الإنس والجن في ترويج الباطل بها هو زخرف القول، يخرجون الباطل في صورة حسنة جميلة، وفي المقابل يخرجون الحق في صورة سيئة،

وقوله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[الأعراف:56].

هذه الآية قريبة في المعنى من الآية السابقة، وفيها النهي عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

علمنا أن هذا الفساد يشمل الفساد الحسي بالظلم، بإفساد مصالح الأرض وخيراتها،

والنوع الثاني وهو الأهم، وهو الأصل، وهو الأساسُ لما قبله، والإفساد فيها بمعصية الله ﷻ بالكفر، بالشرك بالله ﷻ، بمعاقرة المنكرات وفعل الفواحش والكبائر، كل ذلك من الإفساد في الأرض.

ووجه الشاهد من إيراد هذه الآية كما سبق أن الإفساد في الأرض الإعراض عن تحكيم شرع الله ﷻ، وأن يُنَزَّل غير شرع الله منزلته، وأن يُسَوَّى بينه وبينه وأفضل منه أن يُفَضَّلَ على شرع الله ﷻ،.

الله ﷻ هو الذي خلق الخلق، إذن هو الذي يعلم ما يصلحهم، ولذلك أنزل ﷻ في كتبه وأرسل رسله لا تستقيم أحوال الناس إلا بالاستقامة على شرع من خلق الناس وخلق هذه الأرض التي يعيشون فيها، وما لم يكن إلا أن الشواهد الواقعية الحسية التي تدل على أن شرع الله ﷻ هو الذي تصلح به أحوال الناس، لو لم يكن إلا هذا ردًا على هؤلاء المنافقين الذين يعرضون عن تحكيم الله ﷻ، لو لم يكن إلا ذلك لكفى به ردًا عليهم.

قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:50]الآية.

هذه الآية أخبر الله ﷻ فيها باستفهامٍ إنكاري، يخاطب فيها هؤلاء المنافقين وأضرابهم

الجاهلية: هي كل ما خالف الإسلام، لأن مبنى ذلك على الجهل.

أما الإسلام والحق والدين الذي أنزله الله ﷻ فإنه قد أنزله بعلمٍ كما أخبر ﷻ، ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾

فكل ما عارضه وكل ما خالفه حقيقته جهل محض.ولذلك أخبر ﷻ أن حكم غيره هو حكم الجاهلية

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني يريدون.

ثم بين الله ﷻ أن حكمه هو أحسن الأحكام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾[المائدة:50]،
لكن هذا لا يدركه ولا يقر به إلا الذين يوقنون، الذين بلغوا الدرجة العظيمة من الإيمان، عند هؤلاء حكم الله ﷻ أحسن الأحكام، وهذه الآية تعم الحكمين القدري والشرعي،

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾يعني قدرًا وشرعًا، كل ما يقدره الله ﷻ من أحكامه القدرية لا شك أنه أحسن ما يمكن أن يقع.

والله ﷻ قدره لعلمه أن الحكمة فيه تقدير الله، وفعله وخلقه مقرونٌ بالحكمة، والله جل وعلا يفعل بإرادته ومشيئته المقترنة بالحكمة، ولذلك أهل الإيقان يعلمون ذلك، فعندهم كل شيء قدره وحكم به سبحانه قدرًا وكونًا فإنه أحسن ما يمكن أن يقع، لو أصاب الإنسان حادث فإنه يحمد الله ﷻ عليه، لأنه في ظنه وعقيدته أنه أحسن ما يمكن أن يقع عليه في هذه اللحظة، هكذا عقيدته كل مسلم بلغ درجة الإيقان، كذلك الشأن في الأحكام الشرعية عند أهل الإيقان والإيمان الصادق، حكم الله الشرعي أحسن الأحكام، إذن الله جل وعلا لا حكم أحسن من حكمه، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[التين:8].

عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ:أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمنُ أَحَدُكُم حتى يَكونَ هَواهُ تَبَعًا لما جِئْتُ به» قال النوويُّ حديثٌ صحيحٌ، رَوَيناهُ في كتاب الحجةِ بإسنادٍ صحيح.

هذا الحديث فيه بحثٌ وكلامٌ طويل من جهة ثبوته عن النبي ﷺ، وقد صححه النووي رحمه الله فإنه والحافظ بن حجر رحمه الله في فتح الباري أورد هذا الحديث لكن من طريق أبي هريرة، لا من طريق عبد الله بن عمرو، وقال: رجاله ثقات، ونقل تصحيح النووي ولم يتعقبه.وابن عساكر قال في هذا الحديث أنه غريب، وابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم، فإنه تعقب النووي في تصحيحه وقال إن تصحيحه بعيد، وذلك أن الإسناد فيه نعيم بن حماد الخزاعي وهو على جلالة قدره بالعلم والسنة إلا أنه ضعيف الرواية، وكذلك اضطرب ففي روايته لهذا الحديث، مع وجود أيضًا انقطاع في الإسناد، ولذلك ضعفه، وضعفه غير واحد من أهل العلم.

على كل حال إن ثبت هذا الحديث عن النبي ﷺ أو لم يثبت، فالمعنى صحيح ولا يستشكل، فإن هذا الحديث في معناه يدل على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:65].

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» المقصود أنه يجب أن يحب ما أُمِر به من كلام الله وكلام رسوله ﷺ، أوامر الكتاب والسنة يجب على المسلم الذي يريد أن يكون مؤمنًا الإيمان الواجب، وهذا النفي (لا يؤمن أحدكم أو لا يؤمن من فعل كذا) يدل على أن فاعل ما ذُكِر قد نقص إيمانه الواجب وليس المقصود أنه لا يؤمن أصلاً يعني هو فاقد لأصل الإيمان، إنما هذا قدحٌ في قدرٍ أرفع وأعلى من أصل الإيمان وهو الإيمان الواجب،

«لا يؤمن» دليلٌ على أن هذا المذكور من الكبائر، قال به شيخ الإسلام و جماعة من المحققين وهو من العلامات التي تُعرف به الكبيرة من الصغيرة.

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»، فكلمة الهوى ها هنا لا تشكل، لأن الأصل في كلمة الهوى أصلاً **هو الميل**، هوي كذا .فهو يهوي **يعني مال**،

وإن كان الغالب في الاستعمال أن يكون مذمومًاولذلك ما جاء الهوى في كتاب الله ﷻ قط إلا مذمومًا. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[القصص:50].

لكن قد يرد في بعض الأحاديث والآثار الهوى في هذا المعنى وهو بمعنى المحبة أو بمعنى الميل،

- **ومن ذلك هذا الحديث الذي بين أيدينا،**
- ومن ذلك أيضًا قول عائشة رضي الله عنها كما في صحيح البخاري لما نزل قول الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[الأحزاب:51]، قالت رضي الله عنها تخاطب النبي ﷺ: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»، ومعنى كلامها أنها ترى أن الله ﷻ يكرم نبيه ﷺ بأن يمن عليه ويمنحه ويعطيه ما يحب ﷺ، فتلاحظ أن عائشة رضي الله عنها استعملت ها هنا ماذا؟ هذه الكلمة وقطعًا

هي لا تريد المعنى المذموم، لأن النبي ﷺ لا شك أنه يُجّلُ عن نسبة المعنى المذموم إليه، إنما المراد ماذا؟ المراد الميل المراد المحبة.

- **وقل مثل هذا في قول عمر** ﷺ في شأن أسارى بدر لما اختار النبي ﷺ ومال إلى قول أبي بكر فيه وهو أنه لا يقتلهم بخلاف قول عمر، قال ﷺ فهوي النبي ﷺ ما قال أبو بكرٍ ولم يهوى ما قلت، يعني أنه مال وأحب ورغب في قول أبي بكر ولم يحب ما قلته.

إذن الواجب على كل مسلم أن يحب رسول الله ﷺ ، وأن يحب حكم الله ورسوله ﷺ ، حتى لو كان يشعر أن فيه عليه مشقة، بخلاف حال المنافقين الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فإنهم يعرضون، يصدون صدودًا، لا يحبون حكم الله ورسوله ﷺ،

وقال الشعبيُّ: كانَ بين رجلٍ من المنافقينَ ورجلٍ منَ اليهودِ خُصُومَةٌ فقال اليهوديُّ نَتَحَاكَمُ إلى محمد ﷺ، عَرفَ أنهُ لا يَأخُذُ الرشوةَ، وقال المنافقُ نتحاكمُ إلى اليهودِ لعلمهِ يأخذونَ الرشوةَ،فاتَّفَقا أن يأتيا كاهنًا في جُهَيْمَةَ فيتحاكما إليه، فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[النساء:60].. الآية.

أورد المصنف في هذا الموضع في آخر الباب هذا الأثر في سبب نزول الآية التي صدَّر بها الباب، ولا أدري سبب هذا التأخير، تأخير إيراد سبب النزول للآية التي قدمها، المقصود أن المؤلف رحمه الله أورد هذا السبب، وسببًا بعضه أيضًا، وإن كان المكتوب في كتب التفسير أكثر من ذلك، يعني لو نظرت في كتب التفسير لوجدت أربعة أو خمسة من أسباب نزول هذه الآية، ومنها ما ذكر المؤلف رحمه الله.

هذا الأثر أثر مرسل، لأن الذي يرويه لنا هو الشعبي، وهو تابعي عامر بن شراحيل الشعبي الحميري التابعي ابن جليل الذي لقي جمًا غفيرًا من أصحاب النبي ﷺ، حتى أنه ذكر عن نفسه أنه لقي أكثر من خمسمائة من أصحاب النبي ﷺ، ومع ذلك فإنه ما لقي النبي ﷺ، **فالأثر مرسل**، وعلى كل حال صح السبب أو لم يصح فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

في هذا الأثر فوائد:

➢ أولاً: **أن تعلم أن المنافق أسوأ حالاً من اليهودي،**

ألم تر أن اليهودي رَغِبَ في تحكيم النبي ﷺ وأما المنافق فلم يرغب، تلاحظ أن اليهودي علم أن النبي ﷺ لا يأخذ الرشوة،

والرشوة: من مثلث الكلام رِشوة ورَشوة ورُشوة **والأشهر بالكسر**، وفي مقابل ذلك المنافق أعرض ولم يرد ذلك، حتى أنهم تحاكموا إلى كاهنٍ في قبيلة جهينة.

➢ **ثانيا: وهي أن الكهان عند العرب كانوا يرجعون إليهم لغرضين،**

- **الأول لمعرفة أو بما يزعمون أنهم يريدون معرفة الغيب،**
- **والأمر الثاني** أيضًا من وظائفهم التي يمارسونها أنهم كانوا يحكمون بين الناس، يتحاكمون إليهم ويزعمون إلى حكمهم

➢**ثالثا: وهي مهمة وهي أن الدنيا قد تجر إلى الكفر.**

لاحظ كيف أن هذا الإنسان من أجل رغبته في تحصيل حطام دنيوي ما رغب أن يحتكم إلى النبي ﷺ، إنه يعلم أنه مبطل وأنه يفوته هذا الحظ من الدنيا، ولذلك لما أعرض عن تحكيم رسول الله ﷺ باء بالخسران، ونزل فيه هذه الآية العظيمة، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ إذن هو كاذب ليس بمؤمن، فالدنيا أمرها خطير ربما لو استرسل الإنسان معها وأفل معها ولم يضمن نفسه بالاستجابة والاحتكام لأمر الله ورسوله ﷺ، ربما هذا الهوى يهوي به والعياذ بالله في أودية صفيقةٍ من الضلال والخسران، نسأل الله السلامة والعافية.

وقيلَ نَزَلتْ في رَجُلينِ اخْتَصَمَا فقال أحدُهُم نَترَافَعُ إلى النبيّ ﷺ وقالَ الآخرُ إلى كَعْبِ بنِ الأَشرفِ،ثم تَرَافَعا إلى عمرَ ﷺ فذكرَ لهُ أَحَدُهُمَا القصةَ، فقال للذي لم يرضَ برسولِ اللهِ ﷺ أكذلكَ؟ قال نعم، فضربهُ بالسيفِ فَقَتَلَهُ.

هذا سبب آخر في نزول هذه الآية التي معنا، وهذا السبب سبب مشهور في كتب العلماء، والروايات فيه عدة، ولا يخلو شيء منها من مقال، وإن كان بعض أهل العلم ومنهم الشارح الحقيق الشيخ سليمان رحمه الله، ذكر أن شهرة القصة تغني عن إسنادها.

المقصود أن هذا الأثر ينصح فيه أيضًا ما يدل على أن الاحتكام إلى غير شرع الله ﷻ هو شأن المنافقين كما دلت عليه الآية، وأن من الإيمان الواجب ومن التوحيد اللازم أن يحتكم إلى أمر الله ورسوله ﷺ ، هذان رجلان اختصما، فيبدو أن الأخذ والإعطاء بينهما توصل إلى عمر رضي الله عنه، فلما مثل بين

يديه، كان أن حدثاه بما حصل منهما، فقال للذي أبى أن يحتكم إلى النبي ﷺ: هو كذلك؟ أراد أن يتحقق منه، فلما أكد له أنه قد فعل ما كان منه إلا أن سل سيفه وضرب به عنقه،

وذلك يدلك على أن هذا الرجل

- **إما أن يكون منافقًا أظهر نفاقه،** والأصل في المنافق الذي يستر نفاقه، أنه يُحكم عليه بالظاهر، (لا يتحدث الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه) فإن أظهر كفره فإنه يعامل بما يقتضيه هذا الإظهار،
- **وإن كان مسلمًا فإنه يكون قد ارتد بالإعراض والصدود عن تحكيم النبي ﷺ،** ففعله يدل على أنه كان مستكبرًا عن حكم النبي ﷺ.

۞لاوبقيت مسألة ربما تستشكل، وهي أن المعلومة المتقررة في الشريعة أن إقامة الحدود من شأن الحكام، ولكننا نلحظ ها هنا من صحة القصة أن عمر رضي الله عنه الذي تولى قتل هذا الرجل، وتباينت وجهات نظر أهل العلم في توجيه هذه القصة،

والذي يلوح لي والله أعلم، أن عمر رضي الله عنه كان وزيرًا للنبي ﷺ ، وكان من أقرب الناس إليه، بل لا يفوقه في القرب من النبي ﷺ إلا أبو بكر، وهو أعلم الناس أو من أعلم الناس بما يرضاه النبي ﷺ أو لا يرضاه، وكأنه رضي الله عنه قد علم أن النبي ﷺ يرضى منه هذا الفعل، فنزل علمه برضاه منزلة رضاه بالفعل، نزل علمه برضاه منزلة رضاه بالفعل، وكان منه ذلك رضي الله عنه إن صحت القصة وفي القصة كلامٌ من جهة ثبوتها.

الدرس التاسع و الخمسون -١٠٥٢ ٤٠- بابُ مَنْ جَحَدَ شيئًا مِنَ الأسماءِ والصِّفَاتِ (المجلس الأول)

هذا الباب الذي بين أيدينا فيمن جحد شيئًا من الأسماء والصفات، يعني من أسماء الله سبحانه وصفاته، هذا الباب من الأبواب القليلة، التي تناولت موضوع الأسماء والصفات في كتاب التوحيد.

وكأن المؤلف رحمه الله رأى أن موضوع الأسماء والصفات قد كتب فيه مؤلفات كثيرة، من العهد الأول منذ القرون الأولى، ولم يزل يكتب فيه إلى وقت المؤلف، لكن الشيء الذي تشتد الحاجة إلى التأليف فيه، **هو موضوع توحيد العبادة، ولأجل هذا، جعل جلّ الأبواب متناولة هذا الموضوع.**

من جحد شيئًا من أسماء الله سبحانه وصفاته: يعني ما جاء في ذلك من الذم، والتحذير، لأن هذا المسلك مما يُنْقَضُ به التوحيد، أو ينقُص به التوحيد، فإن جحد الأسماء والصفات قد يكون

- مما ينتقض به الإيمان والتوحيد،
- وقد يكون دون ذلك،

ولكنه لا شك، مما يخدش في التوحيد، ومما يقدح في كماله الواجب.

۞ منهج أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله سبحانه وصفاته.

✹ والكلام في هذا يمكن أن نجعله في أسس متتالية:

الأساس الأول: **فهو أن أهل السنة والجماعة، يعتقدون ثبوت ما أثبت الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات.**

هذا هو المسلك الرشيد و المنهج الحق، هذا هو النور بين ظلمات، جانب الغلو، والتعطيل، والتمثيل، أما هذا المسلك الذي سلكه أهل السنة والجماعة، مسلك متوسط، جمع الحق كله، وجمع الخير كله.

لأن ما جاء في الكتاب والسنة هو الحق الذي لا ريب فيه، والله جل وعلا بين أن كتابه حق، وأن ما فيه حق، وكذلك سنة رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، حق لا ريب فيه، ولا شك فيه، ولا يعتوره خطأ بحال من الأحوال.

❁ لا يفرق أهل السنة والجماعة بين الأدلة من حيث الأخذ بها، فالأدلة القطعية قد دلت على أن الكتاب حجة، وعلى أن سنه النبي ﷺ أيضًا حجة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:7].

❁ وفي سنة النبي ﷺ أهل السنة والجماعة أيضًا لا يفرقون بين الأحاديث، **العبرة عندهم: ثبوت الدليل**، ثبوت الحديث، ثبوت السنة،

أما أن نشترط شيئًا زائدًا على ذلك، كأن تكون السنة متواترة، وإلا فإننا لا نقبلها في باب الأسماء والصفات. **لا شك أن هذا مسلك خاطئ مخالف لما كان عليه الصحابة، والتابعون، وأتباعهم، لأن الأدلة لم تدل على إثبات هذا الشرط**، الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ إذن متى ثبت عندنا أن هذا نص قاله رسول الله ﷺ إذن لا يجوز للإنسان أن يتردد في قبول هذا الحديث عن النبي ﷺ. **إذا سمى الله نفسه** بالرحمن، والرحيم، والكريم، والعليم، ليس لنا إلا أن نتلقى هذا بالقبول، ونعتقد أن هذا اسم ثابت لله تبارك وتعالى، هو الذي سمى به نفسه.

ليس الخلق هم الذين سموا الله تعالى، حاشا وكلا، بل هي أسماء لله سمى هو بها نفسه، ولذلك في حديث الهم، يقول النبي ﷺ: **«أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك»**، إذن أسماء الله هي أسماء له بتسميته إياها –يعني هو الذي سمى نفسه بها– لا أن الخلق هم الذين أنشأوا تسمية الله ﷻ بها.

هكذا الشأن أيضًا في صفات الله ﷻ، نعتقد أن كل صفة جاءت في الكتاب والسنة فإن الله تعالى متصف بها حقيقة، إذا أخبرنا الله جل وعلا أنه يحب وأنه يبغض وأنه يغضب، وأنه يرضى وأنه استوى على العرش، وأن له وجهًا وأن له يدين وأن له قدمًا، يجب علينا أن نعتقد ذلك، هذا شيء أخبرنا الله به، هذا شيء أخبرنا به النبي ﷺ؛ إذن، ليس لنا إلا أن نقول: على الرأس، وعلى العين، نعتقد موجب ذلك، دون تردد.

وإذا كان ذلك كذلك، فإنه سيتضح لنا أن هذا الإثبات الذي أثبته أهل السنة والجماعة، هو هدى بين ضلالتين:

➢ **ضلالة اتجهت جهة التمثيل**

فجعلت ما يثبت لله تعالى من الصفات من جنس ما يثبت للمخلوقين،

➢ والناحية الأخرى هي التي نحت نحو التعطيل

فقالت إن ما ثبت في الكتاب والسنة من صفات الله جل وعلا ليس من حقيقته، الله لا يتصف به حقيقة، **إذن ما هذا الذي جاء في النصوص؟** قالوا: هذا مجازات، استعارات، كنايات، قل ما شئت ولكن لا تقل إن الله يتصف بها حقيقة؛

وهذا الجانب هو الذي أراد المؤلف رحمه الله أن يتحدث عنه في هذا الباب، هؤلاء الذين جحدوا أسماء الله وصفاته.

أهل السنة والجماعة وسط بين الطائفتين،قال تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:11].

هذه الآية العظيمة هي أم الباب في الأسماء والصفات، بمعنى: كل كلام أهل السنة والجماعة تقريبًا في باب الأسماء والصفات- يدور على هذه الآية: **تشتمل على شقين:**

الشق الأول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، رد على أهل التمثيل.

والشق الثاني: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ رد على أهل الجحد. والتعطيل.

إذن أهل السنة والجماعة كانوا في اعتقادهم وسطًا، يثبتون أن الله ﷻ متصف بالصفة، لا كاتصاف المخلوق، ولذلك لخص لنا هذا المنهج المجانب لهاتين الطائفتين **المنحرفتين عن الحق الإمام نعيم بن حماد الخزامي رحمه الله حينما قال** وهذه كلمة عظيمة تلقاها عنه أهل السنة والجماعة بالقبول-يقول

من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر،وليس فيما وصف به نفسه تشبيه

وهذا أثر حسن ثابت عنه، قال عنه الذهبي: رويناه بأصح إسناد.

الأساس الثاني: أهل السنة والجماعة، يعلمون معاني نصوص الصفات، في ضوء لغة العرب.

لأن الله -سبحانه وتعالى- أنزل هذا الكتاب، لأجل أن يتدبر: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:29]، ولم يقل الله ﷻ **إلا** آيات الصفات.

إذن كل القرآن مما يجب أن يتدبر المسلم، حتى نصوص الصفات؛ يجب على الإنسان أن يتدبرها، وأن يعلم معناها، **فإذا أخبرنا الله جل وعلا بأنه على العرش استوى، نحن هنا بين أمرين:**

- **إما أن نقول**: إن كلمة (استوى) كلمة غامضة، مجهولة المعنى، مثلها مثل الطلاسم، والألغاز، والكلام الأعجمي، الذي لا يعلم له معنى، ولا يدرك له فائدة.
- **أو أن نقول**: إن هذه الكلمة (استوى) كلمة عربية، ولها مفهوم في لغة العرب فنحن نفهم هذه الكلمة في ضوء لغة العرب.

ف(استوى) عند العرب، **استوى على**:بمعنى علا على الشيء وارتفع عليه،

ولذلك يقول الله جل وعلا: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[الزخرف:13]، قال عن سفينة نوح: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[هود:44]، أي شخص يفهم لغة العرب سيفهم أن قوله: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، أنها علت وارتفعت على الجبل المسمى الجودي.

وعندما فتشنا في سنة النبي ﷺ وجدنا أنه يقول: «إذا اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم»؛ ما معنى يتدارسونه؟ يعني يحاولون أن يفهمون وأن يتدبروا معانيه.

نظرنا في فعل الصحابة رضي الله عنهم وفعل التابعين،

مع الصحابة وجدنا مجاهدا التابعي الجليل رحمه الله تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما يقول عرضت القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عرضات، أقفه عند كل آية منه -يعني من القرآن-

۞السؤال الآن: أقال مجاهد رحمه الله: إنني أقفه عند كل آية، إلا آيات الصفات؟ أقال هذا مجاهد؟

ما قال هذا؛ إذن كان رحمه الله يسأل ابن عباس رضي الله عنه عن آيات الصفات كما يسأله عن غيرها من الآيات، لم يقل: كنا إذا مررنا بآيات الصفات أغلقنا أعيننا، وأسماعنا، وقلوبنا، عن أن نتدبر معناها، كما هو الحال عند طائفة من أهل البدع الذين يقولون إن آيات الصفات مجهولة المعنى، أنزلها الله في القرآن، ولكن لا يعلم معناها إلا هو.

فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5]، إذا قال إنه -سبحانه- قال عن نفسه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:54]، إذا قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[المائدة:119]، إذا قال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:6]، إذا قال إن له يدين، إذا قال إن له وجهًا، إذا قال إن له كل هذه الصفات؛ فإن كل هذه الآيات آيات مجهولة المعنى، لا نفهمها، ولا نعقلها، لا شك أن هذه دعوى باطلة، ولوازمها لوازم خطيرة، إذ يستطيع كل إنسان حينئذ أن يقول:إن غير آيات الصفات أيضًا مجهولة المعنى، لماذا آيات الصفات فقط هي المجهولة؟

حتى غيرها، يعني ممكن أن يأتينا شخص فيقول: حتى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[البقرة:110]، مجهول المعنى، هذا كلام فقط نتلوه نكسب به أجر لا نفهم له معنى،لا شك أن هذا يقوض الشريعة بالكلية هذا يسقط دين الله ﷻ بالكلية، لذلك كان هذا القول غاية في البطلان، ولوازمه ذات خطر عظيم.

الأساس الثالث: أهل السنة والجماعة، يحذرون باب الأسماء والصفات من التكييف والتمثيل.

أهل السنة، والجماعة، يرون أن هناك محذورين يجب اجتنابهما، وتركهما، والابتعاد عنهما، أشد ما يكون الابتعاد، لا يجوز بحال حينما نثبت لله ﷻ الصفة،أن نبالغ، ونغلو،حتى نصل إلى حد التكييف والتشبيه.

ما هو التكييف، وما هو التشبيه؟

التكييف: هو حكاية الكيفية، يعني الكنه والحقيقة.

نقول مثلًا: نزل فلان بالدرج، أو نزل من المصعدأنا أصفه الآن بالنزول، وربما أزيد فأقول: نزل بسرعة، ننزل ببطء، كلمة "بسرعة" **هذه هي تكييف، حكاية الكيفية**، فأنا أذكر حقيقة وأذكر كنهًا.

حين أقول: إن الإنسان يستوي على الدابة، يستوي على السيارة بكيفية معينة، أصف هذه الكيفية وأحكيها.الآن جمعت بين ذكر **الصفة والتكييف**، من أين لي أن أعرف **الكيفية؟**

- **من خلال مشاهدتها**، لأني أشاهد الإنسان وهو يستوي على دابة، فإنني حينئذ أستطيع أن أحكي هذه الكيفية، وإذا كنت ما رأيته بعينه هذا الذي أحكي عنه، لكني أستطيع أيضًا أن أحكي الكيفية،
- **من خلال معرفة كيف استوى من هو مثله**، يعني أنا رأيت مثيله، رأيت نظيره، فقِسْتُ هذا على هذا، وبالتالي فإنني أستطيع أن أذكر وأحكي الكيفية، **لو انعدم عندي هذان الأمران**؛
- **ممكن أن شخصًا رأي فيفسر لي، يعلمني، يخبرني**، يقول: استواء الإنسان على الدابة، هو أن يجلس بكيفية معينة، وتكون رجله نازلة، يبدأ يحكي لي كيفيته.

إذن، هذه ثلاث طرق، لا تستطيع أن تتكلم بعلم عن شيء غائب عنك،

أن ترى الشيء،

أن ترى مثيلًا له،

أن يأتيك عنه خبر صادق؛ **ليس هناك طريق رابعة.**

➢السؤال الآن: هل رأينا الله جل وعلا؟

ما رأينا الله؛ قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: «**تعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**». رؤية الله جل وعلا بالنسبة للناس، تكون في الآخرة في موضعين: في عرصات القيامة، وفي جنات النعيم.

➢ **هل رأينا مثيلًا لله حتى نقيس؟** تعالى الله عن ذلك!

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:11]. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:65]. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:4].

➢ **إذن ما بقي عندنا إلا الوسيلة الثالثة، أجاءنا خبر عن النبي ﷺ بحكاية كيفية الصفة؟**

لا، النبي ﷺ كان يخبرنا بالصفة من حيث الثبوت، لا من حيث الكيفية، هل عندما تلا علينا النبي ﷺ أو على أصحابه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5]، قال إن هذا الاستواء بكيفية كذا وكذا؟ لا، إنما اكتفى النبي ﷺ بإخبار الأمة أن ربه جل وعلا استوى؛ كذلك النبي ﷺ حينما حدث أصحابه كثيرًا، في عشرات المرات، حدثهم أن الله إذا بقي ثلث الليل الآخر فإنه ينزل إلى سماء الدنيا، قال «**ينزل**» واكتفى، أزاد على هذا حكاية الكيفية؟ لم يفعل النبي ﷺ.

إذن، أي كلمة منا في تكييف صفة لله جل وعلا فإنها بالتالي هل ستكون كلامًا بغير علم، والله جل وعلا نهى أشد النهي عن أن نقول عليه بغير علم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

إذن القول على الله بغير علم لا شك أنه منكر عظيم،لا يجوز للمسلم أن يتحدث عن كيفية اتصاف الله ﷻ بالصفة لأنه ما رأى ول رأى مثيلًا له ولم يأت خبر لا في الكتاب ولا في السنة عن كيفية ثبوت هذه الصفة.

قال رضي الله عنه عن حدود العقل: فكما جعل الله لعيون الأبصار حدًا محدودًا من دونها حجاب مستور، فكذلك جعل لبصائر القلوب حدًا محدودًا من دونها حجاب مستور.

الغيب شيء لا يستطيع العقل أن يخوض فيه، لأنه فوق إدراكه ونحن هناك أشياء قريبة جدا منا، كانت دليلًا، وبرهانًا علينا، وحجة قائمة علينا، في أننا عاجزون.

وصدق فينا قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:85]،

المحظور الثاني التمثيل أو التشبيه: التمثيل والتشبيه كلمتان متقاربتان، وإن شئت فقل: متطابقتان أحيانًا، ومتقاربتان أحيانًا، يعني من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت.

التمثيل: هو الذي جاء نفيه في النصوص في آيتين في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:74].

التمثيل: هو أن نقول أن صفة الله كصفة المخلوق، الله ينزل كنزول المخلوق، والله يستوي كاستواء المخلوق، ولله وجه يشبه وجه المخلوق؛ لا شك أن هذا مسلك باطل، وخاطئ، وتكذيب لكتاب الله؛ وأجمع المسلمون على أن من مثّل صفات الله سبحانه وتعالى **بصفات خلقه فإنه قد كفر**؛ كذب قول الله جل وعلا:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:11]. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:65]. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[البقرة:22].وغيرها من الآيات التي دلت على ذلك؛

أما التشبيه: جاء في لسان السلف، من عهد ابن عباس —رضي الله عنهما- وإلى هذا العصر (من شبه الله بخلقه فقد كفر)، ثم قال: (ليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه).

إذن، كلا هذين المحذورين يجب على المسلم أن يقطع الطمع، أن ييأس من الوصول إلى ذلك، الله جل وعلا لا يحاط به: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه:110]. الله جل وعلا أعظم، وأكبر من أن يحاط به علمًا.

الأساس الرابع: أن أهل السنة والجماعة، يجتنبون التعطيل والتحريف.

التعطيل: هو النفي.

أن يقول الإنسان إن الله جل وعلا لا يستوي على العرش، إن الله عز وجل لا ينزل إلى السماء الدنيا، إن الله جل وعلا لا يأتي ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، هذا يسمى تعطيل، يسمى نفيًا،

والتحريف: وسيلة التعطيل.

يعني لا يوجد أحد من المنتسبين إلى الملة ينفي نفيًا صريحًا صفة ثابتة في القرآن، أو في سنة متواترة، لأنه سيكفر مباشرة، لأنه سيكذب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

ربما ينفي شيئًا جاء في حديث آحاد للخطأ في المنهج وهو أنه يقول: لا نقبل في باب الأسماء والصفات إلا حديث متواتر وبالتالي فإن حديث الآحاد في هذا الباب غير مقبول، **هذا المركب اسمه التحريف،**

وإن شئت فقل: اسمه التأويل، يعني صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر، بقرينة تزعم، يزعمون أن هناك قرينة دلت على هذا الصرف، وبالتالي هذا الذي عطل الصفة تجده يأتي إلى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5]، الآية صحيحة في ثبوت استواء الله جل وعلا على العرش، الله لا يستوي، نحن ننزه الله ﷻ عن هذه الصفة ،

إذن هذه الآية التي بين أيدينا، ما معناها؟ يقول: هذه الآية مؤولة، لها معنى آخر خلاف ظاهرها، وهذا المعنى هو "استولى"، ليس استوى بمعنى استوى، لا، استوى هنا بمعنى استولى.

النبي ﷺ ثبت صفة النزول لله تبارك وتعالى: «**إن الله –تعالى– ينزل إذا بقي ثلث الليل إلى السماء الدنيا فيقول...**» الحديث. **يقول: إن الله تعالى لا ينزل،** يقول: الذي ينزل أمره وليس هو، أو الذي ينزل ملك من ملائكته، وليس هو، هذا المسلك اسمه مسلك التحريف، أو التأويل، وهو في حقيقته يؤول إلى التعطيل، لأن الله أثبت شيئًا هو نفاه، وأثبت صاحبنا هذا شيئًا آخر.

والسؤال الآن: لماذا يعمد بعض الناس إلى هذا التأويل أو التحريف؟ لماذا لا يثبت الشيء الذي أثبته الله لنفسه؟ **الجواب:** لأن عنده شبهه تقول: إن هذه الصفة على ظاهرها تفيد التشبيه، تشبيه الله ﷻ بالمخلوق، والعجيب أننا نجد أن النبي ﷺ لما تلا على الأمة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ هل وقف وقفة وقال للصحابة: لا ولن تجدوا، لو بحثتم من اليوم حتى مائة سنة.

السؤال الثاني: هل الصحابة رضي الله عنهم لما تلقوا هذه الآية من النبي ﷺ ونقلوها إلى التابعين، إنما كانوا يدرسونهم ويعلمونهم، حينما كان ابن عباس يعلم مجاهد انتبه، أنت تقرأ قوله – تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ولكن احذر أن تعتقد أن الله يستوي حقيقة، فإنك لو اعتقدت ذلك شبهت الله بخلقه؟ أفعل هذا ابن عباس؟ أفعل هذا واحد من الصحابة؟ الجواب لا.

التابعون، فعلوا هذا مع أتباع التابعين؟

ما وجدنا النبي ﷺ ، ولا الصحابة، ولا التابعين، ولا أتباع التابعين، ولا أئمة الهدى من بعدهم، فعلوا هذا؛ إذن ألا يدل ذلك على أن هذا مسلك خاطئ؟ ولو كان هذا مسلكًا صحيحًا لكانوا أولى به، هل نحن أغير على كتاب الله منهم؟ هل نحن أعلم بالله منهم؟ هل نحن أفقه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منهم؟ إذن لا شك أن هذا المسلك مسلك باطل.

الدرس الستون – ١٠٧٠ ٤٠- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات (المجلس الثاني)

الله جل وعلا خاطبنا في هذا الكتاب الكريم، وكذا نبيه ﷺ في سنته الغراء، كان الخطاب خطابًا مفهومًا معلومًا في لغة العرب، ولأجل هذا أُمرنا بتعقل القرءان، الله جل وعلا بين علة جعله عربيًا لأجل أن يُعقل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:2]، **والأصل أن الخطاب على ظاهره**، حتى يجد دليل على خلاف ذلك، لا سيما في شأن من يريد بالمخاطب بالخير والإبانة والهداية، والله جل وعلا بين هذا في القران فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[النساء:26].

إذن الله ﷻ، أراد بنا الخير وأراد لنا البيان والهداية، ولأجل هذا لا بد أن يكون الخطاب خطابًا واضحا ومعلوما ومفهوما، ولا بد أن يكون أيضًا على ظاهره، وإذا كان الخطاب على خلاف ظاهره، وظاهره يفيد ضد ما يدل عليه ظاهره فإن هذا من التعمية، ومن الإلغاز، بل ومن الإضلال، هذه مسلمة لا ينبغي أن يختلف فيها.

وقد سُئل الإمام مالك رحمه الله هذا السؤال، قيل له: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، كيف استوى؟

قال الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

الاستواء غير مجهول:يعني معلوم في لغة العرب ما هو،

والكيف غير معقول: بالنسبة لنا، لأننا ما رأينا الله، ولا رأينا كيف يستوي حتى نحكي هذه الكيفية،

والإيمان باستواء الله واجب: وأن الله جل وعلا أخبرنا بذلك، وتصديق الله فيما قال حتمًا واجب،

والسؤال عن الكيف بدعة: وهذا ميزان عام في جميع صفات الله ﷻ.

انتبه: هذه الشبهة هي أساس البلاء، وهي الشر، فيما يظن الإنسان أن في كتاب الله ما يُوهم ظاهره خلاف الحق، بل ما يُوهم ظاهره الكفر بالله سبحانه، لأن التشبيه قد علمنا أنه كفر، من شبه الله بخلقه قد كفر.

التشبيه: مرض يقع في النفوس التي لم تعظم الله جل وعلا حق التعظيم، النفوس التي لم تقدر الله ﷻ قدره وإلا فلا يمكن البتة أن يخبر الله عن نفسه بما ظاهره الباطل، ولا يمكن أن يكون النبي مخبر عن ربه بما ظاهره الباطل، هذا أمر مستحيل، ولا يكون هو من يستوعب لوازم ما يقول وهو مسلم.

لا يوجد شيء البتة في الكتاب والسنة ظاهره التشبيه، وأن يكون ذلك وهذه الصفات مضافة إلى العظيم ﷻ، والصفة تناسب الموصوف هذا أمر يدركه جميع العقلاء وإذا كان الموصوف، وهو الله جل وعلا ليس كخلقه ﷻ، ليس كخلقه كمثله شيء إذن لا بد أن تكون صفاته ليست كصفات المخلوقين، وهذا أمر مسلم وواضح في النصوص في الكتاب والسنة.

۞ **الرد على الشبهة: قالوا**: إن إثبات اليد لله ﷻ يقتضي التشبيه، لأن اليد لا تعقل إلا في المخلوق، فنحن ننزه الله ﷻ عن هذه الصفات.

ماذا نصنع في هذه النصوص التي فيها إثبات اليد لله ﷻ كقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:10].

قالوا الأمر سهل ما علينا إلا أن نركب مركب ذلولًا سهلًا، يسمى التأويل، نؤول هذه الصفة وانتهى الإشكال، نقول اليد يعني: القدرة، أو اليد تعني النعمة، أول بما شئت والباب مفتوح، قل ما شئت، واعبث بما شئت، فالأمر سهل، المهم لا تثبت لله صفة اليد، لم؟؟ لآن اليد إذا أضفتها لله أوهمت المشابهة بالمخلوقين، سبحان الله العظيم!

الجواب:

- **أولا: أي تشبيه هذا لمن عَظَّمَ الله ﷻ** وآمن بالنصوص في الكتاب والسنة كما نزلت، اليد التي أضافها الله إلى نفسه يد تليق به، لا كأيدي المخلوقين،
- ثم إنها موصوفة في النصوص بصفات تقطع عروق التشبيه من القلب، ألم ترَ أن الله ﷻ وصف هذه اليد التي أضيفت إليه بصفات لا يمكن أن يكون شيء من المخلوقين متصف بما يقرب منها، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:67]

بالله عليكم أريتم يدًا في المخلوقين تطوي السماوات أو تقبض الأرض؟ إذن كيف يجرؤ الإنسان فيقول إننا إذا أضفنا اليد إلى الله جل وعلا وقع عندنا لبس، أتكون يد الله تشبه يد المخلوقين؟ أيقول هذا من عظم الله حق تعظيمه؟

- **ثم إننا نقول أيضًا حينما تقول نحن لا نعقل في المشاهد من له يد إلا وهو مخلوق،**

فنقول لك ماذا نصنع بهذه الآية؟ نقول: نؤولها، نقول يد الله يعني: قدرة الله، فنقول أنت ما صنعت شيئًا أنت خرجت مما تزعم أنه تشبيه إلى ما ألزمك فيه التشبيه، لأنك إذا قلت أن اليد لا نعقلها إلا في مخلوق فإننا نقول والإرادة لا نعقلها إلا في مخلوق.

إذن أنت لا تصنع شيء سوى أنك حرفت بالنصوص، وإلا فما تقوله في اليد لازم عليك في الإرادة.

إذن لا حاجة إلى أن تحرف الكلم عن مواضعه، آمن بما أخبرك الله به وتنتهي القضية، سلم وأذعن وسيهديك الله للحق كما قلنا القاعدة البينة آمن تهتدي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾[النحل:104]، مفهوم المخالفة أن الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله، إذن الحق يا أيها الإخوة الجدل ها هنا ليس جدلا عقليا،

الإشكال أن هناك نقص في الإيمان، القضية قضية إيمانية، ولذلك تأمل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[غافر:56]، إذن لا بد من إعادة هؤلاء المخطئين إلى الإيمان بالله.

- **ثم إننا نقول أيضًا إذا كان ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه،** فإن لازم ذلك أن يكون الله سبحانه مدح نفسه بما ظاهره الذم، التشبيه أو ما يقتضي التشبيه ذم أو مدح في حق الله؟! حينما تكون الصفة المضافة لله تقضي مشابهته للمخلوقين، أهذا في حقه مدح أم ذم؟ هذا ذم.

قال النبي ﷺ: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله**» ولذلك أثنى على نفسه، وهل هذا يا إخواني يفعله من هو أجهل الجاهلين أن يمدح نفسه بذمها، فكيف بالحكيم العليم ﷻ! كيف تقولون هذا؟

- ثم إننا نقول أيضًا لو كان ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه، والتشبيه نقص وعيب في حق الله ﷻ، نسألك يا أيها القائل بهذا سؤال، فنقول:

➢ أولا: **هل كان النبي ﷺ يعلم أن الحق فيما أولتم إليه أم لم يكن يعلم؟**

أكان النبي ﷺ حينما بلغ الأمة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ يعلم أن معنى استوى استولى أم لم يكن يعلم؟

ما عندهم إلا واحد من اثنين: إما يعلم أو لا يعلم.

فإذا قال إنه لا يعلم وأنتم علمتم، إذن أنتم أصبحتم أعلم بالله من رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا تكذيب لقوله عليه الصلاة «**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» والحديث في البخاري، إذن لا مناص لكم من أن تقولوا إنه كان يعلم إذن هذه واحدة، **خذها عندك وامسكها لا تذهب**.

➢ **ثانيًا: فنقول أكان النبي بليغًا فصيحًا قادرًا على البيان والإيضاح بأن يخبر الناس؟**

فيقول: يا معشر المسلمين انتبهوا، إن قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ بمعنى استولى عنده قدرة على البيان أو ليس عنده قدرة،

أولًا: لو قلت يا أيها المؤول أنه ليس عنده قدرة بل كان عيِّيًا وحشاه فهذا قدح في حكمه الله ، حيث أرسل رسولًا لا يستطيع أن يبلغ ولا يستطيع أن ينصح ولا يستطيع أن يبين، ولا شك أن هذا أمر خطير. ولا يقول به المسلم.

ثانيًا: هو قدح في النبي ﷺ، فقد اتهمه بالعجز عن البيان، وبالتالي فما فائدة إرساله؟ ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾[إبراهيم:4].

ونحن نشهد أن النبي ﷺ أبلغ الناس، وأفصح من نطق بالضاد، وأعظم الناس قدرة على البيان، كيف وهو الذي أوتي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام، إذن لا مناص للمؤول من أن يقول إنه كان قادرًا على أن يفصح ويبين.

➢ **ثالثًا: ماذا تقول أكان النبي ﷺ حريصًا على هدايتنا، يريد بنا الخير، ويريد لنا الفلاح أم لا؟**

إن قلت لا، لا يريد بنا الخير، ولا يريد لنا الهداية، فإنك تكون قد وقعت في حفرة عميقة من الضلال، لأنك قد تكون كذبت قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة:128].

إذن لا مناص من أن يقول إنه كان حريصًا علينا، رحيمًا بنا، يريد لنا الهداية.

إذن اجتمع في النبي ﷺ ثلاثة أمور، مسلمة لا شك فيها: أنه كان أعلم الخلق بالله، وأفصح الخلق، وأحرص الناس على هداية الناس.

۞ والسؤال الآن مع اجتماع هذه الأمور الثلاث:

ما الذي منع النبي أن يقول في الصفات ما قلتم يا معشر المؤولة؟

إن كل عاقل منصف لا يجد إلا أن يُزعم بأنه يستحل مع وجود هذه الأمور الثلاث أن يسكت النبي ﷺ بالبيان بأن هذه الآيات على خلاف ظاهرها.

إذًا، الخلاصة أن تأويل نصوص الصفات وحملها على خلاف ظاهرها مسلك خاطئ باطل، بل الواجب أن نؤمن ونعتقد اتصفات الله، بما أخبر به على ما يليق به دون أن نكيف ذلك، مع اعتقادنا أن هذه النصوص تليق بالله ﷻ لا تشبه المخلوقين على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

۞ وجود قدر مشترك من الصفة بين الشيئين لا يعني أنهما متشابهان.

أضرب لك مثالًا: حينما أقول كلمة رأس، كلمة رأس هذه يمكنني أن أضيفها إلى الإنسان فأقول رأس إنسان، أصبحت صفة له حقيقية أم لا؟ حقيقة، رأس الفيل، صفة حقيقية في الفيل ،رأس النملة، صفة حقيقية في النملة ،رأس الجبل، صفة حقيقية في الجبل، رأس الإبرة صفة حقيقية في الإبرة.

إذن عندنا كام رأس الآن عندنا خمسة رؤوس، رأس إنسان وفيل ونملة وجبل وإبرة.

هل الرؤوس ها هنا متماثلة باعتبار أن الصفة واحدة أضيفت إلى ذوات مختلفة؟ عقب هذه المشابهة، أيقول هذا عاقل! أيقول عاقل رأس الجبل مثل رأس الإبرة، مئة بالمائة، سواء، هنا رأس وهنا رأس أيقول هذا عاقل، أيقول عاقل أن رأس الفيل ما شاء الله كأنه رأس نملة، أيقول هذا عاقل؟ ألم تشترك هذه الذوات في صفة واحدة؟، قلنا انتبه، الاشتراك حصل في قدر مشترك، مع وجود قدر فارق، ومن يفهم هذه القضية يزول عنه أي إشكال.

عندنا أمران: **قدر مشترك وقدر فارق**، الذي بين هذه الذوات من الصفة قدر مشترك رأس ورأس ورأس، **لكن الحقيقة هو الكم والكيفية قدر فارق مميز**، كل ذات تميزت بصفة تختلف عن الصفة الأخرى، ولذلك لما اشتركت في صفة ما تماثلت. وإذا كان هذا حاصلًا بين المخلوقات، فلأن يكون ذلك حاصلًا بين المخلوق **والخالق من باب أولى**.

إذا أثبتنا وجه لله ﷻ، كما قال جل وعلا هو نفسه قال هذا، ليس نحن الذين أضفنا هذه الصفة، ألم يقل الله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:27]،

إذن لله وجه أم لا؟ هو أضاف إلى نفسه، فكيف تقول إنك إذا عرفنا الوجه لله ﷻ نكون قد شبهنا، ثم أن يكون ذلك يا عبد الله وجه الله، وجه عظيم موصوف بالجلال والإكرام، كيف تقول هذا! والله جل وعلا حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه، كيف تقول هذا وبالله ﷻ وجه له نور وبهاء، وهل للمخلوق شيء من ذلك!

إذن وجود قدر مشترك في الصفة بين ذاتين ليس هو التمثيل الممنوع،

متى يكون التمثيل الممنوع؟ حينما يكون الاشتراك في القدر الفارق، في الكيفية.

قال قائل: وجه الله كوجه المخلوق؟ نقول هنا؟ أنت مثلت، أنت شبهت والتشبيه منكر عظيم بل كفر بالله، لكن حينما يقول لله وجه يليق به وللمخلوق وجه يليق به، فإنه يكون بريئًا من التشبيه والتمثيل.

إذن منهج أهل السنة والجماعة إثبات لا يبالغ فيه، حتى يصل إلى درجة التمثيل، وتنزيه لا يبالغ فيه حتى يصل إلى درجة التعطيل والتحريف،

إنما هو منهج وسط، يلخصه قول الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

قاعدة: القدر المشترك والقدر الفارق موجودة في هذه الآية

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ دلت على ثبوت القدر الفارق،

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ دلت على ثبوت القدر المشترك.

ولحكمة يعلمها الله، وقد تكون ما أقول إن الله أضاف إلى نفسه في هذا الموضوع صفتين لا يكاد يخلو منهما السمع والبصر، مع أن السمع ليس كالسمع، ولا البصر كالبصر، ولا السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير، لله سمع وبصر وللمخلوق سمع وبصر.

الله ﷻ قال ها هنا: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:11]، وهو الذي قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:2]، إذن ثبتت الصفة له جل وعلا، وثبتت الصفة للمخلوق مع أن الله ليس كمثله شيء.

الدرس الحادي و الستين – ١٠٨٥

٤٠- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات (المجلس الثالث)

الشيخ رحمه الله خص هذا الموضوع في كتابه في ثلاثة أبواب:

- هذا الباب الذي بين أيدينا.
- وباب قول الله تعالى ولله الأسماء الحسنى.
- وباب قول الله تعالى وما قدروا الله حق قدره.

قال المؤلف رحمه الله **(باب من جحد شيء من الأسماء والصفات)، أي ما حكمه؟**

والمؤلف رحمه الله يسير في تبويبه كثيرا على نهج الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه، لا شك أن من جحد شيء من أسماء الله وصفاته، **أي عطلها وأنكرها لاشك أنه يكون كافرا بالله ﷻ**، هذا هو الحكم من حيث الأصل، ذلك أن جحد شيء من أسماء الله وصفاته هو في الحقيقة تكذيب للكتاب والسنة، **وهذا كفر باتفاق العلماء، ومر بينا غير مرة .**

قول معين بن حماد رحمه الله: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر".

وجحد أسماء الله وصفاته إرث من إرث المشركين، وبئس الإرث وبئس المورِّث، ذلك أن جحد شيء من الأسماء والصفات هو في حقيقته من ظن السوء بالله سبحانه، وهذا ما كان عليه أهل الشرك، ولذلك الله سبحانه وتعالى توعدهم على ذلك بوعيد شديد قال سبحانه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[الفتح:6].لاحظ هذا الوعيد: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح:6]، هذه التهديدات الأربعة مما يطير له قلبه المؤمن خوفًا وفرقًا، من ظن بالله هذا الظن ظن الجاهلية وظن السوء فإنه متوعد بهذا الوعيد الأكيد من ربنا سبحانه وتعالى، **ومما يدلك على أن جحد شيء من أسماء الله وصفاته هو من هذا الظن**، ظن السوء بالله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت:22-23].

يدل هذا على أن هؤلاء المشركين الذين جحدوا **علم الله ﷻ بما يعملون**، دلت الآية على أن هذا من الظن السيئ الذي أرداهم، ودل هذا على أن جحد شيء من الأسماء والصفات هو من هذا الظن الذي ورثته الفرق الضالة عن هؤلاء المشركين.

۞ **والفرق التي انحرفت في هذا الباب كثيرة ومتفاوتة، ظلمات بعضها فوق بعض:**

- **منها من جحد جميع الأسماء والصفات ولم يثبت لله شيئا إلا الوجود بشرط الإطلاق**

ومعلوم عند جميع العقلاء أن الوجود المطلق ليس إلا في الأذهان وليس في الحقائق والأعيان، فهم في حقيقتهم جاحدون لله ﷻ بالكلية، ولذلك أجمع العلماء على كفر هؤلاء، ولذا لم يشفع لهم شيء من شبهاتهم، وبالتأكيد عندهم شبهات لكنها شبهات داحضة، لا ترقى لأن تدفع عنهم تكفيرهم،

- **ومن أولئك من كان أقل شرا:** فجحد صفات الله وأثبت أسماء جوفاء لا معاني تحتها، أثبتوا أسماء الله عندهم سميع لكن بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، وهكذا.
- **ودون هؤلاء وأخف منهم شرا:** من أثبت الأسماء وبعض الصفات، فجحد بعضا أو كثير منها، وهم في هذا بين مقل ومكثر

والمقصود أن جحد شيء من أسماء الله وصفاته لا شك أنه منكر عظيم وذنب كبير يجب على كل مسلم أن يحذر منه.

الواجب أن يتلقى الإنسان ما جاء في الكتاب والسنة التي من أسماء الله وصفاته،بالقبول والتسليم والمحبة، وأن يتقرب إلى الله ﷻ بالتعبد بهذه الأسماء،هذا من المهمات ومن الواجبات التي تلزم كل مسلم ومسلمة.

قول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: 30] الآية

من صنيع المشركين أنهم يكفرون باسم الله الرحمن، وهذا منهم من جملة كفرهم،
تدل على أن من جحد شيء من أسماء الله وصفاته فإنه يكون كافرا بذلك متابعا للمشركين،

هل كان كفرهم باسم الله الذي هو الرحمن أو كان كفرهم (بالمسمى) بالله الذي من أسماءه الرحمن؟

➢ قالت طائفة ما قال به إمام الدعوة المؤلف رحمه الله، والظاهر أن المؤلف ما أورد هذه الآية ها هنا إلا وهو يرجح أن كفر المشركين ما هو إلا **بالاسم**، وليس المراد أنهم يكفرون بالمسمى.

➢ وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الكفر ها هنا كان كفر **بالمسمى وهو الله ﷻ**، يعني وهم يكفرون بالله، ومعلوم بالضرورة أن المشركين في عهد النبي ﷺ كافرون بالله.

ويبقى بعد ذلك السبب في ذكر هذا الاسم بالذات وهو اسم الرحمن،

مما تلمسه بعض أهل العلم في حكمة ذلك: أن المشركين كفروا بالله ﷻ وببعثة النبي ﷺ، وبآيات الله التي أنزلت على النبي ﷺ، ولا شك أن إنزال القران وبعثة النبي ﷺ من رحمة الرحمن جل وعلا، فهم قابلوا هذه الرحمة بالكفران، فناسب أن يؤتى ها هنا باسمه تعالى الرحمن.

الذي يظهر والله أعلم أن القول الثاني أقرب، وذلك أننا إذا نظرنا إلى سياق الآيات وجدناه يؤيد هذا القول، قال: ﴿**كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ**﴾ ثم قال تعالى بعد ذلك:﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾الرعد

لاحظ أن الشأن في التقعيد على مقالة هؤلاء التي هي الكفر بالرحمن **كان بإثبات التوحيد:** ﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي**﴾، وهذه مقدمة ملزمة لهم **لأنهم لا ينكرون ربوبية الله ﷻ في الجملة**، فألزمهم بهذا على المدلول، كان هذا دليلا على مدلول وهو أن الله لا إله إلا هو، قال: ﴿**هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ ثم أتى بنوعين رفيعين من أنواع العبادة: وهما التوكل والتوبة.

و أنه جيء ها هنا بأسلوب القصر وذلك أن تقديم الجار والمجرور يفيد الحسر والقصر في كلا الجملتين: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ **يعني أتوكل عليه لا على غيره، وأتوب إليه لا إلى غيره**، فدل هذا على أن المقام رجع إلى الشأن الذي ينكره هؤلاء **وهو الألوهية**، **وليس الأسماء والصفات**، إذًا الأقرب والله أعلم أن قوله تعالى: ﴿**كذلك أرسلناك**﴾ ثم قوله: ﴿**وهم يكفرون بالرحمن**﴾، أن قوله تعالى: ﴿**وهم يكفرون بالرحمن**﴾ **حال** من قوله: ﴿**كذلك أرسلناك**﴾ يعني أرسلناك والحال أنهم يكفرون بالرحمن.
وعلى كل حال مهما قلنا في مقالتهم ها هنا، فإن مما لا شك فيه أن مشركي قريش كان يكفرون **باسم الله (الرحمن)** سواء رجحنا أن هذه الآية أراد فيها الكفر بالاسم أو الكفر بالمسمى.

يدل على هذا دلالة صريحة

- قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان60].

قالوا ها هنا (**وما الرحمن**) ولا قالوا (**ومن الرحمن**)، فدل هذا على أنهم لا ينكرون الله جل وعلا وإلا لقالوا (ومن الرحمن)، لكن إنكارهم راجع إلى الاسم فلذلك قالوا (وما الرحمن).

- يدل على هذا أيضا ما ثبت عند البخاري في قصة الحديبية والحديث طويل وفيه أن سهيل ابن عمرو لما كان يعاقد النبي ﷺ على الصلح، قال النبي ﷺ للكاتب -وهو علي رضي الله عنه-: «**اكتب باسم الله الرحمن الرحيم**» عند البخاري قال سهيل: والله لا أدري ما الرحمن، ولكن اكتب باسمك اللهم.
تلاحظ أنه أنكر وهو على دين قومه (باسم الله الرحمن)، فدل هذا على أنهم كافرون باسم الله الرحمن.

۞ والسؤال ها هنا: هل إنكارهم هذا الاسم عن جهل أو عن تجاهل؟

➢ **قال بعض أهل العلم كان هذا الإنكار منهم عن جهل، واختلفوا،**

- قال بعضهم أنهم أنكروا الاسم لأنهم لا يعرفونه، لأنه اسم عبرانيين لا عربيين، ليس من الأسماء العربية إنما هو عبراني. **وهذا القول ضعيف جدا** بل هذا الاسم الجليل اسم عربي لا شك فيه، وصيغة فعلان في اللغة تدل على التعظيم والامتلاء، الرحمن عظيم الرحمة وكثير الرحمة، فالاسم عربي لا شك فيه.
- وقال بعضهم إنما أنكروا لأنهم ما كانوا يعرفون هذا الاسم لله، إنما عرفوه لما لما تكلم به النبي ﷺ، وأما قبل ذلك فهم لا يعرفونه؛ **وهذا أيضا ضعيف،**

بل هذا الاسم كان معروف عند أهل الجاهلية ومشهور عندهم أيضا وموجود في نثرهم وفي شعرهم.
إذًا غير صحيح أن يقال أن الرحمن أسم مجهول عندهم ما عرفوه إلا من طريق النبي ﷺ ولذا أنكروه.

- وقال بعضهم إنما أنكروه لأن القوم ما كانوا يعرفون الرحمن إلا مسيلمة الكذاب لأنه -قبحه الله- تسمى برحمن اليمامة، ولأجل هذا أنكروه، أنكروا أن يكون هذا اسم لله لأن معروف ومشهور اسم لذاك الكذاب، **وهذا أيضا ضعيف، لأن القوم سمعوا هذا الاسم وعرفوه قبل أن يخرج مسيلمة بمدد متطاولة،** فكيف يقال إنهم اشتبه عليهم الأمر فظنوا أن الرحمن إنما هو ماذا؟ مسيلمة! هذا لا شك أيضا أنه غير صحيح،

والصواب والله أعلم أن هذا الإنكار منهم كان عن تجاهل لا عن جهل،وكان عن تعنتٍ منهم وعناد.

في صحيح البخاري قال عليٌ ﷺ: "حدثُوا الناسَ بما يَعْرِفونَ، أَتُريدونَ أَنْ يكذبَ اللهُ ورسولُهُ".

هذا الأثر عن علي ﷺ أثر فيه توجيه يحتاجه الدعاة إلى الله وطلاب العلم، وجاء في لفظ عند البخاري: **«أتحبون أن يكذب الله ورسوله»** وفي خارج الصحيح: **«حدثوا الناس بما يعرفون ودعوهم ما ينكرون»**

هذا الأثر تذرَّع به بعض الناس للقول بأن أحاديث الصفات لا ينبغي تحديث العامة بها، يقول هؤلاء أحاديث الصفات، يعني الأحاديث التي ورد فيها صفات الله ﷻ لا ينبغي تحديث العامة بها لأن علي ﷺ يقول حدثوا الناس بما يعقلون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

ولا شك أن هذا غير صحيح، وليس هذا مراد علي ﷺ، ولو سلمنا جدلا بأنه مراده، فماذا سنصنع إذًا بآيات الصفات وهي التي تتلى على الناس آناء الليل وأطراف النهار، هل سنقول للأئمة كفوا عن قراءة الآيات التي فيها شيء من صفات الله جل وعلا؟ وكتاب الله سبحانه مليء من ذكر هذه الصفات، هذا مما لا يمكن أن يقول به أحد، يدل هذا على أن هذا المسلك غير صحيح،
بل أحاديث الصفات وآيات الصفات مما ينبغي بثه ونشره ومما ينبغي أن يوصل إلى الأسماع والقلوب، وإن بذلك تحقيق التوحيد وتعظيم الإيمان في النفوس، لا شيء يوصل إلى الله ﷻ مثل طريق أسماءه وصفاته، أعظم طريق يوصل إلى الله ﷻ هذه الطريق.

إذًا ما الذي أراده علي رضي الله عنه؟

أراد ﷺ أنه ينبغي على من يحدث الناس أن يسلك معهم مسلك الحكمة في باب الصفات وفي غير باب الصفات، بمعنى أنه يخاطبهم بالخطاب الذي يفهمون، لا ينبغي أن يهجم عليهم بالمسائل هجوما وهي تحتاج إلى ذكر مقدمات وممهدات، تحتاج إلى تأصيل يسبق، تحتاج إلى أن تشرح شرحا مُسَهَّلا، تحتاج إلى أن يجتنب فيها بعض الدقائق التي تناسب طلاب العلم ولا تناسب العامة.

هذا كله وغيره يرجع إلى شيء واحد مجموع في كلمة واحدة وهي الحكمة، لابد لطالب العلم ولابد للداعية لله ﷻ من سلوك مسلك الحكمة في إيصال الخطاب الشرعي

ولذلك في مقدمة مسلم عن ابن مسعود قال ﷺ إنك ما حدثت قوم حديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

❁ العلم بالجملة ينقسم إلى:

- **أمور محكمات واضحات**: المحكمات الواضحات لا إشكال فيها ولله الحمد،
- **مسائل دقيقة**:

✵ أما الدقائق فإنها تنقسم إلى قسمين: دقائق تهم العامة، ودقائق لا تهمهم.

الدقائق التي لا تهمهم: كالتفاريع المتعلقة بالردود على المخالفين، وهم ليسوا أهلا للخوض في هذا الباب، فمثل هذه لا ينبغي أن يُشغلوا بها، إنما يعطون تصورات عامة حتى يعرفوا الحق والباطل، ويلتزموا الحق ويجتنبوا الباطل.

أما الدقائق التي تهمهم ولاسيما إذا كان الشر قريب منهم وهم بحاجة أن يحذروا، فمثل هذه ينبغي أن تصل إليهم ولكن بالأسلوب الحكيم وبالطريقة التي يفهمونها، العلم الذي يصل إلى الصغير لا ينبغي أن يكون في أسلوبه كالذي يصل إلى الكبير، كذلك الذي يصل إلى العالم أو طالب العلم ليس كالذي يصل إلى العامة، وهكذا.

وروَى عبد الرزاقِ عن معمرٍ عن ابنِ طاووسٍ عن أبيهِ: «عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ رأَى رَجُلاً انتفَضَ لمَّا سَمِعَ حَديثًا عنِ النبي ﷺ في الصفاتِ اسْتِنْكارًا لذلكَ، فقالَ: ما فرقُ هؤلاء؟ يَجِدُونَ رَقَّةً عندَ مُحكمِهِ، ويَهلكونَ عندَ مُتَشَابِهِهِ».

هذا ابن عباس رضي الله عنهما وهو حبر الأمة كان يحدث بأحاديث الصفات، وهذا الأثر كما ترى في غاية الصحة، ولم يكن يتوقى تحديث الناس بصفات الله ﷻ الواردة في سنة النبي ﷺ.

حدث ابن عباس رضي الله عنهما مرة بحديث جاء فيه ذكر شيء من الصفات، فكأن هذا الحديث قد استشكله هذا الرجل فارتعد، أي أنه أصابه شيء من الفزع والإشكال لاستماع هذا الحديث،

ها هنا قال ابن عباس رضي الله عنه **(ما فَرَقُ هؤلاء)** هذه الكلمة المشهور فيها **(فَرَقُ)** يعني ما الذي أفزع هؤلاء؟ وما الذي أخاف هؤلاء؟

وبعضهم يذكر هذه الكلمة بضبطٍ آخر **(ما فرَّقَ هؤلاء)** كلاهما بمعنى واحد.

(**ما فرَّقُ هؤلاء**)، يعني ما فرقوا بين الحق والباطل، فاختلطت عليهم الأمور

والأوفق هو الذي يكون عنده فرقان: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:29]، يفرق بين الحق والباطل، يبصر الهدى واضحا جليا، ويبصر الضلالة واضحة جلية،

إذًا هذا ابن عباس رضي الله عنه يقول: «**ما فرق هؤلاء، يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه**»

✿ **هذه المسألة مهمة، وهي مسألة الإحكام والتشابه.**

ينبغي علينا أن نعلم أن النصوص قد جاءت في الإحكام والتشابه على أنحاء مختلفة،

أن القرآن كله متشابه:قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾[الزمر] القرآن كله متشابه، والمعنى أنه يشبه بعضه بعضا، ويصدق بعضه بعضا،ليس فيه اختلاف أو تنافر أو اضطراب أو تناقض.

أيضا الكتاب كله محكم، كما قال جل وعلا: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[هود:1]،

والإحكام ها هنا بمعنى: **الإتقان**، وهو كتاب متقن نحوا ومعنى،

والقرآن منه محكم ومنه متشابه، وهذا هو محور حديثنا الآن، فما أخبر الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[آل عمران:7].

فالإحكام: **بمعنى الوضوح**، والمحكم بمعنى الواضح، وهذا عامة القرآن لعامة الناس،

ومنه متشابه، **والتشابه ها هنا بمعنى**: **الغموض**، يعني هناك أشياء يغمض فهم معناها ويخفى فهم معناها،

۞ **ولكن انتبه إلى**: أن التشابه ها هنا تشابه نسبي وليس تشابها مطلقا، بمعنى أنه يمكن أن يكون في القرآن شيء يخفى معناه على بعض الناس في بعض الأحوال، و ليس فيه شيء يخفى على كل الناس في كل الأحوال، غير موجود في القرآن ولا يمكن أن يوجد في القرآن، **لم؟**

لأن الله سبحانه وتعالى أمر بتدبر كتابه وذم من لم يتدبر كتابه، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:29]، و ذم الله من لم يتدبر القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:24]

إذًا لا يمكن أن يكون في القرآن شيء غامض مطلقا، بمعنى ما أحد يعرف معناه، **هذا مستحيل** إنما ممكن كلمة أو آية أنا أجهلها لقلة علمي، ولكن يمكن أن أسأل العلماء أو أقرأ في الكتب فأعلم المعنى.

والواجب على المسلم أن يؤمن بالقرآن كله ما فهمه وما جهله

إذًا ابن عباس ﷺ ينكر على هذا الذي يقبل ويجد رقة في قلبه وإقبال على الحق إذا سمع شيء يفهمه ولكن إذا جاءه شيء يشكل عليه أو لم يفهمه لضعف علمه هو، أنه ربما أثار عنده شيء من الإشكال والريب! فهذا ما لا ينبغي أن يكون عليه حال المسلم.

✪ **ولاحظ أنا أتكلم عن المعاني** ، وأنا أقول وأكرر ليس في القرآن شيء مجهول المعنى مطلقا،

ولا أتكلم **عن الكيفيات**، الكيفيات بالنسبة لمسائل الغيب مجهولة،الغيب الذي تعلق بصفات الله ﷻ كيف صفة الله ﷻ؟ وكيف هي أحوال اليوم الآخر؟ هذه بالنسبة لنا مجهولة،

هل الحروف المقطعة في أوائل بعض السور هي من المتشابه المطلق؟

والجواب عن هذا السؤال نحن نتحدث عن الكلام، وكل عاقل يدرك أن المعنى إنما يطلب للكلام لا للحروف، لا يوجد عاقل يقول ما معنى هذا الحرف لا في اللغة العربية ولا في غيره، إذا قال قائل ما معنى (الم)؟ مباشرة سأقول له: ما معنى (ب ت ث ج ح خ) هل يستطيع أحد؟

الكلمات المؤلفة من الحروف هي التي يطلب لها معنى. أما الحروف من حيث هي لا أحد يطلب لها معنى لا (أ) ولا (A)ولا (B)ولا أي شيء في أي لغة. نحن نقرأ (كهيعص) (حم) (الم) إذا كنا نقرأها كلمة (كَهَيْعَص) لكان الإيراد وارد علينا، لكن هذا ليس بالصحيح.

ولما سِمِعَتْ قريشٌ رسول الله ﷺ يذكرُ الرحمنَ أنكرُوا ذلكَ، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: 30]

هذا الأثر الذي فيه ذكر سبب نزول الآية التي صدر المؤلف رحمه الله أدلة الباب بها، جاءت من روايات متعددة، وهي موجودة بكثرة في كتب التفسير، ولكن لم أقف على إسناد صحيح موصول لها، ولكنه على كل حال أثر مشهور في كتب التفسير، وذكر هذا السبب على وجه الخصوص مما يحتاج أن يوقف عنده حتى يثبت هذا ثبوتا قطعيا. لكن على كل حال كون المشركين أنكروا اسم الله الرحمن هذا مما لا شك فيه.

وكون هذه الآية في الدلالة على أن المشركين كافرون بالرحمن على الخلاف، هل الكفر راجع إلى الاسم أو المسمى؟ هذا مما أيضا لا شك فيه، لأن بحثنا في سبب النزول هل يثبت هذا السبب أو لا؟ هذا موقوف على أن يثبت ذلك بإسناد صحيح.

الدرس الثاني والستون – ١١٠٣

٤١- باب قول الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل:83] الآية.

انتقل المؤلف رحمه الله إلى أبواب ذات موضوع جديد تتعلق بالألفاظ التي تخدش في كمال التوحيد الواجب، واجتنابها من تحقيق كمال التوحيد الواجب.

الله ﷻ بين في هذه الآية أن المشركين كانوا يعرفون نعمة الله و مع ذلك فإنهم ينكرونها، و الأصل في هذا الباب

- أن من أنكر أن تكون النعم من الله سبحانه فإن **هذا شركًا أكبر**،
- وأما من اعتقد أن النعم أنما هي من الله ﷻ ولكن حصل في قلبه نوع التفاتٍ لغيره في نسبة التفضل بالنعم لغيره، وصاحبَ هذا ألفاظٌ تفيد هذا المعنى، **فهذا من جنس الشرك الأصغر**

❁ اختلف المفسرون في تفسير (النعمة) في الآية، والأقوال تعود إلى قولين رئيسين:

الأول: **تفسير من فسر النعمة بالنعم الدنيوية**، والمفرد المضاف **يعم**، فقوله تعالى هنا ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ يعني أنواع نعمه ، وهذه الآية على وزن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم:34]، والنعم الدنيوية، هذه النعم التي يتقلب فيها الناس في هذه الحياة من المآكل والمشارب والمساكن وما إلى ذلك.

❁**ولكن قد يرد ها هنا سؤال** وهو أن القرآن قد دل على أن المشركين معترفون بأن هذه النعم إنما هي نازلة من الله ﷻ وبتقديره، فكيف وصفوا بأنهم ينكرونها، ألم يقل الله ﷻ في شأنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:63]،فكيف إذًا كانوا منكرين لها؟

الجواب عن هذا أن المفسرين فسروا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بتفسيرات عدة، أشهرها ما يأتي:

- **أولاً**: أن إنكارهم لها هي أنهم يقولون في شأنها، لولا فلانًا لما حصل لنا كذا وكذا، ويذكرون هذه النعم؛ فهذا نوع إنكار لها.

➢**الثاني**: أنهم كانوا يقولون فيما خولهم الله ﷻ إياه من الأموال والنعم، كانوا يقولون هذه أموالنا ورثناها عن آبائنا، فهي لنا عن طريف وتالد ، وأمثال ذلك من هذه الكلمات التي كانت تَنُمُّ عن أنهم ينسبون التفضل بالنعم لغير الله ﷻ، فيعد هذا إنكارًا منهم.

➢ **الثالث**: أن إنكارهم لها هو قولهم إن هذه النعم كانت بشفاعة آلهتنا، وهذا أيضًا فيه نسبة النعم لغير الله ﷻ، بل هذا القول منهم أخبث من سابقيه، لأن فيه إضافة إلى ذلك ما كانوا عليه من شرك الشفاعة؛ شفاعة الآلهة التي كانوا يعتقدون فيها، وهذا كما مر بنا اعتقادٌ شركي، هو أصل وأكثر ما وقع فيه المشركون الأولون.

➢ **الرابع**: وقيل أن إنكارهم لنعمة الله سبحانه وتعالى هو أنهم لا يستعملونها في طاعة الله سبحانه وتعالى، فعد هذا في حقهم إنكارًا لها.

➢**الخامس**: إن إنكارهم لها هو أنهم يعترفون بنسبتها أو بنسبة التفضل بها إلى الله في الشدة، وينكرون ذلك في الرخاء.

والأقوال الثلاثة الأولى هي الأشهر، وهو السبب الذي لأجله أورد المؤلف رحمه الله هذه الآية.

مهما يكن من شيء لا شك ولا ريب، أن نعم الله سبحانه وتعالى يجب أن يقابلها المسلم بثلاث أشياء:

أولاً: الاعتراف القلبي بأن الله سبحانه وتعالى هو المتفضل بها وحدة لا شريك له

ولذلك كان ركن الشكر الأول هو: الاعتراف والإيمان والتصديق التام بأن هذه النعم تفضلاً من الله سبحانه وتعالى وحده، وهذا أمر يقيني لا يجوز للمسلم أن يتردد في، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾[النحل:53]، كل النعم إنما هي من تفضل الله سبحانه وتعالى، حتى ما كان منها واصلاً عن طريق أحد المخلوقين،

ولذلك يقول الله جل وعلا مذكرًا لنا بهذا المعنى: ﴿**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾[النور:33]، إذًا المال مال الله، والفضل منه وحده، والعبد ما هو إلا قاسم، كما قال النبي ﷺ الحديث في الصحيحين: «**إنما أنا قاسم والله يعطي**» وفي رواية: «**إن الله هو المعطي وأنا قاسم**».

تحقيق التوحيد يقتضي أن يكون القلب بالكلية متوجهًا في شأن النعم إلى المنعم بها على الحقيقة وهو الله ﷻ، إنما حق المخلوق وحظه من أخيه هو أن يشكر عليها: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»، هذا القدر فحسب، ومكافأته على هذه النعمة حتى تزول المنة.

ثانيا:**أن يتحدث الإنسان بها، وأن ينسبها إلى المنعم بها لفظًا**. وهذا أحد الأقوال التي فسر بها قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾[الضحى:11].

وبالتالي الواجب على من أنعم الله ﷻ عليه بشيء من النعم، أن يذكر هذا بلسانه أن هذا من فضل الله سبحانه، ويحمد الله سبحانه على ذلك، وبالتالي فإنه إذا سكت عن ذلك كان مذمومًا، فكيف إذا نسب ذلك بلسانه ونسب التفضل بالنعمة لغير الله جل وعلا؟ لا شك أنه يكون أحق بالذنب.

وهذا الذي أراد المؤلف رحمه الله أن ينبه عليه، فإن نسبة التفضل بالنعمة لغير الله جل وعلا يقدح في تحقيق التوحيد الواجب في شأن توحيد الربوبية وضعف شكر الله ﷻ عليها بأن لا تنسب لله ﷻ بالكلية ضعفًا في تحقيق كمال التوحيد الواجب في شأن توحيد الألوهية.

ثالثا: **أن تستعمل في طاعة الله ﷻ**، إذا كان الله جل جلاله هو الذي أنعم، والنعمة ملكه جل وعلا، فإن كل إنسان يدرك بالفطرة أن الواجب ألا يبارز الله ﷻ بالمعصية في هذه النعمة على وجه الخصوص، إن شئت أن تعصي الله ﷻ بنعمة من النعم فأصنع ذلك في نعمة لم تكن مُسداةً إليك من قبل الله جل وعلا، أما أن ينزل الله النعمة عليك وشرُّك فيها يصعد إليه، هذا ما أقبحه من العبد.

تتمة الكلام على الآية هو في قولة ﷻ: ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ استشكل في هذه الآية أن المشركين جميعًا كفار، **فكيف يقال ها هنا وأكثرهم الكافرون**،

اختلف المفسرون في توجيه هذا الجزء من الآية إلى أقوال لكن أظهر ذلك قولان:

القول الأول: أن يقال ﴿**وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ **أنما هو بمعنى أكثرهم الجاحدون**،

وهذا ما ذهب إليه طائفة من المفسرين من أن الكفر ها هنا يراد بيه الجحد، وهذا يجعل الآية على نحو قوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[النمل:14].

والجحد: ضد النفاق.

كفر الجحد: هو أن يكون اللسان مكذبًا والقلب مصدقًا، من يعلم صحة الإسلام وصدق النبي ﷺ ولكنه يأبى الانقياد، فيكون كفره كفر الجحود،

والنفاق: على العكس، اللسان مصدق والقلب مكذب.

وبالتالي أفادتنا هذه الآية أن أكثر المشركين كان كفرهم عن جحود لا عن تكذيب، وأفادتنا أن بعضهم كان كفره كفر تكذيب.

ما هو كفر التكذيب؟ هو أن يكون باطنًا وظاهرًا مكذبًا، يعني بقلبه ولسانه بعضهم هكذا لكن أكثرهم كفرهم كفر جحود، يعلمون في قلوبهم صحة رسالة النبي ﷺ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾[يونس:16]، كانوا يعرفون صدق النبي ﷺ، وأنه ما كان يكذب على الناس، فكيف يكذب على رب الناس، لكن أهواء النفوس التي كانت غالبة عليهم حالت بينهم وبين إتباعه ﷺ،

والقول الثاني: هو أن الله جل وعلا قد علم أن من هؤلاء المشركين من سيسلم، ولكن أكثرهم سيثبتون على هذا الشرك والكفر ولا شك أن من المشركين من أسلم وكان من خيار المؤمنين، يعني من أصحاب النبي ﷺ، وكثيرًا من هؤلاء الذين أبو أول وهلة ماتوا على الكفر واستمروا عليه فحق فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾

وبعض أهل العلم روي عن الحسن رحمه الله أن قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني أن كلهم كافرون، ففسر قوله (وَأَكْثَرُهُمُ) بقوله (كلهم)، **ولكن القولين الأولين أولي وأقرب وأظهر والله أعلم.**

القول الثاني في تفسير النعمة: أنها النعمة الدينية وهي بعثة النبي ﷺ.

ولاشك أن ذلك من أعظم النعم التي أنعم الله ﷻ بها على أهل الأرض: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾[آل عمران:164] الآية، وهذا القول رجحه طائفة من أهل التفسير المحققين ومنهم شيخ المفسرين أبن جرير رحمه الله.

السؤال الآن: إيراد هذه الآية في هذا الباب يدل على أن المؤلف رحمه الله يميل إلى أي الرأيين؟

يدل على أنه يميل إلى الرأي الأول كما سيمر معنا إن شاء الله في الآثار التي أوردها والله تعالى أعلم.

قال مجاهدٌ ما معناهُ: هو قولُ الرَّجُلِ: هذا مالي ورِثْتُهُ عن آبائي.

هذا أحد التفسيرات التي قيلت وقد ذكرتها لك قبل قليل، عندما يقول الإنسان هذا مالي ورثته عن آبائي **الضابط ها هنا هو نسبة التفضل بالنعمة لغير الله ﷻ** هذا هو المذموم هو المعدود من إنكار النعمة

أما إذا كان إخبارًا مجردًا كأن يقول إنسان لأخر من أين جاءك هذا المال؟ يقول هذا ورثته عن آبائي، السياق يدل ها هنا على أن قوله لم يكن من باب نسبة التفضل بالنعمة لغير الله،

والسلف رحمهم الله كان كثيرا من تفسيرهم كان **تفسيرًا بالمثال**، **يفسرون الآية بمثال لها**، وهذه الأقوال لا تعني أن هذا فقط تفسير الآية من جميع الوجوه، إنما هذا مثال مما يدخل في هذه الآية.

و قال عونُ بنِ عبدُ اللهِ: (يقولونَ لولا فلانٌ لم يكنْ كذا).

هذا تفسير عون التابعي الجليل رحم الله أن يقول الإنسان لولا فلان لم يكن كذا، لولا أن فلان أعطاني لكانت حالتي حالة، لولا أن السائق كان ماهرًا لوقع الحادث،

(لولا): **في اللغة العربية تفيد امتناع الشيء لوجود غيره**، والسياق يدل على أن المتكلم بذلك أراد نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، وسيأتي لنا أمثلة إن شاء الله في الباب القادم في درس غدًا إن شاء الله.

لا يجوز للإنسان أن يقول هذا اللفظ لولا فلان لكان كذا وكذا، هذا لا شك أنه أمر لا يجوز في مقام نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، **بل هذا من الشرك الخفي** كما سيأتي من كلام ابن عباس رضي الله عنهما

أما إذا كان لبيان سبب مجرد أو لإخبار محض فإنه لا حرج فيه. يدل على هذا ما ثبت في الصحيحين من قول النبي ﷺ **«لولا اليهود لم يخنزِ اللحمُ، ولولا حواءُ لم تَخُن أنثى زوجها»** كما في الصحيحين أيضًا قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: **«لولا أن قومك حديثي عهد بجاهلية لهدمت الكعبة ولبنيتها على قواعد إبراهيم، وجعلت لها بابين»**، **«لولا أن قومك حديثي عهد»**.

وقال ابنُ قتيبةَ: (يقولون: هذا بشفاعةِ آلِهَتِنا).

وهذا مثل ما ذكرت لك أخبث مما قبله، لأنه يجمع بين أمرين، يجمع نسبة التفضل بنعمة لغير الله مع الشرك في الشفاعة الذي كان عليه المشركون الأولون.

﴿ وقال أبو العباسِ بعدَ حديثِ زيدِ بنِ خالدٍ الذي فيهِ: "أن الله تعالى قالَ: أصبح مِن عباديْ مؤمنٌ بِي وكافرٌ"... الحديث، وقد تقدمَ: وهذا كثير في الكتابِ والسنةِ، يذم سبحانهُ مَن يُضِيْفُ إنْعَامَهُ إلى غيرِهِ ويُشْرِكُ به.

قال بعضُ السلفِ: هو كقولِهِم: كانتِ الريحُ طيبةً، والمَلَّاحُ حَاذِقًا، ونحوِ ذلكَ مما هو جارٍ على ألسنةِ كثيرٍ.

مربنا شيء من الكلام عن هذا المعني الذي يتعلق بالحديث الوارد ها هنا، ومر بنا قريبًا بباب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

المقصود أن أبا العباس ابن تيمية رحمه الله نبه ها هنا على أن هذا الباب باب واسع، وهو نسبة التفضل بالنعم لغير الله جل وعلا، وأن الشريعة قد استقرت على ذم من يفعل ذلك، مذمومٌ مكروهٌ من قام بهذا الفعل القبيح، هو أن ينسب النعمة لغير الله ﷻ،

وقد علمنا أنه لا يوجد سبب مستقل، لا يوجد شيء واحد من الأسباب ينتج شيء،

- بل لا بد لهذه الأسباب من معاونة، يعني لابد لهذا السبب من سبب أخر فأكثر يكون معينًا له،
- ولابد من ارتفاع الموانع جميعًا وكل ذلك بتيسير الله ﷻ وتقديره،

إذًا كيف للإنسان بعد ذلك أن يشكر ويحمد ويعترف بالنعمة لهذه الأسباب ناسيًا فضل المنعم المعطي وهو الله ﷻ؟ لا شك أن هذا قبيحًا جدًا.

هذا مثال يقرب لك ما نريد أن نتكلم فيه، المنعم الحقيقي هو الله ﷻ، هو الذي أعطاك، حتى هذا التاجر ما هو في الحقيقة إلا وسيلة: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ﴾ مَن؟ ﴿عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ النعمة من الله،أن الله هو المعطي،هذه الحقيقة التي يجب أن تستقر في قلب الموحد إن أراد أن يكون موحدًا حقًا.

في ختام هذا الباب يلوح لي أن نستفيد فائدتين مهمتين من هذا الباب:

الفائدة الأولى: أن التوحيد أصفى شيء على الإطلاق،و يؤثر فيه،فوجب الحذرو المرابطة عل الغثور التي يؤتى التوحيد منها.

الملحظ الثاني: أن نجد السلف رحمهم الله يشددون في مثل هذه الألفاظ التي تقدح في كمال التوحيد الواجب، مع أن كثيرا من الناس لايرونها شيئا، فكيف بالألفاظ الشنيعة التي تهدم التوحيد من أصله؟

الدرس الثالث و الستون - ١١١٨

٤٢- باب قول الله تعالى: ﴿ فلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:22].

هذا الباب تكميلٌ للباب السابق، وفيه تنبيهٌ أيضًا على بعض الألفاظ التي تقدحُ في كمال التوحيد الواجب.

وقد أورد المؤلف رحمه الله هذه الآية ليُعقب عليها بأثر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الأنداد، وأنه يشملُ فيما يشمل ما يرجع إلى الشرك الأصغر،

ووجه ذلك أن قوله تعالى: ﴿أَندَادًا﴾ نكرةٌ في سياق النهي، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾

والقاعدة الأصولية: أن النكرة في سياق النهي تفيد العموم.

فالله جل وعلا نهى عن التنديد عمومًا؛ التنديد الأكبر، والتنديد الأصغر. بمعنى نهى عن اتخاذ الأنداد فيما يرجع إلى الشرك الأكبر، ونهى عن اتخاذ الأنداد فيما يرجع إلى الشرك الأصغر.

وابن عباس رضي الله عنهما فسَّر في هذه الرواية **(الأنداد)** بما يرجع إلى الشرك الأصغر، وجارٍ على

قاعدة السلف: في تفسير ما جاء في الشرك الأكبر يُنزل ويُفسر بما يرجع إلى الشرك الأصغر،

وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، بمعنى أنه إذا كان الشرك الأصغر منهيٌ عنه، وداخلًا في عموم الأدلة الناهية الذَمة عن الشرك فمن باب أولى أن تكون تلك الأدلة ناهيةً ذَامةً للشرك الأكبر.

هذه الآية من فوائدها مع ما قبلها:

بيان معنى لا إله إلا اله، وأنه النفي والإثبات؛ التخلية والتحلية، التجريد والتفريط يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:21 -22]،

فقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هو في معنى: **إلا الله** وقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هو في معنى: **لا إله**،

فشمل ذلك النفي والإثبات الذي دل عليهما أعني النفي والإثبات كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

قال ابن عباسٍ في الآيةِ:« الأندادُ: هو الشركُ، أخفى مِن دَبِيبِ النملِ على صفاةٍ سوداءَ في ظُلمةِ الليلِ". وهو أَنْ تَقُولَ:واللهِ وَحياتِكِ يا فُلانَةُ وحَيَاتي وتقولَ لولا كُلَيْبَةُ هذا لأَتانا اللُّصُوصُ، ولولا الْبَطُّ في الدَّار لأَتى اللُّصُوصُ، وَ قَولُ الرَّجُلِ لِصاحِبِهِ:ما شاءَ اللهُ وَ شئْتَ، و قولُ الرَّجُلِ: لولا اللهُ وَ فُلانٌ،لاتَجْعَلْ فُلانا، هذا كُلُّهُ بهِ شِركٌ » رواهُ ابنُ ابي حاتِمٍ.

هنا أثر ابن عباس وقد خرَّجه ابن أبي حاتم بإسنادٍ جيد كما قال الشارح الشيخ سليمان رحمه الله،

يُبيِّن لنا أن الشرك ينبغي أن يُحذر، **ومن أسباب ذلك كونه شيئًا خفيًا،**
وكون الشرك في هذه الأمة خفيًا ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث عدة عند أحمد والحاكم من رواية غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، وذلك أن له أنواعًا وألوانًا، ويكون في القلب، ويكون في اللسان، ويكون في الجوارح، فهو إذًا أمرٌ في غاية الدقة فكان حريًّا أن يحذره المسلم.

أخبر ابن عباس رضي الله عنهما أن الشرك أخفى من هذا المثال العجيب، النملةُ إذا صارت على رملٍ ناعم لا يكاد يُلحَظ أثرها، فكيف إذا مشت على صخرةٍ صماء؟ فكيف إذ كانت سوداء؟ فكيف إذا كان ذلك في ظلمة الليل؟ إذًا الأمر في غاية الخفاء، وشركٌ هذا شأنه كيف النجاة منه إلا بتوفيق من الله ﷻ، أسأل الله جل وعلا أن يُعيذني وإياكم من الشرك صغيره وكبيره، خفيه وجليَّه.

المقصود أن ابن عباس رضي الله عنهما بيَّن أن الشرك شيءٌ خفي حتى أنه يأتي في ألفاظٍ يكثر ذكرها على الألسن، وكثيرٌ ممن ينطق بها لا يتنبه إلى ما هي محشوةٌ فيه من الشرور والذم والنهي.
ومن ذلك **(وهو أن تقول: والله وحياتكِ يا فلانة، وحياتي)**، الحلف بغير الله كالحلف بالحياة.

ومن ذلك **(وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص).**

الذي بخط الشيخ كما قال الشارح **(كُليبة)**، والذي عند أبي حاتم **(كلبة)**، ولا أدري لماذا اختار المؤلف رحمه الله لفظة كُليبة.

المقصود البط وكذلك الكلب وما إلى ذلك من هذه الحيوانات إذا دخل الغريب فإنها تُصدر أصواتًا فيتنبه الناس، وهذا راجعٌ إلى ما سبق الكلام عنه من أن نسبة التفضل بالنعمة لغير الله ﷻ هذا من الشرك الخفي الذي جاء النهي عنه.

(وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت).قول: ما شاء الله وشئت؛ عقد المؤلف رحمه الله له بابًا خاصًا، وسنتكلم عنه إن شاء الله في محله، وهو من جملة شرك الألفاظ التي نبه عليها ابن عباس ﵄

(وقول الرجل: لولا الله وفلان).هذا لفظٌ آخر يتعلق بـ **"لولا"، عندنا في "لولا" محظورات:**

- أن يقول الإنسان: **لولا فلانٌ لحصل كذا، أو لولا فلانٌ ما حصل كذا**، وذلك على سبيل نسبة النعمة لغير الله ﷻ سواءٌ كان ذلك في جلب منفعة أو في دفع مضرة، ومضى الحديث في ذلك.
- وعندنا محظورٌ آخر، وهو أن يقول الإنسان: **لولا الله وفلان لكان كذا وكذا،**

هذا الأمر لا شك أنه لا يجوز، بل فيه من التنديد والتشريك ما فيه؛

وذلك أن الواو في لغة العرب تدل على التشريك والتسوية، ولا شك أن هذا أمرٌ لا يجوز أن يكون الله جلَّ وعلا والمخلوق في سياقٍ يدل على التسوية بينهما، فهذا تشريكٌ وتنديدٌ لا يجوز،

مجرد هذا اللفظ لا شك أنه من الشرك الأصغر. أما إذا قام في القلب اعتقاد هذه التسوية فهنا قد وقع هذا المتكلم الذي قصد هذه التسوية في هوَّةٍ سحيقة كانت من **الشرك الأكبر** لا من الشرك الأصغر.

لكن يجوز أن يقول: لولا الله **ثم** فلان، وذلك أن **ثم** تفيد الترتيب مع المهلة، وهذا يجعل العبد في رتبةٍ دون رتبة الخالق ﷻ فيكون تابعًا لذكر الله ﷻ؛في هذا السياق.

وإن كان الأكمل أن يقول الإنسان: لولا الله وحده.

إذًا عندنا في هذا المعنى درجتان: درجة كمالٍ، ودرجة جواز.

- أما درجة الكمال فأن يقول الإنسان: لولا الله وحده،
- ودرجة الجواز أن يقول: لولا الله ثم فلان،

۞ وأما لولا الله وفلان فإن هذا ممنوع.

وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم.

الذي بخط المؤلف كما ذكر الشارح رحمه الله (لا تجعل فيها فلانٌ)، والذي عند أبي حاتم (لا تجعل فيها فلانًا). والرفع هنا على ما ذكر المؤلف على الحكاية، والمعنى على كل حال واضح، وهو أنك لا تجعل فيها فلانًا، أولا تجعل فها فلانٌ، لا تذكر هذه الكلمة حتى يكون كلامك قد وافق المعنى الأكمل الذي فيه تحقيق التوحيد، وهو أن تفوض وتنسب الفضل لله ﷻ وحده.

(**هذا كله به شرك**) **يعني بقائله**، وهذا يدلك على أن القول من حيث هو شركٌ بالله ﷻ ولو لم يقصد القائل،

وبذلك يتضح خطأ الذين يقولون: نحن نتلفظ بهذه الألفاظ، ولكننا لا نقصد، فنقول: لو كنتم تقصدون التسوية لكنتم وقعتم في شيءٍ أشنع وأكبر من مجرد شرك الألفاظ الذي هو من الشرك الأصغر.

إذًا على الإنسان أن يتنبه، وأن يُلاحظ كلماته، وأن يُلاحظ ألفاظه؛ حتى تكون موافقةً لشرع الله ﷻ، وبهذا يكون قد حقق التوحيد الواجب عليه. والله أعلم.

وعن عمر بن الخطابِ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من حَلَفَ بغيرِ اللهِ فقد كفرَ أو أشركَ» رواه الترمذيُّ، وحسنهُ وصححهُ الحاكمُ.

هذا الحديث كما قد سمعت نسبه المؤلف رحمه الله إلى رواية عمر ﷺ، **وهذا وهمٌ**،

وإنما من رواية ابن عمر، من رواية ابن الفارق الذي هو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

والحديث كما قال المؤلف رحمه الله: حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، وصححه جمعٌ من أهل العلم؛

والألفاظ التي جاءت في كتب الحديث المتعلقة بهذا الحديث ترجع إلى أربعة ألفاظ:

- «**فقد كفر أو أشرك**» كما هي رواية الترمذي، والأقرب والله أعلم أن الشك هاهنا من الراوي.
- «**فقد كفر وأشرك**» وقد نص الشُراح على أنه جاء في بعض الأصول للترمذي بالعطف بالواو، «**فقد كفر وأشرك**»، وهكذا جاء عند أحمد وغيره.
- «**فقد كفر**» كما عند الحاكم وغيره.
- «**فقد أشرك**»، وهذا أكثر الألفاظ، أكثر من خرَّج هذا الحديث.

والمقصود: أن الحلف بغير الله ﷻ لا شك أنه منكرٌ عظيم، ومحرمٌ بالإجماع، كما نقل الإجماع على ذلك ابن بن عبد البر رحمه الله. وذكر شيخ الإسلام رحمه الله إجماع الصحابة على المنع منه.

بل هو أعظم من ذلك، فإنه قد ثبت أنه من الشرك بالله ﷻ كما نص عليه هذا الحديث:

- «**من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك**»، أو «**فقد أشرك**»، أو «**فقد كفر**»، أو «**فقد كفر وأشرك**».

- كذلك جاء النص على ذلك في حديث قتيلة الجُهنية رضي الله عنها وهو أن يهوديًا أتى إلى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: والكعبة، والنبي ﷺ أقره على ذلك، ونهى ﷺ عن هذا القول، وأمرهم بأن يقولوا: وربِّ الكعبة.
- ودليلٌ ثالث على ذلك وهو أثر ابن عباس رضي الله عنه الذي مر بنا منذ قليل، ومثله لا يُقال بالرأي.

فهذه أدلةٌ ثلاثٌ تدل على أن الحلف بغير الله عز وجل شركٌ.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحلف بغير الله عز وجل **شركٌ أكبر** متى ما قال:والنبي، وحياتك، والأمانة.

لكن جمهور أهل العلم على أن الشرك هاهنا شركُ أصغر، ويدل على هذا أمور منها:

- أثر ابن عباس رضي الله عنهما الذي جاءنا أو مر بنا قريبًا، فإنه رضي الله عنه قد جعل الحلف بغير الله في جملة أشياء الحكم فيها أنها من الشرك الأصغر، فدل هذا على أنها ليست من الشرك الأكبر.

- أن الحلف بغير الله قد جرى على لسان بعض كبار بعض الصحابة قبل أن ينهاهم النبي ﷺ عن ذلك، ومنهم عمر رضي الله عنه، ويبعد جدًا أن يكون الذي قد جرى على لساهم راجعًا إلى الشرك الأكبر.

وهو أن النبي ﷺ لم يرتب على هذا القول ما يُرتب على الشرك الأكبر، فالأقرب والله أعلم أنه شركُ أصغر،إلا إذا كان المحلوف به الذي هو غير الله جل وعلا، قد عظُم في قلب الحالف كتعظيم الله عز وجل أو أشد فلا شك أن هذا شركٌ أكبر بلا خلاف، كما يقع ذلك كثيرٍ من القبوريين الذين يسهل عليهم كثيراً أن يحلفوا بالله كاذبين، لكنهم لا يجرؤون البتة على أن يحلفوا بغير الله عز وجل كاذبين

☒ وبذلك يتضح لك الخطأ الكبير الذي وقع فيه من زعم أن الحلف بغير الله مكروهٌ كراهة تنزيه،

يا لله العجب! شيءٌ يصفه النبي ﷺ بأنه شركٌ، ثم يُقال: إنه مكروهٌ كراهة تنزيه، هذا لا يتأتى في الشريعة البتة، لا يُمكن أن يكون الشيء موصوفًا بالشرك ويكون حكمه الكراهة التنزيهية، هذا أمرٌ باطل لا شك في ذلك ولا ريب.

وقد استدل من قال بذلك ببعض الأدلة أشهرها:قولهم: إن النبي ﷺ جرى على لسانه الحلف بغير الله، ولا يمكن أن يقع الشرك في كلامه، فتعين أن يكون هذا الحديث دالًا على أن تلك الأدلة الناهية حكمها حكمها الكراهة، أو دالةً على الكراهة التنزيهية.

➘ وأشهر ما استدلوا به حديث **طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما**: أن رجلًا أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام، فقال له النبي ﷺ: **«خمسٌ صلوتٍ في اليوم والليلة» قال: هل علي غيرها؟ قال: لا. ثم الصيام والزكاة إلى آخره، ثم قال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فلما ولى قال النبي ﷺ**: على هذه الرواية التي يستدلون بها **أفلح وأبيه إن صدق»**.

هذا الحديث الاستدلال به غير صحيح وبيان ذلك:

➢ **القول الأول**: أن العلماء مختلفون في توجيه هذه الرواية، قال بعض أهل العلم: إن اللفظ في أصله: (أفلح والله إن صدق)، وإنما حصل تصحيف، **وهذا القول لا شك أنه قولٌ خاطئ**، وإلا لو فُتح ادعاء التصحيف لما أمكن الوثوق بشيءٍ من السنة.

➢ **القول الثاني**: إن قول النبي ﷺ (وأبيه)، إنما جرى على لسانه لا على سبيل الحلف واليمين،وإنما أراد تأكيد الكلام.**وهذا القول أيضًا غير صحيح**؛ لأن اليمين يُراد بها تأكيد الكلام إذًا ليس هناك فارقٌ بين أن يكون قول النبي ﷺ على سبيل اليمين أو على سبيل تأكيد الكلام، ثم إن النهي الذي جاء عن النبي ﷺ لم يفرق بين يمينٍ يُراد بها التأكيد، أو لا يُراد بها التأكيد.

➢ **القول الثالث**: **ذهب إلى أن هذا الحديث منسوخ**، والناسخ له الأدلة الناهيةُ عن الحلف بغير الله ﷻ **وهذا قولٌ وجيه**، وقد أخطأ من ضعَّفه، بعضهم ضعفه للجهل بالتاريخ، لا ندري ما الحديث المتقدم وما الحديث المتأخر،لكن هذا ليس بوجيه؛لأن إدراك المتقدم من المتأخر ميسورٌ لمن تأمل أدنى تأمل.

الواقع أن الحلف بغير الله ﷻ كان سائدًا في الناس، يدل على هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهأنه قال: **«كانت قريشٌ تحلف بآبائها، فقال النبي ﷺ: لا تحلفوا بآبائكم»**. وفي الصحيحين أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهأن النبي ﷺ أدرك عمر وهو في ركبٍ يحلف بأبيه فقال له النبي ﷺ: **«ألا إن الله ينهاكم على أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحف بالله أو ليصمت»**.

إذًا الحلف بغير الله كان شيئًا موجودًا، وبالتالي النهي عنه ناقلٌ عن الأصل،والأدلة التي فيها النهي عن ذلك ناقلةٌ عن الأصل، وبالتالي فتكون هي المتأخرة الناهية؛ لأن الناقل عن الأصل هو المتأخر، والباقي على الأصل هو المتقدم، وهذا واضح بأدنى تأمل.

➢ **القول الرابع: هو أن هذا اللفظ شاذٌّ ضعيف**. وهذا أقوى الأقوال في توجيه هذا اللفظ، الحديث جاء في الصحيحين من طريق أبي سهيل بن مالك عن اثنان مالك بن أنس،وإسماعيل بن جعفر.
مالك رحمه الله خرَّج هذا الحديث بقول، وفيه قوله: ﷺ «**أفلح إن صدق**» وليس فيه: «**وأبيه**».

إسماعيل رحمه الله روى هذا الحديث بلفظين:
الأول: وهو عند البخاري قال: «**أفلح إن صدق**»، أو دخل الجنة إن صدق، بهذا الشك منه رحمه الله.
«**أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق**».

الثاني: في مسلم: «**أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»، ولاحظ أن مسلم رحمه الله قدم رواية مالك التي ليس فيها لفظ أبيه، ثم أتبعها برواية إسماعيل.

إذًا تلخص لنا أن الحديث بلفظ: «**أفلح إن صدق**» جاء من رواية اثنين، والحديث بلفظ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» جاء من رواية واحد.ولاشك أن الرواية التي يرويها اثنان مقدمةٌ على الرواية التي يرويها واحد، لا سيما والحديث واحد، والقصة واحدة، والواقعة واحدة، والطريق واحدة.
إذًا النبي ﷺ قال أحد اللفظين قطعًا، يعني لا مجال أن نقول: إن القصة متعددة.

والسؤال: أي الروايتان أرجح؟ لا شك أن رواية مالك وإسماعيل أرجح، يدل على هذا أمور:
أولًا: توارد عليها اثنان.

ثانيا: مالك أوثق وأثبت من إسماعيل.

ثلاثة: إسماعيل حصل عنده تردد، مرةً قال: «**أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق**»، ومرةً قال: «**أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»، بخلاف مالك ضبط الرواية، ولذلك رواها بالجزم وكل رواياته واحدة في الصحيحين وغيرهما، ولذلك كل من روى عن مالك رحمه الله ما اختلف عنده اللفظ، وقد رواه جمعٌ من الأئمة الحُفاظ كعبد الرحمن ابن مهدي والشافعي وغيرهما، كلهم على روايةٍ واحدة وهي: «**أفلح إن صدق**».

فإذا جمعت هذه القرائن تبيّن لك أن لفظ: «وأبيه» شاذٌ معلول، لا يصح عن النبي ﷺ، ومن دقة الإمام البخاري رحمه الله أنه تجنب أخرج هذه اللفظة. ومسلم رحمه الله إنما ذكرها تابعةً للفظ الأول. إذًا الناظر بمقتضى قواعد علم الحديث يجزم أن لفظ «**وأبيه**» في كلام النبي ﷺ هاهنا شاذٌ غير صحيح.

إذًا هذا هو الصحيح الذي لا شك فيه أن الحلف بغير الله منكرٌ لا يجوز، وعلى المسلم أن يتقي الله ﷻ، قال ﷺ كما في الصحيحين: «**من كان حالفًا فليحف بالله أو ليصمت**».

حذاري يا عبد الله أن يجري على لسانك الحلف بغير الله، حتى لو كنت حالفًا بالنبي ﷺ، فإنه هو ﷺ الذي كان ينهانا عن ذلك، ولا يجوز لمسلمٍ أن يتقصد عصيان النبي ﷺ، فكيف إذا كان كلام يوقعه في الشرك والكفر بقول الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وقال ابن مسعودٍ: "لأنْ أحْلِفَ باللهِ كاذبا أحبُ إليَّ مِن أنْ أحْلِفَ بغيرِهِ صادقا".

أثر ابن مسعود رضي الله عنه أثرٌ عظيم يؤكد ما ذكرته لك سابقًا من أن الحلف بغير الله منكرٌ غليظ التحريم، بل من الشرك بالله ﷻ، وهذه الكلمة عن بن مسعود رضي الله عنه جاء نحوها من كلام ابن عباس، ومن كلام ابن عمر، ومن كلام الشعبي رحمة الله ورضوانه عليهم، كما نقل هذا الحافظ بن حجر رحمه الله في الفتح.

لاحظ هنا أن استعمال (أفعل التفضيل) هو في استعمالها فيما **ليس** محبوبًا من الجانبين، فلا هذا ولا ذاك عنده محبوب، إنما هذا لبيان أن أحد الأمرين أشنع وأشد من الآخر.

ولاحظ أيضًا أن ابن مسعود رضي الله عنه حينما يحدثنا بهذا الكلام يستحضر خطورة وشناعة الحلف بالله كاذبًا، فهو الذي روى عن النبي ﷺ ما في الصحيح من قوله ﷺ: «**من حلف على يمين يقتطع بها مال مسلمٍ هو فيه كاذبٌ لقي الله وهو عليه غضبان**»، إذًا هو يستحضر أن الحلف بالله كاذبًا منكرٌ عظيم،

ومع ذلك يقول: **(هو أهون من الحلف بغير الله صادقًا)**. قال العلماء: لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، ولأن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق.

﴾ وعن حذيفةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تقُولوُا: ما شاءَ الله وشاءَ فلانٌ، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح.

هذا كما سبق التنبيه عليه، وسيأتي إن شاء الله الكلام عن ذلك في بابٍ خاص نفصل فيه القول.

﴾ وجاء عن إبراهيمَ النخعيِّ: "أنهُ يَكرَهُ أنْ يقولَ الرجُلُ (أعوذبالله وبك).ويجوزُ أنْ يقولَ:بالله ثم بك. قالَ: ويقولَ: (لولا اللهُ ثم فلانٌ)؛ ولا تقولوا (ولولا اللهُ وفلانٌ).

الاستعاذة بالله وبغيره مضى الكلام فيها في بابٍ سابق،

وعلمنا أن الاستعاذة لها وجهان، وجهٌ يتعلق بالقلب، ووجهٌ يتعلق بالجوارح.

- أما ما تعلق بالقلب فإنه **لا يجوز** أن يكون لغير الله ﷻ، يجب أن تكون الاستعاذة بالله ﷻ وحده،
- أما ما كان بغير القلب فإنه يجوز أن يكون بحيٍ حاضرٍ قادر، وقلنا عليه يتنزل ما جاء في السنة كقوله ﷺ عن الفتن: «فمن وجد معاذًا فليعذ به»، دل هذا على أن الاستعاذة هنا من باب الاستجارة وطلب ما يدفع الشر عن الإنسان، وهذا جائزٌ إذا تعلق بحيٍ حاضرٍ قادر.
- وبالتالي أثر النخعي رحمه الله يؤكد الفرق عند السلف بين العطف بالواو والعطف بـ (ثم).

قالَ: ويقولَ: (لولا اللهُ ثم فلانٌ)؛ ولا تقولوا (ولولا اللهُ وفلانٌ).

كما مضى يجوز أن تقول: لولا الله ثم فلان، ولا يجوز أن تقول: لولا الله وفلان، وبهذا ينتهي الكلام عن هذا الباب.

الدرس الرابع والستون – ١١٣٦ ٤٣- بابُ ما جاءَ فيمَن لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلْفِ باللهِ

فهذا الباب وبعض ما تقدم وجملة مما سيأتي، كل تلك الأبواب قائمة على الحث والتأكيد على تحقيق التوحيد وعلى البعد عن كل ما يخدش فيه أو ينقص من كماله.

(يقنع): **بمعنى يرضى**، من قَنِعَ قنَعًا وقناعة من باب تَعِبَ، فهو يعني يقنع بمعنى يرضى، وذلك أن من لم يقنع ويرضى بالحلف بالله ﷻ فإنه قد جاء فيه ذم ووعيد.

وهذا الباب عقده المؤلف رحمه الله وأورد تحته دليلاً واحدًا، وهذا قد تكرر من المؤلف في بعض الأبواب، والمقصود أن الموحد، الله سبحانه في قلبه أعظم شيء، ولذا فإنه إذا حلف له بالله فإنه من تعظيمه لهذا لمحلوف يرضى بهذا الحلف ويجل أسم الله جل وعلا ويعظمه سبحانه إذا ذكر له، ولذلك فأنه يرضى ويقنع إذا حلف له بالله سبحانه وتعالى.

يشهد في هذا ما ثبت في الصحيحين النبي ﷺ يذكر أن المسيح عيسى عليه السلام: **«رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق، فقال له أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا اله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبتُ عيني» وعند مسلم «وكذبتُ نفسي»**.

هذا الحديث فيه أن المسيح عليه السلام كان الله ﷻ في قلبه عظيمًا حتى أنه لما دار الأمر بين ثبوت تهمة السرقة على هذا الإنسان بدليل مشاهدة العين وبين نفى هذه التهمة والدليل الحلف بالله رجح ﷺ ما دل عليه تعظيم الله ﷻ وهو الحلف به سبحانه وتعالى وعاد بالتهمة على عينه وعلى ظنه، ولعله قام في قلبه ﷺ أن هذا الرجل لعله أخذ مالًا له فيه حق أو لعله لم يكن يريد السرقة إنما أخذ متاع يقلبه وليس بقصد أنه يستأثر به ويستولي عليه.

المقصود أن عيسى عليه السلام وهو من أئمة أهل التوحيد العظام بل هو أحد أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام صفوة البشر كان الله جل وعلا في قلبه عظيمًا حتى أنه قال هذه الكلمة التي تدل على تعظيمه لله **«آمنت بالله وكذبت عيني»**.

إذًا المطلوب من المسلم أن يعظم الله سبحانه وتعالى ومن ذلك أنه إذا حلف له بالله فإن عليه أن يرضى،

عن ابن عمَرَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا تَحلفوا بآبائكم، من حَلَفَ بالله فليصدُقْ، ومَنْ حُلِفَ له باللهِ فليرضَ، ومَن لمْ يرضَ فليس من اللهِ». رواه ابن ماجهْ بسند حسنٍ.

هذا الحديث خرجه أبن ماجه كما ذكر المؤلف رحمه الله، لكن في أبن ماجة: «ومن لم يرضَ بالله فليس من الله» إنما قوله «ومَن لمْ يرضَ فليس من اللهِ». هذا عند البيهقي في السنن الكبرى وجاء عنده أيضًا رواية أخرى موضحة وهي: «ومن حلف له بالله فلم يرض فليس من الله»،والمعنى على كل حال واحد.

هذا الحديث حديث ثابت عن النبيﷺ حسنه المؤلف كما وصححه أكثر من واحد من أهل العلم.

هذا الحديث أشتمل على أربع كلمات:

➢ **أولاً**: قال النبي ﷺ : «**لا تحلفوا بآبائكم**»،

وسبب هذا الحديث أن النبي ﷺ سمع رجل يحلف بأبيه فقال ﷺ قال: أولاً «**لا تحلفوا بآبائكم**».

والنهي عن الحلف بالآباء جاء كثيرا في السنة، ومر معنا في دروس سابقة قول النبي ﷺ الثابت في الصحيحين: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله، وإلا فليصمت**» من حديث أبن عمر رضي الله عنه «**كانت قريش تحلف بآبائه،" فقال النبي ﷺ «لا تحلفوا بآبائكم**»، وثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغي**» الطواغيي جمع طاغية كما أخرج أبن أبي شيبة من طريق عكرمة عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «**كنت أحدث قوماً فقلت: لا وأبي. فإذا بصوت يقول: لا تحلف بأبيك. فألتفت فإذا النبي ﷺ يقول: لوحلف بالمسيح لهلك، والمسيح خير من آبائكم**»، قال بن حجر رحمه الله: هذا مرسل يتقوى بشواهده.

هذه الأحاديث ليس لها مفهوم مخالفة **فلا تدل على أن النهي إنما يتعلق بالحلف بالآباء بحسب.**

وهذا لا يعني أنه يجوز أن يحلف بغيرهم، ليس الأمر كذلك؛ إنما هذا كان منه ﷺ جريًا على الغالب، فإن الغالب من حلف أهل الجاهلية أنه كان بآبائهم لعظمتهم في أنفسهم وإلا فإن النبي ﷺ قد نهى بالحلف بغير الآباء أيضًا، فأنه نهى عن الحلف بالكعبة.

- كما أن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من حلف بالأمانة**» وهذا حديث صحيح خرجه أحمد وغيره

- وكذلك النبي ﷺ نهى نهيًا عامًا وأمر أمراً عامًا
  - **أما النهي العام**: فقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وجاء عند عبد الرزاق من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما أيضًا- قال: «**من حلف دون الله فقد أشرك**»،
  - **الأمرالعام**: فقوله ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**».

والحلف بغير الله مضى الكلام فيه وبيان حكمه والواجب أن ينكر هذا المنكر.

النبي ﷺ لما سمع من حلف بأبيه وهو عمر رضي الله عنه نهاه ﷺ عن ذلك ،كذلك ابن عمر رضي الله عنه رواه عند الترمذي سمع رجل يحلف بالكعبة قال: «**لا تحلف بالكعبة**»، بل جاء في رواية عنه أنه قال: «**ويحك لا تحلف بالكعبة لأني سمعت رسول ﷺ يقول: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**».

➢ **ثانيا: «من حلف بالله فليصدق»؛**

الصدق واجب في كل الأحوال فكيف إذا كان الكلام مقرون بالحلف بالله،

والكذب محرم في كل الأحوال فكيف إذا كان مقرون بكلام فيه ذكر اسم الله سبحانه وتعالى .

وإن من المنكرات العظام أن يحلف الإنسان بالله جل وعلا كاذبا، هذا منكر عظيم وأثم بالغ، حتى أن هذا اليمين يمينٌ غموس يمين الغموس، يغمس صاحبها في الإثم ثم في النار عافاني الله وإياكم.

ثبت في البخاري وغيره أنه قال ﷺ :«**الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين والقتل واليمين الغموس**».

وضابط اليمين الغموس: أن يحلف الإنسان كاذبًا عامداً. فليبشر بأنه وقع في هذا الإثم العظيم

وأشد ما يكون ذلك إذا كان مقتطع بهذا اليمين مال مسلم، ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**» هذا الذي يحلف على شيء مضى أنه كان كذا وكذا وهو كاذب في ذلك لأجل أن يعتذر أو أن يتملق أو لأجل أن يقتطع حق غيره فأنه يكون قد وقع في هذا الإثم العظيم،ومن ذلك إنه يلقى الله عز وجل وهو عليه غضبان.

إذن هذا القدر من الحديث وهذه الجملة تدل على أمرين:

1. على وجوب الصدق عند الحلف بالله.
2. وعلى حرمة الكذب،أشد التحريم إذا حُلف به سبحانه وتعالى كذبا.

➢ **الجملة الثالثة**: فهي موضع الشاهد من هذا الحديث فهي قوله ﷺ: **«من حلف له بالله فليرضَ»**

هذا الحديث محمول عند أهل العلم على ثلاثة محامل:

المحمل الأول: هو في الأيمان في الدعاوى.

فإنه إذا توجهت اليمين على المدَّعَى عليه فحلف فوجب على المدعِي أن يرضى، لأن هذا حكم الله، كما جاء في حديث الأشعري بن قيس ﵁ في الصحيحين لما كانت بينه وبين رجل خصومه، فقال النبي ﷺ: **«شاهداك أو يمينه»**. فإذا توجهت اليمين –حيث لم يكن عند المدعي بينة– فتوجهت اليمين عند المدعى عليه فحلف، فالذي يتوجب على المدعي أن يرضى بذلك، لأن هذا حكم الله وليس له أن يعترض على ذلك وإن كان يعتقد في نفسه أنه حقه، فإن الله ﷻ سيستوفيه له أما في الدنيا وإلا في الآخرة.

هذا المحمل محمل صحيح، وذهب منهم طائفة من أهل العلم ومنهم المؤلف رحمه الله، فإنو الشارح الحفيد الشيخ سليمان رحمه الله ذكر في التيسير أنه قد حُدِّث أن المؤلف رحمه الله حمل الحديث على هذا المعنى.

المحمل الثاني: أن من حلف له بالله فليرض ولا يجوز له أن يطلب الحلف بغيره.

إذا حلف للإنسان بالله فإن الواجب عليه أن يكتفي بذلك، ولا يجوز له بحال أن يطلب أن يحلف له بغيره، وكما قد يقع ذلك مما لا يعظم الله حق تعظيمه ولم يقدره حق قدره إذا كان له حق يمين على صاحبه أو على خصمه فحلف له بالله فأنه يقول: لا لا أقبل.

المحمل الثالث: فإن عليه أن يرضى إذا تيقن صدقه، أو ترجح له صدقه، أو لم يتبين له كذبه.

عندنا ثلاث أحوال يجب وجوباً على الإنسان إذا حلف له بالله فيها أن يرضى وأن يصدق، وهي:

- **أن يتيقن من صدق الحالف إذا حلف له لأي سبب**، كأن يعتذر له مثلاً أو يخبره بشيء هو فيه متشكك، فحلف له بالله أنه قد كان، وهو يتيقن صدقه، فواجب عليه أن يرضى وأن يصدق.
- أو إذا غلب على ظنه صدقه، ترجح في نظره صدقه، فواجب عليه أيضًا أن يصدق.
- أو إذا لم يتبن له كذبه، ما عنده قرينة فضلًا أن يكون عنده دليل على أن هذا الحالف قد كذب في حلفه، حينئذ عليه أن يصدق هذا الحالف.

وهذا من تعظيم الله ﷻ، وفيه ما لا يخفاك أيضًا ما فيه من إحسان الظن بالمسلم، وفي هذا من المصالح العظيمة ما لا يخفى، وإحسان الظن بالمسلمين هذه من الأمور التي أضحت غريبة عند كثير من الناس.

وبالتالي فإننا نفهم حينئذً أنه إذا لم تكن هذه الأمور الثلاثة فإنه **لا يجب** على الإنسان أن يرضى بهذا الحلف ولا أن يصدقه،

ويشهد لهذا التفصيل الحديث نفسه، ألم تر أنه قد قال ﷺ: **«من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض»** **فكأنه عليه الصلاة والسلام قال:من حلف فصدق فأنه يجب الرضا بحلفه وتصديق حلفه.**

هذا الذي يبدو، توجيه هذا الحديث على هذا المحمل وكل هذه المحامل الثلاثة صحيحة، وإذا أمكن حمل النص على أثر من معنى هو فيها صحيح فإن حملها على ذلك هو الذي ينبغي أن يكون والله أعلم.

➢ **الجملة الرابعة:** قال ﷺ: **«ومن لم يرض بالله فليس من الله»**، وعلى رواية البيهقي أوما أورده المؤلف **«ومن لم يرض فليس من الله»**، وعلى الرواية الثالثة:**«ومن حُلف له بالله فلم يرض فليس من الله»**.

هذا دليل على وجوب الرضا بالحلف بالله وعلى تصديق الحالف، وأن مخالفة ذلك معصية بل كبيرة من الكبائر، لأن ضابط الكبيرة منطبق ها هنا، فهذا وعيد خاص أن من لم يرض بهذا الحلف بالله ﷻ فليس من الله.

هذه الجملة تستعمل عند العرب بمعنى التبري، بمعنى أن يتبرأ إنسان من شيء أو من أحد فأنه يستعمل مثل هذه العبارة:

إذا حاوَلْتَ في أسَدٍ فُجوراً فأني لستُ منكَ و لستَ مني

إذاً الخلاصة التي نصل إليها هي:

أن الحلف بالله ﷻ يجب أن يكون الإنسان صادقًا، ولا يجوز أن يحلف بغيره، وأن من حلف له بالله فمن تعظيم الله ومن أقدار الله أن يرضى الإنسان بهذا الحلف، ومن لم يرض فإنه متوعد بهذا الوعيد.

الدرس الخامس و الستون – ١١٤٧ ٤٤- باب قول ما شاء اللهُ وشِئْتَ.

فهذا باب قول ما شاء الله وشئت، أي ما حكمه؟ هل هو من الشرك الأصغر أو من الشرك الأكبر؟

والظاهر والله أعلم أن هذا القول قول يرجع حكمه إلى الشرك الأصغر

لما يدل عليه كون النبي ﷺ كان يمنعه الحياء من إنكار هذا اللفظ دليلٌ على أن هذا ليس من الشرك الأكبر، إذ يَبْعُد أن يكون هذا القول شركا أكبر ثم لا ينكره النبي ﷺ من أول وهلة.

أما إذا عظم في قلب المتكلم هذا الذي سوى بينهم وبين الله جل وعلا في المشيئة، كان في نفسه معظما كتعظيم الله **فلا شك أن هذا من الشرك الأكبر.**

والمحذور ها هنا هو في العطف بين الله ﷻ والمخلوق **بحرف الواو** التي تقتضي التشريك والتسوية.

ولا شك أن هذا نوعُ تنديد، لا يجوز للمسلم أن يجعل في مقام التفويض والاعتماد والتعلق أو في مقام التعظيم، أن يجعل ربه ﷻ والمخلوق في سياق يوهم التسوية والمشاركة، فلأجل هذا نهت الشريعة عن استعمال هذا اللفظ وهو أن يقول الإنسان ما شاء الله وشاء فلان، أو أن يقول ما شاء الله وشئت.

وعن قُتَيْلَةَ: «أنَّ يهوديًا أَتَى النبيَّ ﷺ فقالَ: إنكم تُشركون، تقولونَ ما شاءَ اللهُ وشِئتَ، وتقولونَ والكَعْبَةَ، فأمرهُم النبيُّ ﷺ إذا أرادوا أنْ يَحْلِفُوا أنْ يَقُولوا: وربِّ الكعبةِ، وأنْ يَقُولوا: ما شاءَ اللهُ ثم شِئْتَ» رواه النسائيُّ وصححهُ.

هذا الحديث حديث قتيلة رضي الله عنها وهي قتيلة بنت صيفي الجُهنية قال عبد البر إنها من المهاجرات الأول، وقيل إنها أنصارية؛ قال ابن سعد ولا يعرف لها إلا هذا الحديث؛

هذه الصحابية الجليلة رضي الله عنها روت لنا أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون. نلاحظ ها هنا أن النبي ﷺ أقره على أن هذا الذي زعم أنه واقع في بعض المسلمين شرك، ولم ينكره النبي ﷺ **فدل هذا على أن الذي ذكره هذا اليهودي من الشرك.**

ذكر جملتين مما كان يقوله بعض المسلمين:

الأول: الحلف بغير الله حيث إن من المسلمين من كان يقول: والكعبة، وهذا ما مضى الحديث فيه.

فكان من النبي ﷺ أن أمرهم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يحلفوا بالله فيقولون: ورب الكعبة

الثاني: فهي موضع الشاهد من هذا الحديث، وهي أن من المسلمين من كان يقول **(ما شاء الله وشئت)**، **فأقر النبي ﷺ على أن هذه الجملة شرك بالله ﷻ.**

وبالتالي أمر النبي ﷺ أن يقول القائل عند هذا السياق الذي يراد فيه إثبات المشيئة لله جل وعلا وللمخلوق، أن يكون العطف بـ **(ثم)** فيقول القائل: ما شاء الله ثم شئت؛

وذلك أنه إذا لم يكن عطف بالواو فلم يكن هناك مساواة، ولم يكن هناك تشريك، وذلك أن **(ثم)** في اللغة تقتضي الترتيب مع المهلة، وبالتالي انتفى المحذور وانتفى المحظور،
فجاز للإنسان أن يقول ما شاء الله ثم شئت.

وأن هذا المقام فيه ثلاث مراحل: مرحلة محرمة، ومرحلة جائزة، ومرحلة فاضلة فيها الكمال:

➢ أما المحرم الممنوع: **فهو التشريك أو العطف بالواو**، كأن يقول الإنسان: ما شاء الله وشاء فلان؛ أو: ما شاء الله وشئت؛ هذا الذي جاء النص على أنه من الشرك بالله –ﷻ– فهو إذا ممنوع.

➢ أما الدرجة الجائزة: **فهي العطف بـ (ثم)**، فهذه جائزة كما دل على هذا الحديث الذي بين أيدينا وكما دل عليه أيضا حديث حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**»، خرجه أبو داوود بإسناد صحيح.

➢ أما درجة الكمال، الدرجة الفاضلة:**أن يفوض الإنسان المشيئة لله ﷻ وحده**، فيقولُ: ما شاء الله وحده.وهذا ما دل عليه حديث الطفيل الآتي، ودل عليه أيضا حديث ابن عباس رضي الله عنهما الآتي،

حديث قتيله رضي الله عنها حديث صحيح صححه النسائي كما نقل الحافظ في الفتح، وصححه الحافظ أيضا كما في الإصابة، وصححه غير واحد من المتقدمين والمتأخرين،

۞ والحديث فيه فوائد:

☐ أولاً: **أن معرفة الحق لا تستلزم إتباعه، وأن معرفة الإيمان لا تستلزم الإيمان**

العلم لا يستلزم العمل استلزام العلة للمعلول، العلم سبب، والسبب لا يستلزم المسبب؛ لأن ثمة موانع تمنع من تأثير الأسباب، وبالتالي ليس كل من كان عالما بالحق كان عاملا بالحق.

ولذا تأمل ها هنا كيف أن اليهود علموا هذه المسألة الدقيقة، لكن هذا العلم ما نفعهم، فإنهم واقعون في فظائع كبيرة، كافرون بالله، مكذبون لرسل الله، ناسبون لولد لله، يحرفون كتاب الله،

ومن شواهد ذلك أيضا قول الله ﷻ عن أهل الكتاب، أخبر الله جل وعلا أن اليهود أنهم يعرفون نبينا ﷺ كما يعرفون أبنائهم فهل استلزمت هذه المعرفة اتباعهم النبي ﷺ؟ الجواب: لا.
إذن العلم لا يستلزم العمل ولا اتباع الحق استلزم العلة للمعلول، إنما العلم سبب، والسبب قد يؤدي إلى حصول المسبب وقد يكون ثمة مانع.
ولذلك كم من الناس من يعلم كثيرا من الحق لكنه لا يعمل به، بل كم من أهل العلم الذين يعملون بضد ما عملوا والله المستعان.

☐ **ثانيا: أن من اليهود من عرف الشرك الأصغر وممن يدعي الإسلام من لم يعرف الشرك الأكبر**
هؤلاء يهود عرفوا هذه المسألة الدقيقة وهي من الشرك الأصغر، وإن مما يؤسف له أن من المنتسبين إلى الإسلام من لم يعرف الشرك الأكبر، وحرك ترى.والله المستعان

☐ **ثالثا: معرفة أن الإنسان قد يكون له فَهْمٌ ثاقب، إذا كان له هوى.**
وهذا ما نبه عليه المؤلف رحمه الله في مسائل الكتاب، قال معرفة الإنسان أو قال فهم الإنسان إذا كان له هوى، هؤلاء اليهود ومنهم هذا اليهودي لما كان مراده انتقاص المسلمين وعيبهم، قلب وفتش بنظر دقيق حتى وجد هذا العيب وهو أن من المسلمين من يقول والكعبة أو ما شاء الله وشئت، فدل هذا على أن صاحب الهوى قد يكون عنده فهم دقيق ونظر ثاقب للأمور.

وبالتالي فإنه لا ينكر حينئذ في أعداء الله ﷻ من يأتي بمسائل دقيقة وأمور ملفتة، لأنهم أصحاب أهواء يبحثون ويجدّون في النظر، فربما أتوا بكلام صواب مفيد.

☐ **رابعا: وهو أنه قد يكون العدو البغيض سببا لخير كثير.**
هذا الانتقاص وهذا العيب الذي كان من هذا اليهودي كان سببا لحصول خير عظيم، وهو أن تنبه المسلمون لهذه المسألة، وبالتالي فربما يقدر الله ﷻ حصول الخير من طريق مكروه.

❑ **خامسا: وهي أن الحق يجب قبوله ممن جاء به.**

فلا يكون ضلال المتكلم بالحق مانعا من قبول الحق، المسلم ينبغي أن يكون رائده الحق وأن يكون مطلوبه الصواب، وبالتالي فإنه إذا وقف عليه من أي طريق كان، من طريق أهل الحق أو من طريق أهل الباطل، فلا ينبغي أن يأنف من قبوله، ولا ينبغي أن يستكبر من إتباعه، هذا الحق الذي قاله هذا اليهودي وصل إلى المسلمين من طريق ألد أعدائهم وهم اليهود، ومع ذلك فإن النبي ﷺ قد قبل الحق وأمرهم بإتباعه.

التنبيه: قد يستدل في هذا المقام بحديث مروي عن النبي ﷺ وهو أنه قال: «**الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها**»،

وهذا الكلام كلام حسن، وصحيح، إلا أن هذا الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ، فقد خرجه الترمذي وغيره من إسناد ضعيف، بل ضعيف جدا، فيه إبراهيم ابن الفضل وهو متروك،

على كل حال على المسلم أن يكون منصفا طالبا للحق كما دل على هذا هذا الحديث والله تعالى أعلم.

ولهُ أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رجُلا قال لِلنبيِّ ﷺ: ما شاء الله وشئتَ. فقال: أجعلتني للهِ نِدًا؟ ما شاء الله وحده.

وله، أي للنسائي و هذا الحديث حديث صحيح صححه ابن القيم وجمع من أهل العلم من المتأخرين.

وهذا اللفظ الذي بين أيدينا لا أعلمه في سنن النسائي، إنما الذي في الكبرى: «**أجعلتني لله عِدلا**»،

وهكذا وهو في مسند الإمام أحمد،

أما لفظ (**ندا**) فجاء عند البخاري في الأدب المفرد بإسناد صحيح، قال النبي ﷺ «**جعلت لله ندا**».

المقصود أن النبي ﷺ جاء عنه في هذا الحديث لفظان: (أجعلتني لله عدلا – جعلت لله ندا)

وهذا تفسير نبوي لقول الله سبحانه : ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾[البقرة:22]،

ويدلنا على أن التنديد قد يكون شركا أكبر، وقد يكون شركا أصغر، فهذا اللفظ التي بين أيدينا تنديد أصغر، نوع تنديد لا يبلغ إلى التنديد الكامل الذي هو الشرك الأكبر كالاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى

والمقصود أن هذا الحديث فيه إرشاد النبي ﷺ إلى الدرجة الكاملة الفاضلة، وهي أن يقول الإنسان: ما شاء الله وحده. وذلك يدل على كمال التفويض والاعتماد والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

❁ **فكيف نجمع بين النصوص التي بين أيدينا وهذه النصوص التي فيها العطف بالواو؟**

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[آل عمران:] **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾**[النساء:] **﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾**[النساء:] **﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾**[لقمان:14]

قال بعض أهل العلم إن هذه الأحاديث التي بين أيدينا ناسخة للأدلة التي فيها العطف بالواو، وهذا ما نحى إليه الطحاوي رحمه الله في شرح مشكل الآثار؛ لكن هذا التوجيه فيه ما فيه،

والصواب والله تعالى أعلم أن يقال: إن ثمة فرقا بين مقامين، فما كان السياق متعلقا بالتفويض والاعتماد والتوكل، فالواجب ألا يكون العطف بالواو،

وكذا الأمر إذا كان المقام مقام تعظيم،

- **أما في مقام الأمر والنهي فلا حرج**، فالله جل وعلا أمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، والله جل وعلا أمر بالشكر له والشكر للوالدين، وهذا بالتالي جاز فيه العطف بالواو، والله تعالى أعلم.

❁ **من فوائد هذا الحديث:**

أولا: **أن هذه الألفاظ التي فيها التسوية والتشريك بين الله ﷻ والمخلوق**

- **وهو مقام التفويض والاعتماد والتعلق،**

كقول بعضهم: ما لي إلا الله وأنت؛ وأنا متوكل على الله وعليك؛ وأنا في حسب الله وحسبك؛ أو مالي إلا الله في السماء وأنت في الأرض؛

وأمثال هذه الألفاظ التي هي مثل اللفظ الذي بين أيدينا في الكراهة والنكارة أو أشد.

- **أو يكون اللفظ من ألفاظ التعظيم**: كقول بعضهم: بسم الله والوطن، أو بسم الله والشعب، وأمثال هذه الألفاظ، **لا شك أن هذا كله مما لا يجوز للمسلم أن يقع فيه،**

فائدة ثانية: وهي ما علمناه من هذا الحديث وأضرابه به من حرص النبي ﷺ على حماية حمى التوحيد، وإبعاده أمته عن كل ما يخدش أو يؤثر في توحيدهم،

✿ **وأن قاعدة** سد الذرائع من القواعد الشرعية التي ينبغي إعمالها من الدعاة وطلاب العلم.

وفائدة ثالثة: أن حسن النية والقصد لا يمنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة.

فإن من الناس ما إذا نبه على هذه الألفاظ ونحوها

قال: أنا نيتي طيبة وقصدي حسن، فلماذا تنكرون عليّ أو تنكرون على غيري؟

والجواب عن هذا أن يقال: تأمل يا رعاك الله فيه هذا الحديث، أتظن حينما قال الصحابي: ما شاء الله وشئت؛ أكانت التسوية والتشريك عنده في اللفظ ؟ ما هو ظننا بأصحاب النبي ﷺ؟ لا شك أن المضمون بالصحابة أن تعظيم الله ﷻ في قلوبهم أكبر من كل شيء.

وبالتالي فإن هذا الصحابي إنما وقع في خطأ لفظي، **شرك في القول ونيته حسنة، وقصده طيب**، بل نيته خير من نيات المتكلمين في هذا العصر،

ومع ذلك أترك النبي ﷺ النصيحة؟ أترك النبي ﷺ الإنكار؟ إذن لا ينبغي أن يكون حسن القصد حاجزا دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فائدة رابعة أيضا: وهي ما نبه المؤلف رحمه الله أن قول ما شاء الله وشئت باللفظ فقط، عده النبي ﷺ تنديدا، فقال: «**أجعلتني لله ندا؟**»

فماذا في قول القائل: فإن من جودك الدنيا و درتها و من علومك علم اللوح والقلم

ماذا كان يقول النبي ﷺ في أمثال هذه الألفاظ، وهذه الأبيات، وهذه الجمل؟ التي إذا ما قيست بكلمة (ما شاء الله وشئت) وجدت أنه يمكن أن يقارن الفحش والشرك بين هذه الألفاظ وبين هذه الجملة.

إذن على المسلمين أن يعرفوا التوحيد، وأن يعظموا الله، وأن يتنبهوا إلى المحذورات الشرعية

فائدة سادسة: وهي أنه إذا ما أغلق باب الحرام ينبغي فتح باب الحلال،

إذا ما نبه الداعية إلى الله على أمر منكر فإن من المستحسن، والذي ينبغي مهما أمكن أن يُبين المخرج؛ النبي ﷺ بين أن هذا اللفظ منكر؛ ومع ذلك عطف ﷺ بيان اللفظ الصواب والمخرج من هذا الخطأ،

ولابن ماجة عن الطُّفَيْلِ أَخي عائشة لِأُمِّها قال: رأيتُ كأَنِّي أَتيتُ على نَفَرٍ مِنَ اليهودِ، قُلتُ إنكُم لَأَنْتُم القومُ لولاَ أَنكُم تقولونَ عُزَيْرُ ابنُ اللهِ. قالوا:و إنكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون ما شاءَ اللهُ وشاءَ محمدٌ. ثُم مَرَرْتُ بِنفرٍ مِن النصَارى فقلتُ: إنكم لأنتمُ القومُ لولا أنكم تقولون المسيحُ ابنُ

الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء اللهُ وشاءَ محمدٌ. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها مَنْ أخبرتُ، ثم أَتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتهُ، فقالَ: هَل أخبرتَ بها أحدًا؟ قُلتُ: قَالَ فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليهِ، ثم قال: أما بَعدُ فإنَّ طُفيلاً رأى رُؤيا، أخبرَ بها مَن أخبرَ مِنكم، وإنكم قُلتم كلمةً كانَ يَمْنَعُنِي كذا وكذا أنَّ أَنْهاكُم عنها، فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله وحده.

هذا الحديث حديث الطفيل بن سخبرة الأزدي رضي الله عنه وهو أخو عائشة رضي الله عنها لأمها، وأمهما أم رومان رضي الله عنها وهو أكبر منها،و من أخيها عبد الرحمن،وقال البغوي لا يعرف له إلا هذا الحديث.

وهذا الحديث عزاه المؤلف رحمه الله إلى ابن ماجة، ورواه سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة رضي الله عنه بلفظ نحو هذا بين أيدينا، ثم قال: (وبنحوه عن الطفيل)؛ ولم يسق هذا اللفظ الذي بين أيدينا، فنسبته إذن إلى ابن ماجة بهذا الإطلاق فيها نظر،
إنما قريب من هذا اللفظ جدا ما أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن الطفيل بلفظ قريب مما بين أيدينا.

وخالف في ذلك جمع من الحفاظ، فأبوعوانة و حماد بن سلمه وكذلك شعبة ،روى هؤلاء الحفاظ الثقات الثلاثة، ورواية هؤلاء لا شك أنها أثبت وأرجح، وهذا ما رجح الحفاظ، ومنهم البخاري في التاريخ الكبير.

فالحديث حديث الطفيل **وإنما حصل وهمٌ** من سفيان رحمه الله في نسبته إلى حذيفة رضي الله عن الجميع

المقصود أن هذا الحديث حديث صحيح، وفيه ذكر رؤية منامية رآها الطفيل رضي الله عنه، ثم لما استيقظ حدث بها من حدث أهله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ وحدثه بها، فكان أن خطب النبي ﷺ ونبه إلى ما قد سمعت، ففي هذا الحديث الدلالة التي سبقت في حديث ابن عباس رضي الله عنه وذلك أن الأكمل والأولى والأعقل أن يقول الإنسان في هذا المقام: ما شاء الله وحده.،ويجوز قول: ما شاء الله، ثم شاء فلان أو ثم ما شئت.

وبقيت مسألة واحدة في هذا الحديث، وهو قول النبي ﷺ: **«كان يمنعني كذا وكذا»**، وجاء في بعض روايات الحديث توضيح هذا المبهم، وهو أنه كان يمنعه الحياء ﷺ من إنكارها، ومعلوم من كان عليه النبي ﷺ من الحياء العظيم، **وقد يقول قائل كيف يترك النبي ﷺ إنكار المنكر حياء من الناس؟**

والجواب عن ذلك أن يقال: إن النبي ﷺ كره هذا اللفظ الذي أَلِفَهُ هؤلاء الناس، ولكنه لم يوحَ إليه فيه شيء، ثم بسبب ما كان من هذه الرؤيا أوحي إلى النبي ﷺ فكان منه البلاغ والإنكار.

الدرس السادس والستون – ١١٦٣ **٤٥ – بابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فقد آذى اللهِ.**

فلا يزالُ المؤلف رحمه الله يوالي عقد الأبواب التي فيها التنبيه، والتحذيرُ؛ عما يقدحُ في كمال التوحيد الواجب ومن ذلك ما يتعلق بسب الدهر الذي يكون قادحًا في كمال التوحيد، وقد يكونُ ناقض لأصل التوحيد. الله جل وعلا قد يؤذيه عباده لكنهم لا يضرونه دل على هذا الكتاب، والسنة. **فمن ذلك**

قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[الأحزاب:57]،

وقال النبي ﷺ كما في الصحيحين: «**من لِكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله**»، كما ثبت أيضاً في الصحيحين قول النبي ﷺ: «**لا أحد أصبرُ على أذىً سمعه من الله، ينسبون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم**»؛

۞ فالأذى قد يكون من المخلوقِ بحق الخالق جل وعلا ولكنه ليس كأذى المخلوقِ للمخلوقِ.

فالله أعز شأنًا، وأرفع قدرًا، وليس كمثله شيء، وإذا كان ثمة أذى من المخلوقِ في حق الخالق فإن هذا ليس في حقه نقصًا، فإن الله جل وعلا يتنزه عن كل نقص، والله أعلم بكيفية هذا الأذى،

أما الضرر فإنه لا ينال الله ولا يلحقه ﷻ.

الضرر أشد وقعًا، وأعظم أثرًا من الأذى؛ الأذى يستعمل فيما يخِف: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾[آل عمران:111]

الضرر لا يقع على الله، والعباد لا يضرون الله قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾[آل عمران:176]،

وكذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»، والحديث في صحيح مسلم،

إذن العباد قد يؤذون الله، ومن ذلك سب الدهر لأنه في حقيقته راجعٌ إلى من يدبره ويقلبه وهو الله جل وعلا أما الضرر فإنه لا يكون في حقه ﷻ.

السب: هو الشتمُ، والعيبُ، والتنقيص، وهو درجات متفاوتة ولكل درجة حكمها

والدهرُ يطلق على الصحيح على أمرين:

أولًا: يطلق الدهر على الأبد.

الثاني: هو عمر الزمان أو الوقت الطويل
إذن عمر الدنيا يعني من مبدئها إلى منتهاها هذا يسمى ماذا الدهر يعني يطلق على الزمان الطويل
ويدل على هذا قول الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[الإنسان:1].
قالَ النبي ﷺ:«**لو أحسنت إلى أحداهن الدهر ثم رأت منك ما تكره قالت:ما رأيت منك خيرا قط**»

ويطلق أيضا على المدة من الزمان، لكن العرب لا يستعملون ذلك إلا فيما طال فيه الوقت، ما قصر لا يستعمل في حقه لأنه دهر، فإنهم يقولون مثلًا: نزلنا ها هانا دهرًا، والمراد وقتًا طويلًا،

وهذا هو المقصود بعقد هذا الباب؛ وهذا ما هو يتعلق بالزمن سواء تعلق بعمر الدنيا أو تعلق بالمدة المعينة من هذا الزمن فإن ذلك كله داخل في معنى الدهر، والباب على كل حال يشمل المدة الطويلة والقصيرة، وأنه لو سب الإنسان ساعة أو يومًا فإنه داخل في حكم هذا الباب الذي نتحدث عنه،

وفي الجملة ما يرجع إلى هذا الموضوع من حيث الحكم يمكن أن يقسم إلى عدة أقسام:

➢ **أولًا: أنه يسبُ الدهر على أنه الفاعل المؤثر المدبر،وهو الذي يفعل وهو الذي يؤثر.**
وهذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

➢ **ثانيًا: أن يسب الدهر والمراد من يدبره وهو الله جل وعلا**
هو يستحضر أن ما يقع عليه من الشدائد والمحن التي كرهها، ويريد به من فعل ذلك وهو الله جل وعلا
ولا شك أن سب الله جل وعلا كفرٌ باتفاق المسلمين، وهذا معلوم من الدين بالضرورة.

➢ **ثالثًا: سبُ الدهر باعتباره ظرفًا ووعاءً حصل فيه ما يكره الإنسان.**
وهذا الذي يقع من كثير من الناس، لا يريد من دبره، ولا يريد أنه يتصرف ويدبر بنفسه، إنما سبه لأنه زمانًا وقع عليه فيه ما يكره. **فهذا محرمٌ وليس بشرك.**

➢ **الرابع: الإخبار المحض بشدة في الزمن بحيث لا يدل الكلام على عيب، وتنقيص، وسب أو على لوم، وقدح في القدر.** **فإن هذا ليس فيه شيء هذا قدرٌ جائز**

فإذا أخبر الإنسان عن شدة في الزمان فقال: كان ذلك اليوم علي شديدًا، وهذا قد جاء في كتاب الله ﷻ ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾[فصلت:16]، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:19]، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود:77]، كذلك قال سبحانه: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[يوسف:48].

حالان يكون الحكم فيهما الشرك والكفر، وحالٌ الحكم فيها التحريم، ورابعةٌ يكون الحكم فيها الجواز،

وهذا الموضوع من الموضوعات التي ينبغي التنبه لشأنها لكثرة الخطأ، مراعاة الأدب مع الله ﷻ تقضي أن يتحفظ الإنسان في كلامه لأنه قد يقول قولًا يعود حكمه إلى ربنا ﷻ يعني يلزم من هذا الكلام أن تعود المسبة أو يعود القدحُ إلى ربنا ﷻ ولا شك أن هذا من نقص التوحيد،ومن ضعف الإيمان بالله ﷻ.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:24]. الآية.

في هذه الآية أخبر الله ﷻ عن أمرين يعتقدهما طائفة من المشركين:

الأمرالأول: **هو نفي البعث،لاواعتقاد أن لا بعث، ولا حشر، ولا جزاء.**

وهذا معتقد عامة المشركين.ودل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ بل أعظم ما أنكره المشركون مما جاء به النبي ﷺ بعد التوحيد هو أمر البعث. قال ﷻ عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[النحل:38]، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:10]. إذن كان القوم يتشددون جدا في نفي وإنكار البعث

الأمر الثاني: هو قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾

هذا البيان من الله ﷻ عن حال هذه الطائفة من المشركين فيه إشارة إلى معتقد الدهرية من المشركين.

الدهرية هم القائلون بقول: بقِدَم العالم، ونفي الصانع ﷻ يسمى هؤلاء بالدهرية؛

وهذا كان معتقد طائفة من المشركين من الفلاسفة وأطرافهم،

- قالوا عن هؤلاء إنهم الدَّهرية،
- وبعض الناس يقولون أنهم الدُّهرية بضم الدال وهو نسبةٌ سماعيةٌ عند هؤلاء على غير قياس،

الدُّهرية: فجمع الدهري: الذي طعن الكبير في السن، الكبير في السن الذي مضى عليه دهرٌ طويل يقال في حقه أو يوصف بأنه دُهري،

- **والأقرب والله أعلم** أن القول بالدهر يسمى أهله (دَهرية).

مهما يكن من شيء سواء كان اللفظ دهري أو دُهري فإن هؤلاء هم القائلون بقدم العالم ونفي الصانع.

وهم طوائف، ولهم أقوال شتى:

☐ من هؤلاء من كان يعتقد بثبوت الخالق ﷻ لكنهم يسندون التأثير، والتدبير في الإحياء، والإماتة وجميع ما يكون في هذا الكون، ينسبون ذلك كله إلى الكواكب وحركات الأفلاك.

☐ طائفة أخرى تعتقد بأن الله جل وعلا خلق هذا الكون بما فيه، لكنه فَنِيَ بعد ذلك، فتعالى الله على قولهم– فأصبح هذا الكون يسير نفسه ويدبر نفسه.

☐ قول الذين ينفون وجود الله ﷻ بالكلية، هؤلاء قولهم يضارع قول ملاحدة هذا الزمان.

كل أولئك يسمون عند أهل العلم الدهرية، وهو لفظ مولَّدٌ، على كل حال.

فهؤلاء لاشك أنهم مشركون، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ دالٌ على ثبوت هذا المعتقد.

وشركهم راجع إلى **توحيد الربوبية**، كما أنهم أضافوا إلى هذا الشرك في **توحيد الألوهية**

ولا شك أن هذا المعتقد كان له أثر في كثير من أهل الجاهلية، وإلا لم يكونوا قائلين بالقول الذي قاله الدهرية بتمامه، إنما كان لهم قولٌ في غيره، ولذلك إذا تصفحت كثير من كلام أهل الجاهلية في أشعارهم وفي خطبهم وفي غير ذلك تجد أنهم يجعلون شيئًا من التأثير للدهر وللأيام وللزمان، تجد أنهم يقولون: (عبثت به يد الدهر)، (وفعل به الدهر كذا وكذا)، وهذا كله من فروع معتقدِ أولئك الدهرية.

۞ لماذا أورد المؤلف رحمه الله هذه الآية في هذا الباب،الآية فيها أثبات التأثير، وهذا إلى جانب التعظيم أقرب منه إلى جانب السب، إذن لماذا أورد المؤلف رحمه الله هذه الآية؟

والجواب: أن إيراد المؤلف رحمه الله لهذا الآية لفقه، وذلك لأن هذه الآية مقدمة مُمهدةٌ لِفهم الحديث الذي سيأتي بعدها، ما يتعلق بسب الدهر، إلا لوجود اعتقاد التأثير من الدهر بما يكون، فلأجل هذا سب الدهر،

إذن سبهم للدهر قد يكون راجعًا إلى اعتقاد تأثير الدهر،وهو ما دل عليه هذه الآية التي معنا والله أعلم.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: قال اللهُ تعالى: «يُؤْذِيني ابنُ آدمَ، يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ، أُقَلِّبُ الليلَ والنهارَ»، وفي رواية «لا تسبوا الدهرَ، فإن اللهَ هو الدهرُ».

هذا الحديث نسبه المؤلف رحمه الله إلى الصحيح والمراد جنس الصحيح والحديث في الصحيحين بروايات متعددة كما جاء في غير الصحيحين وهذا الحديث أورده المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة بصيغتين:

- **صيغة الحديث القدسي**:وهذه الرواية

وفيه إثبات الأذية في حق الله ﷻ بسب الدهر«يؤذيني ابن آدم»

وهذا ما جعله المؤلف رحمه الله في تبويبه نتيجة لسب الدهر.

- **وصيغة حديثٍ نبوي** وهو قول النبي ﷺ: **«لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».**

قال تعالى **«يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ أقلب الليل والنهار»**، معنى هذا الحديث إخبار الله ﷻ عن أنه يؤذيه ابن آدم ذاك الذي يسب الدهر، ويسب الزمان، و الوقت،لأنه ناله فيه ما يكره،

هذا السب للدهر هو في حقيقته ليس راجعًا إلى الوقت لأن الوقت ظرف وعاءٌ، عرضٌ ليس منه تصرف وليس منه تأثير،

إنما عاد السب في الحقيقة إلى من أوقع هذه الأشياء وقدرها، إلى الفاعل الحقيقي وهو الله ﷻ

ولا شك أن هذا من المنكر العظيم الذي وقع فيه طوائف من الناس قديمًا وحديثًا.

هذا كمثلِ رجلٌ حكم عليه قاضٍ بما يكره، فقال: لعنة الله على من قضى بهذا القضاء. وكان الواقع أن هذا كان قضاء النبي ﷺ والقاضي الذي حكم ما هو إلا مبلغ لقضاء النبي ﷺ، فكان الأمرُ في حقيقة الحال عود اللعن على الذي قضى بهذا، وهو رسول الله ﷺ، والقائل بذلك لا يقصد ذلك ولا يريده، لكن هذه هي الحقيقة.

إذا كان ذلك كذلك في هذا المثل، مع أن القاضي كان له نوع تأثيرٍ وهو الإبلا غ، فكيف بالزمن والوقت الذي ليس له أي تأثيرٌ على الإطلاق؟ إذن عاد السب لهذا السب للزمن في حقيقته إلى من تصرف وقدر، وأمر أمرًا كونيًا بوقوع المصاعب والشدائد.

إذن معنى قول النبي ﷺ: «**وأنا الدهر**» **يعني أنا مدبر الدهر**، ليس هذا من التأويل في شيء، هذا كلامٌ مفسر، فسره من تكلم به وهو الله ﷻ، أخبر أنه الدهر، لأن هذا هو اللفظ الذي يريده ويعنيه هؤلاء المشركون عن سب الدهر لوقوع المحنة فيه؛ فأراد الله جل وعلا أن يبين لهم أن السب عائدٌ إليه، لأنه هو الذي دبر هذا الدهر، وقلب هذا الدهر، وهو الذي تصرف في هذا الدهر.

الله جل وعلا من حكمته قد يوقع ما يشاء من المصائب في هذه الدنيا لحكمة يعلمها ﷻ،

ومن الحكم التي جعل الله ﷻ تحضير هذه المحن راجعًا إليها:

هو أن يحصل للعباد تذكرٌ وتفكرٌ، وعودة إليه ﷻ وتوبة، وأوبة، قال سبحانه:

﴿**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ**﴾؛ **يعني**: بالنعم، ﴿**وَالسَّيِّئَاتِ**﴾؛ **يعني**: الشدائد

﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[الأعراف:168]؛ يرجعون إلى الله يرجعون عن غيهم إلى سبيل الرشد.

إذن كان الواجب أن يراعى مقام الأدب مع الله ﷻ، وأن يبادر الإنسان بالتوبة إلى الله حتى يرفع الله ﷻ هذا البلاء عمن أصابه.وهذا كما ذكرت شائعٌ واقعٌ في عالم الناس، في القديم والحديث إلا من رحم الله،

۞ بقيت عندنا مسألة يتطرق إليها أهل العلم في هذا المقام وهي مسألة تسمية الله ﷻ بالدهر:

فإن طائفة من أهل العلم ذهبوا إلى أن من أسماء الله جل وعلا الدهر،

وهذا ما ذهب إليه نعيمٌ بن حماد الخزاعي رحمه الله ابن حزم وطائفة من أهل العلم،رحمة الله على الجميع

والصحيح الذي عليه جماهير أهل العلم أن الله جل وعلا لا يسمى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ والدهر ليس من هذه الأسماء.**الأسماء توقفيه، والدهر ليس منها.**

۞ **لكن هؤلاء قالوا دليلنا على ذلك** قول الله جل وعلا: «**وأنا الدهر**»، وكذلك قول النبي: ﷺ «**فإن الله هو الدهر**»، إذن هذا دليلٌ صحيح على ثبوت هذا الاسم على الله جل وعلا.

الجواب عن هذا: أن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن القراءة الصحيحة للحديث القدسي هي:

«**وأنا الدهرَ أقلب الليل والنهار**»،ليس «**أنا الدهرُ**» يعني أنا خلال هذا الزمن، أقلب الليل والنهار، **فكان الدهرُ في رواية الفتح ظرفًا** زمانٍ، وليس خبر، وهذا ما حكاه الخطابي عن أبي بكر ابن أبي داود الأصفهاني. **ولكن هذا القول ضعيف ليس بوجيه،**

فإننا إذا قلنا تسليمًا بصحة ذلك فماذا نحن فاعلون في رواية أخرى التي معنا وهي قول النبي ﷺ: «**فإن الله هو الدهرُ**»؟ إذن الصحيح أن قراءة الحديث هي: «**وأنا الدهرُ**»، «**فإن الله هو الدهرُ**».

والذي لا شك فيه أن الحديث له هذا التوجيه الذي علمناه وهو إن قول النبي ﷺ «**وأنا الدهرُ**» **يعني: وأنا مدبر الدهر، وأنا مقلب الدهر.**

۞ وأما زعمهم أن الدهر هو اسمٌ من أسماء الله ﷻ كما في هذا الحديث، فهذا مردود من عدة أوجه:

أولًا: سياق الحديث يأبى أن يكون الدهر اسم لله جل وعلا،

وذلك أن الحديث فيه أن ابن آدم يسبُ الدهر؛ والواقع أن الناس قديمًا وحديثًا لا يسبون الدهر، أي لا يسبون الله ﷻ باسم الدهر،هذا في عمومهم إلا من شذ وكفر بالله ﷻ وارتد فسب الله جل وعلا، ربما يسبُ أحدهم الله جل وعلا فيلعن الرب مثلًا تعالى الله ﷻ عما يقولون علوا كبيرا،

ثانيًا: الدهر لو كان اسمًا لله ﷻ لكان المشركون مصيبين في قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، لأن المعني حين إذن سيكون: وما يهلكنا إلا الله. وهذا عكس المراد، الآية باتفاق أهل العلم مسوقة مساق الإنكار عليهم.

ثالثا: وهو إن الدهر إذا نظرت إليه وجدته اسمًا جامدًا لا يتضمن حسنًا، فضلًا على أن يكون من أحسن الأسماء والمعاني،

ومعلوم أن الله ﷻ أسماءه حسنى بالغة في الحسن الغاية، وهذا اسمٌ ليس منها، لا يتضمن مجرد حسن فضلًا أن يكون متضمنًا لأحسن المعاني.

❁ **التنبيه**: أن الذين قالوا إن الدهر أسمٌ لله ومنهم ما قد علمت، هؤلاء لا يريدون بالدهر الزمان، الوقت، إنما يريدون بالدهر المعنى القديم الأزلي،

يقول شيخ الإسلام كما في المجلد الثاني في مجموع الفتاوى: بإجماع المسلمين لا أحد يسمي الله ﷻ بالزمان، وهذا معلومٌ بطلانه بصريح العقل كما قال رحمه الله.

ونحن نوافق على المعنى إن كان يراد به أن الله ﷻ هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الأخر الذي ليس بعده شيء، كان المراد هذا،

لكننا نقول إن هذا الاسم لا يجوز أثباته لله جل وعلا وإن كان المعنى المراد صحيحا،

☒وقد يقول قائل أن هذا الحديث يوهم أن الوقت والزمان هو الله ﷻ،

وهذا وهمٌ وتوهمٌ يوسوس به الشيطان في نفوس بعض الناس، لكن هذا باطل بالنظر إلى الحديث نفسه، وذلك أنك إذا تأملت وجدت أن المقلَّب لا يمكن أن يكون هو المقلِّب، لا يمكن أن يكون المفعول به هو الفاعل، أنت إذا نظرت وجدت النبي ﷺ يحكي عن ربه جل وعلا أنه قال: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ**» **ماذا؟** «**أقلب الليل والنهار**»، والدهر ليس إلا الليل والنهار؛ إذن الله جل وعلا يقلب هذا الدهر فكيف يكون هو الدهر؟

يعني لا يمكن أن يكون المقلِّبُ المقلَّب، ولا يكون المقلَّب هو المقلِّب، الله ﷻ هو الذي يقلب الدهر، وإنما قوله جل وعلا: «**وأنا الدهر**»، يعني أنا مدبر ومقلب الدهر، لعل هذا القدر فيه كفاية والله أعلم.

الدرس السابع و الستون – ١١٨٠ ٤٦– بابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ ونَحْوِهِ،

فهذا الباب قد عقده المؤلف رحمه الله للكلام عن حكم التسمي بقاضي القضاة ونحو هذه التسمية.

والمؤلف رحمه الله لم يرد دليلا على حكم هذه التسمية على وجه الخصوص، إنما أورد دليلا يدل على منع التسمية بملك الأملاك.

ووجه إيراده لهذا الدليل وأن هذا الحديث عن النبي ﷺ يُقاس على الحكم الذي ورد فيه، وهو منع التسمية بملك الأملاك، **يُقاس عليه ما يدور في فلك هذه التسمية**، مما فيه غاية التعاظم، ومما فيه كذب وكبر، ومنه التسمية بقاضي القضاة.

قال ابن القيم رحمه الله في (تحفة الموجود) إن هذا محض القياس، يعني إن هذا قياس صحيح، وكلامه رحمه الله وقياس المؤلف رحمه الله قياس صحيح لا شك فيه،

المقصود أن من كمال تحقيق التوحيد البعد عن التسميات التي فيها تمام الكمال وكمال التعظيم، وفيها من التعالي والتعاظم والتكبر ما فيها، فهذا التسمي فيه مشاركة لله ﷻ فيما يختص به،
فكان ذلك أمرًا ممنوعًا في الشريعة، وكان ترك ذلك من تحقيق التوحيد الواجب والله تعالى أعلم.

﴿ في الصحيحِ عن أبي هُريرةَ ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِندَ اللهِ ﷻ،رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ، لا مالكَ إلا اللهُ»، قال سفيانُ:مِثْلُ شاهَانْ شَاهْ

في الصحيحِ: يعني في الصحيحين، والحديث جاء في الصحيحين بروايات وكذلك جاء في غيرهما،

أخنع: بمعنى أوضع و أذل.الخانع: هو الذليل الصاغر،

فأخنع وأذل وأحقر اسم عند الله جل وعلا هو ملك الأملاك، ومن تسمى بذلك لا شك أنه سيكون ذليلا عند الله، يعني إذا كان هذا الاسم ذليلا عند الله، فمن تسمى به فإنه سيكون كذلك عند الله جل وعلا يوم القيامة، ولربما عاجله الله بشيء من ذلك في الدنيا،

التسمي بملك الأملاك أمر ذليل، أراد صاحبه التعاظم والتعالي والتكبر، فعامله الله بنقيض مقصوده، فكان ذليلا عنده يوم القيامة، وربما ناله شيء من إثم هذا الذنب في الدنيا قبل الآخرة.

تسمَّى ملك الأملاك: **تسمى** يعني سمَّى نفسه،

كذلك الحكم إذا سُمّيَ فَرَضِي، إذا سماه غيره فرضي، يدل عليه رواية مسلم، وقد أشار إليها المؤلف.

ملك الأملاك: **الأملاك**: جمع ملك ، كملوك ملك يجمع على أملاك ويجمع على ملوك.

والله جل وعلا هو ملك الملوك، ومالك الممالك، هو الملك الحق ﷻ،

قال النبي ﷺ في تمام الحديث **«لا مالك إلا الله»**، الحديث في شطره الأول كان فيه لفظ الملك، وفي شطره الثاني كان فيه لفظ المالِك، فالمالِك من المِلك، والمِلك من المُلك،

والفرق بين الملك والمالك كما قرره ابن القيم رحمه الله في (بدائع الفوائد)

- أن المالك يتصرف بفعله،
- وأما الملك فيتصرف بفعله وأمره، والله جل وعلا هو الملك وهو المالك تبارك وتعالى.

عند مسلم روايتان:

- لا ملِك إلا الله،
- ولا مالك إلا الله،

بعض أهل العلم ذكر أن رواية (لا ملِك إلا الله): لعلها (لامالك إلا الله)، فتكون طريقة رسمها بوضع ألف صغيرة عند اللام بعد الميم، يعني (لا مالك إلا الله)، وهذا وإن كان أمرا محتملًا إلا أنه لا حاجة إليه، فالأمران ثابتان لله ﷻ فهو الملك وهو المالك جل وعلا، وعلى ذلك جاءت القراءتان المتواترتان في سورة الفاتحة، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:4]، و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

المقصود أن المالك الحقيقي والملك الحقيقي إنما هو لله تبارك وتعالى، وأما ما سواه من المخلوقين فإن المالك والملك في حقهم إضافي ناقص، أما المالك والمِلك الحقيقي الكامل فإنه لله جل وعلا، فالله له ما في السماوات والأرض، هو المالك لذلك على الحقيقة، كذلك هو الملك على الحقيقة ﷻ،

ولذلك فإنه تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة: **«لمن الملك اليوم؟»** ثم يجيب نفسه قائلاً: **«لله الواحد القهار»**، فالله جل وعلا له الملك وهو الذي يعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء تبارك وتعالى.

۞ **إذن هذا الذي تسمَى بملك الأملاك قد وقع:**

أولًا: في كذب عظيم،

ثانيًا: قد وقع في كبرٍ وتعاظم ليس أهلا له ولا يستحقه،

وكان بهذا مشاركًا لله ﷻ فيما يختص به، وبالتالي فإنه يكون قد وقع في هذا الذنب العظيم، وهو أنه قد تسمى بأخنع وأذل وأخنى اسم لله تبارك وتعالى.

۞ **والذي يستفاد من هذا الحديث: أن كل اسم كان فيه أحد أمرين:**

الأول: أن يكون فيه تعظيمٌ مبالغٌ فيه، أو

الثاني: أن يكون الاسم متضمنًا تكبرًا وتعاليًا على الخلق،

فإن ذلك مما يُنهى عنه ويكون محرمًا شديد التحريم، بالتالي فالأمر لا يقتصر على هذا الاسم فحسب، بل كل ما كان في معناه ويجرى مجراه فإن له الحكم نفسه.

ومن ذلك سلطان السلاطين، و أحكم الحاكمين و الله جل وعلا هو أحكم الحاكمين

أيضًا ما بوَب عليه المؤلف رحمه الله وهو قولهم قاضي القضاة، وأخبث منه قولهم أقضى القضاة،

فهذان اللفظان القياس الصحيح من هذا الحديث يقتضي المنع من هذه التسمية، فلا يجوز أن يُسمى أحدهم قاضي القضاة، وهذه التسمية قد وقعت في كثير من البلدان وكثير من الأزمنة، وكانت منتشرة عند البلاد المشرقية.

أما البلاد المغربية فإنها كانت في عافية من هذه التسمية، كان يُسمى كبير القضاة، قاضي الجماعة، أما عند المشرقيين فكثر فيهم التسمية بقاضي القضاة.

ولا شك أن التسمية بقاضي القضاة أسهل وأخف من التسمية بملك الملوك أو ملك الأملاك، لكنها أيضًا ممنوعةٌ قياسًا على المنع الذي جاء في هذا الحديث، لما في ذلك من دلالة هذا الاسم على تعاظمٍ وتكبرٍ لا يليق بالمخلوق،فإن قاضي القضاة هو الذي يحكم ولا معقب لحكمه، و هو خير الفاصلين ﷻ.

والأقوال في التسمية بقاضي القضاة ثلاثة: التحريم والكراهة والإباحة،

- والصحيح إن شاء الله القول بالمنع والتحريم وهو اختيار جماعة من أهل العلم، وهو الذي اختاره المؤلف كما ترى وبوَب عليه هذا الباب،
- أما الذين أباحوا هذه التسمية فإنهم استدلوا بقول النبي ﷺ: «**وأقضاهم علي**».

هذا الحديث عند ابن ماجة وغيره واختُلف فيه،والأقرب والله تعالى أعلم أنه صحيحٌ موصول.

وفيه أن النبي ﷺ قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأعظمهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي**» **قالوا هذا دليلٌ على جواز التسمية بقاضي القضاة.**

والذي يظهر والله أعلم أن هذا الاستدلال فيه نظر، فشتان بين اللفظين،

(أقضى القضاة أو قاضي القضاة)، وبين لفظ (أقضاهم علي)،

- فإن لفظ قاضي القضاة فيه عموم، وأن الجمع المحلى بـ (أل) يفيد العموم، فهو قاضي عموم القضاة،
- وأما أقضاهم علي فإن هذا التفضيل محصور في فئة معينة وهم أصحاب النبي ﷺ، فهو أحسنهم وأعلمهم بالقضاء وهذا لا إشكال فيه ولا حرج فيه.

✸ **ونستفيد منه:** أن التفضيل إذا تعلق بفئة معينة أو مكان مخصوص فإن هذا لا حرج فيه، بمعنى إذا قيل فلان قاضي المدينة، أو قاضي قضاة المملكة، ولو قيل فيه إنه رئيس أو كبير القضاة فإن هذا أبلغ وأحوط وأولى والله تعالى أعلم.

قال سفيان: مثل شاهان شاه.

سفيان: هو ابن عيينة،

مثل شاهان شاه: شاهان شاه: لفظ فارسي ومعناه ملك الملوك أو سلطان السلاطين،

وعادة أهل هذه اللغة أنهم يقدمون المضاف إليه على المضاف، فشاه ملك وشاهان ملوك،

كذلك غير هذا اللفظ كمثل لفظ الإخشيد، الإخشيد في لغة أهل فرغانة بمعنى ملك الملوك أيضًا،

ومراد سفيان رحمه الله التنبيه على أن المنع لا يختص بهذا اللفظ، بل كل ما اتصل به في المعنى، ووُجد فيه ما وُجد في لفظ ملك الأملاك من هذا التعالي والتعاظم والتكبر والكذب فإنه يأخذ حكمه أيضًا.

وفي رواية: أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يومَ القيامةِ وأَخْبَثُهُ.

هذه الرواية عند مسلم، أغيظ رجل على الله وأخبثه وأغيظه على الله، يعني عاد لفظ **(أغيظه)** أيضًا في رواية مسلم، والمؤلف رحمه الله ما ذكر هذا اللفظ، عاد فقال: **(وأغيظه على الله)**.

والألفاظ الواردة في هذا الحديث إذا جمعتها في كتب السنة يتلخص منها أن النبي ﷺ قال في هذا اللفظ

- إنه أخنع لفظ
- وإنه أخبث لفظ
- وإنه أخنى لفظ يعني أفحش،
- كذلك جاء إنه أغيظ
- كذلك جاء إنه أكره، **هذه خمسة ألفاظ جاءت عن النبي ﷺ في هذا الحديث،**

وكلها تتوارد على تأكيد المنع وتشديد التحريم على التسمي بهذا اللفظ، ويعجب الإنسان من وقوع الخلاف في التسمي بمثل هذه التسمية مع ثبوت هذا الحديث الصحيح الصريح في المنع من ذلك.

ذكر ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ٤٢٩ أن أحد ملوك بني بويه تسمى بشاهن شاه الأعظم ملك الملوك، فوقع شيء من الإشكال عند العامة فاستُفتي الفقهاء، فأفتى بعض الفقهاء بجواز ذلك، وأن هذا يمكن أن يُحمل بأنه ملك ملوك الأرض ومثل هذا لا بأس به، وذكر أن من أهل العلم من منع ذلك وتشدد فيه ومنهم الماوردي الشافعي رحمه الله، ثم عقّب على ذلك بأنه الصحيح لثبوت الحديث في ذلك.

والمقصود أن نهى النبي ﷺ نهيٌ عام ليس فيه تفصيل، ليس فيه أنه إذا أُريد ملك ملوك الأرض فإنه يجوز، على أن هذا اللفظ في نفسه كذب لا يمكن لأحد أن يكون ملكًا لملوك أهل الأرض جميعًا فالمنع من ذلك هو الصحيح الذي لا شك فيه لثبوت هذا المنع في حديث النبي ﷺ والله تعالى أعلم.

قوله « أخنى يعني أوضع» ، والإمام أحمد رحمه الله عقب إخراجه هذا الحديث المسند ذكر أنه سأل أبا عمرٍ الشيباني عن قوله أخنع :فقال أوضع.

٤٧-بابُ احْتِرامِ أسماءُ اللهِ تعالى وتَغْييرِ الاِسْمِ لأَجَلِ ذلكَ.

هذا بابٌ ثانٍ قريبٌ في الحكمة التي يرمى المؤلف رحمه الله إليها من خلاله من الباب الماضي، وهو ضرورة مراعاة الألفاظ والتصوُن في الإطلاق الذي يوهم الباطل ويوهم ما لا يجوز.

احترام أسماء الله: يعني تعظيمها، وتعظيم أسماء الله من تعظيم الله.
وتعظيم الله يقتضي ألا يُسمى بذلك ابتداءً، ألا يُسمى بأي اسم يتنافى تعظيم أسمائه ﷻ، ولكن إن وقع فإن تعظيم الله ﷻ وتعظيم أسمائه يقتضي تغيير الأسماء لغير ذلك يعني لأجل تعظيم أسماء الله.

ووجه المناسبة بين إيراد هذا المؤلف وكتاب (التوحيد) هو أن تغيير الأسماء لأجل تعظيم ربنا ﷻ لا شك أن ذلك من تحقيق التوحيد ومن كمال الأدب مع الله ﷻ.

فالله ﷻ هو العظيم والله هو المستحق للتعظيم وكلامه يجب تعظيمه وأسمائه يجب تعظيمها وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، ولا يخالف في ذلك أحد من العقلاء أنه يجب أنه يُعظَم الله وأن يُعظَم كلامه وأن تُعظَم أسمائه وصفاته ﷻ.

﴿ عن أبي شُرَيحٍ أنهُ كانَ يُكنى أبا الحَكَمِ، قال له النبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هو الحكمُ وإليهِ الحُكْمُ، فقال إنَّ قوميِ إذا اخْتَلفُوا في شيءٍ أَتَونى فَحَكَمْتُ بينَهم فرضيَ كلا الفَريقَينِ، فقال، ما أحْسَنَ هذا، فمالكَ مِن الوَلدِ؟ قُلتُ شُريحٌ ومُسلمٌ وعبد اللهِ، قال فَمَن أكبرهُم، قلت شُريحٌ، قال: فأنت أبو شُريحٍ» رواه أبو داوود وغيره.

هذا حديث جيد صحيح جوَد إسناده ابن مفلح، وصححه الشيخ الألباني وغيرهما من أهل العلم، وفيه أن أبا شُريح واسمه هانئُ ابن يزيد، قيل الكندي وقيل الخزاعي وقيل غير ذلك، صحابي جليل ،وَفَدَ على النبي ﷺ مع قومه، فسمع النبي ﷺ أصحابه يكنونه بأبي الحكم، يكنونه ويُكْنَى أفصح من يُكنَّى، كانوا يكنونه أبا الحكم، فدعاه النبي ﷺ وقال: **«إن الله هو الحَكم وإليه الحُكم»**.

« هوالحَكم ». **وهذا الحديث يدل على أن من أسماء الله جل وعلا الحكم**، ويدل عليه قوله تعالى:
﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:114]،

والله أعلم أن الحَكم أبلغ من الحاكم، واختُلف في الفرق بين اللفظين:

➢ فقيل إن الحَكم: هو الذي لا يُرد حكمه بخلاف الحاكم.

➢ وقيل إن الحَكم: الذي يتخصص في الحكم، يعني الذي يحكم باستمرار ويُقصد في الحكم دائماً،
والحاكم: هو الذي يحكم مرةً أو مرتين أو نحو ذلك فهذا ، ذكر هذا الراغب في المفردات،

➢وقيل إن الحَكم: **هو الذي يحكم بالحق،**
وأما الحاكم: **فهو الذي يحكم بالحق وبغيره.**

«وإليه الحُكم» **الحُكم لله جل وعلا،** ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾الأنعام ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾القصص:

۞ وحكم الله سبحانه نوعان: **حكم شرعي وحكم كوني،**
قد يجتمع الحكمان وقد يوجد الحكم الكوني دون الشرعي وقد يوجد الحكم الشرعي دون الكوني،

فلما قال هذا، النبي ﷺ قال: (**فلِمَ كُنيت بأبي الحكم؟**) وهذا من لفظ الحديث عند أبي داوود والنسائي
وغيره ولكن المؤلف رحمه الله لم يُرد ذلك في هذا الحديث،

والكنية. في اللغة **هي ما صُدر بِأبٍ أو أم،** يقال له كنية.
وهذا مما تميز به العرب عن غيرهم من الأمم، والكنية الأصل فيها أن يُراد التكريم والتمليح.

وقال بعض السلف في قول الله ﷻ: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾[طه:44]، يعني كنِّياه،
يعني اذكر يا موسى ويا هارون له كنيته، المقصود أن التكنية من تكريم الإنسان،
أن يُكنى سواءً كان له ابن أو لم يكن له ابن، حتى الصغار فإنهم لا حرج ولابأس أن تكون لهم كنية،
ويمكن للإنسان أن يتكنى بابنه
ويمكن أن يتكنى بغير ابنه أيضًا، فهذا أبوبكر وهذا أبو حفص وهذا أبو ذر وغيرهم من أصحاب النبي
ﷺ تكنوا بغير أسماء أبنائهم،
ويمكن أن يكنى الإنسان بشيء يلابسه أو يكون له به صلة بأي وجه من الوجوه، ومن ذلك أبو هريرة،
ومن ذلك كنية النبي ﷺ، أو تكنية النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه بأبي تراب.

«فقال، ما أحْسَنَ هذا»

ما هو الذي حسَّنه النبي ﷺ ؟ أهو الحكم أم الكنية؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن النبي ﷺ حسَّن فعله وهو الحكم والإصلاح ودرأ الخلاف بين الناس، والذي يظهر أيضًا أن هذا الذي كان يحكم به أبو شريح رضي الله عنه إنما هو حكم الإسلام، وأن هذا كان منه بعد الإسلام، وليس أنه كان يحكم بأحكام الجاهلية، قال الشارح الحفيد الشيخ سليمان رحمه الله في (التيسير): لا يبدو بأن النبي ﷺ حسَّن الحكم بأحكام الجاهلية وهذا ظاهر لا لبس فيه بحمد الله.

ثم سأله «فمالكَ مِن الوَلدِ؟» **فأجابه** بأن عنده «شُريحٌ ومُسلمٌ وعبد اللهِ»، والظاهر والله أعلم أنه ليس عنده إلا هؤلاء،

« قال فَمَن أكبرهُم، قلت شُريحٌ، قال: فأنت أبو شُريحٍ» **فكناه النبي ﷺ بأبي شريح**، وذلك أن، الأكبر هو الأولى بالتكريم، **وهذا يفاد منه** بأن الإنسان إذا أراد أن يتكنى بأبنائه فالأولى أن يقدم الأكبر منهم، وإن تكنى بغير ذلك جاز والحمد لله.

وكون النبي ﷺ يسأل أبا شريح عن أكبرهم فيه فائدة أصولية لغوية وهي:

أن الواو لا تقتضي الترتيب، لأن الواو لو كانت تقتضي الترتيب لما سأله النبي ﷺ عن أكبرهم، فلما سأله عن أكبرهم دل هذا على أن الواو لا تقتضي الترتيب والله تعالى أعلم.

ثم في ختام الحديث كما في بعض روايات الحديث أن أبا شريح لما هم وكذلك قومه للرجوع، سأل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة أجابه النبي ﷺ بأنه: «لين الكلام، وبذل السلام وإطعام الطعام»، فمن أراد الجنة فعليه بوصية النبي ﷺ.

المقصود أن الحديث دل على أن من احترام أسماء الله جل وعلا تغيير الأسماء لأجل هذا الاحترام والتعظيم، ۞ **وهذا الموضع فيه إشكال ويحتاج إلى حل وهو لمَ النبي ﷺ غير هذه التسمية؟**

قال بعض أهل العلم لأن الحَكم من أسماء الله ولا يجوز التسمي بأسماء الله،

أسماء الله جل وعلا منها ما يجوز التسمي به ومنها ما لا يجوز التسمي به.

والضابط في ذلك النظر في الاسم وما يدل عليه من المعنى

فما كان من الأسماء معناه لا يصح أن يطلق إلا على الله لم يجز للمخلوق أن يتسمى به، من ذلك اسمه تعالى العظيم، الله، ومن ذلك الرحمن، ومن ذلك الخالق والخلّاق والمهيمن والأحد والصمد والقيوم والأول والآخر، إلى غير ذلك.

أما ما كان من الأسماء معناه يدل على معنى كلي يتفاوت أفراده فإنه يجوز أن يطلق على الخالق ويجوز أن يطلق على المخلوق ولكل ما يليق به.

دل على هذا أن الله ﷻ تسمى بالسميع البصير، قال سبحانه: ﴿**فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[الإنسان:2]، **حتى إذا أضيفت الألف واللام لا حرج** ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ**﴾[يوسف:51]، فالعزة معنى كلي يتفاوت أفراده، فلله ﷻ عزة تليق به وتختص به، وللمخلوق عزة تليق به وتختص به.

نأتي الآن إلى اسم الحكم هل هو مما يصح أن يطلق على المخلوق أو لا يصح ؟

نظرنا فوجدنا أن الله ﷻ قال: ﴿**فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا**﴾[النساء:35]، نجد أن هذه الآية فيها إطلاق الحكم على المخلوق، فدل هذا على أن تخريج فعل النبي ﷺ على هذا الأمر وهو المنع مما تسمى من التسمية بأسماء الله لا يصح،لأن الله ﷻ بين في كتابه صحة إطلاق هذا اللفظ على المخلوق.

قال بعض أهل العلم إن كون هذا الاسم جاء في كتاب الله، كذلك في سنة النبي ﷺ الإقرارية أو التقريرية، فابن الأثير في أسد الغابة أورد من أصحاب النبي ﷺ من اسمه الحكم، أورد ثلاثة وعشرين منهم كلهم اسمه الحكم، والنبي ﷺ يبعد أن يكون غير مطلع على هذه الأسماء.

قال بعض أهل العلم لعل النبي ﷺ إنما كان ذلك منه لأن النظر إلى الكنية وليس إلى الاسم، لأن أبا شريح كانت كنيته أبا الحكم، وهذه الكنية قد توهم معنًى باطلًا وهو ثبوت المولودية في حق الله ﷻ، أي أن يكون له أب تعالى الله عن ذلك، ولكن هذا أيضًا بعيد، وذلك لأن من أصحاب النبي ﷺ من كانت كنيته أبا الحكم وما غَيَّرَ ذلك النبي ﷺ.

والذي يظهر أن هذا الحديث يدل على أن الأولى والأكمل والأفضل والأحسن ترك التكني بهذه الكنية، وأما فعل الصحابة والذي يظهر لنا من إقرار النبي ﷺ على ذلك فإنه دليل على الجواز والله تعالى أعلم.

الدرس الثامن و الستون - ١١٩٨

٤٨- بابُ مَن هَزَلَ بِشَيءٍ فيهِ ذِكرُ اللهِ أوِ القرآنِ أَوِ الرسولِ (المجلس الأول).

إن دين الله سبحانه مبناه على تعظيم الله جل وعلا وإجلاله وإكرامه، فإنه سبحانه ذو الجلال والإكرام المستحق بأن يُجله عباده، ويكرموه في عبادته وتوحيده والتذلل له تبارك وتعالى، وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، أنه يجب تعظيم الله سبحانه وتعالى، وأن يجب إجلاله

قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح:13]، قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغيرهم من السلف: **أي عِظَم**، مالكم لا تعظمون الله،

وقال سبحانه في سياق الإنكار على المشركين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الأنعام:91]، فالله جل وعلا أهل أن يعظم وأن يُجل تبارك وتعالى بأقصى ما يكون من الإجلال والتعظيم.

وهذا درج المسلمون على أنهم يعظمون الله سبحانه وتعالى بل أنهم يراعون الأدب مع الله عز وجل في أمور دقيقة، قال عون بن عبدالله رحمه الله: ليعظم أحدكم ربه أن يذكره في كل كلامه حتى يقول أخذ الله الكلب وفعل به كذا وكذا، يرى رحمه الله أن من الأدب ألا يذكر هذا الاسم العظيم في هذا المقام، المقام الذي يذكر فيه الكلب، وكذلك الأمر في حق النبي صلى الله عليه وسلم واجب تعظيمه التعظيم الشرعي، ويجب تعزيره صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:9].

وقد أجمع المسلمون قاطبة على أن من خالف موجب التعظيم، فنال مقام الإلهية أو الربوبية، أو مقام الرسالة بشيء من الانتقاص، سواء ما كان هذا سبًا أو استهزاءً، فإنه كافر بالله العظيم سبحانه وتعالى.

كل من سب الله أو شتمه أو سخر بالله أو بشيء من أسماءه وصفاته، أو بشيء من سنة النبي صلى الله عليه وسلم أو بذاته، أو بشيء من أحاديثه، أو بشيء من أحكامه، أو بشيء من أمور الآخرة، أو بملك من الملائكة، أو بأحد من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، بل حتى من سخر من المؤمنين لأجل إيمانهم، أن هذا كافر بالله جل وعلا، فإن كان مسلمًا فقد ارتد، وكفره أضحى أعظم من الكفر الأصلي، ومن كان كافرًا أصليًا فإنه بهذا يزيد غلوًا في الكفر وعتوًا وتجبرًا، وينتقض عهده إن كان معاهدًا للمسلمين، هذا أمر مجمع عليه من المسلمين.

وهذا الباب الذي عقده المؤلف رحمه الله أراد به التنبيه والتذكير والتحذير في شأن مهم وعظيم يتعلق بناقض من نواقض الدين، ألا وهو ما يكون من العبد من قول أو فعل، يتضمن انتقاصًا في حق الله جل وعلا، وهذا الانتقاص يتفرع إلى السخرية والاستهزاء أو إلى السب والشتم وهذا أخبث وأشد نكارة.

والمؤلف رحمه الله في رسالته المشهورة التي جمع فيها أشهر نواقض الدين، نص في الناقض السادس على أن من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:65]، ثم ذكر في ختام هذه النواقض أن جميع هذه النواقض لا فرق فيها بين الهازل والجاد والخائف **إلا المكره**، فسب الله جل وعلا أو الاستهزاء به أو برسوله ﷺ، هذا ناقض من نواقض التوحيد، وكفر غليظ، **والأدلة على ذلك كثيرة،**

أولًا: أدلة القرآن الكريم، وأدلة القرآن يمكن أن نجعلها في قسمين:

أولًا: أدلة صريحة على أن السخرية والاستهزاء والسب، أو أي شيء يشعر بالغضِّ والاحتقار والانتقاص من جانب الربوبية والألوهية أو الرسالة أو الشريعة، أن هذا كفر بالله ﷻ مستوجب الخلود في النار.

الأول: ومن ذلك ما أورد المؤلف بعد هذه الترجمة، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة: هذا نص صريح على أن الاستهزاء بالله ورسوله ﷺ كفربالله ﷻ وأن من وقع في ذلك بعد إيمانه، فقد صار مرتدًا.

الثاني: و ما سبق هذه الآية في سورة التوبة بأربع آيات وهو قول الله جل وعلا: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾، هو أذن كلمة سخرية، ينتقصون النبي ﷺ فيقولون إنه يرخي سمعه لكل أحد، ويستمع لكل أحد، ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ثم قال بعد آية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أن من آذى رسول الله ﷺ أو افتقره أو انتقصه، بأن له النار خالدًا فيها وله العذاب الأليم والخزي العظيم، وإذا ثبت هذا في حق رسول الله ﷺ،فلأن يثبت في حق ربنا جل وعلا من باب أولى.

❋ **الثالث**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[الأحزاب:57]، وأي أذية أعظم من السخرية والاستهزاء أو السب والشتم،
وقد نص شيخ الإسلام رحمه الله على أن القرآن ما جاء فيه أن العذاب المهين قد أعد للكافرين، فدل هذا على أن من استهزأ بالله جل وعلا أو برسوله ﷺ فإنه كافر بالله.

❋ **الرابع**: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات:2]، إذا كانوا بحضرته واجب عليهم أن يغضوا أصواتهم وألا يخاطبوه المخاطبة المعتادة التي تكون فيما بينهم.
بل واجب عليهم أن يراعوا في حقه مقام الأدب والتوقير، وإلا فإن هذا مؤذهم، لإن أعمالهم تحبط وتزول، **ومعلوم أن الحبوط العام الكلي لا يكون إلا بالكفر بالله ﷻ**، فإذا كان مجرد رفع الصوت على صوت رسول الله ﷺ أو مخاطبته الخطاب الاعتيادي، أن هذا قد يوصل صاحبه إلى الكفر بالله جل وعلا، فكيف بالسب الصريح والاستهزاء والانتقاص؟ أليس أولى وأجدر بهذا الحكم؟

ثانيا: **فهي الأدلة التي دلت على أن الاستهزاء والسخرية بالرسل والمؤمنين لأجل إيمانهم،**
إنما هو شأن الكافرين لا شأن المسلمين، فمن وافقهم في شيء من ذلك كان حكمه حكمهم،

❋ **الأول**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[المطففين

❋ **الثاني**: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾[هود:38]، هؤلاء قوم نوح سخروا من نوح عليه السلام ومن المؤمنين.

❋ **الثالث**: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[المؤمنون:109-110].

❋ **الرابع**: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الأنعام:10]، **إذًا هذا الشأن إنما هو شأن الكفار، وإنما هو فعل الكفار لا فعل المسلمين.**

الدليل الثاني: سنة النبي ﷺ والأدلة في هذا عدة،

الأول: من لذلك ما خرج أبو داود والنسائي، من حديث ابن عباس رضي الله عنه (أن رجلًا أعمى كان له أم ولد تخدمه وكانت به رفيقة، كان له منها ولد، لكنها كانت تَقَعُ في النبي ﷺ، وتشتمه وينهاها ولا تنتهي، حتى إذا ما كانت ليلة، شتمت النبي ﷺ، فما كان منه إلا أن أخذ مِعْولًا يعني كالسيف الصغير، فوضعه في بطنها وضغط عليها حتى قتلها، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأخبره هذا الرجل ما كان منها، فأهدر النبي ﷺ دمها.

هذه المرأة، كانت مسلمة في السابق، فإنها بهذا تكون قد ارتدت، فكان دمها مباحًا،

وإما أن تكون كافرة أصلية فيكون كفرها قد زاد وبلغ الغاية، وانتقض عهدها بذلك.

الدليل الثاني: وهو ما جاء عند أبي داود أيضًا بإسناد جوده شيخ الإسلام في الصارم من حديث علي رضي الله عنه أن يهودية كانت تقع في النبي ﷺ، فقام رجل فخنقها حتى ماتت، فأهدر النبي ﷺ دمها.

الدليل الثالث: ما ثبت في الصحيحين، النبي ﷺ قال: **«من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»**، هذا الرجل يهوديًا كان منه أنواع من الكفر، كان يهوديًا ألَّب على المسلمين، لما هجا رسول الله ﷺ ووقع فيه، حث النبي ﷺ على قتله، فقتله محمد بن مسلمة وجماعة من الصحابة،فدل هذا على أن السخرية والنيل من رسول الله ﷺ أعظم ما يكون من الكفر، وبالتالي ينتقض عهد الكتابي به،

الدليل الرابع: وهو ما أخرج الشيخان، من حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر، فلما وضعه جاءه رجل، فقال: إن ابن خطل متلق بأستار الكعبة، فقال النبي ﷺ (اقتله)، وفي رواية مسلم اقتلوه، فقتلوه وهو متعلق بأستار الكعبة، ابن خطل كان مسلمًا فارتد، وقتل خادمًا مسلمًا كان يخدمه، وهجا النبي ﷺ، بل كان له قينتان تغنّيان بهجاء النبي ﷺ،

لاحظ هنا أن علة قتله لم تكن الردة، لأن المرتد كما هو معلوم في الشريعة يستتاب، **هذا أولًا**.

ثانيًا: كونه قتل الرجل المسلم، هذا حكمه في الشريعة، أن يسلم لأولياء القتيل وهم معروفون (بنو خزاعة)، فإن شاءوا أن يقتلوه، وإن شاءوا أن يأخذوا منه الدية، وإن شاءوا أن يعفوا، لكن النبي ﷺ أمر بقتله، مع إنه كان عائذا بالحرم، متعلق بأستار الكعبة، ما رفع سلاحًا على النبي ﷺ، فدل هذا على أن قتله مع وجود هذه الحال التي كان عليها، لأنه وقع في كفر عظيم، وهو أنه كان يهجو رسول الله ﷺ.

الدليل الثالث: فإجماع المسلين قاطبة.

في جميع كتب الفقه،تجد على أن من سب الله أو رسوله، أو استهزأ بالله أو رسوله، أو بشيء من دينه، أو ثوابه أو عقابه، فإنه يكون كافرًا حلال الدم، وأن الواجب على ولي أمر المسلمين أن يستتيبه، فإن تاب وإلا قتله،

إلا في حق النبي ﷺ الذي ذهب إليه جماعة من المحققين، كشيخ الإسلام (ابن تيمية) وغيره، أنه يقتل بلا استتابة، وهذا قول له حظ من النظر، كما بسط هذا في كتابه (الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ).

إذًا المقام، مقام عظيم، والنبي ﷺ أخبر أن الرجل ربما يتكلم بالكلمة -كلمة واحدة- لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، أخبر النبي ﷺ أن أكثر ما يورد الناس النار الفم والفرج، إذًا على المسلم الذي يريد نجاة نفسه أن يتنبه وأن يمسك عليه لسانه، فإنه والله قد يورده الموارد،

الدليل الرابع: **مستحيل، لا يجتمعان إيمان بالله وتعظيم له تبارك وتعالى مع هذه السخرية والاستهزاء أو الانتقاص، وأعظم من ذلك سب الله أو رسوله ﷺ**.

وذلك أن الإيمان مركب من أربعة أشياء: من قول القلب، وقول اللسان، ومن عمل القلب، ومن عمل الجوارح، ولاشك ولا ريب أن هذا الانتقاص والاستخفاف من جناب الربوبية والألوهية أو الشريعة منافٍ لعمل القلب قطعًا، لا يمكن أن يجتمع **عمل القلب** الذي يتضمن محبة الله وتعظيمه والخوف منه مع هذا الأمر، وربما أيضًا وهو كثير أو الغالب ألا يجتمع حتى مع قول القلب، وهو تصديقه وإيقانه إن كان يصدق بالله، وبصفاته ونعوت جلاله، وبالنبي ﷺ.

تنبيهات مهمات تتعلق بالموضوع:

➢ **أولًا: أن الضابط في السب أو الاستهزاء هو العرف،**

فما عُد في العرف سبًا أو استهزاءً، فإنه سب واستهزاء في هذا المقام،

وهذا المقام لا شك أن الأمر فيه متفاوت باختلاف الأزمنة واختلاف الأمكنة، فما عد في مكان استهزاء قد لا يعد في مكان آخر كذلك، ما عد في زمان سبًا قد لا يكون في وقت آخر سبًا، إذًا لابد من مراعاة هذا الأمر.

ليست الكلمات أو ما يرجع إلى الاستهزاء والسخرية وما إلى ذلك، ليست درجة واحدة:

- **فمنها ما هو استهزاء صريح، أو سب صريح،**

ما كان من سب صريح أو استهزاء صريح بمقتضى العرف العام المطرد، فإن هذا لا يقبل فيه الدعوى بخلافه، لو ادعى أني ما أردت، ما قصدت، لا يلتفت إلى هذا.

- **وثمة عبارات وجمل وكلمات، يتردد فيها النظر تحتمل أن تكون استهزاء وتحتمل ألا تكون كذلك**

ومثل هذا المرجح فيه النية والقصد، فمتى ما كنت النية والقصد متجهة إلى السخرية والاستهزاء كان الحكم بمقتضى ذلك، ومتى ما ادعى القائل أنه يقصد ذلك فإنه ليكون كذلك، هذا المقام يحتاج الناظر فيه أن يتريث وألا يعجل.

➢ **ثانيا: وهو من المهمات أيضًا أن من الناس من يرجع الحكم في هذا الباب إلى الاستحلال.**

فيقول من سب الله مستحلًا أو استهزأ بالنبي ﷺ مستحلًا، فإنه يكون بذلك كافرًا، إذًا مناط الحكم عند هؤلاء، وهؤلاء طائفة كبيرة من المتكلمين، ليس راجعًا إلى الاستهزاء والسخرية والسب، وإنما إلى الاستحلال.

ولاشك أن هذا تأصيل باطل، وقول مخالف لإجماع السلف الذي عليه أهل السنة والجماعة،

بل الذي عليه دلالات الكتاب والسنة، أن السب أو السخرية من حيث هي، مكفر ناقض سبب للكفر بحد ذاتها، بغض النظر عن حال القائل، لا فرق عند أهل السنة بين أن يكون الساب أو الساخر معتقد للتحريم أو مستحلًا أو ذاهلًا عن اعتقاده وفي غفلة، لا فرق عند أهل السنة والجماعة، بمجرد خروج الكلمة الآثمة من فمه يكون قد كفر بالله ﷻ

لأن هذا هو الذي دل عليه القرآن صريحًا، قال تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إذاً الحكم تعلق بالاستهزاء،

قال جل وعلا بعدها: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾لم يقل الله جل وعلا كفرتم، لأنكم استحللتم السخرية والاستهزاء بالله ورسوله وبالإيمان، فدل هذا على أن الحكم متعلق بمجرد الاستهزاء، كفرتم لأنكم استهزأتم وليس لأنكم استحللتم، **وهذا القول عند النظر باطل قطعًا**. لأننا لو افترضنا قولهم هذا فإن ما يصح حينئذ أن نقول، إن من كذب أو اغتاب فقد كفر، والمراد أنه إن استحل ذلك وهذا لا يقول به عالم، **الوعيدية كالمعاصي والكذب والغيبة والسخرية، هذه لها حكم آخر، لها حكم المعصية،**

۞ **الاستحلال ناقض مستقل،** بمعنى من اعتقد حل وجواز سب الله ﷻ فإنه يكفر ولو لم ينطق بحرف واحد في سب الله جل وعلا، فالحكم إذًا معلق بالكلام من حيث هو، بالسب من حيث هو، بالاستهزاء من حيث هو، وأما خلاف ذلك فلا شك أن هذا من أقوال أهل البدع.

هذه المسالة مخرجة عند هؤلاء على قولهم بالإرجاء، في باب الإيمان.

وذلك أن هؤلاء يحصرون الكفر في الجهل والتكذيب،

وسبب ذلك أن الإيمان عندهم هو التصديق فحسب،

إذًا إذا كان الإيمان هو التصديق والكفر ضده، كان الكفر الجهل والتكذيب، وبالتالي فإنك تجدهم يحيلون ويرجعون جميع نواقض الدين إلى هذا الأمر، وهو ما يتعلق بالتكذيب، ما يتعلق بالجهل،

لا يجعلون الكفر كما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة راجعًا إلى الأنواع الأربعة كما دل على هذا إجماع السلف **وهو أن الكفر يكون**: بالقول، ويكون بالفعل، ويكون بالاعتقاد، ويكون بالشك.

الكفر يكون بالقول: فمن سب أو استهزأ بالله ﷻ، فإنه يكفر بمجرد قوله.

ويكون بالفعل: فمن قتل نبيًا أو لطمه أو بال على مصحف أو رماه مستخفًا به، وهو يعلم أنه مصحف أو سجد لقبر أو صنم، فإنه يكفر بمجرد هذا الفعل.

كذلك بالاعتقاد: من اعتقد مشاركة غير الله ﷻ له فيما يختص به كالإحياء والإماتة أو استحقاق العبودية، فلاشك أنه يكفر بمجرد هذا الاعتقاد.

أو يكون شاكًا: كأن يشك هل النبي ﷺ نبي صادق أم لا، الأمر عنده محتمل، هذا لا شك أنه كفر به.

﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾[التوبة:74]، إذًا بمجرد الكلمة كفروا، قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[المائدة:73]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة:17]، ما قال الله تعالى : لقد كفر الذين اعتقدوا أن الله ثالث ثلاثة، إذًا الكفر كان متعلقًا بالقول،

ويكفي أن تتأمل في آية من القرآن يتضح لك المقام جليًا، وهو قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:106].

هذه الآية تتناول الكفر الظاهر بقول كفري أو بفعل كفري، **لن تتعرض للكفر الباطل،**
يعني من فعل الكفر أو قال الكفر فقد كفر، يحكم في الشريعة عليه بالكفر، ما الدليل على هذا؟
الدليل إنما استثني هذا المكره ولا إكراه على ما في القلب،
الإكراه إنما يتصور في الأمر الظاهر، يكره على أن يتكلم بكلمة الكفر، يكره على أن يفعل الكفر،
أما أن يُكره على أن يعتقد الكفر هذا لا يتصور ولا يمكن،

لا يمكن لأحد أن يكره أحدًا على أن يعتقد بوجود شريك مع الله ﷻ مثلًا، هذا لا يمكن أن يتصور، يمكن أن يكذب عليه بلسانه لكن أن يعتقد هذا بقلبه لأنه مكره هذا لا يتصور، لا إكراه على ما في القلب، وبالتالي فإن هذه الآية قد حكمت على القول والفعل إذا كان مناقضًا للدين بأنه كفر، لأن الله تعالى قال: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾، **واستثناء المكره دليل على الكفر، فإنه كافر.**

إذًا حذار يا أيها الأخوة من هذا الأمر وهو الوقوع في مأزق الإرجاء، فإن أبواب هذا المذهب مع الأسف الشديد قد كثرت فعلى الإنسان أن يضبط هذه المسائل في ضوء معتقد أهل السنة والجماعة.

➢ **ثالثا: من سب الله أو الدين –عياذًا بالله– حال الغضب، فهل هذا بهذا معذور؟**
والإجابة أن يقال: لاشك ولاريب أن من نطق بكلمة الكفر من سب وسخرية واستهزاء، سب أو سخر بشيء من دين الله وهو يعلم أنه من دين الله، أنه بمجرد هذا يكون كافرًا بالله جل وعلا،
ذلك ما كان قلم التكليف جاريًا عليه، إذا كان مكلفًا، فإنه لاشك مؤاخذًا بذلك،
وليس مجرد الغضب عذرًا له إلا في حالة واحدة وهي أن يبلغ به الغضب إلى درجة يرتفع عنها التكليف، إذا وصل إلى درجة يكون فيها كالسكران أو كالهاذي أو كالنائم يتكلم في نومه، مثل هذا قد يقال أن له عذرًا، أما ما عدا ذلك من أنواع الغضب المعدودة التي تقع في الناس، فإن هذا ليس عذرًا.
على كل مسلم أن يكون عنده غيرة على محارم الله جل وعلا وبالتالي فإنه ينهض بواجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتنبيه والتحذير.

احذر يا عبدالله من ذلك، وقم بهذا الواجب ونبه وحذر وأغلق إذا كان المقام يستحق الإغلاق، والحكمة وضع الشيء في موضعه، ووضع المدى في موضع السيف في العلا كوضع السيف في موضع المدى، ربما تقتضي المصلحة الإغلاق وربما تقتضي المصلحة لين القول، وعليك أن تضع كل في موضعه المناسب له.

الدرس التاسع و الستون – ١٢١٦

٤٨– بابُ مَن هَزَلَ بِشَيءٍ فيهِ ذِكرُ اللهِ أَوِ القرآنِ أَوِ الرسولِ (المجلس الثاني).

يقول المؤلِّف رحمه الله: **باب من هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ**، يعني أنَّ حُكمه كونه كافرًا، من فعَل هذا فهو كافِر. وهذا ناقضٌ من نواقض التوحيد.

هزَل: الهَزَلُ ضدُّه الجِد، وهو بمعنى المزاح، المراد به في هذا المقام إذا ذُكِر الهزل بكتاب الله أو بسُنَّة رسوله ﷺ فإنَّ هذا الهزل يتضمن الانتقاص والاستخفاف. وبالتالي، كان في معنى والاستهزاء والسخرية.
هذا هو الأمر العظيم الذي يرُدُّ الإنسان –عياذًا بالله– إلى الكُفر إنْ كان مُسلمًا، أو يجعله يزداد كُفرًا وغُلوًّا إنْ كان كافرًا أصليًا.

والسبُّ لا شك أنَّه أشنع من الاستهزاء. فمن هزل واستهزأ بشيءٍ من ذِكر الله، يعني كان المهزول به شيئًا من ذِكر الله ﷻ، وأعظم من ذلك أن يكون الهَزَل مُتعلِّقًا بجناب الربوبية أو بكتاب الله جلَّ وعلا الذي هو كلام الله، أو بجناب الرسالة، أو ما تفرَّع عن ذلك من أي شيءٍ يتعلَّق بالدين، أو بأمور الغيب أو الآخرة أو الملائكة أو الرُسُل، كلُّ ذلك حُكمه عند أهل العلم واحد.

- **أو الرسول: الأقرب أن (ال) هاهنا عهدية**، فهو الرسول محمد ﷺ ،وغيره في حُكمه لاشتراك غيره من الرُسُل مع النبيّ ﷺ في هذا الوَصف وهو الرسالة،
- أو تكون (ال) **هاهنا للاستغراق**، فيشمل ذلك كل رسول،

والمقصود أنَّ الحُكم واحد مهما جعلت (ال) في كلمة الرسول، فأيُّ هزلٍ بأحدٍ من رُسُل الله سُبحانه فإنَّه يُعد ناقضًا من نواقض الدين. واستدلّ المؤلِّف رحمه الله على ذلك بآية سورة التوبة:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ﴾[التوبة:65]،

ويسبق هذه الآية قوله جلَّ وعلا: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ **الأمر هاهنا أمرٌ من جهة اللفظ والمعنى هو التهديد،** ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ والخطاب مُوجه إلى النبي ﷺ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة – دخلَ حديثُ بَعضِهِم في بحضٍ–أنَّهُ قال رجُلٌ في غزوةِ تبوك:« ما رأينا مِثلَ قُرَّائنا هولاء أرغبَ بُطونًا،ولا أكْذَبَ السُنًا،ولا أجْبَنَ عند اللِّقاءِ» يعني الرسُولَ ﷺ و أصحابهُ القرَّاءَ، فقال له عَوفُ بنُ مالكٍ « كَذَبْتَ،ولكنكَ مُنافقٌ،لأُخْبِرَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ ،فَذهبَ عوفٌ ألى رسولِ الله ﷺ لِيُخبِرهُ فوجدَ القرآنِ قد سبقهُ،فجاءَ ذلكَ الرَّجُلُ ألى رسول الله ﷺ وقج ارْتحلَ ورَكِبَ ناقتهُ، فقال: يال رسول اللهِ، إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونلعَبُ ونَتَحدَّثُ حديثَ الرَّكْبِ نقطعُ بهِ عَناء الطريقِ، قال ابْنُ عمر: كأني أنْظُرُ إليهِ متعلقًا بِنِسْعةِ ناقةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّ الحِجارةَ تنكُبُ رِجْليهِ، وهو يَقولُ: أنما كنا نخُوضُ نلعبُ، فيقولُ له رسول اللهِ ﷺ ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ما يلتفةُ إليه،وما يَزيدُهُ عليهِ.

ذكر رحمه الله أنَّ سبب النزول لهذه الآية رواه جمعٌ من أهل العِلم، أورد منه المؤلِّف رحمه الله رواية صحابيٍ وثلاثةٍ من التابعين. أمَّا الصحابيُّ فهو ابن عُمر رضي الله عنه وأمَّا التابعون فهم زيد بن أسلم ومحمد بن كعب القرَضي وقتادة بن دعامة. ورواية ابن عمر رواية جيدة ثابتة وتتقوَّى بهذه بمراسيل التابعين.

والمؤلِّف رحمه الله بيَّن أنَّه ساق الروايات مضمومةً بعضها إلى بعض، يعني ضمَّ روايات هؤلاء رضي الله عنهم ورحمهم، بعضها إلى بعض. قال: **دخلَ حديثُ بَعضِهِم** ، فهو دمج وجمَع بين الروايات وساقها مساقًا واحدًا، ويبدو والله أعلم أنَّه قد تابَع بهذا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الصارِمِ المسلول،

أنَّهُ قال رجُلٌ في غزوةِ تبوك:«ما رأينا مِثلَ قُرَّائنا هولاء أرغَبَ بُطونًا،ولا أكْذَبَ السُنًا،ولا أجْبَنَ عند اللِّقاءِ»

قال ابن عمر رضي الله عنه في مَسير النبي ﷺ إلى غزوة تبوك حصلت هذه القصة؛ وهي أنَّ رجُلاً في جماعةٍ من أصحابه كان مُتكِّلمًا واحدًا، وكان البقية راضين بما يقول، فكان حُكمهم واحدًا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾

وهذا يدُلُّك على خطورة حضور مجالس المُنكر، وأنَّ مجالس المنكر الحاضر فيها آثمٌ مالم يُنكِر، لاسيما إذا كان المجلس مجلسًا يُتكلَّم فيه بالكُفر بالله سبحانه وتعالى ومعه جلَّ وعلا يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾[النساء:140]. فدلَّ هذا على إنَّ من رَضِي بهذا الحديث وتابع وسكت فإنَّ حُكمه حُكم المتكلِّم.

وقد جاء في بعض روايات سبب نزول هذه الآية أنَّ المتكلم كان واحدًا وكان البقيَّة يضحكون، يوافقون ويُتابعون على ذلك. وجاء في بعض الروايات أنَّ هذا الرجل المتكلِّم اسمه وديعة بن ثابت وقيل غيره كان أحد المنافقين.

قال: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء.

القُرَّاء: في لسان السَلَف لفظٌ يُطلَق على العُلماء الذين جمعوا بين تلاوة القرآن والعلم بأحكامه، ويُريد أصحاب النبي ﷺ معه، قال ساخرًا منهم مستهزئا بهم:

«أرغب بطونا» يعني أوسع بطونًا، إشارةً إلى أنَّهم يتَّصفون بكثرة الأكل فلا هم لهم إلا بطونهم،

«ولا أكذب ألسُنًا»: يعني أنهم يكذبون في الحديث،

«ولا أجبن عند اللقاء»: يعني أنهم يتصفون بالجُبن عند لقاء العدو ولا يثبتون عند اشتداد المعارك.

لاشك أنَّ هذه صفات المنافقين، فالأمر على ما قيل "رمتني بدائها وانسلَّت". هم أجدر وأحقّ بهذه الصفات الذي ذكروها وحاشا النبي ﷺ وحاشا أصحابه أن يكونوا مُتصفين بهذه الصفات المذكورة.

فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك مُنافق، لأُخبرنَّ رسول الله ﷺ.

عوف بن مالك، يعني الأشجع رضي الله عنه وكان يسمع هذا الحديث: **«كذبت ولكنك مُنافق»**

۞ في هذا فائدتان:

➢ أولاً: **أنَّ الكذب يجب أن يُرد على صاحبه مباشرة،**

هذا مقامٌ لا يصلُح فيه التريُّث. كلامٌ باطل وكذبٌ وافتراء يجب أن يُرد على صاحبه من حينه.

➢ ثانيًا: **هي الإغلاظ عند قيام المصلحة.** يعني المقام هاهُنا تقتضي المصلحة فيه الإغلاظ في القول هذا كلامٌ خطير، هذا وقوعٌ في النبي ﷺ وفي أصحابه. فلا يُناسب حينئذٍ أن يتناول المنكِرُ هذا المنكَر بأطراف أصابعه يتساهل ويتلطَّف! كلا، المقام يقتضي أن يغلظ في العبارة ويُشدَّد في النكير.

قال: «**ولكنك مُنافق**»، ثم أخبره أنَّه سيرفع هذا الأمر إلى النبي ﷺ، قال: «**لأُخبِرنَّ رسول الله ﷺ**».

وفي هذا فائدة؛ وهي أنَّ رَفع الحديث وإبلاغ الأخبار إلى ولي الأمر،إذا كان فيه درء مَفسدةٍ عن الإسلام والمسلمين، وكان يتضمَّن النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين عامَّتهم، فإنه ليس من النميمة وليس من الغيبة.

وهذا ما نبَّه عليه المؤلِّف رحمه الله بالمسألة الثالثة من مسائل الباب حيث قال:
الفرق بين النميمة والنصيحة لله والرسول ﷺ. متى ما كان ثمَّة ما يتهدَّد المجتمع المسلم وما يُمكن أن يُوقع المكروه للمُسلمين فإنَّ رفع ذلك إلى الحاكم المسلم ووليِّ الأمر الذي يستطيع إنكار هذا المنكَر لا شك أنَّه ليس أمرًا مذمومًا، بل هو أمرٌ ممدوح ومن النصيحة المأمور بها.

فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه.

ذهب عوفٌ ﷺ إلى النبي ﷺ ليُخبره بما كان،فوجد أنَّ الوحي قد سبقه،نزَلَت عليه الآية من سورة التوبة.

وهذا فيه فائدتان:

أولاً: ثبوت صفات العلم والسمع والبصر والكلام لله ﷻ.

ثانيًا: أنَّ هذا من دلائل نبوَّة النبي ﷺ،
فإنَّه رسول الله حقًا، وإلَّا كيف له أن يعلم الشيء الذي غاب عنه لولا أنَّه يُوحى إليه من الله ﷻ.

فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق.

جاء هذا الرجُل، والأكثر في كتب التفسير أنَّه وديعة بن ثابت وقيل أنَّه عبد الله بن أُبيّ، لكن ذلك ليس بصحيح؛ لأنَّ عبد الله بن أُبيّ قد تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. جاء هذا الرجُل ليعتذر إلى رسول الله ﷺ ويُخبره في اعتذاره أنَّ هذا الكلام الذي بلَغه لم يكونوا يقولونه على سبيل القسط أو الكراهة إنَّما هو حديثٌ من حديث الركب يخوضون ويتكلمون بحديث المسافر.

معلومٌ أنَّ المسافر يُحب أن يتكلَّم بكلام فيه فُسحة، فيه شيءٌ من المرَح ، فيه شيءٌ من المزاح.

فيقول هذا الكلام إنّما كنا نقوله على سبيل المزاح، أو كما نقول بلساننا المعاصر كانوا يُوسعون صدورهم بهذا الكلام. فهذا هو ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ والله ﷻ ما أكذبهم في قولهم هذا ولا في اعتبارهم هذا، نعم كانوا يقولونه على سبيل الخوض واللعب.

۞ ولكن هذا فيه فائدتان:

أولاً: لا فرق في باب السبِّ والاستهزاء بين من يكون منه ذلك

على سبيل الحقد والكراهة لرسول الله ﷺ وللإسلام،

أو كان ذلك على سبيل اللعب وعلى سبيل المزاح. لا فرق، الحُكم في ذلك واحد.

ثانيًا: قاعدة مهمة وهو أنَّه لا فرق في باب الكُفر بين الجاد والهازِل. سواء قال أو فَعَل الكُفر على سبيل الجدية أو على سبيل اللعب وعلى سبيل المزاح، كلُّ ذلك الحُكم فيه واحد.

۞ ونبَّه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في آخر نواقض الإسلام على تنبيهٍ غاية في الأهمية حينما قال: ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازِل والجاد والخائف إلا المكرَه.

إذًا كلُّ من وقع في هذه النواقض التي تُردي صاحبها وتخرجه عن دائرة الإسلام لا فرق في ذلك بين أن يكون مُتكلِّمًا

أو فاعلاً على سبيل المزاح واللعب،

أوأن يكون قاصدًا محُققًا لما يقوله ولما يفعل.

الحُكم في ذلك واحدٌ عند أهل العلم والدليل على ذلك هذه الآية التي بين أيدينا.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ.

يعني الزمام الذي يُزم هذه الناقة متعلِّقٌ بها مُتشبِّثٌ بها يُريد أن يلتفت إليه النبي ﷺ ويقبل منه، وكل ذلك والنبي ﷺ لا يُبالي به ولا يزيده إلا أن يتلو عليه الآية.

وإنَّ الحجارة تنكب رجليه. يعني تُصيبها وتُبليها وهو لا يُبالي بذلك هو مشغولٌ بالأهم وهو أنَّه يُريد أن يقبل منه النبي ﷺ باعتباره.

وهو يقول: إنَّما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه.

آيةٌ عظيمة وأصلٌ مهم في هذا الباب ينبغي على كل مُسلم أن يكون له عبرةٌ منها وأن يقف أمامها مُتأملاً حاذرًا.

قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾. هكذا اعتذروا وهذا العُذر صحيح في نفسه هم هذا الذي كان منهم وما أكذبهم الله جلَّ وعلا في ذلك ومع ذلك كان عُذرًا غير مقبول.

والاستفهام إنَّما كان على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

والمرويُّ في سبب النزول لم يكُن فيه أنَّهم استهزأوا بالذات العليَّة ولا أيضًا بالقرآن، ووجه ذلك هو إنَّما الله ذكَر الله ﷻ هذا في حقهم من باب النزول، يعني لما استهزأوا بالرسول ﷺ فإنَّ لازم ذلك أن يكونوا مُستهزئين بالله العظيم ﷻ، إذ يلزم من الاستهزاء بالرسول الاستهزاء بالمرسل هذا **أولاً**.

وثانيًا يلزم من الاستهزاء بالرسول الاستهزاء بما أُرسل به وهو آيات الله جلَّ وعلا،
فصحَّ إذًا أنَّهم كانوا مُستهزئين بالله، وأيضًا بآياته، وأيضًا كانوا مُستهزئين برسول الله ﷺ.

﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ الله ﷻ أخبرهم بأنَّ هذا الاعتذار لا حاجة إليه لأنَّه لا ينفع فهو اعتذارٌ مرفوضٌ غير مقبول و أكد الله جلَّ وعلا أنَّ القوم كفروا بوقوعهم فيما وقعوا فيه.

﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

من نزلَّت به القدم فوقع في هذا المنكر الشنيع فإنَّ عليه أن يُبادر إلى التوبة إلى الله ﷻ والله يقبل توبة التائبين.

وقد اشتهر في كتب التفسير أنَّ من تاب الله ﷻ عليه من هؤلاء النفر الخائضين كان مغشيَّ ابن حمِيِّر، كان رجُلاً من جملة المنافقين لكن الله جلَّ وعلا تاب عليه اسمه على الأقرب مغشيُّ بن حُمَيِّر الأشجعي، إنَّ هذا الرجُل كان معهم. بذكر بعض الروايات أنَّه ما تكلَّم لكنَّه كان يضحك، وذكرت بعض الروايات أنَّه كان ينهاهم عن بعض ما يخوضون فيه، ثم إنَّ الله ﷻ وفَّقه فمنَّ عليه بالتوبة فتاب إلى الله جلَّ وعلا وغيَّر اسمه إلى عبد الرحمن وقُتل فيما نرجو شهيدًا في معركة اليمامة.

﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ ﴾يعني بأن يُوفقوا إلى التوبة فيعفو الله ﷻ عمن وقع في هذا الإثم، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. وكان على هذه الرواية هو هذا الرجل الوحيد.

وبهذا نستفيد فائدةً لغوية وهي:

أنَّ الطائفة تُطلق على الرجُل الواحد: ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾.

ثمة طائفة أخبر الله سُبحانه بأنَّهم لم يُوفقوا إلى التوبة وذلك إضلالاً منه سُبحانه لأنهم كانوا مُستحقين لذلك: ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هاتان الآيتان العظيمتان في هذه السورة فيها عبرةٌ عظيمة وفيها ما يقتضي الوجل والخوف من الرتوع في هذا المرتع الوخيم.

حذار يا عبد الله من أن تحوم حول هذا الحما وهو أن يكون ثمَّة مزاح أو لعب أو كما يقولون بلسان اليوم النُكت، نُنكِّت ونُوسع الصدر ونمزح،امزح فيما شئت وقل ما شئت لكن كُن على حذر من أن تتناول أو تُعرِّض بشيءٍ مما يرجع لهذا الدين، شيءٌ يتعلَّق بالآيات أو بالأحاديث أو جناب النبي ﷺ، حذار.

إنَّ ذلك مؤذنٌ بخُسران عظيم، فالله جلَّ وعلا يقول: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الأبتر مقطوع الخير. يحكم الله سُبحانه على أنَّ من يقع في النبي ﷺ وعلمنا أنَّه لا فرق في هذا الباب بين أن يكون الإنسان جادًا أو مازحًا، قاصدًا للطعن عن حقد وكراهة أو لم يكُن قاصدًا،

هل هؤلاء الذين كان منهم من نزلت فيهم هذه الآية، هل كانوا منافقين أم كانوا مؤمنين عندهم إيمان ضعيف ثم ارتدُّوا بسبب هذه المقالة؟

← ذهب بعض أهل العلم أنَّهم كانوا مؤمنين عندهم إيمان ضعيف ثم ارتدُّوا بما كان منهم. واستدلُّوا على هذا بقوله جلَّ وعلا: ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ كانوا مؤمنين قبل أن يكون منهم ما كان، وهذا ما نصَّ عليه المؤلِّف رحمه الله في كتابه كشف الشبهات. ويُفهَم ذلك من بعض كلام شيخ الإسلام رحمه الله الذي دوَّنه في كتابه الإيمان.

← وعامَّة أهل العلم على القول الأول وهو هؤلاء إنَّما كانوا مُنافقين. والذي لا شك فيه عندي أنَّ هذا هو القوْل الصحيح، أنَّ الذين كان منهم ما كان كانوا مُنافقين أصلاً. **ويدلُّ على هذا أوجه عدَّة:**

أولاً: أنَّ سياق الآية وسابقها يدلُّ على ذلك.

﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ**﴾ الكلام إنَّما كان على المنافقين صراحةً، ثم قال: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ**﴾؛ سألت من؟ المنافقين، الذين ذُكروا قبل ذلك والذين هدَّدهم الله ﷻ بقوله: ﴿ **قُلِ اسْتَهْزِئُوا** ﴾ فدلَّ هذا على أنَّهم هم المقصودون. **ثم الآية التي بعد آية:**﴿ **إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ قوله تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ فما قبل الآية وما بعدها دليلٌ على أنَّ هؤلاء كانوا مُنافقين.

ثانيًا: هذه الآية من سورة التوبة، سورة براءة. وهي في كُلِّها مُتعلِّقة بهؤلاء المُنافقين وصفاتهم.

ولذلك تأمَّلها من أولها إلى آخرها تجد أنَّ الله جلَّ وعلا يذكر من صفاتهم الشيء الكثير: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي**﴾[التوبة:49]، ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ**﴾[التوبة:58]، إلى أن جئنا إلى الآية التي مرَّت بنا: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ**﴾[التوبة:61]، إلى أن قال جلَّ وعلا: ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** ﴾[التوبة:65]. فهذه السورة في مُجملها إنَّما تتعلَّق بالمنافقين وصفاتهم وما يصدُر منهم.

ثالثًا: قول الصحابيُّ الجليل عوف بن مالك ﷺ«ولكنَّك مُنافقٌ»، هذا أيضًا نصٌ على أنَّ هذا القائل كان مُنافقًا. ولو كان خلاف ذلك لقال لقد كفرتَ، أو يا كافر، أو قد ارتددت، لكنه قال: «**ولكنَّك مُنافقٌ**». ومعلومٌ أنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ كانوا يعلمون بعض المنافقين بصفاتهم، قال جل وعلا : ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾[محمد:30].

فالمنافق قد يُعلم، نعم، جميعهم ليسوا معلومين لكن طائفةً منهم كانوا معلومين لأصحاب النبيِّ ﷺ لأقوالهم وغمزاتهم ولمزاتهم وحركاتهم وسكناتهم كانت تدُلُّ على أنَّهم كانوا منافقين، ولذلك في صحيح مسلم قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**ولقد رأيتنا وما يتخلَّف عنها إلا مُنافق معلوم بحق**

رابعًا: أنَّنا قد علمنا من كتاب الله جلَّ وعلا أنَّ السخرية والاستهزاء إنَّما هي شأنُ المُنافقين.

هذا ديدنهم وهذه صنعتهم أنَّهم يسخرون ويستهزئون، بدليل ما قبل هذه الآية بآيتين قول الله ﷻ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**﴾[التوبة:61]، وكذلك قول الله جلَّ وعلا عنه في سورة البقرة: ﴿ **وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾[البقرة:14]. فالاستهزاء ديدنهم والاستهزاء شأنهم.

✸ **يبقى بعد ذلك السؤال وهو: ما توجيه قول الله جلَّ وعلا: ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾؟**

الله جل وعلا بيَّن في هذه الآية: ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ قد كفرتم (حُكمًا) بعد الإيمان الذي كان محكومًا لكم به، كانوا في السابق مسلمين حُكمًا كُفَّارًا حقيقة، فصاروا الآن كفَّارًا حُكمًا كُفَّارًا حقيقة. قد كانوا في السابق مؤمنين حُكمًا يعني في أحكام الإسلام الظاهرة تجري عليهم أحكام المسلمين، لكن في حقيقة الحال هم كُفَّار.

✸ **ويتفرَّع على هذا أيضًا سؤال أن لماذا النبيَّ ﷺ ما أقام الحد على هؤلاء؟**

➢**والجواب**: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرعى مصلحة الإسلام وكان يسعى في تأليف الناس على الدين لا التنفير عنه. ويدلُّ على هذا قول النبي ﷺ: «**لا يتحدث الناس أنَّ مُحمدًا يقتل أصحابه**»، لو شاع في قبائل العرب وغيرهم أنَّ هؤلاء –وظاهر حالهم أنَّهم من جُملة أصحابه– أنَّه قد قتلهم كان هذا مُنفِّرًا أعظم التنفير عن الرسول ﷺ وعن الاستجابة لدعوته. فراعى ﷺ هذا الأمر في هذا المقام.

➢ **إضافةً إلى هذا**، ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنَّ هذه الواقعة كانت إبَّان أمر الله ﷻ بنبيّه ﷺ بأن يُعرِض عن المنافقين، ثم بعد ذلك جاء الأمر بالإغلاظ عليهم: ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾[التوبة: ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾[الأحزاب: 61]

فلا يملك أحدٌ أن يتنازل عن حق الإسلام أو حقُّ رسول الله ﷺ في إقامة الحد. بعد وفاة النبي ﷺ صار من الواجب عند القدرة لإمام المسلمين أن يُقيم الحد على هؤلاء بعد الاستتابة. يعمد الواقع في هذا الجُرم بالتوبة إلى الله جلَّ وعلا، فإن تاب قُبل منه على الصحيح من قولي أهل العلم في هذه المسألة، وهي مسألة السابّ ومسألة المستهزئ، اللهم إلا مسألة خاصة وهي السب أو الاستهزاء إذا نال جناب النبي ﷺ.

فالذي رجحه شيخ الإسلام رحمه الله وجماعةٌ من المحققين أن هذا السابّ لو تاب إلى الله ﷻ فإنَّ توبته تنفعه فيما بينه وبين الله، أمَّا في الحُكم الدنيوي فإنَّه لابد من إقامة الحد عليه. وذلك أنَّ لا أحَد يملُك التنازُل عن حق النبي ﷺ،

يعني في حياته ﷺ تنازَل هو عن حقِّه إذ كان يملُك ذلك، لكن بعد وفاة النبي ﷺ من الذي يملك أن يتنازَل عن حقِّ النبيّ ﷺ وهذا القول من القوَّة بمكان، والله تعالى أعلم.

الدرس السبعون – ١٢٣٣

٤٩– باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ الآية. [فصلت:50].

هذا البابُ قد عقده المؤلف رحمه الله؛ لبيان أن من التوحيد الواجب على كل مسلم القيام بشكر الله ﷻ، وشكر الله هو زبدة الإيمان، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان: 3]؛ فقابل الله سبحانه بين الشكر، والكفر؛ فالمؤمن حقاً، وصدقاً، والقائم بشكر الله جَلَّ وَعَلَا،

وشكر الله حقيقةٌ مركبةٌ من ثلاثة أركان:

الركن الأول: الاعتراف والإقرار الباطنُ بنعمة الله جَلَّ وَعَلَا، وأنها منه بمحض التفضّل.

وهذا مما لا يجوز لمسلمٍ أن يشك فيه، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[النحل:53]، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾[الإسراء: 20]، ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[النور: 33]،

قال ربنا جَلَّ وَعَلَا في الحديث القدسي المخرج عند مسلمٍ في صحيحه **«يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم»**؛ هذا هو الركن الأول؛ الاعترافو الإقرار بالقلب والعبد ليس منه شيء، ولا إليه شيء، ولا يستحق على ربه شيئا.

ثانياً: القول باللسان؛ الاعتراف والإقرار باللسان وهذا يتضمن أمرين:

- **الأول: الإقرار باللسان**؛ بأن النعمة من الله جَلَّ وَعَلَا قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[الضحى:11]، وفى حديث سيد الاستغفار: **«أبوء بنعمتك علي»**؛ يعنى أقر واعترف.
- **وثانياً: الحمد، والشكر، والثناء**، عليه بإنعامه على عباده بالنعم التي لا حد لها ولا حصر.

ثالثاً: العمل بها فيما أذن الله، وذلك لقول الله سبحانه: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾[سبأ: 13].

فيعمل الإنسان بالنعمة، في حدود ما أمر الله ﷻ به؛ **و لا يجوز التصرف فيها وفق هوى الإنسان، وهذا المقام يتفرع إلى ما يكون:**

واجباً و مستحباً: فإن الشكر ها هنا يكون بأداء هذا الذى أمر ﷻ،

وإلى ما يكون مباحا: فالواجب أن تصرف النعمة في حدود ما أباح الله ﷻ.

أما القدر الذي لابد منه؛ فهو ألا يصرفها في معصية الله ﷻ،

✿ ومن قام بهذه الأركان الثلاثة أورثه ذلك ثمراتٍ عظيمة، ومن أعظمها ثمراتٌ ثلاث:

➢ **الأمرالأول: أنه يورثه ذلك محبة الله ﷻ.**

لأنه أقر، وأيقن، وأعتقد أن النعمة إنما منشأها، ومصدرها إنما مسديها هو الله تبارك وتعالى، والنفوس مجبولة على حب من أنعم إليها، فكيف بمن كل النعم إنما هي منه سبحانه وتعالى؟!

➢ **الأمرالثاني: السلامة من كفر النعمة.**

وكفر النعمة لاشك أنه قادح في كمال التوحيد الواجب،وربما كان ذريعة في الوقوع في نقض أصل التوحيد.

➢ **والأمر الثالث: أن يسلم من الكبر، والغرور، والإعجاب بالنفس.**

وهذا ولا شك من الواجبات؛ التي القيام بها من كمال التوحيد الواجب.

وهذا الباب تكميلٌ، لما مضى الكلام فيه في باب «(٤١) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾»

هذا الباب أورد فيه المؤلف رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ مطلع السياق يقول فيه جل وعلا: ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[فصلت:49]؛

لا يسأم: **يعنى لا يمل**، من دعاء الخير يعنى من طلب الخير؛

والخير: **ها هنا هو الأمر النافع في الدنيا**، وكل إنسان مجبول على طلب ما ينفعه ويلائمه،

والإنسان: **ها هنا، هل هو أسم جنس**، فيعم جميع الناس باعتباره مفرداً محلىً بـ(ال)؛

۞ فيفيد العموم؟ أو أنه من العام الذي أريد به الخصوص؛ فإنه يخص طائفة من البشر، وهم الكفار؟ **والذى يبدو، والله تعالى أعلم؛ أن الثاني أقرب**: فالإنسان هنا هو الكافر، بدليل ما سيأتي في هذه الآية مما يدل على أن هذا الإنسان ليس مؤمناً بالله جل وعلا، سبحانه: ﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ هذا دليلٌ على أن الإنسان هنا ليس مسلما؛ إنما هو الكافر، ولا شك أن حال عامة الكفار، ومن تشبه بهم من المسلمين كان له حدٌ، ونصيبٌ من الذنب والتقديح.

✪ **اختلف المفسرون في تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا فيها:** ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

- **القول الأول:** إن معنى قوله: ﴿هَذَا لِي﴾ يعنى؛ هذا لقدرتي، وقوتي، وحذقي، ومعرفتي بطرق المكاسب، وما إلى ذلك، وممن نحى إلى ذلك ابن عباس كما أورد المؤلف.

هذا قد كفر نعمة الله ﷻ؛ حيث إنه لا اعترف، ولا أقر بأن النعمة إنما هي من الله ﷻ .

- **والقول الثاني:** هو أن قوله تعالى: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ يعنى أنا محقوق به، يعنى جديرٌ به، وهذا ما أورده المؤلف أيضا؛ يعنى أن هذا بسبب أن لي حقاً على الله جل وعلا؛ فأنا جديرٌ بهذه النعمة، وفى هذا من الغرور، والطغيان، وسوء الأدب مع الله ﷻ ما لا يخفى.

- **والقول الثالث:** أن قوله: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ اللام ها هنا للملك، كأنه يقول هذا المال مالٌ لي ثابتٌ دائماً أبداً لي، ولذريتي من بعدى، ونسى أن كل ما على وجه الأرض، إنما هو ملك لله ﷻ؛ ففي قول هذا الإنسان ما فيه من الفخر، والبغي، ونسيان نعمة الله ﷻ.

وإجماع هذه الأقوال؛ على أي وجهٍ منها تصرف التفسير، يجمع ذلك أن قائل ذلك كافر بنعمة الله ﷻ؛ لم يقم بشكر الله جَلَّ وَعَلَا، فاته الاعتراف الباطن، والاعتراف الظاهر، وهذا ولا شك قادحٌ من قوادح التوحيد، ولربما صار ذريعة إلى أن يصل الإنسان إلى نقد التوحيد، عفانا الله وإياكم من ذلك .

قال مجاهد:« هذا بعملي، وأنا محقُوقٌ به» يعني جديرٌ به.

وقال ابن عباس: « يُريدُ من عندي ». هذا القول الأول الذي سبق.

وقوله:﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ قال قتادة:« على علم مني بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ ».

وقال آخرون: « على علمٍ مِن اللهِ أني لهُ أهلٌ » وهذا معنى قولِ مجاهدٍ:« أوتيته على شرف ».

هذه الآية بيَّن الله ﷻ فيها حال قارون، ومعلوم من قارون؛ ذاك الذى كان من قوم موسى.

اختلف المفسرون في هذا إلى قولين، والقولان مبنيان على تفسير العلم،

هل هو راجع إلى علم العبد؛ ألا وهو قارون، أو هو راجع إلى علم الله ﷻ؟

⬅ القول الأول: **قال بعض أهل التفسير العلم، ها هنا أراد به علمه هو؛ يعنى قارون.**

يعنى؛ أنا إنما بلغت ما بلغت؛ لأن عندي علما بالتجارة، وطرق الكسب؛ وعندي خبرة، ومعرفة؛ فهو جاحدٌ إذا لنعمة الله ﷻ عليه؛ أعاد النعمة إلى نفسه،ونسى الإقرار، والاعتراف بها، ونسبتها إلى الله.

القول الثاني: **أن العلم راجع إلى علم الله ﷻ**، وعليه؛ فيكون معنى الآية قال إنما أوتيته على علم من الله بأني مستحقٌ لذلك؛ فالله يعلم أني استحق هذا المال، فهو يرى لنفسه على ربه حقاً واجباً.

وهذا وذاك يدلان على أن هذا الرجل لم يكن شاكرا نعمة الله، ولم يكن مقراً، ومعترفاً بباطنه، ولا بظاهره، ولا عاملاً فيها بطاعة الله ﷻ فهو كافرٌ بنعمة الله تبارك وتعالى، وهذه الآية نظير قول الله سبحانه:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الزمر.

هذه فتنة من الله ﷻ ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:49؛

فالله ﷻ يبتلي عباده بالسراء وبالضراء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء:

قال تعالى ﴿أَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾[الفجر:15]،

۞ ولاحظ كيف أن هذا الإنسان؛ الذى خلا قلبه من تحقيق الشكر لله ﷻ وقع في أمرين:

أولاً: ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، ظن أن الله ﷻ، تفضل عليه بشيء يستحقه.

وما ذل واعترف؛ بأن هذا محض تفضل من الله ﷻ،

بل ظن أن له كرامة على الله، ومنزلة عنده؛ فهذا كان سبب إكرامه من الله جَلَّ وَعَلَا.

ثانيا: أنه ظن أن النعمة الدنيوية دليل على المكانة، والمنزلة عند الله جَلَّ وَعَلَا،

وكم يخطئ في هذا المقام من الناس ويظن؛ أن الإنعام الدنيوي دليل محبة الله للعبد،لأنه محبوب عند الله، مرضي عنه، وهذا ولا شك ليس بصحيح؛ فالدنيا يعطيها الله ﷻ من يحب، ومن لا يحب. كما ثبت عن بن مسعودٍ رضي الله عنه عند البخاري في الأدب المفرد، وغيره قال ﷺ:**«إن المال يعطيه الله من يحب ومن لا يحب»**، وفى رواية **«إن الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب»**.يبتلى الله ﷻ المؤمن، والكافر، الموفق هو الذى يفوز في الامتحان؛ فيقوم بهذه الأركان الثلاثة بالشكر وإلا فإنه يكون من المحرومين.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ ، قَالَ : فَمَسَحَهُ ،فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ؛ فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الإِبِلَ أَوِ البَقَرَ – شَكِّ إِسْحَاقُ – فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ:فَأَتَى الأَقْرَعَ ، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ؛ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا ، قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ ، قَالَ : البَقَرُ أَوِ الإِبِلُ ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا ، قَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ ، قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ، قَالَ: الغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا.

فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي هَذَا ؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ ، وَالجِلْدَ الحَسَنَ ، وَالمَالَ؛ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ : الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ – يَقْذَرُكَ النَّاسُ – فَقِيرًا ؛ فَأَعْطَاكَ اللهُ المَالَ؟، فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، قَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا ؛ فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنتَ.

قَالَ : وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا ؛ فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ : وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهِ.

فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». أَخْرَجَاهُ

هذا الحديث، حديثٌ طويلٌ، عظيم خرجه الشيخان في صحيحيهما، و فيه قصة كانت في بنى إسرائيل،

۞ والواجب في القصص الذي جاء في الكتاب والسنة أمران:

أولا: **التصديق بذلك؛ بما أن الذي أخبرنا بهذا رسول الله؛** فالواجب الاعتقاد الجازم، والتصديق التام بأن هذه القصة قد حصلت، ولو أقسم المسلم على ذلك، إنه لا يحنث أن هذه القصة قد وقعت؛ لأن هذا من حقيقة، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، تصديق النبي ﷺ فيما أخبر به.

ثانيا: أخذُ العظة، والعبرة، الانتفاع من هذه القصة، وما فيها من فائدة؛

لم يكن إخبار النبي ﷺ بهذه القصة على سبيل التفكه، والتندر؛ إنما كان ذلك لكي نستفيد بها، ونغترف من العبر، والدروس التي اشتملت هذه القصة، وغيرها عليها.

إسرائيل لقب ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام،

وهذه الكلمة مركبة من جزأين، (إسرا) و (ئيل)،

إسرا: بمعنى صفي،

وئيل: **بمعنى الله؛**

وكل ما جاء على هذا النسق، جبرائيل، وميكائيل، وإسرائيل؛ فإنه في اللغة العبرية، أو العبرانية **بمعنى الله؛**

فإسرائيل بمعنى **صفي الله؛** اصطفاه الله جَلَّ وَعَلَا.

وهذه القصة حصلت في بنى إسرائيل؛ يعنى في بعض ذريته، وفيه ثلاثة أشخاص ابتلاهم الله جَلَّ وَعَلَا بثلاث مصائب، وعاهات أحدهم كان

أبرص، والأبرص هو الذى أصيب بالبرص؛ وهو بياض في الجلد مستقبحٌ مستقذر.

أقرع: والأقرع الذى لا شعر في رأسه،

وأعمى: فقد بصره، ومع ذلك، مع ابتلائهم الأول ابتلاهم الله ﷻ بابتلاء آخر؛ عن طريق ملك من الملائكة التي أرسلهم الله ﷷ إلى هؤلاء الثلاثة،

« **فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ** » **يعنى**: يمتحنهم، ويختبرهم، و**الإرادة**: ها هنا هي الإرادة الكونية **بمعنى شاء،**

وهذه الكلمة، وذلك أن الرواية وقعت في صحيح البخاري لفظ « **بدا لله أن يبتليهم** »،

ما هي (بدا): وهذا الموضع استشكل؛ لأنه قد يفهم منه إثبات البداءة، أو البداء على الله،

والبداء، والبداءة؛ **بمعنى** أن يظهر ما كان خافيا غير معلوم، ولا شك أن هذا معتقد باطل،

بل هو كفر بالله ﷻ، هذه عقيدةٌ كفرية كان يعتقدها اليهود، وتلقاها من تلقاها من أهل البدع عنهم؛

۞ وتوجيهات أهل العلم لهذا الإشكال ترجع إلى ما يأتي:

التوجيه الأول: أن رسم هذه الكلمة (بدا) خطأ، والصواب (بدأ) بالهمزة المفتوحة، وهذا ما اختاره القاضي عياض، وخطأ من جعل اللفظة بدا، وكذلك الخطابي، وذكر القاضي عياض رحمه الله أنه قد ضبط هذه اللفظة عن متقني شيوخه بالهمزة المفتوحة بدأ؛ **يعني ابتدأ الله ابتلائهم.**

والتوجيه الثاني: أن معنى بدا؛ يعني قضى، ويكون؛ بمعنى القضاء الكوني؛ الذي هو قريبٌ في المعنى من الإرادة الكونية.

التوجيه الثالث: أن معنى قوله بدا يعني أراد.

والتوجيه الرابع: يعني أنه سبق في علم الله؛ فأراد أن يظهر ذلك العلم في الناس.

والذي يظهر، والله تعالى أعلم، أنه لا حاجة لكل هذا؛ فهذا اللفظ على الصحيح خطأ، حصل وهم وخطأ من الراوي؛ وبينوا ذلك على وجه من الإيجاز أن هذا الحديث مخرجه واحد ليس له إلا طريق واحدة، وذلك من طريق همام عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرة، عن أبي هريرة، لا يوجد للحديث إلا هذه الطريق؛ عن همام روى هذا الحديث ثلاثة من الرواة:

الأول: هو شيبان بن فاروخ، وهذه رواية مسلم، والمؤلف رحمه الله اعتمد رواية مسلم.

والثانية: رواية عمرو بن حفص.

أما شيبان، وعمرو بن حفص؛ فإنهما رويا الحديث **بلفظ (أراد الله)،**

والثالثة: رواية عبد الله بن رجاء. فإنه رواه بلفظ **(بدا لله)**، هذا اللفظ عند البخاري،

الخلاصة الآن، عندنا لفظان لفظٌ اتفق عليه ثقتان هو: « **فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ** »

ولفظٌ تفرد به عبد الله بن رجاء، والحديث واحد، والنبي ﷺ تكلم قطعاً بلفظٍ واحدٍ من هذين، وإذا لجأنا إلى الترجيح، فإننا نرجح: رواية الثقتين على رواية الثقة، لاسيما وأن عبد الله بن رجاء في حفظه شيء،

فالمجزوم به هو أن هذا اللفظ خطأ وأن الصواب « **فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ** »

«فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به.قال: فمسحه فذهب عنه قذره، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا...»

هذا الأول: وهو الأبرص كان طلبه، وكانت أمنيته؛ أن يذهب الله عنه هذا اللون القبيح، وأن يعطيه الله لونًا حسنًا، وجلداً حسناً؛ فمسح عليه هذا الملك؛ فكان أن أبدله الله جَلَّ وَعَلَاجلداً حسناً، ولونا حسنا، وكان مسح المَلَكَ سبباً في حصول هذه النعمة، وإلا فإن الأمر إلى الله ﷻ، والله قادرٌ على أن يعطيه هذه النعمة دون سبب، لكن حكمة الله جَلَّ وَعَلَا اقتضت ذلك والله على كل شيء قدير.

«قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الإبل، أو البقر؛ شك إسحاق...»

الذي يظهر –والله أعلم–أن الأول؛ وهو الأبرص طلب الإبل، أحب المال إليه الإبل، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة رحمه الله من ورعه شك؛ فذكر اللفظين، إما قال الإبل، وإما قال البقر، لكن سياق الحديث يدل على أن طلبه كان الإبل؛ لأن الملك كما سيأتي، رجع إليهم بعد ذلك، وسأل هذا الرجل أن يعطيه ناقة يتبلغ بها؛ فدل هذا على أن ماله إذًا كان الإبل ..

«قال: الإبل، أو البقر شك إسحاق؛ فأعطي ناقة عشراء؛ فقال: بارك الله لك فيها...»

الناقة العشراء: **هي الحامل**؛ التي بلغت الشهر العاشر، وهذه كانت معدودة عندهم، من أنفس الأموال.

«قال: فأتى الأقرع قال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عنى الذي قد قذرني الناس به...»

يبدو –والله أعلم–أنهم كانوا في ذاك الوقت لا يلبسون العمائم؛ إنما كانت رؤوسهم مكشوفة؛ فكان يؤذيه ألا يكون على رأسه شعر، وربما كانوا يتعممون، لكن يظهر شيء من الشعر، هذا هو الأمر المستحسن عندهم، وهو فاقد له فحب أن يزول عنه هذا النقص.

«فمسحه؛ فذهب عنه، وأعطي شعر حسن، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر، أو الإبل، أعطي بقرة حاملا، قال: بارك الله لك فيها...»

قوله « بارك الله لك فيها » يحتمل أن يكون إخباراً من الملك، أن الله ﷻ قد جعل تلك البقرة ناقة، أو بقرة مباركة، ويحتمل الكلام أن يكون دعاءً، دعا أن يبارك الله ﷻ لك فيها، واستجاب الله ﷻ هذا الدعاء ابتلاءً، وامتحاناً.

«فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال إن يرد الله إلىّ بصري؛ فأبصر به الناس؛ فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ ...» **أُعطى شاة والداً؛**

- الأمر يحتمل أن تكون قريبة الولادة؛ يعنى هي حامل،

وقريبة الولادة، واللغة فيها أن الشيء إذا قَرُبَ من الشيء؛ فإنه يعطى حكمه،

- وربما كانت شاة معها ولدها حديثة الولادة، لكن إذا قارنا السياق الناقة العشراء، والبقرة الحامل يبدو -والله أعلم- أنها كانت شاة قريبة الولادة.

«قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم؛ فأُعطى شاة والدة، وأُنتج هاذان وولد هذا...»

« أُنتج هاذان» وبعضه يضبطه **«أنتج هاذان، وولد هذا»** **الناتج** للإبل والبقر كالقابلة للبشر،

الناتج: يعنى الذي يقوم على توليد؛ فكان أن ولّد، أو قام على تولّيد الناقة، والبقرة، وكذلك ولّد الأخير هذه الشاة الذي عنده، كلٌ قام على توليد ما عنده،

يعنى أن الله ﷻ رزق كل واحد من هؤلاء الثلاثة ذرية لهذه البهائم؛ فأصبح عنده قطيع كبير.

«فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم...»

سبحان الله أبدل الله ﷻ حالهم من الفقر، والمسكنة إلى هذا الغنى.

«قال: ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجلٌ مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري..»

صورته، وهيئته: يعني في صورة الأبرص؛ جاء إليه في الصورة، والهيئة التي كان عليها هذا الرجل سابقا، وذلك لتذكيره، وتنبيهه، وإغرائه؛ ليجيد ويبذل واجب الله ﷻ عليه، وجاء إليه في صورته الجسمية، وفى هيئته يعنى في لباسه، وشكله الخارجي ..

رجل مسكين: رجل: خبر لمبتدأ محذوف (أنا رجلٌ مسكين)؛ وصف نفسه بأنه ليس عنده ما يكفيه، **وانقطعت به الحبال؛** يعنى الأسباب،

والحبل في اللغة هو السبب؛ ليس عنده سبب لكي يصل به إلى مطلوبة؛ لأنه مسكين، وبعض الرواة روى هذا اللفظ **(انقطعت بي الحيال)** جمع حيلة، والأكثر على الحبال.

« قد انقطعت بي الحبال في سفري إلا بالله، ثم بك..»

هذا هو التوحيد؛ التوحيد ألا تجعل الخالق، والمخلوق في السياق على مقام واحد؛ فالملك، والملائكة قائمة بتوحيد الله ﷻ، وهم من أعظم الخلق إيماناً وتوحيداً؛ ما قال الملك أنا بالله،وبك؛إنما قال:أنا بالله ثم بك.

فهذا مما يؤكد، ويدل على ما سبق الحديث فيه؛ أنه في مقام نسبة النعمة يجب ألا يُقْرَنَ الخالق، والمخلوق، ويعطف بحرف الواو؛ الذي يفيد التسوية؛ **إنما** يكون العطف بـ (ثم)؛ التي تفيد الترتيب، والمهلة.

«أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال؛ بعيراً أتبلغ به في سفري...»

ما قال أسألك بالله؛ إنما أتى بهذا اللفظ؛ لكي يذكره بنعمة الله ﷻ، وليغريه بالإجابة ..

«قال: الحقوق كثيرة. فقال له...»

اعتذر بعذر كاذب، كما يعتذر كثير من الناس إذا وجبت عليهم حقوق من الله ﷻ وبالتالي يقول لهذا الملك؛ أنا لا استطيع أن أعطيك؛ لأنك لست وحدك الذى تطلب، عندي، ملتزم التزامات كثيرة، ولا شك أن الذى يجب عليه أن يجيب هذا المسكين إذا انقطع هذا المسكين، وابن السبيل، لكنه بخل، ورفض أن يؤدى حق الله ﷻ عليه؛ وقع في البخل، فالكذب؛ فكفر نعمة الله ﷻ .

«فقال له: كأني أعرفك. ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً؛ فأعطاك الله ﷻ المال؟..» ذكره بأمرين:

الأول: أنه كان أبرص، وهذا لم ينكره، وليس عنده وسيلة لإنكاره أصلا.

الأمر الثاني: فإنه كان فقيرا، ثم أغناه الله ﷻ؛ فهذه هي التي كفر نعمة الله ﷻ فيها ..

«فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر...»

ما قال هذه نعمة الله، كنت فقيراً؛ فأغناني الله،؛ إنما أعاد الأمر إلى نفسه كما قال ﷻ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

ورثته كابراً عن كابر: **النصب ها هنا بنزع الخافض**، أصل الكلام، (ورثته عن كابرٍ عن كابر)؛ فنصب بنزع الخافض، وأني ورثته عن أبي، وأبي عن جدي، وهكذا...

ولا شك أن هذا من عدم شكر الله ﷻ؛ كما قال و ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾[النحل:83]، مرّ بنا قول مجاهد رحمه الله أن يقول (هذا مالي ورثته عن آبائي)؛ فهذا جعله الله ﷻ من إنكار نعمة الله ﷻ ..

«فقال: إن كنت كاذبا، فصيرك الله إلى ما كنت...»

هذا نستفيد منه مشروعية الدعاء المشروط، ما دعا عليه دعاءً مطلقاً؛ إنما علق الأمر، إن كنت كاذباً؛ فصيرك الله إلى ما كنت، ولعل الله ﷻ استجاب ذلك، لم يأتِ في ختام الحديث، ما الذي آل إليه أمر الأبرص،والأقرع. لكن لعل الأمر، والله تعالى أعلم؛ أنه قد أُستجيب للملك، لأنه في الحقيقة كان كاذبا.

«قال: فأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا؛ فقال إن كنت كاذبا؛ فصيرك الله إلى ما كنت...»

سقط هاذان في الامتحان، ما نجحا، ابتلاهم الله ﷻ، لكن النتيجة أنهما فشلا، وما نجحا، وأما الثالث؛ فهو الذي ثبته الله ﷻ؛ فرضي الله ﷻ عنه، كانت نتيجة امتحانه أن ثُبت، وفاز برضى الله ﷻ.

«قال: وأتى الأعمى في صورته، وهيئته؛ فقال، رجلٌ مسكين، وبن سبيل؛ قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك. أسألك بالله الذي رد عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري؛ فقال قد كنت أعمى؛ فرد الله إلى بصري؛ فخذ ما شئت، ودع ما شئت؛ فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله...»

سبحان الله، هذا الرجل صاحب إيمان؛ قام بشكر الله ﷻ؛ فكان منه الاعتراف، كان منه الاعتراف،

- **أولاً**: بقلبه،
- **ثانيا**: **بلسانه**، اعترافه بقلبه كان؛ لأن لسانه اعترف، والألسنة مغاريف القلوب؛

فاعترف بلسان وقلبه أنه من أنعم عليه بهذه النعمة هو الله ﷻ، رد عليه بصره بعد أن كان أعمى، وكذلك أعطاه هذا المال، وقد كان مسكينا.

- **ثالثا**: وهو أنه أدى شكر الله ﷻ عملاً: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾[سبأ: 13]؛

أدى الحق الذي أوجبه الله ﷻ عليه؛ فقال لهذا الرجل، خذ ما شئت،

فوالله لا أجهدك؛ يعني لا أشق عليك، ولا أمنعك أن تأخذ شيئاً لله.

أنظر إلى التوحيد والإخلاص، أنه لا يجهده لأجل الله وليس لأجل المدح، و الرياء، إنما كان لأجل الله ﷻ وجاء في رواية عند البخاري، **(فإني لا أحمدك)**، وليس لا أجهدك،

والمعنى أنني لا أحمدك، ولا أشكرك إن تركت شيئاً تحتاج إليه، وهذا دليلٌ على كرم هذا الرجل، وفي هذا ما يدلك على فضيل الكرم، وقبح البخل.

واﻟﺤﺪيث فيه فوائد كثيرة:

- من ذلك أن ذكر الغير بما يقبح ليس من الغيبة، إذا لم يسمى الشخص، إذا لم يسمى الفاعل، ذلك لم يعد غيبة؛ لأجل هذا هؤلاء الثلاثة، ما ذكرت أسمائهم.
- وفى هذا أيضاً ثبوت الإرث في الأمم السابقة، **قال**: ورثته كابراً عن كابر.
- كذلك فيه فضيلة الرفق بالضعفاء، وأن هذا من أسباب حلول رضى الله ﷻ.
- وفى هذا أيضاً خطر، وقبح البخل، وأنه يؤدى إلى مفاسد؛ لأنه بخل كذب، ولأنه بخل كفر نعمة الله سبحانه، ولأنه بخل ما أدى الحق الواجب عليه.
- وفى هذا أيضاً؛ اعنى في هذا الحديث من الفوائد، أن الدعاء المشروط جائز، وهذا ينفع الإنسان في المواضع التي يحصل عنده فيها شك؛ فاستحقاق هذا المدعو له هذا الدعاء؛ سواءً كان دعاء له، أو دعاء عليه؛

فإن من المشروع حينئذ في حال الشك، أن يدعو الإنسان، ويشترط في دعائه؛ حتى يكون دعائه دعاءً صحيحا.

«فقال: أمسك مالك؛ فإنه ابتُلِيتم؛ فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» أخرجاه.

سخط على صاحبيك، يبدو –والله أعلم–أن قصة الأقرع، والأبرص اشتهرت؛ لذلك قال صاحبيك، **وهذا فيه فائدة لغوية**؛ أن الصحبة تطلق في اللغة على أدنى ملابسة، وأدنى مقارنة؛ لأن هؤلاء الثلاثة فيما يبدو –والله أعلم–، إنما اشتركوا في الامتحان، ومع ذلك أثبت الصحبة،

قال ﷺ **«أنتم صواحب يوسف»** فأدنى ملابسة يصح في اللغة أن يكون معها إطلاق لفظ الصحبة.

والخلاصة التي نصل إليها: وجوب أن يشكر الإنسان نعمة الله ﷻ، وضرورة الحذر من كفران نعمة الله جل وعلا، إما بعدم الاعتراف القلبي، أو عدم الاعتراف باللسان، أو بعدم القيام بما أوجب الله ﷻ، أو أذن في هذه النعمة، وكل شيء بحسبه؛ فالمال له شكرٌ، والجاه له شكرٌ، والعلم له شكرٌ، وغير ذلك. والموفق الذي يقوم بشكر الله ﷻ على كل نعمة أنعم الله ﷻ بها عليه.

الدرس الحادي والسبعون – ١٢٥٥

٥٠- باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء ﴾ [الأعراف:190] الآية.

فلا يزال المؤلف رحمه الله يوالي ذكر الأبواب التي تحث على تكميل التوحيد، وتحذر من كل ما يقدح فيه، ومن ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، والذي ينبه فيه المؤلف رحمه الله على أن من قوادح التوحيد ومما ينافي كماله الواجب، وقد يكون منافي لأصل التوحيد، تعديد الأسماء لغير الله ﷻ

قال ابن حزمٍ: اتفقوا على تحريمِ كلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لغيرِ اللهِ كَعبدِ عمرٍو، وعبدِ الكعبةِ، وما أَشْبَهَ ذلكَ، حاشا عبدَ المُطَّلبِ.

هذا الإجماع الذي نقله ابن حزم رحمه الله بكتابه (مراتب الإجماع)، لا شك أنه إجماع صحيح، فإن العلماء متفقون على تحريم كل أسم معبد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وعبد شمس، وغير ذلك مما كثر قديمًا ويكثر حديثًا،وذلك أن ساق الشريعة قائمة على تعبيد الخلق لله ﷻ،فالخلق جميعًا عبيد لله ﷻ

كل الخلق عبيد لله جلّ وعلا، فإما أن يكونوا عبيد لله ﷻ **عبودية الاضطرار**، يعني أنهم عبيد لمالكهم، وسيدهم، وخالقهم، ومدبر شأنهم، والمتصرف فيهم بما يشاء، وهو الله ﷻ كما قال جل وعلا: ﴿إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:93].

عبودية الاختيار: كل الخلق واجب ألا يعبدوا إلا لله ﷻ فإن من الخضوع والذل والعبودية لله ﷻ أن تُعبَّد الأسماء له تبارك وتعالى وخلاف ذلك نوع من الشرك مع الله سبحانه.

ولا شك أن مجرد التعبيد لغير الله في الاسم شرك أصغر،

فإذا جمع إلى ذلك اعتقاد أن غير الله ﷻ يستحق ما يستحقه الله سبحانه من العبادة، فهذا لا شك أنه قد أرتقى إلى الطامة العظمى **وهي الشرك الأكبر،**

وهذا النوع من الشرك وهو تعبيد الأسماء لغير الله شيئًا كان فاشيًا قديمًا،

فأهل الجاهلية كانوا يعبدون كثيراً لغير الله، تجد من أسمائهم عبد الكعبة، وعبد الشمس، وعبد الدار، وعبد اللات، وعبد مناة، وعبد هُبل، وعبد العزى، إلى غير ذلك من هذه التسميات الشركية الكثيرة.

كذلك الشأن في أهل الأديان الأخرى كالنصارى، إذ ينتشر فيهم التعبيد للمسيح، تجدهم يسمون عبد المسيح،

وفرق الضلال لا سيما من كان من المنتسبين إلى قطبي الضلال الذين هم عباد القبور،

- **سواء كانوا من الغلاة في آل البيت،**

فتجد من هؤلاء من يتسمى بعبد الحسين، وعبد الحسن، وعبد الزهراء، وعبد الرضا وما شاكل ذلك.

- **أو كانوا من الغلاة في الأولياء والصالحين**

تجد عبد السيد ومرادهم بالسيد يعني الولي وليس الله ﷻ ويسمون عبد الرسول، و عبد النبي، ويسمون غلام محمد، يسمون عبد الأمير ومرادهم أمير المؤمنين على رضي الله عنه إلى غير ذلك من هذه التسميات.

وكلها ولا شك باطلة في الشريعة، ومحرمة أشد التحريم، بل إنها نوع من الشرك بالله ﷻ لذلك من تأمل سيرة النبي ﷺ في أصحابه، تجد أنه كان يغير الأسماء المعبدة لغير الله،
ومن ذلك ما أورد المؤلف رحمه الله كعبد عمرو وعبد الكعبة، وفي الإصابة لأبن حجر أربعة من الصحابة أو نحو هذا العدد، كانت أسمائهم عبد الكعبة قبل مجيء الإسلام، فغير ذلك النبي ﷺ وجميع هذه الأسماء غيرها النبي ﷺ إلى عبد الرحمن ومن أولئك عبد الرحمن بن عوف.

بقيت وقفة مع قول ابن حزم رحمه الله: **(حاشا عبد المطلب)**،ليس مراده أن التسمية بعبد المطلب جائزة، إنما مراده أن هذا الاسم قد وقع فيه خلاف على وجه الخصوص، وصدق، الخلاف واقع في هذا الاسم، **لكن الصواب الذي لاشك فيه** أنه من جنس بقية الأسماء المعبدة لغير الله، فلا تجوز التسمية بعبد المطلب كما لا تجوز التسمية بعبد الدار أو عبد الشمس أو عبد اللات،

☒ وأحتد القائلون بجواز ذلك بأن النبي ﷺ أقر هذا الاسم فإنه ﷺ كما في حديث البراء في الصحيحين قال يوم حنين: «**أنا النبي ولا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»، قالوا فهذا إقرار من النبي ﷺ بجواز هذه التسمية حيث سمى نفسه بابن عبد المطلب، إذن تجوز التسمية بعبد المطلب.

وهذا الذي ذكر غير صحيح بل هو خطأ، واستدلال لا يصح.

أولا: **فإن النبي ﷺ كان ها هنا حاكيًا لا منشئًا والحكاية لا تقتضي الإقرار**؛ بمعنى، أن هذا اسمه ﷺ وهذا الذي يعرف به في قبائل العرب، وهذا شأن لا يستطيع تغيره، هذا أسم مشهور عند العرب

كافة، فلم يكن في قدرة النبي ﷺ أن يغير ذلك، فهو إذًا حكي واقعًا لا يمكن تغييره، وحاشا أن يكون النبي ﷺ منشئًا اسمًا جديدًا أو مقرًا لاسم يمكن تغييره من هذا الجنس.

ثانيا: وهو أن هذا الاسم في أصله يعني فيما يتعلق باسم جد النبي ﷺ فالعبودية المذكورة هاهنا ليست عبودية الخضوع، ليست العبادة المعروفة شرعًا، إنما هذه يراد بها في أصل التسمية **عبودية الرق حيث أنه ينبغي التفريق بين الأمرين:** فرق بين التسمية باسم معبد لغير الله جل وعلا أن ذلك فيه نوع خضوع لغير الله ﷻ الذي هو من العبودية الاصطلاحية الشرعية وبين الوصف بالعبودية التي ترجع إلى الرق، فيجوز أن تقول فلان عبد فلان يعني أنه غلامه أنه رقيقًا له.

ثم إنك لتعجب من الاستدلال بقول النبي ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»**على جواز التعبيد بهذا الاسم مع أنه قد تكلم النبي ﷺ بغير ذلك أيضًا، فإذا جاز هذا جاز هذا، وإذا منع من هذا ينبغي أن يمنع هذا.

فإنه في الصحيحين تكلم النبي ﷺ باسم عبد مناف فإنه ﷺ لما صاح في قريش قال: **«يا معشر قريش، يا بني عبد مناف»** وفي رواية عند مسلم لهذا الحديث: **«يا بني عبد شمس»**، كما ثبت في الصحيحين أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«خير دور الأنصار، بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل»**.

إذا الصحيح الذي لا شك فيه، أن النبي ﷺ كان في نطقه بهذه الأسماء يحكي الشيء الواقع الذي أصبح معروفًا ومشتهرًا فلا يمكن تغييره والله تعالى أعلم.

إذًا يتلخص لنا أن هذا الاستدلال الأول، استدلال غير صحيح،

وثنوا باستدلال ثانٍ وهو إقرار النبي ﷺ تسمية عبد المطلب بن الحارث بهذا الاسم –عبد المطلب ابن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب– قالوا عدم تغيير النبي ﷺ هذا الاسم دليل على جواز التسمية به، وهذا قد ذكره ابن عبد البر في كتابه (الاستيعاب)،

لكن ما ذكر فيه نظر واستدرك عليه ابن حجر رحمه الله في الإصابة. وذكر أن الزبير ابن بكار وهو من أعلم الناس بنسب قريش ورجالها، ذكر أن اسم هذا الصحابي إنما هو المطلب وليس عبد المطلب، فالصواب أن اسمه المطلب ابن ربيعة وليس عبد المطلب وبالتالي؛ لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ له اسم معبد لغير الله جلّ وعلا والله سبحانه أعلم.

وعن ابن عباس في الآية قال: لَمَّا تَغشَّاها آدمُ حَمَلتْ، فَأتاهما إبليسُ، فقال: إني صاحِبُكُمَا الذي أخرجتكُمَا من الجنة لِتُطِيعُنِّي أو لَأَجْعَلنَّ لهُ قَرْنِي أَيِّلٍ فَيَخْرُجَ مِن بَطنِكِ فَيَشُقَّهُ ولأفعلنَّ – يُخَوِّفُهُما– سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحارثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخرَجَ مَيّتًا ثم حَمَلَتْ، فأتاهُما فقال مِثلَ قَوْلِهِ فأبيا أن يطيعاهُ، فخرجَ ميتا ثم حملت، فأتاهما فَأَدْرَكَهُما حُبُّ الولدِ فسَمَّيَاهُ عبد الحارث، فذلك قولُهُ تعالى: ﴿جعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتاهُما﴾[الأعراف:190] رواه ابن أبي حاتم.

ولهُ بِسندٍ صحيح عن قتادةَ قال: «شركاءَ في طاعتهِ، و لم يكنْ في عبادته»

وله بسندٍ صحيح عن مجاهدٍ في قولهِ ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ قال: «أشفقا أنْ لا يكونَ إنسانا» وذكر معناهُ عن الحسنِ، و سعيدٍ، وغيرهما

هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما فيه تفسير قول الله جلّ وعلا: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:190] وبناء على هذا التفسير فإن من الشرك بالله ﷻ تسمية الأولاد بأسماء معبدة لغير الله، كما جاء في هذا الأثر، حيث جاء فيه أن آدم وحواء عليهما السلام سميا ابنهما عبد الحارث، والحارث على ما ذكر اسم لإبليس فكان المعنى أنه عبد إبليس، فجعل الله ﷻ ذلك شركًا، قال: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾

وهذه الآية فيها بحث طويل من جهة كون هذه الآية يراد بها آدم وحواء أو لا يراد ذلك.

واخلاف في ذلك يرجع إلى قولين:

أما القول الأول: فإنه المعنى في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إنما هو آدم وحواء عليهما السلام حيث سميا ابنهما عبد الحارث

وهذا القول نسب إلى جمهور أهل العلم، بل حكى ابن جرير رحمه الله الإجماع عليه.

والقول الثاني: أن هذه الآية لا تدل على وقوع آدم وحواء عليهما السلام في الشرك، بل لا يراد بذلك آدم وحواء، وإنما يراد من ذلك من كان مشرك من ذريتهما.

استدلال القول الأول كان بحديث وأثر وإجماع:

أما الحديث، فهو حديث سمرة بن جندب مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وهذا الحديث في معنى هذا الأثر الذي بين أيدينا قريب منه في المعنى، وخلاصته أن آدم وحواء عليهما السلام سميا ابنهما بعبد الحارث، **لكن هذا الحديث حديث ضعيف، لا يصح عن رسول الله ﷺ**، خرجه الإمام أحمد والترمذي والطبري وغيرهم، **وفيه علل عدة:**

➢ **أولًا:** هو من رواية عمر ابن إبراهيم العبد عن قتادة، وروايته عن قتادة ضعيفة مضطربة، يروي عنه مناكير، لذلك ما رواه عن قتادة غير مقبول، كما نص على ذلك الحفاظ، هذه علة.

➢ **ثانيا:** وهي أن، الحديث جاء من رواية الحسن عن سمرة وفي سماع الحسن من سمرة خلاف مشهور.

➢ **ثالثا:** هذا عدا أنه قد عنعن في هذا الإسناد -أعني الحسن- وكان رحمه الله كثير التدليس.

➢ **رابعًا:** وهو أن الأسانيد الصحيحة قد جاءت عن الحسن البصري، كما قال ابن كثير في تفسير الآية بغير ذلك، وهو أنها في ذرية آدم وحواء المشركين، ولو كان عند الحسن شيء ثابت في ذلك عن رسول الله ﷺ ما كان ليعدل عنه.

خامسا: وهو أن هذا الحديث أختلف في رفعه ووقفه على سمرة.

أما الأثر: فروى معنى هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه كما بين أيدينا في هذا الأثر، وروي أيضا عن أُبي ابن كعب في إحدى طرق هذا الأثر عن ابن عباس، أن ابن عباس رضي الله عنه روى ذلك عن أُبي ابن كعب، وعلى كل حال المروي عن ابن عباس رضي الله عنه في ثلاث روايات أو نحوها لا أعلمه يصح عنه، كذلك الحال في أثر أُبي ابن كعب، وأحسنها حال أثر سمرة ابن جندب رضي الله عنه، واحتمل ابن كثير رحمه الله في تفسيره أن يكون المروي من ذلك عن الصحابة متلقى من قبل أهل الكتاب، هذا عن الآثار.

أما عن الإجماع المذكور: فإنه إجماع غير مُسَلَّم،

- وذلك أن ابن جرير رحمه الله- القاعدة عنده أنه يجعل قول الأكثر إجماعًا، يعني ليس الإجماع عنده قول جميع المجتهدين أو قول جميع العلماء، وكان لا يعتبر بمخالفة الواحد أو الاثنين في الإجماع، ولا شك أن هذا مخالف لقول جمهور الأصوليين من أن الحجة في إطباق **جميع العلماء المعتبرين،**

- وكيف يصح الإجماع من أهل العلم.وثمة رواية أخرى عن ابن عباس أخرجها ابن أبي حاتم أيضا الذي روى الأثر الأول وأن الآية ليست في آدم وحواء وإنما في ذريتهما،
- أضف إلى هذا أن هذا ثابت عن الحسن البصري رحمه الله إضافة إلى جماعة من المفسرين سيأتي ذكرهم عند القول الثاني، فالذي يبدو والله تعالى أعلم أن هذا الإجماع غير صحيح.

۞ ثم يبقي النظر بعد ذلك في الآية وكونها تدل حقيقة على أنها في آدم وحواء أم لا؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن ذلك غير صحيح لأوجه كثيرة منها:

⬅ **الوجه الأول:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد انعقد الإجماع على أنهم معصومون من الكبائر، كما حكى ذلك المجد ابن تيمية وغيره، فكيف بالشرك بالله ﷻ.

قال بعضهم انفصالا عن هذا الإيراد أيضا أن الذي سمى هذه التسمية إنما هو حواء، وأما آدم عليه السلام فإنه لم يسمي ذلك خروجًا من هذا الإيراد، **والجواب عن هذا** أنه جواب غير صحيح

أولا: لأن الله تعالى قال: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾[الأعراف:190].

ثانيًا: أن هذه الآية المروي فيها والذي هو العمدة عند أصحاب هذا القول، ليس فيه أن الذي سمى حواء فقط، إنما كانت التسمية من الاثنين.

ثالثًا: وهو أنه لو سلم بأن حواء عليها السلام هي التي سمت فإن آدم عليه السلام كان مقرًا لها، وبالتالي فإنه لا يصح إذًا هذا الجواب.

⬅ **الوجه الثاني:** أن يقال إن الذنب الذي وقع ها هنا من آدم عليه السلام إما أن يكون قد تاب منه أو أنه لم يتب منه، لا يخلو الأمر من هاتين الحالتين.

✸ **فإما إن قيل أنه لم يتب من ذلك فلا شك أنه قول عظيم**، لا يمكن أن يقول به أحد، وذلك أن اتفاق العلماء على الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– معصومون من الإقرار على الذنوب، فكيف يقال أنهم أو أنهما أو أنه عليه السلام لم يتب من الشرك بالله ﷻ؟! فهذا لا يمكن أن يقال به.

✸ أما إن قيل أنه قد تاب من ذلك، فإنه يقال حين إذن يَبعُد في حكمة الله جلّ وعلا أن يذكر الذنب في حق النبي ولا تذكر التوبة، واعتبر في هذا ما جاء في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل أعتبر

في هذا ما جاء في آدم عليه السلام على وجه الخصوص، فقد قال جل وعلا لما بين ما وقع فيه آدم عليه السلام من أكل الشجرة قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:37]، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه:121]، إذن إذا ذكر في القرآن مما وقع من الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– فإنه يذكر التوبة ولابد، وها هنا لم يذكر.

الوجه الثالث: وهو أن آدم عليه السلام أنه يعتذر يوم القيامة عن الشفاعة العظمى بذكر ذنبه، «**إن الله قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإن الله نهاني عن أكل الشجرة فعصيته، نفسي نفسي**»؛ قال العلماء: ولو أنه عليه السلام قد وقع منه هذا الذنب لكان أجدر بالذكر، لأن ذنب الشرك أعظم من ذنب أكل الشجرة.

الوجه الرابع : أن هذه الآية لو كانت في آدم عليه السلام وحواء، لورد في ذلك ذكر إبليس، وأنه أغواهم كما جاء ذلك في الآيات الأخرى في شأن الأكل من الشجرة، وهذا لم يحصل هنا أيضا.

الوجه الخامس: وهو أن المتأمل في العادة الجارية في ذكر قصص الأنبياء يجد أن المضطرد هو التصريح بأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حين ذكرهم أو حين بيان قصصهم، فإنك تجد التصريح بذكر أسمائهم، وها هنا ليس شيء من ذلك، ما ذكر أسم آدم ولا ذكر أسم حواء عليهما والسلام.

الوجه السادس: وهو الذي يرجع إلى سياق الآيات التي جاء فيها أو التي ذكر فيها هذا الاستدلال، فإن الله تعالى قد قال: في سورة الأعراف: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:189-190]. تأمل في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، ولو كان المراد إشراك آدم وحواء بإبليس في التسمية لقال: **جعلا له شريكًا وليس شركاء.**

الوجه السابع:وهو قول الله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الأعراف: ولو كان المراد آدم وحواء لقال: **فتعالى الله عما يشركان.**

الوجه الثامن: وأن الله تعالى قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:191]، ولو كان المراد الشرك بإبليس في التسمية، لقال: **أيشركون من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون**، لأن الأصل في (ما) أن تقال في حق غير العاقل، وأن تكون (من) في حق العاقل ومن ذلك إبليس.

🡸 **الوجه التاسع**: وهو أن المتأمل في سياق الآيات يقطع أنه لا يمكن أن يراد بها آدم وحواء:
﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ۞ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَايَتَّبِعُوكُمْ﴾ أترى أن هذه الآيات يراد بها آدم وحواء، هذا لا يمكن أن يقال به، بل الناظر في هذه الآيات والمعتبر بما سواها من الآيات يجد أن السياق يتعلق بالمشركين وليس بآدم وحواء.

🡸 **الوجه العاشر**: وهو في المروي، كالذي بين أيدينا، أترى إبليس يأتي إليهما فيقول أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، أهذا كلام من يريد الإغواء ومن يريد الإغراء؟ لأنه لو قال ذلك فإنهما سيتذكران أن الاستجابة له إنما تؤدي إلى الشر كما حصل في شأن أكل الشجرة.

🡸**الوجه الحادي عشر**: من البعد بمكان أن يصدق آدم وحواء أن إبليس عنده قدرة على أن يخرج في رأس هذا الجنين قرنًا كقرن**الأيّل** :الذي هو من جنس الوعول،يعني هذا كلام لا يمكن أن يصدق به أحد. ثم من الذي يخلق، هذا الجنين في البطن، أليس هو الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–؟ إذا قال إبليس أنه هو الذي يصنع ذلك، وصدقا ذلك، كان هذا منهما شرك أكبر، فهذا مما يدلك على أن هذا المروي لا يمكن التسليم به.

الذي يظهر والله أعلم أن القول الثاني وأن المراد بهذه الآية ليس آدم وحواء، أن هذا هو الصواب.
وهو الذي روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الرواية الثانية، وكذلك هو قول الحسن رحمه الله وقد أختاره جماعة من العلماء المحققين والمفسرين المعروفين كابن القيم وأبن كثير وكذلك القرطبي، و ابن حزم،و من المتأخرين الشيخ الأمين الشنقيطي، وكذلك الشيخ العثيمين، وغيرهم من أهل العلم رحمة الله تعالى على الجميع.

۞ **وأصحاب هذا القول افترقوا إلى فريقين:**
➢ **منهم من قال**: إن مطلع الآية أريد بها آدم وحواء: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ثم بعد ذلك حصل انتقال، انتقال من الشخص إلى الجنس، جنس البشر، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ من هنا فما بعد يراد بذلك جنس البشر، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ يعني: جامعها:

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ...﴾ إلى أخره، فيكون المراد بمن أشرك هم المشركون من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام وهذا أسلوب معروف وله نظائر في القرآن.

➢ **والفريق الثاني** قالوا: أن هذه الآيات ليس لها علاقة بآدم وحواء لا من قريب ولا من بعيد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ خلقكم من نفس واحدة يعني: من جنس واحد وأصل واحد، وجعل منها زوجها ليسكن إليها يعني: من هذا الجنس، لم يكن خلق الزوجات من جنس أخر، إنما كان من الجنس نفسه حتى يحصل السكن إلى أخر ما جاء في السياق.

مهما يكن من شيء سواء قلنا بأن هذه الآية في آدم وحواء أو ليست في ذلك، فإن العبرة بعموم اللفظ وهذه هي الفائدة التي نريد أن نقطفها، وهي أن من الشرك بالله سبحانه وتعالى تسمية الأولاد بأسماء معبدة لغيره عز وجل لا شك أن هذا منكر ومحرم ولا يجوز، وفُسّرَ قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[الإسراء:64]، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره، تفسير ذلك أيضا بتسمية الأبناء بأسماءَ معبدة لغير الله سبحانه وتعالى.

۞ وثمة أنواع أخرى هي أفحش وأعظم من ذلك:

- اعتقاد بعض الآباء أن هذا الولد إنما هو نعمة أسداها هذا السيد، أو هذا الولي، أو هذا النبي، فلذلك فهو يجعله شريك مع الله سبحانه وتعالى في إيتاء هذا الولد، كما يكون من عباد القبور.

وهذا ولا شك شرك أكبر ليس بعده شرك.

- من ذلك أيضا مما يد خل في قول الله جلّ وعلا: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ الإشراك مع الله سبحانه وتعالى في شان التبرك، تجد أنه عند من ضعف عنده التوحيد، أو عدم عنده التوحيد تجد أنه أو تجد أنها تأتي بابنها بعد أن يولد إلى قبر الولي في زيارة لابد منها، حتى تفيض عليه بركات السيد، وهذا يفعله كثير من هؤلاء –عياذا بالله– لابد بعد الولادة من حمل هذا الطفل والإتيان به إلى قبر الولي، حتى يناله من بركات هذا الولي، فهذا لا شك أنه شرك بالله سبحانه وتعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:190].
- أضف إلى هذا أيضا إن منهم من يفحش عنده الأمر أكثر وأكثر حتى أنه يجعل نذرًا عليه أن يكون هذا الابن خادمًا للسيد، أو خادمًا للشيخ، أو خادمًا لقبر الولي، وأنه نذره لله سبحانه وتعالى لكي يكون عبدًا طائعًا وخادمًا لهذا القبر الذي يشرك مع الله عز وجل به.

فهذه أوجه وغيرها يفسر بها وداخلة في ما تدل عليه هذه الآية ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:190]

الدرس الثاني و السبعون – ١٢٧٣

٥١ – باب قول الله تعالى:﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف:180] الآية

هذا باب عقده المؤلف رحمه الله للكلام عن موضوع من الموضوعات المهمة التي الخلل فيها يؤدي إلى قدح في التوحيد الواجب،أو نقض لأصل التوحيد، وهو ما يتعلق بالإلحاد في أسماء الله ﷻ والإلحاد.

المؤلف حلى كتابه ببعض الأبواب التي تتعلق بتوحيد المعرفة والإثبات، من ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، ومن ذلك باب مر بنا سابقًا وهو باب: (من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته).

ويمكن أن يُقال أيضًا أن هذا الباب له تعلق بتوحيد القصد والطلب؛ يعني بتوحيد العبادة أيضًا، وهذا تنبيه لطيف أشار إليه حفيد المؤلف وتلميذه الشيخ: عبد الرحمن بن حسن في كتابه (قرة عيون الموحدين) الذي شرح فيه هذا الكتاب شرحًا وجيزًا، حيث أشار إلى أن المؤلف رحمه الله أراد التنبيه على غلط الذين يتوسلون إلى الله ﷻ في دعائهم بالذوات، وأن الذي ينبغي أن يُتوسل إلى الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

بعض الناس يخطئون حينما يقعون في أمر محدث مبتدع وهو التوسل إلى الله جل وعلا بالمخلوقين؛ بذواتهم أو بجاههم، فيقول : **اللهم إني أسألك بجاه فلان، وبحق فلان، وأسألك بفلان؛ وهذا أمر مُحدث ليس عليه دليل من الكتاب والسنة،** والذي ينبغي للمسلم أن يتوسل إلى الله ﷻ بهذا التوسل العظيم الذي لا توسل أعظم منه، وهو التوسل إلى الله –ﷻ– بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله وجماله.

۞ أسماء الله جل وعلا حسنى، وهذا ما نص عليه كتاب الله في أربعة مواضع:

1. في هذه الآية التي بين أيدينا آية الأعراف.
2. في آية الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الإسراء:110].
3. كذلك الموضع الثالث في سورة (طه): ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[طه:8].
4. في سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الحشر:24].

كلمة (**حسنى**):مؤنث كلمة (**أحسن**) وهي أفعل، تفضيل من (**حَسَنَة**)، كما أن كلمة (أحسن) أفعل تفضيل من كلمة (حسن).

(الحسنى): **يعني البالغة في الحسن المُنتهى**، فأسماء الله جل وعلا بالغة في الحسن المنتهى، فلا حُسن فوق حُسن أسماء الله تبارك وتعالى

۞ **وبلوغ الغاية في الحسن في أسماء الله جل وعلا يرجع إلى ثلاثة أمور:**

➢ **أولًا: أنها دالة على أعظم وأقدس مسمى وهو الله جل وعلا،**

لما كانت هذه الأعلام الدالة عليه تبارك وتعالى لا شك أنها بذلك تكون أحسن الأسماء على الإطلاق.

➢ **ثانيا: أن أسماء الله تتضمن أحسن المعاني وأعظم النعوت.**

فصفات الله ﷻ دُونت في أسمائه .إذْ كل اسم قد دل وتضمن صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وهذه المعاني والصفات أعظم ما يكون من المعاني، أعظم ما دلت عليه الأسماء من المعاني هي أسماء الله ﷻ

➢ **ثالثًا: أنها منزهة عن كل عيب وسوء ونقص، فاستحقت بذلك أن تكون أسماء حسنى.**

قال: جل وعلا: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الإسراء:110]، إذًا هنا شيء يختص به الله ﷻ .حرف (اللام) ها هنا يدل على الاستحقاق، فهي مستحقة لله ﷻ لا يشركه فيها غيره، أسماء الله جل وعلا بما دلت عليه من هذه المعاني العظيمة لا شك أنها أمر تفرد الله ﷻ به، فلا يجوز أن يشاركه في هذا الكمال أحد البتة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ هذا باب عظيم، وهو باب التأمل في حسن أسماء الله جل وعلا،

وحسن أسماء الله جل وعلا يظهر من وجوه كثيرة من ذلك

الوجه الأول: الحسن الذي يظهر من الأسماء بالنظر إلى كل اسم منها على حدة.

فكل اسم منها إن تأملته وجدت أنه يدل على أحسن المعاني وأعظمها، واعتبر في ذلك أي اسم يمر بك في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ تجد أن ما اشتمل عليه من المعاني شيء عظيم يفوق الوصف.

الوجه الثاني: أن من أسماء الله ما يدل على أكثر من معنى،وكلها بالغة في الحسن غايته.

وهذا أمر عجيب أن يكون الاسم الواحد يدل على معنيين أو على ثلاثة معانٍ، أو على أربعة معانٍ كلها حق، وكلها غاية في الحسن، وانظر في هذا وتأمل في اسم الله (الودود)، وتأمل في اسم الله (العزيز)، بل إن منها ما هو جامع لكل معاني الربوبية والألوهية كما تجده في قوله في الاسم العظيم (الله).

الوجه الثالث: بالنظر إلى اقتران بعضها ببعض.

وهذا قد جاء في كتاب الله جل وعلا كثيرًا، كذلك في أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ.

إذا ضممت أحد هذه الأسماء إلى الآخر ظهر لك حسن فوق الحسن، واعتبر في هذا إلى الاقتران مثلًا، بل إلى اسميه تعالى (الغفور والرحيم) أو (العزيز والحكيم) وهذه بالذات لها شأن أخص، ويظهر الكمال وغاية الحسن فيها من وجهٍ أظهر، وهي الأسماء التي يُطلق عليها بعض أهل العلم بـ(الأسماء المزدوجة).

الوجه الرابع: لا توجد فيها ترادفًا مطلقا،

ليس في أسماء الله ما يدل الواحد منه على ما يدل عليه الأخر من جميع الوجوه، إنما تجد بعض الأسماء أعم من بعض، أو تجد بعض الأسماء أخص من بعض، وذلك مما يزداد معه يقينك بحسن أسماء الله تعالى.

المقصود الأمر الذي يجب على كل مسلم أن يعتقد به أن أسماء الله ﷻ حسنى بالغة في الحسن الغاية ومن اعتقد ذلك استفاد فوائد شتى:

الفائدة الأولى: اعتقاد أنها توقيفية.

ومعنى قولنا أنها توقيفية يعني لا يُسمى الله جل وعلا إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، لا يُتجاوز في هذا الباب القرآن والحديث، فإن العقل لا يستقل بالوصول إلى أحسن المعاني.

وبالتالي يظهرخطأ من قال من المتكلمين إن أسماء الله ﷻ يمكن أن تثبت له عن طريق الاجتهاد.

- نبينا الكريم ﷺ الذي هو أعلم الخلق بالله يقول: «**لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**». فإذا كان أعلم الخلق به عليه الصلاة والسلام لا يحيط ثناءً لله وعليه مع أنه أعلم الخلق به، إذًا لا يُمكن للعباد أن يصلوا إلى معرفة ما يليق بالله جل وعلا من الأسماء والصفات، وحسبهم أن يقفوا عند حدود ما جاء في القرآن والسنة.
- أضف إلى هذا ما جاء في مسند الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وهو قوله ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك**» فالحديث صريحٌ بكون أسماء الله جل وعلا من تسميته هو جل وعلا لنفسه لا من تسمية الخلق له.
- أضف إلى هذا أن تسمية الله بما لم يسمّ به نفسه يشملها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:169]، ﴿ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:26]، وقوله:﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه:110].

الفائدة الثانية: أن أسماء الله جل وعلا مشتقة لا جامدة كما يقوله ما يقوله من المتكلمين.

بل كل اسم من أسماء الله جل وعلا فإنه يدل على معنى وصفة جليلة، بل هي أحسن ما يكون من الصفات والمعاني، وذلك أن الله جل وعلا لم يتسمى بالعزيز إلا لأنه مُتصف بصفة العزة، وهكذا دواليك.

الفائدة الثالثة: وهو من معرفتنا بأن أسماء الله حُسنى دعاءه بها، دعاء العبادة ودعاء المسألة.

دعاء العبادة: ذلك مما رتب الله ﷻ على كون أسماء الله حسنى، قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ إذن لما كانت حسنى كان ينبغي أن يكون دعاءه بها.

دعاء المسألة: فهو الدعاء المعروف وهو النداء والطلب والسؤال. فإذا دعوت الله ﷻ فادعُه بأسمائه الحسنى ﷻ، فهذا أحسن وأبلغ ما يكون من دعاء المسألة.

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه (طريق الهجرتين): **السير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب وفتحه عجب، وصاحبه قد حيزت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه، غير متعب ولا مشدود، ولا مشتت عن سكنه، ولا مبعد عن وطنه.** ومعلوم أن كل اسم من أسماء الله له عبودية تخصه، فالتعبد لله ﷻ باسمه (الغفور) يختلف عن التعبد لله ﷻ باسمه (الشكور)، يختلف عن التعبد لله ﷻ باسمه (العزيز).وهذا الباب يحتاج المسلم أن يتأمل فيه تأملًا عظيمًا،

الفائدة الرابعة: وهو تنزيه أسماء الله جل وعلا عن أن يلحقها أي نقص أو عيب.

قال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ **يشتمل على معنيين:**

الأول: أن قوله ﴿فَادْعُوهُ﴾ هو الدعوة بمعنى: **التسمية**، من قولهم (دعوته زيدًا)؛ يعني سميته زيدًا، فيكون معنى قوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ يعني سموه بها.

والمعنى الثاني: فادعوه من الدعاء، الذي مشتمل على دعاء العبادة ودعاء المسألة، وكلاهما مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

يجب أن يُسمى الله بهذه الأسماء، ويُعتقد أنها أعلام دالة عليه، كما أنه –سبحانه–يُدعى بهذه الأسماء دعاء العبادة ودعاء المسألة. وأضاف إلى هذا ابن القيم في المدارج **نوعًا ثالثًا وهو دعاء الثناء**، والذي يبدوا والله أعلم أنه داخل في دعاء العبادة.

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:180].

(ذَرُوا): **فعل أمر**، وهذه الآية؛ أعني قوله: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

- جمهور أهل العلم على أنها آية محكمة، **وهذا هوالصواب**.
- وذهب ابن زيد في بعض المفسرين إلى أنها آية منسوخة، فإنه فهم من قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، فهم تَرْكُ التعرض لهؤلاء الذين يُلحدون في أسماء الله جل وعلا. وبالتالي تكون آية منسوخة بآيات القتال والجهاد.

وقوله: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ فيه فائدتان:

الأولى: تنبيه للمسلمين. من أن يكون حالهم كحال هؤلاء الملحدين في أسماء الله جل وعلا فينبغي على الإنسان أن يُجانب هذه الحال، وألا يكون كهؤلاء لئلا يصيبه ما أصابهم.

والثانية: تحذير وتهديد ووعيد للكافرين اللذين يُلحدون في أسماء الله جل وعلا. فإن هذا الأسلوب في لغة العرب يُفيد معنى التهديد والتوعد، على نحو قوله تعالى﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾[الحشر:3] ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام:91].فإنهم ينتظرهم عذاب وقارعة من الله جل وعلا.

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قرأ جمهور أهل العلم (**يُلْحِدُونَ**) من (أَلْحَدَ –يُلحِد)، وقرأ حمزة رحمه الله ب(يَلحَدون) بفتح الياء من (لحَدَ، يَلحَدُ)، والقراءتان معناهما واحد.

الإلحاد في اللغة هو الميل عن القصد، ومن ذلك اللحد في القبر؛ لأنه مائل إلى شق القبر عن وسطه، **والإلحاد في أسماء الله**: هو كما قال ابن القيم في كتابه (المدارج): **العدول بها عن الصواب فيها**..

الله جل وعلا يحذرنا في هذه الآية من حال هؤلاء الذين ضلوا الصراط المستقيم فألحدوا في أسماء الله،

وإذا تأملت في كتاب الله وجدت النهي عن الإلحاد في أمرين:

- وجدت النهي عن الإلحاد في أسماء الله كما في هذه الآية.
- ووجدت النهي عن الإلحاد في آيات الله، كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[فصلت:40].

✵ وآيات الله نوعان:

آيات شرعية: هي الآيات التي أنزلها الله ﷻ على رُسله، ومن ذلك القرآن الكريم الذي بين أيدينا.

والإلحاد في الآيات الشرعية يكون بأمرين: بتكذيبها وبتحريفها.

الآيات الكونية: فكل ما تراه ببصرك من مخلوقات الله ﷻ فإنها آيات دالة على وجوده وربوبيته وألوهيته ووحدانيته، وهذه الآيات الإلحاد فيها يكون بنسبتها لغير الله، أو اعتقاد أن له فيها مُشاركًا أو مًعاونا.

الإلحاد في أسماء الله: كلمة جامعة لكل ما يُخالف الحق في باب الأسماء والصفات، وهذا له أوجه كثيرة، من ذلك ما قال ابن القيم رحمه الله في (النونية): فحقيقة الإلحاد فيها الميل بـ الإشراك والتعطيل والنكران.

النوع الأول: **الإلحاد بالإشراك أو إلحاد التشريك: وهو أن يُعتقد تشريك غير الله ﷻ معه فيها.**

ومن ذلك ما كان من المشركين الأوليين اللذين سموا طواغيتهم وأصنامهم بأسماء الله جل وعلا اشتقوا لها أسماء من أسماء الله جل وعلا كما فعلوا في تسمية صنمهم العظيم (اللات) لكونهم اشتقوا له هذا الاسم من اسمه سبحانه (الله)، أو من اسمه سبحانه (الإله)، على خلاف بين أهل العلم، كذلك اشتقوا (العزى) من (العزيز)، واشتقوا (مناة) من (المنان). إذًا هذا إلحاد بالإشراك مع الله ﷻ فيها.

ومن ذلك أيضًا ما يكون من غلاة القدريين اللذين قد يسمون سادتهم وآلهتهم وطواغيتهم بأسماء الله جل وعلا، بل إنهم قد يعتقدون أن المعاني والصفات التي تضمنتها هذه الأسماء يشارك هذا فيها الله ﷻ، قد تجد منهم من يُسمي إلهه بالقدير، ويعتقد أن له قدرة كقدرة الله ﷻ، أو يسميه بالرحيم ويعتقد أن له رحمة كرحمة الله ﷻ، **إذًا هؤلاء لا شك أن إلحادهم وشركهم أعظم من إلحاد وشرك الأولين.**

النوع الثاني: **إلحاد النكران: بمعنى إنكار هذه الأسماء من أصلها، ونفي تسمية الله ﷻ بها،**

ومن ذلك ما وقع من المشركين الأولين في اسم الله **(الرحمن)**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾[الفرقان:60] كما مر بنا ذلك سابقًا، ومن ذلك أيضًا ما وقع فيه من المنتسبين إلى هذه الملة (الجهمية) اللذين نفوا أسماء الله ﷻ، واعتقدوا أن الله ﷻ لا يتسمى بهذه الأسماء لأنه يشارك المخلوق فيها الله جل وعلا، فنفوا أسماء الله ﷻ وأولوها بمخلوقات منفصلة عن الله جل وعلا.

النوع الثالث: التعطيل: والتعطيل في أسماء الله جل وعلا نوعان:

أولًا: تفريغ وتعطيل الأسماء عن معانيها، واعتقاد أنها أسماء جامدة لا تدل على معاني، فالشأن فيها كالشأن في أسماء المخلوقين، ربما يُسمى صالح من ليس صالحًا، وربما يُسمى سعيد من ليس سعيدًا، وهذا لا شك أنه من الأمر الباطل المخالف لإجماع السلف، فأسماء الله كما قد علمنا ماذا متضمنة لمعاني عظيمة هي أحسن ما يكون من المعاني، وهذا الذي يُعبر عنه أهل العلم بأنها أسماء مشتقة.

ثانيا: إلحاد التعطيل اللذين أولوا ما دلت عليه الأسماء من المعاني.

كما تجد في كثير من المتكلمين إذا جاءوا مثلًا إلى اسم الله (الرحمن) أولوا صفة الرحمة، أو جاءوا إلى اسمه تعالى (الودود) أولوا صفة الود، وهكذا في الأسماء التي تدل على صفات لا يُثبتونها لله جل وعلا.

النوع الرابع: تسمية الله ﷻ بما لم يسمي به نفسه.

- فكيف إذا كان ذلك نقصًا لا يليق بالله! كما فعلت اليهود عليهم من الله ما يستحقون حينما قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[آل عمران: 181].
- وكذلك النصارى مثلًا سموا الله ﷻ (أبًا)،
- الفلاسفة سموه (العلة الفاعلة) أو (العلة الأولى).

وانظر إلى سوء الأدب مع الله ﷻ أيقال في حق الله إنه علة! تعالى الله عما يقول الملحدون علوًا كبيرا.

- ومن ذلك أيضًا ما يقع في لسان بعض العوامثلًا من يدعوا فيقول: (يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا ديهور، يا ديهار، يا برهان، يا سبحان) في قائمة طويلة من هذه التسميات التي لم ترد في كتاب ولم ترد في سنة، وقد علمنا أن أسماء الله جل وعلا ماذا توقيفية، فليس للإنسان أن يُضيف إلى الله جل وعلا ما لم يُضف إلى نفسه وما لم يُثبت إلى نفسه تبارك وتعالى.

النوع الخامس: الذي هو وجه أيضًا من أوجه الإلحاد في أسماء الله جل وعلا إلحاد التشبيه،

إلحاد المشبهة الذين جعلوا أسماء الله جل وعلا دالة على صفات يشابه فيها الله جل وعلا المخلوقين، فإذا كان اسم الله جل وعلا (الرحيم) يدل على صفة الرحمة، فالرحمة من جنس رحمة المخلوقين، وإذا كان الله جل وعلا اسمه (العزيز) فعزته من جنس عزة المخلوقين، مثل هذا في بقية الأسماء، ولا شك أن هذا إلحاد، ميل عن الحق الواجب في أسماء الله جل وعلا.

النوع السادس: **إلحاد أهل الاتحاد، وهؤلاء أخبث هؤلاء الملحدين، وهؤلاء أضل الملحدين،** اللذين جعلوا كل أسماء في السماوات أو في الأرض فهي لله ﷻ؛ لأنهم يعتقدون أن الله جل وعلا هو كل شيء في السماوات وفي الأرض، حتى قال زعيمهم (ابن عربي) -عليه من الله ما يستحق-: **إن الله تعالى يتسمى بكل اسم ممدوح عقلًا وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم شرعًا وعقلًا وعرفًا.** تعالى الله عما يقول هؤلاء الملحدون علوًا كبيرا.

ذكر ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: "يشركون".

هذا الذي أورده الملف رحمه الله وهَمٌ منه أو سقطة قلم، فإن هذا التفسير الذي ليس لابن عباس ﷺ إنما هو لقتادة، أخرج ذلك ابن أبي حاتم وكذلك ابن جرير وغيرهم من أهل العلم وهذا ما نبه عليه الشارح الحفيد الشيخ سليمان في كتابه (التيسير)، مضى الكلام عن معنى الإلحاد على هذا الوجه.

وعنه: «سمَّوا اللاتَ مِن الإلهِ والعزَّى من العزيزِ».

هذا الذي يرجع أيضًا إلى الإلحاد بالإشراك، ومن ذلك تسمية آلهة المشركين بأسماء الله جل وعلا واشتقاق أسماء لها من أسماء الله جل وعلا وهذا مما أطبق عليه المفسرون في تفسير الإلحاد في أسماء الله جل وعلا وهو كما ترى مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما لكنه مروي من طريق الحوثيين، وهو مسلسل للضعفاء، لكن عامة أهل العلم إذا جاءوا إلى تفسير الإلحاد في أسماء الله فمن أول ما يذكرون هذا النوع من الإلحاد في أسماء الله جل وعلا.

وعنِ الأَعْمَشِ: "يُدخِلون فيها ما ليس منها".

يعني يسمون الله جل وعلا بما لم يُسمِّ به نفسه، وهذا الباب ينبغي

أن يُنبه الناس والعامة والأدباء والصحفيين إلى مراعاة هذا الأمر، فإن من الناس من ربما قال أو كتب فنسب إلى الله ﷻ ما ليس منه، ربما تجد بعض الكتاب المعاصرين أو الصحفيين إذا تكلم عن الله ﷻ أنه يقول أنه (مهندس الكون). انظر إلى ما في هذه الكلمة من عدم مراعاة مقام الأدب مع الله ﷻ أيُقال في حق الله إنه مهندس.

إذًا الله جل وعلا يجب أن يُسمى بما سما به نفسه، ولا تدخل في أسماء الله جل وعلا ما ليس منها.

الدرس الثالث و السبعون – ١٢٩١ ٥٢- بابُ لا يُقالُ السَّلامُ على اللهِ.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن من كمال التوحيد الواجب ترك استعمالِ هذا اللفظ أن يقال في حقه سبحانه، فيقول: "السلام على الله" هذا قولٌ لا يجوز، وتركه من تحقيق الأدبِ مع الله ﷻ.
هذا الباب أيضًا مناسبُ للباب الذي سبقه من جهة أن فيه التنصيص على أن من أسماء الله ﷻ السلام

في الصحيح عن ابنِ مسعودٍ ﷺ أنه قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلامُ على اللهِ مِن عبادِهِ، السلام على فلانٍ"،فقال النبي ﷺ لا تقولوا: السلام على الله فإن الله هو السلام»

في الصحيح: يعني في الصحيحين

كانوا إذا كانوا مع النبي ﷺ في الصلاة:

وجاء توضيح ذلك في بعض الروايات يعني إذا جلسوا في التشهد فهذا هو الموضع الذي كانوا يقولون فيه هذا القول: (**السلام على الله من عباده، السلام على فلان**)، وجاء في روايةٍ في الصحيحين (**السلام على الله من قِبل عبادِهِ، السلام على جبريل وميكائيل**)، وفي روايةٍ في خارج الصحيحين (**أنهم كانوا يعددون من الملائكة**)، فهذا توضيحُ للمبهم في قوله في هذه الرواية **«السلام على فلان»**.

وكأن أصحاب النبي ﷺ لما لم يكن عندهم علمٌ بالشيء الذي يقولونه في هذا الموضع إذْ لم يكن علمهم النبي ﷺ فاجتهدوا رضي الله عنهم فقالوا: **«السلام على الله من عباده، السلام على فلانٍ وفلان»**.

يعني كانوا يعددون من الملائكة عليهم السلام، فكأنهم لما رأوا أن الصلاة مناجاة بين العبد وبين ربه، رأوا أنه لا يناسب أن تترك الصلاة إلا بعد تحية الله ﷻ، وتحية خواص عباده والدعاء لأنفسهم والسلام على من حضرهم من الإنس والملائكة، فبين لهم النبي ﷺ أن هذا أمرٌ لا يجوز ألتفت إليهم النبي ﷺ بعد أن فرغوا من الصلاة، كما دل على هذا بعض الروايات وهي مفسرةُ لبعضها بعد أن فرغوا من الصلاة قال لهم النبي ﷺ: **«لا تقولوا السلام على الله من عباده فإن الله هو السلام»**.

نهاهم وبيَّن لهم علة النهي، أما النهي فعن قول هذا القول وهو السلام على الله، والعلة أن الله هو السلام، فإذا كان ذلك كذلك لم يجوز أن يقول القائل "السلام على الله".

❁ سبب نهيه ﷺ عن هذا النهي، سبب نهيه ﷺ عن هذا القول يرجع إلى ما يأتي:

➢ **أولًا: أن هذا القول "السلام على الله" يُوهِمُ إمكان لحوق الآفاتِ بالله جلَّ وعلا.**

وجه ذلك: أن السلام يتضمن الدعاء بالسلامة، وهذا أنما يمكن أن يقال في حق من يمكن لحوق الآفاتِ والنقصِ والعيب به، فيناسب أن يدعى له بالسلامة من ذلك، ولا شك أن الله جلَّ وعلا هو القدوس السلام المنزه عن كل عيبٍ ونقص، فكان النهي عن قول "السلام على الله" لأجل دفع هذا التوهم.

➢ **ثانيا: أن الدعاء لشيء ما يوهم حاجته وافتقاره.**

والله ﷻ هو الغني عن كل أحد، الله جلَّ وعلا مستغنٍ عن كل ما سواه، مفتقر إليه كل ما عداه، قال سبحانه في الحديث القدسي المخرج في صحيح مسلم: **«يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولم تبلغوا نفعي فتنفعوني»**. فدل هذا على أن الله ﷻ لا يجوز أن يدعى له،وكيف يدعى له وهو المدعو؟

➢ **ثالثا: وهو أن السلام أسم لله جلَّ وعلا، فكان قول السلام على الله لا وجه له، ولا يليق أن يقال في حقه**

لأنه أضحى الكلام بمعنى: الله على الله، وهذا لا شك أنه لا وجه له ولا يليق أن يقال في حقه ﷻ.

و من يقول إذا انتهى من صلاته : "اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك السلام" هذه الجملة الأخيرة لاشك أنها أمرًا منكر ولا يجوز أن يقال،

- قول الإنسان إليك السلام هذا مخالفٌ لنهج النبي ﷺ: **«لا تقولوا السلام على الله»**.
- ثم إن فيه زيادةً على الوارد، ولا ينبغي للإنسان أن يتخطى إلى الوارد إلى غيره،

إذًا لا يجوز أن يقول إنسانُ السلام على الله، **وجه ذلك أن الله هو السلام،**

(السلام): وهذا الاسم اسم ثابت لله تعالى بنص هذا الحديث، وكذلك ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ:**«اللهم أنت السلام»** وقوله تعالى :**﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾الحشر**

❁ ومعنى هذا الاسم يرجع إلى أمرين، يتضمن كل واحد منهما شيئين:

المعنى الأول: أن الله تعالى هو المنزه عن كل عيب ونقص، والمنزه في كماله عن أن يكون له مماثل.

قال ابن القيم رحمه الله: وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيلٍ و من نقصان

والمقصود أن الله تبارك وتعالى سلامٌ منزهٌ عن كل ما لا يليق به، فهو جلَّ وعلا سلام من الصاحبةِ والولدِ والمثيلِ والشريكِ والمعاون. هو السلام في كل شيء حتى إن كلامه جلَّ وعلا سلام، سلامٌ من كل تناقض، سلامٌ من الكذب ومن الظلم وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا.

إذًا كل ما يرجع إلى الله ﷻ ما يرجع إلى ذاته، ما يرجع إلى صفاته، ما يرجعه إلى أفعاله هي فيه جلَّ ربنا وعز.

والمعنى الثاني: **أنه ذو السلامِ فهو السلام وأنه ذو السلام، وهذا يرجع إلى معنيين**

الأول: أنه يُسلم أولياءه. الله جلَّ وعلا يسلم من شاء من أوليائه من أن يلحقهم مكروه إذا شاء ﷻ،

والثاني: أنه يُسلِّم على عباده. كذلك هو الذي يسلم على من يشاء من عباده،

- فهو يسلم على المرسلين، قال جلَّ وعلا: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:181]. ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:79]، ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الصافات:109]، ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾[الصافات:120]، ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[الصافات:130]،
- كذلك الله جلَّ وعلا يسلم على أهل الجنة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[يس:58]، وهو الصحيح من تفسير قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾[الأحزاب:44]. فهو الذي يسلم على عباده،وليس أنَّ عباده يسلمون عليه. **فهذا ما جاء الدليل على نفيه في هذا الحديث الذي بين أيدينا،**

إذًا الله جلَّ وعلا هو السلام ومنه السلام يسلم من يشاء ويسلم على من يشاء،

والنبي ﷺ بعد أن بيَّن لهم هذا أرشدهم إلى المشروع في حقهم في هذا الموضع وهذا ما لم يورده المؤلف.

«فإذا صلى أحدكم»: يعني صلى حتى وصل إلى موضع التشهد **«فليقل التحيات لله والصلوات»** إلى آخر التشهد المعروف.

إذًا المقام مقام ثناءٍ على الله ﷻ وليس مقام سلامًا على الله ،الذي يليق بالله ﷻ أن يثنى عليه وليس أن يسلم عليه، السلام يكون في حق المخلوق، ولذلك المسلم في صلاته يقول: **«التحيات لله»**.

و**«أل»** هنا في التحيات **للاستغراق**، جاء اللفظ مجموعًا ليدل على أن جميع التحيات إنما يستحقها ربنا ﷻ.

والتحيات جمع تحية،

والتحية: تضم معنى العظمة والملك والبقاء والسلامة من الآفات، جميع هذه المعاني يجمعها قول التحيات لله، فهذه المعاني يستحقها الله ﷻ ثابتة له ثبوتًا ذاتيًا، ليس أنه أكتسبها بعد أن لم تكن له،حاشا وكلا.

وأما المخلوق فإنه يسلم عليه، ولذلك يسلم على النبي ﷺ، أرشدهم النبي ﷺ إلى اللفظ المناسب اللائق بالله جلَّ وعلا وهو الثناء عليه ثم أن يعم بالسلام لجميع العباد بعد أن يخص النبي ﷺ: «**السلام عليك أيها النبي**»، وذلك لعظيم حق النبي ﷺ على جميع المصلين، فإنهم ما صلوا ولا عرفوا الله ولا اهتدوا إلا من طريق هذا النبي الكريم ﷺ.

ثم بعد ذلك يسلم المصلي على جميع عباد الله الصالحين، أخبر النبي ﷺ أنكم، قال في الحديث:
«**فإنكم إذا قلتم ذلك أصبتم كل عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض**».
فإذا قال المسلم: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**» أصابت دعوته كل عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض كأنه سلم على جبريل وميكائيل وإسرافيل وخزنة الجنة وخزنة النار، كأنه سلم على نوحٍ وآدم وإبراهيم وموسى وعيسى، كأنه سلم على حواريي عيسى، وعلى أصحاب النبي ﷺ، كأنه سلم على كل الصالحين من الملائكة والإنس والجن.
وهذا من المعاني التي ينبغي أن يستحضرها المصلي إذا صلى في صلاته، فهذا من تحقيق الإيمان بهذا الحديث،

۞ إذًا هذا الحديث نستفيد منه فوائد:

أولًا: ضرورة مراعاة مقام الأدب مع الله جلَّ وعلا،

ينبغي إذا تكلم في شيءٍ يتعلق به ﷻ في مقام الإخبار و المناجاة والدعاء، في مقام الثناء يجب عليه أن يتخير ألفاظه وأن يتجنب كل ما يوهم ما لا يليق بالله وعظمته تبارك وتعالى، ومن ذلك هذا اللفظُ وأمثاله،في الصحيحين: أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ وأخبره أن خديجة قادمة إليه ومعها طعام، قال: «**فإذا جاءت فأبلغها أو فأقرأ عليها السلام من ربها ومني**». ، فلما قال لها النبي ﷺ ذلك قالت رضي الله عنها: «**هو السلام وعلى جبريل السلام**»، وجاء عند الطبراني في رواية هذا الحديث أنها

قالت: «الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام»، عرفتْ لكل حقه، حق الله ﷻ الثناء، وحق جبريل الدعاء والتسليم، فلم تخلط بين الأمرين.

الفائدة الثانية: أن المشروع للمسلم المبادرة إلى إنكار المنكر إذا وصل إليه.

النبي ﷺ لما سمع أصحابه يقولون هذا خلفه نما هذا إلى سمعه ،فما أنتظر وإنما ألتفت إليهم بعد أن فرغ من صلاته ونهاهم عن هذا المنكر، وهذا من تحقيق الولاية بين المسلمين:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾التوبة:71.

ما حقيقة هذه الولاية؟ أول ما ذكر الله ﷻ، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة:71].

وفائدةٌ ثالثة: أن حُسن القصد لا يمنع الإنكار،

نحن نقطع ونجزم ونعتقد أن أصحاب النبي ﷺ ما دار بخَلَدهم قط شيء من هذه المعاني التي تلزم من قول "السلام على الله"، وإلا فجزمًا ما كانوا ليقولون هذا اللفظ، لكنهم أرادوا تعظيم الله ﷻ، وأرادوا تحية الله ﷻ لكنهم أخطأوا في اللفظ، إذًا كانوا أهل قصد حسن ونية طيبة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ أنكر عليهم ما قال لهم النبي ﷺ بما أن نيتكم طيبة وقصدكم حسن فلا بأس ولا مانع واستمروا على ما أنتم عليه، إذًا حُسن القصد ما يمنع الإنكار،

حُسن القصد ينفع في درأ العقوبة والتأثيم بين العبد وبين الله جلَّ وعلا، لكن كون هذا الفعل منكرًا أو كون هذا اللفظ منكرًا لا يكون ذلك ممنوع الإنكار لأجل أن الفاعل أو القائل أراد أمرًا حسنًا أو قصدًا طيبًا.

وفائدةٌ رابعة: وهي أن المشروع للداعية أن يرشد إلى الخير إذا نهى عن الشر قدر الإمكان،

فاحرص إذا أغلقت بابًا من الشر على الناس أن تفتح لهم بابًا إلى الخير، إذا نهيتهم عن المنكر أرشدهم إلى معروف ما أمكنك إلى هذا سبيلًا، ولذلك النبي ﷺ لما بين لهم أن هذا اللفظ الذي كانوا يقولونه وهو «**السلام على الله**» لا يجوز، أرشدهم إلى مايجوز وما يشرع وهو أن يقول المسلم «**التحيات لله**».

الفائدةُ الخامسة: وهي في معنى قول المسلم: «السلام عليك أو السلام عليكم»

إذا حيًّا المسلم أخاه فقال: «السلام عليكم»، ماذا يريد؟

أختلف فيه العلماء إلى عدة تفسيراتٍ ومعانٍ:

➢ **الأول:** أنهم قالوا معنى قول المسلم: «**السلام عليكم**» يعني اسمه تعالى (السلام) عليكم، يعني أن بركة اسم ذكر الله الذي هو (السلام) تتنزل عليكم، **وعليه فيكون هذا اللفظُ تبركًا وذكرًا ودعاءً.**

➢ **والمعنى الثاني:** أن قول المسلم (السلام عليكم) يتضمن الدعاء، يعني أن أدعوا الله أن يسلمكم، كأنه يقول: سلمكم الله، فيكون دعاءً من المسلم لأخيه بأن يسلمه الله، أدعوا السلام أن يسلمكم.

➢ **والمعنى الثالث:** أن يكون إخبارًا، يخبر المسلم أخاهُ بأنه يسلم من شره فلا يؤذيه، أخبارٌ يتضمن التطمين إذا مر الإنسان بأخيه فإنه يخبره بأن هو ليس منه اتجاه أخيه إلا السلام،

والسلام مصدرٌ بمعنى السلام، قال جلَّ وعلا: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[الأنعام:127].

والأقرب والله تعالى أعلم في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾ أنها دار السلامة من جميع الآفات.

وهذا أقرب ما يفسر به قول الله جلَّ وعلا في إخباره سبحانه عن قصة الملائكة عن إبراهيم عليه السلام في سورة هود والذاريات: ﴿فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾[الذاريات:25] يعني أنت منا في سلامةٍ فأجابهم بأنه منهم كذلك في سلامة.

والأقرب والله تعالى أعلم أن جميع هذه المعاني يمكن أن تكون صحيحة، وهي جميعًا مما ينبغي أن يلاحظها المسلم.

وثم فوائد عدة: منها يرجع إلى مسائل فقهية، منها مثلًا، كلام الجاهل في الصلاة لا يبطلها، ويدل على هذا أدلة وهو الصحيح من كلام أهل العلم،
فها هنا أصحاب النبي ﷺ تكلموا بكلامٍ تبين لنا أنه لا يجوز، وقال ﷺ لا تقولوا السلام على الله مع ذلك لم يأمرهم النبي ﷺ بإعادة الصلاة فدل هذا على أن كلام الجاهل لا يبطل الصلاة.

الدرس الرابع و السبعون – ١٣٠٥ ٥٣- باب قول اللهم اغفر لي ان شئت.

فلا يزال المؤلف يوالي تبويب الأبواب التي تحث المسلم على ضرورة أن يراعي الأدب مع الله ﷻ واجتناب كل ما ينافي تحقيق التوحيد، ومن ذلك قول : اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت، وما إلى هذه الألفاظ.

۞ فإن تعليق الدعاء بالمشيئة مما نهى عنه النبي ﷺ وذلك يرجع إلى أمور:

➢ أولاً: **أن التعليق بالمشيئة يوهم أن الداعي كالمستغني عن ربه،**

كأنه يقول اللهم أعطني إن شئت يعني وإن شئت فلا تعطني، فإن الأمر ليس بذاك المهم، ولا شك أن هذا دال على فتور الرغبة، وضعف الطلب عند السائل، وهذا مما يتنافى، وحالَ الاضطرار، والفقر، والإلحاح التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في دعائه، فإن الاضطرار روح الدعاء قال تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل:63]، المسلم إذا دعا ربه ينبغي أن يظهر غاية الحاجة، وتمام الافتقار إلى ربه ﷻ، وتعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بخلاف ذلك.

➢ الأمر الثاني: **فهو أن تعليق الدعاء بالمشيئة إنما يتأتى في خطاب من يمكن أن يُكرَهَ على الشيء.**

بمعنى الخطاب الذي فيه تعليق بالمشيئة يوهم أن المخاطب يمكن أن يأتي بالأمر عن مشيئته، ويمكن أن يأتي بالأمر إكراهًا، فقول الداعي اللهم أغفر لي إن شئت يوهم أنه يقول: **يا رب أنا أسألك ولا أريد أن أكرهك،** فإن شئت أن تعطيني بإرادة منك ومشيئة، وإلا فلا إكراه مني، وهذا ما جاء التنبيه عليه ،الله لا مكره له، والتعليق بالمشيئة يوهم ذلك، فجاء عن النبي ﷺ النهي عن ذلك.

➢ وأمر ثالث: **وهو أن التعليق بالمشيئة في الدعاء يوهم أن الداعي يستعظم ما سأل على ربه.**

فكأنه يهوّن الأمر، ويقول: يا ربي أنا دعوتك، فإن شئت أجب كأنه يسأل سؤالاً بشيء عظيم، فربما لم يشأ الله ﷻ أن يعطيه لأجل أنه عظيم، فهو يهون الأمر ويسهله كمثل إنسانٍ يسأل آخر شيئًا عظيمًا كأن يسأله مبلغًا ضخمًا من المال، فهو يسهل الأمر، ويهون عليه، ويقول أعطني إن شئت حتى يسهل عليه الاعتذار إذا لم يعطه،

إن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه، فلا حاجة لك أن تعلق ذلك بالمشيئة، فمهما سألت ربك، فإن خزائنه سبحانه ملأى، وهو الكريم جل في علاه.

➤ وأمر رابع: **وهو أن تعليق هذا الدعاء بالمشيئة لا حاجة له بل لا وجه له.**

فمن المعلوم المتيقن أن الله تعالى إنما يجيب، وإنما يفعل إذا شاء قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾[الأنعام:41]، فالله يفعل بمشيئته، وعليه فتعليق الدعاء بالمشيئة تحصيل حاصل.

إذًا هذه أوجه أربعة تدلك على أن من المحظور في الدعاء أن يعلق الإنسان دعائه على المشيئة، وإنما المطلوب من المسلم أن يدعو دعاء يجزم فيه، ويعزم فيه ويقطع فيه، وبهذا يتحقق إحسان ظنه بربه ﷻ،

فإن كثيرًا من الناس يغفلون عن هذا الأمر ذلك أنهم ربما إذا دعوا علقوا دعائهم بالمشيئة تجد أحدهم يقول:**الله يجزيك خير إن شاء الله، الله يبارك فيك إن شاء الله**، وهذا مما ينبغي أن يجتنب لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، والله أعلم.

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَقُل أحدُكم: اللهمَ اغفرلي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئتَ، لِيَعْزِمِ المَسألةَ، فإن اللهَ لامُكرِهَ لهُ»،ولمسلمٍ: «ولْيُعَظِّمِ الرغبةَ، فإن اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شيءٌ أَعْطاهُ».

هذا الدعاء إنما جاء في هذا الحديث على **سبيل التمثيل**، يعني ليس المنهي عنه التعليق بالمشيئة في سؤال المغفرة أو الرحمة فحسب إنما كان هذا على سبيل التمثيل، وبالتالي فكل دعاء ينهى صاحبه عن أن يعلقه بالمشيئة سواء كان ذلك دعاء بالرحمة، أو دعاء بالمغفرة، أو في غير ذلك،

وبين النبي ﷺ علتين لهذا النهي

الأولى في قوله ﷺ: وليعزم المسألة فإن الله لا مكره له.

ليعزم المسألة، نهى النبي ﷺ عن الخطأ ووجه إلى الصواب، وهذا مما ينبغي أن يأتسي به الدعاة إلى الله ﷻ المنهي عنه أن تدعوا، وأن تعلق دعائك بالمشيئة، والمطلوب أن تدعو دعاء فيه عزم قال:ليعزم المسألة.

العزم: **في اللغة هو الجد** ومنه أولو العزم من الرسل، والمراد أنه يدعو دعاءً فيه جزم بالسؤال، وفيه قطع بلا تردد، ولا تعليق بالمشيئة، وبهذا يتحقق إحسان ظنه بربه ﷻ وفي الصحيح وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال:«**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**» المطلوب من المسلم أن يدعو دعاء فيه جزم، وفيه إعظام الرغبة في الله ﷻ.

والثاني: في الرواية التي عند مسلم وهي: **وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطا.**

«وليعظم الرغبة» تعظيم الرغبة

قيل: إنه أن يعظم في مسئوله يعني في مطلوبه، طلبته ينبغي أن تكون عظيمة، فلا يستثقل الإكثار، ولا يستصعب شيئًا يدعوا به الله جل وعلا، فإنك مهما أكثرت فما عند الله أكثر، ومهما طلبت فإن خزائن الله ملئ، ويده سبحانه سحاء الليل والنهار ينفق ﷻ بجوده، وكرمه جل وعلا، فلا يتعاظم الله ﷻ شيء أعطاه.

والسائل فائز بكل حال ذلك أن نتيجة الدعاء واحدة من ثلاثة أشياء:

إما أن يجيبك الله ﷻ إلى سؤلك،

وإما أن يدخر لك ذلك إلى يوم تلقاه،

وإما أن يدفع عنك من الشر بمقدار ما سألت.

هذا أحد وجهي التفسير عند أهل العلم لقوله عليه الصلاة والسلام: **«وليعظم الرغبة»**.

والمعنى الآخر الذي ذكر هو: أن الرغبة هي الحرص والإلحاح،

يعني ليكن دعاؤك ذا حرص عظيم، وذا إلحاح، وذا قطع، وجزم، وهذا المعنى صحيح

لكن الأقرب إلى الدلالة عليه هو قوله ﷺ: **«ليعزم المسألة»**

أما المعنى الأول فهو المناسب، أو هو الأقرب أو هو الأنسب لقوله عليه الصلاة والسلام: **«وليعظم الرغبة»**، لأنه قال بعد ذلك: **«فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»**.

إذًا الخلاصة التي نستفيدها من هذا الباب هو:

أن من الأمر المحظور الذي ينبغي أن يجتنبه المسلم أن يعلق دعائه بالمشيئة، وهذا ما دل عليه هذا الحديث الذي بين أيدينا،

- **وظاهره التحريم يعني يحرم على المسلم أن يعلق الدعاء بالمشيئة**، وهذا ما اختاره ابن عبد البر وغيره من العلماء،
- **وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن النهي ها هنا على سبيل الكراهة**

قالوا: دليلنا على ذلك أن هذا النهي قد ورد عليه صارف، ومعلوم أن النهي إذا ورد عليه صارف، فإنه يحمل على ما دل عليه هذا الصارف، قالوا:

والصارف الذي صرف هذا النهي عن التحريم ما جاء في دعاء الاستخارة الذي رواه جابر ﵁ وعن النبي ﷺ وأخرجه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه، «**اللهم إن كنت تعلم أن في هذا الأمر خيرًا لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله، فيسره لي وأقدره لي ثم بارك لي فيه**».

الشاهد أنه علق الدعاء ها هنا بالعلم، فقال: **إن كنت تعلم**، فدل هذا على جواز تعليق الدعاء بالمشيئة، فيكون النهي في الحديث الذي بين أيدينا مصروفًا إلى الكراهة، وهذا ما اختاره النووي، وتابعه عليه ابن حجر، وغيرهما من أهل العلم.

والذي يظهر، والله تعالى أعلم أن هذا الاستدلال فيه نظر، وأن هذا الحديث لا يرد على الحديث الذي بين أيدينا، وذلك أن حديث الاستخارة فيه التعليق بالعلم، والذي بين أيدينا فيه التعليق بالمشيئة، وشتان ما بين الأمرين، المسلم يعلق دعائه في دعاء الاستخارة على علم الله جل وعلا لأنه لا يدري هل الخير فيما يرغب، وما هو مقبل عليه أم لا، ولأجل هذا فإنه علق ذلك بعلم العليم ﷻ، فهو الذي يعلم إن كان في هذا الأمر خير أو ليس فيه خير،

۞ **سوال:** فيما جاء في صحيح البخاري أيضًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا عاد مريضًا قال: «**لا بأس طهور إن شاء الله**» قالوا هذا أيضًا تعليق بالمشيئة.

الجواب: أن ما في هذا الحديث **إخبار على سبيل التفاؤل والبشارة**، ليس من قبيل الدعاء إنما هو من قبيل الإخبار على سبيل التفاؤل،

والبشارة: يعني هذا الذي يقوله عائد المريض إخبار، يقول: أرجو أن يكون هذا الذي أنت فيه يؤول إلى أن يكون طهورًا لك، يطهرك الله ﷻ، يجعله كفارة تتطهر بها من الذنوب والمعاصي.
إذًا هو إخبار عن أمر مستقبلي على سبيل التفاؤل، والبشارة يستبشر بأن يكون هذا سببًا لتكفير سيئاتك، ولكي تتطهر من ذنوبك، وهذا تعليقه بالمشيئة لا بأس به.

۞ **والأصل أن التعليق بالمشيئة فيه أحوال وتفصيل:** تارة يكون أمرًا حسنًا وتارة يكون أمرًا قبيحًا،

يكون أمرًا قبيحًا في حال الدعاء كما في الحديث الذي بين أيدينا،

- وهو أن يدعو الإنسان، فيعلق دعائه بالمشيئة،
- كذلك أيضًا في شأن الأمور التي وقعت وحصلت وهذا كان من طريقة بعض أهل البدع أنهم يعلقون كل شيء على سبيل المشيئة، فيقول: أكلت إن شاء الله، زرت فلانًا إن شاء الله، وهذا في الحقيقة لا وجه له،لأننا نعلم أن الله قد شاء، فالأمر أصبح معلومًا عندنا أن الله قد شاء هذا الأمر، والدليل على ذلك قوله وقع، فكل شيء وقع، فإنه لم يقع إلا لأن الله شاءه، وبالتالي فتعليق هذا الأمر الذي قد وقع، وانقضى بالمشيئة،أمر لا وجه له.

ولا ينبغي للمسلم أنه يخبر عن الأمور الواقعة الحاصلة بإخبار يعلقه بمشيئة الله ﷻ لأن الأمر قد شاءه الله ﷻ

أما عند الإخبار عن الأمور المستقبلة، فإنه يحسن التعليق بالمشيئة،

وهذا ما فسر به قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الكهف:23-24]،

وإذا كنت تريد فعل شيء، أو تتوقع حصول شيء، فإنك تعلقه بمشيئة الله ﷻ.

إذًا هذا الذي بين أيدينا في هذا الحديث، الموضع مناسب أن ننبه فيه الإنسان على آداب الدعاء،

۞ **والآداب تنقسم إلى آداب عدمية، وإلى آداب ثبوتية:**

الآداب العدمية:

هي ما ينبغي أن يجتنبه الإنسان في دعائه، وأعظم ذلك أن يجتنب الشرك بالله ﷻ

فيكون دعاؤه خالصًا لله جل وعلا يدعو الله لا غير، أما دعاء غيره، فإن هذا هو الجرم الأعظم.

أيضًا من الآداب العدمية ألا يعتدي الإنسان في دعائه، فهذا مما نهت عنه الشريعة،

والاعتداء في الدعاء هو أن يسأل الإنسان ما لا يليق به قدرًا، أو شرعًا بأن يسأل الإنسان أن يكون نبيًا، أو يسأل أن يؤتيه الله ملكًا أو ما شاكل ذلك هذا كله من الاعتداء الذي لا ينبغي أن يفعله الإنسان في دعاءه.

ومن آداب الدعاء الثبوتية

أن يحرص الإنسان على أن يتوسل إلى الله ﷻ في دعائه بالتوسل المشروع الذي تكون الإجابة معه أقرب.

- ومن ذلك وهو أعظم ما يكون من أنواع التوسل: التوسل إلى الله جل وعلا بأسمائه وصفاته، ومن المطلوب من المسلم أن يراعي في هذا المقام أن يتوسل بالاسم الذي يناسب المقام الذي يدعو لأجله هذا الداعي،
- ومن ذلك أيضًا أن يتوسل إلى الله ﷻ بافتقاره إليه، وحاجته إليه، وكذلك بإيمانه وعمله الصالح: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران:53].

كذلك من آداب الدعاء الثبوتية أن يحرص الإنسان أن يقدم ما بين يديه دعائه الثناء والتعظيم لله سبحانه وتعالى كذلك الصلاة على النبي ﷺ فالدعاء معلق بين السماء والأرض حتى يصلى على النبي ﷺ.

أن يحرص على اقتناص الفرص التي يكون فيها الدعاء مجابًا فيما أخبرنا به النبي ﷺ

يحرص على أن يدعو في الوقت الذي يكون الدعاء فيه مجابًا،

أو في مكان الذي كان النبي ﷺ يدعو فيه، فإن هذا أدعى، وأحرى، وأقرب للإجابة،

فائدة أخيرة: وهي أن بعض الناس قد يقول أنا إذا دعوت، فقلت إن شاء الله لا أقصد شيئًا من تلك الأشياء التي ذكرتها، فهل ينبغي عليّ أن اجتنب التعليق بالمشيئة، وأنا غير قاصد؟

حسن القصد لا يمنع الإنكار، الصحابة رضي الله عنهم لما قالوا: «**السلام على الله من عباده**» في التشهد فمن مر بنا أمس أتظنون أنهم كانوا يقصدون شيئًا من تلك المفاسد المترتبة على هذا القول؟

الجواب:لا كان قصدهم حسنًا.

القاعدة: اجتناب اللفظ الموهِم مطلوبٌ ولو لم يقصده المسلم.

يعني لو لم يقصد المسلم هذا المعنى السيئ بما أن اللفظ موهم، فينبغي اجتنابه.

الدرس الخامس و السبعون – ١٣١٨   ٥٤- بابُ لا يقول (عبدِي وأَمَتِي)

هذا الباب أيضاً يحث فيه المؤلف على تحقيق التوحيد؛ وذلك لترك استعمال هذا اللفظ الذي هو: «عبدي-أمتي».

في الصحيحِ عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يقُلْ أَحدكُم أَطْعِمْ رَبَّكَ،وضِّئْ رَبَّكَ، وليَقُل سيِّدي ومولاي، ولايقُلْ أَحَدُكُم:عبدي وأمتي، وليَقُل فَتَايَ و فَتَاتِي وغُلامي ».

هذا هو التوجيه الأول في الحديث، ولقد اشتمل على توجيهين:

الشطرالأول:

نهيه ﷺ أن يقول الإنسان: «**أطعم ربك، وضئ ربك**»، ورواية في الصحيحين فيها زيادة جميلة ثالثة وهي: «**اسق ربك**»، نهى عن هذا النبي وأرشد بعد ذلك إلى الجائز، كما بين الممنوع بين المسموح به، وهو أن يقول **سيدي، ومولاي،**

وقوله ﷺ: «**لا يقولن أحدكم أطعم ربك**»، يعني أن يقول الإنسان لرقيق غيره: **أطعم ربك**: أي أطعم سيدك،

وقد يجوز أن يكون المراد: أن يقول السيد معظماً نفسه مخبراً عن نفسه بأسلوب الغائب، فيقول: (أطعم ربك)، يريد نفسه، هذا وهذا محتمل.

ويفيد ذلك النهي عن أن يقول الإنسان

- عن نفسه إنه رب فلان، أي سيد العبد الرقيق،
- أو أن يقول غيره عنه، مخاطباً هذا الرقيق بأن يتناول شيئاً مما يحتاجه سيده،
- ولاحظ أيضا أن الأسلوب أختلف في الجملة الثانية، قال: «**وليقل سيدي ومولاي**»، أصبح الكلام الآن **للعبد.**

قال العلماء وهذا يدل من طريق الأولى على أن العبد منهي عن أن يقول ربي، وهذا ما جيء به مصرحاً في رواية مسلم: «**ولا يقول ربي، وليقل سيدي ومولاي**».

إذن المنهي عنه ثلاثة: السيد ونفسه، أو غيره، أو العبد الرقيق.

كل أولئك جاء النهي من لدن رسول الله ﷺ عن أن يستعملوا لفظ الرب مضاف إلى السيد.

۞ وهذا يجرنا إلى حكم استعمال لفظ الرب في حق المخلوق، وهذا المقام فيه تفصيل:

➢ **الحالة الأولى**: أن تكون كلمة الرب محلاةً بأل **(الرب) فهذا اللفظ لا يجوز أن يطلق إلا لله،**
ويدل على هذا ما في صحيح مسلم من قوله ﷺ: **«أما الركوع فعظموا فيه الرب»**،
وكلمة الرب بالألف واللام لم تأتِ في القران، بل جاءت في سنة النبي.

➢ **الحالة الثانية**: **أن تضاف كلمة الرب إلى ما لا يعقل، مثل: المتاع، والدابة.**
هذه الصورة لا حرج في إطلاقها على المخلوق، كأن يقول قائل: فلان رب هذا المتاع، أو رب الناقة.
ودل على هذا قوله ﷺ الثابت في الصحيحين في شأن ضالة الإبل، لما سُئِل عنها، قال ﷺ: **«ما لك ولها معها حذائها وسقائها، ترد الماء، وترعى الشجر حتى يلقاها ربها»** أي سيدها ومالكها.

➢ **الحالة الثالثة**: **أن تضاف كلمة الرب إلى من يعقل، أي إلى الناس، دون أن تكون محلاة بـ(أل).**
فهل يجوز أن يقول إنسان فلان رب فلان، أي سيده أو مالكه، أم لا؟

بين أيدينا هذا الحديث الذي فيه نهيه ﷺ ، **«لا يقل أحدكم أطعم ربك»**. وقوله تعالى ﴿ **اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾[يوسف:42]، يعني سيدك أي الملك،﴿ **قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ** ﴾[يوسف:50]،أي إلى سيدك.

۞ فكيف يمكن أن نجمع بين الدليلين؟

➢ **قال بعض أهل العلم**: إن هذه الآية صارفة للنهي الوارد في الحديث، **من التحريم إلى الكراهة،**
فيجوز أن يقول إنسان عن رقيق أن فلان ربه، أو خذ كذا لربك، ولكن هذا اللفظ مكروه؛ للحديث السابق فيكون هذا الحديث دالاً على الكراهة التنزيهية.

وقال بعض أهل العلم: أن هذا اللفظ كان جائز في شرع من قبلنا في شريعة يوسف عليه السلام، لكن شرعنا أتى بالنهي عنه، فيكون هذا من شرع من قبلنا،

والقاعدة: أن شرع من قبلنا إذا جاء النهي عنه في شرعنا لا يكون شرعا لنا،

فيكون هذا مما حرم في الشريعة كما حرمت أشياء عدة في هذه الشريعة؛ سداً لذريعة الشرك، ومن تتبع ما جاء في هذا الشريعة وقارنها بما وصل إلينا علمه من الشرائع السابقة علم يقينا أن شريعة النبي قد حذرت من ذرائع الشرك أكثر مما كان في الشرائع السابقة.

هذا الجواب فيه من القوة ما فيه وأختاره جمع من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره،

۞ ولكن الإشكال في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي حيث أنه لما سئل عن علامات الساعة قال عليه الصلاة والسلام: «**قال: أن تلد الأمة ربها**»، أو قال: «**إذا رأيت الأمة تلد ربها**»، هكذا جاءت الرواية، ورواية مشهورة في حديث مسلم عن رواية عمر ﷺ قال: «**أن تلد الأمة ربتها**».

وهذا يستشكل أيضا، ولكن الاستشكال هنا أخف؛ لأن التأنيث في قوله" «**ربتها**» قد يقال أنه يزول معه الالتباس، فإن الرب ﷻ، لا يجوز أن يظن فيه ذلك، ولا يقال في حقه ذلك،

۞ **ولكن الرواية الأخرى وهي**: «**أن تلد الأمة ربها**»، فهذا لفظ صريح في إطلاق كلمة الرب على العبد.

قال بعض أهل العلم: يمكن أن يجمع بين هذا وذاك ،أن المنهي عنه هو الإكثار من استعمال هذا اللفظ في حق السيد، أما إذا كان ذلك على ندرة فإنه يجوز، أخذاً فيما ثبت في حديث أبي هريرة ﷺ،

وهذا فيه ما فيه فإن المقام مقام نهي، فما هو الضابط الذي يضبط الكثرة من الندرة!؟

ومهما يكن من شيء فالذي ظهر والله أعلم، أن ما جاء في هذا الحديث من النهي عن استعمال كلمة الرب في حق السيد، أن النهي في ذلك للكراهة، وهذا ما ذهب إليه جمهور أهل العلم، بل حكى بعضهم الإجماع عليه.

وقول من قال إنه يفرق بين أسلوب الخطاب وأسلوب الغيبة، فيه فيما يبدو لي ما فيه؛ وذلك أنه إذا كان النهي راجعا في سد ذريعة الشرك، فلا يظهر لي والله أعلم فرق بين أسلوب الخطاب «**ربك**» وبين أسلوب الغيبة: «**ربه**»، وإذا كان هذا موهماً لمعنى لا يجوز فذلك لا يجوز، فذلك أيضا موهمٌ لمعنى لا يجوز، والله تعالى أعلم.

قال ﷺ: «وليقل سيدي ومولاي»

يعني الرقيق ينبغي أن يستبدل كلمة ربي بكلمة سيدي ومولاي،

وهاهنا بحث في إطلاق كلمة السيد على المخلوق، فالصحيح الذي لا شك فيه أنه يجوز أن يطلق على المخلوق إنه سيد، **ويدل على هذا الكتاب والسنه في أدلة عدة:**

في قوله تعالى:﴿ **وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[آل عمران:39]،وقوله:﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ**﴾يوسف

كذلك قال النبي ﷺ عن نفسه: «**إنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»،كذلك قال ﷺ عن أبي بكر وعمر: «**أنهما سيدا كهول أهل الجنة**»،كذلك قال عن الحسن والحسين: «**أنهما سيدا شباب أهل الجنة**»،كذلك قال النبي في حق سعد بن معاذ سيد الأوس: «**قوموا إلى سيدكم**»،كذلك قال في حق سعد بن عباده سيد الخزرج: «**ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم**»،قال ﷺ لبني سلمة: «**من سيدكم؟**».

هذه نصوص وغيرها كثير أيضا دالة على جواز أن يطلق في حق المخلوق أنه سيد، **ولكن ذلك مشروط بأمرين:**

أولاً: ألا يكون الذي قيل في حقه هذا اللفظ فاسقًا.

يدل على هذا ما أخرجه الإمام البخاري في كتابه الأدب المفرد بإسناد صحيح، أن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً فقد أغضبتم ربكم**»، وجاء عند الإمام أحمد بسند صحيح، قال: «**لا تقولوا للفاسق سيدنا، فإنه إن يك سيدكم فقد أغضبتم ربكم**».

ثانياً: ألا يكون اللفظ مشعِرا بشيء من الغلو.

دل على هذا ما ثبت عند أبي داود، وأحمد بأسناد صحيح، من حديث عبد الله بن شخير رضي الله عنه، أن بني عامر لما جاءوا إلى النبي في عام الوفود، قالوا أنت سيدنا، فقال النبي: «**السيد الله**».

❁ **بعض أهل العلم أخذ من هذا الحديث النهي عن إطلاق السيد على غير الله،**

قالوا هذا الحديث ناسخ للأدلة التي أباحت إطلاق كلمة السيد على المخلوق؛ وذلك لأنه حديث متأخر فإنه كان في عام الوفود، في السنة 9هـ، فيكون متأخراً ناسخاً للأدلة التي دلت على الجواز.

لكن هذا الاستدلال غير صحيح؛ وذلك لأن شرط ثبوت النسخ معرفة التاريخ، ومن يدري هذا القائل لعل بعض تلك النصوص كانت بعد السنة التاسعة، إذن القول بالنسخ حينئذ غير صحيح، والصواب في توجيه الحديث، أن النبي لاحظ في هذا الكلام شيئاً من الغلو.

يدل على هذا ما جاء عند النسائي في الكبرى، من حديث أنس أن أناسا قالوا: «**يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال النبي: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**».

النبي حسم الباب وسد الذريعة؛ لأن اللفظ كان فيه إشعار بشيء من المبالغة في المدح، فالمقام مقام تقتضي المصلحة فيه ذلك، إذ العام عام وفود، وكثير من الذين حضروا على النبي في هذا العام كانوا حدثاء عهد بالإسلام، فكان من المصلحة أن ينهى النبي عن المبالغة في مدحه؛ سداً لذريعة الشرك.
ويؤيد هذا أن حديث أنس ﷺ فيه أنهم قالوا: «**يا خيرنا وابن خيرنا**» وهذا اللفظ ليس مما ينهى عنه، ولا بأس أن يقول إنسان لآخر: إنك خيرنا، لكن المنهي عنه هو المبالغة في المدح؛

«**وليقل سيدي ومولاي**». المولى كلمة جاءت في النصوص، ولغة العرب على معانٍ كثيرة، أوصلها ابن الأثير في كتابه النهاية إلى ستة عشر معنى، منها أنها تطلق على الرب، ومنها أنها تطلق على السيد، ومنها أنها تطلق على المالك، والناصر، والأخ، والمعتِق، والمعتَق، إلى آخر ما ذكره. **وينبغي أن تنزل هذه الكلمة في كل سياق بحسبه، وبالتالي نستفيد أنه يجوز إطلاق لفظ المولى على المخلوق،**

ولاحظ أن هذا الإطلاق جائز ما لم يكن في اللفظ ما يشعر أن المولى ها هنا ليس المولى المطلق الذي يستحق هذا اللفظ بكماله، فهذا لا يكون إلا في حق الله ﷻ. قال تعالى﴿**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ**﴾[التحريم:4].

وكذلك في صحيح البخاري في قصة أُحد، لما قال أبو سفيان –وكان كافراً– قال: «**اعلُ هبل، قال ﷺ: الله أعلى وأجل**»، أمرهم النبي أن يجيبوه بذلك، «**ثم قال: لنا العزى، ولا عزى لكم. فأمرهم النبي أن يجيبوه بقولهم: الله مولانا ولا مولى لكم**».إذن المولى بالإطلاق على ما يقتضيه اللفظ من التمام والكمال، لا يطلق إلا في حق الله سبحانه وتعالى،

التنبيه:على أنه جاء لفظ في هذا الحديث، عند الإمام مسلم قال: «**ولا يقل مولاي فإن مولاكم الله**».
هذا اللفظ يخالف الحديث الذي بين أيدينا مما دل على جواز إطلاق كلمة المولى على المخلوق

والصحيح أن هذا اللفظ شاذ أختُلف فيه على اللأعمش رحمه الله، والصحيح أن إقحام هذا اللفظ غلط، الصحيح عدم ثبوت هذا اللفظ في حديث النبي، كذلك جاء في رواية عند مسلم تنبيه على ما يتعلق بالعلة التي لأجلها يكره استعمال كلمة «ربي» في حق العبد؛ وذلك أن هذا اللفظ الذي نهى عنه النبي «**أطعم ربك، أسقي ربك**» فيه شيء من التعالي، وفيه شيء من الإذلال لهذا الرقيق.

فدل هذا على أن التطاول والتعالي على عباد الله حتى لو كان رقيقا،من الخلق المذموم الذي نهى عنه شرعنا والله أعلم.

الشطر الثاني:

فيه نهيه صلى الله عليه ويلم على أن يقول الإنسان في حق رقيقه عبدي، أو إذا كانت أنثى أمتي.

وأرشد إلى استعمال اللفظ الجائز، وهو أن يقول فتاي أو فتاتي، أو غلامي.

وجاء تعليل ذلك في رواية عن مسلم فيها زيادة من كلامه ﷺ وهو قوله«**فإنكم كلكم عبيد الله وإناثكم إماء الله**» فهذا اللفظ مشعر بتعالٍ وتطاولٍ على المخلوق، وفيه أيضا ما فيه من ذريعة الوقوع في الشرك.

والذي يظهر أن هذا اللفظ فيه تفصيل فإن الله قال في كتابه: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[النور:32]، كذلك قال ﷺ: «**ليس على المسلم في عبده وفرسه صدقة**»، فدل هذا على أن تَكلُّمَ الإنسان بلفظ العبد مضاف إليه يقول: «**عبدي**» مما ينهي عنه. **أما إذا كان بلفظ الغيبة أو الخطاب**، دون أن يكون بلفظ المتكلم الذي يعود فيه الضمير في العبودية إليه فالذي يظهر والله اعلم أن هذا جائز، بقوله تعالى: ﴿عِبَادِكُمْ﴾[النور:32]، وقول الرسول: «**عبده**»، والله أعلم.

٥٥ – باب: لا يُرَدُّ مَن سَألَ بالله

هذا باب أيضاً ساقه المؤلف رحمه الله؛ للحث على تحقيق التوحيد، وتعظيم الله، ومراعاة الأدب معه،

عن ابن عمرَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من استَعَاذَ باللهِ فَأَعيذُوهُ، و من سأل باللهِ فَأَعطوه، و مَن دعاكُم فَأَجيبُوهُ، و مَن صَنَعَ إليكُم مَعْروفا فكافِئُوهُ، فإنْ لم تَجِدوا ماتُكافِئُوهُ فادْعُوا لهُ،حتى تُروا أنكُم» رواهُ أبوداودَ و النسائيُّ بسندٍ صحيح

۞ **فمن ذلك ألا يرد من سأل بالله، والحديث فيه توجيهات أربعة نأخذها واحدةً واحدة.**

التوجيه الأول: حديث ابن عمر عند النسائي، وأحمد بإسناد صحيح: **أن مَنْ استَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ.**

والاستعاذة: هي طلب العوذ أو طلب العياذ.

فمن استعاذ بالله ﷻ، فإنه يجب أن يعاذ؛ وذلك لأمر النبي ﷺ بذلك، وثبت في البخاري، أن النبي لما عقد على المرأة الجونية ودخل عليها ﷺ ، قالت: أعوذ بالله منك، فقال النبي ﷺ: **«قد عُذتِ بعظيم»**، وفي رواية أخرى: **«قد عذت بمَعاذٍ، الحقي بأهلك»**، أعادها ﷺ لما استعاذت بالله منه، وهذا من تعظيم العظيم سبحانه وتعالى.

لكن يلاحظ هنا أن هذا الحكم لا ينسحب فيما إذا كانت الاستعاذة تتعارض مع أداء حق الله ﷻ، مثال : أن يستعيذ إنسان بالله في إقامة حدٍ عليه، أو تعذير شرعي عليه، أو في مطالبته بحقٍ ثابت عليه.

التوجيه الثاني: :**ومن سأل بالله فأعطوه،** هذا موضع الشاهد الذي بوب عليه المؤلف هذا الباب، **«ومن سألك بالله فأعطوه»**، قال: أسألك بالله أن تعطوني كذا وكذا.

هذا السائل سأل بعظيم، ومن تعظيم الله سبحانه أن يجاب إلى ذلك، وهذا من كمال تحقيق التوحيد، ومن كمال مراعاة جناب الربوبية، والألوهية، وملاحظة الأدب في التعبد لله.

۞ إذا سأل إنسان بالله فإنه يجاب على ما سأل، لكن في ضوء التفصيل الذي سيأتي:

أولاً: أن يسأل إنسان بالله ما له فيه حق،

كأن يسأل شخص له عنده دين أو حق، أو يسأل حقه من بيت المال، فيقول: يا فلان أعطني بالله، **فلا شك حينئذ أن وجوب أداءه حق قد تأكد بالوجوب الأصلي، وبسؤاله بالله تعالى.**

ثانياً: أن يسأل سائل بالله شيئا فيه إثم، أو قطيعة رحم. كأن قال قائل لآخر: يا فلان بالله عليك اعطني كأس خمر. **فهنا لا يجوز أن يجاب إلى ذلك والإثم على السائل وليس على المسؤول.**

ثالثاً: أن يسأل سائل غيره سؤال يكون فيه وقوع ضرر أو مشقة عليه

كأن يسأله شيئا يحتاجه، يقول أسألك بالله أن تعطيني بيتك، أسألك بالله أن تعطيني سيارتك، **فإذا كانت إجابته إلى ذلك تضره، أو تشق عليه، فإنه لا يلزمه أن يجيبه إلى ذلك؛**

لأن قاعدة الشريعة: لا ضرر ولا ضرار.

رابعاً: أن يسأل سائل غيره بالله في شأن شيء غير محرم ولا يضره أن يجيبه عليه أو يضره ذلك.

فإنه حينئذ أمر النبي أن يجيبه إليه، وهذا من تعظيم الله. وجمهور أهل العلم على أن الأمر ها هنا للاستحباب، ونقل البعض الإجماع عليه، والله أعلم.

التوجيه الثالث: قال ﷺ: «ومن دعاكم فأجيبوه».

إذا دعا المسلم إخوانه إلى وليمة، فإن النبي حث في هذا الحديث على إجابة الدعوة، وكان ﷺ يفعل ذلك، بل إنه ﷺ نهى عن ترك إجابة الدعوة، ففي صحيح مسلم، قال ﷺ: **«من دعي فلم يجب فقد عصى الله ورسوله»**.

وهل الأمر والنهي في هذا الحديث متعلق بوليمة العرس خاصة، أم بأي وليمة كانت؟ هذا موضع خلافٍ بين الفقهاء، والجمهور على التخصيص في النهي والأمر بوليمة العرس، والله أعلم.

التوجيه الرابع: أمر النبي بالمكافأة على صنيعة المعروف.

«ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، وإن لم تجدوا ما تكافئوه، فأدعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»

من صنع إليك ما فيه خير ومعروف وأمر نافع لك، فالنبي حث على أن يكافأ على ذلك فيعطى شيء مقابل إحسانه ومعروفه، فإن لم يجد الإنسان شيئاً، فالمشروع في حقه أن يدعوا له دعاءً يشعُر أنه بلغ مقابلة ذلك المعروف.

وأحسن ما يُدعا به قول: **جزاك الله خيراً**، يدل على هذا، ما ثبت عند الترمذي بإسناد صحيح، أن النبي قال: **«من صُنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء»**،

فائدة: قال العلماء: المكافأة على المعروف من تحقيق التوحيد؛ وذلك أن المكافأة على معروف المخلوق تكسر الذّلَّ الذي حصل بوصول المعروف من قبله، فيتخَلص بذلك من هذا الذل، فيشعر الموحد بأنه لا منة لمخلوق عليه، بل المنة لله ﷻ وحده، وهذا من تحقيق العبودية لله ﷻ، ومن كمال تحقيق التوحيد.

الدرس سادس و السبعون – ١٣٣٤ ٥٦- بابُ لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلا الجنَّةُ.

عن جابرٍ ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبو داود.

فهذا باب عقده المؤلف رحمه الله لبيان أنه لا يجوز أن يُسأل بوجه الله إلا الجنة، وأورد تحته حديثًا واحدًا.
وهذا الحديث قرأ بالنفي وبالنهي وبالبناء للمجهول، وبالبناء للمعلوم: «لا يُسألُ»، «لا يَسألُ»، «لا يَسألْ»، والحديث فيه بحث من جهة ثبوته، فإن مدار الحديث على راوي اسمه سليمان بن معاذ ويقال: سليمان بن كرم بن أو ابن معاذ، وإن كان الحديث قد قواه بعض أهل العلم، ومنهم الضياء المقدسي فإنه أورده في كتابه المختارة، والأقرب والله تعالى أعلم أن الحديث ضعيف، وأن هذا الراوي ليس بقوي الحفظ.

ومما يستأنس به في الدلالة على عدم ثبوت هذا النهي عن النبي ﷺ ما خرج البخاري في صحيحه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾[الأنعام:65]، قال: «هذا أهون أو أيسر».

فالشاهد: أن هذا الحديث فيه استعاذة أن النبي ﷺ بوجه الله في شأن عذاب دنيوي، الظاهر والله أعلم أن هذا النهي الوارد في هذا الحديث ليس بصحيح، وعلى فرض صحته، **فإن هذا الحديث يدل على أمرين:**

أولًا: **على أنه لا يجوز أن يسأل الله -ﷻ- بوجهه إلا الجنة،** قال أهل العلم: أو ما هو لازم لها كالنجاة من النار.
وذلك أن سؤال الله -ﷻ- إنما هو سؤال عظيم فكيف إذا توسل الإنسان إلى ربه في هذا السؤال بهذه الصفة العظيمة، وهي وجه الله العظيم سبحانه، فلا يناسب أن يسأل الله -ﷻ- هذا السؤال إلا فيما هو أرفع المطالب وأشرف الرغائب ألا وهو جنة عدن.

والأمر الثاني: **الذي يدل عليه الحديث: أنه لا يجوز أن يسأل العبد بوجه الله؛** يعني لا يجوز أن تقول لإنسان: أسألك بوجه الله أن تعطيني كذا وكذا، وذلك أنه لما كان السؤال بوجه الله مخصوصًا بسؤال

الجنة، والعبد لا يملك الجنة دل هذا على أنه لا يجوز أن يسأل العبد بوجه الله -سبحانه وتعالى-، فإن صح الحديث فإنه يدل على هذين الأمرين.

وقد جاء عند الطبراني بإسناد حسَّنه بعض أهل العلم ومنهم الشيخ الألباني رحمه الله وضعفه آخرون، وهو أنه ﷺ قال: «**ملعونٌ من سأل بوجه الله، وملعون من سُئِل بوجه الله فلم يعطِ سائله، أو فمنع سائله**»، **فهذا يشهد للمعنى الثاني**، وهو أنه لا يجوز أن يُسأل العبد بوجه الله، قال: «**ملعون من سأل بوجه الله**»؛ لأنه إذا سأل العبد بوجه الله -عز وجل- فإنه يسأله في شيء حقير من أمر الدنيا، وهذا لا يجوز أن يتوسل إليه بهذه الصفة العظيمة،

وأما المسئول فإن اللعنة ها هنا إن صح الحديث إنما تتوجه في شأن أن يُسأل هذا الإنسان شيءً ،للسائل فيه حق فيمتنع، أو يسأل شيءً لا يشق عليه إجابته فيمتنع، والله تعالى أعلم.

٥٧ – باب ما جاءَ في اللَّوْ

اللو؛ يعني هذا اللفظ الذي هو (لو)، ولو حرف من حروف المعاني،وقد جاءت في اللغة على أنحاء منها:

➢ أولا: **لوالامتناعية**:التي تدل على امتناع الشيء،لامتناع غيره: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[الأنبياء:22]. امتنع فساد السماوات والأرض لامتناع وجود آلهة مع الله سبحانه وتعالى.

➢ ثانيًا: **بمعنى إن الشرطية**،﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ**﴾[النساء:9].

➢ ثالثًا: **بمعنى أن المصدرية**: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾[القلم:9].

➢ رابعًا: **للتقليل**، قال ﷺ: «**التمس ولو خاتمًا من حديد**».

➢ خامسًا: **للحضِّ** فتقول: لو فعلت كذا يا فلان أو لو نزلت عندنا لأكرمناك.

➢ سادسًا: **للتمني**: ﴿ **فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الشعراء:102].

المؤلف أدخل أل على حرف، ومعلوم أن أل لا تدخل على الحروف إنما تدخل على الأسماء، **فما وجه هذا الفعل؟**

الجواب أن المؤلف رحمه الله نزل هذا الحرف ها هنا منزلة الاسم؛ لأنه أراد باب ما جاء في هذا اللفظ الذي هو لو، وفعله هذا قد سبقه إليه غيره من أهل العلم، ومنهم الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه، فإنه بوَّب بابًا قال فيه:(**باب ما يجوز من اللو**)، ولعلك تذكر الإشارة التي سبقت من أن المؤلف رحمه الله متأثرٌ بالإمام البخاري رحمه الله ومعتنٍ بصحيحه، ومن ذلك هذه الإشارة التي ذكرتها لك.

المقصود أن المؤلف رحمه الله أراد أن يبين أن (**لو**) تأتي في الشريعة منقسمة فيجوز استعمالها أحيانًا، ولا يجوز استعمالها أحيانًا، ولذلك جعل الباب مبهمًا، وإن كان ما أورده من الأدلة قد أورد آيتين وحديثًا يدل على أنه أراد التنبيه على ما يتعلق بجانب الاعتقاد، بجانب التوحيد، وذلك أن الاستعمال الخاطئ لهذا الحرف (لو) قد يكون قادحًا في كمال التوحيد الواجب، فكان مما يجب الامتناع عنه.

(لو) جاءت في نصوص في محمل النهي، ومن ذلك ما أورد المؤلف رحمه الله من قوله ﷺ الثابت في صحيح مسلم: «**فإن أصابك شيء فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا وكذا**»،

في حين أننا نجد في أدلة أخرى في الكتاب والسنة استعمالها وأن ذلك جائز لا حرج فيه: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾[النساء:66].

من ذلك قوله ﷺ كما في الصحيحين: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة**»، أو «**عند كل صلاة**».

وقوله ﷺ: «**لولا أن قومكِ حديث عهدهم بجاهلية لهدمت الكعبة ولبنيتها على قواعد إبراهيم**».

ومن ذلك قوله ﷺ: «**لو كنت راجمًا أحدًا بغير بينة لرجمت هذه، وأشار إلى الملاعنة**».

ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: «**إنه لوقتها**» لما أخر صلاة العشاء «**لولا أن أشق على أمتي**» إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي جاءت عن النبي ﷺ وفيها استعمال لو.

۞ **فكيف الجمع بين ما جاء دالًّا على النهي عن استعمال (لو)،وما دل على جواز استعمال (لو).**

اختلف العلماء –رحمهم الله– في هذا المقام:

منهم من قال: إن النهي الوارد يدل على كراهة هذا الاستعمال فقط،

وذلك أن الأدلة المبيحة صارفة كل النهي عن التحريم إلى الكراهة.

ومنهم من قال: إن النهي إنما تعلق بقول القائل إذا لم يُضمر ذكر مشيئة الله ﷻ

ويكون الجواز باعتبار أنه أضمر ذكر مشيئة الله ﷻ يعني إن كان يقول: لو كان كذا بمشيئة الله، أو إن شاء الله أضمر هذا في نفسه فإن الكلام صحيح وجائز، وإن لم يفعل كان الكلام محرمًا.

ومنهم من قال:إن (لو) لا يجوز استعمالها في الأمور الماضية ويجوز استعمالها في الأمور المستقبلة.

والتحقيق في هذا المقام أن يقال:

إن لو لها أحوال تكون أو يكون استعمالها فيها جائزًا، وأحوال يكون استعمالها فيها غير جائز.

أما الأحوال التي تكون لو فيها غير جائزة:

أولًا: أن يكون في استعمالها اعتراضًا على الشرع.

ثانيًا: أن يكون في استعمالها اعتراض على القدر.

ويشهد لهذين ما أورد المؤلف رحمه الله من آيتي سورة آل عمران: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:168]، ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:154].

هذا كان من قول المنافقين في غزوة أحد وكلامهم يتضمن الاعتراض على شرع الله –ﷻ– وقدره، يقولون لإخوانهم إخوانهم في النسب الذين قدر الله ﷻ عليهم أن يقتلوا شهداء في أحد، لو أطاعونا فجلسوا، فلم يجاهدوا مع رسول الله ﷺ وقد أمرهم الشرع بذلك، إذًا القتل الذي حصل عليهم إنما كان بفعل هذا الأمر الذي كانت المصلحة في خلافه، **فكان قولهم متضمن الاعتراض على الشرع،**

كما أنه يتضمن الاعتراض على القدر، كأنهم يظنون أنه إذا فعل الإنسان شيءً من الأشياء فإنه بذلك يدفع قدر الله ﷻ ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، رد الله –ﷻ– عليهم ذلك قال: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.إذًا إذا قدَّر الله شيءً فإنه لا يمكن لأحد أن يدفع تقدير الله ﷻ إذا كان الله كاتبًا على أحد أن يموت فسواء جلس في بيته أو خرج فإنه سيموت: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[آل عمران:168].في الآية الأخرى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[آل عمران:168].

ثالثا: أن يكون سياقها سياق تندُّمٌ وتحسُّر،

ومن ذلك قوله ﷺ: «**فإن أصابك شيء فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا وكذا**»، ولا شك أن الندم والتحسر، ولومُ الإنسان نفسه على الأشياء التي لم تحصل له لا شك أنه سيلقيه إلى وادي الضرر لأن هذا الندم ولأن هذا الحزن يُضعف القلب، ويضفي عليه الفتور في النشاط في الطاعة وفعل ما ينبغي أن يفعل، وفي أعقاب ذلك ما فيه من سوء الظن بالله -عَجَّلَ-، والقدح في قدره، فهذا كله لا شك أنه أمر مذموم في الشريعة والذي جر إليه هذا الندم الذي قاد إليه هذا الكلام، (لو فعلت كذا لكان كذا وكذا).

رابعا: أن يكون في استعمال (لو) احتجاجًا بالقدر على المعاصي

كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[الأنعام:148]، (لو شاء الرحمن ما عبدناهم).

ولا شك أن هذا مسلك مذموم، فالقدر يستدل به على المصائب لا على المعائب.

خامسا: أن يكون استعمال (لو) هذا المذموم فيه شيء من عدم الاكتراث بقدر الله أو بشرعه، أو التهوين من شيء من ذلك،

أما الحال الأخرى التي تكون فيها لو جائزة:

- **فإنها تكون جائزة إذا كان فيها تمني للخير،**

قال ﷺ: **لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت لما سقتُ الهدي، ولا جعلتها عمرة،ولا أحللتُ معكم.**

- **أو كان المقام مقام تعليم للعلم والخير.**

قال ﷺ:«**لولا أن أشق على أمتي**» «**لولا أن قومكِ حديث عهدهم بجاهلية أو حديث عهدهم بكفر**

وقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:154] الآية.

كما مر معنا هذه الآية في قول المنافقين، والمؤلف رحمه الله أراد أن ينبه المسلم في إيراده هذه الآية وما بعدها إلى أن استعمال (لو) المذموم من شأن المنافقين، ولا ينبغِ للمسلم أن يتشبه بهم،

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:168]. كذلك هذا القول من قول المنافقين: يعني الذي الذي حضوا إخوانهم في النسب من المؤمنين على ألا يجاهدوا، وأن يردعوا مع من

رجع إبان غزوة أحد، فكان قولهم أيضًا متضمنًا للاعتراض على شرع الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعلى قدره، فكان استعمالًا مذمومًا.

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «احرص على ما ينفعُكَ، واستعِنْ باللهِ ولا تَعْجَزَنَّ وإن أصابكَ شيءٌ فلا تقل: لوأني فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل:قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشيطانِ».

في الصحيح؛ يعني في صحيح مسلم، والمؤلف اختصر أول الحديث وأورد الشاهد منه فحسب،

وأوله قوله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»، ثم قال: «**احرص تعلى ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»، هكذا وقفت على الرواية في صحيح مسلم في أكثر من نسخة، وكذلك في مختصره، والمؤلف رحمه الله أورده بلفظ **تعجزن**، والله أعلم ربما يكون وقف على شيء من نسخ مسلم ثبت الحديث فيها هكذا.

هذا الحديث فيه تنبيه على أمور ثلاثة مهمة:

أولًا: **الحث على الحرص،**

والحرص: هو بذل الأسباب الجائزة الممكنة،

إذًا من ترك استعمال الأسباب المحرمة لا يقال: إنه لم يحرص، ومن ترك ما لا قدرة عليه،وما كان خارجًا عن طاقته لا يقال: إنه لم يحرص، إذًا الحرص هو أن تبذل المستطاع في حدود ما أبيح.

وثانيًا: **أن تجعل همتك في حرصك على ما ينفعك في أمر دينك وأمر دنياك،**

وذلك أن من الناس من يكون عنده حرص ونشاط وبذل، لكنه لا يوفق إلى ما ينفعه، تجد حرصه في الشيء الذي يضره، إما في العاجلة، وإما في الآجلة، وهذا من قلة التوفيق، ومن الخذلان والحرمان.

ثالثا: **أن يستعين الإنسان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا هو أساس التوفيق.**

فإذا لم يكن عون من الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد فليس له إلا الخيبة والحرمان .

والألف والسين والتاء للطلب؛ يعني أن يسأل الله أن يطلب من الله العون، وقد ثبت في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**ربّ أعني ولا تُعن عليَّ**».

قال ﷺ: «**ولا تعجز**» ولك أن تقول: «**ولا تعجِز**».

والرواية على ما أورده المؤلف –رحمه الله فيها تأكيد بذكر النون «**ولا تعجزن**» زيادة في التأكيد،

وليس مراد النبي ﷺ بالعجز ها هنا ما يرجع إلى معنى انتفاء القدرة، كأن يصاب الإنسان بمانع يمنعه من بذل الأسباب، فالشريعة لا تأتي بالتكليف بما لا يطاق.

إنما المراد بالعجز هاهنا ما يرجع إلى معنى الكسل وترك النشاط والجهد وبذل الأسباب وما يرجع إلى الدعة والركون إلى المهانة فمثل هذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في قوله: «**ولا تعجز**».

«فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

في الأمر الذي فرَط وحصل وقُضي وكان على خلاف ما يُؤمّل الإنسان، أصاب الإنسان شيءٌ كدَّر خاطره لم يكن مؤملًا عنده، **هو في هذه الحالة بين أمرين:**

- **إما أن يركن إلى (لو) التي تقوده إلى مرتع وخيم وهو الحزن والأسى واليأس والبؤس**، وهذا هو الذي يريد الشيطان أن يظفر من العبد به، يريد أن يخوضه إلى هذا المكان حتى إنه إذا كان ذا بأس، ذا بؤس، وذا يأس وأسف وحزن فإنه سوف يترك النشاط في طاعة الله ﷻ.
- **أما إذا ركنت إلى (لو) حين يصيبك الشيء الذي تكره ترجع باللائمة على نفسك أو على غيرك**، فتقول: لو فعلت كذا لما كان كذا، ولو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، هذا كله لا فائدة منه بل هو حُمْقٌ في العقل، وضعف في الفكر؛ لأنه لا يعود عليك بشيء فائت

إذًا المطلوب من المسلم أن يدَع هذا الأمر أن يدع التأسف على ما مضى واستعمال كلمة (لو) في هذا المقام، وهذا مع الأسف الشديد مما يقع من كثير من الناس إذا نزل بهم من شيء يكرهونه تبدأ لو عندهم في العمل تجد أحدهم يقول: لو أني ما خرجت في هذا اليوم ما أصابني الحادث، أو تجد الأب يقول لابنه: يا ابني لو سمعت كلامي ما صار عليك كذا وكذا، وهذا لا شك أنه أمر مخالف للواجب على العبد ليس من الأمر المرضي شرعًا أن تقول هذا القول؛ لأنه لا فائدة منه؛ ولأنه يقود إلى الشر.

علل النبي ﷺ الأمر بقوله ﷺ: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»، وما هو عمل الشيطان؟

عمل الشيطان أمران:

أولًا: الاعتراض على الله سبحانه وتعالى،

وذلك أن العبد في قوله: لو كان كذا لكان كذا وكذا ما يخلو من اعتراض على قدر الله عز وجل، وإبراز عدم إيضاح عما قضاه سبحانه وتعالى، كذلك الحال من إبليس فإنه قد عارض الله سبحانه وتعالى في أمره، أليس هو الذي قال: ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾[الإسراء:61].

﴿ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[ص:76] فالعبد الذي يستعمل هذه الكلمة في هذا السياق يكون قد عمل عمل الشيطان وهو الاعتراض على الله –عز وجل– يعترض عليه في قدره كما اعترض الشيطان على الله عز وجل في أمره.

ثانيا: هوأنه في استعماله هذه الكلمة في هذا السياق يقع في الحزن والإحزان من عمل الشيطان،

من وظيفة الشيطان إحزان عباد الله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ**﴾[المجادلة:10]، لم؟ ﴿**لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[المجادلة:10]، إذًا من عمل الشيطان ماذا؟ الإحزان،

كذلك (لو) من عملها أنها توقع العبد في الحزن فتحقق قول النبي ﷺ: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

قال بعض العقلاء: «**إذا نزل بك أمر مهم فأنظر، فإن كان لك فيه حيلة فلا تعجز، وإن لم يكن لك فيه حيلة فلا تجزع**»، هكذا ينبغي على الإنسان أن يقابل هذا الأمر الذي نزل به، إذا نزل به الأمر المكروه هو بين نظريه أن يذهب إلى لو وما يتبعها من مفاسد أو أن يلاحظ القدر ومشيئة الله النافذة، فإن قدر الله –عز وجل– نافذ شاء الإنسان أم أبى.

إذًا إن الذي ينبغي أن يرضى الإنسان بقدر الله سبحانه وتعالى إذا لاحظ أن مشيئة الله عز وجل نافذة، وأن له الحكمة فيما يقدر، وفيما يخلق سبحانه وتعالى أدَّاه ذلك إلى طمأنينة وإلى سكينة، وربما ارتقى إلى درجة عليا وهو الرضا وهي الرضا بقدر الله سبحانه وتعالى وهذا ما عليه الكمل من عباد الله الذين يستغفرون بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[المائدة:50].

الدرس سابع و السبعون – ١٣٥٠   ٥٨- بابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

فهذا الباب عقده المؤلف رحمه الله، للتنبيه على النهي عن سب الريح، والريح والأكثر في لغة العرب تأنيثها جندٌ من جنود الله ﷻ، مصرفة، ومدبرة، ومأمورة من الله ﷻ. الله جل وعلا يصرفها إذا شاء كيف شاء، وسبها وذمها إضافة إلى ما فيه من ضعف العقل يستلزم سب مسخرها ومدبرها وهو الله ﷻ، لأجل ذلك كان ترك ذلك من تحقيق التوحيد الواجب.

ولو أن إنسان خطر في باله حين سب الريح، خطر في باله سب من دبّرها فلا شك أن هذه ردة صريحة،

عنْ أُبَيِّ بنِ كعبٍ ﷺ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا الريحَ، فَإذا رأيتُم ما تَكْرَهونَ فقولوا:اللهمَ إنا نَسألُكَ مِن خَيرِ هذهِ الريحِ وخيرِ ما فيها وخيرِ ما أُمِرْتَ به، ونَعُوذُ بكَ مِن شرِّ هذهِ الريحِ وشرِّ ما فيها وشرِ ما أُمِرتَ به» صححه الترمذي.

الحديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ ، وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم وهو أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: **«اللهم إني أسألك من خيرها، وخير ما أرسلت به وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وشر ما فيها»**، أو كما قال النبي ﷺ.

۞ وهذا الحديث يشتمل على أمرين:

➢ الأول: **النهي عن سب الريح،**

وعلة ذلك هو أن سبها يستلزم سب مرسلها لأنه ليس منها شيء، لا يصدر عنها الفعل أو الشيء لذاتها، إنما هي مرسلة مسخرة مأمورة.

➢ الثاني: **الإرشاد إلى المشروع.**

كما مر بنا هذا مراراً، وهو أن النبي ﷺ في كثير من الأمور إذا أغلق الباب الممنوع فتح الباب المباح، بين للناس ما هو مشروع فقال إذا رأيتم ما تكرهون، إذا كانت الريح فيها أذية أو حملت برداً شديداً أو حملت حراً شديداً أو كانت قوية قلعت الأشجار والأبواب وما إلى ذلك، شرع لنا أن نقول هذا الدعاء.

وبالتالي فإننا نعلم أن الريح على نوعين:

- **ريح خفيفة معتادة غير مؤذية**، فهذه لا يشرع أن يقول الإنسان عندها شيء،
- **وريح عاصف**، **ريح قوية مؤذية**، لحديث عائشة وفي هذا الحديث الذي بين أيدينا.

قال **فَإِذا رأيتُم ما تَكْرَهونَ** ، **فإذا كانت الريح قوية ومخيفة** فهذه هي التي يشرع فيها أن يدعو الإنسان بهذا الدعاء.لا والحديث أضيف فيه الخير والشر إلى الريح وهذه إضافة سببية لا إضافة استقلالية يعني ليست الريح تتضمن من ذاتها الخير والشر، إنما هي سبب يجعلها الله سبباً للخير ويجعلها الله سبباً للشر،

الله جل وعلا قد يجعل الريح سبباً للخير،

قال تعالى:﴿وأَرسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾الحجر:22، وقال سبحانه: ﴿ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[الروم.

قد تكون سبباً للنصر، قال الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾[الأحزاب:9]، قال ﷺ: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**» الصبا على وزن عصا، والدبور على وزن رسول، الصبا ريح تهب من جهة المشرق، والدبور ريح تهب من جهة المغرب.

المقصود أن الريح قد تكون سبباً للخير، وهذا ما يسأله الإنسان ربه تبارك وتعالى، أن يجعل هذه الريح سبباً لحصول الخير، له ولغيره،

وقد تكون سبباً للشر

فالله جل وعلا قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيْمَ﴾[الذاريات:41]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[فصلت:16]. فهذه الريح قد تكون سبباً للشر وقد تكون سبباً للبلاء، فيسأل الله أن يصرف عنه هذا الشر، ألا تكون هذه الريح سبباً لشر يناله.

قال: **وخير ما أرسلت به**، وجاء في بعض الروايات، **وخير ما أمرت به**، وهذا يدلك على أن الريح مأمورة من الله تبارك وتعالى، تستمع الأمر وتستجيب الأمر لله جل و على، هي تؤمر من الله سبحانه وتعالى فتستجيب، طائعة لله تبارك وتعالى، وهكذا كل ما في السموات والأرض فإنه مطيع لله تبارك وتعالى.

٥٩- باب قول الله تعالى:﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾آل عمران:154 الآية.وقوله:﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[الفتح:6 الآية

هاتان آيتان عظيمتان، للدلالة على وجوب حسن الظن بالله جل وعلا، وعلى النهي المؤكد عن إساءة الظن بالله جل وعلا،

فآية آل عمران الأولى مر بنا طرف من الحديث عن الآية التي بعدها، في الباب الذي قبل هذا الباب الماضي، وفيه أن من حال المنافقين أنهم يظنون بالله غير الحق، ووصف هذا الظن بأنه ظن الجاهلية.

وفي الآية الثانية في آية الفتح بين الله ﷻ النهي المؤكد عن ظن السوء بالله جل وعلا، وظن السوء وظن غير الحق بالله تعالى شيء واحد، هو ظن الجاهلية، وهو شأن المشركين والمنافقين كما دلت عليه الآية.

وقد جاءت كلمة السوء مرتين في آية الفتح:

﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ واتفاق القراء العشرة على فتح السين في قوله ﴿السَّوْءِ ﴾،

وأما الكلمة التي بعدها: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، فالجمهور أيضاً على فتح السين وقرأ بعض القراء وهو ابن كثير وأبي عامر بضمها، ولا شك أن الأكثر في اللغة والأشهر في اللغة هو فتح السين.

والضابط ظن الجاهلية هو: أن يظن بالله خلاف ما يليق به

الله ﷻ ما يليق به يليق بربوبيته وألوهيته ومقتضى أسماءه وصفاته، الذي يليق به كل خير، وكل إحسان وكل كمال فمن ظن في الله ﷻ خلاف ذلك فإنه يكون قد ظن بالله ﷻ ظن السوء فشابه حال المشركين وحال المنافقين، وهذا باب واسع يدخل تحته أنواع كثيرة جداً مما يقع فيه الناس قديماً وحديثاً.

كلام المفسرين عن هاتين الآيتين آية آل عمران وآية الفتح متقارب،

- تجد أنه قد فسر ظن غير الحق أو ظن السوء بالله ﷻ أن الله ﷻ يجعل دين النبي ﷺ مضمحلاً وأنه لا ينصر نبيه ﷺ ،
- تجد أنهم يفسرون أيضاً بإنكار القدر، أو إنكار حكمة الله ﷻ أو إنكار البعث

وكل ذلك لا شك أنه داخل في ظن غير الحق في الله ﷻ أو ظن السوء به ﷻ.

لكن لا شك أن عموم اللفظ وعموم ما يدخل في مضمون هذا المعنى لا شك أنه أوسع من ذلك بكثير،

﴿ قَالَ ابْنُ القَيِّم فِي الْآيَةِ الأُولَى : فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ القَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّ المُنَافِقُونَ وَالمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ؛ بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ ؛ فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ،فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ، وَيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَشْتَ مَنْ فَتَشْتَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى القَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ ؛ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ ؟!

« فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا».

ابن القيم رحمه الله كلامه في كتابه زاد المعاد وهو في الجزء الثالث ضمن الفوائد التي ساقها مما يستفاد من غزوة أُحد، فإنه من أحسن الكلام في تفسير هاتين الآيتين.

قال ابن القيم:وقد فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل ... إلى قوله: وأنه يسلمه لا يقوم بعده أبداً فقد ظن بالله ظن السوء.

لا شك أن هذا من ظن السوء، وهذا مما يجب أن يحذره المسلم، وأناس يظنون أن الحق لم ينتصر وأن جند الله ﷻ لن تكون لهم الغلبة، وهذا من أبطل الباطل، الله جل وعلا قد وعد ووعده لا يخلف، أن العاقبة للمتقين ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر:51]

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات:173] لكن لابد من حصول الابتلاء والامتحان وتقدم هذا النصر أو تأخره أمر راجع إلى حكمة الله جل وعلا وليس للإنسان أن يستعجل لكن كون الحق منصوراً، هذا أمر قطعي لا شك فيه.

قال رحمه الله: **لقد ظن بالله ظن السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته ...**
إلى قوله: **وأن يسوي بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء.**

ومن ظن به أنه يترك خلقه سدى، معطلين عن الأمر والنهى، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء. لا شك أن كل من أنكر الحكمة والتعليل في أفعال الله ﷻ فقد ظن به ظن السوء وهؤلاء كثير من المتكلمين الذين ينكرون الحكمة في أفعال الله ﷻ عندهم أن الله سبحانه إنما يخلق وإنما يفعل وإنما يقدر لمشيئة محضة لا أن ثمة حكمة من وراء ذلك يحبها الله ﷻ ويريدها. ولا شك أن هذا من أبطل الباطل

قال رحمه الله: **ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره... إلى قوله:** **وإلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء.**

هذه مسألة التحسين والتقبيح العقلي والناس فيها طرفان ووسط

أناس نفوا: أن يكون للعقل إدراك لحسن الأشياء أو قبحها

وأناس غلوا: في هذا الأمر حتى جعلوا تحسين العقل أو تقبيحه هو الذي يقتضي الإثابة أو التأثيم

والمسلك الوسط:هو العدل في هذا الأمر، وهو أن العقل قد يدرك حسن الأشياء وقبحها ولكن الإثابة والتأثيم إنما هي مرتبطة بالشرع لا بالقدر، الله ﷻ إنما يأمر وإنما ينهى وإنما تترتب الإثابة والتأثيم على أمره ﷻ لا على ما يمليه العقل.

وكثير من الأقوال الباطلة التي قالها المتكلمون مبنية على هذا الأصل وهو نفي التحسين والتقبيح العقلي عندهم لا فرق بين الصدق والكذب لا فرق بين النكاح والسفاح كلاهما في حكم العقل سواء، الفرق أن الشرع أمر بهذا ونهى عن هذا فقط، أما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون إن في الصدق حسناً تدركه العقول وإن في الكذب قبحاً تدركه العقول وإن كان التأثيم أو الإثابة إنما تنبني على ما أمر الله ﷻ لا على ما أدركته العقول.

قاعدة مهمة: وهي أنه لا تكاد تجد مبتدعاً إلا وعنده حظ من سوء الظن بالله ﷻ فمقل ومكثر، لا تكاد تكد مبتدعاً إلا وهو واقع في هذا الأمر وهو أنه ظن بالله ﷻ خلاف ما يليق به.

قال رحمه الله: ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحق ...إلى قوله: بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء.

هذا من البلاء العظيم الذي فشا وانتشر مع الأسف الشديد، كم تجد من قائلين وكم تجد في كتب من يقول في بعض آيات الصفات، هذه آية من الآيات الموهمة للتشبيه،حاشى كتاب ربنا أن يكون فيه شيء موهم للتشبيه، أي موهم للكفر والضلال، الله ﷻ إنما أنزل كتابه لكي يكون سبب الهداية لا لكي يكون سبب الشقاء، قال جل وعلا: ﴿طه ۞ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾[طه:1-2].

هذه مسألة مهمة لانتشار البلاء بها وهي أن يقال أن في القرآن آيات موهمة للتشبيه هذا أساس من أسس البلاء و الضلال يجب الحذر من ذلك بل كتاب الله ﷻ كله هدى وكله نور وكله بيان وكله تبيان ولا يمكن أن يكون فيه شيء مسبب أو يقود إلى الضلال أين يذهب قوله تعالى:﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾[النساء] أين يذهب وصف كتاب الله ﷻ بأنه هدى وبأنه نور وبأنه بيان وتبيان إلى آخره؟ **إن هذا المعتقد الذي انبنى على هذا الأصل لا شك أنه انبنى على سوء ظن بالله ﷻ،**
وأضف إلى هذا أنه انبنى على سوء ظن برسول الله ﷺ،كان ﷺ يتلوا عليهم صباح مساء آيات الصفات، بل هو يخبرهم بالأحاديث، يخبرهم أن الله تعالى ينزل إذا بقي ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا، يخبرهم أن الله ﷻ يضحك ولا مرة واحدة قال لهم استمعوا أنا أخبركم بآيات وأحدثكم بأحاديث ظاهرها الضلال والكفر والتشبيه، لا ما قال هذا لا في حديث صحيح ولا ضعيف ولا موضوع.

ثم أصحاب النبي ﷺ تلقوا هذه الأحاديث والآيات وبلغوها للتابعين، ثم لم يحذروهم ولو مرة واحدة فيقولون لهم انتبهوا ثمة آيات موهمة للتشبيه حذار من حولها على ظاهرها هكذا التابعون لما نقلوا هذا إلى أتباع التابعين إذن هذا أصل مهم ينبغي أن تتنبه له وهو أن كتاب الله كله بما اشتمل عليه من آيات الصفات وغيرها لا شك أنه جميعاً ليس فيه شيء يؤدي إلى الضلال إلا عند القلوب التي غرقت في أوحال الانصراف عن الحق،

قال رحمه الله: وإن قال: إنه قادرٌ ولم يبين، وعدل عن البيان، وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم... إلى قوله: ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظن به ظن السوء.

أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله لم يزل فاعلاً ولم يزل خالقاً، وليس أنه كان معطلاً عن الفعل والخلق، ثم بدأ في الخلق والفعل، فهذا يستلزم نسبة النقص لله ﷻ، وهذا موضوع أظن أنه سبق الكلام فيه.

قال رحمه الله: ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض،...إلى قوله: وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء.

هذا هو الضابط الذي يرجع إليه الكلام المتفرق الذي ذكره.

قال رحمه الله: وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه،...إلى قوله: وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك.

يعني قول الرافضة، جميعاً لا يمكن أن يقوم إلا على القول بالقدر، ولذلك هم متابعون في باب الصفات والقدر للمعتزلة، لا يمكن أن يستقيم لهم قول إلا على قول القدرية، والقدرية عندهم أن أفعال العباد خارجة عن مشيئة الله ﷻ وخلقه، ولذلك هذا الذي وقع من اغتصاب الخلافة أو ما ظنوا أو ما زعموا أنه ظلم لآل بيت النبي ﷺ ، فهذا بناء على القول بالقدر ماذا، خارج عن مشيئة الله ﷻ.

قال رحمه الله: ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيضٌ إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم،...إلى قوله: فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده.

هذا كلام مهم وينبغي أن يقف عنده الإنسان ملياً وهو: أن أكثر الخلق كما ذكر رحمه الله يظنون أن ما يقع عليهم إنما هو ظلم في حقهم فلسان حالهم لا مقالهم "ظلمتني يا رب وفعلت بي خلاف الحكمة ولم تعطني ما أستحق"

كما من الناس إذا ما نزلت به مصيبة قال يا رب لم فعلت بي هذا؟أو تجد أنه يقول فلان ما يستأهل، نسمع هذا كثيراً فلان الذي أصيب بحادث أو بمرض يقولون فلان ما يستأهل، كم من الناس تجد أنه يقول مثلاً يعطي الخلق لمن لا آذان له ، تريد أن الله ﷻ فعل خلاف ما تقتضيه الحكمة، يعني أن كان ينبغي أن أعطى أنا لكن الله أعطى هذا المال وهذا الخير لمن لا يستحق ولمن لا يليق به النعمة.

كل ذلك دليل على خطورة هذا الأمر، ولو فتش الإنسان في نفسه ربما وجد شيئاً كامناً من ذلك، ولا يسلم إلا من أحسن الظن بالله ﷻ، هذا باب إيماني علمي ينبغي أن يراجعه الإنسان كثيراً ويفتش في نفسه كثيراً.

سوء الظن بالله له أوجه كثيرة، وخطره عظيم، ودواخله كثيرة، ويتزين ويتشكل في صور كثيرة، ينبغي على الإنسان أن يكون فقيهاً وأن يحاسب نفسه محاسبة قوية، محاسبة الشحيح حتى يسلم من هذا الأمر.

الدرس الثامن و السبعون – ١٣٧٥   ٦٠– بابُ ما جاءَ في مُنْكِرِي القَدَرِ (المجلس الأول).

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب ليبين أن من سوء الظن بالله ﷻ إنكار القدر.

الإيمان بالقدر ركنًا من أركان الإيمان، وأصلًا من أصول التوحيد،

۞ وتحقيق الإيمان بالقدر يثمر ثمرات يانعة عظيمة:

➢ أولًا: **تحقيق التوحيد**، فإن القدر من فروع توحيد الربوبية؛

لأن الإيمان بالقدر يتضمن إفراد الله ﷻ بالخلق والإعطاء والمنع وما إلى ذلك، ومن حقق توحيد الربوبية فإنه إن وفقه الله قاده إلى تحقيق توحيد الألوهية.

➢ ثانيًا: **تحقيق الهداية**، وذوق طعم الإيمان،

فإن من آمن بالقدر أداه هذا إلى هداية القلب، وإلى ذوق طعم الإيمان كما سيأتي معنا، قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:11].

قال علقمة رحمه الله: "هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم" أي فينال الهداية.

➢ ثالثًا: **تحقيق الإخلاص بالله جل وعلا**

فإن من آمن أن كل شيء بقدر، وأن الناس لا ينفعون ولا يضرون، وأنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له أداه هذا إلى أن يقصد وجه الله، ولا يلتفت إلى مخلوق لطلب منحة أو ثناء.

➢ رابعًا: **تحقيق التوكل على الله**،

وذلك أن كل شيء بيده، وهو سبحانه مُقَدِّرُ الأشياء، ولا تكون إلا فيما جرى في علم الله ﷻ وكتابته ومشيئته وخلقه، فإذا كان ذلك كذلك فلأي شيء يعتمد قلبه على غير الله.

➢ خامسًا: **تحقيق الخوف من الله**، وذلك أن من علم أن كل شيء مكتوب، كتب الله كل شيء، حتى الهداية والضلال، حتى مقعد الإنسان من الجنة أو من النار، وفي الصحيحين أخبر النبي ﷺ أنه **«ما من مخلوق إلا وقد كُتب مقعده إما من الجنة وإما من النار»**، وإذا كان ذلك كذلك خاف الإنسان ووجل قلبه؛ لأنه لا يدرِ ما الذي كتب في حقه في ما كتب الله ﷻ ولذلك ما أقضّ مضاجع الصالحين شيئًا كشأن الخاتمة، وما كتب الله فيها على العبد.

➢ **سادسًا: تحقيق الصبر**

والصبر نصف الإيمان، فإن من علم أن كل شيء يصيب الإنسان فهو مكتوب عليه، أداه ذلك إلى الصبر، وحبس النفس عن الجزع، وترك الندم ولوم النفس والجزع، فأن ذلك شيئًا لا فائدة منه، فما قدر الله ﷻ فأنه كائن، شاء الإنسان أم أبى، ولن يغني حظرًا عن قدر.

➢ **سابعًا: تحقيق القناعة**، وغنى النفس، والسلامة من الحسد،

فلأي شيء يتطلع الإنسان إلى ما في أيدى الناس؟ ولأي شيء يحسدهم على ما أعطاهم الله ﷻ من نعم، وكل شيء فهو بتقدير الله ﷻ فمن علم ذلك قنع، وكان غني النفس، سليمًا من آفة الحسد،

۞ الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ودليل ذلك:

- ما جاء في حديث النبي ﷺ الذي هو حديث جبريل المشهور،
- وبين الله جل وعلا في غير ما آية أن القدر شيء ثابت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:49].

۞ وأصول ومعاقد باب القدر مرجعها إلى ثلاثة أصول: هذه لب باب القدر، وأهم مسائله.

الأصل الأول: أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن كل ما يقع في هذا الكون من الأعيان والأفعال فإنه راجع إلى علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه.

وهي التي يسميها أهل العلم مراتب القدر: علم كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين.

- **أولا: علم**: فكل شيء كائن فأنه قد سبق في علم الله الذي وسع علمه كل شيء: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:7]
- **ثانيا: كتابة**: ثم أن الله ﷻ كتب ما سبق في علمه أنه واقع كتب ذلك في اللوح المحفوظ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس:12]،هذا هو اللوح المحفوظ، محفوظ عن التبديل والزيادة والنقصان،
- **ثالثا: المشيئة**: ثم أنه لم يقع شيئًا إلا لأن الله ﷻ قد شاءه، فالمشيئة هي الموجبة للأشياء على الحقيقة، ولو شاء الله ألا يقع فأنه لن يقع، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.
- **رابعا:** الخلق، وكل شيء مخلوق لله ﷻ ليس ثمة موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق واحد هو الله جل وعلا فما عداه فهو مخلوق الله خالق كل شيء، وخلق كل شيء فقدره تقديرا.

قال سلمة بن دينار: "إن الله علم قبل أن يكتب، وكتب قبل أن يخلق فمضى الخلق على علمه وكتابته".

الأصل الثاني: أهل السنة والجماعة لا تعارض عندهم بين إثبات مشيئة الله لأفعال العباد، وخلقه لها، وبين إثبات مشيئة العباد وأفعالهم،

أربعة أمور يثبتها جميعا أهل السنة والجماعة:

الأمرالأول: أن كل ما يقع من أفعال العباد وتصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم فإن هذا واقع بمشيئة الله ﷻ حتى أن مشيئتهم مرتبطة بمشيئة الله:. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:29].

الأمر الثاني: أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى كما أن أعيانهم وذواتهم مخلوقة، والله ﷻ من حكمته أنه **قد يخلق بلا واسطة:** خلق آدم والجنة والنار وغير ذلك بلا واسطة،

وقد يخلق بواسطة: وخلق حواء، وخلق المطر، وخلق النبات، وخلق البشر بتوسط أسباب مع غناه ﷻ عن هذا التوسط وعن تلك الأسباب، لكنها حكمة الله، والله حكيم عليم.

فهي داخلة تحت عموم قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:62].

الأمر الثالث: إثبات مشيئة العبد، فالعبد له مشيئة، له إرادة بها يفعل:

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:28] ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[البقرة:223].

وإثبات هذا أمر ضروري، فكل إنسان يعلم من نفسه أن له مشيئة، وأنه يفعل وفق مشيئة.

الأمر الرابع: إثبات أفعال العباد، وأنها قائمة بهم حقيقة،

فالعبد هو الذي فعل، العبد هو الذي قام، وقعد، وصلى، وأذنب، ولذلك فإنه يتحمل مسئولية فعله، ويكون جزاءه على فعله من عدل الله ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة:286]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل:90].

الأصل الثالث: أن الهداية والإضلال بأذن الله جل وعلا

- فالله سبحانه يهدي من يشاء نعمة منه وفضلا،
- ويضل من يشاء حكمة منه وعدلا،

قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون ۞ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:7-8].

المنحرفون في هذا الباب الذين تجاوزوا الصراط المستقيم يجمعهم مسلكان:

المسلك الأول: الإفراط مسلك فرقة الجبرية،

الجبرية غلبوا في إثبات قدر الله ﷻ حتى نفوا مشيئة العبد وقدرته وفعله، وهؤلاء درجتان، درجة غالية، ودرجة مقتصدة، ولا كلام لنا فيهم لأنهم ليس المقصودين في هذا الباب.

والمسلك الثاني: التفريط مسلك القدرية.

والقدرية هم نفاة القدر، وهذا الإطلاق جاء على خلاف الغالب، الغالب أن الفرقة يضاف إليها المقالة التي تثبتها لا التي تنفيها، لكن قد يقع خلاف ذلك، ومن ذلك هذه التسمية القدرية.

فأن هؤلاء سموا بالقدرية لأنهم نفاة القدر، وهؤلاء على درجتين:

الفرقة الأولى: ولاتهم ومتقدموهم نفوا علم الله ﷻ وكتابته، وبالتالي يكونون نافين لمشيئته وخلقه،
وهؤلاء نبتت نابتتهم في أواخر عهد الصحابة بعد انقراض عهد الخلفاء الراشدين، نشأوا في الفترة التي كانت فيها الفتنة بين ابن الزبير رضي الله عنه وبني أمية، نشأت في البصرة،
وكان أول من قال بهذا القول رجل اسمه معبد الجهني، وهؤلاء قد أجمع السلف الصالح على كفرهم،
وكل أدلة الكتاب والسنة ترد مذهب هذه الفئة الضالة الذين نفوا علم الله ﷻ وجعلوا الأمور أنفًا، يعني مستأنفة جديدة لا يعلم الله الأشياء حتى تقع، فإذا وقعت علمها الله، فضلًا عن أن يكون قد كتبها، أو أن تكون واقعة بمشيئته، أو أنه هو الذي خلقها، وهذا معلوم كفر قائله بالإضرار من دين الله ﷻ وهذه الفرقة قد تلاشت واضمحلت، فلا يعرف في الفرق المعروفة المشتهرة من يقول بهذه المقالة.

الفرقة الثانية: فهم مقتصدوهم

الذين أثبتوا علم الله القديم، وكتابته في لوح محفوظ لكنهم أنكروا عموم المشيئة وعموم الخلق.
معنى ذلك أنهم أخرجوا أفعال العباد عن أن تكون داخلة تحت مشيئة الله ﷻ أو أن يكون الله خالقا لأفعال العباد، عندهم أن الله ﷻ شاء الأشياء باستثناء أفعال العباد، وهؤلاء هم المعتزلة، ومن لف لفهم.

فالأصل في هذه الفرقة أنها فرقة ضالة متبعة، إلا في حق من قام أو قامت عليه الحجة في عينه فأنه لا شك أن من كذب دليلًا واحدًا من الكتاب والسنة، وقامت على صاحبة الحجة، فلا شك في كفره، فكيف بعشرات أو مئات الأدلة التي يكذب بها هذا الإنسان في حقيقة الأمر.

وكلاهما يسمى القدرية المجوسية، لب وخلاصة انحرافهم يرجع أو ترجع إلى ثلاثة مسائل:

الأمر الأول: أنهم أنكروا أن تكون أفعال العباد واقعة بمشيئة الله ﷻ.

والأمر الثاني أنهم أنكروا أن تكون أفعال العباد مخلوقة الله ﷻ.

والأمر الثالث أنكروا أن تكون الهداية والإضلال بيد الله ﷻ.

الله ﷻ قد خص المؤمنين بشيء زائد هو هداية قلوبهم فإن هذا عندهم باطل، ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾الحجرات:

قال ابنُ عمرَ «والذي نفسُ ابنِ عمرَ بيدهِ لو كان لأحدهِم مثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثم أنْفَقَهُ في سبيل اللهِ،ما قَبِلَهُ اللهُ منه حتى يُؤْمِنَ بالقدرِ،ثم استدل بقول النبي ﷺ:« الإيمانُ أنْ تُؤْمِنَ باللهِ وملائِكتِهِ وكُتُبِهِ و رُسُلِهِ واليومِ الآخِرِ،و تؤمِنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِهِ» رواه مسلم.

هذه قطعة من أول حديث في صحيح مسلم، وفيه أن يحي بن يعمر، وحُميد بن عبد الرحمن الحميري ترافقا حاجين أو معتمرين، وأرادا أن يسألا أحدًا من أصحاب النبي ﷺ عن المقالة التي ظهرت قبلهم في البصرة، وهي مقالة معبد الجهني وأتباعه الذين كانوا يقولون إن الأمر أُنُف، يعني لم يسبق الأمر في علم الله ﷻ ولم يكتب الله ﷻ شيئا إنما يعلم الله الأشياء بعد وقوعها.

فوُفِّقَ لهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهو داخلا إلى المسجد، فاكتنفاه ثم تكلم يحيى بن يعمر رحمه الله وبين له أن أناس قبلهم يقرأون القرآن، ويتقفرون العلم يعني: يتتبعون العلم،

وهذا يدلك على أنه ليس كل من طلب العلم، وقرأ القرآن يكون على الصراط المستقيم، بل إذا لم يهده الله ﷻ طالب العلم إلى سلوك الصراط السوي فأنه قد يجني عليه علمه، وقد يضل عياذًا بالله

العلم ليس الهداية مرتبة عليه ترتب العلة للمعلول، العلم سبب، ولكن السبب بحاجة إلى أسباب أخرى، لا يوجد سبب يستقل بوجود المسبب بل لابد من وجود أسباب أخرى، ولابد أيضًا من زوال المانع، ولابد من هداية من الله ﷻ ولذا كم ممن كان عنده علما وضل عن الصراط المستقيم .

ابن عمر رضي الله عنهما لما حدثاه بخبر هؤلاء القوم القدرية بينَّ براءته ﷺ منهم وقال: إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم وهم مني براء، والذي يحلف به عبد الله بن عمر:(أقسم بالله)، هكذا الرواية في مسلم، والمؤلف رحمه الله كأنه ساقها بالمعنى، (والذي نفس ابن عمر بيده)، ليست هذه الرواية مسلم، نص صحيح مسلم: **«والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو كان لأحدهم مثل أحدا ذهبا فأنفقه في سبيل الله لم يقبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره»**.

شهد هذا في كتاب الله: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**﴾التوبة٥٤. فهو أثبت ها هنا عدم قبول أعمالهم ونفقاتهم إنما كان بسبب كفرهم بالله ﷻ، ولاشك في أن من قال بهذا القول فنفى قدر الله ﷻ لاشك في كفرهم بإجماع،

وقد جاء عن غيره أيضا من أصحاب النبي ﷺ الذين أدركوا هذه المقالة، ومن أولئك ابن عباس، ومن أولئك جابر بن عبد الله، ومن أولئك وافلة بن الأصقع.

المقصود أن ابن عمر رضي الله عنهما عقب على هذا بأن حدث هذين بما حدثه به أبوه عمر رضي الله عنهما من قصة إتيان جبريل ﷻ للنبي ﷺ وما جرى في هذا الحديث من بيان الإسلام والإيمان والإحسان، والشاهد من ذلك أن النبي ﷺ عد من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر، والله تعالى أعلم.

وعن عبادة بن الصامت ﷺأنه قال لابنهِ:يا بُنيَّ إنَّكَ لنْ تَجِدَ طَعمَ الإيمانِ حتى تَعْلَمَ أنَّ ما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فقال لهُ: أُكْتُبْ. فقال: ربِّ وماذا أَكتُبُ، قال: أُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلَّ شَيءٍ حتى تَقُومَ السَّاعَةَ» يا بني سمعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ:« مَنْ ماتَ على غَيْرِ هذا فَليسَ مني».

هذا الحديث الثاني فيه وصيةُ عبادة بن الصامت ﷺ لأبنه واسم ابنه الوليد، كما جاء مصرحا به في رواية الترمذي، وهكذا كانت عادة السلف الصالح، أنهم يتخولون أولادهم بالوصية والنصيحة لاسيما في أهم الأمور، وهو أمر الدين والتوحيد والاعتقاد.

وقد جاء في رواية الترمذي أن عطاء بن أبي رباح سأل الوليد بن عبادة عن أخر وصية له أوصاك بها قبل الموت، فقال رحمه الله: "إنه دعاني" يعني عبادة ﷺ فقال: "يا بني أوصيك أن تؤمن بالله، وبالقدر خيره وشره، فإنك إن لم تفعل أدخلك الله النار" هذه كانت آخر وصية أوصى بها عبادة ابنه رضي الله عنهم.

وهذا الحديث بين المؤلف رحمه الله عند نهايته كأنه أراد أن يعزوه فلم يتيسر له، وهذا اللفظ الذي بين أيدينا عند أبي داود بسننه، ورواه الترمذي وغيره.

المقصود أن هذا مما ينبغي أن نستفاد منه في هذا الأثر، قال ﷺ في هذا الحديث: **"لن تذوق طعم الإيمان حتى تؤمن بالقدر"،**

وهذا فيه فائدة وهي: أن للإيمان طعمًا، وهذا الطعم حقيقي يذوقه من يبلغ هذه الدرجة، وهي تحقيق الإيمان، كما أن للأكل طعمًا حقيقيًا يذوقه من يأكله، كذلك للإيمان طعمًا حقيقيًا يذوقه ويشرب به من يبلغ تحقيق الإيمان، وذلك بأن يؤمن بالقدر خيره وشره، أعد.

حتى تعلم أن ما أصابك ما يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليصيبك."

هذا فيه إثبات القدر، من آمن بالقدر علم هذا العلم، وأن الشيء الذي أصابه من سرور أو ضيق فإنه لا يمكن أن يتخلف قدر الله ﷻ ما أراد الله ﷻ وقوعه فسيقع شئت أم أبيت، لا يمكن أن يخطأ صاحبه، كذلك العكس الشيء الذي لم يقدره الله لك الذي وصل إلى غيرك، ولم يصل إليك، يجب أن تعلم أنه لن يصل إليك مهما فعلت، إذًا عليك أن تركن إلى الرضا والتسليم والإذعان، وتترك الحسرة والندم ولوم النفس فإن هذا لا فائدة منه، كل شيء بقدر الله ﷻ

قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: «**كل شيء بقدر حتى العجْز والكَيْس**»، أو قال الكيس والعجز، كل شيء حتى الذكاء والحنكة والتدبير من قدر الله، كذلك العجز والتقصير والحمق أو قلة الذكاء وقلة التدبير، هو أيضًا قدر الله ﷻ إذًا ما على الإنسان إلا أن يبذل الأسباب، ثم بعد ذلك يفوض الأمر إلى الله ﷻ وليعلم أن تدبير الله خيرًا من تدبيره، وأن خيرة الله خيرًا من خيرته لنفسه، فوض الأمر إليه هو أولى بك منك.

الدرس التاسع و السبعون – ١٣٨٩ **٦٠- باب ما جاء في منكري القدر (المجلس الثاني).**

حديث عبادة ﷺ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: ما سبقت الإشارة إليه من أن للإيمان طعماً يذاق، ولن يذوق طعم الإيمان إلا من حقق الإيمان بالقدر الذي يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.فيؤمن بقول الله تعالى: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[التوبة:51]، فهو يعلم ويوقن بأن كل شيء يقع في هذا الكون فإنه مقدر من الله سبحانه، قد سبق القضاء به في علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، ومن كان كذلك فأنه سيطمئن وترتاح نفسه، ويدَع التلوم والتحسر لأنه يعلم أن قدر الله ﷻ لا مفر منه، وأن قدر الله كله خير لعبده، فعند ذلك يجد لهذا التسليم ولهذا الإيمان حلاوة يذوقها بقلبه.

المسألة الثانية: وهي ما أخبر به ﷺ عن النبي صلى الله وسلم من قوله: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب»** هذا الحديث فيه إثبات المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي الكتابة، فالكتابة كانت بالقلم الأول الذي خلقه الله جل وعلا، وأجرى به المقادير وكان ذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

كما ثبت هذا في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر بن العاص قال ﷺ : **«كتب الله مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء»**،

✸ **«إن أولَ ما خلق الله القلمَ» أو «أولُ ما خلق الله القلمُ»، أو هل هذه القطعة من الحديث جملة أو جملتان؟**

➢ التوجيه الأول: **قرئ الحديث بكليهما**، قرئ على أنه جملة **«أولَ ما خلق الله القلمَ فقال له أكتب»** بفتح أول، وبفتح القلم، وعليه فيكون

إعراب أول: ظرف زمان، يعنى أنه عند ابتداء خلق القلم قال الله ﷻ له أكتب، **هذا هو**

➢ **والتوجيه الثاني**: أن هذه القطعة من الحديث جملتان، وينطق الحديث بناءً على ذلك بضم كلمة أول وبضم كلمة القلم: **«أولُ ما خلق الله القلمُ»**، ثم ما بعده جملة جديدة مستأنفة فيكون (أول) مبتدأ وخبرها (القلم).

والأقرب والله تعالى أعلم هو الأول، وهذا ما اختاره جماعة من المحققين.

يعني أن النبي ﷺ أخبر أنه عند ابتداء خلق القلم قال الله ﷻ له: «**أكتب**»، فكتب كل شيء إلى قيام الساعة،وليس المراد من قول النبي ﷺ:**أول ما خلق الله القلم**،أن القلم هو أول المخلوقات على الإطلاق إنما الأولية هاهنا أولية نسبية،بمعنى أن أول مخلوق من هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام.

وهو العالم الذي نعلمه أول ما خلق الله ﷻ منه كان القلم، وذلك لأنه سبب إيجاد هذا العالم، فتقدير المخلوقات متقدم على خلق المخلوقات، فالتقدير سابق لخلق السماوات والأرض، فلأجل هذا أخبر النبي ﷺ أنه أول المخلوقات، وليس قطعاً يراد من هذا الحديث أنه أول المخلوقات على الإطلاق، فإن المقطوع به أن الله ﷻ لم يزل خالقاً، لم يكن معطلاً عن الفعل والخلق، ثم ابتدأ هذا الكمال، بل لم يزل الله ﷻ فعالاً، ولم يزل الله ﷻ خالقاً، ولم يزل الله ﷻ رباً، ولم يزل الله ﷻ إلهاً.

✵ مسألة أولية الخلق بين القلم والعرش،يعني أي هذين المخلوقين خلق قبل الآخر؟

اختلف السلف والعلماء في هذه المسألة إلى قولين:

القول الأول: إن القلم أسبق خلقاً من العرش، واختار هذا جماعة من أهل العلم ومنهم ابن جرير الطبري

والقول الثاني: وهو الذي عليه جمهور السلف، كما نقل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في المجلد الثامن عشر من مجموع الفتاوى أن العرش والماء مخلوقان قبل القلم.

ويدل على هذا أن الحديث الذي بين أيدينا وهو حديث عبادة ﷺ فيه بيان أن كتابة المقادير – كانت عقيب خلق القلم لأن النبي ﷺ أخبر أنه «**أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب**»، التعقيب **بالفاء**، يدل على أنه عقيب خلق القلم كانت الكتابة؛ وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص أخبرفيه النبي ﷺ بـ «**أن الله كتب مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**».

إذن كان العرش والماء موجودان قبل حصول هذه الكتابة، ويشهد لهذا أيضاً ما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب مقادير كل شيء**»، لاحظ معي أن العطف ها هنا كان بـ (ثم) التي تدل على الترتيب والمهلة، فكان خلق السماوات والأرض وكتابة المقادير بعد ماذا؟ بعد وجود العرش والماء، فدل هذا على أن العرش والماء متقدمان وجوداً على القلم.

۞ **المسألة ها هنا البحث فيها يتعلق بأولية الخلق بين هذين المخلوقين وليس في الأولية المطلقة،** فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي لا يشك فيه من نظر في النصوص، وعرف عظمة الله ﷻ أن الله تعالى لم يزل خالقاً، فكلٌ مخلوق، فالله ﷻ قد خلق قبله مخلوقاً، والعوالم التي خلقها الله ﷻ لا حصر لها قال سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:8]، فكل مخلوق خلق الله تعالى قبله مخلوق، والذي قبله خلق الله قبله مخلوقاً.

وهكذا فلم يزل الله ﷻ خالقاً في الأزل كما أنه لم يزل خالقاً للأبد، فإن كل مخلوق خلقه الله ﷻ فإنه سيخلق بعده مخلوقاً، وهكذا سيستمر الأمر إلى ما لا نهاية من جهة الأبد، كذلك الأمر ثابت في الأزل كما قال ابن قيم رحمه الله في النونية، بل كل فرد فهو مسبوق بفرد قبله أبداً بلا حسبان ونظيره.

إذن الخلاصة التي نستفيده من حديث عبادة رضي الله عنه:

ثبوت مرتبة من مراتب القدر وهو أن الله ﷻ كتب كل شيء مما هو كائن قبل خلق السماوات والأرض وإلى قيام الساعة، وظاهر الحديث كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الكتابة كانت إلى هذا الحد إلى قيام الساعة، ولم تكن الكتابة لما بعد ذلك والله تعالى أعلم.

قوله: يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول من مات على غير هذا فليس مني.

من مات على غير هذا فكان مكذباً للقدر، مكذباً لعلم الله الصادق أو كتابته أو مشيئته أو خلقه أو مكذب لهذه جميعاً، فلا شك أنه ليس من النبي ﷺ، ليس من دينه وليس من ملته، فإن من أنكر القدر إنكاراً صريحاً لا شك في أنه ليس من الإسلام في شيء.

وفي رواية لأحمد:«إن أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال له: أكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كائِنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ».وفي رواية لابنِ وهبٍ: قال رسُولُ اللهِ ﷺ: فَمَنْ لم يُؤمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ بالنارِ.

قال في رواية لابن وهب، وابن وهب هو الإمام العالم الجليل عبد الله بن وهب المصري المتوفي سنة سبعة وتسعين ومائة، وهذه الرواية موجودة في كتابه القدر، فإنه أفرد باب القدر بكتاب مطبوع، وفيه أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار.

ولا شك أن من كذب بالقدر فهو كافر بالله ﷻ وقد توعد الله الكفار بالنار

وهذه الرواية فيها مسألة: وهي إثبات الخير والشر في المقدرات، يعني فيما يقدره الله ﷻ،

✵ مسألة الشر منضبط عند أهل السنة والجماعة بضابطين:

الضابط الأول: أن الشر يضاف إلى مقدور الله ومفعوله ومخلوقه، لا إلى خلق الله وفعله.

الله ﷻ لا يضاف الشر إليه، لا إلى ذاته ولا إلى أسمائه، ولا إلى صفاته، قال ﷺ كما في صحيح مسلم: **«والشر ليس إليك»**، بل فعله وما يضاف إلى الله ﷻ كله خير، صفاته كلها خير، وأسماؤه كلها خير.

إنما يضاف الشر إلى المقدور المخلوق لا إلى الخالق ﷻ، وذلك أن المعلومة عند جميع العقلاء أن الله ﷻ إذا خلق شيئاً في شيء عاد حكم هذا الشيء إلى المخلوق لا إليه ﷻ، لأن الصفة تتبع الذات التي وصفت بهذه الصفة.

فالمخلوق هو الذي يوصف بالشر ويوصف بالقبح ويتنزه الله تعالى عن ذلك، وذلك أن خلق الله ﷻ لهذا القبيح وجه خير، ذلك أنه يترتب على وجوده حكمة مصلحة وجودها خير من عدمها، ولأجل هذا خلق الله ﷻ هذا الشر، مع ملاحظة أن يراعي الإنسان الأدب مع الله ﷻ فلا يضيف إليه ﷻ أيضاً الخلق للشر على جهة الإفراد، لا يقول قائل مثلا الله خالق الكلاب والقردة وخالق الكفر والمعاصي، هكذا دون وجود حكمة في هذا الكلام، إنما يدخل هذا الشر في عموم قوله تعالى مثلاً: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:62].

لو أن ابنا لرجل أصيب بمرض، أصيب مثلاً في رجله –عافاني الله وإياكم– بمرض يسري في جسده ولو لم يُستأصل هذا العضو فإن المرض سيسري يعني كأن يصاب والعياذ بالله بـ(غرغرينا) كما يقولون في الرِّجل، لو لم تقطع الرجل فإن هذا المرض سيستمر حتى يموت هذا الإنسان.

هذا هو المعروف عند الطب، ولأجل هذا ربما تجد الأب المحب المشفق يأخذ ابنه بنفسه ويذهب به إلى الطبيب ويعاونه على مسك ابنه لأجل أن يقطع هذا الطبيب رجله. وقطع الرجل ها هنا ليس مقصوداً لذاته إنما هو مقصوداً لغيره؛ لو لم تقطع رجله فإن المرض سيسري ويكون التلف والتقدير بإذن الله ﷻ.

وإذا أردت أن تتوسع في فهم هذه المسألة فارجع إلى ما دونه ابن القيم رحمه الله في كتابه العظيم (مفتاح دار السعادة)، فإنه تكلم عن هذه المسألة بكلام نفيس.

الضابط الثاني:

أن الشر يضاف إلى المخلوق المقدر،ومع ذلك لا يوجد فيما يخلقه الله ما هو شر محض.

الضابط المقرب عند أهل السنة والجماعة وله شواهد من الأدلة كثيرة: لا يوجد ما هو شر محض؛ بل ما فيه شر فإن الذي فيه شر الشر فيه نسبي جزئي، يعني ليس شراً محضاً ليس شراً كما يقولون مائة بالمائة، بل لابد أن يكون فيه شر وخير ولأجل هذا خلق الله ﷻ، أما شر كامل شر محض فهذا عدم وهو غير موجود وليس في خلق الله ﷻ شيء منه.

إذن فهمنا لهذا الأمر يتضح به معنى ما جاء في هذه الرواية وهو الإيمان بالقدر خيره وشره.

وفي المسندِ والسننِ عن ابنِ الدَّيْلَمِيِّ قال: أَتيتُ أُبيّ بنِ كَعْبٍ، فَقُلْتُ في نَفْسي شَيءٌ مِن القَدَرِ، فَحدَّثني بِشيءٍ لعَّلَ اللهُ يُذهِبُهُ مِن قَلبي، فقال:لو «أَنفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبلَهُ اللهُ مِنْكَ حتى تُؤمنَ بالقَدَرِ، وتَعْلَمْ أنَّ ما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ولومتَّ عَلَى غَيْرِ هَذا لَكُنْتَ مِن أهلِ النارِ». قال فأتيتُ عبد الله بنَ مسعودٍ وحذيفة بن اليَمَانِ وزيدِ بنِ ثابتٍ فَكُلُّهُم حدثني بِمِثْلِ ذلك عنِ النبيِّ ﷺ حديث صحيحٌ رواه الحاكم في صحيحه.

هذا الحديث حديث صحيح وفيه أن ابن الديلمي هو عبد الله بن فيروز الديلمي أحد كبار التابعين رحمه الله أنه وقع في نفسه شيء يتعلق بالقدر.فرجع إلى ذلك لأبي ابن كعب ؓ وطلب منه أن يحدثه بشيء لعل الله ﷻ أن يذهب هذه الشبهة من قلبه بسببه،

ولاجديد في هذا الحديث إلا ما أشار المؤلف في المسائل إليه وهو أن عادة السلف إزالة الشبهة بسؤال العلماء، وهذا تنبيه مهم ودرس ما أحوجنا إليه في هذا الوقت وفي هذا الزمان.

أما الرواية التي بين أيدينا فإن الذي تحدث به أبي وابن مسعود وحذيفة، إنما هو من قولهم والمرفوع إنما كان فيما رواه زيد عن رسول الله ﷺ وفي رواية ابن ماجه أن أبي ؓ لما أجابه، قال ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود، ثم أتى إلى عبد الله بن مسعود فأجابه بمثل جواب أبي، فقال ولا عليك أن تأتي أخي حذيفة بن اليمان ثم لما جاء وحدثه بمثل حديث صاحبيه قال ولا عليك أن تأتي أخي زيد بن ثابت.

المقصود أن ها هنا تنبيهاً مهماً يتعلق بموضوع الشبه ومنهج التعامل معها، هذا الزمان الذي نعيشه من سماته البارزة أنه زمن الشبهات، **إذن كيف ينبغي أن يتعامل المسلم مع الشبه إذا وردت عليه؟**

الشبهة:أمر فيه التباس، يعني هي باطل يلبس لباس الحق، العالم الذي آتاه الله ﷻ البصيرة في الدين فإنه ينظر إليها بنظر ثاقب بما يفتح الله ﷻ عليه من العلم فيعرفها على حقيقتها، تتعرى أمامه ولا ينخدع بها، **إنما الإشكال في ورودها على جاهل ليس بثابت القدم في العلم.**

✸ وصايا ثلاث تتعلق بموضوع الشبهات والتعامل معها:

الوصية الأولى: **المطلوب من كل مسلم أن يَنْأَى بنفسه عن الشبهات.**

عليك أن تهرب منها وإياك أن تتساهل معها أو أن ترخي سمعك لها فإن هذا هو الموت الأحمر.

اعلم أن الشبهة خطافة وأن القلوب ضعيفة وكم من الناس من سقط في وحي الضلال بسبب أنه تساهل مع الشبهات، الشبهة مشكلةٌ كبرى، الشبهة تشبه الورم، أسأل الله أن يعافيني وإياكم والمسلمين، الورم لا تجد أنه يبدأ شيئاً كبيراً إنما هو يبدأ شيئاً صغيراً ثم إنه لايزال يكبر ويفشو حتى ربما إذا وصل إلى مرحلة متأخرة ربما تجد الطبيب يقول لا أستطيع أن أصنع لك شيئاً أصبح هذا الورم منتشراً في الجسد.

كذلك الشبهة تبدأ نقطة في القلب ثم إنها لا تزال تكبر وتتوسع حتى ربما أظلم القلب بسببها، وأنا أعرف وربما أنت تعرفون من ضل وانحرف ربما ارتد عن دين الله ﷻ بسبب شبهة واحدة.

يقول: أنا الحمد لله مسلم وولدت مسلماً وأسرتي مسلمة لا يمكن أن أتأثر، حذار يا عبد الله إياك من هذه المصيدة، إياك من هذه الأحبولة التي يصطاد بها إبليس، مشكلة كبرى ولاسيما عند الشباب ما يسمى بحب الاستطلاع، ما الذي يمنعني أن أطالع هذه القناة ربما تكون قناة تشبه بشبه التنصير، أو تقذف بالشبه التي تطعن في دين الإسلام، أو تطعن في بعض مسائل الدين.

إذن ينبغي على الإنسان أن يأخذ هذا الأمر على محمل الجد ، وأن يأتمر بأوامر الله ﷻ: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾[الأنعام:68]، قال جل وعلا في سورة آل عمران عن هذا الكتاب العظيم: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾[آل عمران:7]. هاهنا حدث النبي ﷺ بحديث عظيم ينبغي أن نضعه نصب أعيننا، قال ﷺ «**فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولكم الذين سمى الله فأحذرهم**». حذار من هؤلاء

إذن عليك: **أولاً**: أن تبتعد.

الوصية الثانية:

إذا قدَّر الله ﷻ ورود الشبهة عليك، فإن عليك أن تتعامل معها تعاملك مع المرض المعدي الخطير بمعنى إياك من التساهل وإياك من التمادي وإياك من التكاسل، عليك أن تسعى مباشرة بعلاجها، هي أشبه الأشياء بالمرض الذي يحتاج أن تبادره بالعلاج قبل أن يستفحل.

والعلاج إنما هو عند العلماء الربانيين، العلاج عند أطباء القلوب العلماء الراسخين، فعليك أن تطلب ذلك عند أهل العلم، وأقول الراسخين، وإن من الناس إذا وقعت الشبهة في قلبه يبادر إلى حلها وعلاجها في غير مظنة، ذلك تجد أنه إذا جاءته الشبهة تتعلق بأمر عظيم تتعلق بوجود الله أو صحة القرآن أو صحة رسالة النبي ﷺ، ليس أمامه غير أن يكتب في جوجل! يظن أن هذا هو العلاج، ربما يقع أو يصل إلى موقع مفيد ونافع وناصح، وربما يكون الأمر بخلاف ذلك، ربما يصل إلى موقع يزيده شكاً واشتباها؛ إذن الشبهة ليس علاجها في الشبكة عند الجاهل بمواقعها، ليس عند ضعاف المثقفين والكتاب وأمثال ذلك، العلاج ينبغي أن يكون عند العلماء الراسخين.

هذا عبد الله بن الديلمي لما وقع في نفسه شيء ذهب إلى العلماء، ذهب إلى أبي ومسعود وابن حذيفة وزيد بن ثابت رضي الله عنهم في القصة التي مرت معنا أول هذا الباب.

حميد بن عبد الرحمن الحميري ويحيى بن يعمى، ماذا فعلوا عندما ورد عليهم شبهة تتعلق بمقالة القدرية؟

ذهبوا ورحلوا إلى مكة، من العراق إلى مكة حاجين أو معتمرين ولأجل أيضاً أن يصلوا إلى أحد من أصحاب النبي ﷺ فيكشف لهم حقيقة الحال، وجدوا عبد الله بن عمر رضي الله عنه، فسألاه عن ذلك أيضاً، في حديث عبادة في رواية الترمذي أن عبد الواحد بن سليم وقع عنده شيء من الإشكال في مسألة القدر وصله قول القدرية، فذهب لعطاء بن أبي رباح إمام أهل مكة رحمه الله وسأله عن هذا، فقال اقرأ من سورة الزخرف، فقرأ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف:4].

فبين له أن هذا هو الذكر يعني اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وفيه أن فرعون من أهل النار، وفيه كذا وفيه كذا، ثم حدثه بما حدثه به الوليد بن عبادة بن الصامت، في الحديث الذي بين أيدينا والرواية التي معنا رواية أبي داود، المقصود إذا ورد عليك شيء من ذلك فعليك أن تبادر إلى علاجه عند الأطباء الناصحين، أطباء القلوب، وهم العلماء الراسخون.

الوصية الثالثة: **عليك يرعاك الله أن تعتصم بالمحكمات،**

والشبهة تبقى شبهة أبقِ الشبهة في محلها وضعها في مكانها اللائق، واعتصم بالمحكمات، عليك أن تتنبه إلى هذه **القاعدة المهمة:** محكمات الدين وأصوله ومسائله الواضحة الراسخة التي عليها أدلة الكتاب والسنة ينبغي أن تكون راسخة في قلبك رسوخ الجبال، لا ينبغي أبداً أن تجعلها ضعيفة مهزوزة بحيث أن أدنى حبة ريح تؤدي إلى أن تكون شاكاً مرتاباً.

تمسك دائماً بالمحكمات، الأصول المحكمة، وهي الحق الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:105]، وبهذا تصغر الشبهة في عينك وتضمحل، وتضع هذه الشبه حينئذ في محلها اللائق بها، الشبهة تبقى شبهة، لكن لا ينبغي أن تهزك وأن تجعلك مرتاباً، ولذلك تنبه إلى هذا التنبيه اللطيف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران:59-60]، الممترين يعني الشاكين.

تنبه هنا إلى أن الله ﷻ بين زيف شبهة النصارى الذين شبهوا ولبسوا بخلق عيسى عليه السلام، فإن عيسى كلمة الله يعني بالكلمة كان قال له كن فيكون، هم لبسوا بهذه الشبهة، وأن اللاهوت نزل في الناسوت وأن فيه شيئاً من الإلهية بسبب طريقة خلقه، فبين الله ﷻ المحكم في هذا الباب، وإن خلق عيسى هو كخلق آدم إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم. ثم بين الله ﷻ أن هذا الحق ينبغي أن يكون راسخاً لا يقبل التشكيك: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾هذه مسألة مهمة.

وأرجعك وأوصيك بالرجوع إلى الجواب المجمل الذي أورده إمام الدعوة في كتابه كشف الشبهات، فإنه في غاية الأهمية لكل طالب علم، بل لكل مسلم، وهو أنه إذا ابتلي بمن يورد عليه الشبه من أهل الشرك والبدع فعليه أن يبين له أن العبادة لله ﷻ، وأن الله ﷻ هو المعبود، وأن كل عبادة تصرف لغيره فهو شرك، أما هذا الذي تحدثني به فأنا لا أعرفه ولا يضرني ألا أعرف كشفه، إنما الحق هو هذا الذي أعلمه.

تجعل قلبك مثل الزجاج، الذي يرى الشبهة بصفائه، لكنه يطردها بصلابته، لا يقبل دخولها على قلبه.

إذن عندنا قلبان: قلب من زجاج يرى الشبهة ويعرف الباطل ولكنه لا يتسرب إليه، وقلب مثل الإسفنجة يتشرب كل ما يرد إليه، عنده استعداد لأن يأخذ بكل قول وأن يتشكك وأن يذهب كل مذهب، اليوم في قول وغداً على قول وبعد غد على مذهب، ينبغي على المسلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم والله أعلم.

الدرس الثمانون – ١٤٠٨

٦١– بابُ مَا جَاءَ في المُصوِّرِينَ

قال الإمام المجدد عليه رحمة الله بابُ ما جاء في المصورين يعني من الذم والوعيد، وأحاديث النبي ﷺ متكاثرةٌ في تحريم التصوير وذمِ من فعله وهذه الأحاديث ثابتةٌ في الصحيحين وغيرهما عن جملةٍ من أصحاب النبي ﷺ ومن ذلك ما أورد رحمه الله في هذا الباب

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد من جهتين

➢ أولًا: **أن التصوير مضاهاةٌ لخلق الله كما سيأتي في الحديث الأول إن شاء الله،**

ولا شك أن هذا يتنافى و تحقيق التوحيد. فإن الله جل وعلا هو المصور،

المصور اسمه والتصوير فعله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر:24]، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:6]، وقال سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر:64]، فالله جل وعلا هو المصور الذي أبدع صور مخلوقاته وفق ما اقتضته حكمته فالذي يتشبه بالمِصور سبحانه لا شك أنه أتى بما يتنافى وتحقيق التوحيد، على اختلاف الحكم في المصور كما سيأتي الكلام عنه إن شاء الله.

➢ ثانيا: **أن التصوير من أعظم أسباب وقوع الشرك**

فلا يخفى أن أول شرك وقع في الأرض وهو شرك قوم نوح؛ إنما كان بسبب التصوير، فهما فتنتان أعظم ما وقع من الشرك وأكثر ما وقع من الشرك كان بسببهما فتنةُ التصوير وفتنة القبور،

أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما حدثتا رسول الله ﷺ بما رأتا من كنيسةٍ كان قد رأتها كل واحدةٌ منهما فحدثتا رسول الله ﷺ بما رأوا فيها من حُسن وتصاوير فقال النبي ﷺ: **«هؤلاء كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله»**. فدل هذا على أن الفتنة في التصوير فتنة عظيمة ربما أدت إلى وقوع الشرك بالله سبحانه وتعالى.

قد يقول قائل إن هذا الأمر كان موجودًا في السابق، أما اليوم في هذا الزمان في عصر التقدم والتكنولوجيا هل يُتصور وقوع الشرك بسبب الصور؟

واجواب:

- أن هذا قول من يجهل سنة الله الشرعية والكونية والواقع الذي يعيشه فإن الله ﷻ هو العليم بكل ما يكون وهو الحكيم في شرعه وخلقه تبارك وتعالى وقد نهانا عن التصوير،فكان الواجب الانصياع إلى ذلك
- ثم أن واقع الناس يشهد بأن التصوير لا يزال فتنة عظيمة لكثير من الناس، أفلا يرى هؤلاء أولئك النصارى الذين يركعون ويسجدون لصور المسيح، أو ما يزعمون أنه صورة المسيح، أو صورة أمه! أفلا يرون أولئك البوذيين أو الهندوس أو غيرهم من أضراب المشركين والكفار الذين يتقربون ويتعبدون لصور منصوبة أو صور مرقومة!
- ثم إن النبي ﷺ قد أخبر كما في الصحيحين وغيرهما في أحاديث عدة بوقوع الشرك في أخر هذه الأمة أخبر النبي ﷺ: «**إنه لن تقوم الساعة حتى يلحق فئام من هذه الأمة بالمشركين، وحتى تعبد الأصنام وحتى تعبد اللات والعزى**»، فكيف يستكثر بعد ذلك النهيُ عن التصوير وأنه ذريعة لوقوع الشرك عافاني الله وإياكم– لا سيما ما كان من صور المعظمين التي تنصب والتي تعلق والتي تُجعل لها الأماكن الرفيعة والعالية في صور المجالس وغيرها لا شك أن هذا منكر وذريعة أوضح لوقوع الشرك.

عن أبي هريرة ﷺ قَالَ:قال رسولُ الله ﷺ:«قَالَ الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً ».أخرجاه.

هذا الحديث سبب تحديث أبو هريرة ﷺ به أنه دخل دارًا في المدينة فرأى مصورًا يصور كأنه والله أعلم كان رجلًا ينحت أو ينقش صورًا في الجدران فما كان منه ﷺ إلا أن حدث بما حدثه به رسوله ﷺ عن ربه جل وعلا قال: «**مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**، **لا شك أن الاستفهام ها هنا استفهام إنكاري،**

لا أحد أشد ظلمًا من هذا الذي يريد أن يتشبه بخلق الله ﷻيريد أن يتشبه بفعل الله كما أن الله ﷻ يخلق فهو يريد أيضًا أن يخلق، لا شك أن هذا ذنب عظيم ومنكر كبير، ولذلك جاء هذا الأمر الذي هو من أمر التعجيز في قول ربنا ﷻ: «**فليخلقوا ذرة، فليخلقوا حبة، أو فليخلقوا شعيرة**»،

الذرة: النملة الصغيرة هل يستطيع هؤلاء أن يخلقوا الذرة التي هي من أصغر مخلوقات الله تعالى بل هل يستطيعون أن يخلقوا حبة حنطة هل يستطيعون ذلك؟ لا شك هذا أمر تعجيزيٍ يتضمن التوبيخ لمن فعل

هذا الأمر على نحو قوله ﷻ: ﴿فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[الرحمن:33]، ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾[الإسراء:50]، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[الطور:34].

❁ **وهذا الحديث من جهة قصته ومن جهة فهم الصحابي وهو أبو هريرة ﷺ يُستفاد منه:**

أن من التصوير المحرم ما ليس له ظل، لأن الظاهر والله أعلم أن هذا المصور إنما كان يرسم على حيطان هذا البيت ما فيه روح فاستدل أبو هريرة ﷺ بهذا الحديث الذي يدل على تحريم التصوير،

❁ **والأحاديث التي جاءت في ذم التصوير والوعيد عليه جاءت على أنواع من الوعيد.**

← **أولا:** فهذا الحديث الذي بين أيدينا يدل على أن هذا الذي يفعل هذا الفعل أظلم الناس.

← **ثانيا:** كذلك جاء عن النبي ﷺ أن: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون**».

← **ثالثا:** أن الله ﷻ: «**يأمر المصور أن ينفخ الروح فيما صور من ذوات الأرواح وليس بنافخٍ ويقال لهؤلاء المصورين أحيوا ما خلقتم**».

← **رابعًا:** أيضًا أن الله جلَّ وعلا يجعل في كل صورة صورها المصور روحًا ونفسًا فيعذب بها كما يشاء ﷻ.

← **خامسا:** جاء أنه يعذب حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخٍ أبدا. ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**من صور صورة جعل الله يوم القيامة لها نفسًا فيعذب بها حتى ينفخ فيها وليس بنافخ أبدا**».

إذن هذه أحاديث تقتضي عند كل مسلم الخوف والوجل من الوقوع في هذا الذنب العظيم عافاني الله وإياكم من ذلك.

ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِند اللَّهِ يَوْمَ القيامةِ الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ اللَّه»

قصة هذا الحديث أن النبي ﷺ أراد الدخول على بيت عائشة رضي الله عنها وجاء في بعض الروايات أنه قدم من سفر فإذا بباب الحجرة عليه قِرام؛ القرام مثل الستارة قماش يُستر به، وعلى هذا القرام تصاوير،

وجاء في بعض الروايات أن هذه التصاوير كانت لأحصنة لها أجنحة، فأبى النبي ﷺ الدخول، فسألت عائشة رضي الله عنها ماذا أذنبت؟ فأخبرها النبي ﷺ بهذا الحديث،

«**يُضاهُونَ** »: أي يشابهون، المضاهاة هي المشابهة، هؤلاء الذين يضاهون وقُرئ أيضًا بالهمز: يضاهئون- لا شك أنهم وقعوا في إثمٍ عظيم حتى إنهم كانوا كما أخبر النبي ﷺ كانوا أشد الناس عذابًا يوم القيامة.

وهل الممنوع في التصوير المشابهةُ أم قصد المشابهة؟ يعني هل الذي جاء ذمه والوعيد عليه في هذا هو أن يصور الإنسان فيكون قد وقع في تصويره المضاهاة شاء أم أبى، أم أن المقصود النهي عن قصد المشابهة فبالتالي من صور ولم يقصد أن يضاهي خلق الله ﷻ فإنه ليس داخلًا في هذا الوعيد؟

الذي يظهر والله أعلم هو الأول وأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فالمشابهةُ تحصل بمجرد التصوير،

- وأما من قصد أن يكن مشابهًا لله ﷻ في فعله فلا شك أن هذا كفرٌ بالله ﷻ
- أما من لم يقصد فإنه لا يكفر بذلك، لكن هذا الإنسان قد وقع في إثم عظيم وكبيرة من الكبائر،

إذ إن التصوير ينطبق عليه وصف الكبيرة كما تدل عليه مجموع الأحاديث الواردة في هذا الباب.

وعليه فيكون قول النبي ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِند اللَّهِ يَوْمَ القيامةِ الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ اللَّهِ**» على بابه من جهة ما تدل عليه أفعل التفضيل(أشد)

إذا كان الإنسان قاصدًا للمضاهاة فلا شك أن هذا الإنسان أضحى كافرًا، ولا شك أن أشد الناس عذابًا هم الكفار

أما إذا لم يكن ثمة قصدٍ إنما وقع تصوير فقط، فإن قوله ﷺ «**أشد الناس عذابًا**» **موجه بأحد توجيهين:**

- إما بأنه أشد الناس (من) جنس من فعل ما فعل يعني من جنس الفساق فهو يدل على أنه من أكبر الكبائر.
- أو أن تكون (مِن) ها هنا مقدرة، فهو من أشد الناس عذابًا.

وهذا الجواب يُفيدك في مواضع كثيرة في أحاديث النبي ﷺ التي جاء فيها أفعل التفضيل سواء فيما يتعلق بفضائل الأعمال أو في مراتب السيئات، أو فيما يتعلق بالعذاب يوم القيامة، فإن من سنن كلام العرب أنهم يطلقون أفعل التفضيل والمعنى مقدر فيه (من) فهو من أشد الناس أو من أفضل الأعمال أو من كذا.

المقصود أن هذا الحديث يدلك على تحريم التصوير، ويدلك أيضًا على أن من التصوير الممنوع ما لا ظل له وهذه مسألةٌ ينبغي التنبه لها. **فإن التصوير**

قد يكون **تصويرًا لشيءٍ له ظل**؛ بمعنى أن يكون على هيئة التمثال يصور الأنسانُ إنسانًا أو حيوانًا، فيكون على هيئة تمثالٍ أو على هيئة صنمٍ أو ما شاكل ذلك، **ولا شك أن هذا محرمٌ بإجماع العلماء.**

النوع الثاني: **الصور المنسوجة أو المرقومة أو التي صُنعت باليد أو التي لُونت باليد**

كالتي تكتب أو ترقم على الأوراق أو على الأقمشة أو على الحيطان وما شاكلَ ذلك، **فهذه الصور لا شك أنها محرمةٌ في قول جماهير أهل العلم،** وذهب قلة من أهل العلم إلى أن هذا النوع من الصور ليس بمحرم إنما المحرم هو ما كان على هيئة التماثيل يعني المنصوبة التي لها ظل. ولا شك أن هذا القول قوْل غيرُ صحيح وأصحابه محجوجون بما ثبت عن النبي ﷺ فبين أيدينا هذا الحديث الذي أنكر فيه النبي ﷺ صورة كانت منسوجة ومنقوشة في قماش فلم تكن على هيئة على هيئة التماثيل،

- فدل هذا على أن الصورة التي لا ظل لها داخلة في نهي النبي ﷺ.
- ويدل على هذا أيضًا ما ثبت من حديث أبي هريرة الذي سبق، فإن أبو هريرة رضي الله عنه أنكر فيما يظهر والله تعالى أعلم صورة كانت ترسم على الحائط.
- كذلك النبي ﷺ أنكر بيده وبلسانه الصور التي كانت مرسومة على جدار الكعبة من الداخل، وقد أخرج الطيالسي من حديث أسامة رضي الله عنه قال: «**دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة، ورأى صورًا، فدعا بدلو من ماء فأتيته به، فجعل يمحوها ويقول: قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون**» قال الحافظ: إسناده جيد.

هل من قوله ﷺ: «إلا رقمًا في ثوب» يفهم منه إباحة الصور التي تكون منسوجة أو لا ظل لها؟

والجواب عن هذا:

أولا: إن أحاديث رسول الله ﷺ ينبغي أن يجمع بينه وأن يؤلف بينها، لا أن يضرب بعضها ببعض.

ثانيًا: هذا الحديث لم يأت في سياق الأدلة التي دلت على تحريم التصوير، ليس سياق الحديث في تحريم التصوير، إنما جاء هذا في سياق بيان أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، فالحديث كما عند الشيخين في صحيحيهما قال رسول الله ﷺ: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة إلا رقمًا في ثوب»**،

ثالثًا: ما معنى قول الرسول ﷺ إلا رقما في ثوب؟

في ضوء الأحاديث الأخرى وبالجمع بين الأحاديث يتضح لنا أن النبي ﷺ لا يمكن أن تتناقض أحاديثه، فحديث عائشة رضي الله عنها صريحٌ في منع التصوير الذي ليس له ظل أو الذي كان منسوجًا في قماش فدل هذا على أنه ممنوع أما هذا الحديث الذي بين أيدينا والذي أورد من أورد على تحريم تصوير ما كان باليد أورد هذا الحديث فالجواب عنه يُخرج على أحد وجهين:

الوجه الأول: إما أن يُقال إن المراد بذلك الصور المهانة التي تُداس فلا قيمةَ لها، ليس هذا إباحة لتصويرها لكن ما كان منها من هذا القبيل فلا مانع من استعماله ولا يكون مانع من دخول الملائكة.

الوجه الثاني: هو أن يُقال إن قوله ﷺ: **«إلا رقمًا في ثوب» يعني الصور التي ليست من ذوات الأرواح**، ما كان من الصور وهذا كان معروفًا عند العرب أنهم كانوا يصورون على الأقمشة صور الأشجار ونحوها فهذا ليس بممنوع، استثناء النبي ﷺ فالملائكة لا تمتنع من دخول بيت فيه صورة ليست من ذوات الأرواح نقوله للجمع بين الأدلة، لا نضرب أحاديث رسول الله ﷺ بعضه ببعض.

إذن الخلاصة التي نخلص منها هي: أن المحرم من الصور ما كان مجسمًا، أو ما كان مرسومًا باليد على ورق أو قماش أو حائط أو ما شاكل ذلك.

النوع الثالث: عُرِف في العصر الحديث وهو الصور الآلية، أو الصور التي تكون بآلة الكاميرا، هذه الصور وقع فيها خلافٌ بين العُلماء المعاصرين لم تكن معلومة عند القدماء، إنما هي الأمور التي استحدثت في هذا العصر، **اختلف العلماء المعاصرون في هذه المسألة إلى قولين:**

قال الشيخ صالح سندي: والأقرب عندي والله تعالى أعلم أن هذه تسمى صور فتكون داخلة في عموم نهي النبي ﷺ. لكن لا شك أن الخلاف الحاصل فيها يجعل إنكارها يختلف عن إنكار ما اتفق عليه، أو ما

جاء النص الواضح في تحريمه، وإني أنصحك يا رعاك الله أن تدع هذه الصور اللهم إلا ما دعت إليه الضرورة أو الحاجة، فإن الحاجة قد تدعو إلى أن يتصور الأنسان لبطاقة أو لرخصة قيادة أو لجواز سفر أو ما شاكل ذلك، أو لبعض الدواعي الأمنية، فإن مثل هذا الأمر لا شك أن قاعدة رفع الحرج في الشريعة تدل على أنه أمرٌ مباح إن شاء الله في حق من اضطر إلى ذلك أو كان مُحتاجًا إليه.

والقاعدة عند الفقهاء: إن الحاجة العامة تنزل منزلة الضرورة، أما ما عدى ذلك فالنصيحة لك ألا تتصور لاسيما مع سهولة التصوير في هذه السنوات المتأخرة من خلال هذه الكاميرات الموجودة في الجوالات.

قال ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»** وخير دينك الورع، والسلامة لا يعدلها شيء، ولو لم تتصور هذه الصور التي يعدونها للذكرى وما شاكل ذلك فالله ﷻ لن يُحاسبك يوم القيامة، ولكن لو تصورتها فربما والله تعالى أعلم، العلم عنده سبحانه ربما تُحاسب وربما تُسأل عن ذلك، فعليك بأن تسلك مسلك الورع، وتدع هذه التصاوير ما أمكنك إلى ذلك سبيلا.

وهما عن ابن عباس: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ،يُجْعَلُ لهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذِّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»

هذا من الأحاديث الدالة على وعيد المصورين فإن الله جلَّ وعلا يجعل بكل صورة صورها هذا الإنسان نفسًا يجعل الله ﷻ فيها روحًا فتكون سببًا لتعذيبه، يُعذب بها بكيفية الله تعالى أعلم بها،
وهذا الحديث مما يُستدل به على أن الممنوع من التصوير هو للشيء الذي فيه روح.

أما ما لا روح فيه فلا بأس بتصويرهِ، وذلك أن هذا الحديث يدل على أن الممنوع تصوير ما يُمكن أن يكون فيه روحٌ، كذلك الحديث الذي مرَّ معنا أنه **«يؤمر بنفخ الروح في ما صور وليس بنافخ»** هذا إنما يتأتى في الصورة التي هي في أصلها كان فيها روحًا،
وبالتالي ما لا روح فيه جاز تصويره، وهذا هو الذي عليه جماهير أهل العلم.

وذهب قلة من أهل العلم إلى تحريم تصوير كل ما خلق الله ﷻ فيحرم تصوير الإنسان ويحرم تصوير الحيوان ويحرم تصوير الشجر والجبال والبحر وما إلى ذلك، **وهذا وجه ذكره بعض الشافعية لكنه غير صحيح،**

ويدل عليه ما جاء عند الترمذي وأبي داود من أن جبريل ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فامتنع عن الدخول ثم بين ﷺ علة ذلك: **فأولًا** كان عند الباب تمثالٌ.

وثانيًا كان على الستر نقش صور.

وثالثًا كان ثمت كلب في البيت

فامتنع جبريل ﷺ من ذلك ثم قال للنبي ﷺ: **«مُر بالتمثال أن يقطع رأسه حتى يكون كهيئة الشجرة»**، لاحظ اختار جبريل ﷺ بأنه لما أصبح التمثال كهيئة شجرة فإن هذا أخرجه عن كونه صورة، دل هذا على أن الصورة الممنوعة ما كان فيه روح،

ويدل على هذا أيضًا ما كن عند البخاري من أن رجلًا جاء إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها، فقال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفسا تعذبه في جهنم»**، وقال: إن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا نفس له. فدل هذا على أن تصوير ما لا روح فيه أمر جائز لا مانع منه.

وذهب مجاهد رحمه الله إلى أن الممنوع من التصوير هو تصوير ما فيه روح أو الشجر الذي له ثمر، كالإنسان وبهيمة وبقية الحيوانات، أو تصوير الشجر المثمر، أما الشجر الذي لا ثمر له فإنه يجوز تصويره عنده رحمه الله وكأنه نزع في هذا إلى حديث رسول الله ﷺ: **«فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»** كأنه يقول رحمه الله: الذرة دليل على تحريم ما له روح، والحبة والشعيرة دليل على تحريم الشجر الذي له ثمر، وهذا القول لا أعلم أحد سبقه إليه، ولا أعلم أحد تابعه عليه، ولا شك أن هذا غير صحيح كما تدل على هذا الأحاديث التي ذكرتها لك قبل قليل والله تعالى أعلم.

وهما عنه ﷺ مرفوعا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً في الدنيا، كُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فيهَا الرُوحَ وليْسَ بِنَافِخٍ».

هذا أيضًا يدل كما أسلفت لك، يدل على أن المحرم من الصور، هو الصور التي لها روح دون ما ليس لها روح لأن هذا الحديث إنما يتنزل على هذا الجنس والله تعالى أعلم.

ولمسلمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ رحمه الله قال: قال لِي عَلِيٌّ: «أَلَّا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟: «أَنْ لا تَدَعَ صُورةً إِلَّاطَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

هذا الحديث فيه أنَّ علي ﷺ قال لأبي الهياج وهو "حيان بن حصين الأسدي الكوفي" أحدُ التابعين رحمه الله قال: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ **«ألا تدع صورة إلا طمستها»**.

الطمس: هو المحو والإزالة، هذا أمر النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه، وعلى أهل التوحيد أن يعتنوا بهذا الأمر العظيم من لدن رسول الله ﷺ فيحرص على طمس الصور عند الإمكان والاستطاعة.

كثير من بيوت المسلمين للأسف الشديد إذا دخلتها وجدت فيها تلك التماثيل، تمثال لطائر أو تمثالٌ لفيل أو تمثالٌ لزرافة ينصبه في مجالسه هنا وهناك وهو فرحان وجزلان، ويظن أنه قد أتى بأمر حسن، أو تجد تلك التصاوير المعلقة على الحيطان، وهي من الأسباب التي تمنع دخول الملائكةِ البيت، ولا شك أن دخول الملائكة إلى البيوت يصحبه دخول الخير والرحمة، ويسأل كثير من الناس عن سبب وقوع المشاكل في البيوت وضيق الصدور أو خلافات أو ما شاكل ذلك، لربما غفل كثير من الناس على هذا السبب.
بوب الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه بابِ نقضِ الصور ثم أورد حديث النبي ﷺ: **«أنه لم يكن يدع شيئًا في بيته فيه تصاليب إلا نقضه»**،
التصاليب: الشيء الذي على هيئة صليب، وذكر الشُّراح رحمهم الله أن إيراد هذا الحديث تحت هذا الباب يدلُ على أن الصور ذات الأرواح لها هذا الحكم، فإن وجود الصليب من أسباب عبادته كما يفعل النصارى، وكذلك الصور من أسباب وقوع الشرك فلها هذا الحكم؛ وهذا من فقه البخاري رحمه الله.

«ولا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته»، **القبر المشرف**: يعني القبر العالي الذي ارتفع ترابه زيادة عما أذنت به الشريعة، فالشريعة أذنت برفع القبر عن مستوى الأرض رفعًا يسيرا، شبرا أو نحوه حتى يتميز أنه قبر فلا يُوطأ ولا يقعد عليه، وبالتالي رفع هذه القبور عن هذا المستوى المعتاد أمرًا محرم في الشريعة.
«إلا سويته»: أي جعلته مساويًا للقبور المأذون بها في الشريعة،

إذا ارتفاع تراب القبر زيادة عن المعتاد المعروف في سنة رسول الله ﷺ فكيف بالبناءِ على القبور؟ كيف بجعل هذه القبور مرتفعة موضوعَا عليها اللبن الحجارة أو الرخام، أو ربما نُصب عليها قبة أو ما شاكل ذلك، لا شك أن هذا منكر أشد واجب الإنكار على من استطاع إنكار ذلك.

الدرس الحادي والثمانون - ١٤٢٥

٦٢- بابُ مَا جَاءَ فِي كِثْرَةِ الحَلِفِ.

هذا الباب قد عقده المؤلف للتنبيه على أمرٍ تركه من تحقيق كمال التوحيد، ألا وهو كثرة الحلف بالله ﷻ. الله جل وعلا عظيم، واسمه عظيم، ومن تعظيم العظيم ألا يُبتذل اسمه، ولا يُكثَر من الحلف به،

وضابط كثرة الحلف يرجع إلى: أن تكون اليمين لم تَدعُ إليها حاجة أو مصلحة راجحة،

اليمين، الحلف، القسم، هذه كلمات بمعنى واحد. **والمراد بالحلف معلوم**: تأكيد الكلام بذكر اسم الله ﷻ على وجه مخصوص، هذا هو الحلف الشرعي،

ينبغي على المسلم أن يلاحظ في يمينه ثلاثة أمور:

➢ الأمرالأول: **أن يحلف بالله، ولا يجوز أن يحلف بغيره**

قال ﷺ **«من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»**، كما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**.

➢ الأمرالثاني: **أنه إذا حلف بالله فعليه أن يكون صادقاً في حلفه،**

فإن الحلف بالله ﷻ أمر عظيم، ومن المنكر الكبير أن يُذكر اسم الله ﷻ على أمر كاذب، والنبي ﷺ أنه قال: **«من كان حالفاً بالله فليصدق»**، كما أنه عليه الصلاة والسلام قال كما عند البخاري: **«الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»**،

اليمين الغموس: هي الكاذبة الفاجرة كالتي يحلف بها الإنسان فيقتطع بها مال أخيه المسلم، يحلف بالله ﷻ كاذباً عالماً عامداً لأجل مصلحة يرجوها أو مفسدة يدفعها عن نفسه لم تبلغ حد الاضطرار.

➢ الأمرالثالث: **ألا يُكثر من الحلف**، وهذا هو محل بحثنا في هذا الباب،

وقولِ الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:89]. **هذه الآية للمفسرين فيها ثلاثة أقوال:**

⬅ القول الأول: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ **يعني لا تحلفوا، أو أقلوا من الحلف،**

لا ينبغي أن تبتذل يمينك فتحلف على الصغير والكبير فيما يهم وفيما لا يهم، بل ينبغي أن يكون شأن اليمين في نفسك عظيماً، بحيث إنك لا تحلف إلا على ما يستحق الحلف،

⬅ القول الثاني: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ **من الحنث،**

والحنث: هو نكث اليمين ونقضها وعدم الوفاء بموجبها

وهذا مقيد بما إذا لم تظهر المصلحة في خلاف ذلك، وفي الصحيحين قال ﷺ **«والله إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»**.

القول الثالث: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فلا تتركوها بلا تكفير إذا حنثتم،

ويشهد لهذا سياق الآية، ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ ولا يفعل كما يفعل بعض الناس حينما يُقسِم الأقسام ويحلف يمينه على أشياء كثيرة، ثم إنه لا يبالي حينما يحنث فيخالف مقتضى يمينه، لا يبالي بكفارة هذا اليمين، وربما مرت عليه الأيام فنسي ذلك وتعلق هذا الحكم في ذمته.

والله جل وعلا قد بين لنا كفارة اليمين فقال سبحانه: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[المائدة:89]،

إذن المعنى الذي تراه مناسباً لتبويب المؤلف رحمه الله ،وإيراده هذه الآية في هذا الباب هو لا شك المعنى الأول ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يعني أقلوا من الحلف ولا تكثروا من الحلف، والله تعالى أعلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلْسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ أخرجاه.

منفقة: يعني سبب لرواج السلع، وذلك أن الإنسان البائع إذا حلف على هذه السلعة بأنه إنما اشتراها بكذا وكذا، أو أنها ذات جودة: (والله إنها جيدة وتصلح لكذا وكذا)، فإن هذا مما يُقنع المشتري بالشراء، فربما اشترى دون تردد، فهو مما ينفِّق السلعة ويسبب رواج بيعها، لكن ما الفائدة إذا كان ذلك سبباً لمحق الكسب ونزع البركة؟، لا ينتفع به، نسأل الله السلامة والعافية،

والسبب ما جاء في هذا الحديث، وهو أن اليمين **« مَنْفَقَةٌ لِلْسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ»**.

وهل المراد من هذا الحديث اليمين الصادقة أم اليمين الكاذبة؟، الحديث يحتمل الأمْرَين.

الاحتمال الأول: إن قوله ﷺ: «الحلف منفقة للسلعة» يعني الحلف الكاذب،

ويشهد لهذا ما جاء في رواية عند الإمام أحمد قال فيها النبي ﷺ: **«اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»**، ولا شك أن اليمين الكاذبة سبب للبوار وسبب للشر،

فإن الذي يحلف بالله ﷻ كاذباً قد وقع في ظلمات بعضها فوق بعض، فهو:

أولاً: قد كذب، والكذب من حيث هو محرم في الشريعة.

وثانياً: أنه ما عظم اسم الله ﷻ التعظيم اللائق به.

ثالثا: أنه قد وقع في اليمين الغموس التي تغمس في الإثم ثم في النار، عافاني الله وإياكم من ذلك.

ثم إذا كان هذا هو المراد فإن الاستدلال بهذا الحديث على ما بوب عليه المؤلف استدلال مستقيم، ووجه ذلك أن كثرة الحلف صادقاً وسيلة إلى الحلف كاذباً، وهذا أمر معلوم بالمشاهدة، الإنسان الذي يسهل عنده أن يحلف وهو صادق لكنه يكثر من ذلك، ربما يقع في الحلف الكاذب،

والاحتمال الثاني: **أن المراد: الإكثار من الحلف صادقاً في شأن البيع والشراء،**

ويشهد لهذا المعنى ما ثبت عند الإمام مسلم في صحيحه ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه ينفِّق ثم يمحق**» يعني أنه سبب للرواج وسبب للنفاق يعني السلعة تمشي في السوق وتُباع والناس تقبل على شرائها، ولكن هذا لا فائدة منه لأنه يمحق البركة من هذا الكسب الذي يكسبه الإنسان من هذا البيع.

والحديث فيما يبدو والله تعالى أعلم يشمل الأمرين، ولا شك أن الأول أشد إثماً وأعظم جرماً، ويدل على هذا ما خرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم: المسبل -يعني ثوبه- والمنان والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب**» **من نفَّق سلعته بالحلف الكاذب فإنه مُتوعَّد بهذا الذي قاله ﷺ**.

إذن على المسلم أن يحذر أشد الحذر من الوقوع في هذا الأمر، الإكثار من الحلف أمر مكروه مذموم مطلقاً، وهو في باب البيع والشراء أشد كراهة وذماً، والله تعالى أعلم.

وعن سلمان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، ولا يُزَكِّيهِم، ولهُم عذابٌ أَلِيْمٌ: أَشَيْمِطٌ زَانٍ، وعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، ورَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ، لا يَشتري إلا بِيَمِيْنِهِ، ولا يَبِيْعُ إلا بِيَمِينِهِ» رواه الطبراني بسند صحيح.

هذا الحديث حديث صحيح كما قال المؤلف رحمه الله، وفيه هذا الوعيد الذي جاء في شأن هؤلاء الثلاثة، وهو أن الله ﷻ قد توعدهم بهذا الوعيد في الآخرة:

أولهم: **أشيمط زان**، **الأشيمط**: **كبير السن**، فدواعي الشهوة عنده ضعيفة، ومع ذلك فإنه زان واقع في هذه الفاحشة الكبيرة ولا شك أن الزنا من حيث هو أمر قبيح ومنكر وكبيرة، ولكنه إذا كان من كبير السن فلا شك أنه أشد جرماً وأعظم إثماً،لأن الداعي الدافع إلى وقوعه في هذه المعصية ضعيف، فدل هذا على خبث في نفسه أداه إلى الوقوع في هذه المعصية،

والقاعدة: أنه كلما قلَّ الداعي إلى المعصية كان إثمها أعظم،

الثاني: **«وعائل مستكبر»**، **العائل**: هو الفقير، فقير ومع ذلك يتكبر على خلق الله ﷻ، الكبر قبيح من الغني، فكيف هو من الفقير؟! فلا شك أنه في حق الفقير أشد إثماً وأعظم فداحة، والسبب أنه لا داعي يدعوه إلى أن يتكبر على الخلق، فكان إثمه عند الله ﷻ أعظم.

الثالث: **«رجل جعل اللهَ بضاعته»**، هذه الكلمة فسرها النبي ﷺ عقيب هذه الجملة مباشرة، فلا تحتاج إلى أن يجتهد إنسان في تفسيرها، وجه كونه جعل اللهَ بضاعته، أي أنه لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه، أصبح الحلف بالله ﷻ على لسانه أمراً يسابق كلامه، ولا يبالي فيه ولا يبالي به، ويبذله بكل حال، ولا شك أن هذا أمر مذموم.

وهل المراد بأنه لا يشتري إلا بيمين صادقة أو أنه لا يشتري إلا بيمين كاذبة؟

إن نظرنا إلى حديث أبي ذر ﷺ السابق فإننا نجد أن الوعيد يشبه الوعيد، فيكون هذا مما يقوي القول بأن حديث الطبراني هذا يراد به **أنه لا يشتري إلا بيمين كاذبة ولا يبيع إلا بيمين كاذبة**،

ويحتمل أن يكون المراد: الإكثار من الحلف ولو كان هذا بالصدق،

لكن لا شك أنه لو كان هذا كاذباً فإن إثمه عند الله ﷻ أعظم.

وفي الصحيحِ عن عِمرانَ بنِ حُصَين ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «خيرُ أُمَّتِي قَرنِي، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يلونهم. قال عِمرانُ: فَلا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَينِ أَوْ ثَلاثَا؛ ثُم إنَّ بَعْدَكُم قَوْمَا يَشْهَدونَ ولا يُسْتَشْهَدونَ، ويَخُونُونَ ولا يُؤتَمَنُونَ، ويَنْذُرُونَ ولايُوفُوْنَ، ويَظْهَرُ فيهِمُ السِّمنُ».

في الصحيح:يعني في جنس الصحيح، فهو في الصحيحين، والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ أخبر على سبيل الذم عن شأن أناس يأتون بعد القرون الثلاثة المفضلة، وذكر أربع صفات لهم،

قد يقول قائل: أين وجه الشاهد من الحديث المناسب للباب؟، فليس في الحديث شيء يناسب الإكثار من الحلف، والجواب عن هذا إن الشاهد هو قوله ﷺ **«يشهدون ولا يُستشهدون»**.**ووجه ذلك**

- إما بأن يكون بإيراد المؤلف رحمه الله هذا الحديث لأجل التمهيد للحديث الذي بعده
- أو أن يكون مراده رحمه الله أن هؤلاء الذين يشهدون ولا يُستشهدون يخلطون شهادتهم بالحلف،

وهذا ما حمل عليه الحديث بعض السلف ومنهم النخعي رحمه الله،قال: **يشهدون يعني أنهم يحلفون"**،

ووجه ذلك أن يقول الإنسان في شهادته: أشهد بالله أنه كذا وكذا، فهذه الشهادة تتضمن أيضاً الحلف، فيكون حال هؤلاء أنهم يجمعون بين الشهادة والحلف، فيكون هذا في حقهم أمراً مذموماً،

✿ **ما معنى قوله ﷺ «يشهدون ولا يُستشهدون» ؟ اختلف العلماء في توجيه هذا الحديث،**

فمنهم من قال: **إنهم يشهدون ما لم يشهدوا**، بمعنى أنهم يشهدون بلا علم فتكون شهادتهم شهادة زور، وهذا ما نقله الترمذي رحمه الله عن بعض أهل العلم،

والمعنى الثاني: **أنهم يشهدون دون طلب منهم**، فيكون الأمر راجعاً للأداء لا للتحمل، يتقدمون يبادرون من أنفسهم فيشهدون دون أن يطلب منهم صاحب الحق أو الحاكم القاضي وهذا مدعاة للشبهة في حق هذا الإنسان، **لماذا يبادر إلى الشهادة؟**، لعل عنده هوى إما مع المشهود له أو على المشهود عليه، فكان من الأمر المذموم، مبادرة الإنسان بالشهادة إذا لم يحصل استدعاء وطلب منه أن يشهد، متى ما طُلب للشهادة فواجب عليه أن يجيب إلى ذلك كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة:283].

✿ **لكن قد يقول قائل:** فماذا نصنع بما خرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ألا أخبركم بخير الشهداء، الذي يؤتي الشهادة قبل أن يُسألها»**؟

هذا موضع افترق فيه أهل العلم **ولا شك أن الجمع مقدم على الترجيح،**

فالأصل هو ألا يشهد الإنسان إلا إذا استُشهد إلا في حالتين، وعليهما يتنزل حديث زيد بن خالد

← **الأول:** **في حال الاضطرار إلى شهادته** بمعنى أنه لو لم يشهد فإن الحق سيذهب عن صاحب الحق، **مثال ذلك:** أن يقر إنسان لآخر بدين، وسمعهما، سمع المحادثة شخص عن غير قصد، كان جالساً في المجلس، ثم إن هذا المدين قد جحد وليس عند الدائن حجة ولا دليل ولا شاهد، وسيذهب الحق عليه لو لم يشهد هذا الشاهد، فإن هذا الإنسان يتعين في حقه أن يتقدم بالشهادة.

الأمر الثاني: أن يكون هذا في حقوق الله ﷻ الخالصة أو التي فيها شائبة لحق الله،

وجه ذلك أن حقوق الله ﷻ يجب أن يُقام بها، فإذا كانت الشهادة متعلقة بحق الله ﷻ كأن تكون شهادة في مسألة حسبة،

أو أن يكون الأمر فيه شائبة لحق الله كالشهادة في شأن الأوقاف أو في الوصايا العامة وما شاكل ذلك، فإن الإنسان عليه أن يبادر بالشهادة ولو لم يُسألها، وبالتالي فيكون حديث عمران في شأن الحقوق الآدمية الخالصة، وحديث زيد بن خالد في شأن حقوق الله ﷻ،وبذلك يمكن الجمع بين الحديثين.

وفيه عن ابن مسعود ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يَجِيءُ قومٌ تَسْبِقُ شَهَادةُ أَحَدِهِم يَمِينَهُ، ويَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

هذا هو موضع الشاهد من الحديث، وفيه ذم هؤلاء الذين يأتون بعد القرون المفضلة،

والاستشهاد بهذا الحديث أوضح من الاستشهاد بالحديث السابق، إذ هؤلاء تسبق شهادة أحدهم يمينه أو تسبق يمينه شهادته، ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم لا يبالون بشأن اليمين ولا بشأن الشهادة، حتى إنهم من كثرة ما يبذلونها يكاد أن يكون الأمر فيهما كالشأن في المتسابقَين، فهذا يسبق هذا، يعني يمينه يبذلها سريعاً وشهادته يبذلها سريعاً. وهذا من قلة الاكتراث بعظيم المقام، ينبغي على الإنسان أن يتحفظ أشد التحفظ فيما يتعلق باليمين وما يتعلق بالشهادة إن رام أن يكون من محققي الإيمان والتوحيد.

قال إبراهيم: كانوا يَضْرِبُونَنَا على الشهادةِ والعَهْدِ ونحنُ صِغَارٌ.

هذا ليس أثراً منفصلاً، هذا تابع للحديث السابق، فإبراهيم النخعي رواه عن عبيدة عن ابن مسعود، إبراهيم النخعي تابعي جليل يحكي عن حال السلف وعن تربيتهم، والرواية جاءت عند مسلم:

الشاهد من هذا الأثر أن السلف رحمهم الله كانوا يربون أبناءهم على تعظيم هذه الأمور:

الأمر الأول: في شأن الشهادة إما من جهة التحمل

بمعنى ألا يحرص الإنسان على تحمل الشهادة ولا يقبل أن يُستشهد مخافة ألا يؤدي الحق، فالإنسان عرضةٌ للنسيان وعرضة للغلط والخطأ، وربما ضاع الحق بسبب خطئك في الشهادة.

الأمرالثاني: أو كانوا يضربوننا على الشهادة كذباً

يعني ألا يبالي الإنسان فيشهد كذباً، ولا شك أن هذا أمر منكر ومحرم كما تعلمون.

الأمر الثالث: قوله: الشهادة هنا: اليمين، ولعل المؤلف رحمه الله أراد هذا المعنى،
بعض العلماء قال وهذا مما نحى إليه الطحاوي رحمه الله، ذكر أن اليمين قد يطلق عليها الشهادة، ونزع في هذا إلى قوله تعالى: ﴿**فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ**﴾[النور:6]، المقصود أن هذا القول مما يُستأنس به في إيراد المؤلف رحمه الله هذا الأثر، وربما أورده لأجل أنه تابع لرواية الحديث.

الأمر الرابع: أن مراده رحمه الله: الشهادة على الأمر الغيبي كالجنة والنار،
يُشهَد لفلان أنه من أهل الجنة أو لفلان بأنه من أهل النار كما يفعل بعض المتسرعين أو بعض الطوائف من أهل الأهواء، ولا شك أنه لا لايجوز ما لم يكن فيه نص عن رسول الله ﷺ
وإن كان هذا التوجيه فيما يظهر والله أعلم بعيد نظراً لقوله بعده: والعهد، فلا مناسبة بين هذا وهذا.

«أما العهد»: فهو أن يتحمل الإنسان شيئاً في ذمته يعاهد عليه ويعاقد عليه
فكان السلف ينهون أبناءهم عن أن يعاهد الإنسان على شيء، والسبب أنه يُخشى أن يُنقض عهده أو يَنقض عهده، ولا شك أن هذا أمر مذموم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾[المائدة:1]،

بعض أهل العلم قالوا: إن العهد ههنا هي اليمين، وهذا ما مال إليه ابن حجر كما في مقدمة فتح.
هذا قول إن صح فإنه يكون شاهداً لإيراد المؤلف رحمه الله هذا الأثر في هذا الباب.
مما يُستفاد من هذا الأثر أن تلحظ الجدية في التربية التي كان عليها السلف الصالح، لم يكونوا يتركون أبناءهم سبهللة يقولون ويفعلون كما يشاءون، بل كانوا يربونهم على الحزم، على معالي الأمور
وينبغي على الإنسان في أبنائه،في تربيتهم أن يجمع بين الترغيب والترهيب، وأن يكون حازماً في المواضع التي تقتضي ذلك، ولو أدى هذا إلى الضرب ومن ذلك ما أخبر به نبينا ﷺ من اللجوء إلى الضرب في شأن الصلاة متى ما قصر الطفل فيها إذا بلغ سن العاشرة، قال: «**واضربوهم عليها لعشر**»، فدل هذا على أن الضرب في محله بشروطه أمر جائز وربما يكون متعيناً، والمطلوب أن يراعي الإنسان الحكمة ومراعاة الشرع في هذا المقام، **فينبغي: أولاً**: ألا يكون الضرب على كل شيء، على كل صغير وكبير،.**الأمر الثاني**: لابد أن يكون الطفل قد بلغ المبلغ الذي يناسبه أن يُضرب، أما الطفل الصغير الذي لا يعي ما الضرب أو لم ضُرب، فلا شك أن ضربه ظلم له، وسيُعاقَب الإنسان على ذلك.
ثالثا: أن يكون ضربه ضرباً غير مبرح، يعني لا يكون ضرباً شديداً يوقع الأذى والضرر على هذا الطفل.

الدرس الثاني و الثمانون – ١٤٤٣ ‏ ٦٣– بابُ ما جاءَ في ذِمَّةِ الله وذِمَّةِ نبيهِ

هذا الباب من سلسلة الأبواب التي عقدها المؤلف رحمة الله لينصح أهل التوحيد والإيمان في تحقيق التوحيد، ولذلك الألفاظ التي تركها من كمال التوحيد، والقول بها من ضعف تعظيم الله ﷻ، وتوحيده،

الذمة: **هي العهد والميثاق**، ولأجل هذا قيل عن أهل الكتاب أنهم أهل الذمة إذا كانوا في بلاد المسلمين،

ولاشك أن إعظام الله ﷻ يقتضي أن تُعظم ذمته، فالميثاق والعهد الذي أخذ بالله ﷻ وعلى ذمة الله، وعلى ذمة رسوله ﷺ؛ يجب أن يوفى به تحقيقا للتوحيد الواجب، وإخفار ذلك يعني نقضه لاشك أنه من ضعف تعظيم الله ﷻ ومن وهَنٍ في توحيد العبد، فلا ينبغي أن يقع فيه المسلم

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[النحل:91].

هذا أمر من الله سبحانه قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾إذا أعطيتم عهد الله؛ بأن قال إنسان لآخر: لك عهد الله أن أؤمّنك على نفسك فلا أوذيك، أو أن أكون معك صادقًا، أو أن أحفظ لك سرك، وما شاكل ذلك؛ فإنه يُوجِب وجوبًا أن يفي الإنسان بهذا العهد والميثاق الغليظ؛ لأنه عهد الله ﷻ، وإخفاره منكر عظيم حتى أنه لا كفارة له إلا التوبة؛ وذلك لعظمته،

﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وهذه الأيمان التي أمر الله ﷻ بحفظها، وعدم نقضها؛ هي: **الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق**، فواجب عليه أن يفي بذلك ولا ينقض يمينه، إذا أقسم الإنسان بالله ﷻ في عهد، أو عقد عقده؛

أما الأيمان والأقسام التي تتعلق بحث النفس؛ أو منعها من أمر من الأمور فإن هذه يجوز للإنسان أن لا يفي بها، يجوز أن ينقض هذه اليمين ولا يفي بها مع لزوم الكفارة في حقه في تفاصيلَ عند الفقهاء، بل كما ذكرنا في الدرس الماضي إن هذا مما يستحب متى ما ظهرت المصلحة في ذلك، وقد مر معنا ما ثبت في الصحيحين من قول النبي ﷺ : «**والله إني إن شاء الله لا أحلف على يمين؛ فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**».

وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، فَقَالَ: «أَغْزُوا بِسْمِ اللهِ ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا ، وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ : خِلَالٍ – فَأَيَّتهُنَّ أَجَابُوك فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ أَدْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ ؛ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ؛ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ ؛ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا ؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

هذا الحديث؛ حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه حديث طويل، وفيه مباحث شتى.

الشاهد منها قول النبي ﷺ: «وإذا حاصرت أهل حصن»؛

الخِطابُ كان من جملة وصية كان النبي ﷺ يوصي بها أمير الجيش، أو السرية، **السرية**: قطعة من الجيش قيل تبلغ من المائة إلى الأربعمائة، وقيل من المائة إلى الخمس مائة، قيل من الخمسة إلى الثلاث مائة.

قال: «وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل ذمة الله وذمة نبيه ﷺ»؛ **بمعنى** أنهم وافقوا على أن يستسلموا؛ بشرط أن يأمنوا على أنفسهم بجعل ذمة الله؛ ونبيه ﷺ لهم في ذلك، تجعلون لهم يا معشر المسلمين ذمة الله، ورسوله ﷺ مثلًا؛ أن لا يُعتدى عليهم، أن يُحفظوا في أموالهم؛ إلى غير ذلك.

أمر النبي ﷺ: ألا يجعل الأمير لهم ذمة الله، وذمة نبيه ﷺ، إنما يُنزلونهم على ذمتهم، وذمة أصحابهم،

والسبب ذكره النبي ﷺ قال: «فإنكم إن تُخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه».

الشأن أن ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ أمرها عظيمٌ، وواجبُ الوفاء بها، والمقام فيه جيش، وربما كان من صوابهم؛ أو من جُهَّالهم من وقع في إخفار ذلك العهد، فيكون قد وقع أمر عظيم وهو: إخفار ذمة الله وذمة نبيه ﷺ؛ مع ما في ذلك من إساءة سمعة الإسلام والمسلمين. فالأهون إذًا أن يلتزم لهم بذمة المسلمين، بذمة أمير الجيش، أو أهل هذا الجيش، أما أن يلتزم لهم بذمة الله؛ ونبيه ﷺ فهذا أمرٌ محفوفٌ بالخطر، وقد يترتب عليه مفسدةٌ عظمى؛ ألا وهي إخفار ذمة الله، ونقض ذمة الله، وذمة نبيه ﷺ، وهذا من تحقيق التوحيد تعليم من نبينا ﷺ لنا معشر المسلمين؛ على تعظيم الله ﷻ، وعلى تحقيق التوحيد له تبارك وتعالى،ومن ذلك أن يُعظم كل ما يرجع إلى ربنا ﷻ؛ ومن ذلك الذمة والميثاق والله أعلم

من فوائد هذا الحديث أن العلماء استنبطوا منه

قاعدة مهمة من قواعد الشرع وهي: احتمال أدنى المفسدتين في سبيل دفع أعلاهما،
يُرشد إلى هذا قوله ﷺ: «**فإنكم إن تُخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**»؛ وهذه قاعدةٌ صحيحة يدل عليها أدلةٌ كثيرةٌ في الشريعةِ، فان تزاحم عدد المصالح يُقدم الأعلى من المصالح، وضده: تزاحم المفاسد يُرتكب الأدنى من المفاسد، والله تعالى أعلم.

٦٤ – باب ما جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ

الإقسام على الله له أحوالٌ ترجع إلى ثلاث:

➢ الأولى: **أن يقسم على الله ﷻ في شأن خبرٍ من خبر الله، أو خبر رسوله ﷺ،**
كأن يقول مثلًا: والله ليُدخلن الله المؤمنين الجنة، والله ليُعذبن الله الكفار في النار، والله لتكونن العاقبة للمتقين، إلى غير ذلك مما جاء الدليل عليه في الكتاب والسنة؛ **فهذا الإقسام لا حرج فيه.**

➢ الثاني: **الإقسام على الله الذي ينشأ عن عظيم الإيمان به، وكمال حسن الظن به تبارك وتعالى**

- **ويدل على هذا أدلة عدة من ذلك ما ثبت في الصحيحين** أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية أي سن جارية من الأنصار، فاشتكوا إلى النبي ﷺ فأرادوهم على الصلح أي الأرش، فأبوا إلا القصاص، فقال أنس بن النضر أخو الربيع: يا رسول الله؛ أتكسر ثنية الربيع، والله لا تسكر ثنية الربيع، وفي رواية في البخاري قال: «**والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع، فقال: يا أنس كتاب الله القصاص**»،

ثم إن أهل تلك الجارية رضوا بالأرش، وقبلوه، عند ذلك قال النبي ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»؛ وعند مسلم أن: من أقسم على الله إنما كانت أم الربيع وليس أنس بن النضر،

- ويدل على هذا أيضا ما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف يُتضعف لو أقسم على الله لأبره**»،
- ويدل على ذلك أيضا ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**رب أشعث مدفوعٍ بالأبواب؛ لو أقسم على الله لأبره**».
- ويدل على هذا أيضًا ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ أخبر كما في قصة عمر ﵁ وهي مشهورة قال:«**قال يقدم عليكم مع أنداد اليمن أويس بن عامر(أي القرني) وأخبر ﷺ أنه كان به برص فذهب عنه إلا موضع درهم، وأنه كان له والدةٌ هو بها برٌ، قال:لو أقسم على الله لأبره**».
- وأيضًا جاء عند الترمذي بإسناد حسن أن النبي ﷺ قال: «**كم من أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك**»، أخو أنس بن مالك رضي الله عنهما.

إذًا هذه أدلة تدل على أن هؤلاء الصالحين المؤمنين لو أقسموا على الله ﷻ لأبر قسمهم، والمعنى أن الله ﷻ يجيبهم إلى ما أقسموا، ولا يُحنثهم في يمينهم، لكرامتهم على الله تبارك وتعالى، كأن يقول مثلًا: والله لا يكون كذا؛ مما قد يقدره الله ﷻ في المستقبل أو لا يُقدره، أو يقول: أقسمت عليك؛ أي ربي، أن يكون كذا وكذا، فإن هذا من الأمر الذي يرتقي إليه الكُمَّل من المؤمنين، كما جاء في هذه النصوص وغيرها.

ولكن هذا الباب ينبغي أن يتنبه المؤمن إلى أنه مرتبة مَنِيفة، لا يرتقي إليها إلا الكُمَّل، وأما من كان دونهم فلا ينبغي أن يقتحم هذا الباب، ورحم الله امرئ عرف قدر نفسه.

➢ القسم الثالث: **وهو الإقسام على الله الذي ينشأ من سوء ظنٍ بالله، أو عدوانٍ على الخلق، أو إعجاب بالنفس واحتقار للغير.**

الموضوع الذي عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب لأجله،

فلا شك أن هذا من ضعف التوحيد، وتركه من تحقيق كمال التوحيد الواجب على الإنسان أن يحذر من هذا الأمر كما دلَّ على ذلك الأدلة التي جاءت عن النبي ﷺ ومن ذلك ما ستسمعه في ما أورد المؤلف رحمه الله.

عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قال رَجُلٌ: واللهِ لايَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فقال اللهُ ﷻ: مَنْ ذا الذي يَتَأَلَّى عليَّ أنْ لاأغفِرَ لِفلانٍ؟ إِني قَد غَفَرْتُ لهُ وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ؛ رواه مسلم».

«من ذا الذي يتألَّى»؛ **يتألى**: أي يقسم ويحلف، الأليةُ هي اليمين أو القسم أو الحلف كما قال كثير بن عزة: قليلُ الألايا حافظٌ ليمينهِ فإن سَبَقتْ منهُ الأَلِيَّةُ بَرَّتِ

«من ذا الذي يتألَّى عليّ أن لا أغفر لفلان؟! إني قد غفرت له وأحبطت عملَك»؛ فهذا دليلٌ على أن الإقسام على الله ﷻ كهذه الحال التي كانت من هذا الإنسان لا شك أنها ذنبٌ عظيم.

وجاء عند أبي داوود في سننه من حديث أبي هريرة ﷺ قصة قريبة من هذه أيضا؛ وهي في شأن رجلين من بني إسرائيل كانا متآخيين، أحدهما كان يذنب؛ رجل عاص، والآخر كان مُجتهد في العبادة، فكان العابد إذا رأى ذاك المقصر يقع في الذنب فيقول له: أقصر، كف، لا تفعل، وذاك الرجل يقول: خل عني، خلني وربي، فرآه مرة على ذنب استعظمه فقال: أقصر، قال: خلني وربي أبعثت علي رقيبا؟ فقال عندها وبئس ما قال: **والله لا يغفر الله لك، أو: لا يدخلك الجنة أبدا**.

فبعث الله ﷻ فقبض روحهما، ثم جمعهما عنده تبارك وتعالى، واجتمعا عند رب العالمين جل وعلا، فقال سبحانه لهذا المذنب: **ادخل الجنة برحمتي**، وقال لهذا العابد الذي تألى على الله ﷻ قال: **أكنت بي عالما؟ أم كنت على ما في يدي قادرا، ثم قال** ﷻ : **خذوه إلى النار**، عندئذ **قال أبو هريرة** ﷺ **كلمة: أوبقت دنياه وآخرته**، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي مصنف عبد الرزاق بإسنادٍ رجاله ثقات من حديث ابن مسعود ﷺ موقوفاً: «أن رجلًا كان يصلي، فلما سجد جاء رجل فوضع قدمه على عنقه، فلما انصرف قال: وضعت قدمك على عنقي وأنا ساجد، والله لا يغفر الله لك أبدا، قال ابن مسعود –رضي الله عنه–: فأدخله الله النار».

إذًا هذا المقام مقامٌ عظيم، ينبغي على الإنسان أن يحفظ فيه لسانه، وأن لا يقع في هذا الذنب العظيم، وألا يُقسم على الله ﷻ بغير علم أو تحكم في فعله تبارك وتعالى أو اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على أن يغفر هذا الذنب فإن رحمته تقصر أو تضعف عن ذلك، فمن كان منه ذلك فلا شك أنه واقعٌ في ذنب عظيم.

«قد غفرت له وأحبطت عملك»، ✪ المتقرر عند أهل السنة والجماعة أن الحبوط قسمان:

حبوط كلي: أي تبطل حسنات الإنسان، وأن يزول جميع ثوابه على أعماله بالكلية،

وهذا لا يكون إلا بالكفر بالله -ﷻ-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:88].

والحبوط الجزئي: وهو بطلان بعض الثواب لا جميعه

وهذا يكون بفعل المعاصي التي هي دون الكفر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[البقرة:264].

ويدل على ذلك أيضًا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد:33]، قال بعض أهل التفسير: أي بالمعاصي، ويدل على ذلك جملة من النصوص الأخرى.

«قد غفرت له وأحبطت عملك»، ما هذا الحبوط؟ اختلف أهل العلم في توجيه هذا الحديث:

ومنهم من قال: إن هذا القائل كان منه عملٌ آخر هو ناقض من نواقض الإسلام كان السبب في حبوط عمله.

وقال آخرون: إن هذا الإنسان كان قائلًا هذه الكلمة مُقسما على الله ﷻ متحكمًا في علمه؛ مستحلًا لذلك؛ وهذا كفر فحبط عمله لاستحلاله.

وقيل: إن هذا كان حكم هذه الكلمة في شرع من قبلنا. وهذه التوجيهات بادية الضعف والتكلف،

والتحقيق في هذا المقام إن شاء الله أن يقال: إن هذا الرجل كان بين أمرين:

إما أن يكون قوله هذا: **«والله لا يغفر الله لفلان»**؛ ناشئا عن اعتقاد أن له مكانة عند ربه ومزية وفضيلة؛ بحيث إنه يحكم على الله ﷻ فالله تعالى يفعل ما يأمر به، **ولاشك إن كان الأمر كذلك فيكون هذا الإنسان قد كفر بالله ﷻ، ويكون حبوط عمله حبوطًا كليًا.**

والاحتمال الثاني: أن يكون هذا الإنسان قد قال هذا القول عن طرفٍ من سوء الظن بالله ﷻ أو إعجاب بنفسه، واحتقار لهذا الذي قال فيه ما قال، **وبالتالي فيكون قد وقع في ذنب عظيم، ولايصل ذلك لحد الكفر، وعليه فيكون حبوطه حبوطًا جزئيا.**

«**وأحبطت عملك**»، **والذي يظهر والله تعالى أعلم أن المراد هنا: مطلق العمل، لا العمل المطلق،**
فهذا قد أحبط الله ﷻ عنه جملة من أعماله،

- قد يكون الذي أحبط أعمال الجوارح
- وربما الأمر يحتمل أن الذي أحبط هو العمل الذي أعجب به هذا الإنسان، والله تعالى أعلم.

← **من فوائد هذا الحديث:** أن نعلم خطر اللسان، فاللسان شأنه عظيم:
كما قد قال الرسول ﷺ: «**وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»، قالها هذا الإنسان فأوبقت دنياه وأخراه؛ عافاني الله وإياكم من ذلك الأمر الخطر،

← **أيضًا من فوائد هذا الحديث** أن نعلم أن النبي ﷺ صادقٌ حين قال: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»؛ أي أن أسباب دخول الجنة أو النار قريبة،ربما يدخل الإنسان الجنة بسبب لا يظن أنه يُبَلغه ما بلغ، والشأن في الطرف الآخر كذلك،
أقرب إليك من شِراك نعلك؛ أي أن الأمر قريب جدا، فأسباب الجنة والنار قريبة جداً،

← **ومن ذلك أيضًا:** أن نعلم خطر الغضب؛ الغضب يجمع الشر، على الإنسان أن يتنبه ويتحفظ، فهذا الإنسان قال كلمة في لحظة غضب فأوردته هذا المورد العظيم.

← **ومن تلك الفوائد أيضًا:** أن نعلم صحةَ معتقد أهل السنة والجماعة في شأن أهل الكبائر والعصاة، وأنهم تحت مشيئة الله تبارك وتعالى إن شاء عذبهم، وإن شاء عفى عنهم،

← **ومن تلك الفوائد أيضًا:** درسٌ مهم ينبغي أن يتنبه له الدعاة إلى الله وأهل الحسبة، والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، حذار أن يظنوا إن كانوا في موقع التوجيه والنصح أنهم أرفع من غيرهم، وأن من سواهم مُحتقر، وكذلك أن يحذروا من الألفاظ التي تُقنط الناس من رحمة الله تبارك وتعالى،

وفي حديثِ أبي هريرةَ أنَّ القائِلَ رَجُلٌ عابدٌ،قال أبوهريرةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دنياهُ وآخِرتَهُ.
كأن المؤلف يميل إلى ما جاء في حديث جندب، وما جاء في حديث أبي هريرة؛ قصة واحدة، والأمر على كل حال مُحتمل، لكن ليس الأمر مقطوعًا به؛ وذلك أن خاتمة ما جاء في هذا الحديث الذي في الباب أن الله تبارك وتعالى قد قال: «**قد غفرت له وأحبطت عملك**»، وأما الذي جاء في ختام القصة التي جاءت في حديث أبي هريرة: فيه أن الله ﷻ أدخل هذا الجنة، وأدخل ذاك النار.

الدرس الثالث و الثمانون – ١٤٨٥

٦٥- بابُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ على خَلْقِهِ.

هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله للدلالة على عدم جواز أن يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه،

والخلق: هنا في معنى السياق بمعنى المخلوق، وهذا واردٌ في جملة من النصوص، منها قول الله تعالى:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾[لقمان:11]، هذا مخلوقه ﷻ.

وفي سياقٍ آخر: قد يفرق بين الخلق والمخلوق.

فالخلقُ: فِعلُ الله تعالى القائم به،

وأما المخلوق: فإنه المفعول المنفصلُ عن الله ﷻ.

ومرادُ المؤلفُ رحمه الله التنبيه على أنه لا يجوز أن يجعل العبد ربه وإلهه ﷻ شفيعا له عند أحد من الخلق، لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، وذلك أن شأن الله تبارك وتعالى أعظم، الله سبحانه لا يجوز أن يكون شفيعًا للمرء عند أحد من الخلق،

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ :جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَارَسُولَ اللهِ ؛ نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ ،وَجَاعَ العِيَالُ،وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ،فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «سُبْحَانَ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللهِ!»فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ،ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ ...» وَذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

هذا الحديث فيه بحثٌ طويلٌ من جهة إسناده، فإن طائفة من أهل العلم ضعفت هذا الحديث

ألف ابن عساكر رسالة في تضعيف هذا الحديث وأُعِلَ هذا الحديث بِعلتين:

الأولى: أن في الإسناد ابن إسحاق وهو مدلسٌ وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث.

والعلة الأخرى: أن الحديث جاء من رواية جُبيرٍ بن محمد بن جبيرٍ بن مُطعِمٍ بن عَدِي عن أبيه عن جده، وجبيرٌ هذا فيه كلام، طائفة أخرى من أهل العلم قَوَّت هذا الحديث ومنهم: ابن منده.

ومهما يكن من شيء فالحديث إن سُلِمَ بضعفه فإن معناه الصحيح لا شك فيه.

قال شيخ ابن باز رحمه الله الحديثُ فيه بعض الضعفِ إلا أن معناه صحيح. وهذا حق، فإن معنى هذا الحديث صحيح لا شك فيه.

وهذا الحديث اختصره المؤلف رحمه الله بمعناه، فهو لم يلتزم بنص ما أورد أبو داود في سننه، كما أنه اختصر آخرهُ كما سيأتي التنبيه عليه إن شاء الله والله تعالى أعلم.

عن جُبَير بن مطعم ﷺ أنه قال: جُبَيْرُ بن مُطعِم هو القرشي من أشراف قريش أسلم عام الفتح ﷺ

"جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال،
نُهكِت الأنفس: أي ضعفت وهزلت والسبب قلة الأمطار والأموال أصابها ما أصابها من الهلاك والعيال أصابهم ما أصابهم من الجوع، فقدم هذه المقدمة بين يدي طلبه،
وهذا يدلك على أن من المستحسن أن يقدم الإنسان بين يدي طلبه ما يَعْطِفُ قلبَ المسؤول إلى الجواب، فهو قدم هذه المقدمة حتى يلين قلب النبي ﷺ فيجيبه إلى سُئلِه.

قال: فاستسقِ لنا ربك... **استسقِ**: أي اطلب السقية من الله فهو يريد أن يدعو الله رسول الله ﷺ بإنزا المطر، ولا شك أن هذا من الأمر الذي وقع متعددا في حياة النبي ﷺ فإنهم كانوا يستسقون به عليه الصلاة والسلام، وذلك رجاء بركته وإجابة دعائه ﷺ.
ومعلوم تلك القصة التي خرجها البخاري ومسلم وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه، حينما دخل رجل المسجد والنبي ﷺ يخطب الجمعة، فأخبره أن الأموال قد هلكت وأن العيال قد جاعوا فادعُ الله أن يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: **اللهم اسقنا .. اللهم اسقنا**؛ أخبر ﷺ أنهم سقوا إلى الجمعة الثانية حتى دعا النبي ﷺ بسؤال من هذا الرجل أو من غيره أن يصرف هذا المطر عنهم .

أن النبي ﷺ كان أصحابه يستسقون به في حياته، يسألونه ويطلبونه أن يدعوا الله ﷻ لهم بإنزال المطر، **وأما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فما كانوا يفعلون ذلك**، إنما كانوا يطلبون من الصالحين ولا سيما من قرابة النبي ﷺ كما فعل عمر ﷺ، إذ في البخاري أن عمر ﷺ قال: **اللهم إنا كنا نستسقي، اللهم إنا كنا نتوسل إليك برسولك وإنا نتوسل إليك بعم رسولك يعني بالعباس**، فما كان من العباس ﷺ إلا أن دعا الله وتعالى لهم، وكذلك فعل معاوية ﷺ مع يزيد بن الأسود فإنه استسقى به وكان رجلا صالحا.
والمقصود أن الاستسقاء بالصالحين بعد وفاة النبي ﷺ أمر مشروع دأب عليه السلف الصالح، أما الاستسقاء بالنبي ﷺ بعد وفاته فلا شك أن هذا أمرٌ ممنوعٌ وبدعة محدثة لا تجوز،

ويدل على ذلك إجماع الصحابة رضي الله عنهم عن الإعراض عن هذا الأمر مع وجود المقتضي إليه، فإنه لو كان هذا الأمر جائزا لما عدل عمر ﷺ ومعه السابقون من المهاجرين والأنصار وبقية الصحابة

فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله.

هذه الجملة فيها أمران: أحدهما صحيح لم ينكره النبي ﷺ، والآخر: أنكره النبي ﷺ:

الجملة الأولى: (فإنا نستشفع بالله عليك)،

فأما الاستشفاع بالنبي ﷺ على ربه: فإن هذا لم ينكره النبي ﷺ، ومعنى ذلك أنهم يطلبون من النبي ﷺ أن يكون شفيعا لهم عند الله بدعائه وبسؤاله، **وليس بذاته،**

وكم جاء في الأحاديث من سؤال الصحابة الدعاء من النبي ﷺ كثير من الأحاديث، جاء فيها أنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ الدعاء لهم أو الدعاء لذرّياتهم كما فعلت أم أنس رضي الله عنها، وكما فعل الصحابة حين كانوا يأتون بأولادهم إلى رسول الله ﷺ فيدعو لهم ويبرك عليهم.

القاعدة: الاستشفاع بالنبي ﷺ أو بغيره في كلام النبي ﷺ أو في كلام الصحابة إنما هو استشفاعٌ بالدعاء وبالسؤال **لا بالذات.**

الجملة الثانية: (وبك على الله)

في رواية أبي داود في الأصل يعني في السنن التقديم، تقديم هذه الجملة على تلك مع أنها مروية أيضا بالمعنى، وشيخ الإسلام رحمه الله في تأليفه لهذا الكتاب ربما قد كتبه من حفظه، لذلك توجد اختلافات بين المصدر الذي خرج الحديث وبين ما أورد المؤلف رحمه الله كثيرا لهذا الكتاب،

أو أن المؤلف كان ينقل بالواسطة وكانت الواسطة تكتب الحديث بالمعنى، والأمر على كل حال يسير.

(وبك على الله): وهي أن هذا الأعرابي استشفع بالله على النبي ﷺ أنه يجعل الله ﷻ شفيعا له عند النبي ﷺ حتى يرضى وحتى يجيبه إلى مطلوبه،

وهذا القدر نكره النبي ﷺ، إن شأن الله ﷻ أعظم لا شك، ولا ريب أن الله تبارك وتعالى لا يجوز أن يجعله الإنسان وسيلة له عند غيره، فيشفع له عند غيره،

وسبب هذا المنع راجعٌ إلى أمور:

➢ **أولا: أن الشفاعة تتضمن السؤال والطلب،**

وذلك أن حقيقة الشفاعة أن الشافع يسأل المشفوع إليه أن ينفع أو يلبي حاجة المشفوع له، وبالتالي فيكون الله ﷻ هاهنا سائلا ولا يجوز أن يعتقد هذا، فالله ﷻ هو المسؤول، الله ﷻ هو الذي سيُدعى، فكيف يجوز أن يقال إن الله تبارك وتعالى يسأل المخلوق حاجة لمخلوق آخر؟

➢ **ثانيا: أن حقيقة الشفاعة انضمام الشافع إلى المشفوع له،**

بعد أن كان صاحب الحاجة واحدا فردا أصبح شفعا، فشفع كل واحد منهم الآخر، ولا شك أن الله ﷻ لا يشفع أحدا ولا يشفعه أحد، بل هو الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

➢ **الأمر الثالث: أن الغالب أن تكون منزلة الشافع دون منزلة المشفوع عنده،**

ولا شك أن الله تبارك وتعالى هو العلي، له علو القدر وله علو المنزلة، كما أن له علو الذات سبحانه وتعالى، الله تبارك وتعالى ملك الملوك قيوم السماوات والأرضين، المعتاد أن يكون الشافع دون المشفوع له، يشفع الوزير عند السلطان، فأيهما أعلى منزلة؟ لا شك أنه المشفوع عنده، وهذا ما لا يجوز أن يكون.

➢ **الأمر الرابع: وهو أن الشفاعة قد تقتضي شيئا من التذلل من الشافع عند المشفوع له**

وهذا أيضا ما لا يجوز أن يعتقد في حق الله تبارك وتعالى.

➢ **الأمر الخامس: وهو أن الشأن في الشفاعة أن تكون الحاجة بيد المشفوع عنده أو بيد الشفيع،**

الذي يملك قضاء الحاجة المشفوع عنده وليس الشفيع، وإلا لو كان الأمر بيد الشفيع ما احتاج إلى الشفاعة وكيف يجوز أن تكون الحاجة مدبرة وبيد غير الله تبارك وتعالى وهوالذي بيده ملكوت كل شيء؟

قد يقول قائل: وماذا عن سؤال المخلوق بالله ﷻ؟

لاحرج في أن يسأل العبد المخلوق بالله تبارك وتعالى إذا كان المقام يناسب هذا السؤال الجليل،

فهل يرد على هذا ما ذكرناه في مسألة الاستشفاع بالله ﷻ على المخلوق؟

الجواب: لا ما ذكرناه من هذه اللوازم الفاسدة في شأن الاستشفاع بالله على المخلوق لا يلزم منها شيء في شأن سؤال المخلوق بالله ﷻ،

ثم حقيقة سؤال المخلوق بالله هو تذكيره بأن لله ﷻ حقا عظيما عليك يا أيها المسؤول، ولأجل هذا أنا أسألك بهذا الإله العظيم الذي له عليك هذا الحق أن تجيبني إلى سؤلي،وبالتالي كان هذا أمرا لا حرج فيه.

فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!»

سبحان: اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق،

والعرب ما نطقت بهذه الكلمة غالبا إلا منصوبة مضافة، والتقدير أسبِّح الله سبحانا. ما ذُكر المصدر هنا، المصدر هنا التسبيح لكن ذكر اسم المصدر والمعنى أنزّه الله تبارك وتعالى،

والنبي ﷺ دلت أحاديث كثيرة أنه إذا كان استعظم شيئا سواء كان محبوبا أو مبغوضا سبح أو كبر، كان من هديه ﷺ إذا كان استعظم شيئا سواء كان محبوبا أو مبغوضا يسبح أو يكبر.

فإن النبي ﷺ في رواية الترمذي قال: **«سبحان الله، قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى»** إلى آخره، وفي رواية الإمام أحمد قال: **«الله أكبر»**،وهذا له شواهد كثيرة في الصحيحين وغيرهما.

لما انفلت أبو هريرة عن النبي ﷺ لأنه لم يكن متوضئا، ولم يكن يريد أن يسلم على النبي ﷺ وهو على غير وضوء، ثم توضأ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال النبي ﷺ: **«سبحان الله إن المؤمن لا ينجس»**.

كذلك مثلا ما ثبت في الصحيحين من إخبار النبي ﷺ عن أحد الأشخاص ممن كان يقاتل مع النبي ﷺ أخبره أنه من أهل النار، ثم لما نظروا في حاله بعد أن جرح وإذا به قد قتل نفسه، فلما أخبر النبي ﷺ بذلك قال: **«الله أكبر»** هذا أمر قد استعظمه وهو أمر محبوب إلى النبي ﷺ لأن فيه الدلالة على صدقه، الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله، والشواهد على كل حال كثيرة.

إذن مما يشرع للمسلم إذا استعظم شيئا أن يسبح أو يكبر، سواء كان هذا الأمر الذي استعظمه أمرا محبوبا إليه، أو كان أمرا مبغوضا إليه.

«فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه».

انظر إلى حب أصحاب محمد محمدا ﷺ ورضي الله عنهم، كيف كانوا يحبونه؟ وكيف كانوا يجلونه؟ وكيف كانوا يتأثرون بما يتأثر به عليه الصلاة والسلام؟

النبي ﷺ تأثر واستعظم مما كان يقوله هذا الأعرابي، فكان التأثير باديا لائحا على وجوه أصحاب النبي ﷺ، وهذا دليل على عظيم محبتهم وإجلالهم له عليه الصلاة والسلام،

الشاهد أن النبي ﷺ تأثر من هذه المقالة حتى إن أصحابه رضي الله عنهم تأثروا من تأثره ﷺ ورضي الله عنهم.

ثم قال: وَيْحَكَ أتدري ما الله؟

ويح: كلمة توجع، وتتضمن أحيانا معنى التحذير، فكأنه وقع في خطأ يستحق أن يتوجع له المتوجع.

قال: ويحك؛ وهذا يدلك على أن المقالة الفاسدة وأن الخطأ يرد من حيث كونه خطأ بغض النظر عن قصد القائل أو الفاعل، فنحن لا نشك أن قصد هذا الأعرابي كان قصدا حسنا، ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يمنعه ذلك من أن يرد هذه المقالة الخاطئة.

«إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد» وذكر الحديث، رواه أبو داود.

في رواية أبي داود «**من خلقه**» فيها هذه الزيادة: **لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**، والسبب في ذلك أن هذا يتنافى وتعظيم الله تبارك وتعالى،

فالفائدة التي نستفيدها من هذا الحديث وجوب تعظيم الله تبارك وتعالى، ووجوب ترك كل لفظ يتنافى مع هذا التعظيم، أو يهضم جناب ربوبية الله تبارك وتعالى.

الموحد الذي يروم تحقيق توحيده، كما كررنا مرارا، وقد نصحنا وبين لنا المؤلف رحمة الله عليه يجب عليه أن يراعي هذا المقام، وهو تعظيم الله تبارك وتعالى، ومراعاة كلامه، فلا يقع في شيء يتنافى وكمال التوحيد الواجب، ومن ذلك أنه يجعل الله تبارك وتعالى شفيعا له عند أحد من المخلوقين، والعلة في ذلك قد علمتها.

وتتمة الحديث عند أبي داود هي أن النبي ﷺ قال: «**ويحك، إن شأن الله أعظم، إن عرشه فوق سماواته هكذا وأشار بأصابعه عليه الصلاة والسلام على هيئة القبة**».يعني أن العرش مقبب، هذه هيئته

وهذا ما دل عليه أدلة أخرى في الصحيحين وغيرهما.قال: «**إن عرشه فوق سماواته هكذا، وقال بيده هكذا كهيئة القبة وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**».

وذكر أبو داود رواية أخرى عن محمد بن بشار أنه قال في حديثه: «**والله فوق عرشه، والعرش فوق سماواته**»، وهذا القدر أيضا مما تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة، أن الله تبارك وتعالى فوق خلقه مستوٍ على عرشه، وهذا المعنى قد دلت عليه أنواع من الدلائل في أدلة لا تكاد أن تُحصى إلا بصعوبة بالغة.

الدرس الرابع و الثمانون – ١٤٧١

٦٦- بابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةَ النّبي ﷺ حِمَى التّوحيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ.

فهذا الباب يذكرنا بالباب الذي عقده المؤلف رحمه الله في وسط الكتاب تقريبًا، في الباب الحادي والعشرين، فإنه أورد بابًا شبيهًا بهذا الباب، فقال: باب ما جاء في حماية النبي ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريقٍ يوصل إلى الشرك،

فهل هذا من المؤلف تأكيدٌ على هذا المعنى الذي يروم التنبيه عليه، وهو ضرورة العناية بسد الذريعة إلى كل ما يؤدي إلى القدح في كمال التوحيد الواجب، لاسيما والمقام مقامٌ عظيم، والخطب فيه جلل،

أو أنه أراد رحمه الله التنبيه في الباب السابق على الحذر من ذرائع الشرك الفعلية، ورأسها التعلق بالقبور، وأراد في هذا الباب التنبيه على الحذر من ذرائع الشرك القولية، ورأسها الغلو في الصالحين، وأعظم الصالحين وأصلحهم هو رسول الله ﷺ،

الأمر يحتمل هذا ويحتمل ذاك، وإن كان الثاني لعله أقرب.

مهما يكن من شيء فلا شك أن قاعدة سد الذريعة إلى الشر، وسد أبواب الفساد قاعدةٌ مقررة في الشريعة، دل عليها أدلةٌ كثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، وأحيلك في معرفة قدر هذا الباب إلى ما دون ابن القيم رحمه الله في كتابه (إعلام الموقعين)، حيث ذكر ما لا مزيد عليه في تقعيد هذه القاعدة والاستدلال عليها، حيث أورد من أدلة الشرع التي تدل على هذه القاعدة قاعدة سد الذرائع تسعةً وتسعين دليلاً، والمتأمل في موارد الشريعة يدرك أن الأدلة أكثر من ذلك.

وإذا تأملت هذا الباب -أعني ما جاء في الشريعة من سد الذريعة إلي الشر- وجدت أن الشريعة لاحظت **أنه كلما كان المحرم أعظم كانت الذريعة المسدودة للوصول إلى هذا الشر أكثر**، كلما كان المحرم أعظم وأشنع في الشريعة وجدت أن الشريعة تعتني بسد الذريعة أكثر، ولذا انظر إلى فاحشة الزنا عافاني الله وإياك منها، تجد أن الشريعة أغلقت منافذها من طرقٍ شتى، تجد الشريعة نهت عن سفر المرأة بلا محرم، وعن الخلوة بالنساء، وعن الدخول على النساء، وقال النبي ﷺ: **«الحمو الموت»**، نهت الشريعة المرأة عن إبداء زينتها، بل أن تضرب برجها ليعلم ما تخفيه من زينتها، في أدلة كثيرة ومباحث شتى تتعلق بهذا الباب نظرًا إلى أن هذه الفاحشة فاحشةٌ كبرى.

إذًا سد الذريعة الموصلة إليها له عنايةٌ أكبر في الشريعة،

خذ مثلاً ما يتعلق بوقوع الشحناء والعداوة والإحن بين المسلمين، كيف تجد أن الشريعة سدت أبواب هذا الأمر من طرقٍ شتى، نهى النبي ﷺ عن أن يبيع الرجل على بيع أخيه، أو أن يخطب على خطبة أخيه، في أمورٍ شتى، حتى أن كثيراً من البيوع والمعاملات المالية تجد أن الحكمة إذا تأملت راجعةٌ فيها إلى ما يتعلق بسد الذريعة إلى وقوع العداوة بين المؤمنين، حتى إن الشريعة اعتنت بأدق المسائل، حتى إنها نهت عن أن يتناجى اثنان دون ثالث.

وإذا كان ذلك كذلك في تلك الأبواب، فكيف سيكون الحال في شأن الشرك الذي هو أعظم ذنبٍ على الإطلاق، أعظم ذنبٍ على الإطلاق أن يشرك مع الله تبارك وتعالى غيره.

لاشك ولا ريب أن الشريعة اعتنت بسد كل المنافذ التي توصل إلى الشرك، سواءً كان أكبر أو كان أصغر، وعلى أهل التوحيد أن يجردوا العناية بهذا الموضوع العظيم، وهو سد الذرائع إلى الشرك، وقطع أسباب الشر والفساد والفتنة، أن يأخذوا بما جاءت الشريعة بالدلالة عليه، أن يأتوا بما صار على هذا السلف الصالح،

عن عَبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ ﷺ قال: انْطَلَقْتُ في وَفْدِ بَني عَامِرٍ إلى النبي ﷺ فقلنا: أنتَ سيِّدُنا، فقال: «السيدُ اللهُ تبارك وتعالى»، قُلنا: وأَفْضَلُنا فَضْلًا وأعظمُنا طَوْلًا، فقال: «قولوا بِقَولِكم أو بَعْضِ قَولِكم، ولايَسْتَجْرِيَنَّكُم الشَّيْطانُ» رواه أبو داود بسندٍ جيد.

هذا الحديث كما ذكر المؤلف أخرجه أبو داود، والنسائي، وأحمد، والبخاري في المفرد، وغيرهم من أهل العلم، وهو حديثٌ ثابتٌ لاشك فيه، وقد قال الحافظ بن حجر في الفتح: إن رجاله ثقات.

عبد الله بن الشخير العامري هو من بني عامر بن صعصعة تلك القبيلة العدنانية المشهورة، ومن مسلمة الفتح، وهو والد مطرف بن عبد الله بن الشخير التابعي المشهور، وهو الذي يروي هذا الحديث عن أبيه، وفيه أنه ذكر أن قومه الذين هم بنو عامر أتوا رسول الله ﷺ، والظاهر والله أعلم أن هذا كان عام الوفود، في السنة التاسعة من الهجرة، فقام متكلمهم يتكلم بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: أنت سيدنا، **وجاء في رواية أخرى أنه قال: أنت سيد قريش،** عندها قال النبي ﷺ: **«السيد الله»**.

مسألة السيد وحكم إطلاق هذه الكلمة على المخلوق تكلمنا عنها بالتفصيل، في **باب لا يقول عبدي وأمتي**، فيه قوله ﷺ: **«وليقل سيدي ومولاي»**

وإن الصحيح جواز اطلاق هذا اللفظ على المخلوق بشرطين:

الأول: أمانُ المفسدة

الشرط الثاني: أن يكون من أُطلق عليه هذا اللفظ مُستحقا لذلك.

«**السيد الله**»، هذه الكلمة من النبي ﷺ مرجعها إلى ما يأتي:

أولاً: إلى تواضع النبي ﷺ حيث إنه كان يكره أن يواجه بالمدح،

وجاء في السنة أدلةٌ شتى في كراهة مواجهة الإنسان بالمدح.

ثانيًا: كان هذا منه ﷺ أدبًا مع ربه جل وعلا

يعني كأنه يقول لهم:اجعلوا هذا المدح لمن هو أولى به وهو الله تعالى، فالسيادة المطلقة إنما هي لله ﷻ

ثالثا: أراد النبي ﷺ التنبيه والتحذير وسد أبواب الشر

وذلك أن الغلو فيه ﷺ وفي الصالحين لاشك أنه من أعظم أسباب وقوع الشرك، بل لم تغير أديان الأنبياء بشيءٍ مثل الغلو في الصالحين، والعام عام الوفود، وفي الحضور كثيرٌ ممن هم حدثاء عهدٍ بالجاهلية، فأراد النبي ﷺ أن يسد أبواب الشر والفتنة، فقطع دابر التعلق بالمخلوقين، ووقوع الغلو فيه، فوجههم وأرشدهم إلى أن يجعلوا مدحهم وثناءهم هذا إلى من هو أولى بكل مدحٍ وثناء، إلى من لا أحد أحب إليه المدح وهو منه جل وعلا، وهو الله سبحانه وتعالى.

وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طَوْلاً، **الطول**: هو الغنى،

قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[النساء: 25] يعني الغنى،

قال جل وعلا في شأن المنافقين: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾[التوبة: 86]،

الله تبارك وتعالى هو ذو الطول، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[غافر: 3].

الله جل وعلا له الغنى المطلق، وله العظمة التامة تبارك وتعالى.

«**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»، اختلف الشراح في توجيه هذه الجملة من كلام النبي ﷺ، والذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذه الجملة منه **اشتملت على إباحةٍ وإرشادٍ وتحذير**،

➢ الإباحة: **فإنها في قوله ﷺ: «قولوا بقولكم»، فالظاهر والله أعلم أن هذا منه ﷺ إذنٌ بهذا الذي قالوه**

فإنه لاشك ولا ريب أن النبي ﷺ أفضلهم بل أفضل الناس على الإطلاق ﷺ، وهذا أمرٌ لاشك فيه ولا ريب، ولم ينكر النبي ﷺ إنكارًا تامًا هذا القول، وأنه كان هديه ﷺ أنه كان يرد الخطأ ولا يسمح به

ومر بين يدينا قريبًا رده ﷺ على من قال: **فإنا نستشرع بالله عليك،**

مر بنا أيضًا رده ﷺ قول من قال: ما شاء الله وشئت، بعبارة واضحة، قال: «**أجعلتني لله ندًا**»،

➢ **أما الإرشاد:** فكان منه ﷺ في قوله: «**أو بعض قولكم**»،

يعني كأنه يقول لهم: لو أنكم تخففتم وأنقصتم من هذا المدح لكان هذا أولى،

وذلك لأنه قد يترتب على مواجهة الممدوح بالمدح مفاسد، وهذا منه ﷺ توجيهٌ وتربيةٌ للأمة بأن لا يواجه الإنسان بالمدح لما يدخله عليه ذلك من العُجب، ولاشك أن العُجب يتنافى مع مراتب التوحيد العالية، المؤمن الموحد الذي حقق توحيده لا يرى نفسه بعين الإعجاب، إنما يرى نفسه بعين الإزدراء، لا يرى إلا فضل الله تبارك وتعالى عليه تترا، أما نفسه فإنه لا يراها شيئًا فليس منها شيء وليس إليها شيء.

➢ **أما التحذير:** فجاء في قوله ﷺ: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»، يعني **لا يجعلنكم جريًا له،**

الجري في اللغة: يعني الوكيل أو الرسول، فالمراد أنه لا يتخذكم الشيطان وكيلاً عنه فتتكلمون بالباطل الذي يريده الشيطان يجريه على ألسنتكم، فتنوبون منابه، وتقومون مقامه،

حذارِ من أن تبالغوا في المدح والثناء حتى تقعوا في الغلو المفضي إلى الشر الوبيل، فإن الغلو في الصالحين أول أسباب وقوع الشرك، وأعظم أسباب وقوع الشرك.

وهذه الجملة من النبي ﷺ، وجدت أنه حقًا ﷺ كان رحيمًا، كان شفيقًا، كان حريصًا علينا ﷺ، هذا منه غاية الرحمة و الشفقة، أن حذر أمته من الوقوع في أعظم جريمة على الإطلاق، وهو الشرك بالله ﷻ.

ومر معنا فيما مضى قوله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت المسيح ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله**»، كان النبي ﷺ حريصًا على سد أبواب الشر، أن تقع فتنةٌ بتعظيمه ﷺ ولو بأدق ما يكون،

في الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: ما كان أحدٌ أحب إلينا من رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم لم نقم إليه لما نعلم من كراهيته ﷺ لذلك، حتى مجرد القيام لمقلاة والسلام عليه كان النبي ﷺ يكره ذلك منهم، فما كانوا يفعلونه.

إذًا هذا توجيهٌ، وهذا نصحٌ، وهذا تنبيهٌ، وهذا سدٌ من النبي ﷺ لذريعة الشرك، وحمايةٌ منه ﷺ لحمى التوحيد، والله تعالى أعلم.

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ نَاسًا قالُوا: يا رسُولَ اللهِ، ياخَيرَنا وابنَ خيرنا، وسَيّدَنَا، وابنِ سيدِنا فقال ﷺ: «يا أيها النـاسُ، قولُوا بِقَـولِكُم، ولايَسْتَهْوِينَّكُم الشَـيطانُ، أَنَا مُحمـدٌ عَبْـدُ اللهِ ورَسُـولُهُ، مـا أُحِـبُّ أنْ تَرْفَعُوني فوقَ مَنْزِلتِي التي أَنْزَلَنِيَ اللهُ عز وجل»، رواه النسائي بسندٍ جيد.

حتى حديث عبد الله بن الشخير جاءت في الرواية عند أحمد «**ولا يستهوينكم**»، فهي موافقة أيضًا لهذه الرواية التي بين أيدينا، التي هي رواية حديث أنسٍ وهذا الحديث خرجه النسائي في الكبرى، والإمام أحمد، وغيرهما من أهل العلم،وهو حديثٌ جيد، بل قال ابن عبد الهادي في الصارم:إنه على شرط مسلم.

وهذا الحديث الذي بين أيدينا قريبٌ في المعنى من الحديث السابق،

قالوا: **يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا،** لا شك ولا ريب أن النبي ﷺ خيرهم بل خير الناس على الإطلاق، فهو خير الناس وصفًا، وحالاً، ونسبًا ﷺ.

في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٌ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»، فهذا مما لا شك فيه ولا ريب، وهو سيدهم وسيد الناس ﷺ، وهو الذي قال هذا فهو ﷺ سيد ولد أدم ولا فخر،

وكذلك قومه وأهله ونسبه خير نسب، وقبيلته لا شك أنها خير القبائل عند المسلمين، سوى من شذ من شذاذ أهل البدع، وإلا فأهل العلم على أن أفضل القبائل قبيلة النبي ﷺ وهي قبيلة قريش،

المقصود أن النبي ﷺ لما سمع هذا الكلام، وهو حق من حيث هو، هذا كلامٌ حقٌ بلا شك، ومع ذلك النبي ﷺ، ومع ذلك الرؤوف الرحيم بأمته ﷺ نبههم وحذرهم،

فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان**»، لا يوقعنكم الشيطان في مهاويه، وفي حبائله،

«**إنما أنا محمدٌ عبد الله ورسوله**» هذان الوصفان للنبي ﷺ أفضل ما وصف به ﷺ، بل هما أفضل درجةً يصلها بشر،

- أن تحقق فيه العبودية الخاصة لله تبارك وتعالى،
- وأن يكون رسولاً لله جل وعلا، وهكذا كان النبي ﷺ أفضل عبدٍ لله، وأفضل رسولٌ لله ﷺ.

✪ **وهذا الوصف منه ﷺ وهو الذي أرشد أمته إليه، أن يقولوا: عبد الله ورسوله، فيه فائدتان:**

الأولى: أنه كما كان هذا الوصف أفضل و أسلم وصفٍ وصف به النبي ﷺ.

وذلك أن هذا الوصف الذي فيه المدح العظيم له ﷺ لا ترتب عليه مفسدة،
ولا يفضي إلى شرٍ وفسادٍ على الإطلاق، بخلاف ما قد يكون من غيره من المدائح ومن الأوصاف، ولذلك إذا تأملت تحقق عندك باليقين أن أصحاب النبي ﷺ أعظم الناس محبةً وإجلالاً له ﷺ، ومع ذلك كيف كانوا يخاطبونه ﷺ؟ قالوا: يا رسول الله، قالوا: يا نبي الله، وبيقين نحن نعلم أنهم ما كانوا يتركون الوصف الأفضل، والوصف الأحق والأجدر الذي ينبغي أن يوصف به النبي ﷺ.

الثانية: أن قوله ﷺ:«عبد الله ورسوله» فيه ردٌ على طائفتي الضلال، على الغلاة، وعلى الجفاة،

❖ **أما قوله: «عبد الله»** ففيه ردٌ على الغلاة الذين غلوا في النبي ﷺ، فرفعوه إلى درجة الألوهية بل إلى درجة الربوبية، فهو عبدٌ لا يُعبد ﷺ،

❖ و في قوله ﷺ: **«ورسوله»**:فيه ردٌ على الجفاة الذين طعنوا في النبي ﷺ، ووصفوه بالشعر، ووصفوه بالكذب، ووصفوه بالسحر، وكفروا به ﷺ، فالرد عليهم في قوله **«ورسوله»** فهو رسولٌ لا يكذب.

ثم نبه النبي ﷺ إلى أنه لا يحب أن يرفع فوق المنزلة التي أنزله الله ﷻ، وذلك لكمال توحيده، وكمال أدبه مع الله جل وعلا، هذا درسٌ للمسلمين، درسٌ لأهل التوحيد والإيمان، أن عليهم أن يراعوا مقام الأدب مع الله تبارك وتعالى، وأن يحرصوا على التواضع، وأن يتجافوا عن مقام العُجب بالنفس، فإن العُجب كما ذكرت لك يتنافى مع كمال التوحيد،

الموحد المحقق هو الذي لا يُعجب بنفسه، هو الذي لا يخطئ طريق الذل والعبودية لله تبارك وتعالى.

الخلاصة التي نريد أن نصل إليها من هذا الباب، هي أن الشريعة اعتنت وراعت باب سد الذرائع إلى الشرك، وحمت حمى التوحيد، ومنعت كل أسباب وقوع القوادح في التوحيد، وأدلة هذا كثيرةً لا تكاد تحصى، ولاسيما ما يتعلق بالألفاظ التي تؤدي إلى الوقوع في الغلو، فإن الغلو مدرجةٌ إلى وقوع العبد في الشرك.

الدرس الخامس و الثمانون - ١٤٨٦

٦٧- باب ما جاء في قول الله تعالى:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر:67].

هذا الباب بَوب عليه المؤلف رحمه الله بآية الزُمر وقد أحسن ما شاء الله أن يُحسن في اختيارِ هذا التبويب، وجعلهُ أخر بابٍ من أبواب هذا الكتاب العظيم، حتى إنه صار كالتاج على مَفرقِ هذا الكتاب.

أنكر الله ﷻ على الكفار والمشركين كونهم ما قدروه حق قدره، في ثلاث آياتٍ في كتاب الله

- في سورة الأنعام:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام:91]
- وفي آية الحج: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: -74].
- وهذه الآية التي بين أيدينا:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

جميع الكفار والمشركين الذين جحدوا رسالات الله إلى أنبيائه، ووحيه الذي أنزله عليهم، والذين أشركوا مع الله ﷻ غيره، وهؤلاء الكفار والمشركون لو أنهم قدروا الله حق قدرِه ما وقعوا في هذا الظلم العظيم و حق الله أن يكون ربهم وإلههم ومعبودهم وحده لا شريك له،لكنهم ما قدروه حق قدره، ولذا سووه بغيره ﷻ. كيف يُسووا المخلوق الضعيفُ الفقيرُ بالإله العظيم الذي هو غني من كل وجه تبارك وتعالى.

كيف تختل هذه العقول، وكيف تنصرفُ عن الحق المُبين، لكنهم سيستبينون الأمر يوم القيامة، حينما يقولون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:97-98]، نعم هذه هي الحقيقة أنهم كانوا في ضلالٍ مبين، حينما سووا غير الله مع الله.

أرأيت لو أن إنساناً أتى إلى جوهرٍ ثمين هو أغلى الجواهر على الإطلاق، ثم وضعه في إناءٍ مع بعرة، ويُسوي الدُرَّ النفيس بالبعر الخسيس، يجعلهم على قدم المساواة، ويقول إنهما مثل بعض ويُشبهان بعض، وكلاهما لهما قدر! أهذا يفعله عاقل؟ فكيف بالله العظيم الذي يُسويه هؤلاء المشركون بمخلوقاتٍ ذليلة فقيرة معبودةٍ لله ﷻ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:1].

عدلوا غير الله ﷻ به فما أضل عقولهم، وما أرذل تفكيرهم، وما أعظم انحرافهم.

لو أنهم عرفوا الله ﷻ وعظمته حق المعرفة، ما وقعوا في هذا الأمر العظيم، والمنكر الفادح، يتركون عبادة المولى جل وعلا وحده لاشريك له ويتوجهون إلى عبادة أشجار وأحجار، إلى عبادة قرود، بل إلى عبادة فِروج، إلى عبادة أموات،

إذًا هذا الباب نبه فيه المؤلف رحمه الله على أن الله ﷻ لعظمتهِ فيجب أن يُوحد بالعبادة،

فكان هذا الباب دالًا على أنواع التوحيد الثلاثة:

- دلّ على توحيد الربوبية،
- والأسماء والصفات بدلالة المطابقة،
- ودلّ على توحيد الأُلوهية بدلالة اللزوم،

فإن الله جل وعلا لَما كان له العظمة التامة، ولما كان له الكمال المطلق، وجب أن يُوحد بالعبادة، وألّا يُشرك معه غيره، كما قال ﷻ:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:65].

لما كان هو الرب الخالق المدبر المتصرف، ولما كان لا سمي له ولا ندا ولا كُفء، كان واجبًا إذًا أن يكون المعبود وحده لا شريك له، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾

فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، ثبوت العظمة لله ﷻ ثبوت الصفات الجليلة والنعوت الجميلة له ﷻ من أعظم الأدلة على توحيده تبارك وتعالى بالعبادة، أنه يجب أن يكون المعبود وحده فلا يُشرك معه غيره.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾:

الله ﷻ يُنكر على الكفار والمشركين الذين كفروا به وأشركوا معه غيره ما قدروا الله حق قدرهِ،

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

والشأن أن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، الأرض كلها بما فيها بمائها وأشجارها وبحارها وجبالها بكل ما فيها، فإنها تكون يوم القيامة في قبضة الله تبارك وتعالى:

القبضةُ: في اللغة، ما يُقبضُ في اليد،

والله جل وعلا سيقبضُ الأرضين يوم القيامة بإحدى يديه تبارك وتعالى

فلعظمة الله ﷻ كل هذه الأرض بما فيها ليست بشيء أمام هذه العظمة، حتى إنها تكون بهذا القدر الحقير، حتى إن الله جل وعلا يقبضُها ﷻ بيده، **والسماوات تكون مطويةً بيمينة،**

الطي: **ضد النشر**، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[الأنبياء:104].

الصحيح في تفسير الآية:

أن السجل:يعني الصحيفة

وأن الكُتب: يعني المكتوبات يعني جنس ما يُكتب،

كما تطوي الصحيفة ما يُكتبُ فيها، فهي بهذه الدرجة من الصغر والحقارة أمام عظمة البارئ ﷻ حتى إنه يطويها جل وعلا، يكون ذلك بيمينه ﷻ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾

ثم عقب على هذا بأن نزّهَ نفسه وسبّحها فقال: ﴿ ﷻ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:67].

إذًا هؤلاء لما أشركوا مع الله وهو الذي اتصف بهذه الصفات العظيمة كانوا غير مُعظمين له حق التعظيم، ولم يكونوا قد قدروه حق قدرِه تبارك وتعالى، فنزه نفسه عن قولهم الذي كانوا فيه مشركين مع الله ﷻ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أنه قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ،فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ ،وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ :﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الآيَةَ.

الحَبرُ ولك أن تقول الحِبرُ يجوز فيها فتح الحاء وكسرُها، وهو العالِم من علماء اليهود،

هذا العَالِمُ أتى النبي ﷺ فقال **(يا محمد)**، وفي رواية يا أبا القاسم، **(إنا نجدُ)** يعني في كُتبنا، يعني في التوراة وهذا يدُلك على أن كُتب الله تبارك وتعالى اشتملت على إثبات الصفات لله جل وعلا، وأن ما فيها يؤيد ويشهد لِما جاء في كتاب الله وسُنة رسولِه ﷺ، كما سيستبينُ في أخر الحديث.

ذكر هذا الحَبرُ أنهم يجدون في كُتبهم **(أن الله تعالى يجعل السماوات على إصبع)**،

وجاء في رواية في الصحيحين **(إنه يُمسك السماوات على إصبع)**،

وجاءت روايةٌ ثالثة وهي **(يضع)**،

إذًا عندنا ثلاث كلمات في هذا الحديث ثابتةٌ في الصحيحين، **يُمسك ويَجعلُ ويضعُ**،

يمسك أو يضع أو يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى يعني التراب على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، سائر الخلق يعني بقية الخلق بقية المخلوقات يجعلُها الله ﷻ أو يمسكها أو يضعها على إصبع.

وهذا فيه فائدتان:

الأولى: بيان عظمة الله تبارك وتعالى، حتى إنها أمام عظمة الله ﷻ شيءٌ قليلٌ صغيرٌ حقير كلا شيء.

والأمر الثاني: إثباتُ صفة الأصابع لله جل وعلا،

والأصابع: مُفردُها إصبع، وهذه الكلمة جاء لها ضبطُ متعددٌ في لغة العرب أوصل ذلك الضبط بعض علماء اللغة إلى عشرة، لكن الأفصح والله تعالى أعلم إِصبَع بِكسر الهمز وفتح الباء.

المقصود أن هذا الحديث دلّ على ثبوت هذه الصفةِ الذاتية لله تبارك وتعالى فالله ﷻ متصفٌ بالأصابع، ولا شك ولا ريب أن أصابع الله ﷻ كذاتهِ، ليس هو فيها مشابهًا ولا مماثلًا للمخلوقين، كما أن ذاته لا تُماثل المخلوقين فكذلك صفاته، ومنها الأصابع لا تُماثل صفات وأصابع المخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:11]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:65]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:4].

إذًا نحن كما هو الشأن في بقية الصفات لله ﷻ الواردة في الكتاب والسُنة، كالوجه واليدين والساق والقدم والرحمة والغضب والاستواء إلى غير ذلك مما ثبت لله تبارك وتعالى، نُثبتهُ على ما وَرَد، ونعتقدُ أن الله ﷻ لا يُماثل في هذه الصفات المخلوقين،

والنبي ﷺ لما سمع هذه المقالة أَقر ثبوت الصفات لله جل وعلا، ولم يقُل كما يقول المحرفون للكلم عن مواضعه، إنك يا أيها الحبرُ مُجسم، أو إنك يا أيها الحبرُ مُمثلٍ مُشبه، أو إنك حَشويٌّ ضال، إنما أقره النبي ﷺ على ما قال، يدُل على هذا ما جاء في ختام هذا الحديث وهو أن النبي ﷺ **(ضحك حتى بدت نواجذه)** ثم تلى قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

ويُفسر لنا من هو من أعلم أصحابه بهِ، ومن أخصهم به، ومن أعلم الصحابة، ومن أعلمهم وأفهمهم لكتاب الله، وهو ابن مسعود رضي الله عنه فسر لنا هذا الضحك بأنه كان عن تصديق لهذا الحبر فيما قال، وأن هذه المقالة يشهدُ لها في كتاب الله ﷻ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فهذه الآية تشهد لِمَا ذكر هذا الحبر، الحبر قد ذكر الحق، وما جاء في كتابهم التوراة، صدّق بهذا النبي ﷺ، وبالتالي فإن هذه الصفة تكون ثابتة بإقرار النبي ﷺ وتصديقهِ لمقالة الحبر.

وإن من العجب العُجاب ما قاله أهل الكلام والبدع، الذين حرفوا الصفات حينما زعموا أن ضحك النبي ﷺ ها هنا إنما كان عن إنكارٍ لمقالة اليهودي، ويا لله العجب كيف يضحك النبي ﷺ وقد قيل في الله بغير علم، وشُبه الله بخلقهِ على زعمهم أهذا المقام مقام ضحك؟! أم مقام غضب لله ﷻ ؟

✵ عندنا أوجه تدل على بطلان هذا القول:

أولًا: كون النبي ﷺ قد ضحك من هذه المقالة، وهذا لا يمكن أن يكون على سبيل الإنكار في هذا المقام العظيم، وهو مقام الكلام في الله ﷻ بغير علم، أن يُتكلم في الله ﷻ بالباطل، بل هذا هو مقام الغضب لله تبارك وتعالى، مقام التسبيح كما جاء في حديث الأعرابي الذي سبق.

ثانيًا: كونه ﷺ استشهد بالآية التي معنا: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ فهذا مما يُؤيد أن هذا اليهودي قد قال الحق، والنبي ﷺ فرح بالحق، لا سيما وقد جرى على لسان من هو من ألد أعدائه.

ثالثا: كون الصحابي الجليل رضي الله عنه يقول تصديقًا لقول الحَبر.

أرأيتم كيف وصل الحال بهؤلاء المبتدعة، حتى زعموا أنهم أفهم لكلام رسول الله ﷺ ولحالهِ من أصحابه، بل من علماء أصحابه كابن مسعود رضي الله عنه؟ ابن مسعود العَالِم الحبرُ البحرُ الجليل صاحب رسول الله ﷺ، والذي هو حاضر يُشاهد الرسول ﷺ، ففهم أن ضحكه واستشهاده كان تصديقًا لقول الحبر، وهم يقولون لا، إنما كان هذا إنكارا لمقالتهِ، أهُم أفهم لكلام رسول الله ﷺ أم الصحابة يا أولي الألباب.

رابعا: لو كان الأمر كما زعموا لاستشكل هذا المقام جدًا، لأن القاعدة عند العلماء بالإجماع أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وأنتم تزعمون أن المقام مقامٌ ملتبس بدليل أنكم رميتم ابن مسعود رضي الله عنه بأنه ضل في الفهم وأخطأ الحكم، ومع ذلك فإن النبي ﷺ سكت عن البيان، فاتهمتم النبي ﷺ بأنه ما قام بالأمر الواجب الذي أوجبه الله عليه، وهو أنه يُبينُ للأمة الذي تحتاج إليه، لاسيما والمقام أهم المقامات على الأطلاق، فإن المطالب الإلهية التي تتعلق بالله ﷻ وبصفاته وبحقوقهِ على عبادة لا شك أنها أهم المطالب على الإطلاق.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ».

✵هذه الرواية فيها زيادتان،

➢ **إثبات صفة الهز**، الذي قبضه تبارك وتعالى من السماوات والأرض فإنه يهُزهُ ﷻ يوم القيامة،

➢ **وفيها أيضًا أن الله ﷻ يقول حينئذ: (أنا الملكُ، أنا الله)**.

وهذه الرواية في صحيحِ مسلم في أكثر من طبعة في حديث ابن مسعود وقد رواه في أول كتاب صفات المنافقين، الرواية **«أنا الملك، أنا الملك»**،

فلعل المؤلف رحمه الله وقف على نسخة أخرى فيها: **(أنا الملك،أنا الله)**. الله أعلم كيف هو الحال، والبغوي في شرح السُنة للبغوي نسب هذه الرواية بهذا اللفظ: (أنا الملك، أنا الله) لمسلم رحمه الله،

رواية (أنا الملك) جاء ايضا في احايث أخرى فيما ما يأتي:

أولًا: حديث ابن مسعود والذي في الصحيحين، أن الله تعالى يقول: **(أنا الملك)**، وفي رواية أخرى يقول: **(أنا الملك، أنا الملك)**، وإن صحت هذه الرواية التي بين أيدينا **(أنا الملكُ، أنا الله)**،

ثانيا: أما حديث أبي هريرة ﷺ ففيه أن الله تعالى يقول: **(أنا الملك، أين ملوك الأرض؟)**،

ثالثا: حديث ابن عمر ﷺ فيه روايتان، في رواية يقول: **(أنا الملك)** موافقة لحديث ابن مسعود، وفي رواية يقول؛ **(أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)**.

المقصود أن الله تعالى ينادي يوم القيامة فيقول **أنا الملك**، كما دل على هذا كتاب الله ﷻ:﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[غافر:16]، ثم يُجيب نفسه ﷻ فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر:16]، في ذلك اليوم يتجلى مُلك الله تبارك وتعالى، وينفرد ﷻ بالملك الذي لا يُشاركه فيه أحدٌ البته، ولذلك وصف الله سبحانه نفسه بذلك في كتابهِ فقال:﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والروايات الأخرى يقول: **«أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»**،

ولا شك أن هذا من الاستفهامِ الإنكارِي الذي يُرادُ به النفيَ، الذي يُرادُ به النفيُ، إن الله تعالى يتفرد بالملك، وأما هؤلاء الجبارون المتكبرون في الدنيا فإن الله ﷻ يجعلهم في أحقر حال، فيُحشرون كأمثال الذر، إنسان ضخم متكبرٌ متعالٍ يجعله الله ﷻ في صورة النملة الصغيرة، وهذا لحق لأن النبي ﷺ قد قاله:**«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، يطؤهم الناس»** أوقال:**«يغشاهم الذل من كل مكان»**

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيّ: يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ». أَخْرَجَاهُ. هذه الروايات التي جاء فيها اختلافٌ في الألفاظ فيما يتعلق بما يضع الله ﷻ على أصابعه، يعني منهم من يختصر في كلامه ومنهم من يختصر في روايته، ومنهم من يُتم روايته والله تعالى أعلم،

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى ،ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ ، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ السَّبْعَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟».

حديث ابن عمر رضي الله عنهما هذا قريبٌ في معناه مما مضى معنا في حديث ابن مسعود، لكن في هذا الحديث بحثٌ خاص، **وهو ما يتعلق بثبوت لفظ الشمال ليد الله تبارك وتعالى الأخرى.**

مما لا شك فيه ولا ريب أن الله تبارك وتعالى متصفٌ باليدين، ومما لا شك فيه ولا ريب أن إحدى اليدين توصف باليمين، ومما لا شك فيه ولا ريب أن كلا يدي ربنا جل وعلا يمين في الخير والبركة، فليست اليد الأخرى يد ناقصة كما هو المعروف والمعتاد عند الناس من أن اليد الأخرى ناقصة بالنسبة لليمين،

هل وصف اليد الأخرى بأنها شمال، ثابتٌ عن النبي ﷺ؟ المسألة فيها بحثٌ طويل عند أهل العلم،

- فممن أثبت ذلك عثمان بن سعيد الدارني رحمه الله في ردهِ على بشر وطائفةٌ من أهل العلم، واستدلوا على هذا بهذا الحديث، حديث ابن عمر الذي في صحيح مسلم
- وطائفةٌ من أهل العلم أَبَوْ وصف اليد الأخرى بالشمال، لعدم ثبوت هذا اللفظ عندهم عن النبي ﷺ وإنما يكتفون بالقول إن إحدى يديه يمين والأخرى هي اليد الأخرى، ويقفون عند هذا، وممن انتصر لهذا ابن خزيمة رحمة الله في صحيحه وطائفةٌ من أهل العلم.

والبحث راجع إلى هذه الرواية التي بين أيدينا،فالأقرب والله أعلم أن هذا اللفظ شاذٌ غير صحيح، وأن الصحيح أن يُقال كما في الرواية الأخرى لهذا الحديث اليد الأخرى، وهذا ما تشهدُ له روايات أو أحاديث أخرى عن النبي ﷺ، لكن العبرة فقط في مسألة الثبوت، إن ثبت قُلنا به وإن لم يثبُت لم نقُل به، ولعل هذا القول أعني عدم ثبوته أرجح والله تعالى أعلم.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ ؛ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

هذا الأثر عن ابن عباس فيه بيان عظمة الله تبارك وتعالى، وأن نسبة المخلوقات إلى الله ﷻ، كل شيء في السماوات والأرض وهذا الكون كله لا يساوي شيئًا، فهو كحبة خردل أو كخردلة في الكف،

الخردلة: نبته صغيرةٌ أو حبةُ نباتٍ صغيرة يُضرب المثل بها في الصغر، فهي شيء صغير جدا بالنسبة لعظمة الله تبارك وتعالى، وهذا الأثر رواه ابن جرير عن ابن عباس ومثله لا يُقال بالرأي فله حكم الرفع.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ؛ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ».

الحديث مُرسل، لأنه من رواية ابن زيد الذي هو عبد الرحمن عن أبيه زيد بن أسلم وهو تابعي، **والمرسل من قسم الحديث الضعيف**، ومعنى هذا الحديث إن ثبت عن النبي ﷺ، إثبات أن الله ﷻ عظيمٌ جدًا، حتى إن بعض مخلوقاته أكبر من بعض بما لا مناسبة بين هذا وهذا،

والكرسي: موضع قدمي الله ﷻ،

التُرس: هو القطعة من الحديد أو الفولاذ أو الجلد التي يَتقي بها المقاتل ضربات السيوف في المعارك،

وقيل أن التُرس: القاع المنبسطةُ من الأرض، **وهذا لعله أقرب بمناسبة الرواية التي تأتي بعده.**

المقصود أن هذا الحديث إن ثبت دالٌ على عظمة الله تبارك وتعالى، وأن هذا الملكوت كُله الذي فيه السماوات السبع والأرضين السبع شيءٌ صغير أمام كرسي الله ﷻ فكيف بالعرش، فكيف بالله العظيم ﷻ، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، فهو الواسع الكبير ﷻ.

وَقَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ ؓ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ».

هذا الحديث خرجه ابن حِبان في صحيحه بإسناد صحيح وفيه بيان عظمة الله ﷻ من جهة النظر أن النسبة بين الكرسي والعرش،فالكرسي صغيرٌ ضئيلٌ بالنسبة لعظمة العرش،حتى أنه كحلقة من حديد أُلقيت في فلاة، **الفلاة: هي الصحراء،**

النسبة بين حلقة من حديد وصحراء واسعة شاسعة، فكيف بالنسبة بين عظمة الله ﷻ وبقية المخلوقات العرش وما دونه!لا شك أن الله أعظم وأعظم وأكبر وأكبر.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالعَرْش فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ».أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ؛ قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.قَالَ: «وَلَهُ طُرُق».

هذا الأثر قد صححه الذهبي وغيره وفيه تحقيق معنى إسميين جليلين لله ﷻ، **وهما الظاهر والباطن،**

فالله هو الظاهر: الذي فوق كل شيء،

وهو الباطن: الذي لا يخفى عليه شيء.

وهذا الأثرُ يتعلق بأمر غيبي فله حكم الرفع وثبت صفةَ العلو لله ﷻ، والاستواء على العرش،

ومع كل هذا فالله جل وعلا لا تخفى عليه خافية لا من أعمال العباد الظهرة ولا من أعمالهم الباطنة فالله ﷻ يعلم السر وأخفى من السر: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:7]،

إما أن يكون السر هو ما تحدثت به حديثًا خفيًا لغيرك، فالله يعلمه ويعلم ما لم تتحدث به بعد

أو هو الذي أخفيته في نفسك، فالله يعلم ما في قلبك وما لم تفكر فيه وستفكر فيه فيما بعد

وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟»، قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

هذا الحديث فيه بحثٌ عند أهل العلم من جهة ثبوته فبعض أهل العلم ضعفه،

وبعض أهل العلم أثبته ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية وابن القيم كما في مختصر الصواعق،

والذي لا شك فيه ولا ريب أن هذا القدر الذي بين أيدينا قد دلت عليه الدلائل والشواهد، **فهذا المعنى ثابت لا شك فيه بأدلةٍ أخرى،**

لكن القدر الذي يتوقف في ثبوتِهِ على ثبوت هذا الحديث ما جاء عند أبي داود من تتمةٍ لهذا الحديث.

المؤلف رحمه الله اختصر هذا الحديث، وهو عند أبي داود بأطول من هذا

وفيهِ أن العرش على أو عالٍ ثمانية، هذا القدر من الحديث هو موضع الإشكال في ثبوت هذا الحديث، أعني إنه إن ثبت الحديث أثبتنا ذلك الأمر الغيبي، وإن لم يثبت الحديث لم نثبت هذا المعنى،

والمعنى الذي دل عليه هذا الحديث هو ما سبق الكلام فيه، وهو اجتماع هاتين الصفتين لله تعالى الظهور والبطون، فالله ﷻ هو الظاهر والباطن، هو العلي الأعلى الذي له علو الذات المطلق تبارك وتعالى، فهو فوق كل شيء على الإطلاق، وكل شيءٍ فدونه وتحته، ومع ذلك فالله لا تخفى عليه خافية،

وكان من الظلم العظيم أن يُتوجه بالعبادة لغير الله ﷻ: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:59].

قارنوا يا أيها الناس بين صفة الله ﷻ التي دلت الدلائلُ على أنها أعظم ما يكون، حيث له الكمال المطلق تبارك وتعالى وبين غيرِهِ مما يُشرك معه ﷻ: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:59]، لا شك ولا ريب أن الله ﷻ خير،وأن الله تبارك وتعالى هو المستحق للعبادة، وهذا هو التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

الوصية من الشارح في ختام الكتاب:

➢ **الوصية هي المداومة على مُدَارسة التوحيد والبحث والتأمل والقراءة والدراسة**، ولاسيما بهذا الكتاب الذي كما قد رأيت إنما هو آية وحديثٌ وأثر، وهذه المدَرَاسه تُعين الإنسان على الثبات على هذا التوحيد فإن الغفلة حاصلة والشيطان له وساوس، والشُبه كثيرة خطافة والتسلح بالعلم بعلم التوحيد من أسباب الثبات بعون الله ﷻ وتوفيقه من أسباب الثبات على هذا التوحيد.

➢ **فالله الله بالحرص على تعلم التوحيد ثم العمل**، التوحيد لابد أن يكون له أثر في قلبك وأثر في جوارحك، لابد أن يكون هدفك في الحياة السعي إلى تحقيق التوحيد، وأبشر بالخير فكل ثمرة طيبة يانعة من خيري الدنيا والأخرة؛ فإنها ثمرةٌ لتحقيق التوحيد فاحرص على أن تُصيب من هذا الخير بنصيب وافر،

➢ **ثم بعد ذلك يبقى عليك واجبٌ الدعوة إلى هذا التوحيد**. التي هي مقامٌ متعينٌ وحتم لازم على كل موحد، الدعوة إلى التوحيد أمر واجب يا أهل التوحيد وهو من أداء حق التوحيد، والله جل وعلا سيسألنا عن النعيم: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر:8]، فأي نعيم أعظم من توحيد الله تبارك وتعالى

➢ ما أحوجنا حين دعوتنا إلى التوحيد إلى مراعاة وملاحظة هذه الوصية العظيمة، أن نكون مُبشرين لَبقين، نحسن الكلام عن التوحيد، ونحسن إيصال التوحيد إلى الناس، بالأسلوب الحسن والكلمة الطيبة، أن نكون مُبشرين وألا نكون مُنفرين.

➢ ثم أن نتطاوع ولا نختلف إن من أعظم أسباب قوة دعوة التوحيد اتفاق أهلها وعدم اختلافهم، إن اختلاف دعاة التوحيد واختلاف أهل التوحيد، يعني ضعف دعوتهم ويعني قوة أعدائهم.

أسأل الله جل وعلا أن يُعينني وأياكم على طاعتهِ ومرضاته وأن يُسدد أقوالنا و أعمالنا، وأن يرزقنا اللإخلاص والسداد والهداية والقبول،أنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وآلهِ وأصحابه أجمعين.